لمحات

حَوْلَ المُرْشِدِيَّة

(ذِكْرَيات وَشهَادات وَوثائق)



نُورْ المُضِيْء مُرْشِد

لمَحَات

حَوْلَ المُرْشِدِيَّة

(ذِكْرَيات وَشَهَادَات وَوَثائق)

نُور المُضِيء مُرْشِد

الطبعة الأولى: بيروت ـ تشرين الثاني ٢٠٠٧
الطبعة الثانية: بيروت ـ كانون الأول ٢٠٠٧

تصميم الغلاف: الفنان هود بن نور المضيء مرشد
خريج جامعة سانتا هيلين ST. HELENS في بريطانيا

مطبعة كركي
قريطم - بيروت - تلفاكس: ٨٦٢٥٠٠ ١ ٩٦١+
print@karaky.com

إلى من يهاجمني سماحةً له

ولـمَن لا يهاجمني شكراً له

انتهى العمل بهذا الكتاب في منتصف سنة 2007 م

المرشديّة دعوة تعليميّة
وثقـافـة روحيّـة

محتويات الكتاب

مقـــدّمـــة

كتبت هذه اللّمحات كجوابٍ مبسَّطٍ على تساؤلاتٍ عديدةٍ حول المرشديّة وماهيّة عقيدتها وتاريخها. هذه التساؤلات جاءت إلى المرشديّين من الجوار، وكان المرشديّون شبه صامتين لا يتكلّمون عن حركتهم إلّا تكذيباً لإشاعاتٍ مغرضةٍ دون أن يعطوا نوراً عن تاريخ الحركة، عن شهدائها وكيفية مسارها.

بات يتكلّم الآن بعض المرشديّين بكل صدق عن طقوس المرشديّة وعن بعض أعرافها، ولكنّ الحركة ـ كلّ حركة ـ لا تُعرَف إلّا بنظرتها إلى الخير والشرّ أوّلاً، وبتاريخها ثانياً ونقبل كلّ شيءٍ بمعاشرة أفرادها، وتلمّس أفعالهم أهي طيّبة أم سيّئة؟.. وأقوالهم ووعودهم أهم صادقون بها أم كاذبون؟.. أهم متزمّتون يبغضون غيرهم أم أخيار طيّبو العشرة؟ لأنّ القولَ شيءٌ والفعل شيءٌ آخَر. فبالأفعال يقول الصادقون وليس بالألسنة فقط.

إنّ صدى معرفة الحقيقة في القلوب والأفكار لهو صعبُ الاحتمال في بدئه، فأنت عندما تعلم الحقيقة كما هي، قطعاً لن تراها وَفْقَ هواك أو وَفْق ميولك، فهي مرّة المذاق في الفم، ولكنّها لذيذةٌ في الأحشاء. عند معرفة الحقيقة يتنس الإنسان في بداية تلقّيها، نظراً للبعد الساحق بين ظنونه وأوهامه وبين ما صار يعلم. ولكنّه بعد أن يبدأ يتقبّل الحقيقة كما هي ـ وتقبُّله يأتي عادةً تدريجيّاً ـ تصبح له لذّةٌ بمعرفة الحقيقة ويعود لا يطلب غيرها، فهو يأنف أن يأكل إلّا من شجرة الحقيقة.

وسيجد القارئ في هذا الكتاب، كما آمُلُ، بعضَ بريق الحقيقة، فيعلم كم كذب أناسٌ وافتروا على المرشديّة من جهة ويعلم شيئاً صحيحاً عن المرشديّة من جهة ثانية. وأنا إذ أضع هذا الكتاب بين أيدي من يريد أن يعرف شيئاً عن حقيقة المرشديّين لا أتوخّى من وراء ذلك الدعوة إلى المرشديّة أو تبليغها إلى العالم، بل جلّ ما أتوخّاه أن أعطي صورةً حقيقيةً ولو مصغَّرةً عن الهويّة المرشديّة، خاصّةً وقد بات من حقّ الذين سألوا المرشديّين عن حركتهم أن يعلموا شيئاً عنها. وقبل هذه الأيّام لم يسألنا أحدٌ عن حقيقتنا. بل كانوا يسألون مَن وقفوا موقفاً سلبيّاً من المرشديّة فيزيدهم هؤلاء عمىً عنها.

اعتمدت في كتابة الأحداث على روايات المعاصرين من المرشديّين وعلى الوثائق الرسميّة ووثائق عربيّة وأجنبيّة، وأكثر ما اعتمدت مشاهداتي العينيّة وخاصّةً أنّي أكتب عن تاريخ أنا من معاصريه، وصدقها منها وبها.

إنّ أيّ اسم يرد في الكتاب يمتّ إلى أيّ عائلةٍ في معرض إيضاح الأحداث لا أقصد به النيل من هذه العائلة ولا مهاجمتها إنّما أعرض وقائع، وأنا نفسي لا أكنّ أيّ حقدٍ على أيّ إنسان عادى عشيرتي وأهلي فالحقد منبوذ من قلوب الأخيار. إنّما أقتدي بصاحب الدعوة المرشديّة مجيب بن سلمان المرشد الذي تقبّل جماعة الجوبة في أهله عندما جاؤوا إليه، وعاملهم تماماً كغيرهم من المرشديّين وهم الذين استعملهم الأغنياء كحربةٍ في مقتل أبيه وأمّه. كما أقتدي بهذا بمعلّم المرشديّة ساجي بن سلمان المرشد الذي محا العداوة التي كانت قائمة بيننا وبين الذين عادوا عقيدتنا محواً تامّاً احتار به المعادون أنفسهم.

وكثير من أفراد العائلات التي ناصبنا زعماؤها فيما مضى العداء أصبحوا من أصحاب المرشديّين. وكثيرون من كل العائلات التي ذكرتها بات لهم أصحاب من المرشديّين فنحن لا نكنّ أيّ عداءٍ لأحدٍ من هذه العائلات أو غيرهم أكانوا من أصحابنا أم لا. لذلك أتمنّى من كل العائلات التي ورد ذكر فردٍ أو أفرادٍ منها في معرض الكلام الموجع أثناء عرض الحقيقة أن تتفهّم هذا الأمر.

وأخيراً أشكر كلّ من ساعدني في هذا الكتاب بإبداء الرأي وأذكر منهم الأستاذ المؤرّخ محمّد أرناؤوط والأستاذ الباحث محمّد جمال باروت وكثيراً من المثقفين السوريّين من كلّ الطوائف والفئات. وأيضاً أشكر هؤلاء المرشديّين الذين ساعدوا بجلب الوثائق الضروريّة ومنهم ابني المهندس حيدر المرشد وأخي مرشد المرشد وأصدقائي الدكتور آصف صالح والمحامي منذر صالح العلي والأستاذ محسن العلي.

تمهيـــد

عن الأحوال المعيشيّة لدى الفلاحين

في جبال الساحل السوري[1]

إنّ الفلاحين السوريّين قبل الخمسينات كانوا في معظمهم من الفقراء، سواءٌ من يعمل لدى الإقطاعي أو من يمتلك أرضاً لنفسه. فالسهول الخصبة كان قد استولى عليها الإقطاعيّون منذ زمن الأتراك، أمّا الجبال والمرتفعات الوعرة فقد تُركت لأصحابها وذلك لقلّة إنتاجها، فما من أحدٍ كان يطمع بالاستيلاء عليها. ونظراً لاستيلاء الإقطاعيّين على السهول الخصبة، وجميع المناطق الصالحة بشكل جيّدٍ للزراعة، فقد باتت هذه الأراضي الزراعيّة لا تعطي إلّا القليل من قوّتها، وذلك لأنّ عمل العامل الزراعي المأجور لا يُقاس بأيّ شكلٍ بعمل المزارع صاحب الأرض. فهذا يتعب لأجل ملْكه، ويشيد ويبني وينصب الأشجار المثمرة وما إلى ذلك من الزراعات، ويعمل على استصلاح أرضه، أمّا الأوّل فلا يكاد يفكّر إلّا بقوت يومه أي بمحصولٍ يقيه نصيبُه منه الموتَ جوعاً. وحصيلة القول أنّ الأراضي الخصبة أصبحت كلّها بحوزة الإقطاعيّين. وهذا يعطينا فكرةً عن تدهور الإنتاج الزراعي السوري، وأصبح لا يمثّل شيئاً من عطائه التاريخي الشهير.

تكوّن القرى

لم يكن هنالك قرية بالمعنى الكلاسيكي للقرى بل القرية إن صحّت تسميتها قرية ما هي غالباً إلّا تناثر حارات بقرب بعضها تكون قريبةً لعين ماء. ويسكن عند كلّ عينٍ عادةً عائلة كبيرة أو أكثر من عائلة وهكذا تكوّنت الحارات. وأكثر الأحيان تأخذ الحارة اسم حارة بيت فلان وحارة بيت فلان. أي تجمّعات عائليّة منفردة أو منفصلة قرّبها إلى بعضها تواجد عيون ماءٍ متقاربة.

(١) جبال الساحل السوري: كان الساحل السوري يضمّ قديماً ساحل اسكندرون واللاذقية ولبنان حتى فلسطين. وكلّ سكان هذه الجبال، جبال الساحل، كانوا يشتركون تقريباً بثقافة واحدة من حيث العادات والتقاليد والفلكلور رقصاً وغناءً وتكاد تتشابه هذه التقاليد حتى في الثياب. والغريب في الأمر أنّ اختلاف الأديان والمذاهب لم يؤثر كثيراً على هذا التشابه بل كانت تقاليد الأعياد الدينيّة العامّة والشبه دينيّة متشابهة أيضاً.

البيوت والمواشي

أمّا بيوت الفلاحين فكانت في الجبال تُشاد من الحجر غير المثقف، يسمّونه (حجر غَشِيم) أي ينتقون الأحجار ويعمّرونها على بعضها بدون أدنى تهذيب لها، ثمّ يسقفون البيت بجذوع الأشجار (مدود) ويضعون فوقها ما تيسّر لهم جمعه من الأغصان ويهيلون فوقها التراب، ثمّ يقومون بتطيين السطح كي يحتمل الأمطار، ويحدلونه بحجرٍ كبيرٍ مهذّبٍ ومجهّزٍ لهذا الغرض يسمّى (المعرجلينة) وكان كلّما نزلت الأمطار يحدث خرقٌ في السطح، فيتسرّب المطر إلى داخل البيت من السطح على شكل نُطَفٍ ووَكْف، فيسارع أهل البيت إلى حدله (بالمعرجلينة) فيتمّ سدّ هذا الشق. وكثيراً ما يتنازع أهل البيت الواحد بشأن مَن منهم يقوم بهذا العمل وخاصّةً أثناء الليل أيام الشتاء الباردة. وكل بيت كان يحتوي على عنبر لأجل المؤونة تُختزن به الحبوب، ومعظم البيوت (والبيت غرفة واحدة) إن لم أقل كلّها بها مستويان، المستوى الأعلى للعائلة والمستوى الأدنى للدواب، والبقر يكون عددها اثنين في المعظم والانتفاع الرئيسي منها في الفلاحة، وبما أنّ الماعز كان عماد الثروة الرئيسي من حيث الحليب ومشتقاته فقد كانوا في الأغلبيّة يحضّرون له داراً خاصة به. أمّا الدجاج فيكون لها (قن) بجانب البيت. لم يكن هناك أي نافذة للبيت فأنت عندما تدخل إليه في النهار تكاد لا ترى شيئاً ثمّ بعد أن تجلس قليلاً يعتاد بصرك على هذه الظلمة النهارية تدريجيّاً فتصبح قادراً أن تحقّق الأشياء، وفي الليل يستضيئون على (البصبوص) وهو عبارة عن علبة من التنك (أو غير التنك بالقديم) صغيرة جدّاً يضعون بها كازاً وفي القديم كانوا يضعون زيت الزيتون - قبل استعمال البترول للإضاءة كانوا يستضيئون بزيت الزيتون - ثم ينزلون بها فتيلاً يصنعونه من بقايا الألبسة المهترئة ويشعلونه ويستمرّ الكاز أو الزيت لربّما لأمسية أو أكثر. وكان للبيت في المنتصف مثل حفرة صغيرة تدعى (الدفي) يضعون فيها حطباً مقتطعاً من الغابات المجاورة ويتدفّؤون على نارها في الأمسيات حيث تجري حكايات الجن والأبطال القدماء وما إلى ذلك من روايات. وعندما ينتقل أحدهم في الليالي غير المقمرة يأخذ معه عوداً مجمّراً من (الدفي) يسمونه (كوكيش) للاستضاءة به في الليل البهيم، أمّا العائلات الميسورة جدّاً (نسبيّاً طبعاً) فعادة تكون عند العائلة منهم غرفة دون دواب وتكون حجارتها مثقفة نوعاً ما وأخيراً صاروا يفتحون شبابيك في الغرف ويجلبون صوبات الحطب عوضاً عن (الدفي).

الوحوش البريّة

إنّ الوحوش البريّة ساكنة الأعالي كان منها ما هو خطرٌ فعلاً وأكثرها خطراً كان الضباع والذئاب، أمّا النمور وهي أقرب إلى كونها فهوداً لصغر حجمها فقلّما كانت تُرى في

الدروب، ولكنّ أصواتها كانت تُسمع عالياً وأنت في القرية سواء أكانت القرية شرقي الجبل أي في الملزق[1] أم غربي الجبل. أمّا ابن آوى والثعلب فكان اختصاصهما افتراس الدجاج من حظيرة الفلاح الصغيرة التي كانوا يسمّونها (قنّ الجاج). وأصوات الذئاب كانت تُسمع في القرى القريبة إلى قمم جبال الشعرا[2] تقريباً بشكلٍ متواصلٍ، أمّا الثعالب فتسمعها أينما كنت.

حكايات كانت تُروى حول النار في الشتاء عمّا فعل النمر أو الضبع بفلانٍ أو بفلانةٍ، وأكثر الحكايات كما في أرياف العالم الجبلي تكون العجوز هي اللّقمة المفضلة للذئب أو الضبع (الضبعة)، وهنالك الشّيب الذي لو رأيته لشاب شعر رأسك. وكذلك كان للحيّات مكان في هذه الحكايات ليس بالقليل، وفعلاً كان سمّ حيّة الجبل قاتلاً على عكس حيّة الماء كما كانوا يدعونها، وهذه تتواجد شرقي الجبل فعضّتها لم تكن تخيف كالأولى.

المواصلات والتنقّل

أمّا طبيعة الاتّصال بين القرى وبين الريف والمدينة فكانت بواسطة دروبٍ فُتِحَت تلقائياً من كثرة المرور عليها، أي لم يفتحها أحد بل تعوّد الناس أن يمرّوا بالمكان الأسهل وأحياناً أخرى الأقرب، فأصبحتَ ترى دروباً بين أشجار الجبال الكثيفة والوعرة في معظمها، بالكاد يمكنك التعرّف عليها، أمّا أهالي الجبال فلا ترى واحدهم إلّا وقد عبر منطلقاً بين الأحجار يقفز من صخرةٍ إلى صخرةٍ، وأكثرهم رجالاً ونساءً وأولاداً يطلقون لأصواتهم العنان فيُسمع صداها الجميل في تلك الوديان، وكأنّ الوديان صارت تتكلّم لنفسها.

أكثر الجبلتين لم يزُر المدينة في حياته ومَن يزُرها تصبح له شهرة بينهم: فلان ذهب إلى المدينة الفلانيّة !.. يجتمعون حوله في الليالي ليروي لهم مغامراته، وأكثر المدن المطروقة يومها من جهاتنا في الجبال كانت أنطاكية.

---

(١) الملزق هو السفح الشرقي لجبل الشعرا بجانب مياه الغاب سُمّي بالملزق لقربه من السهول التي كانت تغمرها المياه شتاءً.

(٢) الجبل الذي يسمّى بجبل الشعرا هو منطقة طويلة نسبياً من قمم جبال الساحل المطلّة على سهل الغاب من جهة الشرق وعلى مدينة اللاذقية وعلى البحر من جهة الغرب من مسافة بعيدة نسبياً. ونغطي الشعرا غطاء نباتياً متمثلاً بغابات السنديان والبلوط والصنوبر بشكلٍ رئيسي ويقدّر طولها بحوالى ٣٠ كيلو متراً من حدود محافظة طرطوس جنوباً وحتى جبل صلنفة شمالاً ويتراوح ارتفاع هذه القمم بين ١٣٠٠ - ١٥٠٠ م.

وقد يقضي ساكن الجبل حياته كلّها لا يتعرّف إلّا على بعض القرى التي عليه أن يذهب إليها، فكثير من سكّان غربي جبل الشعرا يذهبون في الشتاء إلى قرىً صغيرة في الملزق شرقي الجبل لترعى مواشيهم في السهول الممتدّة بجانب المياه في الغاب. وكان الغاب عبارةً عن مستنقع كبير يمتلئ بقصب الزلّ الطويل، ويتنقل سكان القرى التي تقع في منتصف المستنقع من مكانٍ إلى مكانٍ بواسطة قوارب صغيرة وكبيرة أو عندما يكون لهم عمل في الملزق. وكان سكان الغاب سواء الملزق أم القرى التي في وسط المياه يستفيدون من المياه بصيد السمك والسلور والغريري (أي دجاج الماء) والبط. أمّا عندما يجفّ الماء صيفاً أو عندما يبدأ بالجفاف، فيسارعون إلى زراعة الذرة في الأراضي التي تكون مغمورةً بالمياه. ومن بداية جفاف الماء يصبح الناس يذهبون سيراً على الأقدام بين قصب الزلّ، ويشمّرون عن أرجلهم إلى ما تحت الركب كي يتجنبوا تلويث ثيابهم وأحذيتهم (ممّن كان عنده حذاء) من البلل. أمّا جلب المياه من العين فإمّا بواسطة جرّة فخارية تحملها النساء على أكتافهن، وإمّا بواسطة (الراوي) وهي تصنع من الجلد كالظرف وتُملأ بالماء وتُحمَل على ظهر دابّة وتُساق الدابّة من العين إلى البيت.

الوجهاء والمشايخ

كان الغنيّ من سكّان الجبال مَن يستطيع إطعام أهله بشكلٍ جيّدٍ نسبيّاً كلّ أيام السنة، وإلباسهم ثياباً مقبولة إلى حدٍّ ما نسبيّاً مع نظرائهم من سكّان القرية. ومنهم مَن يستطيع أن يقتني فرساً أو لربّما أكثر، ويفتح بيته للضيوف الذين يَنشدون الطعام. ومن يفعل هذا من الميسورين يُحمَد أثناء الكلام ويُعزى له الفضل، يُقال: فلانٌ كريم، بيته مفتوحٌ للناس. وفلانٌ بخيلٌ على يُسره، يُذَمُّ ويُهجى. فضريبة اليُسر بين فلّاحي الجبال كانت كرم الضيافة، فأنت إن كنت ميسوراً سيُطلب منك أن تكون كريماً، فإذا بخلت، فعليك أن تتحمّل مقابل ذلك الذّم والقدح، فأنت ستضطرّ حتماً إلى فتح بيتك ولو جزئيّاً، فتخفّ عنك تهمة البخل إلى درجةٍ ما.

وبهذا الوضع الاجتماعي ظهرت العائلات المعروفة أو الوجهاء، فهؤلاء أصبحت لهم الكلمة في القرية أو في لفيف قرىً متقاربةٍ من بعضها، فهم الذين يجدون حلاًّ للمشاكل، ويقضون بين الناس إلى جانب المشايخ طبعاً.

وكان المشايخ لديهم الكتب (القرآن) قبل كلّ قول ثمّ خطب وأقوال منسوبة إلى عليّ وأقوال منسوبة إلى جعفر الصادق وغيره من الأئمة، وديوان الحسين بن حمدان الخصيبي ٢٦٠ ـ ٣٣٤ هـ، ورسائل منسوبة إليه لا تكاد تتفق في شيء مع أشعار ديوانه الجميلة،

وديوان المتجب محمّد بن الحسن العاني ٣٣٠ ـ ٤٠٠ هـ، ورسائل المشايخ القدماء وبعض الكتب التي لا يُعرف مصدرها وهي كتب عن حسابات مدار الفلك أي حساب التواريخ وكتب الأبراج. وكتب عن الرقية وعن الاستطباب وكانت لا تخلو صناديق بعضهم من كتب فلسفيّة يونانيّة أو منسوبة إلى اليونان على الأقلّ وغيرها.. وغيرها.

كان المشايخ يعلّمون الناس القراءة والكتابة بتعليمهم القرآن، وأكثر الناس كانوا لا يتعلّمون الكتابة ومنهم مَن يتعلّم القراءة فقط، وكان مفترضاً بالشيخ أن يكون قارئاً كاتباً وإلاّ تعرّض للسخرية من جماعات القرى وفَقَدَ احترامه بين الناس، وأن يكون عنده كتبٌ كثيرة، وأن يقرأ غيباً مما حفظه من كتب دينيّةٍ شتّى عند اجتماعهم للصلاة، وبقدر ما تطول قراءته بقدر ما يشار له بالعلم. وكان المشايخ هم الذين يعقدون القران، ويصلّون بالناس أثناء الأعياد، ويصلّون على الميت، ويكتبون الحجابات التي توقف الجان عند حدّهم كما يزعمون، وكان الناس يأتونهم للشفاء من الأمراض بكتابة الأدعية. طبعاً يأخذون زكاةً عن كلّ ذلك. وأحيلت هذه القدرات إلى مزاراتٍ هناك مختصّة بشفاء الأمراض حتى بات لكل مزارٍ شبه اختصاص لشفاء مرض معيّن. وقلّما كان يخلو مجتمع في العالم من مثل هذه العادات البدائية سواء أكان إسلاميّاً أم غير إسلاميّ.

مقامات للتقديس!!

أقام زعماء المشايخ أضرحةً سُمّيت بالمقامات وأكثرها قببٌ لقبور آبائهم وأجدادهم، وعلّموا الناس أن يذبحوا عندها ذبائح تقدمة ككفّارة عن كلّ ذنب يقترفونه. وادّعوا أنّ هذه المقامات بها أسرارٌ للّه، يقولون مثلاً: هذا الشيخ به سرّ، أي أنّ الشيخ صاحب المقام يستطيع أن يضرّ مَن يتكلّم عنه بسوء، وينفع مَن يرجوه أو يشفيه إن كان مريضاً، وهكذا اعتبرت مقامات مقدّسة يزورها الناس ويلتجئون إليها طالبين حمايتها ويقدّمون لها التقدمات إسكاتاً لغضبها.

الجان تسكن الجبال!!

كان المشايخ يستعملون كتاباً يسمّونه كتاب الحكمة لشفاء أمراض الناس وبهائمهم وإيجاد البهيمة الضالّة في الغابة. وكان كتاب الحكمة هذا يصوّر العلل على أنّها تأتي من الجان فالمجنون تسكنه الجان، والشلل ضربة من الجان وكذلك بقيّة الأمراض. وأنت عندما تخرج من الباب أو تقطع ساقية ماء عليك أن تقرأ كلمات معلومة، يعلّمك إيّاها المشايخ كي لا يضربك الجنّي فيأخذ عقلك أو يشلّك أو يصيبك بعلّة ما، حتى امتلأ هذا المجتمع الزراعي بالجنّ كعادة كلّ مجتمع زراعي وبدائي أو شبه بدائي.

القصص الشعبيّة

وككلّ الشعوب، كان عند سكان جبال الساحل كتبٌ حول أساطير أهمها «الملك سيف بن ذي يزن» بمجلّداته الأربعة وهو كتاب مليء بالخيال وبمعظمه جميل ومحفّز، ثمّ «فيروز شاه» بمجلّداته الأربعة الضخمة، وقصصٌ كثيرة من كتاب ألف ليلة وليلة الشهير عالمياً، ثمّ تأتي سيرة عنترة بن شدّاد العبسي (عنتر) وسيرة الزير سالم وسيرة بني هلال ولعلّ الأخيرة كانت أوسع انتشاراً وتلقى تجاوباً أكثر من غيرها غناءً ونثراً، وكان لقراءة الدواوين لحنٌ خاصٌ وتجتمع العوائل حول القاصّ، وهذه الدواوين لم تكن منتشرة في جبال الساحل فقط فقد عمّت كلّ المنطقة السورية اللبنانيّة.

استيحاش مجتمع الجبال المنعزل

كأنّ وحشة المجتمع كانت انعكاساً للطبيعة الفقيرة التي يعيش فيها هذا المجتمع، فلباس الرجل يكاد لا يغطّي كلّ جسده حتّى في الشتاء، وهو عبارة عن سروالٍ أكثر الأحيان يكون بالياً، وقميص إذا صحّت تسمية قميص. أمّا العباءة والقنباز فللوجوه فقط وللمشايخ. وكان واحدهم يحافظ عليهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لأنّه إذا ضيّعهما ليس من السهل أن يأتي بمثلهما.

إن الاقتتال بين العشائر كان مظهراً أو مرآةً لما يدور داخل العشيرة نفسها من اقتتالٍ في العائلات الكبيرة والذي كان بدوره تظاهراً أو مرآةً لما يدور في العائلة الصغيرة (الأخوة) من اقتتالٍ، ككل مجتمعٍ زراعيٍّ فقيرٍ.

ومن جهة أخرى نرى أنّه كان هنالك تعاون جماعي بشكلٍ كبيرٍ في القرية ذاتها، فمثلاً تراهم عندما يطيّن أحدهم بيته يتجمّعون لمساعدته من حاراتٍ كثيرةٍ، فقد كانوا يضعون طيناً على الجدران الداخليّة والخارجيّة للبيت ليحمي البيت من الهواء والأمطار والثلوج وجميع عوامل الطبيعة. لقد كانوا يتعاونون في جميع هذه الأمور كسقف البيوت، أو عندما يدقّون الحنطة لتصبح برغلاً يأتي الشباب والصبيان ويتنافسون في دقّ الجرن، وكذلك عند تطيين أسطح المنازل حيث تضطرّ البنات والنساء إلى الكشف عن سيقانهن قليلاً، وهنا يجتمع الشبان للنظر إليهن. وكانت النساء عادةً يغتسلن ويغسلن الثياب عند العين. يجتمعن من عائلات الحارة ويضعن غطاءً خارجياً ليمنع النظر إليهن. وأيضاً في الحصاد كانت تجتمع الضيعة جماعات جماعات. وأكثر الاجتماعات الشعبية تكون في الأعراس وفي الوفيات وفي الأعياد الكثيرة.

في غياب الحكومة أو أي نوع يمثّل الحكومة في جبال الساحل أصبح حفظ النظام للشيوخ والوجوه، حيث يحاولون المصالحة بين العائلة والعائلة، وتجتمع الوجوه من كل حدبٍ وصوبٍ كي يجدوا حلاًّ، ويوقفوا الاقتتال سواء العائلي أم العشائري. ولكن لم يكن بإمكانهم أن يعاقبوا بل فقط أن يصالحوا.

يمتلك الفلاح عادةً بعض الدوابّ من الماعز، وكان جلّ اعتماد الفلاح على الماعز الذي ليس عليه أن يطعمه، بل يرعى الماعز من أحراج الجبل، وأحياناً يمتلك الفلاح بقرة أو بقرتين لا تكادان تدرّان شيئاً من الحليب نظراً لفقر العلف، ويشترون الثياب والأغراض الضروريّة من البائعين المتجوّلين مقايضةً بالبيض وما شابه من إنتاجٍ محلّي. أمّا المال فنادراً ما كان يتواجد إلّا مع الميسورين منهم ولم يكن بالمال الكثير.

مصادر الدخل

كان اعتماد سكّان الجبال في الزراعة على الحبوب كالحنطة والشعير والحمّص والعدس، وعلى الدخّان الذي كانوا يبيعونه للتجّار قبل الاستقلال وكان أكثر اعتمادهم عليه بعد الماعز، وقامت الدولة باحتكار الدخّان في زمن الشيشكلي، وباتت تعطي أسعاراً زهيدةً جدّاً، حتى كاد الناس يُقلعون عن زراعته. وكثيرون منهم يزرعونه ليبيعوه في السوق السوداء لا للدولة، وتجري ملاحقات الدرك والورديان ـ كما كانوا يسمّون رجال مكافحة تهريب الدخّان ـ للناس الذين يفعلون ذلك.

وأضافت الدولة إلى ظلم الطبيعة ظلماً آخر، فقد منعت الناس من قطع الأشجار أو حتى الأغصان وذلك بحجّة تنمية الثروة الوطنيّة من الغابات، متجاهلةً الإنسان الذي لولاه لما كان هنالك شيءٌ يُدعى وطناً.

وكان من نتيجة ذلك أنّ الناس الذين كانوا يحمون الأحراج قد أوقفوا هذه الحماية، ونظراً لعدم إمكانيّة الأهالي الاستدفاء في الشتاء إلّا على نار الحطب فما فتئوا يقتطعون الحطب من الغابات خفيةً عن أعين رجال الدرك ومأموري الأحراج، أو تحت أنظارهم بعد أن يرشوهم، أو حتى أنّهم يخاطرون بالسجن وبالعقوبة عند الضرورة ولا يمتنعون عن قطع الأشجار للتدفئة، فمن الاستحالة العيش بهذه المناطق الباردة بلا نار. وبذلك أخذت الغابات تفنى لعدم حمايتها، وكانت قد درجت العادة قبل تدخّل الحكومة أنّ كلّ عائلةٍ تحمي أحراجها، وأن تقطع منها بعض الأخشاب، ولا تقطع إلّا الأشجار الميّتة أو الأغصان التي ستنمو بعد قطعها. أمّا بعد العمل بقانون الأحراج بات الناس يسرقون ما كانوا يملكونه سابقاً، ولا يتنبهون أثناء القطع كي يقتطعوا الأخشاب بصورةٍ لا تضرّ الأحراج، فهي لم تعد ملكهم.

وحزمت الدولة على هؤلاء الفقراء تربية المواشي من الماعز حفاظاً على الأحراج، وعيّنت موظّفين لحمايتها، وبذلك لم يبق للفلاّح شيء. فأخذ الشبّان منهم ينخرطون في الجنديّة نجاةً من الفقر المدقع، وآخرون يضربون في أنحاء الأرض طلباً للعمل. وهكذا بدأت الهجرة إلى المدن للعمل والسعي لنيل الوظيفة سواء في الجيش أو في غيره، أو الذهاب إلى لبنان للعمل في البناء. ممّا قاد إلى اعتناء الأهل بدراسة أبنائهم كي يحتموا من الفقر والعوز. وانتقلت هذه الرغبة إلى الريف فظهرت ظاهرة الشباب المثقّف في الريف السوري، وفي الأحياء الفقيرة من المدن التي هاجر إليها أهل الريف طلباً للرزق. وكان هذا الكمّ المتصاعد نواة للأحزاب التقدّميّة الجديدة.

سكّان المدن

إنّ سكّان المدن السوريّة ما كانوا في الحقيقة إلّا تجّاراً يتجرون مع الريف وحرفيّين يعتمدون على الريف لتصريف إنتاجهم إذا استثنينا دمشق التي كانت تصدّر المصنوعات الشاميّة إلى الخارج ومنها العبي والجلابيب إلى الجزيرة العربيّة. وكان عدد سكّان المدن الصغير لا يكاد يُقاس بأعداد الريف الضخمة، فهم السواد الأعظم في سورية قبل الاستقلال وبعده بسنواتٍ كثيرة.

كانت سورية بلاداً زراعيّة بكلّ معنى الكلمة يتحكّم بالزراعة فيها الإقطاعيّون وهم وحدهم العائلات الغنيّة. وكان بين سكّان المدن كثير من الجنسيّات الأخرى غير العربيّة في جذورها التاريخيّة كالأتراك وكالأكراد في دمشق الذين انخرطوا في المجتمع العربي الدمشقي، ولم يَعُد لهم أيّة صلةٍ بجذورهم القديمة، أمّا أكراد شمال البلاد فقد احتفظوا بلغتهم وعاداتهم الكرديّة وهكذا الشراكس المتواجدون بعدّة نواحٍ من البلاد. كذلك الأرمن الذين اشتهروا ببعض الحِرَف لا يضاهيهم بها أحد، كما اشتهروا باستحالة نطقهم باللّغة العربيّة بشكل سليم.

جذور الإقطاع

إنّ الزعماء الإقطاعيّين الذين حكموا البلاد أثناء حكم الفرنسيّين والذين ألّفوا ما أسموه بالكتلة الوطنيّة في عشرينات القرن العشرين كان أغلبهم ذوي جذورٍ تركيّةٍ ومنهم جذورهم كرديّة.

ووجدت مخطوطاً ينتهي تأريخه في بدايات القرن الحادي عشر الهجري يصفه كاتبه

بقوله: «كتاب تحقيقات خبر في أنساب الأسر في عائلات نصيريّات في جبال دولات عاليات باب عالي عثماني ترقيم أحوال إنسابات ـ شخصيات داخليّات في معاملات ألوية سورية ونصرات تحقيق الكاتب عبد الله العاملي في أحوال شخصيّات.. ضرب سنة / ٩٨٥/ هجريّات / ١٠١٥ هجريّات محفوظات أستانة».

يتحدّث هذا المخطوط المرفوع والمصدّق من الباب العالي عن توطين الأتراك في سوريا وغيرها بما يلي:

«في عام ١٠١١ هـ صدرت فرمانات عديدة تتضمّن تسهيل استيطان الأتراك في أراضي الولايات الجديدة، وأعدّت لذلك المواطن وذلك بهدف السيطرة الكاملة على البلاد والعباد ونشر الأعمال العثمانيّة في كلّ الاتجاهات، وأوكلوا إليهم كل المسؤوليات الإدارية في بلادهم من الولايات، فقد كانوا جميعاً من العثمانيّين وأقربائهم في السلطة، وأسندوا السلطات الجزئية إلى الأسياد الذين سخّروا أنفسهم لخدمة السلطان وأصبحوا بالمناسبة والمصاهرة من أسر الأتراك مرهوبي الوجود والجانب من مواطنيهم وأهاليهم»[1].

إنّ هذه العائلات التركيّة التي سكنت في بلادنا وحَكَمت الشعب السوري أثناء الحكم العثماني مئات السنين، وأيضاً كانت هي الطبقة الحاكمة خلال الحكم الفرنسي وبدايات الحكم الوطني. كانوا قد تكاثروا في البلاد نتيجةً لتوارث الباشاوات التركيّة لما كان يُسمّى (بشالك) أي الولاية.

وأحياناً يكبر البشالك وأحياناً يصغر تبعاً لسياسة السلطنة نحو هذا الباشا التركي المُعطى له البشالك، وأحياناً تتغيّر عواصم البشالك نفسها. وخلال أربعمائة سنةٍ من الحكم العثماني تكاثرت هذه العائلات التركيّة الأصل في وطننا فكان يُقْتطع لهم من قبل السلطنة أراضٍ شاسعة من بلادنا، وهكذا تكوّن الإقطاع الذي نعرفه في سورية. فهم كانوا حكّام سورية في زمن حكم السلطنة التركيّة، وبقوا حكّامها زمن الحكم الفرنسي وبعده، فهم العائلات التي لا يمكن منافستها نظراً لأنّهم أغنياء البلاد ومالكو أراضيها.

أمّا من حيث كثرة أفراد هذه العائلات فتعود إلى أنّه عندما كان يخلع الصدر الأعظم ـ أي رئيس الحكومة ـ باشا تركيّاً ويُرسل باشا تركيّاً جديداً بدلاً من الأوّل أنّه يبقى الأوّل في

---

(١) هذا المخطوط ما زال بحوزتي.

بلادنا ـ إلّا إذا أُعيد تعيينه والياً في ولاية أخرى ـ يبقى بصفة إقطاعي بعد أن يكون قد اقتُطِع له أو استولى على أراضٍ شاسعة من البلاد ويبقى أولاده وأقرباؤه وأولادهم وأولاد أولادهم، وهكذا تكاثر عددهم في سورية على مرّ الأيام أمّا الإقطاع فلم يكن وقفاً على العائلات التركيّة فكان هناك إقطاعيّون أكراد وعرب، فمن يدفع للصدر الأعظم ما يرضيه تُقتطع له أراضٍ من بلادنا مع فلاحيها طبعاً. فقد بقي العثمانيّون يتوافدون على هذه الصورة ويتزايدون في البلاد السوريّة حوالى أربعمائة عام. هذه العائلات التركية الأصل وغيرها من غير العرب كالأكراد في دمشق الذين تواجدوا في البلاد من عهد الأيوبيّين وأقدم.. كانت قد نسيت لغة بلادها الأولى وأصبحت عربيّةً كغيرها أو بقول أصحّ تكوّنت منهم ومن العرب القدامى في المدن بنيةٌ جديدة شكّلت مجتمع المدن السوريّة الحديث.

هؤلاء الأغنياء ذوو الأصل التركي كانوا يأبون مصاهرة غيرهم[١]، ويعتبرونهم دون مستواهم، فالعائلة الغنيّة ذات الأصل العريق لا تصاهر إلّا عائلةً تراها من مستواها كالعادة في كلّ مجتمع. وهكذا لم ينصهر مجتمعهم في المجتمع العام بل بقي محافظاً على نفسه. تماماً كالطبقة الأرستقراطيّة مالكة الأرض التي كانت هي الحاكمة في العالم قبل حدوث الثورة الصناعيّة التي توالت الحدوث في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أوروبا ثمّ أميركا ثمّ اليابان وروسيا، وكثيرٍ من البلدان الأخرى.

الثقافة العثمانيّة لزعماء الكتلة الوطنيّة أعمتهم عن الواقع

إنّ السبب الحقيقي لانعزال زعماء الكتلة من الإقطاعيين عن الأفكار المعاصرة هو ثقافتهم العثمانيّة التي تسبّبت بطرحهم خارج الحكم بعد ثلاث سنواتٍ من الجلاء على الرغم من جذورهم التاريخيّة بعيدة المدى، فقد كانت تلك الثقافة متأصّلةً لديهم، ولم تُشكّل الثقافة الحديثة سوى قشورٍ لسلوكهم العثماني.

---

(١) «اشتهر آل القوتلي بعدم السماح لبناتهم بالزواج إن لم يتوافر لهنّ أحد من أبناء العمومة».

مصدر: فيليب خوري. أعيان المدن والقومية العربية، سياسة دمشق ١٨٦٠- ١٩٢٠، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت، ص ٨٤.

وورد بعدها في نفس الكتاب في الصفحة ٨٦: «أدّت سلسلة أخرى من التحالفات عن طريق الزواج إلى تشكيل كتلة اجتماعية ثانية تتألّف من عائلات القوتلي والبارودي والبكري. وقبل نهاية القرن التاسع عشر تزوّج مراد القوتلي ابنة محمّد البارودي، بينما زفّت ابنة بارودي أخرى على عطا البكري. واستمرّت هذه العائلات بالتزاوج فيما بينها عبر الجيل التالي، كما أنّها شبكت الأيدي مع عائلتي اليوسف والعظم لتشكيل نسيج اجتماعي وسياسي أوسع نطاقاً».

يتبادر إلى ذهن من يتابع أحداث سورية زمن الحكم الفرنسي أنّ السبب الرئيسي الذي حال دون فهم زعماء الكتلة للواقع السوري والعالمي، والذي جعلهم لا يقدّرون حجم قوّة العشائر والفلاحين من مذهبهم ومن المذاهب الأخرى بشكلٍ واقعيٍّ، والذي أضاع الحكم من أيديهم بعد الاستقلال بفترةٍ وجيزةٍ، هذا السبب يكمن في أنّ زعماء الكتلة الوطنيّة الحاكمة كانت ثقافتهم تمثّل ثقافة السلطنة التركيّة بخضوعها المطلق للحاكم، أقصد جميعهم أتمّوا دراستهم قبل ثورة كمال أتاتُرك الشهيرة والتي رغم موقفها الشائب من الدين أزاحت عن كاهل الأتراك نير سلطنة بني عثمان، وأنشأت فيهم ثقافةً حديثةً تتمتّع بالنظرة الحرّة على نمط المدارس في البلدان الأوروبيّة. وبعض رجالات الكتلة كانوا قد أتمّوا دراستهم في اسطنبول نفسها زمن العثمانيّين كشكري القوتلي مثلاً. وأكثر رجال الكتلة كانوا قد تشرّبوا العقليّة العثمانيّة من المدارس التي في بلادنا زمن الحكم العثماني، ولذلك بقيت مستحوذةً على جميع هؤلاء النظرة العثمانيّة الرجعيّة، وبحكم طموحهم للمناصب العليا التي تؤكد وجاهتهم ونفوذهم في المجتمع كانت قراراتهم كلّها إيثاريّةً ومتزمّتةً ولا تأبه لرأيٍ في البلاد أو حقوق أيّة شريحةٍ كانت حتى ولو كانت من طائفتهم نفسها. فهذه العائلات الغنيّة كانت هي التي تحتكر المناصب الحكوميّة والقضائيّة والعسكريّة والإداريّة، وتقتسم أراضي البلاد الخصبة، ولأفرادها وحدهم أن يقيموا المعامل حتّى أمّمتها الأحزاب التقدّميّة عندما حكمت البلاد لاحقاً.

نبذة عن الوضع السياسي زمن الحكم الفرنسي

بعد أن قامت جيوش الحلفاء بطرد الأتراك العثمانيّين من بلاد الشام بمعونة العرب، تقاسمت بريطانيا وفرنسا دول المنطقة ضاربين بعرض الحائط وعدهم للعرب بإقامة دولة عربية واحدة في المناطق التي كانت تحكمها الدولة العثمانيّة. وأسموا احتلالهما لهذه المناطق بالانتداب كتغطية له وبحجّة أنّ هذه الشعوب عاجزة أن تحكم نفسها بنفسها لنقص الكوادر الثقافيّة والفنيّة التي كانت ما زالت في مهدها الأوّل فهذه المناطق كانت خارجة لتوّها من تحت الحكم العثماني الذي كان لا يؤمن إلّا بما يحكم السلطان العثماني وكانوا يحيّونه في خطب الجمعة ويبجّلونه في كلّ أنحاء الدولة العثمانيّة والولايات الخاضعة لها.

كانت بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول المتقدّمة تستطيع أن تساعد البلاد العربيّة على حكم نفسها بواسطة كوادر ترسلها إلى المنطقة لتثقيف الناس بإقامة المدارس والطرقات والأبنية العامّة بدون احتلال، ولم يكن ثمّة حاجة إلى احتلال المنطقة واقتسامها بين

فرنسا وبريطانيا فيما بينهما والتحكم بخيراتها وأهمها البترول العراقي فقد حصلت فرنسا على ٢٥ ٪ منه وأميركا على ٢٠ ٪[(١)].

وأقلق بريطانيا كون سورية في منطقة الانتداب الفرنسي، وكان منشأ أهمّيّة سورية بالنسبة إلى بريطانيا هو مرور أنابيب البترول العراقي الذي كانت تمتلكه في الأراضي السوريّة وإلى درجة ما شركة الامبريال للتبغ والتنبك الإنكليزية في اللاذقية.

كانت فرنسا منذ بداية الانتداب قد قسّمت سورية إلى دويلات[(٢)] بغية التفرقة الطائفيّة والعشائريّة: دولة حلب سنة ١٩٢٠ وكانت تشمل العشائر البدويّة كلّها من حلب حتّى العراق مروراً بالرقّة ودير الزور والحسكة والقامشلي وهذا يُعتبر تقسيماً عشائريّاً. ودولة الساحل (أسمتها فرنسا دولة العلويّين) وكانت تمتدّ على كل الساحل السوريّ إلى لبنان وتشمل عرضاً سلسلتي الجبال الغربيّة والشرقيّة وهكذا أصبح يعتبر كتقسيم طائفي، ثمّ دولة جبل الدروز وكانت تشمل جبل العرب وهذا تقسيم طائفي، وباقي البلاد كدولةٍ عاصمتها دمشق. وأصبحت بعد ذلك هذه الدول متّحدةً فيما بينها شبه اتّحادٍ فدراليٍّ ـ لكلّ دولة مجلس نوّاب خاصٌ بها ـ وفي سنة ١٩٢٤ تمّ انضمام حلب كليّاً إلى سورية. وانضمّت محافظة

---

(١) أمّا متى أخذت فرنسا هذه الحصّة من بترول العراق فذلك حصل في مؤتمر سان ريمو في إيطاليا في نيسان عام ١٩٢٠ عندما تقسّم الحلفاء المناطق السابقة للإمبراطوريّة العثمانيّة المهزومة. ففي مؤتمر سان ريمو هذا تمّ التوصّل إلى اتّفاقيّة نفط بين بريطانيا وفرنسا والتي تُعطي فرنسا حصّة من النفط العراقي مقدارها ٢٥ ٪ منه وما تفضّله من شروط لنقل هذا النفط وذلك كلّه مقابل تضمين الموصل في الانتداب البريطاني إلى العراق. أمّا أميركا فقد حصلت على ٢٠ ٪ منه في عام ١٩٢١ وذلك بعد أن احتجّت واعترضت على أيّ إقصاء للشركات الأميركيّة من قبل بريطانيا وفرنسا في اتفاقهم في سان ريمو لتنسيق سياساتهم النفطيّة في الشرق الأوسط. وقد قبلت بريطانيا بدافع خوفها من انتقام أميركا وحاجتها للمساعدة في صدّ الثورات المحليّة قبلت أن تمنح الشركات الأميركيّة حصّة مقدارها ٢٠ ٪ من نفط العراق. المصدر:

San Remo. Conference of — U.S. leverage in world markets --- The United States. Britain, and world markets - International relations --

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA CD 2000 DELUXE EDITION --

2000 October 18, 1999 - (A CD-ROM- based encyclopedia from the editors of the Encyclopaedia Britannica).

يبدو أنّ أميركا في ذلك الحين كانت ترفع شعار معارضة الاستعمار وهذا ما تستطيع طبعاً أن تراه توسّلاً لمصالحها في وجه بريطانيا وفرنسا وغيرهما ممّن كان لهم مستعمرات.

(٢) في ١ / ٩ / ١٩٢٠: إعلان قيام دولة حلب برئاسة كامل القدسي وأُلحق بها سنجق اسكندرون.

- في ٢ / ٩ / ١٩٢٠: إعلان إنشاء مقاطعة العلويين وحاكمها فرنسي هو الجنرال نيجر وخلفه بيو وأُلحقت بها منطقة مصياف. ثم إعلان إنشاء دولة دمشق وعيّن حقّي العظم حاكماً لها بعد شهرين. ثم إنشاء مقاطعة جبل الدروز وحاكمه سليم باشا الأطرش، وخلفه فرنسي. المصدر: جورج جبّور. سوريا ١٩١٨- ١٩٦٨ المطبعة ألف باء. الأديب. دمشق الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ١٩.

اللاذقيّة (الساحل السوري أو دولة العلويّين سابقاً) ومحافظة جبل الدروز (جبل العرب) إلى البلاد بشكلٍ كاملٍ سنة ١٩٣٧ أي أصبح لكل المحافظات مجلس نواب واحد.

كان من دواعي هذا التقسيم ومن أسبابه الرئيسيّة أنّ فرنسا أحبّت أن تبقى دولة الساحل مستقلة لأنّ بترول العراق الذي يستثمر معظمه خصمها التقليدي (بريطانيا) يمرّ بها. وكان همّها أيضاً أن تحفظ للأقليّة المسيحيّة مكانتها في سورية، فإنّ فرنسا كما كان معروفاً عن سياستها أنّها تحبّ دائماً أن تظهر بمظهر حامية المسيحيّين وليس حبّاً بهم طبعاً، بل لاكتسابهم إلى صفّها، والأهمّ كسب تأييد أكثرية الشعب الأوروبي.

صحيح أنّ فرنسا سعت لاستغلال العامل الديني لتحقيق مصالحها، ولكن كانت هناك عوامل أخرى تصارعه وتقاومه كمثل الانتماء للأرض وللّغة وللتاريخ الثقافي. وقد لعب كتّاب مسيحيّون كبار وخاصّة في لبنان دوراً وحدوياً حول هذه الأمور، فقد دعا بعضهم إلى الوحدة العربيّة ولقيت دعوتهم صدىً عظيماً في العالم العربي.

شعرت بريطانيا بالخوف من هذا التقسيم لأنّ بترولها العراقي[1] كنتيجةٍ له يمرّ في دولة الساحل التي كان أغلبية سكّانها بحكم الوضع آنذاك يفضّلون فرنسا على بريطانيا. فالمسيحيّون كانوا متواجدين بكثرة في الساحل، وبدأ شبّان جبال الساحل أيضاً ينخرطون في الجيش الفرنسي[2] كأفرادٍ في معظمهم نظراً للحاجة فتصبح فرنسا بهذا التقسيم قادرةً على أن تستعمل هذا الوضع كورقةٍ رابحةٍ في كلّ مفاوضاتٍ لها مع بريطانيا، فهي تصبح قادرةً أثناء الانتداب وبعده على قطع البترول العراقي المارّ في الأراضي السوريّة والذي تمتلك أكثره الشركات البريطانيّة متى شاءت نظراً لما لها من نفوذ في هذه المنطقة. فسارعت بريطانيا إلى إيجاد أصدقاء لها بين العائلات الغنيّة شعبيّاً في البلاد مركّزةً على الشعور الوطنيّ، مستغلّةً تلك الثورات ضدّ فرنسا. ولكنّ هذا التقسيم المكروه بقي قائماً رغم هذا ولم ينتهِ نهائيّاً ـ سوى بالنسبة لدولة حلب التي تضمّ مدن الجزيرة حتى العراق ـ حتى سنة ١٩٣٧ بعد تغيُّر سياسة فرنسا على أثر استلام حكومة اشتراكيّة بزعامة ليون بلوم مقاليد الحكم فيها في سنة ١٩٣٦.

---

(١) تلك الأيام كان للبترول العراقي قيمة عالميّة كبيرة جداً لأنّ معظم البترول العالمي لم يكن قد تمّ اكتشافه بعد.

(٢) وكان قد انخرط في الجيش الفرنسي كضباطٍ وأفراد أعداد كبيرة من الطائفة السنّيّة وهم أصحاب انقلابات ما بعد الاستقلال كحسني الزعيم وضباطه والحناوي وضباطه والشيشكلي وضباطه وكثيرين آخرين ممّن لم يشاركهم هؤلاء في الحكم.

القســـم الأوّل

تـأســـيس

تعريف عن العشيرة الغسانيّة

استقرّت العشيرة الغسّانية في أعالي جبال الساحل التي لم يطلْها حكم الإقطاع، إلّا الذي هاجر منهم فيما بعد من الجبال فبات يعمل لدى الإقطاع، ولكن قرى العشيرة التي استولى عليها الإقطاع كانت قليلة من حيث عدد سكّانها ومن حيث عددها نسبياً لعدد قرى العشيرة وهي: واحدة قرب اللاذقية وواحدة في الغاب وواحدة في دمشق وثلاث بقرب مصياف وواحدة قرب حمص أي سبع قرى من أصل ما ينوف على المئة والخمسين. وأبناء هذه العشيرة كانوا فقراء كغيرهم من بقية الفلاحين.

هذه العشيرة أو بالأحرى العشائر الغسّانية كانت تقيم في حلب سابقاً في الدولة الحمدانيّة ثمّ اضطرّوا إلى الهجرة إلى أماكن شتى حتى وصلوا إلى أعالي جبال الساحل السوري لما لاقوه من فتك وسلب من الصليبيّين والشعوبيّين بعدهم.

ووجدت في مخطوط للقرن الحادي عشر «تحقيقات خبر في أنساب الأسر في عائلات نصيريّات في جبال دولات عاليات» والمشار إليه سابقاً ما يلي:

«الحمدانيون قاموا في حلب وأسسوا دولة الحمدانيّين وكما تعلم يا مولانا كم كانت قوية وذكية ودولة علم وأنت تعلم لا دوام للملك إلا لله، وكثرت فيهم بسبب النساء والخيانات بعد أن دخلت إليهم عروق الأجانب فساروا في كل واد يهيمون طلباً للنجدة والنصرة والبقاء لأنهم أصحاب الحق لأن دولة البطش تكره الحق وعمل فيهم الصليبيّون ما عملوا من هتك وقتل مع بقية شعوب هذه البلاد».

ويقول عنهم:

«إنّ هؤلاء القوم كانوا أشداء كبار، عظماء الأفعال ولكن ماذا يفعل شعب أعزل عرب إلى تغلب وغسان من القبائل العربية أصلاب الانتساب...»

ثم يصف الكاتب كيف جلب العثمانيّون شيخاً ليفتي بقتلهم وترويعهم حتى احتموا من العثمانيّين بالجبال العالية، ويستطرد بعد هذا في وصف أمكنتهم الجديدة بقوله: «بعد الهلاك والدمار والذبح والخوزاق والقتل والفرار التجؤوا إلى جبل الوحوش فرادات وجماعات والتجؤوا إلى قلاع الصفيون..... إنّ هناك في جبال تطل على الجلندية اللاذقية بعض من هذه العائلات يعيش بالقهر والضيق ويتّصلون مع بعضهم لمعرفة مواطن

بعضهم بالصياح والنداء المرموز ونار التوقيت ولكن ما من عائلة إلّا وتشكل بمجموع أسرها قرية ولا أهل هذه العائلات إلّا من أسر بعضها يعيشون على القلّة والصيد واستئناس بعض الحيوانات وتربية بعضها واستخدموا الطين والحجارة في إعمار بيوتهم ومنازلهم وهي متجمعة كأنّها بيت واحد وفيها مسالك واحدة للهروب من مداهمة الأخطار والسير في المغاور والجبال ويعلّم الشيخ منهم بالكتاب حتى لا ينسى أبناؤهم قراءة القرآن وتعاليم الدين والإسلام».

- وتتحدّث «الموسوعة البريطانيّة Encyclopaedia Britannica» عن العلويّين فذكرَتْ أنّ جذورهم تعود إلى تعاليم محمد بن نُصير النميري (توفّي في ٨٥٠م) المعاصر للإمام العاشر للشيعة، وأن هذا المذهب تأسّس بشكل رئيسي على يد حسين بن حمدان الخصيبي (توفّي في ٩٥٧ م أو ٩٦٨ م) خلال فترة سلالة الحكم الحمدانيّة (٩٠٥ م - ١٠٠٤م) في ذلك الوقت الذي كان للعلويّين فيه تأثير كبير في حلب. غير أنّه مع سقوط الحكم الشيعي فقد أصبح العلويّون مع باقي الشيعة ضحايا الاضطهاد فعُوملوا بوحشيّة من قِبل موجات الصليبيّين ومن قِبَل المماليك ومن قِبل العثمانيّين بالإضافة إلى دخولهم في القتال في عدّة حروب مُهلِكة داخليّة.

أمّا الفقرة كاملةً كما وردت في «الموسوعة البريطانيّة» فأضعها كما هي :

The roots of 'Alawism lie in the teachings of Muhammad ibn Nusayr an-Namiri (fl. 850), a Basran contemporary of the 10th Shi'ite imam, and the sect was chiefly established by Husayn ibn Hamdan al-Khasibi (d. 957 or 968) during the period of the Hamdanid dynasty (905-1004), at which time the 'Alawites had great influence in Aleppo. With the fall of Shi'ite rule, however, the 'Alawites, with other Shi'ites, became the victims of persecution. They were ill-treated by waves of Crusaders, by Mamluks, and by Ottoman conquerors, in addition to fighting a number of internecine wars[1].

كانت العشيرة الغسّانيّة تتألف من ثلاث عشائر: العمامرة، والدراوسة، والمهالبة، وتنتشر مجموعات من أبناء هذه العشائر في جبل الحلو وفي جوار دمشق وعلى حدود فلسطين وذلك قبل أن يوحّدها سلمان المرشد في عشيرةٍ واحدةٍ تحت اسم بني غسان. وكان لها شيوخٌ لنفسها وهم (بيت البنّا) ولم يكُن لهم ثمّة علاقة دينيّة بالعشائر المجاورة أو غيرهم. وكان جيران هذه العشيرة يطلقون عليها اسم الغيبيّة أي الذين يؤمنون بالله أنّه غيب ولا يمثّلونه بأيّ شيء في الكون.

---

(١) المصدر:

Alawite -

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA CD 2000 DELUXE EDITION --

2000 October 18, 1999 - (A CD-ROM--based encyclopedia from the editors of the Encyclopaedia Britannica).

والغيبيّة كتابها في الدين القرآن وتمذهب بعلي، أي تتفهّم الإسلام كما فهمه علي وتسير على خطاه، فهي لها مذهب لنفسها أي ليست سنّة أو شيعة أو علويّة أو درزيّة أو إسماعيليّة أو غيرها.. ولها شيوخها وأعيانها، في البداية كانت تسكن في أعالي جبال الساحل كما سبق وقلنا، ولكن للحاجة هاجر كثيرون منها إلى مناطق حمص حتى وصلوا إلى مناطق دمشق والقنيطرة. ولم تكن فيها زعامة، بل كل قريةٍ لها وجوه على عدد عوائلها. ولم يكن لها أيُّ اتصالٍ ديني بغيرها. ولكن الفرد بها كان معتزاً بعقيدته يعتقد بنقائها وأنّها ما زالت كما أُنزِلت في الإسلام.

إنّ عشيرتنا الغسانيّة توطّنت في حلب أو في ضواحيها قبل أن تستقرّ في جبال الساحل. وليس من الغريب أن يكونوا قد دخلوا في الدين المسيحي قبل قيام الإسلام. ثمّ دخلوا في الإسلام، أي من دين توحيد إلى دين توحيد. وعلامة ذلك أنّنا نرى أنّ سكّان جبال الساحل في القرون الأخيرة كانوا مازالوا يحتفظون بكثير من الأعياد والتقاليد المسيحيّة إلى جانب الأعياد والتقاليد الإسلاميّة. ويتشاركون مع المسيحيّين في فلكلور واحد رقصاً وغناء. حتى ويتقاربون في لهجة الكلام.

يوم الدخول

انفردت قرية جوبة برغال على هضبةٍ بين جبالٍ ثلاثة بأعلى ما تصل إليه القرى من جبل الشعرا. وعلى انحدار الهضبة انتشرت ثلاث حارات، وفي أعلى القرية انفرد بيت مرشد لوحده عن الحارة الفوقى، وهو بيت قديم وإلى جانبه شجرة دلب كبيرة لا مثيل لها في أشجار القرية كلّها.

وكان مرشد ـ وهو من العمامرة ـ فلاّحاً بسيطاً له حارة وبعض الأرض والماشية من المعزى كبقيّة ساكني الجبال تلك الأيام، يؤدّي عنها في كلّ سنةٍ نذراً كبيراً، يتوافد للنذر الناس من القرية وبعض الجوار.

وقد ولدت له زوجته غالية المولود الوحيد سلمان سنة ١٩٠٧، وتوفّيت بعد ذلك بقليلٍ، فاتّخذ مرشد زوجةً جديدةً رُبّي الصّبيّ عندها.

ولمّا فقد مرشد بصره حمد الله أنّه لم يأخذه منه حتى صار بوسع سلمان القيام على شؤون البيت. وهكذا أُلقي عليه وهو صبيّ عبء العمل في الأرض وغيرها منذ حداثة سنّه.

بدأ سلمان وهو ابن ستّة عشر عاماً يتكلّم بحقائق لا يعلمها على هذه الصور البديعة حتى مشايخ القوم أنفسهم وبشّرهم بقرب قيام وعد الإله القديم عن قيام القائم الموعود، وأنّ الله سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً. إنّما الله يريد بالناس خيراً وما أراد بهم ربّهم شرّاً.

كان ينذر الناس ليرجعوا بقلوبهم إلى الله، ويتوبوا عن الأعمال السيئة ويسلكوا سبيل الفضيلة وكان يخاطب كلاً بمفرده: المشايخ والوجوه والعاديّين من النّاس.

تسامع الناس بأخبار هذا الصبيّ وأنِسوا لوداعته وكان أسمر رَبع القدّ، لطيف المعشر، مَرِحاً طيّب المزاح. وكان يسير من قريةٍ إلى قريةٍ في هذه المسالك الوعرة يتكلّم بهذا الكلام فأنِسَت إليه قلوب بني غسان ذلك الشعب الساكن في أعالي الجبال. رجالٌ متوحّشون من الناس طاردتهم فئاتٌ ذات عصبيّةٍ عمياء رغم أنهم مسلمون حنيفيّون عبر مئات السنين لأنّهم تمذهبوا بمذهب علي إمام المتّقين وخاصّةً زمن الاحتلال العثماني البغيض.

هؤلاء المنعزلون عن بقيّة الناس بسبب الاضطهاد المُمارس ضدهم أنِسوا بذلك الصبيّ وعلا شأنه بينهم وأحبّوه كثيراً واتّخذوه إماماً وقدوة لهم، وما هي إلّا ثلاثة أشهرٍ حتى جاءت إليه جماعات من قرى جبل اللاذقيّة ومن قرى حمص ومن قرى الحدود الجنوبيّة مع فلسطين، أي العشائر الغسّانية وقراها من أقصى شمال سورية إلى جنوبها حتّى التفّ حوله ثمانون ألفاً يُعلنون دخولهم في أتباعه عن حبٍّ وولاء وقد سُمي هذا التوافد (يوم الدخول). وأحيا سلمان مناسبةً لاحتفال بني غسّان باتّحادهم هذا سنة ١٩٢٣ وصارت مناسبةً تحتفل بها العشيرة سنويّاً في ١٢ تموز من كلّ سنة. وكانت العشائر الغسّانيّة قبل سلمان بحكم توزعهم في جميع أنحاء سورية لا يعرفون بعضهم بعضاً، فوحّد سلمان هذه العشائر في عشيرةٍ واحدةٍ كما ذكرنا سابقاً.

المعاناة سجلّ العظماء

صيحة سلمان والدعوة إلى المساواة

إنّ صيحة سلمان التي دوّى صداها في جنبات البلاد، وأسمعت منطقة الشرق الأوسط وتجاوزتها، والتي أهابت بالغسّاني أن يعود إلى الأخلاق الطاهرة، وأن يقف وقفة العزّة مفتخراً بدينه وبمعتقده، نافضاً عنه غبار الذلّ والاستضعاف المتوارث من الأجيال القديمة. تلك الصيحة ابتدأت في سنة ١٩٢٣، أي أنّها زامنت الحركات السوريّة الداعية إلى الاستقلال. وكان من الطبيعي أن تتماشى معها، ولكن بشرط المساواة وتغيير النظرة الطائفيّة والطبقيّة بحيث يصبح جميع أبناء البلاد متساوين في الحقوق، ويصبح للغسّاني وغيره من سكّان الريف حقّ سكّان المدن.

أبى سلمان على رجال عشيرته إلّا وقفة العزّة بوجه مَن عادوهم والإصرار على المساواة في كلّ معناها وفي كلّ أمر، وتحرير الفلّاحين الذين كان يمتلك الإقطاع أرضهم وأمرهم ومصيرهم تماماً كما كان يُمتَلَك العبيدُ سابقاً.

سمعت حكومة الاحتلال الفرنسي بحركة سلمان، فحاربتها كما حاربت بقيّة الحركات وبشكلٍ أشدّ، فقد نظروا إليها أنها حركة مذهبيّة تحرّريّة، ولذلك رأوا أنّها أخطر من سواها لِما لها من قابليّة الانتشار بين الناس في دولة الساحل التي كانت فرنسا قد احتلّتها سنة ١٩١٨ وفصمتها عن سورية سنة ١٩٢٠، خاصّةً وأنّ فرنسا كانت قد باتت تعتمد على شبّان هذه الدولة المصطنعة في رفد جيشها. فقد تناهت إلى سمع الإفرنسيين أقوال سلمان التي كانت تنتشر في الناس كيف أن وعد الله بتحقيق العدل ومنع الظلم قد اقترب ومن هذه الأقوال التي سمعوا بها أنّ فرنسا ستذهب من البلاد، كما سمعوا بأقوال كثيرة غيرها.

يحدثنا محمّد بن سلمان المرشد (اسمه بالنفوس محمد بن سلمان المرشد ولقبه محمد الفاتح) عن تصدّي فرنسا للصبي:

«أول تحرّك للإفرنسيين جمعوا وجوه العشيرة كافةً في منطقة بابنا[1]. وكانت تشمل الغاب أيضاً. وسجنوهم في مركز المنطقة بعد توزيعهم على سجن المركز وبعض البيوت فيه

(١) كان مركز القضاء حينها في بابنا ثم أصبح بعدها في الحفّة.

لأن السجن لم يتسع لعددهم. وبدؤوا التحقيق معهم بالفلق وضرب العصا. وكانوا لا يصدّقون في البداية أن فتىً عمره ستة عشر عاماً ليس لديه شيء من تراث الزعامة أو ميراث غنيّ أو حتى محصّل ثقافي، هذا الفتى يجمع عشائر في هذه البرهة الوجيزة من أبعد المناطق السورية تحت سمعهم وبصرهم وينجح بذلك كل النجاح.

لم يقبل عقل الإفرنسيين أن الصبي سلمان هو صاحب هذا العمل الجبّار وهو المسؤول الوحيد عن تغيير الأوضاع والوراثة الاجتماعية في كلّ هذا المجموع واعتبروها أسطورةً شرقية لا يمكن أن يقبلها عقلهم.

أصرَّ الناس في التحقيق على أن لا صلات لهم بداخل البلاد. وقالوا أن وحدتهم أمرٌ طبيعي أملاه عليهم واقع الضياع بين الزعماء والعشائر والطوائف المجاورة كما أملته عليهم حالة الثارات المستمرة فيما بينهم. وكلُّ العلل التي كانوا يشكون منها والتي استطاعوا التغلب عليها بأنفسهم فيما بينهم.

أثبت التحقيق مع الوجوه للإفرنسيين أن سلمان هو المسؤول الوحيد عن النهضة الجديدة فتركوا الوجوه كلهم وبدؤوا التحقيق معه وحده.

كان تحقيقاً قاسياً مستمرّاً طيلة شهور. كان ينتقل فيها من الجوبة إلى مركز التحقيق في بابنا سيراً على الأقدام وفي المركز يتناولونه بالعصا والضرب الشديد ويحقّق معه المستشار شخصيّاً .وكان أهالي بابنا وهم من السنّة يعجبون من مقدرة هذا الصبي لتحمّل كلّ هذه الآلام ويقسمون لجماعته أنّه ولي من أولياء الله.

يبدو أنّ هذه الطلبات المتكرّرة على مدى أشهرٍ كان القصد منها إلى جانب التحقيق ومحاولة النيل من عزيمة سلمان وتفشيل نهضته كان القصد أيضاً عزله عن الناس بتخويفهم من غضب السلطة.

ولكن الخطة فشلت بعد أشهر التعذيب فقد قلب صمود سلمان خطتهم عليهم. وصارت سيرته المثل الحي للجميع. مثل المقاومة العزلاء التي لم تكن معروفةً قبلاً في الجبل.

وكان عندما يستدعونه للتحقيق في مركز القضاء يبيت في قرية على الطريق إلى المركز فيقضي سهراتٍ مرحة مع أهالي القرية تنسيهم ما ينتظره من العذاب. وترفعهم إلى جدّية الموقف. موقف الرأي الحرّ الذي لا يتأثر بالقوّة الغاشمة. ولم ينلْ عذاب التحقيق شيئاً من اتحاد العشيرة واتّقدت وحدتهم معنوياً وحياةً بعودة الأخلاق الأولى أخلاق الرسالة الإسلاميّة إلى الناس. فانتشر الصدق والوفاء والكرم بين الناس وعمّت المحبّة الجميع فبرز المجتمع الجديد بصفاءٍ أدهش الناس جميعاً.

ثورة العاليّات

عمدت تلك الأيام قرية من قرى بني غسّان تدعى العاليّات وهي قرب حمص إلى تحدّي فرنسا فهاجمتها المصفّحات الفرنسيّة وكانوا يلقون بجثث القتلى في آبار القرية، وقتلوا منهم لربما ما يربو على المائة، واقتادوا الباقين إلى السجن وكانوا حوالى ١٠٠ رجل، كما اقتادوا غيرهم من قرى بني غسّان في جبل الحلو (منطقة تلكلخ حالياً) ممّن خافوا منهم أن تمتدّ ثورة العاليات إليهم. وقد تكون هذه الحادثة أحد أسباب تسرّع الفرنسيّين بإبعاد سلمان إلى الرقّة.

وبقي الذين سُجنوا من العاليّات حوالى سنتين في السجن، وعندما خرجوا اضطرّوا لرهن أراضيهم عند الآغا عبد المجيد سويدان، بسبب أنّهم لم يجدوا في بيوتهم ما يقتاتون به هم وعيالهم، فلا مؤونة في البيت، ولا طعام يسدّون به رمقهم بسبب السجن الذي منعهم من الاعتناء بأراضيهم، وهكذا اضطرّوا إلى رهن أراضيهم عند الآغا على أن يعملوا كأُجَراء عنده يأخذ منهم ربع محاصيلهم. وبقيت أراضيهم ملكاً لهذا الآغا حتّى أعادها لهم سلمان وأجبر سويدان أن يتخلّى عنها خطيّاً وعمليّاً في أواخر الثلاثينات.

وقد عمدت حكومات الكتلة الوطنيّة المتلاحقة فيما بعد إلى التعتيم على هذه الحادثة تعتيماً كاملاً فقط لأنّ عشيرة سلمان هي التي قامت بها وليس غيرها ولو أنّها حدثت لغير عشيرة سلمان لجعلوا منها ثورةً كبيرةً ضدّ الفرنسيّين. ومع أنّها معروفة لدينا نحن أبناء العشيرة ونسيها (دوكة العاليّات) إلّا أنّني ما استطعت إيجادها محلّياً إلّا في كتاب «خطط الشام» للمؤرّخ محمّد كرد علي. وجاء ذكرها هامشيّاً أيضاً ولكنّه اعترف بمقتل أربعين شخصاً فقط، وإفناء خمس أسرٍ بالكامل.

صدى صيحة سلمان في دولٍ عربيّة واجنبيّة

يبدو أنّه كان لقيامة سلمان في بدايتها صدًى حسن في كلّ أنحاء البلاد وخارجها، فقد أشار إليها المؤرّخ محمّد كرد علي بكتابه المعروف خطط الشام، الذي صدر سنة ١٩٢٥ وكانت نهضة سلمان بعد في بدايتها الأولى. تحدّث هذا المؤرّخ عنه وقد أسماه خطأً (شعبان): «كان يدعو النصيريّة إلى إدخال الإصلاح على مذهبهم، وتعاليمه تدور على روحانية الإمام علي بن أبي طالب في الألوهيّة ـ لربّما يقصد هذا المؤرّخ هنا عن تقديس علي بالروح وليس بالجسد، أو عن التجلّي الذي يقول به الصوفيّون ـ. وقد أوجب على أتباعه صيام رمضان والصلوات الخمس وتعليم النساء خلافاً لما جرى عليه الأسلاف بالمذهب العلوي من حظر التديّن على النساء». وقد جاء قوله هذا في الجزء الثالث من كتاب خطط الشام الطبعة الثالثة تحت عنوان حوادث وغوائل في الصفحة ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

أمّا خارج البلاد فقد أشار إلى سلمان المؤرّخ الروسي الشهير عالميّاً فلاديمير لوتسكي في كتابه المعروف: «الحرب الوطنية التحرّرية في سوريا ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ صفحة مشرقة من النضال العربي ضدّ الامبريالية الفرنسيّة» والذي نقَلهُ إلى العربية د. محمّد دياب وراجعه وقدَّم له د. مسعود ضاهر في سلسلة: تاريخ المشرق العربي الحديث. طبعة الفارابي ١٩٨٧. وإليك ما جاء عن سلمان في الصفحة ١٤٧ من هذا الكتاب:

«وأخيراً اندلعت في كانون الأوّل ١٩٢٣ الاضطرابات مجدّداً في منطقة اللاذقية، حيث ظهر في قرية جوبة برغال الفقيرة (نبي)[1] من الفلاحين هو سليمان المرشد. دعا هذا الراعي، ابن السادسة عشرة، الفلاحين إلى حمل السلاح من أجل طرد الأجانب من سوريا. وخلال الإعداد للانتفاضة أقام الصلات مع فصيل الثوار الذي يقوده عمر البيطار[2]. ولقيت (الديانة) الجديدة على الفور صدى واسعاً بين جماهير الفلاحين، واعتنقها الآلاف منهم.

(١) تسمية الكاتب لسلمان بكلمة النبي جاءت على ما يظهر من الشائعات التي انتشرت حوله منذ بداية نهضته.

(٢) تعتبر عائلة البيطار إحدى أكبر وأقوى عائلات عشائر صهيون التي تضمّ السنّة في القضاء بمن فيهم الأكراد المستعربون وقد قاومت الاحتلال الفرنسي للقسم الشمالي من جبال الساحل منذ البداية وانضمّت بعد ذلك إلى جبهة حسر الشغور ضدّ الفرنسيّين في العامين ١٩٢٠ - ١٩٢١ وشكّلت قوامها الأساسي وارتبط بها ما يُعرف في الحوليات السورية بثورة صهيون. المصدر: (تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي) تأليف أدهم آل الجندي. دمشق: مطبعة الإتحاد، ١٩٦٠ صفحة ١٣ - ١٩.

وأخذ الفلاحون من جميع أنحاء المنطقة يحجّون إلى جوبة برغال وجرت اجتماعات سرّيّة في القرى وحمل الفلاحون السلاح وامتنعت قرى عديدة عن دفع الضرائب. وبعد أن تأكّد الفرنسيّون من أنّ (الدين) الجديد يرتبط بالعصابات الفلاحيّة في منطقة حلب ووادي العاصي سارعوا إلى اعتقال (النبي) ومحاكمته وأرسلوا حملة تأديبيّة إلى المنطقة. وفي قرية عاليات الواقعة في منطقة حمص، على حدود منطقة العلويين، حيث تغلغلت دعوة (النبي) الفلاحي الجديد، جرت معركة بين الفلاحين والقوات الفرنسيّة سقط فيها ٥٠ قتيلاً من الفلاحين. وفي نهاية الأمر عجزت السلطات الفرنسيّة عن قمع هذه الحركة، بالرغم من أنّها نفت عام ١٩٢٤ سليمان المرشد وغيره من قادة الحركة إلى الرقة على الفرات»[١].

ولنرَ ما كتبت عن سلمان المجلّة الإيطالية (الشرق الحديث) «*Oriente Moderno*» نفسها سنة ١٩٢٤ معتمدةً على صحف في القاهرة وبيروت وسورية:

«نبي جديد في منطقة العلويّين

هناك شابٌ من جوبة برغال (من صهيون)[٢] أعلن مؤخّراً بأنّه مزوّد من الإله، فوفد إليه جمهور غفير من المريدين والأتباع. وانتشر النبأ (نبأ رسالته) بسرعة هائلة، وامتدّ شعاع تأثيره لدى الشعب الذي لم يكن ينتظر ذلك.

إنّ مريديه الذين لبّوا دعوته جميعاً أي انتقلوا من الديانة العلويّة (النصيريّة) قد قاموا بالابتعاد عن هؤلاء الذين لم يكونوا من ديانتهم، ولم يعودوا يردّون السلام على الذين نفروا لعداوته ولا يعتقدون بكلامه. ومن تباشيره أنّه اعتباراً من أوّل نيسان القادم سوف لن يكون هنالك من أثر للمسيحيّة.

وهو يعتقد أنّه بمقدوره أن يفجّر الماء من الصخر مثلما فعل موسى، أو أن يجعله يتدفّق من إصبعه بشكل كبير جدّاً بحيث يروي عشرة آلاف شخص.

إنّ المسيحيّين، خوفاً من أن يُضرَبوا ويُقتَلوا، قد تركوا القرى والتحقوا بالمدينة، الأمر الذي من شأنه أن قرّرت السلطة أن تقبض عليه وتحبسه. وفي الواقع قد اقتيد البارحة إلى مكان إقامة الحكومة في اللّواء حيث تجمهر كثير من الناس لرؤيته[٣].

إنّه عبارة عن شابّ يبلغ من العمر ستّة عشر عاماً، ذو طبيعة إنسانيّة، سلس، ليّن

(١) هامش وضعه فلاديمير: Oriente Moderno.1924, No 1, p.39;1924, No 2, p.103; 1924, No 3, p.184; 1924, No 4, p. 259.

(٢) صهيون اسم كان يُطلق على جبال الحفّة التي بها الجوبة.

(٣) إنّ اتهام الصبي بنيّته أن يطرد المسيحيّين كلّها إشاعات خلقها لمحاربته الوشاة في قرية الجوبة والقرى المجاورة الذين حسبوا أنّهم بهذا الاتهام يثيرون حفيظة الفرنسيّين لأنهم مسيحيّون أيضاً، فيجزلون لهم بالعطاء. أمّا أنّه يعتقد أنّه يستطيع أن يفجّر الماء، فكيف علموا أنّه كان يعتقد هكذا؟!!.

الجانب (دمث الأخلاق) وقليل الكلام (صَموت)، يوصي بالإخلاص والصدق، وبعدم الحلفان، وكان يدعو إلى اللطافة والوداعة والوفاء ونصرة المظلومين والمضطهدين، وقد قدّم له أتباعه العطايا والهدايا خيرةً منهم (المنار، مجلة القاهرة، في الألف باء ٨-١٢-١٩٢٣).

إنّ «سوريا» في ١٣ كانون الأوّل قد أعطت معلومات إضافيّة أخرى، فقد بلغ عدد أتباعه حتى الآن ثلاثة آلاف شخص، أظهروا ولاءً لنبوءته وتعاليمه وكشْفه عمّا سيكون، فقدّموا له الكثير من المجيديّات (قيمة المجيدي عشرون قرشاً أي ما يعادل أربعة فرنكات).

وقد وضع مع (النبي) في السجن ثلاثة رجال من المتصلّبين بآرائهم بالنسبة للمعتقد أو الإيمان الجديد وكانوا جميعاً مقيّدين أثناء سَوقهم إلى السجن، وهؤلاء الثلاثة هم رؤساء قبائل بدويّة آمنوا وصدّقوا بهذا المعتقد الجديد . . . . . إلا أنّ السلطة المنتدبة فشلت في جعل (النبي) أن يكون عاقلاً وحكيماً وطيّعاً يحقّق لها نفوذها وحاجاتها وأمنياتها.

المرجع:

p.s الكاتب "no1,p,39" Oriente Moderno,1924

غاية دعوة النبي الجديد

تقول جريدة «الحقيقة» الصادرة في بيروت في الثالث عشر من كانون الأوّل: إن الشاب اللاذقاني من منطقة Laodicea (اللاذقية) صاحب هذه الديانة الجديدة ما يزال معتقلاً وموقوفاً. . . . .

وحسب رأي صحيفة «سوريا» ١٥ كانون الأول: إنّ هدف هذا الشاب قد يكون من الخطورة بمكان، فالأنباء الأخيرة الواردة ـ تقول الصحيفة ـ توضح بشكل جليّ وواضح هدف ومحتوى هذه الدعوة، وتكمن أهميته أنّه رأى أن يشكّل جماعات مسلّحة لمقاومة الفرنسيين بهدف إجلائهم عن سوريا.

إضافةً إلى ما تقدّم إنّ هذا الشابّ لم يكن مسروراً من تغيير العلويين لمذهبهم[1]، وأراد توسيع نطاق دائرة لطافته ومحبّته، وقد دعا جماعات عمر البيطار للتحالف معه لمقاومة الفرنسيين، ولو نجحت تلك الخطط لكانت الثورة أكثر دمويةً من كلّ الثورات السابقة، وليس من المستبعد أن يكون هنالك ارتباط قوي ومتين بين هذه الحركة والحركة التي تظهر في الحدود الشمالية[2].

المرجع: p.s الكاتب "no1,p.39" Oriente Moderno,1924

---

(١) إشارة إلى البعثات التبشيرية المسيحيّة التي كانت تستجلب الناس إلى التنصير عن طريق الإمدادات من طحين وزيت. . . الخ.

(٢) إشارة إلى ثورة هنانو..

إنّ السلطات قد اكتفت حالياً بمنع خروج الأشخاص الموالين له والمشكوك فيهم من منطقة Laodicea (اللاذقية) ووضعهم تحت المراقبة، أمّا النبي فسوف يمثل قريباً للمحاكمة أمام مجلس حربي».

ثمّ صدر بعد هذا عدد آخر من هذه المجلّة أيضاً فيه مقال عن سلمان وهو:

«النبي الجديد للعلويين

إنّ قصة هذا النبي أو (المرشد) لم تنتهِ بعد بالرغم من سجنه وتوقيفه، فقد استمرّ أتباعه بالتدفّق أفواجاً إلى قريته التي ولد فيها (جوبة برغال)، حيث أصبح منزله مقصداً مقدّساً للحجّاج.

يجري الدخول في المعتقد الجديد ضمن خطّة منظّمة ودقيقة وبسرّية تامّة غير قابلة للنفاذ، حيث يتوجّب على الداخل الجديد قبل أن يكون فرداً من أفراد هذا المعتقد يتوجّب عليه الخضوع إلى العديد من الاختبارات أو التجارب، وبعد النجاح في هذه الاختبارات يقوم بدفع رسم دخول فيدخل في الفئة المصطفاة.

هناك أكثر من عشرة آلاف شخص قدموا من (كيليكيا Cilice) حيث اعتنقوا المعتقد الجديد، وأيضاً العرب (عرب الجوار) اعتنقوا دعوته ولم يكونوا عنيدين أو مقاومين لعملية الاعتناق أي (التحوّل إلى المعتقد الجديد).

الوجهاء الذين أُوقِفوا معه في سجون Laodicea (اللاذقية) قد أُطلق سراحهم، بيد أنّهم باتوا يخضعون لمراقبة صارمة (سوريا ٢-٢-١٩٢٤)».

المرجع: "Oriente Moderno,1924" no2,p,103" الكاتب p.s

ثمّ صدر عدد آخر من هذه المجلّة فيه مقال عن سلمان وهو:

«النبي العلوي أطلق سراحه

النبي الشابّ الذي اهتمّت به أكثر من مرة مجلّة «Oriente Moderno» طبعة شهر كانون الثاني صفحة ٣٩-٤٠ وشهر شباط صفحة ١٠٣ وآذار صفحة ١٠٤ قد أُطلق سراحه وعاد إلى قريته، وقد استقبل بتظاهرات تكريم شعبية حاشدة، وإنّ الازدياد السريع لعدد أتباعه أثناء اعتقاله قد جعله يصبح قائداً جماهيرياً (رئيساً) بعد أن كان فلاحاً بسيطاً.

في السجن قد افتُتِن به جميع المساجين ورجال الشرطة وأُعجبوا بشخصيته التي كانت غايةً في الطيب وكرم الأخلاق.

ومن المتوقع بأنّ ديانته سوف تنتشر في عموم جبال بلاده الوعرة أي في جميع الجبال الوعرة لبلاده. (صدى الأحوال ـ بيروت، المذكور في زحلة الفتاة ١١-٣-١٩٢٤)».

المرجع: "Oriente Moderno,1924" no4,p,259" الكاتب p.s

تعليق على اقوال الصحيفة الإيطالية المنقولة عن صحف عربيّة

نلاحظ أنّ في كلّ ما ورد من مقالات في الصحف يتمحور على قومة سلمان ضدّ فرنسا وسجنها له بعد ذلك. وتركيزاً على لطافته وتعامله الطيّب مع الجميع وأنّ تزايد أتباعه كان بسبب محبّته. وهذه المقالات تعطينا فكرة عن الصدى الذي كان لصيحة سلمان خارج البلاد في السنوات الأولى لدى سماعهم بها، منه الصحيح ومنه ما هو ليس صحيحاً ومنه ما هو ليس كامل الصحّة كقولهم عن الاختبارات والتجارب التي كانت تجري على الداخل في جماعة سلمان كما صوّرت الشائعات الأمر يومها، وأيضاً المبالغة الكبيرة بما كان يصل للصبي من هدايا وعطاءات. وتسميته بالنبي وهو لم يكن يُسمّى بالنبي لا في عشيرته ولا في سورية كلّها، بل كان يلقّب في البداية بالصبي في عشيرته وفي غيرها، ثمّ بعدها بالأفندي أو زعيم العشيرة. أمّا كلمة الدين الجديد فمن الغريب كيف وضعتها المجلّة فهي تصوّر سلمان وجماعته إسلاماً وضدّ كل ما هو ليس إسلاميّاً (حسب قولها) فكيف يكون دينهم جديداً إذاً ؟!.

فرنسا تنفي سلمان إلى الرقّة

أضع هنا مقتطفات من حديث محمّد الفاتح عن نفي سلمان الذي تمّ في ١٤ / أيّار ١٩٢٥:

«استمرّ الإفرنسيون على شراستهم بمعاملته فأصدروا حكماً بسجنه ثلاثة أشهر ولمّا خرج من السجن استحدثوا مركزاً عسكرياً في الجوبة وأصدروا إقامةً إجباريةً بحقّه مع فرض سكناه إلى جوار المركز العسكري. وقد أقاموا المركز في وطى[1] القرية أي أسفل الجوبة. وكانت أم فاتح وهي زوجته الأولى التي كنّاها باسم ابنها قبل ولادته، كانت تنزل من بيتها في أعلى القرية حاملةً له الطعام كلّ يوم. وتعود إلى البيت عند المساء.

وكالعادة لمّا فشلوا بتحقيقاتهم أن يسندوا له عملاً يدان عليه فقد أصدروا قراراً بنفيه إلى الرقة نقلوه بحراً إلى الإسكندرون ومنها سيراً على الأقدام تحرسه خيّالة الدرك إلى حلب. ويُذكر أن عجوزاً طيبةً ـ من السنّة ـ اعترضت سيرته على الطريق عند قريتها فلما رأت قدميه المتورمتين عزمتهم إلى بيتها وسخّنت الماء ودلكتهما وسعها ولفّتهما. وفي محافظة حلب لاقى له بعض رؤساء العشائر ومنهم رئيس عشيرة الوِلدة[2] الذي أهداه مهرته فحملته إلى الرقة.

وفي الرقة مُنع على سلمان الاتصال بأحد من محافظة اللاذقية. ولكنهم كانوا يسمحون له برؤية أقاربه القريبين وخاصة النسوة. ولكن والده مرشد كان ضريراً، لا يقوى على السفر. وأخوة مرشد توفّوا جميعاً ولم يتركوا أبناءً. فلم يكن له أقارب قريبون.

استقبل أهالي الرقة سلمان بكثير من الحفاوة وكانوا يتعازمونه ويختلفون إلى داره، فيجدون لديه النكتة اللطيفة الحاضرة، والسرور شبه الدائم، كما يجدون الرأي المستقل يعبّر عنه بإيجاز لا يطيل الكلام أبداً. ولكن كلامه ومواقفه في الأمور العامة، مواقف حرّة لا تحاذر وضعه في المنفى ولا تجنّب غضب السلطة وبطبيعيّةٍ لا تُجارى فلم يكن بحديثه أيّة

(١) الوطى سهل كبير وجميل في أسفل القرية تربته حمراء رملية، أمّا الآن فقد ملؤوه بيوتاً.

(٢) لربما سمح له الفرنسيون بركوب مهرة الشيخ لخوفهم من هذه العشيرة (الولدة) فهم كانوا أكثر عدداً من الذين يحرسونه من الفرنسيين بكثير، ويبدو هنا أنّ شعبيته كانت تنتقل معه حيثما ذهب وأينما حلّ، ساعد في هذا أنّ فرنسا كانت تضطهده وأنّ شخصيته كانت محبّبة وشهرته كانت تسبقه إلى كلّ مكان يقصده.

مداورة. ـ نزل في البداية مع رفاقه ضيفاً على آل العجيلي ثمّ بترتيب منهم ضيفاً على أقربائهم من آل الشوّاخ الحبيب ـ وقد تزوج من عائلاتهم فتاةً تُدعى جميلة ـ ابنة موظّف البلديّة محمد نظيف ـ وعائلتها على المذهب السنّي كزوجةٍ ثانيةٍ بعد هلاله أمّ فاتح التي كانت حبلى بولدها الأوّل محمّد الفاتح عندما أُخِذ إلى النفي. وقد أنجبت له جميلة ابنةً أسماها فتحيّة.

استمر نفي سلمان في الرقة أربعة وعشرين شهراً وكان المركز العسكري الذي أبقوه في الجوبة يشدّد المراقبة على البيت مدة النفي كلها. كل قادمٍ إلى البيت يُحقّق معه ويُسجَن فعاشت أم فاتح مع طفلها طيلة النفي بعزلة شبه تامة».

كان مَن يأتي إليه من عشيرته يأتي سرّاً متخفّياً عن عيون الفرنسيّين، ولا حاجة للقول أنّ جميع الأهالي كانوا يتعاونون مع كلّ زائرٍ يزور سلمان، فهم كانوا يعرفون أنّه زعيم عشائر كبيرة، وعادة العرب ذوي العرق النقي أن يحترموا كبير القوم خاصّةً أنّه كان منفيّاً من قبل فرنسا التي كان الشعب السوري قائماً عليها وكانت الثورات ضدّها تلك الأيّام ما زالت مشتعلة.

امّا ردّة الفعل لنفي سلمان في الجبل فيحدثنا محمّد الفاتح عنها:

«لم تعرف العشيرة قبل نفي سلمان حنيناً يشبه الحنين الذي ساد فيهم لعودته. صارت عودته قضية الجميع وانطلقوا يفاوضون النواب المحلّيّن والشخصيات في اللاذقية ورؤساء العشائر في الجبل للعمل لعودته. ولكن الجميع كانوا يجيبون أنّ الإفرنسيين لا يقبلون واسطة بشأن سلمان. وكانت مكاتب الإفرنسيين مفتوحةً لذلك النفر من جماعة السلطة وحدهم. وهكذا صار للعشيرة قضية لا يتعرف عليها أحد ووقفت لوحدها بين الجميع.

أمّا وحدة العشيرة ككلّ فقد انتصرت تماماً خلال غياب سلمان. فلم تَعُد العشائرية والعائلية قانون التعامل بينهم. بل صار أبناء العائلة والعشيرة ينتصروا للحق قبل أن ينتصروا لأقربائهم.

حمل الناس قضيتهم بقلوبهم. وعزّ عليهم غياب سلمان فاستهانوا بالمراكز الإفرنسية استهانةً تامةً. وحتى السماسرة ومن معهم من أفراد ومشايخ تظاهروا بالحنين إلى عودته وباعتناق قضية العشيرة. ولولا تظاهرهم هذا لضاقت عليهم بيوتهم. ولربّما تركتهم نساؤهم وأبناؤهم فقد أصبح الصفاء بين الناس قضيةً عامّةً كما وضعها سلمان عندما أعلمهم: أنتم عليكم الصفاء لبعضكم وأنا كفيل بالعالم.

وهكذا لم تعد عداوة الإفرنسيين وجماعتهم على أبناء العشيرة إلّا بتعميق مفاهيم النهضة الجديدة وشعورهم بقضيةٍ عزيزةٍ واحدةٍ للجميع. الكلّ يشعر بها قضيته ويعادي ويؤاخي

الناس لأجلها. ويشترك فيها مع عائلته وأبنائه. كانت قضية كل بيت لا قضية الرجال وحدهم كالعادة، وبدأ أبناء العشيرة يلفتون نظر الناس في سائر المحافظة بنهضتهم الأخلاقية وعنادهم مع الافرنسيين وقد جمعت كراهة الإفرنسي بين المدينة والجبل ووحدت المشاعر فبدأت الوحدة الوطنية تأخذ محل التفرقة الطائفية القديمة. فلما عاد سلمان تعهد هذه الوحدة بالرعاية بكلّ المواقف».

رجوع سلمان من النفي

اضطرّت فرنسا إلى الاعتراف بشيء من حقوق الثوّار، لأنّ الثورة كانت قد عمّت كلّ أنحاء سورية تقريباً ووافقت على المفاوضات، ونتيجةً لهذا فقد خفّت يدها على القائمين عليها، وبذلك رجع سلمان بعد ستين من النفي.

أمّا استقبال عشيرته له فيحدثنا عنه نجله محمّد الفاتح :

«أعقبت الأحداث في البلاد فترة انفراج اعتمدت فيها الحكومة الإفرنسية سياسة الملاينة بكافة الأمور. ومنها عودة المنفيين. وهكذا فوجئ الناس بنبأ عودة سلمان فهبّوا جميعاً لملاقاته. كانت السيارات قليلةً فاستأجروا كل ما استطاعوا منها ولاقوا له إلى إدلب. وعادوا بصحبته بموكبٍ كبير وهم ينشدون أغانيهم الشعبية. وخلافاً لكلّ عرف من تراث الماضي فقد انطلق الجميع من أفراد ومشايخ في شوارع المدن التي مرّوا بها ينشدون فرحين.

انتظره موكب المستقبلين الكبير على طريق الحفّة وبعدها في دير ماما حيث استمرت الأفراح ثم ودّعه الجميع قبل الجوبة فوصل لوحده إلى البيت. وهناك وجد أم فاتح قد فرشت على الأرض الفرشة التي كانت العادة أن يجلس عليها وينام أيضاً، فرشتها بدون شرشف لأنها لم تكن تجد ما تشتري به شرشفاً فالتفت إلى أخيها الصغير وأمره أن يذهب إلى الوكيل (محمد الخرطبيل)[1] الذي كان تركه قبل النفي والذي كان قد بدأ يغتني فجاء من عنده بشرشفين جديدين.

عاد سلمان إلى عشيرةٍ اختارته ووثقت به وانتظرت عودته. ولم يكن لدى هذا الجبل من أسباب الحياة المدنيّة شيء يذكر. فلم تكن فيه طريق واحدة للسيارات. ولم تكن فيه مدرسة واحدة. والأهم منها أنّهم لم يكونوا واعين حاجتهم لها».

---

(١) محمّد الخرطبيل أصله من المهالبة في ساحل اللاذقية وسكن في الجوبة وكان يعمل حدّاداً وقد جعله سلمان وكيلاً في الحارة عندما نفي إلى الرقة وصار فيما بعد نائباً في المجلس التمثيلي. براعته في صناعة الأسلحة أعطته شهرة في الجوبة بالرغم من كونه لا يوجد له عائلة في القرية. الخرطبيل كان قوياً جسدياً ويظهر لمن يصادقه الإخلاص لقضية العشيرة. ولم يظهر على حقيقته إلا بعد أن انتخبته العشيرة إلى المجلس المحلي فأصبح يحاربهم من خلال اتصاله ببقية الجهات المعادية لهم. وقُتل في عام ١٩٣٧ خلال مشاجرة مسلحة جرت بين أهالي القرية.

تنقية المعتقدات

إنّ تنقية سلمان لمعتقدات عشيرته من الشوائب التي دخلت إليها من الجوار والتي ليست من المذهب الإسلامي الصحيح لم تأخذ شكل تسلسل منهجيّ سريع بل كان سلمان يأخذهم إليها رويداً رويداً، وفي كلّ إصلاح تقوم قائمة المشايخ من أتباعه عليه، فهم لا يستطيعون أن يسلّموا بتغيير ما ورثوه ولو كانَ خطأً لأنّ هذه الأخطاء كانت قد أصبحت عندهم بمثابة العرف، أمّا بقيّة أتباعه فقد سلّموا بهذه التصحيحات ولم يعارضوه، بل اقتنعوا بها خاصّة وقد جاءتهم متابعةً ومعلّلةً بحججٍ مقنعةٍ ومنها هذه المجموعة:

ـ أبطل الاعتقاد بالترائي وهو معتقد يقول أنّ محمّداً صلوات اللّه عليه وعليّاً وأبناءه وأنصار الدعوة كسلمان الفارسي وأيتامه وكلّ نقباء الدعوة ونساءهم أيضاً، كلّ هؤلاء لم يكونوا من لحم ودم إنّما أنواراً تتراءى على الأرض، وأنّهم في الحقيقة لا يأكلون الطعام ولا يشربون المياه ولا يتزاوجون، وهكذا فهموا التقديس. قال سلمان أنّ كلّ هؤلاء ما كانوا إلّا بشراً يأكلون ويشربون ويعانون. نفهم من هذا أن لا قيمة للناس بلا معاناةٍ، وكيف يكونون رجال اللّه وخدم دعوته دون أن يقدّموا لها أيّة تضحية؟!.. وجاء في القرآن الكريم في سورة (الأنعام) في الآيتين ٨ و ٩: «وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ». أي لو أنزل اللّه على المتكبّرين على الإيمان ملاكاً كما طلبوا من الرسول إذاً لانتهى أمر اختيار البقاء أو الفناء حسب السيرة الصالحة أو الطالحة، ولا يصبر اللّه عليهم بعدها كما حدث لثمود وعاد وإرمَ ذات العماد عندما واجهتهم ملائكة اللّه بالعذاب. ولو جعل اللّه رسوله ملاكاً لجعله بشراً مثلهم ثمّ لاحتاروا في الأمر كما كانوا يحتارون. إذاً عندما يرسل اللّه رسولاً يجعله بشراً حتى روح اللّه عندما أرسلها إلى مريم تمثّل لها بشراً سويّاً.

وهكذا الرسول في كل دعوة وكلّ من أقامه اللّه إماماً للناس جسده من لحم ودم، ويأكل ويشرب ويتزوّج ويموت، إذ كيف يكون قدوة للناس وهو يتراءى لهم ترائياً ولا يحيا حياتهم ولا يُعاني معاناتهم ولا يذوق ما يذوقون من العذاب والرغد والقهر والموت، فعلينا أن نذكر قول القرآن المبين أنّ اللّه يبعث لكلّ أمّةٍ رسولاً منهم، وقوله في سورة (البقرة) الآية ١٢٤: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

ـ أبطل الذبائح عند المقامات وقال عنها أنّها عادة صنميّة.

ـ محا صِفةَ الدين عن الأعياد التي كانت تُعتبر دينيّةً والتي كان يقيمها بعضهم مثل القوزلّي والبربارا والصليب.. والنيروز.. الخ.

ـ لم يقبل بوراثة المشيخة بدون فقه، بل جعل على كلّ شيخ أن يخضع لامتحانٍ يُثْبِت به أهليّته للمشيخة. وأقام للامتحان لجنةً فاحصةً من كبار علمائهم يؤدّون الامتحان أمامها ومن مواد الامتحان:

١ : الصلاة وأوقاتها وكيفيّة إقامتها.

٢ : معرفة الخمسة حدود.

٣ : معرفة الأعياد ومناسباتها وإقامتها.

٤ : أن يحسن الشيخ تعليم الأولاد كيفيّة إقامة الصلاة، والصلاة على الأموات، وعقد الزّواج، وأن يكون لديه بعض الإلمام بالفروق بيننا وبين بقيّة المذاهب الإسلاميّة.

ولقد قبل حتى المشايخ المعارضون جميعاً رأي سلمان بإقامة امتحان عام للمشايخ يقسّم الناجحون فيه على ثلاث درجاتٍ ويجيبون فيه على بعض الأسئلة في صميم المعتقد، أعطيت لهم ليستعدّوا لها، وتقدّموا جميعاً للامتحان وسقط منهم المئات.

وكان السبب الذي دعا سلمان لهذا الامتحان أنّ الشيخ كان يورِّث أبناءه جميعاً مشيخته، فكانت بعض القرى بكاملها من المشايخ وكلّ قرية لا تخلو من عوائل المشايخ، وكان فرض الزكاة حصراً عليهم يتلقّونها في الأعياد والنذور وفي مجالات غيرها، وكان عددهم الكبير يزري بهم لكثرة ما يتنقلون في القرى طلباً لزكاةٍ مهما قلّت، ولتفشّي الأميّة وسوء السيرة في بعضهم حتى صارت نوادرهم من أكثر ما يتناقله الناس، فلما أعلمهم سلمان رأيه بما أسموه امتحان المشايخ قبلوه وأعلنوا جميعاً حاجتهم له.

ـ أحيا سلمان تمجيد المعاناة وعدم نكران مذهبنا الإسلاميّ الصحيح وعدم الخجل منه كما كان يفعل الكثيرون قبله، وكانوا يسمّونها (التقيّة) وما هي في الحقيقة إلّا ذلّة في النفس سبّبتها الظروف السياسيّة القاسية التي عانوا منها مئات السنين.

ـ كانوا ينظرون إلى الشمس والقمر نظرةَ تكريمٍ وتعظيمٍ. رفض سلمان هذا الأمر وقال ليس الشمس والقمر إلّا أفلاكاً.

ـ كانوا يكرّمون عبد الرحمان بن ملجم المرادي قاتل عليّ ويصلّون عليه وذلك كي يثبتوا لأنفسهم أنّ عليّاً لم يُقتل بل كان الأمر تشبيهاً على أعين الناس يريدون بذلك نفي القتل عن علي. وقال سلمان أنّ عبد الرحمان بن ملجم شبيه بقابيل رمز الشرّ قاتل هابيل رمز الخير. وكان يضحك منهم لهذا الاعتقاد السخيف وأثار هذا الأمر زلزلة في المشايخ في البداية

حتى وما قبلوا به إلّا لأنّ الناس في العشيرة قبلوا واقتنعوا بكلّ هذه التنقية التي خرج بها سلمان عليهم.

ـ نصح المشايخ بترك اللباس الدينيّ الخاص بهم وهو الشوش، فترك معظمهم شاشه، ومَن لم يتركه منهم من المسنّين لم يورّث هذه العادة لبنيه. كان سلمان يتركهم ليستقرّوا على ما أمرهم به ولم يفرض على أحد ترك عاداته فوراً. وعادات اللباس بلا أزرار بقيت عند الكثيرين كمظهر زهد، ولكن تركها معظم الشباب من أبنائهم. ولم يرد في القرآن أي ذكر للباس الديني كالشوش وغيرها.

ـ كره سلمانُ الرياء والتصنّع في التديّن وأبعدهما عن مجلسه، أي الذين يظهرون للناس أنّهم متديّنون جدّاً وما هم بالحقيقة بمتديّنين، ويفهّمنا القرآن الكريم هذا العمل بقوله في سورة (الماعون) الآيات من ٤ إلى ٧: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ».

ـ أعادهم سلمان إلى ما حلّل القرآن وما حرّم وكانوا قد حرّموا على أنفسهم وشعبهم كثيراً من الطعام وهذا ممّا لم يجزه القرآن الحكيم بقوله في سورة (التحريم) الآية ١: «يا أيّها النبي لِمَ تُحَرِّمُ ما أحلَّ اللّهُ لكَ». ولم تستقم وتكتمل بأتباع سلمان هذه الرجعة إلى تحريمات وتحليلات القرآن فقط حتّى جاء مجيب صاحب الدعوة المرشديّة.

ـ كانت تختصّ عائلات المشايخ بالتأمّم بالصلاة في الأعياد فيصبح العيد حكراً على هذه العائلة بهذه القرية أو تلك. أوقف سلمان هذه العادة قائلاً: ديننا ما هو دين احتكار.

وما مرّ معنا بعضٌ موجزٌ من التقويم الذي قام به سلمان المرشد.

دخول سلمان المعترك السياسي وهدم الجدار الطائفي

كان بعد أن صارت فرنسا تتّبع سياسة المصالحة وصالحت الثوّار وأوقفت الاضطهاد أن انفكّ حصارها عن سلمان وملاحقتها له سنة ١٩٣٣، وأصبح يستطيع أن يذهب حيثما يشاء وأن يتجوّل في قرى جماعته. يحدّثنا محمّد الفاتح عن تلك الفترة:

«بعد عودة سلمان من المنفى حصلت انتخابات للمجلس النيابي المحلّي ومدّة النيابة سنتان ولم يتقدّم لها بل كان يحضّ الناس على انتخاب أحدهم لتمثيلهم في المجلس وخدمة مصالحهم. وقد قدّموا أحدهم وفاز بالنيابة.

وكان على هذا النائب الذي انتخبته العشيرة ـ محمّد الخرطبيل ـ أن يواجه سيلاً من الإشاعات المغرضة، والتي افتراها نفر المخبرين، أو افتراها الجوار، الذين حسبوا أن نهضة العشيرة تمسُّ هيبتهم بنظر جماعتهم، وكانوا كثيرين في المحافظة، ومن مذاهب وعشائر مختلفة من سائر المحافظة. وكانت هذه الإشاعات التي تهدف إلى تسميم الجوّ حول العشيرة كانت بغرابة قصص الجن نفسها.

كما كان عليه أن يواجه تنكّر السلطة للعشيرة. فالسلطة لا تعترف رسمياً بوحدة العشيرة بل تريدها تابعةً لغيرها. وليس لها حقّ بالوظائف والمنافع التقليدية. وبالتالي فلم يولوا هذا النائب أيّ اهتمام ولم يكن له أيّ نفوذ. فالتحق بأحد ذوي النفوذ من النواب وصار تابعاً له. وهذا كان أبغض شيء على الناس في العشيرة. كان يمكن أن يقبلوا منه تقاعساً عن قضاء مصالحهم. ولكن لا يمكن أن يقبلوا مساساً بكرامتهم. فكلمة شرف والمواقف الشريفة هي أكثر ما كان يتردّد على ألسنتهم. وكان مفهوم الشرف بالعمل العام يعني خاصةً المواقف والمكانة التي يحتلّها بين الآخرين.

فلما انقضت مدة نيابته وهي سنتان، اجتمعوا فيما بينهم، ورفضوا تجديد نيابته، وجاؤوا إلى سلمان يصرّون عليه أن يمثّلهم قائلين: لا يرفع رأسنا بين الآخرين سواك. ولم يكن أحدٌ منهم يفكّر ماذا يمكن أن يعمل سلمان بل كان كلٌّ منهم يثق أنّه سيكون عملاً شريفاً ومخلصاً ومميّزاً وهذا كلّ ما كانوا يطالبونه به.

كان سلمان عازفاً عن تولّي الشؤون السياسيّة العامة في البداية. كانت عادته أن يتركها

لسواه. وكلّ مَنْ ينجح يستمر في عمله فإذا فشلوا بأمر عام واستحال عليهم إيجاد من يتولاه بجدارة عند ذلك فقط يقبل أن يتولاه بنفسه. وقد تعوّدوا أن كلّ أمرٍ تولاّه أعطاه طابعه الخاص كما أعطاه بُعداً جديداً.

كانت مبادرته لبعدها عن التعقيدات الاجتماعية تبدو بمنتهى البساطة. حقنا نأخذه. مكاننا نملؤه.

أما القول أن هذا الحقّ يغلبنا الآن عليه آخرون، سبقونا بالمكانة الرسميّة ويعضدهم نفوذهم عند الإفرنسيين، فهذا ما تجاوزه باستمرار.

استقبلت سلمان العائلات البورجوازية الإسلامية كمناضلٍ وطني. وصاروا يقصدون بيته في اللاذقية وبيته في الجبل في قرية الجوبة. وكانوا يأخذون صور اجتماعاتهم فيها. ولم يلتفتوا إطلاقاً إلى سموم المخبرين الذين كانوا قد انتظموا فئة سرّية تعمل بالخفاء وبعضها يعمل بمعاش من دائرة الاستخبارات الإفرنسيّة.

وكثير من عائلات المدينة توثّقت بينه وبينهم الصلات. وبدأت صداقات سلمان المرشد المشهورة والتي ما فتئت تتزايد. وبعد انتقاله إلى مجلس النواب في دمشق توثّقت صلاته وصداقاته في سائر مدن وأنحاء البلاد. وقد ورث بعضها أبناؤه في محنتهم الكبرى فكانت لهم عوناً كبيراً.

أول ما سكن سلمان اللاذقية وجد زعماؤها بموقفه وحديثه تجسيد ما سمعوه من كراهة جماعته الشديدة للإفرنسيين. كما وجدوا لديه وعلى نفس المستوى حرصه الكبير على الوحدة الوطنية. وكان حديثه معهم كعادته لا مواربة فيه بل انطلاق سجيّة وصدق تعبير. بطبيعيّة مرحة تنقل الناس إلى جوّها. ورغم صراحتها التامة فهي لا تؤذي أحداً. ولو جاءت من غيره بغير هذه الطبيعية لآذت الناس. ولم يكن كلامه يستعير شيئاً من أجواء الآخرين بل كان ينقلهم دوماً إلى جوّه. وهو يبسط وجهة نظره الشخصية والتي تحمل طابع الجبل لصراحته وأنفته ونظرته إلى الموقف الشريف.

وقد أعرض زعماء عشائر جبال الساحل في البداية عن صداقته عكس زعماء المدينة واعتبروه فلاحاً يُمثّل جهلةً ومعظم هؤلاء الزعماء كان جاهلاً رغم غناه. ولم يكن سلمان من جهته معنياً بصداقتهم وهم جميعاً الذين رفضوا العمل لعودته من المنفى، لّما طاف عليهم وجوه العشيرة.

ومع الصداقات الجديدة في اللاذقية شاع الحديث عن الموقف الوطني لسلمان في المدينة فانتشرت السمعة الطيبة عنه وعن عشيرته وبقيت حتى الاختلاف مع سعد الله الجابري رئيس الوزراء بعد عدّة سنين.

لم يتعود سلمان طيلة نيابته حمل العرائض والاستدعاءات لأصحاب القضايا من الناس والطواف بها على الدوائر كعادة النوّاب يومها، بل استفاد من صداقاته الكثيرة فصار يكتب لصاحب العلاقة كتاباً لأحد أصدقائه في المدينة فيسعى الصديق بقضية الفلاّح حتى ينهي له مشكلته.

وجد سلمان أن الحاجة ماسّة لاعتراف رسمي بالعشيرة وبواقعها التاريخي. وبدون هذا الاعتراف فإن كل عمل عام لمصلحة الناس سيؤخذ على أنه عمل شرذمة أو عصابة من الناس. كان الحكم مزيجاً من الإقطاعي والعشائري كالعادة في المجتمعات التي لم تنتشر فيها بعد المبادلات التجارية انتشاراً عاماً فالاعتراف أن هذا القسم يمثّل جزءاً ثابتاً من الشعب يعطيه الصفة الرسمية نفسها التي كانت لغيره. وكانت لهذه الصفة مكانة الأحزاب بعد ذلك. ومعظم الأحزاب التي أُنشئت بعدها لم تكن قد ولدت بعد. فأرسل من أحصوا العشيرة كلّها في مختلف مناطقها ودوّنوا الأسماء كلّها وقدمها إلى حكومة المحافظة وقد بلغ عدد العشيرة يومها اثنين وثمانين ألفاً. وكان يضاهي عدد أكبر العشائر في البلاد».

الزعيم الصادق يريد الحضارة لأمّته

بعد رجعة سلمان من المنفى اشترك بأعمال شتّى من تجارة وزراعة وكانت أعماله تنجح بشكلٍ ملحوظ وأشاد بجانب بيت والده الطينيّ بيوتاً عدّةً طينيّةً أيضاً، ولكنه أشاد في آخر الأمر بيتاً على الطراز الحديث مؤلّفاً من طابقين.

عمد سلمان منذ توقّف الملاحقات عنه إلى إشادة المدارس في قرى جماعته، منها مدرسة في الجوبة ومدرسة في قرية الصويري في منطقة تلكلخ التي لا تبعد عن مدينة حمص أكثر من ٣٠ كيلومتراً وكان يستفيد منهما طلاّب القرية والقرى المجاورة. كما عمد إلى شقّ الطرق في الجبال الوعرة التي لم تدخلها سيّارة قبل أن يفتحها سلمان. ومنها طريق الشعرا الوعر الذي شقّه لنفسه أي على أيدي جماعته وغيرهم، أمّا البقيّة فقد توسّط لشقّها عند الحكومة المحلّيّة، حتى أصبح جبل الشعرا المنيع يرتبط بجميع قراه بمدينة اللاذقيّة من الطرف الغربي وبسهل الغاب من الطرف الشرقي حتى مدينة حماة وجسر الشغور، وأصبح للغاب طريق يمرّ بأكثر القرى. وهكذا شُقَّت الطرقات وسُيِّرت في ذلك الجبل الحصين، وأصبح اتّصال الجبل بالغاب سهلاً، وكذلك اتّصال القرى بعضها، لربّما لم تبقَ قرية في الجبل إلّا ومرّت عليها طريق أو مرّ طريق بقربها رغم وعورة الجبل، ذلك الجبل الذي لم يشهد طريقاً منذ تكوينه، ولم تسكنه حضارة سابقاً - إلّا بعض القلاع التي أقيمت بجوانبه المنخفضة - نظراً لوعورته وصعوبة السكن به. وفي هذه المدّة أجرى التجارب على زراعة الأشجار المثمرة في الجبل، فأقام البستان الذي أثبت إمكانيّة تشجير الجبل بمعظم الأشجار المثمرة، وعُرفت الأنواع التي تنجح فيه أكثر من غيرها. كما جُرِّبت زراعة الزيتون في المَلْزَق.

كان لشركة الامبريال الإنكليزيّة التي تسوّق الدخّان (أي التبغ) إلى الغرب سماسرة في جميع القرى التي تعمل بزراعة التبغ والتنباك، وكان هؤلاء السماسرة يتلاعبون بأسعار الدخّان ويتّفقون فيما بينهم على سعرٍ موحّدٍ أدنى من السعر الصحيح بأكثر من المعقول، وبذلك يحقّقون ربحاً ضخماً على حساب الفلاح وعرقه وجهده كلّ أيّام السنة، فمعيشة الفلاحين في جبال الساحل السوري كانت قد باتت تعتمد بمعظمها على الدخّان وتربية الحيوانات من الماعز والأبقار. أمّا زراعة الحبوب فكانت ذات محصول ضئيلٍ نظراً لطبيعة أرض الجبل الصخريّة على عكس الدخّان - أي التبغ - الذي كانت أرض الجبل أطيب الأراضي لزراعته. من هنا ثار سلمان على



حارة سلمان من بعيد، صورة أُخذت سنة ١٩٤٣.



صورة لنصف الطريق الذي شقه سلمان بين الجوبة وسهل الغاب، يظهر هنا من الطريق الجانب الشرقي فقط، ويظهر أيضاً قسم من الغاب وقسم صغير من جبل الزاوية. أخذت هذه الصورة سنة ٢٠٠٦ بعد أن قامت الدولة بتعبيد الطريق بعد سنة ألفين وقامت الشركات الأجنبية بتجفيف الغاب في الخمسينات. فالغاب لم يكن مزروعاً بالشكل الذي تراه بالصورة بل كان مليئاً بقصب الزلّ الطويل وبعض المناطق الصغيرة مزروعة بالذرة. أما في الشتاء فتغمره المياه.

هؤلاء السماسرة وأعلن في كلّ قرى جماعته الجبليّة أن يمسكوا الدخّان عن السماسرة وعن شركة الامبريال حتى ترضخ، وتعطي الأسعار الحقيقيّة.

يحدّثنا محمّد الفاتح عن الصدام مع شركة الامبريال الأجنبيّة والبعثات التبشيرية:

«إنّ تجارة الدخان فرضت على سلمان أن يتّخذ موقفاً من تجار اللاذقية قبل أيّة خطوة سواها لأنّ جشع التجار كان قد تعدّى أيّ حدٌ معقول باستثمار عمل فلاحي الجبل.

كانت أسعار الدخان المدخون تتبع تنافس التجار المصدّرين إلى أوروبا. فإذا اتفقوا فيما بينهم استقرّت الأسعار على مستوى واحد لصالح التجار. ولكي يتفادوا هذه المنافسة عمد معظمهم إلى التسليف على بيوت الدخان أي على امتلاك ما تتّسع له هذه البيوت التي يعلّقون فيها الدخان مراتب يحفر تحتها في أرض البيت أماكن لإشعال أوراق الشجر التي تعطي الدخان نكهته. وكان بيت الدخان يُسمى (سدّة). وكان سماسرة الدخان في الجبل وهم عادة الوجوه كانوا الواسطة بين التاجر والفلاح.

وقد أقبل الكثير من المزارعين على هذه السلفيات حتى صار الكثير منهم يقبض ثمن تدخين دخانه وهو ما يزال في الأرض. هؤلاء ارتبطوا بالتاجر كارتباط الفلاح بالإقطاعي. وكما لم يكن لدى الفلاح إلّا أرضه التي يملكها الإقطاعي كذلك لم يكن لدى الفلاح في الجبل سوى الدخان المدخون ليشتري بثمنه باقي مؤونته. فهو لا ينتج عادة من أرضه الصخرية أكثر من نصف مؤونته من القمح، ويشتري بالباقي من الثمن لباسه وعائلته وباقي نفقات العائلة. وكان على الفلاح أن يحمل جشع التاجر في المدينة ووكيله السمسار في القرية. والسمسار لم يكن يطمع بدخان الفلاح فقط بل كان يطمع أيضاً بأرضه. وهكذا بدأ السماسرة يأخذون على الفلاحين سندات رهن الأرض لديهم لقاء مبالغ السلفيات. ومايزالون يدفعون الفائدة وحدها ثم فائدة الفائدة حتى يعجزوا عن دفع الفوائد. وهكذا تذهب الفوائد بالأرض التي يريدها السمسار.

كثيرٌ من الفلاحين خسروا أرضهم ولم يعُد لديهم مرجع قانوني يُعيد لهم ما فقدوه. وكان من يفقد أرضه يتدنّى من مرتبة الفلاح الحرّ إلى مرتبة المرابع الذي لا يملك شيئاً ويسخّره المالك على هواه ويعطيه ما يشاء.

هؤلاء جاؤوا إلى سلمان يبكون ما آلت إليه حالهم ويروون أنه صدف وجود الكثيرين منهم في بيته يشكون كارثتهم فأعلمهم بغضب: (ما ربح بقا مندفع

فايده)[1]. وأرسل تهديداً لكل من يأخذ أرضاً بفائدة وكانوا يتحاكمون أمامه عندما يحاول السمسار نكران أخذه الأرض بالفائدة.

وفي العام التالي جمع سلمان المزارعين جميعاً على قرار الامتناع عن تنزيل الدخان إلى اللاذقية إلّا بالسعر المناسب. فاتفق التجار جميعاً وقرروا التمسك بالسعر الأدنى واثقين أن المال الذي بيدهم هو القوة وأن الفلاحين ستهزمهم حاجتهم للمال.

وكان أشدّ التجار عداءً المدير الجديد لشركة الامبريال الإنكليزية للدخان وهو يتبع مذهب البروتستانتية وعائلته تترأس هذا المذهب في اللاذقية. وتجمع حول المبشّر الأميركي مستر هيز الذي أنشأ مدرسة لا يزال اسمها مدرسة الأميركان - على زمن حديث فاتح طبعاً - وباشر التبشير بهذا المذهب من هذه المدرسة. وكان لهم نشاط تبشيري في عدة قرى من العشيرة منها الجنديرية واللدينة. وكان شباب هذه القرى يتلقّون العلم والكتب مجاناً كما يتلقون إعانات من لبس وطعام تأتي من أميركا مقابل تنصّرهم. ولم يكن بإمكانهم تلقّي العلم إلّا بهذه الوسيلة، وكثيرٌ منهم ارتقوا بعدها في المناصب الحكومية وبقوا على تنصّرهم. لهذا كلّه لم يكن مدير الشركة الإنكليزية معنيّاً فقط بالدخان بل كان ينافس على وجاهة الشعب هناك لسماسرته ليوسع للحركة التبشيرية فيه.

وقد ظلّ هو وجماعته متسترين بانتمائهم السياسي حتى دخول الإنكليز إلى البلاد فتبيّن أن المخابرات الإنكليزية تعتمده وتعتمد جماعته وتعضدهم بكل الوسائل ومنهم من صار لهم معاشات فور دخول الإنكليز.

كما تبنّت السفارة الأميركية الذين تبناهم المستر هيز في قرية جبلية (باب جنّه) قريبة من صلنفة وكانوا قد أعلنوا قبولهم لمذهبه فساعدتهم السفارة في المحاكم وطلبت من القوات الإنكليزية حمايتهم.

وهكذا كان التفاهم على مستوى كبار التجار يبدو شبه مستحيل فاتّفق سلمان مع بعض المصدّرين الصغار في اللاذقية من جهة ومن جهة ثانية هدّد مَن له مصالح في القرى من كبار التجار. ومايزالون يروون جلسة سلمان مع أكبر التجار المصدّرين الذي كان يتوعّد بغناه وعلاقاته فتركه سلمان وأرسل له من يخبره أن مزرعته النموذجية في الساحل ستكون الهدف وكانت أغلى ما عنده ففضّل التفاهم.

---

(١) أي لن ندفع فائدة بعد الآن.

وفي هذه الأثناء كان سلمان يمدّ المزارعين بكل ما لديه لتأمين مؤونتهم وكان يتبنى ديونهم فاستطاعوا المقاومة حتى عدّل التجار موقفهم ورفعوا السعر إلى الحدّ الأدنى الذي طالب به سلمان.

كما منع تنفيذ سندات التملّك السابقة والتي كانت لبعض الغرباء فبقيت لدى أصحابها ومنها ما لا يزالون يحتفظون بها حتى الآن ولم تعد لها أية قيمة.

ثم جاءت الحرب فأجّلت هذا الصراع حتى نهايتها، وفي نهايتها بادر سلمان إلى الاتفاق مع بعض صغار التجار لتصدير الدخّان مباشرةً إلى أميركا.

ولكن هذا الصراع تجدّد مع إدارة حصر التبغ (الريجي) وهي التي كان يديرها الإفرنسيون. وقد حبس عنها الدخان المدخون وهو الذي تتعامل به لجنة المفاوضة برئاسة مديرها العام في بيروت، وقبلت سعراً مناسباً، كما قبلت أن تأخذ الدخان غير المدخون، الذي استحال تصديره إلى أوروبا. ولم يسبق أن تعاملت بهذا النوع قبلاً».

سلمان لا يتحدّث عن اعماله

نبقى مع محمّد الفاتح:

«لم يكن سلمان يباهي بشيء من أعماله، بل ولم يكن يتحدث عنها إطلاقاً.

فكما لم يَسمعْ منه أحدٌ حديثاً عن منفاه في الرقة كذلك لم يكن يتحدّث عن قيمة الإنجازات الكبيرة التي قام بها. مثل فرض الأسعار على التجّار، مثل الطرقات الكبيرة وغيرها من أعماله. كما لم يكن يتحدث عمّن ينقذهم من السجون ومن الإعدام أحياناً من داخل العشيرة أو من خارجها فقد كان بيته مقصداً للغرباء الذين يفتقرون إلى نفوذٍ قويّ يوصلهم إلى حقوقهم أو ينقذهم من أمورٍ تمسُّ صميم حياتهم. ولم يكن يتحدّث عن شيء منها أمام الآخرين أو في بيته مع أبنائه وزوجاته. معظم أعماله لم يُسمَع بها في العشيرة إلّا عرضاً من كلام بعض من له علاقةٌ بالأمر. وقد عوّد الجميع على طبعه هذا، فلم يكن أحدٌ يسأله عادةً عمّا لاقى في سبيل هذه القضية أو تلك أو من يخاصمه في كلٍّ منها. كلُّ ما يذكره الناس من حديثه عن إحدى الطرق الثلاثة الكبرى أنه أسفَ مرةً لأن الطريق مرّت تحت قرية ليفين بناءً على طلب أهلها في حين كان الأفضل أن تمرّ فوقها. وهو التعديل الوحيد على الطريق الذي عدّله الشركة الحكومية التي عبّدتها بعد أكثر من أربعين عاماً. وكذلك لم يكن يُسمعُ عنه أنّه مدح أحداً على عمل. ولا أظن أن أحداً سمع منه أكثر من

كلمة (ما قصّرت). وحتى أبناؤه في المدرسة من نال منهم درجاتٍ عاليةٍ لم يكن يلاقي منه مديحاً بل كان يتقبّل شهادات المدرسة ويضعها جانباً.

وكذلك الأعمال الكبيرة التي كان ينوي القيام بها لم يكن يقدّم لها أو يحيطها عند إنشائها بأية دعاية. فكانت تأتي عادةً مفاجأةً للجميع تقلب عاداتهم ونظرتهم للأمور فهو لا يتقيد بمفاهيم ثابتةٍ ولا تشلّ حركته الأوضاع المفروضة من الآخرين. وكان هذا منهجه الذي لا تغيّره الأحداث الكبيرة».

ضمّ الساحل السوري إلى البلاد

انتخابات بشأن مصير الساحل السوري

تغيّرت الأمور بعد أن استلمت حكومة اشتراكيّة بزعامة ليون بلوم مقاليد الحكم في فرنسا، فقد جرت معاهدة في أيلول سنة ١٩٣٦ بين فرنسا ووفد من سورية بعضوية: هاشم الأتاسي رئيساً. فارس الخوري، جميل مردم، سعد الله الجابري، مصطفى الشهابي، أدمون حمصي. وقد نصّت على استقلال سورية مع الإبقاء على الاستشارة الفرنسيّة فيما يخصّ السياسة الخارجيّة. وكانت الأولويّة لفرنسا في النصح والمساعدة كما نصّت المعاهدة على احتفاظ فرنسا بقاعدتين حربيّتين. وأن تُضَمّ مناطق الساحل وجبل الدروز إلى سورية لكن لا يُضَمّ لبنان الذي وقّعت معه فرنسا معاهدة مشابهة لاحقاً.

وعلى هذا الأساس تمّ انتخاب برلمان، وأصبح هاشم الأتاسي رئيساً للجمهوريّة، وتولّت الحكم حكومة سوريّة، هذه الحكومة التي صدّقت على هذه المعاهدة قبل نهاية ١٩٣٦. ووَفْقَ هذه المعاهدة أصبحت محافظة اللاذقيّة وجبل الدروز ضمن الدولة السوريّة، وتَعينّ موعد انتخاب النّواب في محافظة اللاذقيّة في ٢ / تشرين الأوّل/١٩٣٧. كي يستفتوا الشعب في الساحل وجباله، إن كان يقبل بالانضمام إلى دولة سورية نهائيّاً أم لا.

أمّا الفرنسيّون فقد تغيّرت سياستهم تجاه سورية فرغم أنّ حكومتهم وافقت مبدئيّاً على المعاهدة، فإنّ البرلمان الفرنسي لم يُصدِّق على هذه المعاهدة أبداً. ومع أنّ المعاهدة تنصّ على انضمام الساحل وجبل الدروز إلى الوطن الأمّ، إلّا أنّ ممثّلي فرنسا في سورية عملوا عكس ذلك، فقد أقاموا تجمّعاً انفصاليّاً في الساحل برز في الانتخابات تحت اسم القائمة الانفصاليّة[1]. وهم ما أرادوا انفصال الساحل عن سورية إلّا ليتحكّموا بأنابيب

---

(١) أوعزت فرنسا إلى إبراهيم الكنج وعصبته لإرسال ما يشبه الاسترحامات إلى فرنسا سنة ١٩٣٦ طالبين منها عدم ضمّ منطقة الساحل إلى سوريا، وقد وضع إبراهيم الكنج اسمه على رأس قائمة الموقّعين في كل استدعاء، وفي محاولة لذرّ الغبار في العيون وضعوا اسم سلمان بين أسمائهم لإعطاء استدعاءاتهم حجماً أكبر. وقد راسلنا الخارجيّة الفرنسيّة سنة ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ فلم نجد لسلمان أي توقيع بل في بعض هذه الاستدعاءات كتبوا اسمه كتابة وليس توقيعاً ولا يشبه الخطّ بأي شكل خطّ سلمان وكتبوه سليمان مرشد بدل سلمان، وتوقيع سلمان تراه واضحاً في الصفحة (٦٨) في وثيقة التضامن، فهو يوقّع سلمان وليس سليمان، واسمه (سلمان) واضحاً في الهويّة النيابية في الصفحة (٩٠). كما أنّنا رأينا في إحدى الوثائق أنّهم كتبوا بعد أن وضعوا أسماء وفدهم الذي ذهب لتسليم الوثيقة في المفوّضيّة الفرنسيّة في بيروت يزعمون بها أنّ سلمان أرسل لهم برقيّة يدعم بها موقفهم في محاولة لتغطية عدم حضوره معهم ولكن حيلتهم هذه تلاشت هباءً عندما ترأس سلمان قائمة الانتخابات الوحدويّة ضدّ قائمة الكنج الانفصاليّة.

صورة عن محضر البرلمان السوري قبل انضمام الساحل إلى سورية تمثل انتخابات ١٩٣٦، لا يظهر بها أسماء نواب جبل الدروز ولا نواب محافظة اللاذقية بينما يظهر بها أسماء نواب إسكندرون وأنطاكية

الصفحة الأولى

المجالس

مرسوم رقم ١٠٠٩

ان رئيس الجمهورية السورية

بناء على الدستور المنشور بتاريخ ١٤ مايس ١٩٣٠

وبناء على المرسوم المؤرخ في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ رقم ٨٧٦ بدعوة الهيئات الانتخابية لانتخاب اعضاء المجلس النيابي السوري

وبناء على المرسوم المؤرخ في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ رقم ٨٧٢ بتحديد عدد المقاعد النيابية وتوزيعها بين المناطق والطوائف

وبناء على المادة ٥٦ من القرار المؤرخ في ٢٠ آذار ٩٢٨ رقم ١٨٨٩

وبناء على ضبوط تدقيق مضابط الانتخابات للدرجة الثانية الموضوعة من قبل اللجان المؤلفة في مدن دمشق وحلب واسكندرونة.

وبناء على اقتراح رئيس مجلس الوزراء

يرسم ما يلي

١ — تعلن النتيجة القطعية لانتخابات الدرجة الثانية في المناطق الانتخابية ويصبح السادة الآتية اسماؤهم اعضاء في المجلس النيابي السوري

المنطقة	اسماء النواب	الطائفة
مدينة دمشق وضواحيها	السادة جميل مردم بك · لطفي الحفار · شكري القوتلي · احمد اللحام · احسان الشريف · نسيب البكري · فخري البارودي · منير العجلاني · صبري العسلي · عفيف الصلح	سنيون
	فارس الخوري	اقليات
	فائز الخوري	روم ارثوذكس
	جورج صحناوي	روم كاثوليك
	يوسف لينادو	اسرائيليون
قضاء القلمون	محمد حمزة ومحمد خير قبلان	سنيان
» دوما	يونس الخشور وغنيم خيري	»
» قطنا	ابو الهدى الحسيبي	سني
» الزبداني	جميل الشماط	»
» القنيطرة	الامير فاعور الفاعور وعاصم محمود	سنيان
حمص وضاحيتها	هاشم الاتاسي · مظهر رسلان · رفيق الحسيني · سليمان المعصراني	سنيون
	ابراهيم النضحة	علوي

الصفحة الثانية

المنطقة	اسماء النواب	الطائفة
	عبد الله فركوح	روم ارثوذكس
حماه وضاحيتها	نجيب البرازي، الدكتور توفيق الشيشكلي، عمر الدلال	سنيون
قضاء السلمية	الامير سليمان	اسماعيلي
درعا	محمد المفلح، مصطفى المقداد	سنيان
ازرع	فارس الزعبي، اسماعيل الحريري	"
بادية دمشق	فواز الشعلان، مراد الملحم، راكان بن مرشد	سنيون
مدينة حلب	سعد الله الجابري، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، حسن فؤاد ابراهيم باشا، عبد القادر السرميني، ناظم القدسي، رشدي كيخيا	سنيون
	هرانت صلاحيان، بدروس ملتباشيان	ارمن ارثوذكس
	ادمون حمصي	روم كاثوليك
	فتح الله آسيون	ارمن كاثوليك
	ادمون رباط	اقليات
قضاء جبل سمعان	جميل ابراهيم باشا، سعد الدين الجابري، عبد العزيز حلاج	سنيون
" الباب	عبد القادر رحمو	سني
" ادلب	حكمت حكيم، وحيد دويدري، نوري الاصفري	سنيون
" حارم	سعيد الكيالي	سني
" منبج	حسين حلمي	سني
" جرابلس	مصطفى شاهين، بوزان شاهين	سنيان
" المعرة	حكمت الحراكي	سني
" اعزاز	محمد هادي بكار	سني
" جبل الاكراد	حسين عوني	سني
عشائر حلب	نواف الصالح، شايش بن عبد الكريم	سنيون
دير الزور وضاحيتها	الحاج محمد العايش، محمد نوري الفتيح، سعيد العرفي، تركي النجرس	سنيون
قضاء البوكمال	عبد الهادي الزرزور	سني
قضاء الرقة	مراوش رهبي العجيلي، مجحم البشير الحويدي، محمد الفرج	سنيون
الجزيرة	قدور الحاج علي بك، خليل ابراهيم باشا	سنيان
	سعيد اسحق	سريان ارثوذكس
عشائر الجزيرة والفرات	الامير مجحم بن مهيد، دعيم الهادي	

المنطقة	اسماء النواب	الطائفة
اسكندرونة	داود ريحاني	علوي
انطاكية	محمد آل نجي الاطلي ، مصطفى القصيري	سني
«	صادق معروف	علوي
«	موسيس دير كالوستيان	ارمن ارثوذكس
قرقخان	محمود باشا بك زاده	سني

المادة ٢ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ لمن يلزم

دمشق في ٢٥ رمضان ١٣٥٥ و ٩ كانون الاول ١٩٣٦ — محمد علي العابد

صدر عن رئيس الجمهورية السورية — رئيس مجلس الوزراء

محمد عطا الايوبي

مرسوم رقم ١٠١١

ان رئيس الجمهورية السورية

بناء على الدستور المنشور بتاريخ ١٤ مايس ١٩٣٠

وبناء على القرار المؤرخ في ٣٠ اذار ١٩٢٨ رقم ١٨٨٩

وبناء على المرسوم المؤرخ في ٩ كانون الاول ١٩٣٦ رقم ١٠٠٩ المتضمن اعلان النتيجة القطعية للانتخابات النيابية

وبناء على المادة الـ ٤٥ من الدستور

يرسم

١ — يجتمع المجلس النيابي السوري المؤلف من الاعضاء المعلن انتخابهم بموجب المرسوم تاريخ ٩ كانون الاول ١٩٣٦ رقم ١٠٠٩ في البناية الخاصة به يوم الاثنين الواقع في ٢١ كانون الاول ١٩٣٦ الساعة العاشرة تحت رئاسة اكبر الاعضاء سناً في دورة استثنائية تبتدئ من التاريخ المذكور اعلاه وتنتهي عند الفراغ من الاعمال المحددة في المادة الثانية من هذا المرسوم .

٢ — تحدد اعمال المجلس في خلال المدة المذكورة في المادة الاولى على الوجه الآتي :

١ — انتخاب مكتب المجلس — رئيس ونائبي رئيس واميني سر وثلاثة مراقبين (المادة الـ ٣٢ من الدستور)

٢ — الفصل في صحة الانتخابات (المادة الـ ٤٧ من الدستور)

٣ — تحديد تعويض اعضاء المجلس (المادة الـ ٦٧ من الدستور)

٤ — المناقشة في المعاهدة الفرنسوية — السورية .

٥ — المناقشة في الموازنة (مشروع الموازنة الاثني عشرية)

٣ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ الى من يلزم .

دمشق في ٢٦ رمضان ١٣٥٥ و ١٠ كانون الاول ١٩٣٦

رئيس الجمهورية السورية

محمد علي العابد

صدر عن رئيس الجمهورية السورية

رئيس مجلس الوزراء

محمد عطا الايوبي

صورة عن محضر البرلمان السوري تُظهر مرسوم إحداث انتخابات

عن محافظة اللاذقية سنة ١٩٣٧ وحدها دون سواها

مرسوم رقم ٨١٩

ان رئيس الجمهورية السورية

بناء على الدستور المنشور بتاريخ ١٤ مايس ٩٣٠

وبناء على القرار رقم ١٨٨٩ تاريخ ٣٠ اذار ٩٢٨ المتضمن نظام الانتخابات النيابية

وبناء على القرار رقم ٢٧٤/ل.ر تاريخ ٥ كانون اول ١٩٣٦ القاضي بالحاق منطقة اللاذقية بالجمهورية السورية

ولما كان من الضروري ان تجرى الانتخابات النيابية في منطقة اللاذقية ليشترك نوابها في المجلس النيابي السوري

وبناء على اقتراح وزير الداخلية

يرسم ما يلي :

١ — تجرى الانتخابات النيابية العامة في محافظة اللاذقية يوم السبت ٢ تشرين الاول ١٩٣٧ للدرجة الاولى ويوم الاثنين ١١ تشرين اول ٩٣٧ للدرجة الثانية.

٢ — يفتتح الاقتراع في الساعة الثامنة صباحاً ويستمر بدون انقطاع حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

٣ — اذا لم تنته عمليات احدى الهيئات الانتخابية للدرجة الاولى كما هي مبينة في الانظمة المرعية في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم السبت ٢ تشرين اول ٩٣٧ او اذا استنكف ثلاثة ارباع الناخبين المقيدين في الجداول فيعاد افتتاح الاقتراع في اليوم التالي في الساعة الثامنة ويختم نهائيا في الساعة الرابعة بعد الظهر

٤ — اذا لم يشترك في يوم الاثنين ١١ تشرين الاول ١٩٣٧ ثلاثة اعشار لمنتخبي الدرجة الثانية في الانتخاب فيعاد افتتاح الاقتراع في يوم الخميس ١٤ تشرين الاول ٩٣٧ في الساعة الثامنة ويختم نهائيا في الساعة الرابعة بعد الظهر.

٥ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ الى من يلزم

دمشق في ٧ رجب ١٣٥٦ و١٢ ايلول ٩٣٧

هاشم الاتاسي

صدر عن رئيس الجمهورية السورية

رئيس مجلس الوزراء ‏ ‏ وزير الداخلية

جميل مردم بك ‏ ‏ سعد الله الجابري

مرسوم رقم ٨٣٠

ان رئيس الجمهورية السورية

بناء على الدستور المنشور بتاريخ ١٤ مايس ١٩٣٠

وبناء على القرار المؤرخ في ٣٠ آذار ٩٢٨ ورقم ١٨٨٩ المتضمن نظام الانتخابات النيابية

وبناء على القرار رقم ٢٧٤/ل.ر تاريخ ٥ كانون الاول ٩٣٦ المتضمن الحاق منطقة اللاذقية بالجمهورية السورية

وبناء على المرسوم رقم ٨١٩ تاريخ ١٢ ايلول ٩٣٧ المتضمن تحديد موعد الانتخابات النيابية في محافظة اللاذقية

وبناء على اقتراح وزير الداخلية ‏ ‏ يرسم ما يلي :

١ — يحدد عدد الكراسي النيابية لمحافظة اللاذقية في المجلس النيابي السوري والطوائف التي يخصصون اليها على الوجه الآتي :

المنطقة الانتخابية	عدد الكراسي		
قضاء اللاذقية	٣	منها ١	سني
		١	مسلم علوي
		١	الطوائف الغير مسلمة
جبلة	٢		مسلمون علويون
طرطوس	٢	منها ١	مسلم سني
		١	« علوي
تلكلخ	٢	« ١	« علوي
		١	ارثوذكس
صافيتا	٣	« ٢	مسلم علوي
		١	ارثوذكس
مصياف	١		مسلم علوي
الحفة	٢	منها ١	مسلم سني
		١	« علوي
بانياس	١		مسلم علوي

٢ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ الى من يلزم

دمشق في ١٢ ايلول ١٩٣٧ ‏ ‏ هاشم الاتاسي

صدر عن رئيس الجمهورية السورية

رئيس مجلس الوزراء ‏ ‏ وزير الداخلية

جميل مردم بك ‏ ‏ سعد الله الجابري

صورة عن محضر البرلمان السوري تُظهر نتائج انتخابات ١٩٣٧ عن محافظة اللاذقية

الكيالي ، فان حق القضاء يقوم مقام مدير الاوقاف في الاشراف على الاوقاف وادارتها عند وقوع اختلاف .

الرئيس — الآن وقد انتهى البحث ولدينا تقرير السيد احسان الشريف ويطلب فيه تعديل هذا المرسوم واعادته الى اللجنة مع التقرير لاجل النظر فيه فالذين يوافقون على ذلك يشيرون برفع اليد (رفعت بعض الايدي)

— اذن رفض التقرير ، والآن اطرح قرار اللجنة على التصويت فالذين يوافقون عليه يشيرون برفع اليد (رفعت الايدي)

— قبل المرسوم رقم ٣٦ واصبح قانوناً ، بقي لدينا مرسوم واحد رقم ٩٦٥ بتثبيت انتخابات محافظة اللاذقية يتلوه عليكم الدكتور توفيق الشيشكلي قبل انفضاض الجلسة .

امين السر الدكتور توفيق الشيشكلي — يتلو المرسوم رقم ٩٦٥ ونصه :

مرسوم رقم (٩٦٥

ان رئيس الجمهورية السورية

بناء على الدستور المنشور بتاريخ ١٤ ايار ١٩٣٠

وبناء على المرسوم المؤرخ ١٢ ايلول ١٩٣٧ ورقم ٨١٩ المتضمن دعوة الهيئات الانتخابية في محافظة اللاذقية لانتخاب اعضاء المحافظة المذكورة في المجلس النيابي السوري

وبناء على المرسوم المؤرخ ١٢ ايلول ١٩٣٧ ورقم ٨٢٠ المتضمن تحديد عدد المقاعد النيابية وتوزيعها بين اقضية المحافظة المذكورة والطوائف .

وبناء على ضبط تدقيق الانتخابات الدرجة الثانية الموضوع من قبل اللجنة المؤلفة في مدينة اللاذقية وبناء على المادة ٥٦ من القرار المؤرخ في ٣٠ آذار ١٩٢٨ ورقم ١٨٨٩

يرسم ما يلي :

١ — تعلن النتيجة القطعية لانتخابات الدرجة الثانية في المناطق الانتخابية لمحافظة اللاذقية ويصبح السادة الآتية اسماؤهم اعضاء في المجلس النيابي السوري

المنطقة	اسماء النواب	الطائفة
مدينة اللاذقية وضواحيها	السادة : عبد القادر شريتح	سني
	علي شهاب	علوي
	فاخر الياس	اقليات .
قضاء صهيون	سليمان مرشد	علوي .
	عمر بيطار	سني
مصياف	محمد جنيد	علوي .
بانياس	محمد سليمان الاحمد	علوي
جبلة	محمد حسن اسبر	علوي
	حاتم منصور	علوي
طرطوس	محمود عبد الرزاق	سني
	محمد الاسماعيل	علوي
صافيتا	منير العباس	علوي
	امين الرسلان	علوي
	جبور الحلو	روم ارثوذكس
تلكلخ	شوكة العباس	علوي
	الياس الجرجس	روم ارثوذكس

٢ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ الى من يلزم .

دمشق في ٢١ شعبان ١٣٥٦ و ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٢

رئيس الجمهورية السورية

هاشم الاتاسي

صدر عن رئيس الجمهورية

رئيس مجلس الوزراء

جميل مردم بك

وزير الداخلية والخارجية

سعد الله الجابري

(تصديق)

الرئيس — اذا لم يكن من قال آخر اعلن ختام الجلسة على ان نعود الى الاجتماع في الساعة الرابعة من بعد ظهر السبت الواقع في ٢٥ شعبان ١٣٥٦ و ٣٠ تشرين الاول ١٩٣٧

البترول المارّة في الساحل والتي تملكها بريطانيا عدوّتهم التقليديّة، وبذلك تبقى هذه الأنابيب كورقةٍ رابحةٍ في أيديهم يستعملونها في مفاوضاتهم مع بريطانيا كما أسلفنا سابقاً، وأملوا أن تفوز قائمتهم الانفصاليّة فبذلك يحققون رغبتهم ولا يستطيع السوريّون أو عدوّتهم بريطانيا أن يحتجّوا، فشعب الساحل وجباله ـ أي دولة العلويّين ـ هو الذي أراد الانفصال عن سورية وليس هم كما كان سيبدو الأمر لو نجحت القائمة الانفصاليّة.

حديث عن هذه الانتخابات مأخوذ بمعظمه عن حديث محمد الفاتح:

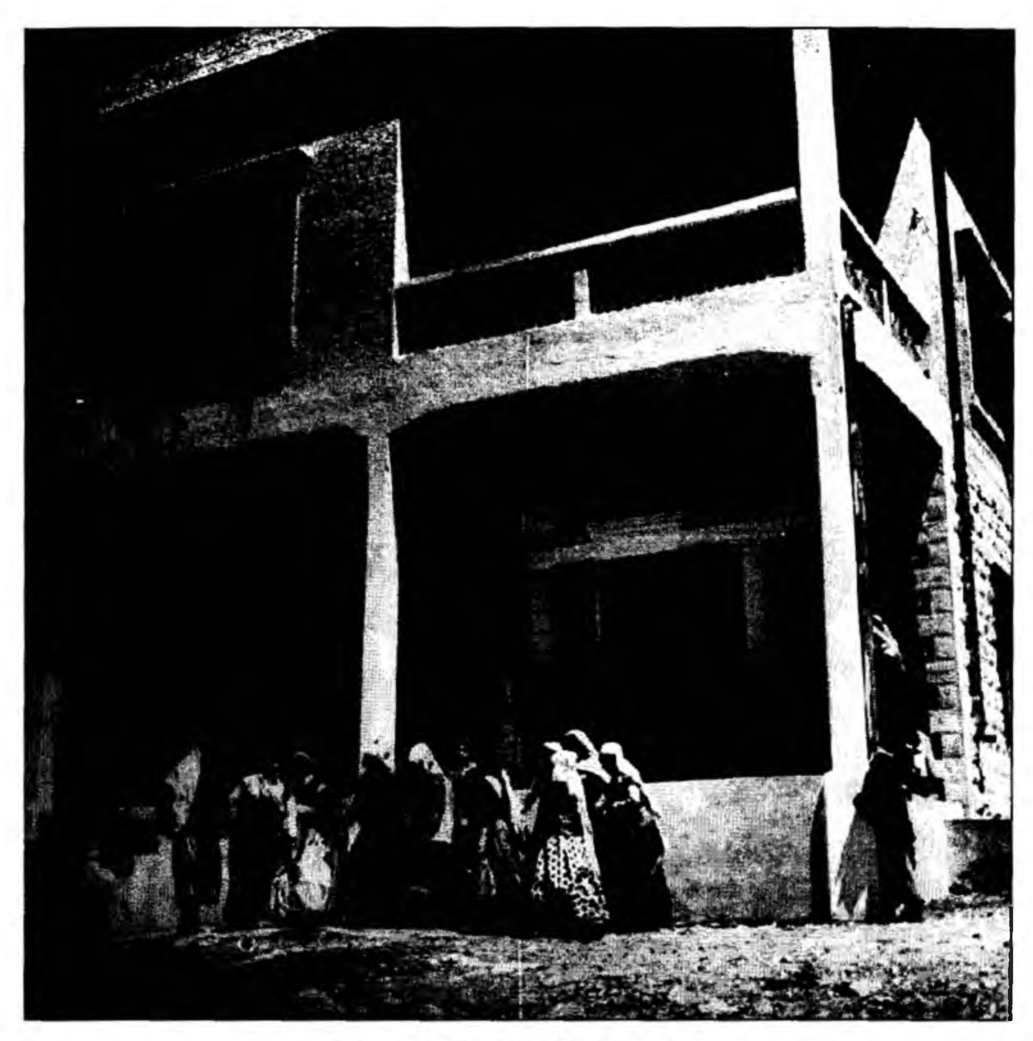
«وبدأت المشاورات في سائر أنحاء البلاد لتأليف القوائم الانتخابية. وقد قدمت إلى الجوبة وفودٌ من اللاذقية وحمص وحماه ومدن الأقضية. وكانت الانتخابات تتم على جميع أقضية الساحل السوري وجباله. ولم تكن التقسيمات الإدارية قد وزعت العشيرة بل كانت غالبيتهم المطلقة تتبع أقضيتها في محافظة اللاذقية.

أسفرت المشاورات عن تأليف قائمتين: القائمة الوحدوية تدعو إلى ضمّ الساحل إلى البلاد وكانت تجمع سلمان مع بعض زعماء الجبل وكثير من زعماء اللاذقية ومدن الأقضية. والثانية القائمة الانفصالية وهي التي تدعو لاستقلال الساحل عن سائر البلاد. وكانت تتألّف من بعض المتعاونين مع الانتداب من الزعماء ويرأسها إبراهيم الكنج وهو الذي كان يرأس المجلس النيابي المحلّي التابع للساحل وكان منهم من تعاون مع الفرنسيّين ضدّ ثورة الشيخ صالح العلي. وأحدهم كان لديه وسام الشرف من درجة ضابط. كما كانت تضمّ تجّار الدخان الذين كان للكثير منهم علاقات عائلية مع الإفرنسيين.

والقائمة الوحدوية التي كانت تعتمد خاصةً على سلمان في الجبل كانت تتصدّر النضال الوطني.

كانت ميول الإفرنسيين في الانتخابات معروفة للجميع. ولكنهم لم يعمدوا إلى فرض النتائج النهائية بالقوّة. لأنهم كانوا يريدون التفاوض مع حكومةٍ منتخبةٍ لا معيّنةٍ لتمر المعاهدة بلا مظاهرات أو ثورات.

وقد أوقد موقف سلمان الحماس في الشعب. فالانتخابات معركة لا يعرف أحد كم سيتدخل فيها المندوب الفرنسي. وزعماء القائمة الانفصالية يمثّلون العمالة بكاملها ويحملون أوسمة الشرف الإفرنسية.



احتفال صغير قدّام بيت سلمان في الجوبة

وفي يوم الانتخاب فاجأ سلمان الجميع أنّ الشارع الذي يقطع مركز القضاء في الحفة ينتشر فيه رجال العشيرة وكلٌ على كتفه بروز ينبئ عن البندقية التي تسترها سترته.

كما أرسل المسلحين إلى مناطق غيرها وكانوا لا يقبلون إلّا انتخاب القائمة الوحدوية».

ونجحت القائمة الوطنيّة أو الوحدويّة كما كانت تُدعى وسقطت القائمة الانفصالية التي ألّفها الإفرنسيون بهذا الاسم في ٢٦ تشرين الأوّل سنة ١٩٣٧.

وخلاصة القول أنّ الفضل يعود أوّلاً إلى سلمان بإنجاح القائمة الوحدويّة في محافظة اللاذقيّة الكبرى وضمّها إلى الوطن الأمّ، والتي كانت مساحتها حوالى عشرة آلاف كيلو متر مربّع، وكانت منفذ سورية الوحيد إلى البحر، فهي تمتدّ من الحدود اللبنانيّة جنوباً إلى حدود اسكندرون شمالاً (تركيا حاليّاً) ومن البحر غرباً إلى العاصي شرقاً وتضمّ سلسلتي الجبال الساحليّة على كلّ هذا الامتداد. وكان لهذه المحافظة أهمّيّة كبرى بالنسبة لاقتصاد البلاد ولسياستها، وذلك لأنّها تصل البلاد بالبحر ولمرور أنابيب البترول العراقي بها ولجودة أراضيها وخاصّةً في الساحل وزراعة الدخان في الجبال التي كانت تمثّل أهمّ مورد يومئذ للخزينة السوريّة.

لقد جاءت هذه الانتخابات شبه اختبار إن كان شعب المحافظة (الساحل السوري) يقرّ بواسطة نوّابه انضمامه إلى الوطن السوري أم يريد الانفصال عنه. ولذلك سمّيت قائمة سلمان بالقائمة الوحدويّة أي التي تنادي بضمّ الساحل إلى باقي البلاد أمّا القائمة الانفصاليّة فهي التي تنادي بانفصاله عن سورية.

وثيقة تضامن وإعلان انضمام الساحل

ولتأكيد هذا النصر وإبقائه وإعلان تأييد الاستقلال وانضمام الساحل وجباله كليّاً إلى سورية فقد اجتمع سلمان مع معظم نوّاب قائمة محافظة اللاذقية، وكتب الجميع وثيقة تعهّدٍ على أنفسهم من طوائف متعدّدة تنصّ على التضامن في تأييد الوحدة السوريّة والاستقلال التامّ للبلاد السوريّة دون أيّ سيطرةٍ أجنبيّةٍ على الإطلاق. وأنّهم متضامنون مع كلّ حكومةٍ سوريّةٍ تحترم حقوقهم الإقليميّة وتقاليدهم العشائريّة. وهذا نصّ الوثيقة بحرفيته: «نحن المجتمعون الموقّعون إمضاءاتنا بذيله نعاهد اللّه والشرف والكرامة والعرض أن نمشي على الأسس الآتية: والذي ينكث فيها منّا فإن كان مسيحيّاً فهو بريء من المسيح وإن كان سنّيّاً أو علويّاً فهو بريء من محمّد صلعم ومن ولاية علي بن أبي طالب.

أوّلاً: نحن متضامنون إقليميّاً في كلّ ما يعود بالخير علينا وعلى محافظة اللاذقيّة السوريّة.

ثانياً: نحن متضامنون بالانتخابات كيف كانت ومتى كانت وعلينا أن نتقدّم جبهةً واحدةً إليها وترك أحدنا للثاني في هذه المعمعة يعتبر خيانةً ونكساً في هذا العهد.

ثالثاً: كلّ تعدٍّ على أحدنا أو على مجموعنا يعتبر تعدٍ على المجموع الموقّع سواء كان هذا الاعتداء من قبل عشيرة أو من قبل سلطة من السلطات. وكلّ فرد حينئذٍ منّا مكلّف بمساعدة المعتدى عليه كلّ أنواع المساعدة على اختلافها كما لو كان الاعتداء موجهاً إلى نفسه.

رابعاً: كلّ مفاوضة سياسيّة أو حزبيّة لا يجوز أن يقوم فيها فرد منّا إلّا بمعرفة الجميع وموافقتهم. وعند حصول الاختلاف لا سمح الله يرجع إلى الأكثريّة وعلى الأقلّيّة أن تخضع لحكم الأكثريّة ولا يجوز لها حينئذ أن تنفرد أو تنسحب وإذا شذّ أحد منّا فالكلّ أبرياء منه وأخصام له ويعتبر ناكثاً بهذا العهد.

خامساً: نحن متضامنون على تأييد الوحدة السوريّة اللامركزيّة والمعاهدة والاستقلال التامّ الناجز للبلاد السوريّة دون أيّ سيطرةٍ أجنبيّةٍ على الإطلاق.

سادساً: نحن متضامنون مع كلّ حكومة سوريّة تحترمنا وتحترم حقوقنا الإقليميّة وتقاليدنا العشائريّة وتحترم الوحدة والمعاهدة والاستقلال الناجز.

سابعاً: إذا اختلف بعض منّا إفرادياً أو عشائرياً يلتجي إلى تحكيم أفراد الموقّعين ويستثنى من ذلك قضيّة الانتخابات فالموقّعون أدناه هم الذين يجب أن يتقدّموا إلى النيابة بتأييد الجميع متضامنين بتأييد الواحد الآخر في كلّ منطقة يكون له فيها نفوذ وسيطرة عشائريّة وحزبيّة والله على ما نقول شهيد.

٢٩ / آذار / ١٩٣٨

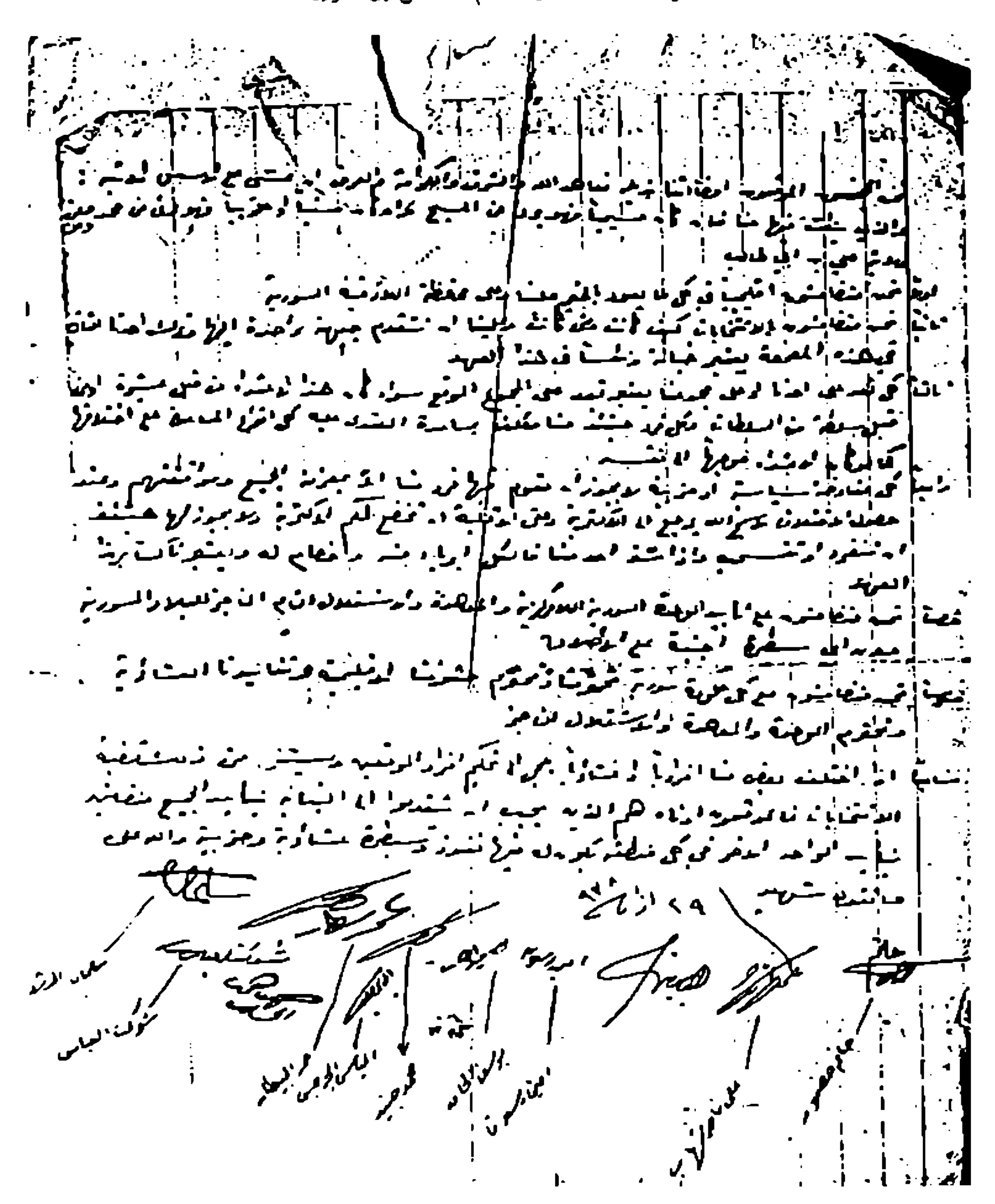
حقل التواقيع :

ـ ١ سلمان المرشد ـ ٢ شوكت العباس ـ ٣ جبره الحلو ـ ٤ عمر البيطار ـ ٥ الياس الجرجس ـ ٦ محمّد جنيد ـ ٧ أمين رسلان ـ ٨ يوسف الحامد ـ ٩ علي ناصر شهاب ـ ١٠ جانم خضور ـ ١١ .... لم نستطع قراءة اسمه*.

وفي ما يلي صورة هذه الوثيقة بأسماء موقعيها كما هي :

صورة عن وثيقة تضامن للفائزين في انتخابات سنة ١٩٣٧

تؤيد الاستقلال وانضمام الساحل إلى سورية



ما كان يُقال عن سلمان في النصف الأخير من الثلاثينات

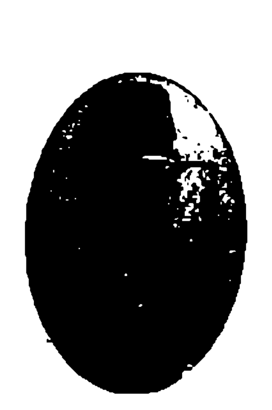
أمّا النظرة العامة إلى سلمان ذلك الوقت فلعلّ كتاب (سوريا في عهديها الجحيم والنعيم) الصادر في أيلول ١٩٣٦. والكتاب يتحدّث عن سورية ذلك الزمن، لعلّه يلقي ضوءاً على هذه النظرة فقد وضِع فيه صور وأسماء شخصيات محافظة اللاذقية الكبرى ذلك الزمن ـ الساحل السوري حاليّاً ـ وكُتِب به نبذة عن كل واحد منهم كما ترى أدناه :



سلمان المرشد   عبد القادر شريتح



مجد الدين الأزهري



عبد الواحد هارون



فائز الباس

وأضع ما قيل عن سلمان بخط مقروء بسهولة :

«(رئيس زعماء العلويين سلمان أفندي المرشد)

لا شك أن الزعيم الكبير هو رئيس زعماء العلويين في منطقة اللاذقية وهو ذو نفسية طيّبة حوت مزايا عديدة من حيث الإخلاص لأبناء عشيرته وقومه والكرم الحاتمي لكل من يراه بحاجة لشيء والحقيقة أن سلمان أفندي المرشد هو الرجل الوحيد والزعيم الكبير في منطقة اللاذقية والناس جميعهم يعرفونه حق المعرفة. وعلاوة على ذلك فهو من صميم الوطنيين كان وما زال مع الكتلة الوطنية سائرة في طريق النزاهة والإخلاص[1]».

ومن كتاب (اللاذقية في حاضرها وماضيها) الذي صدر سنة ١٩٣٩ ترى في الصفحة (٧٣) صورة الصفحتين الأوليين من الكتاب ثمّ تحتهما صورة الصفحتين اللتين تتحدّثان عن سلمان المرشد نقتطف ما يلي :

«السيد سليمان مرشد

فلتة من فلتات الطبيعة شاء الله أن يكونها في هذا العصر ويبديها للناس كأعجوبة غريبة الظهور. جعلها آية دالة على قدرته العظيمة وتصرفه بالأكوان كيفما شاء فأبداه نبتاً صغيراً ونماه بسرعة فأصبح دوحة كبيرة وارفة الظلال.

ودعا النفوس المتحجّرة والأفكار الجامدة فانقادت إليه مائعة طائعة. واستحكم نفوذه الروحي فشمل السهل والجبل. وأتاهم بأمور استقبلتها أفهامهم بالرحب والسعة وقبلتها فطرتهم فانقادوا إليها. فقبض بسبب ذلك على عنق زعامة كانت قبلاً جامحة عليه متمردة على مركزه الاجتماعي فذلّلها بحكمة وقادها ببصيرة دلّت على عبقريته الخارقة. واجتاحت بوقت قصير ما كان أمامها من وجاهة

---

(١) بقي سلمان مع الكتلة حتى أقدم زعماء الكتلة على خيانة الوحدة الوطنية باستبعاد جميع أبناء البلاد من المسؤوليّة واختصوا بها لأنفسهم مما أدّى إلى ثورة عشائر البلاد على هذه الإيثاريّة الطبقيّة وذلك بعد انتخابات ١٩٣٧.

وزعامة موروثة. فبدا مسيطراً على عدد لا يقل عن الثلاثين ألفاً[1] فنفذ فيهم نفوذ السهم في الهواء.

وكان الرئيس الفذ الذي لا يُرد أمره ولا يُهمل ذكره. وتكوّن لديه من هنا وهناك وهنالك أتباع منتشرون في سهول المنطقة وجبالها. ورأى بعين اختباراته لزوم عمال ينوبون عنه لفض مشاكلهم وقضاء مصالحهم تمكيناً لنفوذه وإدعاماً لمركزه.

فأسرع لتقرير هذه الغاية التي أصابت قابلية واستعداداً فتمركزت سيطرته وعظم نفوذه فأصبح مَحطّ الرجاء ممن كان قبلاً لا يعبأ به ولا يلتفت إليه.

إن السيد سليمان مرشد لا يملك شيئاً من العلم. ولكنه يملك كثيراً من العقل وجانباً وافراً من الذكاء وقسطاً عظيماً من العبقرية. وفوق ذلك فإن في فطرته دهاء يتطاير شرره إذا اقتدح زناده. ويبدو لهيبه إذا صادفه احتكاك.

إن السيد سليمان مرشد ليس من عائلة عريقة بالمجد ولا من بيت يشار إليه بالبنان فهو لا يعرف نعومة العيش ولم يتربى على أكفّ الدلال. نعم كلّ ذلك صحيح إلّا أنّه كناقة صالح انفلقت صخرة الثورات عنه فانبثق منها وخرج للناس أعجوبة من أعاجيب هذا القرن الذي سيبقى ذكره مخلداً فيه خلود هذا الجبل الأشم».

(١) يقصد صاحب النص بالثلاثين ألفاً في المهالبة والجبل فقط أي ليس قرى الغاب وقرى مصياف وحمص ودمشق والقنيطرة، المجموع العام للعشيرة كان ثمانين ألفاً.

- ٦ -

لمحة اجمالية

جزء العلويين

هي جزء من الوطن السوري الأم . وهي الجزء المهم المشار من أجزاء سوريتنا الحبيبة [illegible] من مناظر خلابة في سهوله وجباله وقراه وامصاره .

[illegible] الطبيعة [illegible] وخصت به [illegible] وكرم [illegible] وغيرة ومروءة [illegible] في النفوس وفطرة سليمة في القلوب والرؤوس .

ولكن [illegible] هذه الجواهر بالعلم ولم تغنها بالمعارف فكاد [illegible] الفطرة السليمة التي لم يخالطها لا في اخلاقها ولا في [illegible] ما .

اجل : ان هذه الصفات الفاضلة والاخلاق الكريمة [illegible] ماثلة [illegible] وشيوخهم وشبابهم حتى وفي اطفالهم

[illegible] سطور المروءة في وجوههم [illegible]

ولكن الرجل الغيور [illegible] لا يملك نفسه من الكمد [illegible] التي حرمتهم من العلوم والمعارف العصرية التي تزيدهم رونقاً [illegible] . [illegible] العلوم العصرية وتجعلهم كواكب [illegible] في سماء المروءة .

على انى احمد الله على [illegible] بخطوات واسعة نحو العلم والمعارف اللازمة لهذا الزمن . فها نرى في الفئة الاخيرة [illegible] الجد والاجتهاد في تلقي العلوم والمعارف العصرية . ونشاهد الاطباء

- ٧ -

والمحامين والشعراء النابغين والكتاب [illegible] يتبوءون [illegible] يوماً بعد يوم حيث الآن [illegible] بما فيها من علوم وآداب واخلاق سامية [illegible] من معنى

نعم : يمكننا ان نفاخر بمثل هؤلاء [illegible] شباب ارقى المدن السورية . ولعل الزمن الذي [illegible] والارتقاء [illegible] بسرعة على عموم الشباب العلوي الكريم

فنرجو الله ان [illegible] القصد [illegible] على شؤون هذه المنطقة ان يكثروا من تعبيد الطرق وتأسيس المعاهد العلمية وبث روح الثقافة [illegible] لتمكين اواصر الاخوة العربية و[illegible] واحياء ما [illegible] الوطنية [illegible] الامة [illegible]

وقد كفانا ما مضى وحسبنا ما اصابنا من التفرقة والتخاذل لا لسبب ولا لمنفعة . بل لفقدان دعاة الخير وتقاعسهم عن هذا الواجب المقدس الذي عم غمه وعليهم [illegible] .

ولعل كلمتنا هذه [illegible] من نفوسهم [illegible] الخلاق [illegible] والله ولي التوفيق .



- ٢٧ -

السيد سليمان مرشد

فلتة من فلتات الطبيعة شاء الله ان يكون في هذا العصر [illegible] غريبة الظهور . جعلها آية دالة على قدرته [illegible] بالاكوان [illegible] نبتاً صغيراً [illegible] الخلال

[illegible] النفوس المتحجرة والافكار الجامدة [illegible] . واستحكم نفوذه الروحي [illegible] السهل والجبل . [illegible] واسعة [illegible] . [illegible] ذلك على عنق [illegible] قبلا [illegible] على مركزه الاجتماعي [illegible] بصيرة [illegible] على عبقريته الخارقة .

واحتضنت [illegible] من زعامة موروثة . [illegible] مسيطراً على عدد لا يقل عن الالاف [illegible] .

[illegible] الرئيس [illegible] الذي لا [illegible] ولا يجهل ذكره . [illegible] من هنا وهناك [illegible] السهول المتعلقة وجبالها . [illegible] لزوم [illegible] مكانته ومركزه .

[illegible] هذه الغاية [illegible] وعظم نفوذه [illegible] لا [illegible] ولا [illegible] شيء .

ان السيد سليمان مرشد لا يملك شيئاً من العلم . ولكنه [illegible] كثيراً من العقل [illegible] من [illegible] العبقرية . [illegible] في [illegible]

- ٢٨ -

ان السيد سليمان مرشد ليس من عائلة عريقة بالمجد ولا من بيت يشار اليه بالبنان [illegible] لا يعرف نعومة العيش ولم يترعرع على الف الدلال . نعم كل ذلك صحيح الا انه [illegible] صخرة [illegible] عنه [illegible] منها [illegible] من اعاجيب هذا القرن [illegible] ذكره [illegible] فيه [illegible] الاثيم .

[illegible] ([illegible]) [illegible] الاسم [illegible] بعيدة [illegible] وتأمين [illegible] وحفظ [illegible] اكبر شاهد واعظم دليل على نبوغه ونظراته الخارقة

[illegible] الذي [illegible] في سبيل تثقيفهم وتهذيبهم [illegible] . [illegible] كلامه [illegible] او صدفة . [illegible] من الخوارق [illegible] والاماني [illegible] . فلا عجب [illegible]



هذان الكتابان (سوريا في عهديها الجحيم والنعيم).. وكتاب (اللاذقية في حاضرها وماضيها) ما زالا بحوزتي بعتقهما ومنظرهما الذي يدلّ على تناقل الأيادي الكثيرة لهما.

محاربة الطبقية والإقطاع

ثورات عشائر البلاد على استئثاريّة الطبقة الحاكمة

وبعد أن فازت الكتلة الوطنيّة في الانتخابات في كلّ البلاد وتمّت تشكيلات الدولة بمعونة العشائر طبعاً، استأثر زعماءُ الكتلة بجميع مناصب الدولة وزراء ومحافظين وكبار المناصب، وضربوا باتّفاقيّاتهم السابقة مع العشائر والفئات عرض الحائط. وقالوا أنّه لا يمكن لهم أن يستأمنوا أحداً غير أنفسهم على مصالح البلاد.

رفض سلمان هذا الوضع واعتبره خيانةً من زعماء الكتلة الوطنيّة، ونقضاً للاتّفاق الذي كان قد تمّ قبلها. وأعلن سلمان أنّ الوطنيّة يجب أن تكون عادلةً، وأن تكون ضماناً وأماناً لسائر أبناء البلاد بدون أيّ تمييز، ولكلّ الطبقات وليس لحساب طبقةٍ على أخرى. فقومة سلمان كانت ضدّ الطبقيّة والاستغلال وليست ضدّ الوطنيّة.

وقد اتّفقت آراء جميع العشائر والفئات المُبعَدة عن الحكم كالاشتراك في مجلس الوزراء وكتعيين محافظين منهم أنّ ما من شيء يعوّض عن العنف، وبغيره سيورّثون هذا الذلّ لأبنائهم. فعليهم القومة ضدّ هذه الإيثاريّة وإلغاء سلطة الحكومة من محافظاتهم ولا تعود سلطة الحكومة المركزيّة على المحافظة إلّا بعد قبولها بمطالب العشائر وهي إشراكهم بوظائف الحكومة.

وتطبيقاً لهذه النظرة استولى بنو غسّان على قرية (سطامو)[1] وهي مزرعة لهم استولى عليها بيت شريتح زمن الأتراك وبنوا فيها قلعةً صغيرةً، وهي قرب اللاذقيّة، وكانت المزرعة الوحيدة لبني غسّان التي يملكها إقطاعي في تلك المنطقة، ولم يمسّوا المزارع الصغيرة حولها والتي تعود لبعض وسطاء الناس من المدينة. وهكذا رجعت سطامو إلى فلاحيها.

أوّل ما وصل نبأ الاستيلاء على سطامو إلى المحافظ إحسان الجابري[2] وزعماء المدينة استولى عليهم الذعر، ووجد زعماء المدينة الأمر ينقلب عليهم بين عشيّة

(١) إنّ مزرعة سطامو هي من أهمّ المزارع التي كان يملكها الإقطاع في ساحل اللاذقيّة من حيث اتّساع رقعتها وخصوبة أرضها.

(٢) عمل أميناً لسرّ السلطان محمّد الخامس والسلطان محمّد السادس وظلّ مخلصاً لفكرة الإمبراطوريّة العثمانيّة حتى نهايتها تقريباً. وله مؤلّفات بالتركيّة منها (موقع اقتدار). المصدر: ذوقان قرقوط، المشرق العربي في مواجهة الاستعمار: قراءة في تاريخ سورية المعاصر، القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ١٨٥ - ٢٩٢.

وضحاها، فمزارعهم على طول الساحل عرضة للاستيلاء عليها من قبل فلاّحيها مثل سطامو. وقد أطاش صوابهم استعلاء طبقيّ لم يتبيّنوا معه أنهم عاجزون أمام سلمان عن الدفاع عنها بإمكانياتهم الخاصّة والإمكانيّات التي كانت متوفّرة للحكومة بما لديها من الدّرك ـ الجيش لم يكن قد بُني بعد ـ عادوا مع المحافظ إلى رئيس الوزراء فجمع مع حزبه كلّ ما استطاع جمعه من درك البلاد في شتّى المحافظات وأرسلوهم إلى اللاذقيّة ومنها إلى سطامو.

وافى سلمان خبرهم فأرسل مَن ردّوا الصّوت على الرجال. جاء رجال العشيرة كما لم يأتوا لأمرٍ غيره في حياتهم. جاءوا ركضاً من قراهم ولحقوا الموقعة قبل بدايتها. وكمثلٍ عليهم أهالي المَلْزَق وفيهم قريتان كانتا في الماء، هؤلاء جميعاً اشتهروا أنّهم سهليّون لا يطيقون المشي في الجبل. جاءوا ركضاً وقطعوا جبل الشعرا وكانت (الزّوّادات) التي تلاقيهم من عند أمّ فاتح لا تدركهم إلّا عند قبّة الشيخ ياسين قرب القلعة، وكثير من الوجوه جاءوا ركضاً أيضاً.

اجتمع رجال العشيرة في سطامو وأقبلت السيّارات التي تحمل الدّرك وترجّلوا منها واتّجهوا إلى سطامو بترتيب المعركة، ولمّا أطلقوا النار أطلق سلمان الرصاصة الأولى. نفر الرجال من كلّ صوبٍ لا يكاد يتميّز أحدهم عن الآخر، واتّجهوا كلٌّ يريد بندقيّة أحد الدّرك حتى وصلوا إليهم، وفرّ هؤلاء أمامهم، منهم القليل استطاع الوصول إلى السيّارات، والباقون منهم مَن أُخذ على الطريق أو في ذلك السهل المنبسط، وأسروا من أسروا من الدرك وأطلقوا سراح البقيّة وأرسلوا الأسرى إلى المحافظ. وأرسل سلمان إنذاراً إلى المحافظ بوجوب مغادرة المحافظة فغادرها قبل نفاذ المهلة التي حُدّدت له. علماً أنّه لم يُقتل أو يُجرح أحدٌ من الطرفين. أمّا الذين أسرهم رجال العشيرة من الدرك فقد تناول سلمان الطعام معهم وأعادهم إلى اللاّذقيّة دون أن يُهان أحد منهم بل حافظ على كرامتهم وقال لهم أنّه لا يريد قتالهم هم بل الذين أرسلوهم.

ووردت الرسائل من كثيرين من وجوه الفلاحين في الساحل من غير عشيرة سلمان تبارك وتؤيّد هذه الخطوة ومنهم الثائر المعروف الشيخ صالح العلي، تؤيّد سلمان وتثني على ثورته ضدّ الطبقيّة والاستغلال. ومن المضحك أنّ جماعة شريتح وشركاءه دبّ بهم ذعرٌ غريب فأرادوا الهروب من وجه رجال سلمان ظانّين أنّ هؤلاء الرجال سيواصلون تقدّمهم إلى أن يصلوا إليهم في اللاذقيّة ولم يجدوا مكاناً يلجؤون إليه سوى القوارب التي ترسو في الميناء، وناموا فيها أكثر من يوم حتّى جاءهم التأكيد من رجال أبي الفاتح أنّهم لن يتقدّموا وهم يكتفون بأخذ حقّهم المسلوب أي مزرعة سطامو. وقد وصف أحد الشعراء وهو من

غير عشيرة سلمان وليس من أتباعه المعركة الخاطفة التي دارت بين رجال أبي الفاتح وبين درك المحافظ الذين أرسلهم الإقطاعيّون بقوله:

أجندُ إحسان أم جُنُ القطا فرقاً أم جند سلمان أم تنقضُ عقبانُ

وقد أعاد رجال أبي الفاتح أيضاً فيما بعد قرية الخندق في الغاب إلى فلّاحيها وهي كانت تابعة لأحد الملّاكين المسيحيّين من حماة. وأصبحت البقعة الممتدّة على عرض المحافظة كلّها والتي تسكنها عشيرة بني غسّان من البحر إلى العاصي منطقةً لا سلطان للإقطاع عليها، وقد أوعز إلى أهالي قرية كبيرة في قضاء تلكلخ اسمها فاحل بالاستيلاء على قريتهم وساندهم حتى تمّت لهم ملكيّتها وهم ليسوا من أتباعه، واستخلص من الإقطاع قرية عين القط وبعض القرى الأخرى. وهنالك قرى غيرها شجّعها على إقطاعيّيها. وفي حمص أعاد قرية العاليّات بتهديدٍ خطّي للملّاك الذي يملك مليون دونم وهو ابن سويدان فأعاد سويدان للفلاحين سنداتهم التي تنازلوا له فيها عن ملكيّتهم سابقاً، لقد استخلص سلمان هذه القرى جميعها للفلاحين دون أن يأخذ منها شيئاً بل كان يصرف على قضاياها من صندوق العشيرة فصارت حملة الإقطاعيين عليه حملة حياةٍ أو موت.

لم يقُم سلمان وحده ضدّ زعماء الكتلة الوطنيّة، بل إنّ عشائر كثيرةً غير عشيرته قامت ضدّ هذه الإيثاريّة من زعماء الكتلة، فجبل الدروز قام ضدّها أيضاً، وقومتهم كانت بزعامة عبد الغفّار باشا الأطرش[1]، ولم يتركوا أيّ سلطةٍ للحكومة في جبل الدروز. أمّا أشدّ المواجهات التي قامت ضدّ إيثاريّة الكتلة الوطنيّة فكانت في الجزيرة حيث اعتقلوا المحافظ المعيّن من قبل الكتلة (توفيق شاميّة). وهكذا ونظراً لقيام العشائر ضدّ الكتلة فقد تقوّضت بذلك شعبيّة الكتلة ونفوذها في كلّ مناطق سورية.

أمّا موقف فرنسا من ذلك فكان موقف المتفرّج لأنّهم أرادوا أن يضرب الشعب السوري نفسه بنفسه وفق النظريّة الاستعماريّة القديمة (فرّق تَسُد) وهم الذين شجّعوا زعماء الكتلة على تبنّي هذه الإيثاريّة واستثناء العشائر من مناصب الحكومة عالمين أنّ هذا الأمر سيتسبّب باقتتالٍ داخليّ، فالعشائر لن تقبل بهذا الإبعاد عن الحكم فهم أبناء البلاد في الحقيقة أكثر من

---

(١) زعيم السويداء حسب التقاليد الدرزية المرعية، اشترك في الثورة ضدّ الأتراك، وكان من أبرز أركان الثورة الدرزيّة السوريّة التي اندلعت في عام ١٩٢٥ م، وبعد انتهائها نزح مع أسرته وإخوانه المجاهدين إلى الأزرق، في صحراء الأردن، ومكث فيها حتى صدر العفو الخاص سنة ١٩٢٨ م. حيث عاد إلى بلده، وفي عام ١٩٤١ م تقلّد وزارة الدفاع السوريّة.

المصدر: (تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي) تأليف أدهم آل الجندي. دمشق: مطبعة الاتحاد، ١٩٦٠. ص ٢٣٧.

زعماء الكتلة الذين كان أكثرهم إن لم نقل جميعهم من أصولٍ غير عربيّة. وهكذا فقد ابتلع زعماء الكتلة الطعم الذي وضعه لهم الفرنسيّون. وابتدأت القلاقل والتحزّبات ضمن البلاد فكانت التفرقة بعد الاتّحاد والمناورات والمداورات بعد الاتفاق.

بعد قيام العشائر والفلاحين السوريّين ضدّ أثرياء البلاد، اضطرّ الأثرياء الإقطاعيّون مرغمين أن يأخذوا بعين الاعتبار رأي غيرهم، وأصبح هنالك موظّفون من العشائر كمحافظين وغيرهم.

بقيت الأحوال في البلاد مقلقلةً، يحكم البلاد اسميّاً أقطاب الكتلة الوطنيّة وفعليّاً تحكمها فرنسا. ولو أنّ هؤلاء الأقطاب لم ينظروا باستعلاءٍ إلى العشائر وبقيّة الأحزاب لاستطاعوا الوقوف في وجه الفرنسيّين بشكلٍ قويّ، ولأثبتوا جدارتهم وحسن قيادتهم للأمّة. وما كانت الكتلة الوطنيّة من حيث أقطابها إلّا تجمّعاً للعائلات الغنيّة الإقطاعيّة ولم تكن تأبه للدين أو للمذهب بل عاملت كل أبناء الطوائف والعشائر في البلاد باستعلاءٍ وظلمٍ وتكبّرٍ وكانت أكثريّة فلاحي الإقطاع في سورية من السنّة.

الفداي وصندوق العشيرة

على الرغم أنّ فرنسا فتحت الطرقات وبنت في كلّ محافظةٍ مدرسةً سمّيت بالتجهيز، وشقّت الطرقات وعبّدت الرئيسيّة منها، ووضعت مخطّطاتٍ للبلديّات في المدن ونفّذتها، وبنت مستشفياتٍ وطنيّةً في المدن الرئيسيّة. وأقامت دوراً للحكومة وذلك وَفْقَ ما تعهّدت به في عصبة الأمم عندما انتُدِبَت لإعمار سورية بعد أن تركها الحكم العثماني دون أيّ طريقٍ معبّدٍ، ودون أيّ مدارس حديثةٍ سوى في بعض مراكز المدن وما كان يُدعى بالمكاتب التي تدرّس بالعقلية العثمانية، على الرغم من كلّ هذه الإيجابيّات فقد عمد الفرنسيون على إثارة الشعب في البلاد بين فئة وأخرى على أساس نظرية (فرّق تَسُد) وهذه النظرية كان يتّبعها الاستعمار حيثما ذهب. ويتجلّ عملهم وَفْقَ هذه النظريّة في سورية بإثارة الشعب بين الفئات مّما أثار المتعصّبين وحرّك العداوات في البلاد وبهذا خلقت فرنسا في الشعب السوري نعراتٍ مذهبيّةً وعشائريّةً. حتى أنّهم كانوا يختلقون في نفس العشيرة عداواتٍ عائليّةً. وهكذا أصبحت البلاد تفتقر إلى الأمن والسلام، عشائر تتقاتل بين بعضها البعض، وعائلات تقاتل عائلاتٍ في داخل العشيرة نفسها والكلّ مسلّحون.



صورة سلمان المرشد (استديو)

في هذه الظروف وبغياب الأمن رأى وجوه بني غسّان بقيادة سلمان أنّهم عشيرةً صغيرة بين هذه الجموع المتقاتلة، وبما أنّهم أرادوا الوقوف في وجه الإقطاع، وفي وجه إيشاريّة المدينة على الريف، وفي وجه الإرساليّات التبشيريّة بالإضافة لما لمسوه من تخاذل زعماء العشائر المجاورة والذين كانت عشيرة سلمان قد اتفقت معهم على أن تقوم كلّ عشيرة منهم بالاستيلاء على قرى الإقطاع التي في مناطقهم، ولكن هذه العشائر لم تحرّك ساكناً عند قيامة عشيرة سلمان على الطبقيّة الإقطاعيّة على عكس ما حدث في جبل العرب وعشائر الجزيرة التي تكاتفت وتضامنت قولاً وعملاً في مواجهة الطبقيّة واحتكار المناصب الحكوميّة، لذلك ارتأى وجوه العشيرة إقامة فرقة صغيرة أسموها (الفداي).

أدخلت فرنسا الشبّان السوريّين في الجيش الفرنسي المسمّى (جيش الشرق) على عكس ما كان يجري في العراق وفي مصر حيث تركت بريطانيا هاتين الدولتين تقيمان جيشيهما الوطنيين، أمّا عشيرة بني غسّان فلم ينخرط شبّانها في الجيش الفرنسي إلّا ما ندر وحصراً في القرى التي بقرب حمص بل أقاموا بزعامة سلمان فرقة صغيرة (الفداي) كعادة كلّ ثورات التحرّر في العالم عندما تكون بلادهم محتلّةً أو العشيرة عندما تكون مهدّدةً من جيرانها.

وكانت الفداي أربع فرق، وتضمّ أكثر من ثلاثمائة رجل، ولهم تعويضات لتفرّغهم عن زراعة أراضيهم في بعض الأوقات. وكان إقبال رجاله عليها شديداً وكذلك إقبال الآخرين.

وهكذا أصبحت عشيرة بني غسّان هي الشريحة الوحيدة من بين كلّ الشرائح السوريّة التي أبت أن ينخرط رجالها في جيشٍ غير وطنيّ، بل حمت نفسها بنفسها وسط هذه الاقتتالات التي زرعها الفرنسيّون، وساعدت في توطيد السلام في البلاد ما وسعها إلى ذلك سبيلاً.

وللقيام بمتطلّبات الفداي ولمعونة المحتاجين أنشأت العشيرة صندوقاً، وعُيّن له منذ البداية أمينٌ للصندوق وهو من وجوه العشيرة واسمه الشيخ أسعد ناصر. وكان هذا الصندوق يتكفّل بسائر النفقات. فمن الصندوق كانت تعويضات الفداي، ومنه كانت نفقات المعارك كلّها من سلاحٍ وذخيرةٍ ومؤونةٍ وكلّ ما اقتضته مواقف العشيرة العامّة من مصاريف. وكان عماده التبرعاتُ، وأُقيم له مواردُ ثابتةٌ فأُلحِقت به موارد أراضٍ في الجبل كان قد اشتراها سلمان لهذا الغرض منها من أبناء العشيرة ومنها من الآخرين، وكان يدفع أثمانها كاملةً، وكان أصحابها يبقون يعملون بها بشرط أن يدفعوا ٢٥ ٪ من المحصول إلى صندوق العشيرة[١] المعتمد بكلّ المصاريف العامّة، وكان سلمان يصرف على عائلته من هذا الصندوق أيضاً، وعلى العزائم والولائم التي كانت تُقام في حارة سلمان في الجوبة بين الحين والآخر، وكم كانت كثيرة !!، فكانت البلاد في ذلك الزمن مليئة بالتجمّعات وبالأحزاب وبأصحاب المذاهب الكثيرة. فما يذهب أولئك حتّى يأتي هؤلاء. كما كان يُصرَف منه على الفداي وأسلحتهم ولوازمهم ومصاريفهم الخاصّة. وخلاصة القول أنّه كان يمثّل ماليّة العشيرة.

هذا وقد أُلغيت كلّ تشكيلات الفداي الشعبيّة بعد أن صار للحكومة شرطتها المدرّبة فلم

---

(١) كلّ هذه الأراضي لم تصل إلى أكثر من حدّ السماح بحدود الملكيّة الفرديّة بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي فيما بعد، فلم يُصادَر منها شيء.

يَعُد هنالك حاجة لفرقة مدرّبة لتحمي العشيرة، وأُوقِف العمل بصندوق العشيرة منذ سنة ١٩٤٣.

لأنّ الفداي كانت قد أُقيمت أساساً في غياب الأمن والاستقرار، فالعشيرة كانت عشيرةً صغيرةً تحيا ضمن محيطٍ من الكراهية والاعتداءات، فقد أمل أبناؤها من الحكومة أن تجعل الأمن يسود، فلم يبقَ من حاجة للفداي ولا لصندوق لها.

مكيدة إقطاعيّة

كان هنالك تضامن بين إقطاعيي سورية فهم يحاربون كلّ فردٍ يجرؤ على الوقوف بوجههم، وبعد استرجاع سطامو من يدِ شريتح أشهر إقطاعيي اللاذقيّة انتصر له بيت البرازي من إقطاعيي حماة ذوو الجذور الكرديّة وكانت سيطرة حماة على ريفها قويّةً جدّاً، وقد أقنع الإقطاعيّون من بيت البرازي بعض العشائر بنهب القرى التي في الغاب والتي يسكنها قسم من عشيرة سلمان، وكان زعماء هذه العشائر موالين لبيت البرازي من إقطاعيي حماة الذين كانوا سند زعماء هذه العشائر في الدولة وعند فرنسا. والإقطاعيّون ما كان يهمّهم من الأمر إلّا دفع عشائر من الفلاحين لمحاربة عشيرة سلمان، وهذا الأمر يتحقّق بالحالين أخسرت العشائر التي أثاروها ضدّ سلمان أم لم تخسَر، ولكنّ الانتصار الساحق السريع الذي أحرزه رجال سلمان فرض هيبتهم على جوارهم جميعاً فلم يتمكّنوا بعدها من دفع أحدٍ إلى منازلة رجاله.

وإليك ملخّصاً عنها كما رواه الذين عاصروها وشاركوا بها:

«قدّموا لعدوانهم بمؤامرة عزموا فيها أحد وجوه العشيرة الغسانيّة إلى إحدى قراهم القريبة وهي تلّ الغار، فلمّا جاء ومعه نفرٌ قليل إلى العزيمة لم يروا أحداً في البيوت بل انهمر عليهم الرصاص من الكمائن، وأصابت الوجيه رصاصة في جبهته فأردته قتيلاً، وقُتِل واحد من رفاقه أيضاً، وجُرِح آخرون. وتَمَتْرَسَ بقيّة رفاقهم ببعض الخرائب المتواجدة، واستطاع بعضهم أن يصل تحت الرصاص إلى جثّته في السهل ويعود بها.

هبّ الرجال الذين وصل إليهم نداء القتال من كلّ صوبٍ من المَلْزَق وقرى الجبل وأسرعوا إلى مكان المعركة، وكانت العشائر المهاجمة مهيّأةً ومعبّأةً للقتال.

كان رجال سلمان يطلبون أن يُسَلِّم القَتَلَة فقط، ولكنّهم رأوا أمامهم عشائر مُعبّأة ضدّهم، وقد أخذت المواقع الحصينة من رأس الشعرا إلى الماء في الغاب، وكان توجيه سلمان واضحاً للرجال أن لا يكونوا البادئين بالقتال.

تواجهت الفئتان، وكان الآخَرون يهدّدون بالنهب والقتل، وقد وُجِدَت معهم الأكياس الفارغة التي أعدّوها لما سيسلبونه من قرى بني غسّان في المُلْزَق.

انتقل سلمان إلى المُلْزَق ويروي من كان حاضراً أنّه كان يهيب بهم عند قدومهم: (يالله يا شبابي) فتطايروا إلى مكان المعركة. ولمّا أطلقت العشائر المهاجمة الرصاصَ لم يبقَ لدى رجال سلمان أيّ تنظيم، فقد تخلّلوا تجمّعات الآخرين بهجمتهم وسبقوا بعض الفارّين منهم، ولم تتوقّف القوى الشعبيّة من عشيرة سلمان وأمامهم بعض المشاهير في القتال إلى أن أتاهم أمر سلمان بالتوقّف حيث وصلوا. كان الهلع قد سيطر على خصومهم في القتال حتى أنّ القرى التي في طريقهم بات يخليها سكّانها قبل وصول رجال أبي فاتح وكانوا لا يرون إلا قرىً قد فرّ أهلها والطبخ ما زال على النار إذ لم يجد أصحابه متّسعاً من الوقت كي ينزلوا الطبخة ويأخذوها معهم. حتّى أنّ أهالي الإقطاعيّين في حماة الذين نفخوا في نار هذه الفتنة بدؤوا بمغادرة مدينتهم. وكان بإمكان رجال سلمان عمل ما يريدون في هذه القرى التي فرّ أهلها إلّا أنّ توجيهات سلمان بعدم مسّ أيّ غرضٍ مهما كان ثميناً أو وضيعاً منعتهم من سلب مقاتليهم. سارعت فرنسا إلى وضع قوّاتها بين رجال سلمان وبين قرى ريف حماة كي تمنع تقدّمهم وأرسلوا إنذاراً إلى سلمان بوقف القتال.

ولم يكن سلمان ينوي متابعة الهجوم أصلاً، وقد أوقف رجاله قبل تدخّل فرنسا وأحبّ إخماد نار الفتنة قبل استفحالها، لأنّ إشعال نار الفتنة هو عين ما أراده الإقطاعيّون ليوقعوا بين عشيرة سلمان وبين غيرها وعين ما يريده الفرنسيّون من ضرب الشعب السوري بعضه ببعض. ولم يَقتُل أو يجرَح رجالُ سلمان من محاربيهم أحداً وهكذا لم يثأروا لمن قُتِل منهم في بداية المكيدة. فالذين قاتلوهم كانوا فلاحين أمثالهم ولكن كان مُغرّراً بهم».

ومن المستحسن أن نروي هذه الحادثة التي جرت أثناء الفتنة التي دبّرها إقطاعيّو حماة. حدّثنا رجال ممّن حضروا الوقيعة: «أسَرَ رجال سلمان شخصاً كان مشتركاً في هذه المكيدة وأخذوه إلى حارة الزيارة في الغاب وكان أبو فاتح وأمّ فاتح فيها وقتها.

كان هذا الشخص خائفاً جدّاً قبل وصوله إلى حارة الزيارة ولكنّه تفاجأ بالمعاملة الحسنة التي عاملته بها أمّ فاتح وقد أُطلق سراحه في اليوم الثاني. وبعد هذه الحادثة بحوالى ١٥ سنة صار هذا الشخص يُلاقي للمرشديّين القادمين من سجن مصياف إلى قرى في الغاب حيث كانت الطريق تمرّ بجوار بيته، ويقدّم لهم الخبز إكراماً للمعاملة الطيّبة التي لقيها من أمّ فاتح».

افتضاح زعماء الكتلة في تبعيّتهم إلى فرنسا

ادّعت تركيا أنّ لواء اسكندرون السوري يمثّل قسماً من أراضيها لتكاثر الأتراك به، ووجدت فرنسا أنّ من المستحسن بالنسبة لمصالحها أن تذعن إلى مطلب تركيا، وبالمقابل عقدت تركيا معاهدة تحالف مع بريطانيا وفرنسا (١٩٣٩) والتي استوجبتها ضرورات الحرب العالميّة الثانية والتي كانت شرطاً أساسيّاً لازماً تخلّت بموجبه فرنسا لتركيا عن مقاطعة هاتاي (Hatay) مع ميناء اسكندرون المتوسّطي (اسكندرونة)[١].

ولواء اسكندرون كما هو معلوم تاريخيّاً كثيرٌ من سكّانه من العرب وهو أرض سوريّة منذ بدايات التاريخ وعاصمته أنطاكية بقيت عاصمة سورية مئات السنين قبل ظهور الإسلام، ثمّ وبعد الإسلام بقي هذا اللّواء قطعة من أراضي الخلافة، ثمّ بعدها بقي من الأراضي السوريّة في زمن الحكم العثماني نفسه حتى تمّ سلخه سنة ١٩٣٩ أثناء الانتداب الفرنسي على يدي فرنسا ورضوخ زعماء الكتلة الوطنيّة، وكان الناس من جبالنا يقصدون مدينة أنطاكية لشراء حاجيّاتهم أكثر من اللاذقية. وآلاف العائلات أصبح يعيش قسم منها في اسكندرون وقسم في محافظة اللاذقية بعد الهجرة الشعبية الكبيرة على أثر قيام ثورة عرب اسكندرون المعروفة احتجاجاً على سلخ لوائهم وتصدّي العسكر الأتراك لهم.

ويكمن سرّ خسارة لواء اسكندرون بتلك السهولة الغريبة ودون أيّ معارضة تقريباً، هو الخوف على الكراسي التي وضعتهم عليها فرنسا فهو وحده الذي أخرسهم عن سلخ لواء من خيرة الألوية وأجودها من الدولة السوريّة والذي يمتدّ على البحر امتداداً يوازي ما لسورية من امتداد على البحر حالياً، وتبلغ مساحته ما لا يقلّ عن خمسة آلاف كم مربّع ويمثل خصوبة الساحل السوري الحالي. وأسماه الأتراك (Hatay) هاتاي إخفاء لحقيقته العربيّة[٢].

---

(١) المرجع: Saracoglu. Sükrü --- Kemalist policies – Turkey. history of ---

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA CD 2000 DELUXE EDITION –
2000 October 18, 1999 -- (A CD-ROM-based encyclopedia from the editors of the Encyclopaedia Britannica).

(٢) «قررت الحكومة أن ترسل رئيس الوزراء (جميل مردم) ووزير الخارجية والداخلية (سعد الله الجابري) ورافقهم (نجيب الأرمنازي أمين عام رئاسة الجمهورية) للدفاع عن حقوق سورية في باريس وجنيف.

وغادر الوفد السوري في ٣/ ٢/ ١٩٣٧ إلى باريس أولاً وقابل وزير الخارجية الفرنسي ايفون دلبوس (Delbos) في ١١/ ٣/ ١٩٣٧ ووكيله بيير فينو (Vienot). ثم توجه إلى جنيف وعاد إلى سورية دون أن يفوز من الرحلة بطائل بالنسبة لمشكلة ■

انهيار الكتلة

لم تستقم الأوضاع للكتلة فقد تلاحق انهيارها بعد قيام الثورات الشعبية عليها فمن الثورات التي واجهتها منذ سنة ١٩٣٨ عندما تناست كل العشائر التي ساندتها في الانتخابات واستأثرت بجميع المناصب إلى المظاهرات ضدّها التي تتابعت في دمشق سنة ١٩٣٩ والتي ما فتئت تتصاعد حتّى أطاحت بحكومة الكتلة، وكان يقود هذه المظاهرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر[1]. أمّا الحملات التي شنّها في خطاباته على الكتلة فكانت كثيرة جداً أبرز بها تواطؤ حكومة الكتلة مع الفرنسيّين ممّا أثار نقمة الشعب عليها وعلى سياستها في التبعيّة إلى فرنسا. واتهمت المعارضةُ بقيادة الشهبندر زعماء الكتلة بالتواطؤ مع الفرنسيّين نظراً للتنازلات التي قدّموها لهم: كمسألة لواء اسكندرون الذي تمّ إعطاؤه لتركيا نهائياً في حزيران سنة ١٩٣٩ ومسألة توسيع حدود دولة لبنان الكبير على حساب سورية.. الخ.

ونتيجةً لهذه المظاهرات توالت استقالات وزراء حكومة الكتلة الواحدة بعد الأخرى حتى استقال رئيس الجمهوريّة هاشم الأتاسي نفسه في ٧ تموز سنة ١٩٣٩ بعد إعطاء لواء اسكندرون بأقل من شهر، وجاءت حكومة المديرين بعده برئاسة بهيج الخطيب.

واغتيل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر سنة ١٩٤٠ وأشارت أيادي الشعب في دمشق إلى زعماء الكتلة الوطنيّة أنّ اغتياله تمّ بأوامرهم لأنّهم خافوا منه أن يستولي على القيادة الوطنيّة لسورية فيخسرونها نهائياً ولأنّه أقام الشعب السوري ضدّهم. وهرب أثر اغتياله بعض زعماء الكتلة إلى خارج البلاد إلى العراق ومنهم سعد الله الجابري ولطفي الحفّار وجميل مردم رئيس الوزراء وقيل أن شكري القوتلي أحد وزراء حكومة هاشم الأتاسي المنهارة هرب يومها إلى السعوديّة وليس إلى العراق كرفاقه وقيل ذهب إلى العراق أوّلاً ومن هناك إلى السعوديّة. وذلك عندما أصدرت الحكومة الجديدة أمراً باعتقالهم لاتّهامهم باغتيال

الاسكندرونة. وتجنّب في طريق عودته عبر تركيا التفاوض مع الأتراك بناء على طلبهم، حيث استقبلهم في محطة أنقرة القائم بأعمال السفارة الفرنسية متظاهراً أنّه لا رأي له في بقائهم أو عدمه، ولكنه في الحقيقة كان يحبّذ عدم بقاء الوفد.

وخطب سعد الله الجابري في حلب في ٧/ ٤/ ١٩٣٧ حول قضية اللواء والاعتماد على الجيش الفرنسي لحماية وحدة البلاد. ومما قال: «إن السوريين لا يجب أن يعتبروا الفرنسيين كأعداء وأيضاً ليسوا غرباء. فالجيش الفرنسي يجب أن يكون محترماً كجيش وطني». المصدر: د. عبد الرحمن البيطار. قضية لواء الاسكندرونة والوحدة السورية، اليمامة، ١٩٩٦، ص ٩٤ - ٩٥.

(١) الدكتور عبد الرحمن الشهبندر هو الذي أسّس حزباً أسماه بحزب الشعب وهو الذي اشترك مع سلطان باشا الأطرش بالثورة ضدّ الفرنسيين وحكمته فرنسا بالإعدام ولكنه استطاع الفرار من سورية آنذاك، واستمرّ في معارضة الفرنسيين متنقلاً بين البلاد العربية. ثم رجع إلى سورية ليقود المظاهرات ضدّ زعماء الكتلة وتخاذلهم أمام الأجانب حتى تمّ اغتياله بتدبير من أقطاب الكتلة.

الزعيم الوطني عبد الرحمن الشهبندر الذي قاد المظاهرات الكبيرة في دمشق ضدّهم، وكانت الجماهير المتظاهرة تتهمهم بالتآمر مع فرنسا واستئثارهم بكلّ الوظائف فهم نفسهم كانوا الحاكمين طيلة حكم فرنسا وكان الشعب يسمّي حكمهم بحكم المزرعة أي جعلوا من سورية عبارة عن مزرعة لهم. فقد بدأت تظهر أسماؤهم في الوزارات وغيرها من العشرينيّات عندما تألّفت الكتلة الوطنيّة في ٢٥ تشرين أوّل ١٩٢٧ حتى استتب لهم الأمر بشكل كامل سنة ١٩٣٦.

خديعة إعلان الاستقلال

بعد قيام الحرب العالميّة الثانية سنة ١٩٣٩ خسرت فرنسا الحرب في مدّة قصيرة وأعلن الجيش الفرنسي المتواجد في سورية ولبنان انضمامه إلى حكومة فيشي ـ سميت هذه الحكومة على اسم المكان الذي وُقّعت به المعاهدة ـ بإمرة بيتان وهو الجنرال الذي انضمّ إلى هتلر، وانشقّ ديغول عنه معلناً أنّ فرنسا خسرت معركة ولم تخسر الحرب بَعد. وذهب إلى بريطانيا ليؤلّف حكومة فرنسا الحرّة في المنفى بمساعدة بريطانيا وبقيّة الحلفاء.

وبقي قسمٌ من الجيش الفرنسي في فرنسا ومستعمراتها على ولائه لحكومة فيشي النازيّة، ومن هذا القسم الجيش الفرنسي المتواجد في سورية ولبنان والذي كان زعماء الكتلة من أشياعه إبقاء على كراسي الحكم والتي ما انفكّوا متمسكين بها بأرجلهم وأيديهم كلّ سنوات الحكم الأجنبي يطيعون المحتلين بما يريدون بشرط بقائهم في مركز القيادة واستغلّت فرنسا فيهم عقدة الحكم هذه فسلخت عن سورية لواء اسكندرون لتراضي به تركيا الكماليّة.

واستقبلت قيادة الجيش الفرنسي النازي في سورية طائرات الألمان في مطاراتهم الحربيّة التي أنشأتها في سورية ولبنان مما أثار حفيظة الحلفاء ضدّهم، وعمدت بريطانيا إلى الإسراع بالقضاء عليهم، فأدخلت جيوشها إلى المنطقة. وبعد عدّة معارك متلاحقة استمرت شهراً انتصرت بريطانيا والديغوليّون وأصبحت سورية ولبنان تُحْكَمان من قبل الجيشين الإنكليزي والفرنسي معاً منذ ذلك التاريخ.

أعلنت فرنسا الحرّة وبريطانيا استقلال سورية ولبنان منذ دخولهما إلى سورية، سنة ١٩٤١، ولكن سورية لم تتخلّص من حكم الأجنبي حتى يوم الجلاء بل بقيت ترزح تحت حكم الدولتين الفرنسيّة والبريطانيّة معاً مدّة خمس سنوات بعد هذا الإعلان. وكلّ ما فعلوه أنّهم أجروا انتخابات وتشكّلت حكومة وهذا كان حاصلاً قبل أن يدخلوا إلى سوريّة فما الجديد؟!..

انتخابات سنة 1943

في البداية كان سلمان يُنتخب لمجلس النواب في اللاذقية، ابتدأ هذا الأمر سنة ١٩٣٣ أمّا في سنة ١٩٣٧ فقد انتخب إلى مجلس النواب في دمشق مترئساً القائمة الوحدويّة وجرت انتخابات سنة ١٩٤٣ على خلفية إعلان استقلال سورية الذي أعلنته فرنسا الحرّة بموافقة بريطانيا عندما دخلتا البلاد. احتفظ بها سلمان بمقعده ومقاعد كتلته في البرلمان. وكانوا ستّة نوّاب ومنهم سعيد درويش عن منطقة تلكلخ وهو من عشيرة سلمان، ونوري الحجّي من جبل الأكراد[1] والياس عبيد من قضاء تلكلخ وآخران من عشائر جبل الساحل كما كانت كتلة سلمان مؤتلفة مع كتلٍ غيرها من حلب خاصةً ومن الجزيرة، وإليك حديث محمّد الفاتح عن صداقات سلمان:

«كان سلمان نائباً في المجلس النيابي بدمشق وقد انعقدت بينه وأحزاب المعارضة في البلاد صداقات بقيت قائمة حتى بعد الإعدام وكانت عوناً كبيراً لأبنائه في محنتهم الكبرى. وأحياناً كثيرة كان أصدقاؤه من عائلة الخصم نفسها، وكان حلمي الأتاسي محاميه وكذلك أخوه مكرّم وهما أبناء عم الرئيس هاشم الأتاسي، وكانت علاقاته وثيقة مع كثير من العائلات العريقة في دمشق وقد ساء ذلك زعماء الكتلة وكانوا يحاولون عزله عن أصدقائه بقولهم أن سلمان ليس سليل عائلة إقطاعية بل هو رجلٌ من عامّة الشعب وهذا ما كرّروه في كتاباتهم وكانت هذه تهمة كبرى بنظر الفئة الحاكمة.

وقد كثُرت علاقاته بشخصيّات لبنانيّة حتى صار إعلان العامل من عشيرته في لبنان أنّه ينتمي لسلمان المرشد كفيلاً بردّ حقوقه إليه في معظم الحالات، ذلك أنّ بعض أصحاب العمل في لبنان كانوا لا يدفعون أحياناً أجرة العامل بعد تشغيله.

وكانت كتلته في البداية عنصراً هاماً في المعارضة داخل المجلس النيابي ثم بعد استقالة الكتلويين صار لها نفوذٌ قوي مع الحكومات المتعاقبة. والغريب أنّ انقسامات حزب الكتلة الوطنية على نفسه وهي الانقسامات الشهيرة كان المنشقون عنها لا يحملون لسلمان أي عداء بل ويدينون أعمال الأشخاص الذين دبّروا الحوادث الطائفية. من هؤلاء المنشقّين من حلب مَنْ أصبح رئيساً للمجلس النيابي كرشدي الكيخيا ومنهم مَنْ صار فيما بعد رئيساً للجمهورية كناظم القدسي».

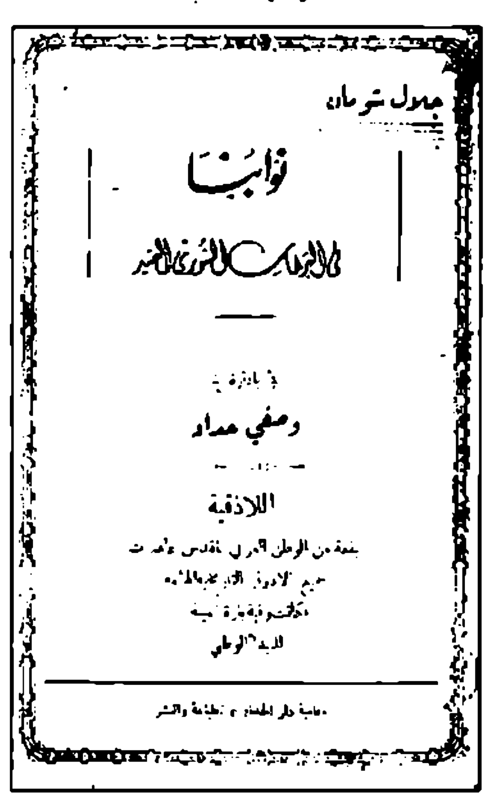
---

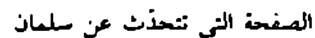
(١) من زعماء جبل الأكراد في منطقة الحفّة، وهم أكراد مستعربون بشكل كامل، يشير مؤلفا «ولاية بيروت» إلى أنّه لم يبقَ واحدٌ منهم يعرف الكردية. ومنذ العهد العثماني كان آل الحجة من زعماء قرية سلمى، ومتحالفين مع عشيرة الصهاونة الستة أمثالهم في بابنا، لكنّهم تحالفوا بعد ذلك مع عشيرة سلمان المرشد. كان الحجة نفسه من حلفاء سلمان المرشد وأصدقائه، وقد تحالف معه في قائمة واحدة في انتخابات العام ١٩٤٣، بينما كان عمر البيطار أحد أبرز زعماء عشيرة صهيون، وأحد أبرز قادة ثورة الشمال ضدّ الفرنسيين حليف المرشد في انتخابات ١٩٣٧، وأعيد انتخابه في الجمعية التأسيسية في العام ١٩٤٩. المصدر: محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك، ولاية بيروت - القسم الشمالي، بيروت: لحد خاطر، ١٩٨٧، ص ٤٣٩-٤٤٠.

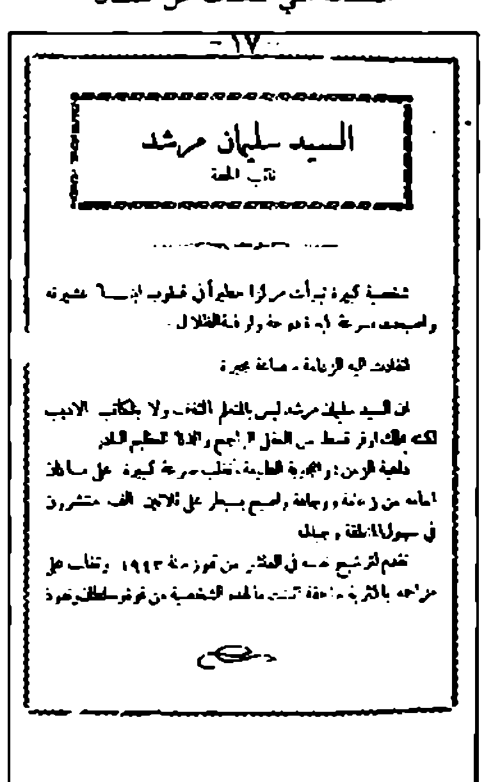
نظرة خاطفة عن كتابات تلك المرحلة عن سلمان

نقتطف لأجل تبيان هذه النظرة نبذة تتحدّث عن سلمان من كتاب (نوابنا في البرلمان السوري العتيد)[1] سنة ١٩٤٣ بقلم جلال شومان دار الحداد للطباعة والنشر، ص ١٧. وإليك صورة صفحة الغلاف وصورة صفحة حديثه عن سلمان:

واجهة الكتاب







(١) أحتفظ بنسخة من هذا الكتاب التي يظهر عتقها، ومنظرها يدلّ على تناقل الأيادي الكثيرة لها.

صورة عن محضر البرلمان السوري تمثل انتخابات ١٩٤٣، ويلاحظ بها وجود محافظة اللاذقية ومحافظة السويداء (جبل الدروز) واختفاء اسكندرون وأنطاكية من قائمة الانتخابات.

الصفحة الأولى

وبذلك تم النصاب بتأليف المكتب الموقت للمجلس الذي هو عبارة عن رئيس المجلس وامينَي السر .. وقد حضرت الاكثرية كبيرة من الاعضاء . افتتح هذه الجلسة وطلب من امين السر ان يقرأ المرسوم القاضي بدعوة المجلس للاجتماع .

امين السر — يتلو المرسوم رقم (٥٥٤) وهذا نصه :

المرسوم رقم ٥٥٤

ان رئيس الدولة رئيس حكومة الجمهورية السورية

بناء على الصلاحيات التي يمارسها

وبناء على القرار المؤرخ في ٢٠ آذار ١٩٤٣ ورقم ١٨٨٩

وبناء على المرسوم المؤرخ في ٧ آب ١٩٤٣ ورقم ٥٤٦ المتضمن اعلان النتيجة القطعية للانتخابات النيابية يرسم ما يلي :

١ — يجتمع المجلس النيابي السوري المؤلف من الاعضاء المعلن انتخابهم بموجب المرسوم المؤرخ في ٧ آب ١٩٤٣ ورقم ٥٤٦ في الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء الواقع في ١٧ آب ١٩٤٣ تحت رئاسة اكبر الاعضاء سناً في دورة استثنائية تبدأ من التاريخ المذكور اعلاه وتنتهي عند الفراغ من الاعمال المحددة في المادة الثانية من هذا المرسوم

٢ — تحدد اعمال المجلس النيابي في خلال الدورة الاستثنائية المذكورة في المادة الاولى على الوجه الآتي :

١ — انتخاب مكتب المجلس (المادة ٦٣ من الدستور)

٢ — انتخاب رئيس الجمهورية (المادة ٦٨ من الدستور)

٣ — النظر في صحة الانتخابات (المادة ٤٧ من الدستور)

٤ — النظر فيما يراه المجلس ضرورياً من الاعمال .

٣ — ينشر هذا المرسوم ويبلغ لمن يلزم لتنفيذ احكامه .

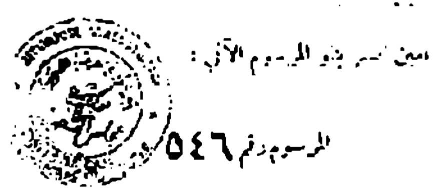
دمشق في ٨ آب ١٩٤٣

وزير الداخلية — رئيس الدولة رئيس الحكومة

التوقيع : محمد عطا الايوبي — التوقيع : محمد عطا الايوبي

الرئيس — تتلو الآن المرسوم رقم ٥٤٦ القاضي بتثبيت الاعضاء المنتخبين لتسجيل اسمائهم في سجل أعمال المجلس وأرجو من الاعضاء الحاضرين ان يجيبوا بكلمة (حاضر) عند سماع اسمائهم .

امين السر يتلو المرسوم الآتي :



المرسوم رقم ٥٤٦

ان رئيس الدولة رئيس حكومة الجمهورية السورية ،

بناء على الصلاحيات التي يمارسها

وبناء على المرسوم المؤرخ في ٢١ حزيران رقم ٣٦٧ المتضمن تحديد موعد الانتخابات العامة بدرجتيها الاولى والثانية .

وبناء على المرسوم المؤرخ في ٢١ حزيران ١٩٤٣ رقم ٣٦٨ المتضمن تحديد المقاعد النيابية وتوزيعها على المناطق والطوائف .

وبناء على المادة ٥٦ من القرار المؤرخ في ٢٠ آذار ١٩٢٨ رقم ١٨٨٩ المتضمن نظام الانتخابات

وبناء على ضبوط تدقيق انتخابات الدرجة الثانية الموضوعة من قبل اللجان المنصوص عليها في المادة ٥٩ من نظام الانتخابات النيابية المشار اليه اعلاه

وبناء على اقتراح وزير الداخلية .

يرسم ما يلي :

١ — تعلن النتيجة القطعية لانتخابات الدرجة الثانية في المناطق الانتخابية ويصبح السادة الآتية اسماؤهم اعضاء في المجلس النيابي السوري .

الصفحة الثانية

المناطق الانتخابية	اسماء النواب	الطوائف	المناطق الانتخابية	اسماء النواب	الطوائف
مدينة دمشق وضواحيها	شكري القوتلي	مسلم سني	قضاء ازرع	محمد خير الحريري	مسلم سني
	سعيد الغزي	=		احمد فارس الزعبي	=
	نصوحي البخاري	=	قضاء الزوية	احمد الحسين	=
	لطفي الحفار	=	مدينة حلب	سعد الله الجابري	=
	جميل مردم بك	=		عبد الرحمن الكيالي	=
	صبري العسلي	=		رشدي الكيخيا	=
	عبد الحميد الطباع	=		ناظم القدسي	=
	خالد العظم	=		وهبي الحريري	=
	نسيب البكري	=		احمد خليل مدرس	=
	نجيب الريس	=		سامي سائم الدهر	=
	احمد الشراباتي	=		علي الجيلاني	=
	عفيف الصلح	=		مرتيس ملاطيان	ارمن ارثوذكس
	ثاليث يعقوبيان	ارمن ارثوذكس		هرانت مازلمان	ارمن ارثوذكس
	نعيم انطاكي	روم ارثوذكس		جورج [illegible]يان	روم كاثوليك
	جورج صحناوي	روم كاثوليك		ميخائيل ليان	روم ارثوذكس
	فارس الخوري	اقليات غير ممثلة		فتح الله صيون	ارمن كاثوليك
قضاء القلمون	عبد الحكيم الدعاس	مسلم سني		لطيف غنيمة	سريان =
	مصطفى عشه الولي	=		ادور روزوق	موسوي
قضاء دوما	وديع الشيشكلي	=		ميشيل دوق	الطوائف غير الممثلة
	علي عويد	=	قضاء جبل سمعان	حكمي محمد السكري	مسلم سني
	نسيب الكيلاني	=		محمد الحاج محمود بركات	=
قضاء وادي العجم	احمد عوده	=		عز البكري	=
= القنيطرة	الامير فاعور الفاعور	=	قضاء الباب	عبد القادر رحمو	=
	عز الدين سليمان	=		محمد الشيخ سعيد سكر	=
= الزبداني	جميل الشماط	=	قضاء ادلب	حكمة الحكيم	=
حمص وضواحيها	مظهر رسلان	=		وحيد الدويدري	=
	عدنان الاتاسي	=		صادق المفتي	=
	سامي الاتاسي	=	قضاء حارم	عبد القادر رمضان	=
	هاني السباعي	=	قضاء منبج	محمد الشام	=
	عيسى اليونس	مسلم علوي		ابراهيم الحسن اربيع	=
	عبد الله فركوح	روم ارثوذكس	قضاء جرابلس	محمد الشيخ ابراهيم الرويس	=
حماه وضواحيها	طالب المعلم	مسلم سني	= المعرة	حكمة الحراكي	=
	نجيب البرازي	=	= اعزاز	جميل بري	=
	رئيف الملقي	=		عبد الرحمن الحافظ	=
	اكرم الحوراني	=	قضاء جبل الاكراد	محمد الحاج محمد شيخ اسماعيل	=
	فريد مرهج	روم ارثوذكس		فائق عثمان آغا	=
قضاء سلمية	الامير سليمان العلي	مسلم اسماعيلي	= جسر الشغور	نهاد النجاري	=
حورعا	محمد الفلح الزعبي	مسلم سني	= عين العرب	مصطفى شاهين	=
	مزيد الفاضل الطامية	=	دير الزور وضواحيها	الحاج محمد الشايش	=

المناطق الانتخابية	أسماء النواب	الطوائف
	قاسم الناج هنيدي	〃
	راغب الجود البشر	〃
قضاء الرقة	حامد الطوينة	〃
	بركات الاحمد الخرج	〃
	محمد يحيى البشر	〃
قضاء الميادين	سعود الجدعان	〃
	زكي الخيري	〃
قضاء البوكمال	عثمان المرعي	〃
لمنبجة	خليل ابراهيم باشا	〃
	علي الزوبع	〃
قضاء القامشلي	عبد الباقي نظام الدين	〃
	حسن حاجو آغا	〃
	سعيد محمد آغا	〃
	سعيد اسحق	سريان ارثوذكس
قضاء دجلة	عبد الكريم ملا صادق	مسلم سني
السويداء	الامير حسن الاطرش	مسلم درزي
	يوسف الاطرش	〃 〃
	عقلة القطامي	البلقا
	سعود القوزي	عشائر الجبل
قضاء صلخد	شبلي مصطفى الاطرش	مسلم درزي
〃 شهباء	حسن عامر	〃 〃
اللاذقية	علي سعاد هارون	مسلم سني
	محمد سليمان الاحمد	مسلم علوي
	وديع سعادة	روم ارثوذكس
قضاء الحفة	نوري الحاجي	مسلم سني

المناطق الانتخابية	أسماء النواب	الطوائف
	سلمان المرشد	مسلم علوي
قضاء جبلة	محمد علي تقي اديب	〃 〃
	علي اسعد اسماعيل	〃 〃
	بهجت نعمون	〃 〃
قضاء بانياس	ابراهيم صالح أحمد	〃 〃
〃 مصياف	محمد جديد	〃 〃
〃 طرطوس	رياض عبد الرزاق	مسلم سني
	محمد المحمود الحامد	مسلم علوي
قضاء صافيتا	منير العباس	〃 〃
	يوسف الحامد	〃 〃
قضاء تلكلخ	سعيد دروبي	〃 〃
	الدكتور الياس عبد	روم ارثوذكس
عشائر البدو الرحل	الامير فواز الشعلان	بادية دمشق
	طراد الملحم	〃 〃
	نواف الصالح	بادية حلب
	الامير [illegible] عبد الكريم	بادية حلب
	راكان المرشد	بادية الدير
	الامير مجحم بن مهيد	بادية دير الزور
	عبد العزيز كحيمش	〃 〃 〃
	دهام الهادي	بادية الجزيرة
	ميزر عبد المحسن	〃 〃

٢ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ من يجب لتنفيذ احكامه.

دمشق في ٧ — ٨ — ٩٤٣

وزير الداخلية	رئيس الدولة ورئيس الحكومة
عطا الايوبي	عطا الايوبي

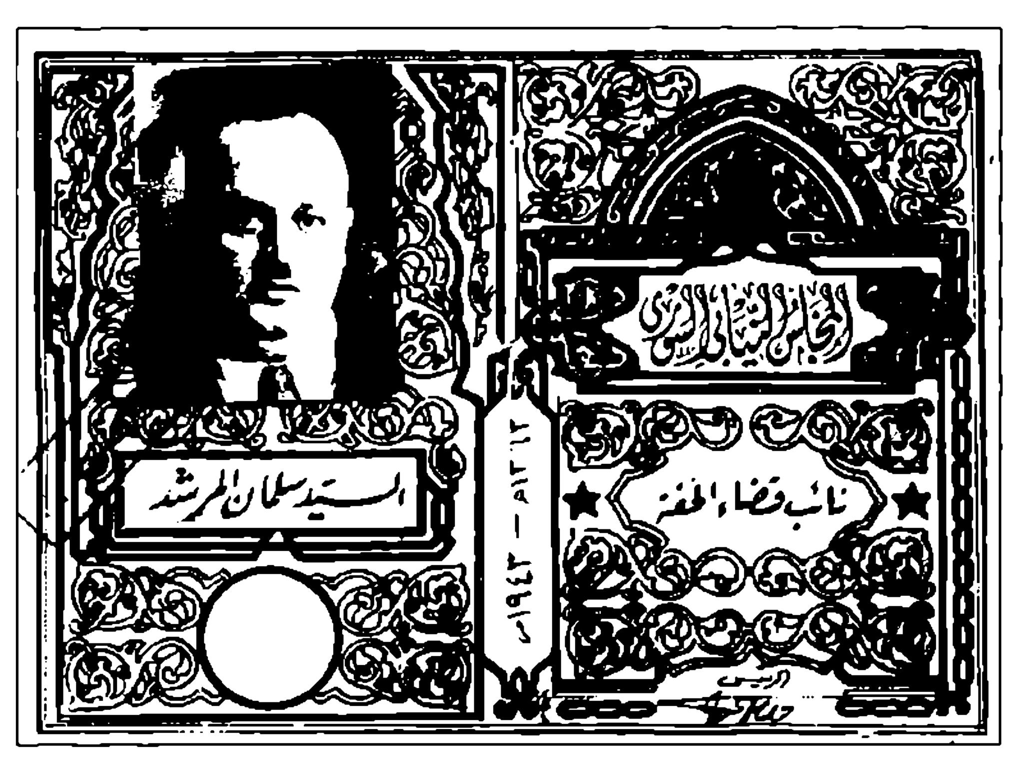
الرئيس — تعميم اسماء النواب وعددهم مائة واربعة وعشرون نائباً وقد كانوا في الدورة الماضية مائة نائب فقط وهذه الزيادة نجمت عن ازدياد السكان في البلاد بمعدل ٢٤ في المائة في غضون سبع سنوات والآن نباشر انتخاب مكتب المجلس مبتدئين بالرئيس. فلتوزع قوائم الانتخاب من قبل المراقبين الموظفين على حضرات النواب لكتابة اسم واحد لرئاسة المجلس في هذه الدورة الاستثنائية وادعو السيدين احمد الشراباتي وصبري العسلي الى الاشراف على عملية جمع الاوراق وفرزها.

السيد لطفي الحفار — هل ننتخب الرئيس لهذه الدورة الاستثنائية فقط ام للدورة القادمة ايضاً؟

الرئيس — ان هذه الدورة استثنائية ونص المادة (٦٣) في الدستور يقول:

عندما يجتمع مجلس النواب في دورة تشرين الاول العادية ينتخب مكتب المجلس الدائم ولسنا نحن الآن في دورة تشرين الاول بل في دورة استثنائية.

(وهنا ادير صندوق الاقتراع على النواب وجيء به الى سدة الرئاسة)



هوية المجلس النيابي



صورة لأبي الفاتح في قاعة البرلمان

تلخيص

وجدنا ورقةً كان ساجي المرشد معلّم المرشديّة قد كتب عليها ملاحظات رأيتها تلخّص كل ما حاولت إظهاره في الصفحات السابقة وإليك مقتطفاً منها :

«أمّا وقد استلم سلمان الزعامة كان همّه الدفاع عن مصالح عشيرته، ورفع شأن الفرد منهم وأن يكون مواطناً من الدرجة الأولى لا الثانية، له كافة الحقوق التي للمواطن: ولهذه القاعدة عمل مع الوحدويّين في الأوّل لأنّهم السكان والأكثرية.. الخ، فلمّا انقلبوا عليه رافضين معاملة عشيرته بالسويّة اللائقة بها، أبى الاستكانة ووقف بوجههم. وبهذه النظرة حارب الإقطاع والمصالح الاحتكارية كالدخان».

فرنسا وبريطانيا تدفعان بالبلاد إلى يد زعماء الكتلة ثانيةً

رجع الفارّون إلى البلاد ومنهم جميل مردم رئيس الوزراء السابق ولطفي الحفّار وسعد اللّه الجابري وشكري القوتلي الوزراء السابقون بحكومة مردم وهم زعماء الكتلة التقليديّون. رجعوا بعد أن كانت قد تمّت تبرئتهم على يد مجلس عدلي شكّلته فرنسا خصوصاً لمحاكمة قتلة الشهبندر بقصد تبرئة زعماء الكتلة من دمه[1] وكذلك رجع زعيم اللاذقيّة عبد القادر شريتح الذي اعتقله الإنكليز أوّل دخولهم للبلاد لعمالته للألمان، وأفرجوا عنه عندما عرض خدماته عليهم وانقلب للعمل لحساب الإنكليز. وهكذا رجع الأغنياء الإقطاعيّون إلى الحكم بسبب أنّهم هم العائلات الغنيّة والمتنفّذة فمَن جاء يجيء سيفاوضهم.

وبواسطة الإنكليز وقبول فرنسا فقد تمّ انتخاب شكري القوّتلي رئيساً للجمهوريّة سنة ١٩٤٣ وأشرف على جلسة انتخاب الرئاسة في البرلمان السوري الجنرال سبيرس عن الجانب الإنكليزي والمسيو هيلّو المفوّض السامي الفرنسي عن الجانب الفرنسي. وأصبح سعد اللّه الجابري رئيساً للوزراء وصبري العسلي وزيراً للداخليّة.

---

(١) اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر تمّ في صيف ١٩٤٠. وفوراً قدّمت ساره زوجة الدكتور شهبندر إضافة لتركته ادّعاء شخصياً لنائب الجمهوريّة بدمشق ادّعوا فيه على بعض الأسماء ومنهم رئيس الوزراء السابق. ولكن ما كادت تحقيقات المحقق تُظهر مَن هم خلف الجريمة حتى فوجئ بأمرٍ من مدير العدليّة العام يدعوه إلى التوقّف عن إكمال تحقيقاته. وتألّف بعدها مجلس عدلي برئاسة مسيو بيريفيه (فرنسي) رئيس محكمة الاستئناف الناظرة بالدعاوى الأجنبيّة بحلب. ويقوم بوظيفة الاستنطاق لدى المجلس العدلي نائب الزعيم الكولونيل كريتو (فرنسي) قائد اللواء الأوّل لدرك سوريّة الجنوبيّة. وتُحال على المجلس العدلي هذا قضيّة المرحوم عبد الرحمن الشهبندر.

المصدر: هاشم عثمان. المحاكمات السياسيّة في سوريّة.

ثم يذكر هاشم عثمان تبرئة زعماء الكتلة الذين كانوا متهمين بقتل الشهبندر: وبناء على القرار الصادر في هذا اليوم والمتضمّن العدول عن تجريم عاصم النائلي وفوزي القباني وجميل مردم ولطفي الحفّار وسعد اللّه الجابري بسبب الأعمال التي كانوا ملاحقين بشأنها، نعلن براءتهم من التهمة المنسوبة إليهم، ونقرّر إخلاء سبيل عاصم النائلي فوراً، إن لم يكن موقوفاً لسبب آخر.

ومن كتاب سوريا ١٩١٦ - ١٩٤٦ لوليد المعلّم: أصدر المفوّض الثاني الفرنسي قراراً بتشكيل محكمة مختلطة خاصّة للنظر في الجريمة، تألفت المحكمة من رئيس فرنسي وعضوين فرنسيين، وعضوين سوريين ومثّل النيابة العامّة فيها السيّد مصطفى حكمت العدوي وعيّن الكولونيل كوبتو محقّقاً عسكريّاً، وحلّ بذلك محلّ السيّد فلاديمر سبع المحقّق السوري الذي أجرى التحقيقات الأوليّة مع المجرمين، وسمّيت هذه المحكمة بالمجلس العدلي.

حكومة الإقطاع تُعيد الأراضي إلى الإقطاعيين

ومن الأعمال الأولى غير المشرّفة التي سارعت إليها حكومة الإقطاع أنّها أعادت إلى صاحب المليون دونم (سويدان) قرية العاليات الصغيرة التي كان قد أعادها سلمان إلى فلاّحيها. فقد أقدم قائد فصيل في حمص بأمرٍ من وزير الداخليّة بطرد الفلاّحين من قريتهم، وكانت ترافقه لتنفيذ هذا الغرض قوّة من الدرك الخيّالة المسلّحة من حمص، وقاموا بضرب الأهالي وتشتيت الأسر وخلط المؤن بعضها ببعض كخلط الحنطة في الشعير والبرغل وتكسير أغراض البيوت وذبح المواشي، وقاموا برمي الفرشات واللّحف والحصر خارج البيوت ولم يَدَعوا الأهالي يقطفون محاصيل كرومهم. وكذلك أعادت حكومة الإقطاع سطامو إلى الإقطاعي شريتح والخندق إلى الإقطاعي عبد الحميد الرستم حتى أصدر عبد الناصر قانون الإصلاح الزراعي في أواخر الخمسينات فرجعت جميعها لفلاّحيها ورجعت كلّ الأراضي إلى الفلاّحين وانتهت حكاية الإقطاع في سورية إلى الأبد.

حكومة الإقطاع تعلن الحرب على سلمان بنفيه وشقّ عشيرته عليه

ما إن رجع زعماء الكتلة منتصرين إلى البلاد وسلّمهم الأجانب مقاليدها برغم كل ما قام به الشعب السوري سابقاً من ثوراتٍ ومظاهراتٍ ضدّهم حتى رأوا بذلك فرصةً للانتقام من سلمان الذي كان أوّل الثائرين على احتكاراتهم وطبقيّتهم، وبما أنّهم لا يجسرون على قتاله لشعبيته في الجبال وقوّة رجاله وشدّتهم في القتال، تلك القوّة التي أذهلتهم في سطامو وفي الفتنة التي أشعلها بيت البرازي ضدّه، وبما أنّ أنصارهم في اللاّذقية فشلوا بعدّة عمليّات لاغتياله، فقد عمدوا بمعونة الأجانب إلى محاربة سلمان وبقيّة أقليّات البلاد كعادتهم عندما تتأتّى لهم فرصة لفعل ذلك فأقالوا المحافظ شوكت العباس (صديق سلمان) في اللاّذقية وعيّنوا مصطفى الشهابي بدلاً منه وضيقوا الخناق على الدروز أيضاً، أمّا سلمان الذي كان يُعتبر عند الجميع أنّه أعظم وأقوى زعيم في الأقليّات فقد وضعوه تحت إقامة إجباريّة في دمشق وذلك وَفْق خطّة مدروسة، وهكذا أدّت قيامة سلمان ضدّ احتكارات العائلات الإقطاعيّة في المنطقة وطلب المساواة وقيامه ضدّ توغّل البعثات التبشيريّة المسيحيّة في الجبل وأرياف المحافظة[1] وقيامه ضدّ احتكار الدخّان من قبل شركة الامبريال الإنكليزيّة والتلاعب بأسعاره على حساب الفلاّحين،

---

(١) إنّ العائلات الإقطاعيّة المتنفّذة لم تعمل على إيقاف نشاط البعثات الأجنبيّة التي كانت تحاول إدخال مسلمين في المذهب المسيحي لا قبل الحكم الفرنسي ولا أثناءه، بل على العكس من ذلك، كان أصحاب البعثات أصحابهم.

أدت إلى محاربته ليس من قبل حكومة الكتلة وحسب، بل من قبل الدولتين الأجنبيتين اللتين كانتا تحكمان سورية آنذاك ونفيه إلى دمشق متجاهلين الحصانة النيابيّة التي كانت تمنعهم منه. وعمد إقطاعيو اللاذقيّة إلى محاربة رجاله في قراهم وقيام التحالفات ضدّه، وكان مديرو شركة الامبريال الإنكليزيّة للتبغ والتنباك هم أنفسهم يديرون مدارس التبشير في الجبل والتي كانت مهمّتها تنصير تلامذتها وقد أُقيمت قبل الاحتلال الفرنسي. وبقي سلمان منفيّاً في دمشق حوالى السنة. وكان البيت الذي استأجره في دمشق بيتاً خشبياً في الصالحية وقبله كان يقيم في أوتيل أميّة.

وهي كما رواها محمّد الفاتح:

«كان للإنكليز بعداوة سلمان رأيٌ آخر غير رأي الحكومة الجديدة ورأي الفرنسيّين فهم لا يريدون مهاجمته مباشرةً. فكانت خطتهم إبعاده عن الجبل بإقامة إجبارية في دمشق والتوسّل بالحرب النفسية وبالتهديد المباشر للأفراد لتشويه السمعة التي ارتسمت في النفوس عن ذلك الشاب الذي خرج من صفوف الشعب فوحّد الناس وأشاع فيهم مشاعر العزة وكبح شراهة الشركات وتخلّص نهائياً من الإقطاع.

بدأت الحملة بتوقيت دقيق، لم يحرّكوا ساكناً لمّا سافر سلمان المرشد إلى بيروت وكان يسافر بمفرده كالعادة بعد انتهاء الدورة البرلمانية في دمشق ولكنهم فجأة وبالاتفاق مع رئيس الوزراء اللبناني أرسلوا إلى بيروت ضباط شرطة ترافقهم موتوسيكلات وتقدّمهم ضابط لبناني دخل الفندق وطلب إلى سلمان موافاة رئيس الوزراء اللبناني فلما ركب السيارة اتجهت مع المرافقة إلى دمشق حيث أنزلوه فندق أمية ووضعوا عليه حراسة أمام باب الغرفة وأمام باب الأوتيل ودوريات مستمرة. وامتلأت البلد إشاعات عمّا سيفعله الإنكليز بسلمان المرشد والإشاعات تطلق بكل مكان. وقد يئس الجميع من سلامته فرجال الحكم أعداؤه السابقون والإنكليز لا يفلت من قبضتهم أحد[1].

واتجهت قوات من الجيش البريطاني إلى صلنفة وامتدت على طريق الشعرا من صلنفة إلى قرب الجوبة وصوّبت مدافعها إلى القرى الجبلية تحتها وأرسلوا إلى مناطق العشيرة مفارز من الدرك، عناصرها من جهاتٍ سوريةٍ نائيةٍ لا يعرفون شيئاً عن المحافظة ويصدّقون كلّ ما يُقال لهم فتصوروا أنهم جاؤوا لجهاد سهل لا قتال فيه.

---

(١) يكمن سرّ عداء المحتلين الإنكليز والفرنسيين لسلمان ليس فقط لمحاربته لاحتكارات شركة الامبريال الإنكليزيّة للتبغ والتنباك ذات الإدارة الفرنسيّة، بل إرادة تقوية حكم الإقطاع الذي كان يحمي خطوط البترول العراقي وكانوا قد راهنوا على هذا الحكم بشأن تمرير قضية فلسطين فلا يريدون أقوياء في البلاد سوى أصحابهم.

وقد أوكلوا الإشراف عليها للأمير مصطفى الشهابي الذي اشترك في ثلاث وزارات في عهد الانتداب. فكانوا يريدون القضاء على الحركة التي أنشأها سلمان المرشد في الشعب والتي كانوا قد خبروا أبعادها في الفلاحين من عشيرته خاصةً وقد بدأت تأخذ أبعاداً في القرى المملوكة من قبل الإقطاع. ولا يمكن القضاء على هذه الحركة إلّا بانقسام مؤيدي سلمان المرشد عليه ومعاداتهم له وكان هذا هو هدف الحملة الإنكليزية المنظّمة.

كان قسم المخبرين ومعه بعض السماسرة من الوجوه وبعض عائلاتهم الذين أرعبتهم قوّة العدو الأجنبي والحكم القائم ومعهم الصحافة والرأي العام. هذا القسم ترك سلمان المرشد وصار حزب الحكومة وحزباً لكل حكومة بعدها.

هذه الجماعة جنّد المحتلّون منها المخبرين الذين يتقاضون رواتبَ منهم، وكانوا ينتشرون في قرى الساحل والجبل. ولما كان معظم الوجوه فيهم سماسرة دخان فقد كانوا مهيّئين عند مدير شركة الامبريال لحمل عداوة سلمان المرشد ونشرها في الناس. كانت سيارات المخابرات الإنكليزية اللاندروفر تقصد بيوتهم لحمل التوجيه إليهم ولم يكن في البلاد من نوعها فكانت معروفة للجميع وقد حمل هؤلاء ومعهم بعض المخبرين وبعض عوائلهم الحملة الدعائية في الناس بما حوت من تهويل وكانت شيئاً جديداً في الجبل، في كل يوم كانت تخرج الإشاعات من مكاتب الاستخبارات فيتناقلها هؤلاء كلٌ في قريته وبعضٌ في المدينة يسمعها الناس جميعاً فور صدورها. كانت معظم الإشاعات تستهدف تيئيس الناس من سلمان المرشد ومن هذه الإشاعات أن سلمان المرشد وذويه أخذهم الإنكليز في غوّاصة بالبحر وأنهم سيأخذون ألفاً من جماعته إلى بلدان متفرقة من الإمبراطورية الإنكليزية عُرف منهم فلان وفلان. ومنها أنّهم نفوهم إلى جزيرة كريت وأحياناً لغيرها. وأما الجرائد فكانت تصوّر رجال سلمان على أنّهم يرتكبون حوادث قطع الطرق وكانت تهاجمهم على كل حادثة من الحوادث التي كانت تحصل بكثرة على الحدود اللبنانية في منطقة طرطوس مع أنه ليس منهم أحدٌ يقطن فيها.

وكانت حملة الإرهاب تواكب هذه الحملة النفسية المستمرّة. كان ذلك النفر من السماسرة والمخبرين يقدّمون وشايات أن هذه القرية من جماعة سلمان المرشد تجاهر بعداء العهد أو تستعد لاستقبال سلمان أو كان أهلها في بيته في الجوبة وقابلوا زوجته أم فاتح أو عقدوا اجتماعاً وقرروا فيه كذا وكذا.

وأرسلوا الدرك يجوبون قرى المهالبة وبعضاً غيرها من قرى العشيرة وكانت مهمّتهم

مساعدة المخبرين، الذين أصبحوا فئة كبيرة في العشيرة، وقد اتّبعهم في النهاية عدد يقرب من نصفها وأقام لهم خصوم سلمان رئيساً هو حسن عبود[1] من الجوبة جمعوهم عليه من مختلف عشائر سلمان وهذا ما كان مستحيلاً بدونهم. كان على الناس أن يقسموا يميناً أنّهم ضدّ سلمان وعلى رأي هذا الشخص يقسمونه باجتماع حافل على أحد مزارات الجبل ومن لا يرضى بالقسم يتعرّض للضرب الشديد ولنهب بيته.

وهكذا يُساق الناس تحت العصا إلى حيث الوشاة ويُباشر بتعذيبهم. وكان الضرب يستمرّ إلى أن يحلف على الزيارات أن يكون ضدّ سلمان المرشد على الحق والباطل فيرحب به المخبرون ويعتبرونه أصبح من جماعتهم.

وكذلك هبطوا بأسعار الدخان. ولكن دخان جماعة سلمان كان يُرفض في الشركة فيبقى بساحة الشركة لا يستطيع الفلاح بيعه إلّا أن يقدّمه أحد المخبرين على اسمه.

ومن المفارقات أن الإقطاعي الكبير صاحب قرية سطامو شريتح صار مرجعاً للفلاحين من وجوه وأهالي الجوبة من الفئة المعادية لسلمان المرشد.

كان رجال العشيرة من المسلحين قد التفّوا حول بيت سلمان المرشد في الجوبة يتناوبون حراسته ويمنعون الدرك من الوصول إليه وإلى قراهم.

ولما كانت قوّات الاحتلال تعتقد أن القتال بين العشيرة الواحدة وانقسامها إلى فئتين إحداهما التي تؤازر القوى الحكومية هو وحده الذي يقضي على حركة سلمان المرشد، فقد كانت جماعتهم في العشيرة يحاصرون البيت أحياناً يحاولون منعه عن الماء وفي كل مرة يكاد الاقتتال يحصل عند الحدّ الذي عيّنه سلمان لجماعته للصبر عليهم فقد كانت توجيهاته واضحة لا قتال معهم ولا مع الحكومة التي أخذت الصيغة الوطنية بل نصبر عليهم إلى أن يتعدّوا الحدود التي حذّرهم منها في دمشق. ولم يكن سلمان يقبل الاعتداء على النساء فقد أنذر وهو بالإقامة الاجبارية في دمشق أنذر رئيس الوزراء سعد الله الجابري (قولوا له ما لحقناكم للعرض). وذلك على أثر محاولات من الدرك في قرية في الغاب فأعاد له سعد الله الجواب مؤكداً أن هذه الحوادث لن تتكرّر كما كان مفهوماً أنّ قوى الحكومة إن اعتدت على القرى الجبليّة وهي الوحيدة المسلّحة أو اعتدت على البيت فستنشب المعركة».

---

(١) كانت وظيفة حسن عبود عند الفرنسيين عام ١٩٢٣ وقبلها (حوّاط) أي يدور على الخرب والمزروعات، والقرية هي التي تنتقي صاحب هذه الوظيفة ومهمته أيضاً إيصال بلاغات الحكم الفرنسي إلى المواطنين وإخبارهم عمّا يحدث في القرية بواسطة الدرك. المصدر: من رجال العشيرة معاصري ذلك الزمن.

حكومة الإقطاع تحاول غزو بيت سلمان

قامت العائلات الإقطاعية في اللاذقيّة بإثارة أهل الجوبة ضد سلمان، وسلّحتهم وأمرتهم بإحراق بيته وحارته. وفي إحدى تلك المعارك انتصر رجال سلمان على أهالي الجوبة الذين كانوا يهاجمون بيته وكادوا يحتلّون حارته وكانوا يحاصرونها، ولم يكن في حارة سلمان من الرجال إلّا نفر قليل لا يتجاوز العشرين رجلاً ولم يكونوا من الذين تمرّسوا على القتال وقد أصاب رجال الجوبة اثنين منهم، ولولا وصول رجال أبي الفاتح من القرى المجاورة بسرعة البرق كعادتهم لاحتلّ رجال الجوبة البيت الذي كانت به أمّ فاتح زوجة سلمان الأولى وابنها الصغير وبعض الأقرباء، ونهبوه وأحرقوه وقتلوا ساكنيه، ولكن رجال أبي الفاتح طردوا المهاجين. ودبّ الرعب بالمهاجين فولّوا الأدبار ركضاً لا يجسر أحدهم على التطلّع إلى الوراء ولم يأخذوا معهم شيئاً نتيجة للرعب الذي جعل من قلوبهم هواء وهاجروا من الجوبة إلى قرى بعيدة عنها. وهذا الأمر تسبّب بمئات الدعاوى التي أقيمت بحقّ سلمان وأمّ فاتح بتوجيه من المتنفّذين الأغنياء في اللاّذقيّة، وتمّ ذلك في بداية سنة ١٩٤٥. واستُغلّت هذه الحادثة أبشع استغلال من قبل زعماء اللاّذقيّة الذين أبوا على جماعة الجوبة الرجوع إلى قريتهم كي يستغلّوها ويتّخذوها مادةً للطعن بسلمان واتّهامه بتهجير الناس من بيوتهم، وأصبحت قضيّة تهجير الجوبة كقميص عثمان. ورغم كلّ محاولة بعدها من قبل سلمان ورجاله لإرجاع جماعة الجوبة إليها وتعويضهم عن كلّ ما خسروه وأكثر، رغم ذلك فإنّهم لم يقبلوا بأيّة مصالحة مهما كانت، يطيعون بذلك زعماء اللاذقية الذين كانوا يطوفون بهم على مؤسسات الدولة في اللاذقية ودمشق ليرووا مأساتهم المزعومة يردّدون ما وضعَ في أفواههم زعماءُ الإقطاع.

وإليك كيف يصفها محمّد الفاتح :

«كانت زوجة سلمان أم فاتح هي التي تدير شؤون العشيرة كلّها من البيت في الجوبة بوجه دعايات قوّات الاحتلال والإرهاب الحكومي ومؤامرات السماسرة والمخبرين وقد ألهب صمودها الحماس في النفوس في الجبل كلّه رأوا فيه صمود صاحب المعتقد التاريخي متمسكاً بمبدئه مهاجراً فيه إلى أعالي الجبال، فبدأت القلوب تنحاز لصمودها في معظم عشائر جبال الساحل وكان الجند من الجبل يصرّحون أنهم على استعداد للالتحاق بقواتها إذا نشب القتال. استمرّت هذه الحالة أكثر من سنة كانت الشدّة فيها ما تفتأ تزداد حتى اعتقد رجال الحكم أن سكوت سلمان دليل ضعفه وضعف جماعته فقرّروا أن يضربوا ضربتهم الأخيرة وأصدروا مئات مذكرات التوقيف بحق سلمان المرشد وزوجته وشيوخ العشيرة ووجوهها وكل من حاكَ له المخبرون قصّة.

وأرسل المحافظ قوّة صغيرة قسماً من فصيل الدرك الذي في قضاء الحفّة ليرأس فئات المخبرين جميعها ويحتاطوا البيت في الجوبة ويقبض على أم فاتح ومن معها في الحارة ويسوقهم إلى السجن. وقد فوجئ مَنْ في البيت بجماعة السلطة يحتاطون الحارة والمرتفع الذي لا يبعد عن البيت أكثر من مائتي متر ويطلقون النار على الحارة ومن فيها، وكالعادة كان القادمون يحملون أكياس النهب ولكن سرعان ما صدّهم حرس البيت.

وهكذا بدأت المعركة كما أرادها رجال الحكم أي بعد أن حفروا بين عائلات العشيرة حفرة لا يمكن ردمها وصارت لقواتهم أرضية من القرى ينطلقون منها بهجماتهم على العشيرة.

وزّعت أمّ فاتح الحرّاس الموجودين، وكانوا قِلّةً لا تصل إلى العشرين رجلاً، وكانت تعمل بما عُرف عنها من هدوء في الحوادث الجسام. أزالت النوافذ الزجاجية من مكانها لأنّها معرّضة لرصاص المهاجمين، وقد أصبحوا على مقربة خمسين متراً منها وعيّنت أماكن المدافعين، وأعطت لمحمّد يوسف وهو شهير بالإصابة بندقيّة وذخيرة، وأمَرَته أن يبقى على رأس العمارة وهي أعلى من مرتفع التغرا الذي أمام الحارة، كما شدّدت عليه وباقي المقاتلين ألاّ يصيبوا أحداً حتى يصيبهم الآخرون.

وأطلق الدرك وأهالي الجوبة النار، وبدأ رجال العشيرة القريبون يتواردون. وكانت أمّ فاتح تتجوّل تحت الرصاص بين مواقع القتال.

وانطلق اسماعيل ـ أحد أبطال القتال ـ من الجهة الشرقيّة، ومعه بعض أقربائه من ليفين، يَثِبُ عليهم من صخرة إلى صخرة حتى طردهم من الجبل الشرقي، وساقهم أمامه باتّجاه حارتهم الوطى في أسفل القرية في الأماكن المكشوفة فأخرجهم بذلك من القتال.

وانطلق علي السلمان ومَن معه بمواجهة معظم القرية والشرطة فأخذ منهم التلْ عنوةً وردّهم إلى حارتهم عند المغيب.

وحجز الظلام بينهم حتى الفجر وأصبح أهالي الجوبة يدافعون عن بيوتهم ويخشون عليها من الحريق. وقد اعتصموا بأشدّ بقاع القرية مناعةً ومنها رويسة الشيخ اسماعيل العالية في وسط القرية، والتي لا تنفذ أشعّة الشمس من أشجارها. هؤلاء نزل عليهم رجال سلمان من الجبل المحاذي ببقعة مكشوفة من (الحواكير) فقد كانوا يريدون إنهاء أمر الجوبة.

وكان الآخرون يقسمون لبعضهم أنّه (لا يُعلّم فيهم الرصاص) وكانت هتافات رجال سلمان متنوّعة معظمهم كانوا يرفعون بنادقهم فوق رؤوسهم ويهجمون.

بعض الرجال كان يسبق علي السلمان في الهجوم أحياناً قليلة، ولكنّه كان القائد الذي يوجّه الجميع ويُعينَ في كلّ موقعة مواضع الثبات ومواضع الهجوم، وكان من عادته أن يلفّ السيكارة والرصاص ينهمر على موقعه فلا ترتجف أصابعه.

استولى رجال سلمان على الجوبة، ورغم ما كانوا فيه من حصارٍ اقتصادي وضيق مادي، لم يأخذوا من بيوتها المليئة شيئاً. وفرّ أهالي الجوبة إلى قرى النواصرة البعيدة.

وتطايرت أخبار الجوبة، فلم يبقَ في القرى الغسّانيّة من رؤوس العداوة أحد، هاجروا إلى خارج منطقة العشيرة، ومَن كانوا معهم جاءوا يعلنون ولاءهم. ولم تَدَعْ أمّ فاتح أحداً يعتدي عليهم، وقد انضبط الرجال بذلك انضباطاً لا مثيل له».

حرب الصحافة خوفاً من الفشل

ونتابع مع محمّد الفاتح :

«أسقط في أيدي الإقطاع الحاكم المتحالف مع قوى الاحتلال لمّا جاءهم خبر انهيار الحملة الشعبية التي أثارها معهم ضباط المخابرات الإنكليزية والتي ارتضوا لأنفسهم فيها دور الإرهاب الجسدي على أنصار سلمان.

وكان موقفهم بمنتهى الخطورة فإذا فشلوا ببسط السيطرة الحكومية فإن النتيجة الحتمية في البرلمان أن تستقيل الحكومة.

وسيكفل حكم المعارضة معرفة الناس بأعمالهم الشاذة في مختلف الأمور. وستنهار الخطة الإقطاعية في المحافظات الثلاث من أساسها.

فعمدوا فوراً إلى التغطية الإعلامية. فصوّروا الحادث في الجوبة على أنّه تمرّدٌ. وأنكروا تجنيدهم للعشائر وغطّوا الحادث تغطيةً إعلاميةً كاملةً.

وكان يُسهّل عليهم تغطية الأحداث كلّ مرّةٍ أن سلمان المرشد لا يملك صحيفة. ولا أحد في الجبل يملك صحيفة. فكان نشر الأخبار وقفاً عليهم وحدهم. ولم يكن بالإمكان تغير هذا الواقع بمقالةٍ أو أكثر نظراً لهيمنتهم التامة على الصحافة.

وفجأة امتلأت المحاجر بالعداء واتجهت إلى سلمان المرشد، كان قوام الحملة الحزب الحاكم وكل من يطمع برضاه وأصدقاء ضباط الاحتلال في كل البلد. وهكذا انبرت الجرائد الإقطاعية وغيرها التي تتلقى الإعانة الحكومية، ابتدأت حملتها الشديدة على سلمان المرشد وجماعته تلك الحملة التي لم تنتهِ إلّا بتأميمها في عهد الوحدة الاشتراكي بعد ثلاث

عشرة سنة. حتى الخصوم لم تكن عداوتهم قبلاً بهذه الشراسة كانت شيئاً عادياً فالآن كلّها تومئ للقتل».

حكومة الإقطاع تستعين بقوّات فرنسيّة ضدّ سلمان

لم تكتفِ الحكومة بإرسال قوّاتها إلى مشارف الجوبة بعد الحادثة لضعف ثقتها بقوّاتها آنذاك، فطلبت من جيش الحلفاء أن يرسل قوّاتٍ إلى الجوبة للمحافظة على الأمن كي توقف جماعة سلمان من التمادي على حدّ زعمهم، وجماعة سلمان لم يرتكبوا أيّ جريمة بل دافعوا عن عائلة زعيمهم من رجال الجوبة الذين أعماهم الإقطاعيّون بوعود الجاه والمال، ولم يكن بنيّتهم أن يحاربوا أحداً.

وفعلاً قامت بعض القوّات الفرنسيّة يرافقها ضباط بريطانيّون باحتلال الجوبة. أمّا سلمان فما إن سمع في دمشق بصعود هذه القوّات الأجنبيّة إلى الجوبة حتى سارع إلى رئيس الجمهوريّة وطلب منه رسميّاً إنزال هذه القوّات، وقد تمّ سحبها لاحقاً، وبقيت في الجوبة عدّة شهور، والملفت للنظر في الأمر أنّ الجيش الفرنسي الذي احتلّ الجوبة كان مؤلفاً كلّه من السنغال والمغاربة، ولم ترسل فرنسا جنوداً سوريّين معهم، مع العلم أنّ جيشها في سورية كان مؤلفاً بمقدار أكثر من ٨٠ ٪ من السوريّين (جيش الشرق). فقد خافوا إن أرسلوا جيشاً سوريّاً أن يصفّ مع رجال سلمان وليس ضدّ سلمان. ولكن الجنود المغاربة يومها كانوا يخرجون من ثكناتهم بشكل فردي ليختلطوا بالأهالي. وفي القرى المجاورة كانوا يُستقبلون بحفاوة بعد أن يعرف الناس أنّهم عرب ومنهم من كانوا يصعدون إلى حارة سلمان المرشد بشكل سرّي وهناك يستقبلون ويُقدّم لهم الطعام وقد عمّت كلمات من لهجتهم المغربيّة في القرى التي كانوا يذهبون إليها.

وإليك كيف يصف محمّد الفاتح طلب الحكومة تدخّل القوات الأجنبية:

«ولما كان انهيار هذه الحملة يعني سقوط الحكومة وكشف أعمالها جميعاً فقد أقدمت الحكومة على طلب التدخل من القوّات الحليفة. أرسلته للقيادة العليا لجيوش الحلفاء في المنطقة ولم يكن قد بقي لديها بعد إلّا هذه الورقة الأخيرة. وهكذا تدخلت القوات الإفرنسية ومعها ضباط ارتباط وضباط مخابرات من الانكليز.

وكان ضباط المخابرات هؤلاء قد توجهوا في اليوم السابق إلى الجوبة وإلى ما يقابلها من مواقع الدرك ووقفوا على حالة الدرك الذين كانت قد تجمّدت أطراف الكثيرين منهم لشدة البرد في جبال الشعرا وفي شهر شباط من سنة ١٩٤٥.

ولم يكن لدى الحملة من الرشاشات إلّا أربعة كانت قد تعطّلت كلّها وقد أدرك ضباط المخابرات أن الحملة محاصرة فأنذروا الإفرنسيين بالتدخل السريع.

ولمّا وصلت القوات الإفرنسية قال لهم قائد الدرك: أنا عسكري سوري وأتلقى الأوامر من حكومتي. فأبرزوا له طلب التدخل من الحكومة فانسحب من مواقعه وعاد إلى اللاذقية.

كان سلمان يزاول نشاطه العادي في المجلس. وكانت العادة أن يتبعه اثنان من الشرطة السرّية باعتباره في الإقامة الاجبارية. ولقد حاولا الدخول إلى حديقة المجلس فطردهما رئيس المجلس النيابي بنفسه.

وكذلك رجال الحكم أعداء سلمان فكانوا يستقبلونه أحسن استقبال هذا مع عداوتهم الشديدة له».

كلمة عن امّ فاتح «هلاله»

إنّ الناس الذين كانوا يقصدون الجوبة إلى بيت سلمان سنوياً من شعوب وبلدان كثيرة ومن عشائر البلاد ووجهائها والاستقبالات الشعبية كلّ هذا كان يحتاج إلى مصاريف، وطبعاً كانت تؤخذ من صندوق العشيرة، وكلّ هؤلاء الذين كانت تحتضنهم حارة سلمان، كان المسؤول الوحيد تقريباً عن كلّ هذا الحشد وعن كلّ هذه الاستضافة أمّ فاتح وحدها، فهي التي كانت تدبّر أمور الجميع، وتحسب حسابها لكلّ حفلةٍ وكلّ عزيمة، حتى للعمّال الزراعيّين أو غير الزراعيّين الذين كان يشغّلهم سلمان بين الفينة والأخرى، فهي التي كانت ترسل لهم الطعام وما شابه.

وكانت هلاله تتميز بحبّ سلمان وجماعته، وكان يخصّها بالاحترام من بين نسائه الأربع بشكلٍ ملحوظٍ وظاهر.

كانت هِلالَه تقوم بعمل ممرّضة، وذلك بعَوْد المرضى وتمريضهم شخصيّاً، أو تلقيح الأطفال ضدّ الجدري الذي كان ينتشر بين الفينة والفينة. ولا أزال أذكر كشف السواعد من رفقتي الصبية في الجوبة، يقول أحدهم بعد أن يكشف عن ساعده يرينا علامة التلقيح: (لقّحتني ستّي أمّ فاتح هون).

كانت تهيب بالناس أن يعتنوا بنظافتهم ونظافة بيوتهم، وأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس إذا تسنّى لهم ذلك، فهي تريدهم أعزاء على الأرض وليس أذلاء.

ما سمعت بامرأةٍ قطّ استطاعت أن تحتضن أولاد ضرائرها مع أولادها احتضان أمّ فاتح لأولاد ضرائرها وشعور الأمومة الذي أعطته لمنْ تولّته منهم. وكانت هي التي

تطالب بهم وتطلبهم من أمهاتهم إذا رأتهنّ يدلّلنهم ولا يعتنين بتنشئتهم كحملة مسؤولية في المستقبل.

فهمت من حديثي مع أخي ساجي المرشد أنّ هلاله عندما كانت لا ترتئي رأي جماعة سلمان ووجوههم، فإنّها تعمل برأيهم إن كان لها دورٌ في ذلك بكلْ أمانة وإخلاص، فمعارضة رأيها لا تغيّر من موقفها في شيء، تبدي رأيها فإذا قبلت به الجماعة كان خيراً وإنْ لا، فلا يتأثّر حرصها وشدّة قيامتها معهم على الرغم من تبنّيهم رأياً يعارض رأيها.

تلخيص

وجدنا ورقة كان معلمنا ساجي المرشد قد كتب عليها ملاحظات رأيتها تلخّص كل ما حاولت إظهاره في الفصول السابقة وتزيد وإليك مقتطفاً منها:

«أسباب العداوات:

١ ـ لما ظهرت قوّة زعامة سلمان بالانتخابات، أي حوّلت الزعامة إلى الجبل بعدما كانت في المدينة خشي زعماء المدينة على مصالحهم وأرادوا تحجيم زعامة سلمان ليبقى لهم الأمر كما كان من قبل، وهم القوّة السياسية آنذاك.

٢ ـ لما حارب الاحتكار ألّب عليه قوّة المحتكرين وهي قوّة فعّالة فبدأت تعمل ضدّه.

٣ ـ لما استخلص فاحل والعاليات وسطامو والخندق أهاج عداوات الإقطاعيين في البلاد وكانوا هم الحكّام.

هذه القوى تألّبت كلّها لمحاربته وخشوا أن تمتدّ زعامته على بقيّة الفلاحين فقد عملوا على خطّة إعمال النزاع مع الجيران ليكون بينهم وبين عشيرته عداوة. وعلى تحريك الفتنة بداخل العشيرة. وساعدهم على تنفيذ هذه الخطة المشايخ الذين نقموا على سلمان الامتحان الذي أجراه في عشيرته وتغييره لبعض العادات مما يضرّ بمصالحهم، وخشوا أن تصل إلى طوائفهم. وكذلك عداوة بعض الزعماء الذين حسدوه وظنّوا أنهم بالالتجاء إلى الزعامات التقليديّة في المدينة يحافظون على نفوذهم بعشائرهم».

المصالحة

سلمان يتناسى الخلافات لأسباب وطنيّة

تناسى سلمان خلافاته مع أعيان الكتلة الوطنيّة التي نشأت بسبب مطالبته بالمساواة. وذلك عندما تطوّرت الأحداث بالبلاد وبدأ القتال بين الثوّار والقوّات الفرنسيّة في دمشق وضُربت المدينة بقنابل المدفعيّة وفي ٢١ أيار ١٩٤٥ قدّم سلمان للبرلمان تصريحاً تلاه النائب فخري البارودي وقد جاء فيه: (إنّي أضع نفسي وعشائري وأموالي تحت تصرّف الأمّة والحكومة وأعلن أنّه إذا كان هناك خلاف بيني وبين الحكومة فأنا وطنيّ قبل كلّ شيء وعلى استعداد للقيام بكلّ ما يتطلّبه الوطن وبكل ما توجبه سيادة البلاد واستقلالها). وحدث تصفيق حارّ أثناء قراءة الإعلان كما أخبرنا مَن حضر هذه الجلسة. نقلت الجرائد صباح اليوم التالي هذا الإعلان وقامت مظاهرة في دمشق تحيّي موقف أبي الفاتح الوطنيّ.

خروج الجنود من الجيش الفرنسي والالتحاق بالجيش الوطني

افتتحت الحكومة السوريّة مراكز تطويع للجنود الذين يتركون الثكنات الفرنسيّة بعد أن تأكّد جلاء الجيش الفرنسي عن البلاد تطبيقاً لقرار الأمم المتحدة بجلاء الجيشين الفرنسي والبريطاني عن سورية ولبنان. وأعلن الفرنسيون أنّهم يتركون حريّة الاختيار للجنود إذا شاءوا تركوهم يلتحقون بالجيش الوطني أو شاءوا التسريح يسرّحونهم أو شاءوا المضي مع الجيش الفرنسي يستبقونهم معهم. ولكنّ أكثرية الجنود رفضوا مغادرة ثكناتهم خشية التعصب الطائفي بعد حوادث دمويّة كانت قد جرت عليهم من قبل الشعب السوري الثائر.

وفي ربيع سنة ١٩٤٥ طلبت الحكومة من سلمان أن يذهب إلى الساحل وذلك لإقناع الضبّاط والجنود المتطوّعين في الجيش الفرنسي بالالتحاق بالجيش العربي السوري الوطني، فقد جاء وزير الداخليّة صبري العسلي وبعض الوزراء إليه يرجونه أن يلبّي هذه المهمّة الوطنيّة ويطلبون منه الاجتماع سويّة مع رئيس الجمهوريّة وتمّ الاجتماع ووعدهم سلمان بإرجاع الجيش إلى أحضان البلاد.

واعتبرت الحكومة أنّ مهمّة بناء جيشٍ وطني مقدّمة على كلّ ما عداها إذ لا يمكن تصوّر حكم وطنيّ بدونه.

صورة عن محضر البرلمان السوري يظهر بها إعلان سلطان
عن وضع نفسه وعشائره تحت تصرف الأمة - الجريدة الرسمية -

رابعاً = دعوة الضباط والافراد الموجودين في جيش الشرق ليسجلوا منه ويلتحقوا خلال اسبوع بالدرك على ان تحفظ حقوقهم وان تطبق العقوبة على المتأخرين

الرئيس — تحيل هذا المشروع الى لجنة الدفاع الوطني . والكلمة الآن للسيد اكرم الحوراني

السيد اكرم الحوراني — لقد قلنا ولانزال نقول ان عقلية الافرنسيين لم تتبدل وان ماطلبته فرنسا عام ٩٢٠ هو عين ماطلبته عام ٩٣٦ وهو نفس ماتطلبه الآن عام ٩٤٥ وهم يريدون منا مركزاً ممتازاً وبهذا المركز يطلبون امتيازات ثقافية واقتصادية وامتيازات عسكرية بحرية وجوية وبرية اي انهم يريدون تبديل اسم الانتداب فقط لا حقيقته

ان فرنسا الفيشية التي خدمت الالمان برجالها وبأرضها وبمالها ايضاً تريد الآن ان تتحدى هذا الشعب الوديع الآمن وتقوم بأعمال الاستفزاز والتحدي وماهي حوادث حلب ودمشق شاهدة وماثلة للعيان

ان الله معنا ايها السادة والعالم بأجمعه يؤازرنا ويعاوننا لنقوم بواجبنا على الوجه الاتم وان التحرر الوطني لايتم بالاساليب السياسية بل بالضحايا والدماء ونحن مستعدون لبذل النفوس رخيصة في سبيل هذا التحرر وتأمين سيادتنا واستقلالنا

ان وضعنا اليوم ليختلف تمام الاختلاف عنه عما كان عليه في عام ٩٢٠ اذ اصبحنا امة عربية تضم خمسين مليوناً من العرب يشعرون بشعور واحد ويصدرون عن عاطفة واحدة ويقفون متضامنين تجاه امة منهزمة تأتينا بخيالات الشعوب والامم لتفرض علينا اتفاقات هي الاستعمار والاستعباد بل هي شر منها

لقد صرح وكيل الخارجية الاميركية بأن اعتراف اميركا باستقلال سوريا مرتبط بشرف ١٥٠ مليون اميركي . وقد قدمت اقتراحاً امام الرئاسة يقضي بتأليف الجيش حالا ودعوة الضباط والجنود المتطوعين في الجيش السوري الى الالتحاق بوزارة الدفاع الوطني خلال خمسة عشر يوماً ومن يتخلف تطبق بحقه المادة الثالثة من قانون حماية الاستقلال ويتضمن ايضاً دعوة الحكومة لجميع المواطنين بين سن الثامنة عشرة حتى الستين من الذين لديهم السلاح والقادرين على حمله ليتدربوا ويستخدموا كحرس اهلي ويتضمن ايضاً زيادة عدد رجال الدرك وتكليف الحكومة ايضاً منع محطة دمشق من نشر اذاعاتها والدعايات المغرضة الكاذبة

الرئيس — تحيل هذا التقرير الى لجان الداخلية والخارجية والدفاع الوطني والكلمة الآن للسيد فخري البارودي

السيد فخري البارودي — ان موقف فرنسا من هذه البلاد ومحاولتها تحدي كرامة هذه الامة بانزال الجنود السود لهو عمل عدائي موجه ضد سيادة الامة واستقلالها ، وان الامة بجميع عناصرها متضامنة ومتفقة على مطالبها ومصممة على نيل حقها

واني اقترح دعوة جميع الرجال لحمل السلاح والمباشرة بتدريب الشبان وان تؤسس مكاتب للاستعلامات والاستخبارات وفتح مدرسة للضباط وصف الضباط

واني اتوجه الى الحلفاء الذين اعترفوا باستقلالنا وايدوه ليدافعوا عن الحرية والمبادىء التي ناضلوا من اجلها وقبل ان اغادر هذا المنبر اريد ان احيي جمعية الاتحاد النسائي على مساعيها في الترفيه عن رجال الدرك والشرطة بالاشتراك مع بقية الهيآت والجمعيات بتقديم الاطعمة والحلويات الى رجال الامن والجرحى

واريد ان اسأل دولة رئيس الوزراء بالوكالة باعتباره رئيساً للمجلس الموقر عن رأيه في قضية الاستمرار على تموين وتزويد القوات الافرنسية بالحبوب في الوقت الذي تقف فيه هذه القوى هذا الموقف العدائي من البلاد

الرئيس — الكلمة للسيد محمد سليمان الاحمد

السيد محمد سليمان الاحمد — لقد جربت فرنسا في هذه البلاد شتى الطرق ومختلف التجارب فكانت كلها ترمي الى فكرة الاستعباد والاستعمار وفرنسا في حال قوتها هي فرنسا في حال ضعفها وعقليتها لم تتبدل ولم تتغير وقد اساءت الى نفسها اكثر مما اساءت الينا اكبر اعدائها وهي لم تسيء الى نفسها فحسب بل اساءت الى قضية الامم المتحدة الديموقراطية ، وان هذه الازمة التي تنتاب البلاد ليست الا امتحانا للديموقراطية وهكذا للمثل الاعلى والمبادىء التي اشتمل عليها ونرجو ان تخرج الحلفاء من هذا الامتحان بما يرضي الضمير ويؤمن العدالة والحرية اما نحن فستخرج منه باحدى مجدين اما عز السيادة او شرف الشهادة ، ويجب ان تعلم فرنسا والعالم بأسره أننا شعب ابي لايصبر على الضيم ولا يرضى عن حريته واستقلاله بديلا (تصفيق)

الرئيس — الكلمة للسيد قاسم الهنيدي .

السيد قاسم الهنيدي — لقد كفانا ماتقيا من اساليب فرنسا وطرقها الملتوية حتى اصبحنا لانؤمن بالمفاوضات والمباحثات الطويلة المملة التي لا تجدي نفعاً ولا تروي غليلا .

لقد اظهرت الامة عزمها على تأمين سيادتها والدفاع عن استقلالها والقيام بالعمل الجدي للخلاص من المستعمر والقائه خارج البلاد .

الرئيس — الكلمة للسيد عبد الحكيم الدعاس .

السيد عبد الحكيم — لقد آن لنا ان نترك الكلام والمباحثات جانباً وان نفكر بالمنهاج العملي الذي يؤمن حق البلاد ويكفل سيادتها واستقلالها واني أدعو الحكومة لترسم خطتها العملية لتأمين هذه الغاية والسير بالبلاد نحو خطة وهدف معينين .

السيد فخري البارودي — أرجو مقام الرئاسة ان يسمح لي بالقاء كلمة كلفني بها السيد سلطان الرشدوي أنه : يضع نفسه وعشائره وامواله تحت تصرف الامة والحكومة ويعلن أنه اذا كان هناك خلاف بينه وبين الحكومة فهو وطني قبل كل شيء وعلى استعداد للقيام بكل مايتطلبه الوطن وبكل مايوجبه سيادة البلاد واستقلالها .(تصفيق)

وفعلاً نجح سلمان في إرجاع الجنود إلى أحضان البلاد نجاحاً باهراً علماً أنّ عشيرته لم يكن شبابها منخرطاً في الجيش الفرنسي أصلاً، وعلماً أنّه كان قد فشل بهذه المهمّة كثير من الزعماء الشعبيّين قبله ممّن طلبت منهم الحكومة هذا الطلب حتى لجأت أخيراً إلى سلمان عارفة أنّه وحده القادر على إقناع الجنود بالخروج من الجيش الفرنسي والانضمام إلى الجيش الوطني للثقة التي كان يتمتّع بها عند الجميع فما كان يحتاج إلى عهد أو سند أو أيّ شيء بل تثق الناس بكلمته ثقة تامّة حتّى أعداؤه، وكان يرافقه العقيد محمّد علي عزمت قائد الدرك (وقد اعترف هذا الأخير بقيام سلمان بهذا العمل الوطنيّ وذلك أثناء محاكمة سلمان في المجلس العدلي لاحقاً).

وإليك مقتطفاً من جواب إمام المرشديّة ساجي بن سلمان المرشد على تساؤلات كاتب غربي يسأل عن مساهمة سلمان المرشد في تأسيس الجيش الوطنيّ:

«.. ولمّا افتتحت الحكومة مراكز تطويع للجنود الذين يرغبون بالالتحاق بالجيش الوطنيّ. وأعلن الفرنسيّون أنّهم يتركون حرّيّة الاختيار للجنود إذا شاءوا تركوهم أو شاءوا استَبْقُوهُم. ولكنّ الجنود رفضوا مغادرة ثكناتهم خشية التعصّب الطائفي بعد تلك الحوادث الدمويّة.

وأرسلت الحكومة لهم زعماء عشائرهم فردّوهم ردّاً قاسياً. وكان ممّا أجابوهم به أنّهم لا يتعرّفون عليهم، وأنّهم وهم الذين لا يمونون على بيوتهم، فبماذا يتعهّدون لهم؟!.

ثمّت ترتيبات نزول سلمان إلى الثكنة بين الحكومة والإنكليز والإفرنسيّين، وقابل وفودهم في إحدى ثكناتهم وقيل أنّه قال لهم: (امْلي وَبْني بتطلعوا بتلتحقوا بجيش البلاد وما بيصير عليكم شي)[1] وحضّهم على ترك ثكناتهم والالتحاق بجيش البلاد فوراً. وتعهّد لهم بما كانوا يتطلّبونه لحماية أنفسهم فأجابوه: (أنت كلامك على راسنا).

وغادروا ثكناتهم بعد ذلك بسيّاراتِ شحنٍ حملت متاعهم إلى قراهم، ولكنّهم لم يلتحقوا مباشرةً بمراكز التطويع. صاروا يتوافدون إلى الجوبة بالعشرات وبالمئات أحياناً، يريدون أن يشكّل سلمان منهم جيشاً خاصّاً، واعتقد الناس أنّ هذه هي الفرصة السانحة ليرغم سلمان الحكومة التي لا جيش لها على تنفيذ وعودها[2]، ولكنّه أعادهم على كفالته. كان عليهم جميعاً الالتحاق بالجيش الوطني فالتحقوا إلّا قليلاً جدّاً منهم من الذين بلغوا سنّ التقاعد. فتركوا الجنديّة وآخرون قليلون عادوا مع الافرنسيّين وأُعطوا الجنسيّة الإفرنسيّة».

---

(١) أي بل تخرجون يا أولادي من الجيش الفرنسي وتلتحقون بالجيش الوطني. متعهّداً لهم أنّه لن يجري عليهم أيّ اعتداء.

(٢) إشارة إلى وعود الحكومة بإصدار عفو عمّا ينوف على ألف دعوى اختلقها إقطاع اللاذقية ضدّ عائلة سلمان ورجال العشيرة.

تعليق: وكيف كان للحكم الوطني أن ينجح بإقامة الجيش لولا خروج العناصر الوطنيّة من المدرّبين عسكرياً من جيش فرنسا والتحاقهم بالجيش الوطني !.. فسلمان ليس فقط ساهم بإقامة الحكم الوطني بل لولا فعله لما نجحوا بإقامة جيش كفء يستطيع أن يوطّد الأمن بالبلاد. وقد كافؤوه على فعله هذا وعلى مساهمته المعروفة بضمّ دولة الساحل إلى الوطن الأم أثناء انتخابات ١٩٣٧ بحكم الإعدام فيما بعد.

سلمان يعود إلى جماعته

وهكذا انتهى النفي وعاد سلمان إلى أهله وجماعته ولنترك محمّد الفاتح يصف لنا هذه العودة ببعض الكلمات :

«كان يوم عودة سلمان يوم فرح كبير لجماعته اصطفّوا على مسافة / ٤٠ كم / هي مسافة الطريق إلى الجوبة[(١)]. وكان الناس بالإضافة إلى حلقات الدبكة والغناء كان كلٌّ يَطرب على هواه فيصفّق أو يرقص لوحده أو يشرب أو يتحدث طافحاً بالضحك والسرور أو يفعل غرائب، وكان شعورهم أنهم انتصروا على الجميع دفعةً واحدة على المحتلّين والحكومة والعشائر المجاورة والمخبرين ولم يكن لديهم أيُّ طلب خاص من سلمان.

فقد كانوا قوماً يتعشّق المعنويات إلى أبعد الحدود. فكانت لهم قضية في إقامته الجبرية في دمشق هذه القضية هي عودته إليهم فالآن يشعرون أن وجودهم اكتمل وأن أيامهم الماضية ستستمر معه كما كانت ولم يسأله أحد عن الألف إلى الألفي مذكرة توقيف الصادرة بحقهم فقد كانت عودة سلمان جواب كل أمر.

كانوا قبلاً يرون أنفسهم مهددين بذلٍّ لا يبرح عنهم ذل مصلحة الإقطاع والتجار الذي لا حدود له وهم الآن يجدون أن تضحياتهم أثمرت كلّ ما كانوا يرجونه منها».

---

(١) الطريق يمتد من مفرق الجوبة قرب اللاذقية إلى الجوبة.

علامات النهاية

ومن حديث لمحمّد الفاتح أقتطف ما يلي :

«كان سلمان يعلم أن الحكومة لن تفي بوعدها بإصدار عفو عام يشمل الألف إلى الألفي مذكرة توقيف التي أصدروها بحقه وحق أهله ورجال عشيرته.

وأن تيار زعماء الكتلة الوطنية الذي كان لم يزل يؤلف قسماً كبيراً في البلاد. هذا التيار يتوقع توقيفه وإعدامه ولا يكترث بعشيرته. وأن ما يهمّ الحكومة هو أن تمسك بسلمان بذريعة توفّر لها إمكانية تقديمه إلى محاكمة استثنائية تعينّ تعييناً من قبلها. فتطمس الحقائق وتبرز الوقائع بالصورة التي صوّرتها ولو لم تجد شهوداً إلّا موظفي الفرنسيين السابقين.

ظنّ أبناء العشيرة أنّ عودة سلمان هي نصرٌ نهائي وتكريسٌ لكل ما أحرزوه معه وللمكانة التي احتلوها بين الآخرين. وكان سلمان الوحيد الذي ينظر إلى عودته على أنها عودة وداعيّة. فعهد الحكومات الإقطاعية يغطي حاجةً مؤقتةً ولا يَفُون بعهدهم إلّا تحت ضغط هذه الحاجة.

لم يترك لهم بعد عودته حجةً يتمسكون بها ضدّه، فالعمل الكبير الذي قام به بإلحاق الجنود حتى صاروا نواة الجيش الوطني لم يستغلّه لمجدٍ شخصيٍ ولم يطلب من الصحافة أن تذكره.

وقد كان هذا العمل إكمالاً لتصريحه في البرلمان أنه يضع نفسه وذويه وعشائره بتصرف الحكومة ضدّ العدو الإفرنسي. ورغم كثرة المحاولات التي حاولت الحكومة فيها أن تستغني عن نفوذ سلمان المرشد وذلك بتكليف الإقطاعيين زعماء العشائر بالاتصال بأبناء عشائرهم في الجيش ودعوتهم إياهم للالتحاق بمراكز التطوع رغم كثرة هذه المحاولات ورغم العدد الكبير الذي اشترك فيه من زعماء وشخصيّات في المحافظة ورغم لجوئهم في النهاية إليه وحده فقد استطاعت الحكومة التعتيم على دور سلمان وذلك أنهم لم يكتفوا بإغفال ما قام به من أعمال بل استمرّوا بغمزاتهم المدروسة. يعزون كلّ حادثة سلب أو ما شابهها في المحافظة الكبيرة إلى جماعته. ومن المفارقات أن سني دور سلمان لم ترتكب فيها حادثة سلب واحدة. وكان الأمن في مناطق عشائره ليلاً نهاراً وحتى أثناء القتال مع رجال الدرك المهاجمين فقد كانت تتمتع مناطقه بأقصى الأمن في حين تتهمهم الصحافة الإقطاعية بأكبر المفتريات».

إنّ الذي لم يجعل هذه المصالحة التي جرت بين سلمان وبين الحكومة فعّالة هو أنّ العائلات الإقطاعيّة ذات النفوذ المالي والسياسي في محافظة اللاذقيّة وفي حماة وغيرها رأوا في سلمان خطراً على استئثارهم بالأرض والنفوذ السياسي والاجتماعي، وفعلاً كان قد حرمهم سلمان كثيراً من النفوذ في المنطقة. ولأوّل مرّة منذ زمن العثمانيّين أصبح الذي يقرّر الوضع السياسي في المنطقة الجبلُ وليس المدينة فحسب. وكانت لهؤلاء مصالح وصداقات مع المسؤولين في دمشق، فكانوا يمارسون الضغط عليهم كي يحاربوا سلمان. ومن الطبيعي أن يتعاطف رؤساء الكتلة معهم، لأنّهم عائلاتٌ إقطاعيّة أمثالهم متحكّمة في البلاد. وأرادت بعض العائلات المسيحيّة الغنيّة أيضاً التخلّص من سلمان، لأنّه يقف ضدّ سيطرتهم واحتكارهم لتجارة الدخّان، زِد على هذا أنّ البعثات التبشيريّة المسيحيّة ـ والتي بدأت نشاطها في البلاد قبل الانتداب وتزايد بعده ـ رأت في سلمان خصماً لها، فهي لم تستطع أن تخترق قرى عشيرته كما اخترقت بعض القرى المجاورة لمنطقة نفوذه، فكانت جماعات من بعض القرى الإسلاميّة تنقلب إلى المسيحيّة، وكثيراً ما استُعملت هذه البعثات من قبل الدول الاستعماريّة وشركاتها لمصالح خاصّة وعامّة لذلك كان من غايتها دائماً خلق عملاء لشركات بلدانها يتمثّلون في شخصيّات البلاد ومتنفّذيها.

أمّا السبب المباشر في الحكم على سلمان بالإعدام فيما بعد فهو أنّ الإنكليز طلبوه من الحكومة السوريّة[1]، وقيل أيضاً أنّ فرنسا نصحت الحكومة بإعدامه لأنّه الوحيد الذي من

---

(١) جاء في مذكرات السيّاف تحت عنوان (الحيّاني يكشف الغطاء): في صبيحة أحد أيام الربيع، وأنا أتنفس الصعداء مع زوجتي وأولادي في منتزه السبيل، أقبل نحوي علي الحيّاني. فانقلب الجو إلى استعادةٍ لمراحل مأساة اللاذقية، وما أن استقرّ به المقام عاودت زوجتي تستعيد الذكريات المريرة التي عاشتها معي، عاتبةً عليه لموقفه أمام تكليف الحكومة لي بأن أكون في قرية الجوبة قبل أن تقع الواقعة، وأتعرض لخطرٍ ما سيعلق بنفوس العلويين من شكّ فيقتلونني أو أقتل برصاص المهاجمين من الشرطة والجيش، فتنهد الحيّاني واندفع قائلاً: «الآن وقد انتهى سعد الله بوفاته، وانتهى سلمان سأكاشفك الواقع. إنها خطةٌ مدبّرةٌ قُصد منها وضع أحمد في موقف الخطر، وعندما قاطعتُ الحكومة مستنكراً هذا التدبير أُجبتُ بأن الخطة يجب أن تنفذ وبكل كتمانٍ، إن أحمد لا يمكن أن يلزم الصمت، فإن قُتل بقي السر مكتوماً وتجاه ذلك سنكتب اسمه على إحدى الصفحات ونخصص لأفراد عائلته رواتب شهريةً، ويصنّف في عداد الشهداء».

عندها ثارت ثورة أم نضال قائلةً: «الله لا يوفقهم أيتآمرون على رفيق نضالهم؟!»، وقد توجهتُ إليه باللوم على موقفه المتخاذل، وقد وصل كرسيّ النيابة عن طريقي، على أن يكون صوتي الداوي في هذا المجلس، وإذ به قد نكّل بعهده كما سبق ونكّل بعهده سعد الله الجابري رئيس الوزارة. عندما تحدّث الحيّاني قائلاً: «الآن وقد أحرجتموني، وقد انتهى كل شيء، وتجاه نظرة أحمد لي واتهامي بخيانة العهد المتفق عليه فيما بيننا، أصارحكم أنه لم يكن للحكومة بد من تنفيذ تلك الخطة التي أصرّت بريطانيا على تنفيذها». قلت له: «أتريد إقناعي بأنهم معذورون في الخضوع لإرادة بريطانيا وهي التي جاءت بهم إلى كراسي الحكم حكاماً محكومين لا يحكمون؟ وأعتقد أنها البداية لغدٍ مجهولٍ يحمل في طيّاته عوامل تحطيم الأوثان من الحكّام الذين خيّل إليهم أن باستطاعتهم خداع الشعوب حتى اللانهاية». المصدر: مذكرات أحمد نهاد السيّاف (شعاع قبل الفجر)، تقديم وتحقيق محمد جمال باروت، إصدار خاص ٢٠٠٥، صفحة ١٨٤ - ١٨٥.

الممكن لزعامته أن تنمو وتتسع، وبإعدامه لا تجرؤ الأقلّيات المذهبيّة والعشائر ولا غيرهم على المطالبة بحقوقهم.

كما وأنّ رجال الحكومة يومها ما كانوا بحاجةٍ إلى مَنْ ينصحهم بإعدام سلمان، فهم ناصبوه العداء قبلها بسنوات، وكانوا يخافونه أكثر من كلّ زعماء الأقلّيات ورؤساء العشائر في سورية مجتمعين، والعائلات الإقطاعيّة في الساحل ما كانت ترضى حكماً عليه بأقلّ من الإعدام بأيّ شكلٍ كان.

ومن الطبيعي أن تقوم ضدّه هذه العائلات الإقطاعيّة الغنيّة سواء في اللاذقيّة أو باقي المحافظات فهم كلّهم إقطاعيّون، وهو شجّع الفلاّحين على استرجاع أراضيهم عنوةً عن إقطاعيّهم.

إنّ حنق الإقطاعيّين مالكي الأرض على سلمان ليس فقط لأنّه أثار الفلاّحين من عشيرته وبعض فلاحي جبال الساحل عليهم، بل أرعب فعله هذا كلّ الإقطاعيّين في سورية فقد خشوا أن تشجّع قيامته ضدّ الإقطاع جميع الفلاّحين بما فيهم الفلاحون السنّة وهم أكثريّة الفلاّحين، فهم منتشرون في دمشق وكلّ المحافظات، أن تشجّعهم على القيامة ضدّ مالكي أرضهم أيضاً وخاصّةً أنّها كانت بدأت تؤثّر على الفلاّح السنّيّ، فكثير من الطبقات المحكومة من قِبَل العائلات مالكة الأرض كان يلجأ إلى سلمان. وكانوا من كافّة الطوائف ليساعدهم ضدّ طغيان هذه الطبقة المتحكّمة وكان سلمان يفعل.

وكما سيمرّ معنا لاحقاً ما استطاعت المحكمة أن تثبت تهمة التآمر مع فرنسا، التي ألصقوها به مؤخراً، بعد كلّ الافتراءات وكلّ الضغوط فبرّأت سلمان وجماعته منها، فكان أن تلقّى رئيس المحكمة أمراً مباشراً من رئيس الجمهوريّة بوجوب إعدام سلمان بأيّ طريقةٍ كانت، اعترف بهذا فؤاد المحاسني رئيس المجلس العدلي لأبناء سلمان بعد الحادثة بسنوات. واعتراف القاضي يؤيّد ما قاله سلمان لرجاله ذلك اليوم الرهيب، وقوله كان بمعنى: هم يريدونني أنا، وأنا أسلّم نفسي لهم، فإن ظفروا بي تركوكم.

سلمان يرفض عفواً لا يطال ابناء عشيرته

من حديث محمّد الفاتح :

"وفي هذه الأثناء طلبت الحكومة موفداً من قبل سلمان إلى دمشق للتفاوض بشأن العفو، وقد قرأ وزير الداخلية على الوفد مرسوم العفو عن سلمان وأولاده وزوجته، وأغفل المرسوم ذكر ما ينوف عن ألف ومئتي مذكّرة بحقّ أبناء العشيرة، وعاد أحد أعضاء الوفد إلى

سلمان فرفض سلمان العفو الجزئي، وأصرّ على العفو حسب العهد الذي قطعوه على أنفسهم، أي عن كلّ مَن اشترك في الحوادث السابقة من العشيرة. فوعد رئيس الجمهورية بإتمامه قريباً، وأحاطوا الوفد بأحسن مظاهر التكريم، يستقبله الوزراء ليلاً ونهاراً في سراي الحكومة ويستقبله رئيس الجمهورية في بيته وفي قصر الرئاسة، وقد تعمّدوا إلهاءه بالاستقبالات والتفاوض إلى أن يتمّ إعداد الحملة العسكريّة التي سيوجّهونها إلى الجبل. وفي النهاية أكّدوا للوفد قرب صدور العفو، وحمّلوه رسالة صداقة حارّة إلى سلمان مقرونةً بأحسن الوعود على أن يرسلوا محافظاً جديداً إلى اللاذقيّة لِينفّذها جميعاً، وعيّنوا محافظاً اسمه عادل العظمة وأرسلوه بمهمّة إعداد المحافظة لتأييد الحملة العسكريّة القادمة وتوجيه الجميع ضدّ سلمان.

وقد فتح المحافظ الجديد فور وصوله أبوابه لأفراد العشائر المجاورة وأمّنهم ممّا كانوا يخشونه من الطائفيّة، ولكنّهم كانوا يعلمون أنّ استقباله لهم موجّه ضدّ سلمان، وأنّ بابه سيُغلق أمامهم في حال انتصار حملة الحكومة على رجال سلمان، وكانوا يذكرونها بعد الحادث بقولهم أنّ كلّ تلك الاستقبالات راحت بعدما نالوا ما يريدون.

أدارت حكومة الإقطاع مكائدها حول سلمان بالطريقة نفسها التي أدارها أعداء علي حول علي، قالوا عن سلمان قولهم عن علي، رجلٌ يعبده الناس. واستنفروا أتباعهم للإثارة مثلما استنفروا الجرائد في البلاد كافّةً، وكانت النقود ترافق مسعى الإثارة في كلّ مكان وتنشّط هِمَمَ الناس لما يريدونهم أن ينشطوا إليه. لبسوا للناس لباس الغيرة على الدين والوطنيّة وهم أبعد العالمين عنهما أخلاقاً وعقيدةً، جاءوا يثيرونهم لينتصبوا من فوقهم أبطال المذهب وحماته ونجح مسعاهم حيث تنجح النقود وتصدّق الغفلة وحيث يُثار الشعور الطائفي. وقد قيل يومها أنّ نفقات الحملة للجرائد بلغت ثلاثمائة ألف ليرة (أي ما يساوي يومها عشرة آلاف ليرة ذهبيّة) وقد لاقت دعوتهم أكبر استجابة.

وعَمِلَ المحافظ الجديد على جمع شتيت العشائر المجاورة من غير الزعماء المعروفين، وتوسّل إلى ذلك بقضاء مصالحهم واستقبال (آغاواتهم) ولم يكن هؤلاء يبتغون أكثر من الأمان لأنفسهم من تيّار العداوة - ضدّ سلمان وجماعته - الذي جرف البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فساروا بركابه معلنين نصرتهم المسبقة لما تُقدِم عليه الحكومة. وبات الناس جميعاً ينتظرون من الحكومة وصول القوات للضربة المتوقّعة.

أثارت موجة العداء لدى أبناء العشيرة غضبةً عميقة الجذور على الطغيان الأعمى، ثار بأحاسيسهم شعورُ المستضعف بما استهدفه من الحقد المرير عقب العصور، وتجسّدت

أمامهم مآسي التاريخ، فلم يعودوا ينظرون إلى قلّتهم وندرة ما بأيديهم من السلاح والذخيرة، بل وقفوا وقفة التحدّي السافر راغبين بالقتال تؤجّج رغبتهم فيه الثقة بالنصر الذي رافقهم في كلّ معركةٍ سابقة. كان هذا موقف الخُلّص، وكان يفرض نفسه على المتردّدين من باقي أفراد العشيرة.

وهكذا عادت العشيرة تكوّن شبه جزيرةٍ مستقلّةٍ يزحف إليها تيار العداوة من كلّ صوب.

حادثة العزرا

اتخذت حكومة القوتلي حادثة الجوبة ذريعةً لتنال من سلمان، فقد طلبت الحكومة أن يعود أهالي الجوبة إلى قريتهم، ووافق سلمان على عودتهم وعلى إعطائهم تعويضاً كافياً عن كلّ ما حصل، على الرغم أنّهم هم الذين باشروا الاعتداء وحاولوا إحراق بيت سلمان وقتل أهله هناك ولكن رجاله تصدّوا لهم فانهزم جماعة الجوبة أمامهم لا يلوون على شيء. ولكنّ العائلات المتنفّذة في اللاذقيّة حالت دون رجوع أهالي الجوبة إليها بنيّة إحداث صدامٍ بين سلمان والحكومة.

فعلى الرغم من موافقة سلمان على إرجاع أهالي الجوبة، وعلى الرغم أنّه أعاد بناء ما تهدّم من بيوتهم أثناء المعركة، وأعلن عن استعداده لدفع كلّ غرامةٍ تحكم بها الدولة لهم، فقد أرسلت الحكومة في ١٣ / ٩ / ١٩٤٦ حملةً من الدرك بقيادة محمّد علي عزمت وهو ضابط سابق في الدرك الإفرنسي (قبل التحاق الدرك بوزارة الداخليّة) وقد شارك في قمع كثيرٍ من الثورات التي قامت ضدّ الإفرنسيّين، وقضى معظم خدمته في الجبل، فكان يعرف رؤساء العشائر المجاورين معرفةً وطيدة، والحملة كانت مؤلّفةً من عدّة مصفّحاتٍ إلى الجوبة يساندها الجيش وجلبت معها بعض رجال العشائر من مناطق قريبة للجوبة في محاولة كي لا تُعْتَبر هذه الحملة ضدّ عشائر الجبل بل ضدّ عشيرة سلمان فقط، والزعيم الوحيد في هذه المناطق الذي رفض طلب الحكومة إرسال بعض الرجال ليرافقوا القوّة التي زحفت إلى الجوبة لقتال سلمان كان من القرداحة وهو علي سليمان الأسد وكانت تربطه بسلمان صداقة متينة. وكان قد رفض سابقاً استقبال أيٍّ من الفازين من أهل الجوبة حين فرّ بعضهم إلى القرداحة والنواصرة في بداية عام ١٩٤٥ بعد فشل محاولتهم إحراق حارة سلمان المرشد في الجوبة بتشجيع وتخطيط ودعم عائلات الإقطاع في اللاذقيّة.

وكان قد ادّعى المهاجمون أنّهم ما جاءوا إلّا للمصالحة بين رجال سلمان وجماعة الجوبة الذين أبوا أن يعودوا بإيعازٍ من زعماء اللاذقية المذكورين سابقاً إلى قريتهم رغم أنّ سلمان عرض عليهم كلّ تعويض يطلبونه وبواسطة الدولة وممثّليها.

كان رجال سلمان قد اكتشفوا ما كان بنيّة الدرك المهاجمين طبعاً، لأنّهم علموا عن قدوم المصفّحات التي رابطت قرب القلعة التي لا تبعد عن الجوبة أكثر من ١٠ كم وعن القوى العسكرية التي انتشرت على أطراف العشيرة في الغاب والجبل عكس ما كان رجال الحكومة

المحليّة قد وغدوا قبل يومين بقدومهم يوم ١٣ أيلول ليتناولوا الغداء مع أبي الفاتح ويحلّوا معاً مشكلة الجوبة حسب زعمهم فما كان يُخفى عن رجال أبي الفاتح نيّة غدر الحكومة بزعيمهم المحبوب. وتساءل الجميع: لماذا جاءت تلك القوّة إن كانت الحكاية لا تعدو عن كونها غداء مصالحة؟!!.. وكانوا على استعداد أن يدافعوا عن زعيمهم إن لَزِم الأمر ولو أدّى بهم هذا العمل إلى الموت الأكيد، فوقف عشرات منهم مصطفّين صفّة استقبال على جبل العِزْرا المطلّ على حارة سلمان يوم ١٣ أيلول سنة ١٩٤٦، وذلك ليعلموا من القوّة الآتية سبب قدومها، وما ان رآهم رجال الدرك حتّى باشروا بإطلاق النار عليهم حتّى أنّهم لم يأمروهم بتسليم أنفسهم لهم بل باشروا إطلاق النار فوراً بدون أيّ سؤال أو سبب. فبادلوهم بالمثل ودام تراشق النار مع القوّة المرسلة حوالى ثلاث ساعات، وكانوا قد استطاعوا إيقاف القوّة رغم تفاوت العدد والعدّة لولا أن يرسل لهم سلمان كي يوقفوا القتال عندما سمع به، رافضاً أن تفتك جماعة الدرك برجاله، فهو لم يهرب بل (سلّم نفسه لجلّاديه) وسلّم لهم أولاده أيضاً كلّ ذلك كي يحمي عشيرته من غضب حكومة الكتلة ربيبة الانتداب الفرنسي، وسارع إلى إطلاق النار على أمّ فاتح ـ قائدة الرجال عندما يكون أبو الفاتح غائباً ـ كي لا تقع بأيدي الدرك ولا يسمح الدين من جهة أخرى بالانتحار كي تقتل نفسها. وقيل أنّها قالت له مرّةً ذلك اليوم: (سلمان اقتلني أحسن ما ياخدوني هنّي). لم يكن أمامه مفرّ من هذا، كان يجب أن يحميها من الوقوع بأيدي السلطة وخاصّةً أنّه كان بحقّها مئات الدعاوى أقامها ضدّها جماعة الجوبة وزبانية احتكار الدخّان والإقطاعيّون عندما كان سلمان منفيّاً في دمشق وصار العبء كلّه عليها، وصارت الدعاوى التي ابتكروها بحقّها لربّما توازي الدعاوى التي أقيمت بحقّ سلمان نفسه، فقد جعل زعماء اللاذقية الناس في الجوبة وغيرها يبتكرون اتهامات من خيالهم كاستيلاء على أرض أو أي ممتلكات أو سرقة تافهة يتّهمون بها سلمان وأخيراً وضعوا اسم أمّ فاتح في هذه الدعاوى أيضاً. وكانوا سيحاكمونها بها جميعاً ويضعونها طبعاً في سجن النساء ولربّما ألحقوا بها من الأذى ما لا يُحتمل، فهل يترك سلمان صفيّته وأمّ شعبه بأيدي هؤلاء الذئاب الكاسرة؟.

وقد أوضح ساجي المرشد (قدوة المرشديّين) إلى كاتب غربي كيف ولماذا قتل سلمان زوجته هلاله أمّ فاتح بقوله:

«القول أنّ سلمان قَتَلَ زوجته أمّ فاتح لأنّها هي التي أمرت بالكمين، معلومة خاطئة. فأمّ فاتح لم تأمر بالكمين، ولكنّه وقد قرّر الاستسلام، قَتلها، لكي لا تقع في أيدي رجال الدرك.

ولمّا كان الانتحار محرّماً دينيّاً، بحيث لا تستطيع أمّ فاتح أن تُقْدِم على الانتحار، لم يكن مفرّ من أن يقتلها سلمان».

نبذات من أقوال محمّد الفاتح عن الحادثة نفسها:

«قام سلمان فرداً لا شبيه لسيرته، ولا يلحق بمواقفه الآخرون. فهو أبداً حجر الزاوية التي يتكئ عليها الناس ولا يتكئ على أحد. ورسمت مواقفه على أتباعه طابعاً مميّزاً عن الجميع، لا يبالون في المواقف العامة ما تثيره عليهم من نقمة الآخرين، وما يتعرّضون له من عذاب وتضحيات.

وقد رفض سلمان طريق القتال منذ البداية هذا الطريق الذي كان يريده كثيرون في الجبل فيما عداه هو وزوجته أمّ فاتح.

وكان يجيب المتسائلين من رجاله بقوله: (هم يريدونني أنا وليس أنتم) فليس من خُلقه أن يدفع الناس للقتال عنه شخصياً، ولم يفهموا قوله لهم حتى النهاية عندما تبيّن كل شيء، لأنّ سلمان لم يكن يوماً حبيس نظرةٍ ضيقةٍ للأمور ولم تتأثر مواقفه يوماً بالخوف من السلطات المتعاقبة بدءاً من الفرنسيين لمّا جمع عشيرته كلّها بوحدةٍ لم تنفصم بعدها برغم سائر العهود وبرغم شتّى أنواع الاضطهاد.

وكان تحضير كافة الصحف في البلاد في افتتاحياتها المستمرة قد جعل من مجرد تسليم سلمان نفسه نصراً للحكومة فقد كانوا يحاولون تصوير المعركة أنها معركته وحده.

سيرته لا تتأثر إلّا بصدق الموقف، وصدق الموقف هذا الذي فرض تضحية راعي القوم بنفسه وأهله في سبيل قومه، فهو لا يمكن أن يدفع الناس للتضحية بأنفسهم ليدافعوا عنه شخصياً بل هو الذي وضع نفسه عنهم في كل أمر خلال حياته كلّها معهم».

سلمان يسلّم نفسه عن جماعته

يحدثنا محمّد الفاتح:

«سمع سلمان صوت الرصاص من جبل العزرا المواجه للمرتفع الذي تقوم عليه حارته فنزل من البيت بثياب النوم (جلابيّة) ومشى إلى مرتفع صغير قدّام الحارة اسمه (التغرا) يطلّ على جبل العزرا وهناك جلس على الأرض بين الصخور كعادته وجلس حوله بعض خاصته. وصار يتحرّز ومن معه عن هذا الحادث المفاجئ وكان الناس يتراكضون على الطريق القريبة من مجلسه وهدفهم مكان القتال لنجدة أقربائهم وكانوا لا يلتفتون لأبناء سلمان ومَنْ معهم الذين اعترضوا طريقهم وحاولوا منعهم عن اللحاق بالعزرا.

فجأةً قال سلمان (خلصت) وقام من مجلسه وقد قرّر الحلّ الذي يوفّر القتل ويبقي على

الناس ولا ينال سواه وعائلته. اتّجه إلى البيت الموجود فيه زوجته أمّ فاتح وتناول بندقيةً من أحدهم وأطلق عليها طلقةً واحدةً وكانت النهاية.

يصف الناس أول ما سمعوا نبأ موت أمّ فاتح بقولهم: شعرَ كلّ شخص منا أن سلمان جرحه شخصياً جرحاً بليغاً لا شفاء له.

انفضّ الجميع من الحارة حاملين النبأ الأليم إلى سائر جهاتهم، وطار خبر مقتل أمّ فاتح إلى سائر قرى العشيرة، فانقلب الحماس عويلاً وكلمات النخوة بُكاءً مُرّاً يائساً. وأرسل سلمان إلى قائد القوّة القادمة أن يتوجّه إلى الجوبة وأنّه لن يلاقي مقاومةً في طريقه، فاتّجه إليها واثقاً أنّه بعد كلمة سلمان لن يلقى كمائنَ في معاقل الوادي تحت الجبل. وصلت القوّة قبل الغروب عصر ذلك اليوم الجمعة الثالث عشر من أيلول لتجد سلمان في الحارة وحيداً.

احتلّت القوّة البيت وسكن فيه الضبّاط ـ ولم يغادروه بعدها أبداً بل أصبح فيما بعد مركزاً رسمياً لهم ـ وأقامت مراكزها الدفاعيّة في الحارة والمرتفعات الملاصقة، وكانوا يخشون ارتداد رجال سلمان عليهم فلم يتوغّلوا خارج الجوبة، وكانت مواصلاتهم بين الجوبة واللاذقيّة قوافل تؤازرها المصفّحات على الطريق العامّ لا تبرحها.

وفي الحارة طلب قائد الحملة من سلمان المساعدة على جمع السلاح وتهدئة الحالة. وكان قسم من الرجال في الجبل القريب من الجوبة يتشاورون في كيفيّة الاستيلاء على الجوبة ليلاً مع وجود سلمان فيها عندما بدأت رسائل سلمان تَرِدُ إلى رجاله بتسليم السلاح، وفي خلال أسبوع واحد جمع سلمان السلاح كلّه وجرى تسليمه في الجوبة كلّ بندقيّة باسم صاحبها.

بدؤوا بإنزال أبناء سلمان بالمصفّحات مدّعين أنّ وجودهم في الجبل يثير الخواطر، وأنّهم يفضّلون إقامتهم في اللاذقيّة. وكانوا يأخذونهم رأساً إلى السجن.

وبعد أن أنهوا جمع السلاح أنزلوا سلمان إلى السجن، وبدأ سَوق الأهلين من سائر القرى إلى سجن اللاذقيّة، وقد ناف عدد مَن أُنزلوا على الألف.

واستصدروا أمراً قضائياً بحجز سائر أملاك سلمان فتعذّر تدبير المال للمصاريف الضروريّة كتوكيل محامٍ وما تقتضيه القضيّة من نفقات.

وكان أهالي الجوبة والدرك قد أتمّوا نهب الحارة وحُفرت البيوت بأمر قائد الحملة بحثاً عمّا قد يكون فيها من مال مخبوء. كما فتح تحقيقاً مع سائر مَن كانوا يعملون في الحارة، أدرك بنتيجته أنّ نفقات العشيرة التي كان يدفعها سلمان من ماله لم تبقِ شيئاً.

الأمانة من عناوين العظمة الحقيقيّة

كان ساجي بن سلمان المرشد ابن ١٥ سنة مُحتجزاً في الجوبة ولم يؤخذ مع أخوته لصغر سنه، فتمكّن من رهن بعض مصاغ النساء عند عوائل مسيحيّة في اللاذقيّة لتدبير المبلغ المطلوب لاستقدام محام شهير من لبنان اسمه بهيج تقي الدين.

هنا اتّضحت أمانة سلمان كنور الشمس الذي يبهر العيون، فرغم أنّه كان يصرف على نفسه وعائلته من صندوق العشيرة كحقٍّ لكلّ قائد مجموعة أو زعيم عشيرة أحبّته عشيرته وأرادت قيادته، وكان قد ألحق بصندوق العشيرة كلّ الأراضي التي اشتراها سابقاً. إلّا أنّه تبيّن أخيراً أنّه لم يدّخر منه مالاً لا لنفسه ولا لعائلته، ولم يبقَ معه شيء حتى ليوكّل محامياً، ولم يشترِ بيتاً في المدن ولو بيتاً متواضعاً بل كان يستأجر بيتاً إن لم نقل متواضعاً لا نكون صادقين (لم يكن البيت الذي يستأجره بيت فقير بل بيت رجل عادي من سكّان المدينة من ذوي الدخل المتوسط).

وكان هنالك محام يُدعى يوسف تقلا ترافع عن سلمان ورفاقه في السجن ولم يكن مع سلمان مال ليعطيه فإنّ ما رهنه ابنه الغلام ساجي بالكاد يفي بأتعاب الأستاذ بهيج تقيّ الدين[1] الذي اسْتُقْدِم من لبنان. لذلك كتب للمحامي تقلا وصلاً بآلاف الليرات بناءً على طلب المحامي نفسه كي يبرزه أمام الناس ويبرّر به دفاعه عن سلمان، أي ليقول أنه توكّل عن سلمان لأنّه أخذ أجرته وليس لمحبّةٍ به لأنّ هذا المحامي يخشى الحمّى الشيطانيّة التي أقدح زنادها أعداء سلمان. ولكنّه رغم ادّعائه في بادئ الأمر أنّه صوري ما انفكّ يطالب به

---

(١) «ولد بهيج تقي الدين في بعقلين - في لبنان - عام ١٩٠٩ وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة الضيعة، ثم التحق بمدرسة اللبيه الفرنسية في بيروت، ثم جامعة القديس يوسف حيث نال إجازة في الحقوق وتدرّب في مكتب الأستاذ حبيب أبو شهلا ١٩٣١ - ١٩٣٣. ثم أسّس مكتبه الخاصّ وظلّ يمارس مهنة المحاماة حتى وفاته. ترشّح للانتخابات النيابية منفرداً عام ١٩٤٧ وفاز عن مقعد جبل لبنان، ثم في دورات عدّة بعد ذلك حتى وفاته. كما عُيّن وزيراً لأكثر من مرّة، وحين وافته المنية كان يشغل منصب وزير الداخليّة. رأس عدّة لجان برلمانيّة ولاسيما لجنة الإدارة والعدل، ووضع العديد من التشريعات وحمل عدّة أوسمة. وكان يُعَدّ في الطليعة بين المحامين الذين لا يُشقّ لهم غبار. توكّل وترافع في أهم الدعاوى القضائيّة وكان نجاحه فيها مؤكّداً. بدأ حياته السياسية وطنيّاً استقلاليّاً فشارك في الكتلة الدستورية التي ترأسها الشيخ بشارة الخوري، وتعاون مع الأمير مجيد أرسلان في الخمسينات. وكان عضواً في الكتلة الثالثة في أحداث ١٩٥٨. وبعد أحداث ١٩٥٨ تعاون مع الزعيم كمال جنبلاط وتحالف معه منذ العام ١٩٦٠ وانتسب إلى جبهة النضال الوطني البرلمانية. عُرف بصداقته للشهابية وللتيار الناصري وعلاقته الحميمة مع سفير مصر في لبنان آنذاك عبد الحميد غالب. كان يؤمن بقوة بالديمقراطية وبالحريات العامة وبالتعاون والتضامن العربيين. وقد وقف ضد الحرب في لبنان عام ١٩٧٥ وسعى مع المخلصين إلى إيجاد حلول وتسويات سياسية ولم يتخلَّ عن دعم الحق الفلسطيني. توفي ١٩٨٠».

المصدر: سليمان تقي الدين. سيرة الأديب سعيد تقي الدين، الناشر: مؤسّسة التراث الدرزي لندن، المملكة المتّحدة - ٢٠٠٤، ص ٣٩ - ٤٠.

محمد المرشد (أي فاتح) الذي كان الوصل باسمه والذي لم يكن بقدرته هو وإخوته تحضير شيء من هذا المبلغ، واستمرّت ملاحقته لهم سنوات تتلو سنوات وأقام حجزاً على أغراض بيتهم المتواضعة جداً أكثر من مرّة إلى أن قبض أخيراً أجرته حسب الوصل في السبعينات عندما أصبح بمقدورهم أن يسدّدوا دينه الخداعي.

اكذوبة حدوث ثورة وعصيان

لعلّ هذه النبذة من كتاب الرئيس[1] محمّد معروف «أيام عشتها» رئيس المخابرات آنذاك ومعاون المقدّم أديب الشيشكلي القائد العامّ لجميع القوى الموجودة من جيش ودرك وخيالة التي احتلّت بيت سلمان في الجوبة والتي انتشرت بكافة أنحاء المنطقة، تلقي بعض الضوء على الظلم والإرهاب اللذين مارسهما رجال الحكومة آنذاك على هذه العشيرة وزعيمها، يقول في مذكراته:

«كان محافظ اللاذقية عادل العظمة رجلاً قوي الشكيمة وصاحب قرار مدعوماً من الدولة ـ وكان أخوه نبيه العظمة رئيس الحزب الوطني الحاكم ووزيراً للدفاع ـ يعاونه قائد درك (شركسي) يُدعى الزعيم محمّد علي عزمت، وهو ضابط متمرّس أوكلت إليه مطلق الصلاحيّات في محافظة اللاذقية. وفي يوم من أيام الصيف وكنت في عطلة في قرية الرويمية أتاني مراسل في سيارة جيب وطلب منّي الحضور فوراً إلى اللاذقية لمقابلة المقدّم أديب الشيشكلي. وصلت والفوج في حالة استنفار، دخلت مكتب الشيشكلي وإذا بجميع آمري السرايا وضابط كتيبة المصفّحات مجتمعون. بادرني الشيشكلي قائلاً: قلبنا الدنيا عليك، فأجبته: سيدي كنت في القرية واليوم عطلة ماذا في الأمر؟، فقال: وصلني أمر من القيادة بالانتقال فوراً إلى قلعة (المهالبة) وعلينا الوصول إلى هناك قبل طلوع الفجر والتمركز وانتظار الأوامر.

عند خروج الضبّاط من مكتبه سألته عن حقيقة الأمر فأجاب بأنّ سليمان المرشد يحضّر للقيام بثورة وعصيان في (جوبة برغال). وقد سبقنا الدرك مع مصفحاتهم إلى هناك. وأنّ رتلاً من الجيش سيهاجم معقل المرشد من الشرق عن طريق (شطحا)، فأبديت استغرابي إذ إن سليمان المرشد وقبل ثلاثة أسابيع عندما قمنا بالعرض للقوّات المتمركزة في اللاذقية بقيادة العقيد صلاح الدين خانكان، كان من جملة الذين حضروا العرض بين الزعماء والوجهاء في المحافظة؟ فأجابني: نعم وأنا أستغرب ذلك. وصلنا القلعة، ونصبنا الخيام، وانتظرنا الأوامر».

---

(١) الرئيس رتبة عسكرية توازي رائد هذه الأيام.

وجاء في كتابه أيضاً:

«بعد تمركزنا طلبت من المقدّم أديب الشيشكلي بأن أستطلع الوضع فذهبت مع مصفحتين ووصلت حتى مدخل القرية. لم يكن هناك أي دليل على المقاومة والعصيان. استفسرت من الأهالي عن الموضوع فأجابوا:

كان الأفندي ـ وهم يعنون سليمان المرشد ـ قد دعا قائد الدرك ومن في معيّته إلى الغداء في منزله في (جوبة برغال) وكان معه بعض المصفحات. توقّفت إحداها وكان في داخلها ضابط شركسي فتجمهر الناس حولها فأخذ الضابط يطلق النار عشوائياً ـ كان يريد افتعال الحادث افتعالاً ـ فأمرت أمّ فاتح، وهي زوجة المرشد، بعض أتباعها بالرد على النار. ولكن هذا الأمر أنهي فوراً بتدخل من سليمان المرشد نفسه، حتى إنه لشدة غضبه أطلق النار على أم فاتح نفسها فقتلت على الفور. وأوقف سليمان المرشد على أثر ذلك وسيق مخفوراً إلى اللاذقية.

أخبرت أديب الشيشكلي بما سمعت وقدّرت. وسوف أطلع القارئ العزيز على موقع قرية (جوبة برغال) ليزداد وعياً بكلّ ملابسات الأمور. (جوبة برغال) معقل المرشد، والطريق المؤدية لها تمرّ في قلعة الفاخورة ـ تبعد الفاخورة عن الجوبة حوالى عشرين كيلو متراً ـ وهي طريق ضيقة لا تتسع في معظم الأماكن إلّا لسيارة واحدة. ويشبه الصعود إليها الصعود بشكل عمودي، وعندما تصل إلى أعلى القمّة تنحدر نحو وادٍ عميق لتصل إلى أسفل قرية المرشد. ولكي تصعد إلى معقل المرشد عليك أن تسلك طريقاً لولبياً وعلى علوّ شاهق.

وهذا ما يجعلني متأكداً من أنّ سليمان المرشد لو أراد المقاومة والعصيان حقّاً ـ كما زعموا ـ وهو رئيس عشيرتي «الدراوسة والمهالبة» وفي هذا الموقع الحصين ـ لما استطاع الجيش السوري أن يحقّق انتصاراً عليه بأقل من ثلاثة أشهر، ولا سيّما أنّ عشيرة المرشد كانت تأتمر بأمره، وطوع بنانه، وبقيت موالية له ولأولاده من بعده.

زارنا الزعيم عبد اللّه عطفة قائد الجيش في قلعة الفاخورة وتفقّد الجنود وطلب من المقدّم الشيشكلي الانتقال والتمركز في جوبة برغال على أن يكون قائداً عامّاً لجميع القوى الموجودة من جيش ودرك وخيالة. وعيّنتُ معاوناً للشيشكلي ورئيساً للمخابرات. وتسلّمت الشيفرة للاتصال بالقيادة عند اللزوم، وقبل وصولنا القرية كان سليمان المرشد قد نُقِل إلى اللاذقية.

كان للمقدّم شيشكلي ثقة كبيرة بي، وكان يعتمد عليّ في كل صغيرة وكبيرة ولم يكن هناك ما يشغل البال من الناحية الأمنية، فالأمور هادئة والشعب مستكين، ومخفر من الدرك كان بإمكانه أن يحلّ محلّ هذه القوة الكبيرة من الجيش. ولكن محافظ اللاذقية عادل

العظمة، وقائد الدرك معاً كانا يضخمان الأمور للدولة في دمشق ويهيئان الشعب والحكم لمحاكمة سليمان المرشد كأنه مجرم خارج على القانون، وكانت غالبية عشائر العلويين تؤيّد إدانة المرشد[1].

تمركزنا في قرية الجوبة وكان منزل سليمان المرشد قد نُهب بكامله ـ مع الأسف ـ كما أنّ الدرك قد عاثوا فساداً في القرية وفي القرى المجاورة فنهبوا واعتدوا على كل شيء[2]».

تعليق على ما جاء في كلام محمّد معروف: إن الذين أخبروا محمد معروف أنّ أمّ فاتح أمرت بعض الرجال بالرد على المصفحة التي أطلقت نيرانها بدون سبب كانوا غير صادقين بهذا الأمر إذ كيف ستتمكّن أمّ فاتح أن تأمرهم بإطلاق الرصاص على المصفحة، والعزرا تبعد عن حارة سلمان بالجوبة أكثر من ٤ كيلومتر، فلا يصل الخبر إليهم إلا بعد فوات الأوان خاصّةً أن على من ترسله أن ينزل أوّلاً إلى سفح الجبل في الوطى ثمّ يصعد جبل العزرا إلى ذروته كما ترى في الصورتين في الصفحة (١٢٩)، ورجال العشيرة يعرفون أنّ أم فاتح كانت (بعد سلمان) أبعد الجميع عن فكرة القتال.

من فمك ادينك

سأدين المجرمين من أفواههم هم لا من أقوال غيرهم في هذا الضبط المضحك المناقض بعضه بعضاً، وضعته كما هو وكتبت بعده تعليقاً عليه، وهو في الحقيقة غير محتاج لتعليق فهو يكذّب نفسه بنفسه وتراه بدايةً من الصفحة المقابلة حتّى تمام الصفحات الأربع التي تحتوي على صورة الضبط.

---

(١) إن كان محمد معروف يقصد زعماء هذه العشائر فقط فهذا صحيح أما أناس هذه العشائر فلا أظنهم كانوا من هذا الرأي..

(٢) محمد معروف. أيام عشتها ١٩٤٩ - ١٩٦٩، دار رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥.

صورة عن محضر الضبط الذي نظمه قائد الحملة وضباطه

الصفحة الأولى

الجمهورية السورية
الدرك
اللواء الخامس

رقم ٢٢٤١/٧

ورقة ضبط

في هذا اليوم الجمعة الثالث عشر من ايلول سنة الف وتسعمائة وست وأربعين الساعة السابعة والنصف نحن نائب الزعيم محمد علي عزت قائد اللواء الخامس والملازم الثاني نوري بدوي قائد فصيل [illegible] والملازم الثاني عمر شعيب والوكيل الضابط الاول سليم بازرجي قائد فصيل بانياس والملازم الثاني يوسف طحان معاون قائد فصيل ادلب والوكيل الضابط الاول حسن طلو وسلطان والوكيل الضابط عز الدين كرمان والعريف صبحي مارتيني رقم ٢٨٠١ من ثلاث حلب أثناء قيامنا بوظيفة حفظ النظام وبقصد التقدم الى جوار قرية جوبة برغال لتسهيل تنفيذ قرارات اللجنة الادارية لحل القضايا المعتادة عليها بين سلمان المرشد واخصامه تركنا اللاذقية (?) الساعة السابعة صباحا متوجهين الى موقع العدوي الواقع غربي قرية جوبة برغال بمسافة اربعة كيلومترات بصحبة نحو مائة دركي على كميونين [illegible] توابعنا ست مصفحات وسيارة صحية ولدى وصولنا الى قرب الموقع المذكور بمسافة [illegible] كيلومتر وجدنا الطريق مقطوعة بواسطة الحفر والتخريب ووضع الحجارة عليه بعدة اماكن ولما توقفنا لاصلاحها فوجئنا بعيارات نارية صادرة من السفح الجبلي المعروف بجيب العدوي الموصوف وعلى اثرها توجه قسم منا واقتصر على السفح الجنوبي الغربي والقسم الآخر دام السير مع المصفحات والسيارات بعد اصلاح الطريق تحت وابل من رصاص الرشاشات والبنادق الروسية مما اجبرنا على التوقف واخذ الارض ما عدا سيارتين مصفحتين دأبتا السير رغم الموانع والصعوبات حتى موقع العدوي بقصد الالتفاف على العصاة المرابطين في السفح الجبلي بين الصخور والاحراج لتخفيف الوطأة عن الجنود المنتشرين بها بمواقع مكشوفة والذين اصبحوا تحت رحمة رصاص العدو وبطولها طوقت الاشقياء الذين كانوا مرابطين بجانبي الطريق أما الاشقياء الكامنون بسفحي الجبل الجنوبي والشمالي فقد ظلوا يطلقون [illegible] رصاصهم وكانت اصوات الرصاص من الرشاشات الافرنسية تصدر من كل جهة الموجود فيها الاشقياء فانضم الى المصفحتين المتقدمتين مصفحة ثالثة يقودها الملازم عمر شعيب حيث تقدمت من [illegible] الواقع في الجهة الجنوبية الذي يمكن منه العصاة المتمركزين على مفارز الدرك بصورة ان العصاة في اعلى والمفارز في اسفل بصورة مكشوفة وان المصفحة التي يقودها نائب الزعيم صعدت السفح الجبلي الشرقي الجنوبي والتي يصدر منها طلقات كثيرة وطوقت كمين صائبة الجهة المذكورة وعلى هذه الصورة تمكن [illegible] وتوزع المفارز بخطوط محدودة من جهتي الجنوب والشرق وبقي قسم من العصاة المتمركزين بين الصخور واستحكامات التل الشمالي الغربي في مراكزهم بصورة لا تؤثر عليها لا المرامي ولا الرصاص وبقي العصاة مداومين على رمي جنودنا الواحد تلو الآخر وخلالها تمكن الملازم الاول حسين هلال من التقدم مع بضعة جنود بجسارة نادرة معرضا حياته وحياة جنوده الى الخطر ليصلوا الى السبيل الواقع شرقي سفح موقع العدوي اصيب بعيار ناري اودى بحياته ورغم كل المحاولات التي بذلناها لم نتمكن من التسلط على العصاة الكامنين في التل بين الصخور المستحكمة التي تعد أعظم استحكام طبيعي في جبال العلويين والتي لا يجدي فيها حتى مرامي المدافع وقد توجهت المصفحة التي يقودها الملازم عمر شعيب نحوهم ولكنها لم تتمكن من الوصول اليهم بالنظر لوعورة الموقع وكثرة الطلقات التي صوبت اليها من الرشاشات فاضطرت الى التراجع فلم يبق الا المحاولة لانقاذ الموقف من ابادة الجنود و[illegible] المصفحات الى اقرب موقع ممكن من اماكنهم بتعيينها بضعة جنود الذين كانوا وصلوا مع الملازم حسين واضطرت كامن الاشقياء بوابل من رصاص الرشاشات المصفحات حتى ارغموا على الاختفاء وتوقف [illegible] لرجال المشاة على التقدم متقدمين من رصاص العدو بالمصفحات تارة وبالتمترس بالصخور تارة اخرى وحتى تم التسلل بينهم واصبحت [illegible] وجها لوجه وعلى مسافة امتار قليلة وقد تمكنا من [illegible] على [illegible] مسلحين منهم [illegible] ثامر بركات [illegible] من قرية [illegible] واحمد طاهر من قرية [illegible] والمتبقية الآخرون لم يعرفوا حتى ساعة هذا التنظيم [illegible] من وعورة الموقع [illegible] من السلحة [illegible] وهي اربعة بنادق [illegible] ذات الارقام = ٣٧١٤ - ٦٢٢٠ - ٤٥٦١ - ٧٨٢١ واما [illegible] بقية المقتولين فقد اخذها رفاقهم الذين لاذوا بالفرار وعلى اثر اصابة ومقتل الملازم الاول حسين هلال تقدم مع المصفحة الملازم نوري بدوي نحو المرتفع الكائن بالجهة الجنوبية من [illegible] موقع العدوي الجنوبي واحتل [illegible] اخرى تلك الهضبة حيث اطلق عليه من الناحية الشرقية الشمالية عدة عيارات نارية من الاشقياء [illegible] بعد ان امن المفارز بمكان يمكن معه مبادلة الرصاص مع الاشقياء حيث بقيت المفارز بمكانها تبادل الرصاص مع الاشقياء [illegible] الهاربين من موقع العدوي نحو الاودية المواجهة من الجهة الشمالية من الطريق العام وكان الوكيل الضابط الاول سليم بازرجي يقود ثلته بحزم [illegible] بخطى وهدوء لمنع حركة تطويق العصاة على الجنود المتمركزين نظرا لتسلط موقع العصاة على المفارز وامطارهم برصاص الرشاشات والبنادق بصورة واسعة حتى تم تمكن المفارز من انهاء [illegible] حركة هجومية حتى تتمكن الجنود من السير مع المصفحات والتي يقودها نائب الزعيم والملازم عمر شعيب من [illegible] العصاة من [illegible] في قلوب العصاة [illegible] وطأة رصاصهم بدأ الهجوم عليهم بتعقيب ومطاردة الفارين منهم وقد اصيب خلال المصادمة هذا عدا الملازم الاول حسين هلال الدركي طاهر [illegible] من ثلاث حلب [illegible] اردته قتيلا [illegible] بعيارات نارية في [illegible] والملازم حسن [illegible] بعيار ناري في خاصرته والدركي عبد الكريم هارون بعيار ناري في وجهه والعريف صبحي مارتيني بعيار ناري في اعلى [illegible] والدركي [illegible] في ساعده الايمن وقد جرى ارسال جثث الشهداء والجرحى بعد اسعافهم في سيارة الصحية الى مستشفى اللاذقية [illegible] جورج خوام .

تتمة الصفحة الأولى

و التهب الصادمة بالساعة ١١٣٠ بعد ان دامت اربع ساعات وانتشابها وانتقل التمرد
الى موقع تمركز ... [illegible] المواقع التي [illegible] لصعوبة بها واستحكامات [illegible] على
الاهالي سليمان بن سليمان على [illegible] من قرية علي مع بندقيته الالمانية [illegible] خرطوش
وبعد يوم ساعة ايضا عثرنا على المدعو ابراهيم بن [illegible] من قرية [illegible] السعديات مع
بندقيته الالمانية الطويلة وعلى كريم بن محمود طه من قرية [illegible] ابو غدي مع بندقية [illegible]
طويلة وعدد من خرطوش وبعد يوم مدة خمس ساعات بعد ان [illegible] الشركسية [illegible]
الدرزي في الموقع نفسه عثر على المدعو عثمان بن ابراهيم حسن من قرية [illegible] مع بندقية [illegible]
وعدد [illegible] من الـ [illegible] الكل [illegible] الصخور في الكهوف التي اعدوها [illegible]
الصهاريج الاثرية وعند الكشف على المواقع [illegible] ان [illegible] كميات كبيرة
من انواع [illegible] الانكليزي والالماني والعثماني والرشاشات الانكليزية مما يدل انهم استعملوا جميع
انواع هذه الاسلحة .

. . . ./ . . . .

الصفحة الثانية

- ٢ -

ومن التحقيقات التي اجريناها تبين بان سليمان المرشد وزوجته [illegible] ولده [illegible]
[illegible] التابعين ابيه قد تآمروا على سلامة الدولة والقضاء على [illegible] الموجودين في
[illegible] حتى يصبحوا [illegible] الدولة [illegible] على الحكومة [illegible] عليها واعلانها [illegible]
الداخلي ولهذه الغاية [illegible] خطة عملهم [illegible] جميع [illegible] الاسلحة [illegible]
ونصبوا [illegible] الاربعة [illegible] بنحو ٢٠٠ بقيادة [illegible] احمد من قرية [illegible] صافلة [illegible]
[illegible] قوات المرشد [illegible] ليرابطوا على [illegible] شمالي موقع [illegible] والشيخ درويش [illegible]
من قرية [illegible] مع نحو ٢٠٠ من المسلحين [illegible] على [illegible] جنوبي موقع [illegible] بقيادة
المدعو محمد [illegible] شيخان ابو حسن من [illegible] الجهة [illegible] بقيادة ابراهيم [illegible] من
[illegible] في [illegible] احد [illegible] المرشد [illegible] نحو ١٠٠
مسلح بقيادة علي سليمان محمود من قرية [illegible] لمفاجأة [illegible] المتمركزة في قرية [illegible]
وكان [illegible] لمحاسبة [illegible] تنفيذ [illegible] منهم في
ليل ١٢/١٢ ايلول ١٩٤٦ [illegible] بتلك الليلة [illegible] على الدركيين [illegible]
[illegible]
احد [illegible] سليمان المرشد [illegible] المدعو [illegible] في [illegible]
[illegible] الدركية وكان [illegible] الدركيين المذكورين [illegible]
[illegible] الساعة [illegible] احد [illegible] الدركي [illegible]
[illegible] المرشد [illegible] وهي [illegible] مسبية [illegible]
دون ارادته [illegible] بعد ان [illegible]
[illegible] المهدمة [illegible] في الساعة [illegible] المواقع المرتفعة
[illegible] الحكومة [illegible] احد [illegible] تحت
[illegible] الانكليزية [illegible] الدركيين [illegible] ومصطفى يوسف
والثالثة [illegible] رقم ١٢٥ [illegible] حمود [illegible] عصابة
المرشد [illegible] باشروا [illegible] عليهم [illegible]

اسمي سليمان بن سليمان علي خميس وشاعة مولود ومقيم في قرية طيح ملاك وزارع عمري ٤٠ سنة امي – ولي أولاد سبعة من عشيرة العمامرة زوجة ابن عمي سليمان المرشد اخيه ليما انا كنت مستكينا ساكنا .

نهار [illegible] بعد الظهر بساعتين [illegible] وبقينا [illegible] من اهالي قرية عليب لا اعرف اسمه واجمع رجاله قاموا باسم [illegible] زوجة سليمان المرشد بان نرابط في موقع العذري بالمحلة التي على سلامات المذكور واعلمنا ان العشيرة ترابط باجمعها في الموقع المذكور وفي عدة مواقع اخرى لاجل مواجهة رجال الدرك [illegible] اذا حاولوا دخول [illegible] الزعيم المرشد وهددنا باسم [illegible] بسلب ونهب [illegible] اذا احدنا تمنع وذهب [illegible] كل من كريم ابو بصلة وعثمان ابراهيم وحسن خليل [illegible] باستطاعة [illegible] وسعيد [illegible] وناصر عنوش وابراهيم ابو بصلة وجميعهم من ارابط مع كل منهم بندقية حربية وعتاد [illegible] مع الـ [illegible] وحول [illegible] عددا كبيرا يتجاوز المئتين [illegible] بعتاد [illegible] ورشاشات وكان يمر بطلوشا [illegible] الجهة الجنوبية [illegible] شعبان أبو حسن من قرية الجوبة ومن جهة الشمال كان يمر باحمد [illegible] من اهالي [illegible] سلطان [illegible] [illegible] الجنوب الشرقي [illegible] من قرية [illegible] الا [illegible] ثم اعرفهم واكثرهم جميعا من رجال المرشد وبعد طلوع الفجر من اليوم الثاني بعد ان [illegible] الطريق باحجار كبيرة ومن تخريب [illegible] الى قرية الجوبة [illegible] ودوي اصوات [illegible] الدرك [illegible] اطلاق النار عليهم وكان كل منا [illegible] ان احتاطنا [illegible] ولقد [illegible] من قتل وجرح [illegible] هرب [illegible] الآلهة وكان [illegible] ١٥ خرطوشا واربع [illegible] المحرز [illegible] الرحمة مع علمي باني [illegible] من قتل او جرح [illegible] الدرك .

تلي عليه افادته فايدها بصم ابهام يده اليسرى .

استجوب احد افراد العصابة الثاني واستجوب فافاد –

اسمي ابراهيم بن [illegible] حسن محلبلة مولود في قرية خربة سلدبانة ومقيم فيها عمري ٢٠ سنة اعزب امي مع [illegible] نهار [illegible] من قرية بلاط شاهدنا محمد الحمصي وكيل سليمان المرشد [illegible] باسم سليمان المرشد [illegible] ببندقية حربية المانية مع اربع وثلاثين خرطوشة المانية [illegible] من [illegible] لا اعرفهم انما اذا شاهدتهم وجها لوجه اعرفهم ولا استطيع تشخيصهم الآن فذهبت مع [illegible] الاشخاص الى موقع العذري فشاهدت في الموقع المذكور وفي عدة مواقع [illegible] مسلحين [illegible] ورشاشات احدهما مع شخص كان يضرب عنه وهو من اهالي [illegible] وهذا كان يركز في الجهة الشمالية والثاني كان يضرب عنه شعبان ابو حسن [illegible] بضعة آخرين كانوا يرتدون بزة عسكرية وهذا الجمع [illegible] بقطع الطريق [illegible] الى [illegible] الى الجوبة دون [illegible] والمصفحات [illegible] الجوبة اما انا فلم اشترك بقطع الطريق ولا [illegible] من قرية [illegible] اجهل [illegible] تشخيصهم بدقة عندما [illegible] عثمان ابراهيم [illegible] سليمان من قرية طيح وكريم عبدو من قرية حرف ابو [illegible] ولم اعرف [illegible] لان كلا منا كان يتمركز في موقع من العذري [illegible] صباح اليوم الثاني بعد [illegible] اطلقنا عليها (اي على القوة) النار [illegible] ولم اعرف [illegible] قتل او جرح لا منا ولا من الدرك ثم عثر علي الدرك في موقع [illegible] وصادروا مني اربع وعشرين خرطوشة مع بندقيتي وهي كما [illegible] الى سليمان المرشد [illegible] رجاله [illegible] ذهبنا [illegible] ولولاه لما كنا [illegible] وكان ذلك بايعاز من محمد الحمصي .

تليت عليه الافادة فايدها ببصم ابهام يده اليسرى .

استجوبنا احد افراد العصابة الثالث فافاد كما يلي –

اسمي كريم بن عبدو [illegible] من أهالي قرية حرف ابو [illegible] ومن عشيرة العمامرة [illegible] زوجها سليمان المرشد عمري ٢٢ سنة امي متزوج ولي ولد واحد .

نهار [illegible] بعد العشاء وصل الى [illegible] من قرية [illegible] رسولا [illegible] زوجة سليمان المرشد يدعوني باستلام [illegible] مع بندقيتي الالمانية وسبعين خرطوشة وعين [illegible] على الطريق [illegible] مع كل من هؤلاء [illegible] وحسن علوان وحسن [illegible] ومليطين [illegible] من قرية [illegible] اجهلهم يتقدرون بـ ١٢ شخصا [illegible] حربية [illegible] الى [illegible] الجوبة واجهة محمد الحمصي وكيل سليمان المرشد على [illegible] من سليمان الذي امره بارسال الرجال

الصفحة الثالثة

- ٢ -

[illegible]

ثبتت عليه الادلة [illegible] الاسير .

[illegible]

[illegible] ابراهيم [illegible]

[illegible]

ثبتت عليه الادلة [illegible] الاسير .

[illegible] ابراهيم [illegible]

[illegible]

[illegible] المحكمة العسكرية [illegible]

[illegible]

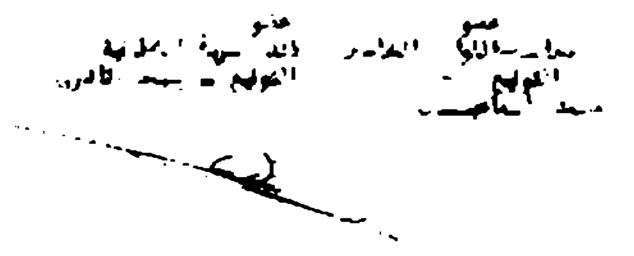
[illegible]

[illegible]

التوقيع [illegible]

التوقيع [illegible]

التوقيع [illegible]



تعليق على الضبط

- يظهر من الضبط بكلّ وضوح أنّهم كانوا صاعدين إلى الجوبة بوظيفة حفظ النظام وتنفيذ قرارات اللجنة الإداريّة لحلّ القضايا المختلف عليها بين سلمان المرشد وخصومه.

هنا تظهر جليّاً المكيدة التي دبّروها، فهم صعدوا إلى الجوبة لحلّ القضايا كما يقول الضبط وكما قالوا للجميع، بينما كانت النتيجة أنّهم جلبوا سلمان وأبناءه ووجوه عشيرته، أعدموا البعض وسجنوا البعض ونفوا البعض. فهم عندما صعدوا إلى الجوبة كان معهم كميونان ومائة دركي وبيك آبين وترافقهم ستّ مصفّحات وسيّارة صحّيّة كما هو واضح في الضبط. أفهذه زيارةٌ للمصالحة يتناولون بها الغداء في بيت أبي فاتح كما ادّعى الذين أرسلوهم سابقاً أم حملة بقصد افتعال معركة للقبض على سلمان وعلى وجهاء العشيرة الغسّانيّة الذين تنبض أصالة العروبة في قلوبهم وتجري في عروقهم الثقافة العربيّة الموزّثة وليس الثقافة العثمانيّة!!.

- يقول في الضبط أنّ الطريق كان مقطوعاً بواسطة الحفر والتخريب بوضع الحجارة عليه.

أوّلاً: قد يتبادر إلى ذهن قارئ الضبط أنّ الطريق كانت معبّدة وهذا لم يحصل إلّا في الستينات حيث كانت الطرق الترابية وخاصة الجبليّة منها مليئة بالأحجار وحوافها مهيّأة للانهيار.

ثانياً: إنّ رجال أبي الفاتح لو كانوا يريدون قطع الطريق لكانوا أزالوها من الوجود فهم الذين قاموا بأربعين يوماً فقط بخلق وشق طريق الشعرا الذي يصل محافظة حماه باللاذقية من جوبة برغال إلى حارة الزيارة في الغاب عبر سلسلة جبليّة من أوعر وأقسى مناطق البلاد، هل هؤلاء كانوا ليرضوا برمي بعض الحجارة لقطع الطريق إلى الجوبة؟!.. إنّ هذا لهو السخف بعينه ولو كان منظمو هذا الضبط على دراية بالأمر لكتبوا غير ذلك ولكن لسذاجتهم ظنّوا أنّ هذا يكفي لإيهام الناس وخاصّة أنّهم غرباء عن المنطقة.

- ورد في نهاية الصفحة الأولى من الضبط ما يلي: (..وعند الكشف على المواقع المحصّنة التي كان العصاة كامنين فيها وجدنا كميات كبيرة من فوارغ العتاد الإفرنسي والألماني والعثماني والرشاشات الإفرنسية ممّا يدل أنهم استعملوا جميع أنواع هذه الأسلحة). بينما في مكان آخر كتبوا أنّهم عثروا على بندقيّة ألمانيّة طويلة ومعها بعض الخرطوش، ثمّ عثروا على بندقية ألمانيّة طويلة ثانية، ثم عثروا على بندقية ألمانيّة ثالثة، ثم عثروا على بندقية ألمانيّة رابعة وعدد من الخرطوش. أمّا الرشّاشات الفرنسيّة فلم يجدوا منها شيئاً، ولكن وجدوا على حدّ قوله فوارغ العتاد منها فقط، فأين أصوات الرشّاشات

الفرنسيّة التي سمعوها في البدء وأين أصوات الرصاص التي كانت تصدر من كلّ جهة !!. ولو كان هناك رشاشات فرنسية ـ كما يدّعون ـ لسلّمت مع ما سلّمه سلمان من أسلحة فيما بعد. ولكن لم تظهر هذه الرشاشات لا قبلها ولا بعدها إلّا في مخيلة كتبة محضر الضبط.

وفي مكانٍ آخر يقول ضبطهم: (وأمّا أسلحة بقيّة المقتولين فقد أخذها رفاقهم الذين لاذوا بالفرار). وهل الفار رعباً ينتبه أن يأخذ معه رشاشات كبيرة الحجم وبنادق وذخائر حتى لم يبقَ في مكان القتال أي شيء منها؟.

ـ في بداية الصفحة الثانية يتحفنا هذا الضبط بما يلي (ومن التحقيقات شفهيّاً التي أجريناها تبينّ أن . . . . قد تآمروا على سلامة الدولة والقضاء على جنود المفارز الموجودين في منطقتهم وجوارها حتى يصبحوا أسياد الموقف ويتسلطوا على الحكومة ويفرضوا إرادتهم عليها وإعلان استقلالهم الداخلي) تصوروا يا رعاكم الله لقد كنّا في بداية الضبط وفي السطر الخامس تحديداً وبالحرف (. . .أثناء قيامنا بوظيفة حفظ النظام. لحل القضايا المختلف عليها بين سلمان وأخصامه. .) في الصفحة الثانية تبدّل الموقف فقد تبين للجهابذة التآمر على سلامة الدولة العتيدة وإعلان استقلال داخلي وكيف تبين لهم ذلك؟ لقد تبين كلّ ذلك (شفهيّاً) أي لم يحتج هؤلاء لأي عناء لا لأدلّة أو حتى لاستماع أقاويل وتحقيقات لقد اختصروا كل ذلك بجملة واحدة وهي (تبيّن لنا شفهيّاً) فأي سخفٍ هذا وأي ظلم وظلام ؟! إن دلّ على شيء فهو يدل على نفسيّة الحكّام يومها والاستهتار بأبسط القواعد القانونيّة المرعية أو المنطقيّة والتسلط والاستهانة بعقول الناس. إنّ هذا الضبط لهو أكبر شاهد على ظلم حكام ذلك الزمن وخدمهم ومن مشى في ركابهم.

ـ وأكثر ما يضحك الاستجوابات التي تمّت:

فالرجل كما ظهر في إفاداتهم يبقى في كمينه إلى أن يأتي الدرك ويأخذونه ويكون معه ١٥ خرطوشة ويبقى معه ٣ خرطوشات فقط. ويظهر هنا أنّهم أخذوا أربعة رجال فقط من مكامنهم دون أن يتحرّك هؤلاء الرجال، وهنا يظهر كذبهم جليّاً أنّه لم يكن هنالك قتال إلّا من طرفهم هم، فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا دون قتال، إلّا عندما أطلق الدرك عليهم النار في البداية فردّ بعضهم على النار بالمثل فكان أن تسبّبوا بقتل إثنين من الدرك وجرح خمسة حسب ضبط الدرك ـ القتيل الثاني من الدرك قتله رفاقه عندما أراد إيقاف القتال وخرج من المصفحة لأجل ذلك ـ.

والمضحك أيضاً كيف يشهد الشهود أنّ من أسماهم الدرك وكلاء سلمان كانوا يجبرون الناس على أخذ البندقية للقتال فكيف يقاتل من أخذ البندقية غصباً عنه!!.

أهؤلاء رجال العشيرة الذين كادوا أن يحتلّوا اللاذقية لو أرادوا وطردوا المحافظ منها !!.
أهؤلاء رجال العشيرة الذين هربت من هجومهم العشائر التي أرسلها إقطاعيو حماة حتى لم يبقَ بينهم وبين حماة أحدٌ أي انهزم كلّ من كان في طريقهم قبل وصولهم إليه!!. واقطاعيّو حماة البرازيّون انهزموا من حماة نفسها. هؤلاء الأخيرون الذين لم تهدأ ركبهم عن الارتجاف حتّى تدخّل الفرنسيّون لحمايتهم.

فمن يقاتل هذا القتال كيف يقاتل كما يصفون؟ يقبعون في مكامنهم حتى يأتي الدرك ويخرجونهم منها. ولا يمكن لعاقل أن يصدّق مثل هذا الكلام. فهذه الإفادات مفضوحة من صياغتها أنّها من تأليف ضبّاط الحملة وبَصْم المُستَنْطَقين فهي كلّها متشابهة تتّهم سلمان وأهله بنفس الاتهامات التي أراد الحكّام اتهام سلمان بها.

ويقدّر الذين أُخذت إفاداتهم أنّ رجال سلمان المرشد الذين كانوا يقاتلون الدرك بمائة رجل وهم في الحقيقة ما اجتازوا عشرات المستقبلين ولو أراد سلمان المرشد أن يقاتلهم لأرسل الآلاف وليس عشرات فقط. ثمّ لو كان بنية سلمان القتال لما ترك الدرك بمصفحاتهم ومعداتهم يتقدمون أكثر من ثلاثين كيلو متراً على الطريق المكشوف بين عشائره دون أن يعترضهم أحد. ولما كان انتظر حتى يصلوا إلى قرب منزله في الجوبة، بل كانت وقعت المعركة قرب اللاذقية أو في اللاذقية نفسها. إذاً لكان انتصر سلمان وانكسر الجيش والدرك بكلّ سهولة، ولكن سلمان لم يكن ينوي القتال.

الشهود تتحدّث عن إطلاق النار، هذا يقول: كان لديه ١٥ رصاصة وبقي لديه ثلاث أي رمى ١٢ طلقة. وذاك يقول كان لديه ٣٤ وبقي معه ٢٤ أي رمى ١٠ طلقات فقط. فأيّ قتال هذا بحقّ السماء؟!!. يظهر أنّ المستنطقين لم ينتبهوا لضآلة هذه الكميّة من الطلقات في هكذا قتال وإلاّ كانوا جعلوها آلافاً لتتناسب مع مبغاهم.

تبيّن من شهادة هؤلاء الشهود أنهم لم يروا إلّا رشاشين، أفهذه معركة أم مذبحة قامت بها الحكومة لرجال أبي الفاتح وقتلوا منهم ستة رجال وليس عشرة كما يقول الضبط؟. ولم يكن هنالك من داعٍ لقتل هؤلاء الرجال فهم جاءوا يستقبلونهم أصلاً ويستعلمون عن الأمر.

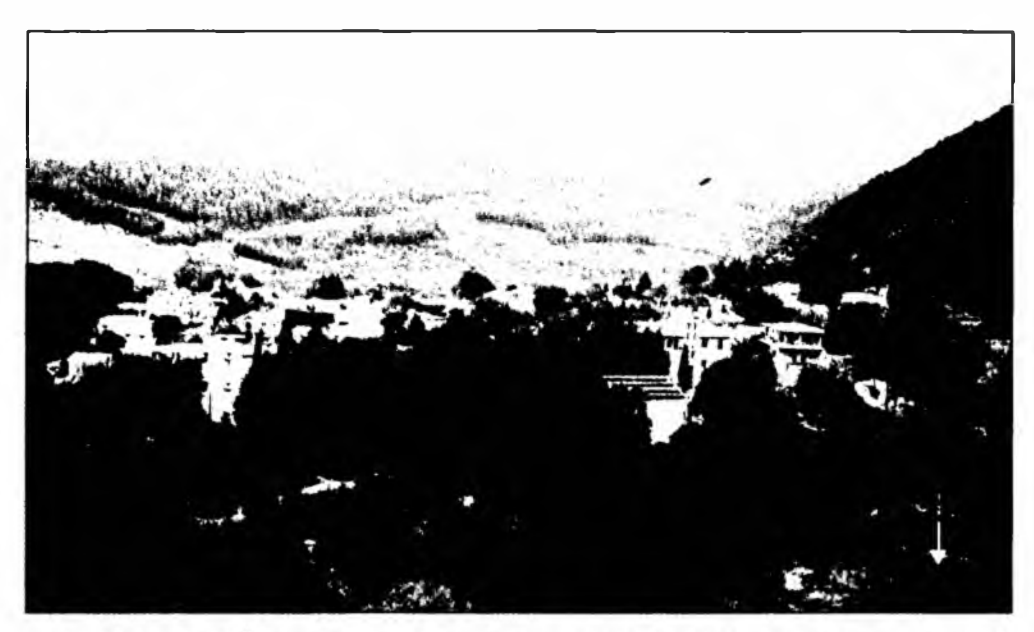
كلّ الشهود هم من مليّخ ومن حرف أبو شدق ومن خربة السنديان ـ ومليخ وخربة السنديان حارتان قريبتان من الجوبة جدّاً ـ أهؤلاء الذين قبضوا عليهم فقط ؟. فأين جماعة سلمان الذين كان تعدادهم عشرات الألوف يتوزعون في جبال محافظة اللاذقية الكبيرة وفي محافظة حمص وفي محافظة القنيطرة والغاب وجهة مصياف وريف دمشق؟!!.

ويقولون في ضبطهم: «العصاة الكامنين في التلّ بين الصخور المستحكمة التي تُعد أعظم استحكام طبيعي في جبال العلويّين والتي لا يجدي فيها حتى مرامي المدافع».

لن أعلّق على هذا القول إلّا أن تنظر إلى صورة جبل العزرا في الصفحة المقابلة وترى مكان حدوث المعركة المزعومة وتضحك من هذا الضبط الغريب، فقد كان أولى بهم أن يقولوا (التي تُعَد أبسط استحكام في جبال العلويّين) نظراً لسهولة طبيعتها النسبي في جبال الساحل ولإمكانية رؤية الكامنين بها لأنها كانت مكشوفة حينذاك. فكان عليهم أن يقولوا لو أرادوا أن يكونوا صادقين (هي كانت أكثر مكان يليق به استقبال القادمين) لأنها بداية الإطلالة على الجوبة وعلى حارة سلمان كما ترى في الصفحة المقابلة في الصورة الأولى والثانية اللتين التقطتا من الحارة باتجاه العزرا ومن العزرا باتجاه الجوبة.

- حسب ما ورد في ضبطهم أنّ إطلاق النار استمرّ أربع ساعات وتوقف الساعة ١١,٣٠ ظهراً.

وهنا يظهر جليّاً كيف أنّه لّما سمع سلمان بالقتال عرف ما يريدون فأطلق النار على أمّ فاتح وأرسل إلى محمّد علي عزمت قائد الدرك أن يتقدّم إلى الجوبة فلن يقاتله أحد. بمعنى كفّوا شرّكم عن الناس فأنا أسلّم نفسي لكم. أي لم يأمر بقتال بل سمع به، وهو منذ سمع بقتال يجري على جبل العزرا أرسل من يوصل الخبر لرجاله أن يكفّوا عن القتال وهذه العملية تأخذ وقتاً طويلاً للوصول إلى أماكن إطلاق النار وتعميم الخبر على الرجال الذين يجابهون المصفحات بعد أن باغتتهم بإطلاق النار فالتجؤوا إلى ما يحميهم من الرصاص الطائش الآتي من المصفحات. ويذكرون البنادق القليلة التي وجدوها وكأنها جريمة مع العلم أنّ أكثر الشعب السوري يومها كان يمتلك السلاح. وكان امتلاك سلاح من دواعي الفخر ودلالة الوطنيّة لأنّه يوحي بأن صاحبه لم يرضخ للمستعمر.



المصوّر يقف في نهاية حارة سلمان انظر إلى السهم في أسفل الصورة. وترى في أعلى الصورة الطريق في جبل العزرا وهو المكان الذي انتظر به المستقبلون وفد الحكومة على يمين ويسار الطريق انظر إلى السهم أعلى الصورة. أخذت هذه الصورة سنة ٢٠٠٦ ولذلك تشاهد في الجوية بنايات حديثة. أما الأشجار التي تبدو في الصورة في العزرا فهي لم تكن موجودة سنة ١٩٤٦ إنما قامت الدولة فيما بعد بتشجيرها بأشجار الأرز والصنوبر في السبعينيات ككلّ جبال الساحل.



أخذت هذه الصورة من على جبل العزرا وترى بها حارة سلمان من بعيد انظر إلى السهم

اين العرب السوريّون؟

إنّ أكثر الأسماء الواردة في الضبط ليسوا عرباً ومنهم قائد الدرك العام وقائد الحملة ومعاونه، أضف إليهم المفرزة الشركسيّة كلّها فمن حاربوا سلمان لم يكونوا عرباً، ومنهم كمثل هرانت قائد الدرك العام وكثيرين آخرين لم يكونوا يقدرون على التكلّم باللّغة العربيّة بشكلٍ صحيح. وهنا نجد أنفسنا نتساءل هل كان صبري والقوتلي وشلّتهما يخافون أن يرسلوا عرباً ليجلبوا زعيم بني غسّان ووجوههم العرب الأقحاح؟!.

استدراك: لم أشر الى جنسيّات القوّة المهاجمة لبيت سلمان لتفضيل عرقٍ على عرق فالإنسان في عمله وليس في عرقه، بل ذكرتها كي أتساءل: هل هم لم يرسلوا عرباً مخافةَ أن لا ينفّذوا ما يطلبون منهم ويهاجموا عرباً أمثالهم تحت إمرة قوّادٍ ذوي جنسيّاتٍ غير عربيّة؟. فقد فعلوا كما فعلت فرنسا عندما أرسلت قوّات إلى الجوبة بإيعاز من شكري القوتلي رئيس الجمهوريّة آنذاك، ففرنسا أيضاً لم ترسل سوريّاً واحداً من الجيش الفرنسي بل أرسلت سنغال ومغاربة، أناساً بعيدين عن المنطقة تأمن عدم انقلابهم عليها وانضمامهم إلى جماعة سلمان وقد ذكرتها سابقاً.

التجنّي

إن كنت انا استحقّ الإعدام فمن لا يستحقّه؟!

كان قد اتّفق رجال الحكومة المركزيّة في دمشق ورجال الحكومة المحلّيّة في اللاذقيّة والعائلات الغنيّة الإقطاعيّة في اللاذقيّة وغيرها على إعدام سلمان وضرب جماعته وإذلالهم.

أرادوا أن يجعلوا من سلمان وعشيرته عبرة للأقليّات وللعشائر في البلاد فلا يجسر أحدٌ منهم أو من غيرهم بعد ذلك على المطالبة بأيّ حقّ له. وإذ لم يجدوا تهمةً تبرّر لهم هذا العمل الآثِم فقد ادّعوا أنّ سلمان تعاون مع الفرنسيّين. وهم لم يوضّحوا بأيّ أمرٍ تعاون معهم، ولا كيفيّة هذا التعاون ولا هدفه، فكيف يكون تعاونٌ بلا هدفٍ ولا مبرّر؟!. وأمروا صحف البلاد ودفعوا للصحف خارجها كي تنوّه بهذا التعاون المُبهم القصد والغاية. كما أمروا صحف البلاد أن تكتب أنّه دعا الناس إلى ربوبيّته مع أنّهم لم يحاكموه على هذا الأمر. فكانت مجرّد أقوال كتبت في جرائد البلاد وبعض جرائد مصر ولبنان.

وهكذا اتُّهم سلمان بالتعاون مع الفرنسيّين من قِبَلِ جماعة فرنسا أنفسهم. وأصبح بذلك أنّ الزعيم الوحيد من القلّة القليلة الذين لم يتعاونوا مع فرنسا هو الوحيد الذي اتُّهم بها.

إلاّ أنّ المحكمة أثبتت براءته من هذه التهمة، فكان أن تلقّى رئيس المحكمة - كما أشرنا سابقاً - أمراً مباشراً من رئيس الجمهوريّة بوجوب إعدام سلمان بأيّ طريقةٍ كانت كما اعترف هذا القاضي لأبناء سلمان بعد الحادثة بسنوات معترفاً بذلك بجبنه وبظلم سلمان ظلماً لربّما لم تشهد الأيّام له مثيلاً. وعندما صدر الحكم بالإعدام لم يكن به ثمّة إشارةٌ إلى الفرنسيّين.

هذا ولم يَرِد في وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة عندما أفرجت عنها فرنسا كما هي العادة بعد حقبةٍ من الزمن، ولا في مذكّرات ديغول وغيره أيّ ذكرٍ لسلمان أثناء

الانتداب، على عكس غيره من زعماء البلاد. وهذا يوضح عدم قيام أيّ تعاونٍ على أيّ مستوىً كان.

والمضحك في هذا أنّ رئيس الجمهوريّة آنذاك ورئيس الوزراء والوزراء كانوا يتناوبون على حكم البلاد في عهد فرنسا مدّة عشرين سنةٍ ونيف، فهل يمكن أن تضع فرنسا على سدّة الحكم أناساً يحاربونها أو تقبل أن يكون ذلك في بلادٍ مُنتدَبة إليها أو بالأحرى بمنطقة تقاسمتها مع بريطانيا؟.. وكذلك القضاة الذين حاكموا سلمان في المجلس العدلي كانوا موظّفين عيّنتهم فرنسا في مناصبهم. وهكذا كلّ العائلات الغنيّة في البلاد كان لها صلةٌ ووظائف كبيرة زمن الفرنسيّين. والوحيدون الذين لم يكونوا موظّفين ولم يتطوّعوا في الجيش الفرنسي، هؤلاء هم الذين جُلبوا من جبالهم كي يُحاكموا بتهمة التآمر مع فرنسا. وأذكر هنا أنّه عندما حكموا عليه بالإعدام وبعد أن تمّت تبرئته وتبرئة عشيرته من التعاون مع فرنسا قال في المحكمة وجهراً أمام جميع من في القاعة: إن كنت أنا أستحقّ الإعدام فمن لا يستحقه؟!!.

الأكذوبة الكبرى

واتّهموا سلمان طبعاً في الجرائد فقط[1] ـ أي لم يحاكموه عليها ـ بمحاولة إقامة دولة علويّة. وسلمان لم يكن زعيم العلويين كما أُشيع عنه بل كان زعيم عشيرة بني غسّان التي كانوا يسمّونها الغيبيّة أي المذهب الذي لا يمثّل الله بشيء في الكون، واسمها الصحيح هو عشيرة بني غسّان.

والغريب أيضاً أنّ الدولة العلويّة أقامتها فرنسا عندما كان سلمان ما زال طفلاً. والأكذوبة الكبرى تظهر على حقيقتها عندما نعلم أنّ سلمان كان له الفضل الأكبر بإنجاح قائمة الانتخابات الوحدويّة التي بموجبها تمّ ضمّ ما أسمته فرنسا بالدولة العلويّة إلى الوطن الأمّ، وأخيراً كانت له اليد البيضاء بإرجاع الجيش السوري إلى أحضان وطنه، وبعد كلّ هذا يُتّهم بأنّه كان يعمل لإقامة دولة علويّة!!. طبعاً لم توجّه له في المحاكمة هذه التهمة السخيفة، فحتى أعداؤه لم يجدوها مقنعة، ولكنّهم أمروا أبواقهم وعملاءهم بإذاعتها والتركيز عليها حتى بات أكثر الناس يصدّق بها. والذي يُخرس هؤلاء الكذبة أنّ سلمان تقدّم إلى البرلمان بصفته نائباً عن الحفّة باقتراح مشترك مع حليفه نوري الحجّة وهو نائب عن الحفّة

(١) كان الإقطاعيون وباقي الرجعيين يملكون معظم الجرائد في المحافظات السوريّة هم أو أقرباؤهم أو شركاؤهم.

أيضاً والاقتراح يُطالب بـ «إلحاق قضاء الحفّة بمحافظة حلب أوّلاً لعلاقات هذا القضاء التجاريّة والاقتصاديّة بها وثانياً لتقارب الحدود والسكّان من بعضهم البعض» (الجريدة الرسميّة، العدد ٢٥، ٢٢ حزيران ١٩٤٤، ص ١٧٨) فهل من يتقدّم بهذا الاقتراح يخطّط لإقامة دولة علويّة أم يخطّط للانفصال عن محافظة منطقة العلويّين كما كانت تُسمّى حتّى العام ١٩٤٥ في الجريدة الرسميّة. علماً أنّ عشائره كان معظمها في قضاء الحفّة. إنّ تقديم هذا الاقتراح إلى البرلمان كان خطوة عمليّة منه كعادته أن يعمل كلّ ما يقوله أو يعمل قبل أن يقول.

أمّا سلمان فما كان يأبه لكلّ ما يضمرون له، عالماً أنّهم يخطّطون لقتله ولإعلان هذا القتل، وأنّهم سيختلقون ضجّةً بمصرعه تسمع بها الدول المجاورة والبعيدة، فلا يقوم للأقلّيّات وللعشائر بعده من قائمة كما حسبوا ويستتبّ أمر الحكم لهم نهائيّاً[1]. وجاءت النتيجة عكسيّة وانقلب الشرّ على أهله وتخلّصت البلاد من حكمهم في أواخر الخمسينات إذا استثنينا فترة الانفصال التي لم يحكموا بها أساساً إلّا بشكلٍ صوريّ، وأُخِذت منهم أراضي البلاد وأُرجعت إلى أصحابها، كما أُخذت منهم المعامل التي احتكروا إقامتها دون وجه حقّ ضاربين بالقانون العالمي بإعطاء الفرص لجميع أبناء البلاد عرض الحائط.

---

(١) ممّا يثبت أنّ سلمان كان عالماً بنواياهم ما جاء بمذكرات أكرم الحوراني رغم كون هذا الأخير كان من ألدّ أعداء سلمان وعشيرته قاطبةً وأكثرهم سفاهة وقوله هو: «ومن الطريف أن أذكر أنّني بعد إلقاء هذا الخطاب بفترة سلّم عليّ سليمان المرشد في أحد دهاليز المجلس وقال لي: أنّك قدّمت قانون حماية الاستقلال وقصدك أن تطبّق الحكومة هذا القانون عليّ. وسوف ترى بأنّ هذه الحكومة التي وضعت هذا السلاح في يدها سوف يطبّقه القوتلي عليك وعلى جماعتك أيضاً. وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد. عندما طُبّق القانون على أنصارنا الذين تظاهروا في حماة». المصدر: مذكّرات أكرم الحوراني. المجلّد الأوّل، مطبعة مبولي، القاهرة ٢٠٠٠. ص ٣٨٦.

فهو يريد قتل سلمان المرشد القائم على الإقطاعيّين لأنّ أكرم كان يهاجمهم من جهة نظراً لادعائه بالاشتراكيّة ويتوسّل لهم من جهة أخرى بسبب مطامعه السياسيّة ولأنّهم هم الحاكمون فهو أراد أن يرضيهم بقانون حماية الاستقلال كي يعدموا به سلمان بعد أن علم نواياهم تجاهه. يبدو أنّ الوصول للحكم كان المصدر الوحيد لتفكير هذا الرجل ولكن تلك الجزرة لم تصل إلى فمه أبداً رغم لهاثه طيلة حياته وراءها. وفعلاً حاولوا أن يحاكموا سلمان بموجب هذا القانون غير أنهم برّؤوه من هذه التهمة لاستحالة إثباتها. ولم يجدوا له تهمة سوى مقتل أمّ فاتح الذي اعتبروه جريمة وهو في الحقيقة كان حماية لها منهم. وهكذا أبت كلمة الحق عن نظرة سلمان الثاقبة وتحليله للأمور إلا أن تخرج حتى على ألسنة السفهاء.

٢٦١ مذكرة إحضار و٩٣ مذكرة توقيف و١٤٨ مذكرة أخذ وقبض

(أي إلقاء القبض) بحق سلمان وأم فاتح

وكيل المرشد يهاجم الصحف التي حكمت على موكليه بالاعدام

اللاذقية ٥ — لمراسل «...» الخاص بالتلفون: كانت جلسة المجلس العدلي اليوم حافلة بالمستمعين من جميع الجهات وفي المقدمة القضاة والمحامون والصحفيون وبينهم مندوب جريدة (أخبار اليوم) المصرية واحد مصوريها وقد وضعت مكبرات الصوت داخل قاعة المجلس وخارج قصر العدلية لتنقل أقوال الدفاع بوضوح الى المستمعين.

وعند افتتاح الجلسة في الساعة التاسعة تقدم الاستاذ بديع تقي الدين المحامي اللبناني بالوكالة عن سلمان واولاده وبعد تدقيق المعاملات القانونية ثبات الوكالة وطلب السيد تقي الدين امهاله الى ان تحضر دفاعه فوافق المجلس على طلبه.

احصاءات عن مذكرات !!

وقالت النيابة العامة التي كانت ممثلة من قبل النائب العام [illegible] ان عدد مذكرات الاحضار الصادرة بحق سلمان المرشد وزوجته الثالثة المعروفة بأم فاتح ٢٦١ مذكرة احضار و٩٣ مذكرة توقيف و١٤٨ مذكرة اخذ وقبض.

تقلا يدافع عن المرشد واولاده

ثم استمع المجلس الى دفاع الاستاذ يوسف تقلا عن موكليه سلمان المرشد واولاده فحمل على الصحف التي استنكرت اعمال سلمان وسماها «الدنيئة» وقال انها اصدرت حكمها على موكليه قبل ان يصدر المجلس حكمه، فحكمت عليه بالاعدام وتكلم عن مروءة الجبل العلوي وتاريخه والشعب الجاهل الذي يعيش فيه.

وقال ان السيد سعد الجابري رئيس الوزارة يكره سلمان من اجل شقيقه السيد احسان الجابري وان الامير مصطفى الشهابي المحافظ السابق كان سبب الخلاف بين سلمان وبين الحكومة ونفى كل مااتهم به سلمان واولاده

ورفعت الجلسة الى الغد. ومن المنتظر ان يصدر حكم المحكمة في ١٠ او ١١ الجاري.

تقلا يصف الصحف التي أصدرت حكمها على سلمان قبل صدور الحكم بالصحف الدنيئة

خفّي مصطنعة

تقضدت الحكومة افتعال ضجّةٍ كبيرةٍ بإعدام سلمان واستدعت مراسلي كبار الصحف من البلاد ومن مصر ومن لبنان ليغطّوا جلسات المحاكمة. ودفعت لبعض الصحف المصرية وحدها ستّين ألف ليرة ـ أي ما يربو على الملايين العشرة في أيّامنا هذه ـ كي لا تتناول بالنقد مجرى المحاكمة. وقد قام سَعْد اللّه الجابري رئيس الوزراء بدفع هذا المبلغ شخصياً إلى صحافة مصر كما ذكر أحمد السيّاف بمذكّراته[1]. ولا أعلم كم دفعوا لصحافة لبنان لأنّها ملأت الأرض شتائمَ على سلمان وخاصّةً من المسيحيّين أو حصراً بهم. ووُعِد كلّ مَنْ يفتري على سلمان في شهادته بمنصبٍ أو بمالٍ جمّ، أمّا جماعة سلمان فكانوا يُضرَبون ضرباً قاسياً ليفتروا عليه. ومعظمهم ثَبَت أمام العذاب، وقليل منهم مَن نكث على أعقابه وشهد على سلمان زوراً وخاف الحاكمين. فلم يسقط من رجاله إلّا نفرٌ ضئيل لم يكن يُظنّ بمعظمهم الثبات، هؤلاء لمّا سأل قاضي المجلس العدلي سلمان عمّا يقوله بإفادة كلّ منهم أجابه: (اشترى نفسه).

ورغم ما دفع القَتَلة إلى بعض الصحف في مصر فإنّ من الصحفيّين المصريّين من لم يقبل إلّا بما يرى فقد كتبت إحدى الصحف مقالاً عن إعدام سلمان تحت عنوان: مصرع الشر.

---

(١) وتواردت الأخبار من القاهرة تشير إلى دخول سعد اللّه الجابري مستشفى الجامعة مصاباً بتشمع الكبد للمعالجة حيث قضى به فترة عاد بعدها إلى دمشق لا ليرأس الوزارة بل ليتناوب عليه الأطباء لمعالجته واستدعى إلى فندق الشرق (أوريان بالاس) الدكتور أسعد الخانجي مدير الشؤون الإدارية والمالية في وزارة الخارجية آنذاك وسلمه مبلغ ١٥ ألف ل. س. ليعيدها إلى الخزينة وهي ما تبقى من أصل ٧٥٠٠٠ ل.س. مبلغ السلفة التي قبضها لتوزيعها على صحفيي مصر لإسكاتهم عن تناول قضية سلمان بالنقد والتحليل. المصدر: مذكرات أحمد نهاد السياف (شعاع قبل الفجر). تقديم وتحقيق محمد جمال باروت، إصدار خاص ٢٠٠٥، صفحة ١٨٣ - ١٨٤.

محاكمة صورية

إنّ الوقائع التي حدثت بالمحاكمة من افتراءات واضحة للعيون وضوح شمس النهار ومن عدم استجابة المحكمة لطلب سلمان بإحضار شهوده، واعتراف الشاهد قائد الشرطة محمّد علي عزمت بدور سلمان المجيد بإخراج الجنود من الثكنات الفرنسيّة وإرجاعهم إلى الجيش الوطني الذي كان يُشَكِّل حديثاً، وشهادة أحمد السيّاف وهو من حلب على المذهب السنيّ وكان قد استلم إدارة حصر التبغ والتنباك بعد أن جرى تأميمها قبل الجلاء والذي طلبته المحكمة للشهادة لأنّه كان مكلّفاً من رئيس الوزراء بمتابعة الأحداث للصلح بين جماعة الجوبة وبين سلمان، وكانوا قد طلبوا منه ـ كما ذكر بمذكّراته ـ أن يشهد على سلمان شهادة تدينه ولو كانت كذباً واعترفوا له أنّهم لم يجدوا شيئاً يدينه. وقالوا له سنجعل منه عبرة للناس[1]: (بدنا نربيّ فيه الناس) ولكنّه لم يرضخ لما أرادوا فشهد بصدق سلمان في كلّ ما تعهّد به منذ البداية، وبتنكّر الحكومة لوعودها باستمرار، كما أعطى رأيه الشخصي مادحاً ما استطاع ليس مواقف سلمان الوطنيّة فحسب، بل أيضاً شخصيّته ونظرته الصحيحة لما يجب أن يبدأ به العهد الوطني في بلاد لم تعرف حكم نفسها قبلاً. أي ليس لها مقوّمات تاريخيّة ترتكز عليها. وكان من أنصار الوحدة الوطنيّة ويرى في السياسة الطائفيّة الخراب المؤكّد في المستقبل. تمّ عزل السيّاف بعد المحاكمة لأنّه لم يلبِّ طلب الحكومة تلك الحكومة التي وضعها الاحتلال (الفرنسي ـ الإنكليزي) بالشهادة زوراً على سلمان.

وكذلك شهادة الأمير عبد اللّه التامر (اسماعيلي) وكان مديراً لمنطقة الحفّة فعزلوه بعد إفادته ولكنّه صار نائباً عن منطقة السلميّة بعدها. كان الأمير عبد اللّه التامر يتحدّث بما لا يمكن أن يتفوّق عليه حديثُ أحد من جماعة سلمان، فقد مدح سلمان بكلّ ما استطاع وذمّ أعداءه سواء من الذين ألّبهم الحكم عليه أو من التوجيهات الكاذبة التي كانت تصدر تباعاً عن الحكم وتناقضها الأفعال باستمرار.

---

(١) مذكرات أحمد نهاد السياف (شعاع قبل الفجر)، تقديم وتحقيق محمد جمال باروت، إصدار خاص ٢٠٠٥، صفحة ١٧٦. وقوله في مذكراته: رنّ جرس الهاتف فاتجه الحياني إلى غرفته، وبعد انتهاء حديثه عاد وقد اصفرّ ثانيةً كما اصفرّ في غرفة فندق بارون عندما أنبأنا بمقتل أم فاتح، وراح ينظر إليّ نظرات حيرى تحمل كثيراً من الأسرار التي يحار في كتمها أو في إعلانها، واحتسى جرعةً وثانيةً وثالثةً من الخمر، وبعد صمتٍ وتنهدٍ قال لي: «ناقل الكفر ليس بكافر. لقد طُلب إليّ أن أبلغك رسالة الحكومة. أنت غداً مطلوب للإدلاء بشهادتك لدى المجلس العدلي في قضية سلمان. إن العناصر الجرميّة في دعوى سلمان غير كافيةٍ لحكمه بالإعدام، وسلمان سيُعدَم سياسياً. بدّن يربّوا فيه سلطان الأطرش وجبل الدروز والصحراء وشيوخها والمعارضة، فالحكومة تريد منك أن تدلي بشهادةٍ تبرّر حكم الإعدام، وعلى إثرها، بتحضر للشام وبتاخد شيك على بياض بتملّي فيه الرقم يللي بتريده وبتروح وزير مفوّض للعاصمة يللي بتريدها، وفي حالةٍ عكسيةٍ أنت المسؤول عن حياتك وعن مستقبل عائلتك وأطفالك».

نبذات من مرافعة المحامي بهيج تقي الدين كما وضعتها جريدة النهار المسيحية والمتحاملة على سلمان

اقتطعت مما كتبته الصحيفة من النص الحرفي لمرافعة بهيج تقي الدين وهذا هو :

السنة ٣ | النهار | العدد ٦٢٩٧

استقالة وزارة المنلا والظروف التي لابستها | المجلس القادم سيضم ٦٦ نائباً | المرشد يطلب الاعدام لنفسه

مقتطفات حرفية من مرافعة بهيج تقي الدين

« عندما طلب اليّ الدفاع عن سليمان المرشد واولاده لم اتردد في قبول المهمة ذلك اني انظر الى المحاماة كرسالة يفرض على صاحبها ان يؤديها بمعزل عن كل تأثير خارجي . وما اطلعت على وقائع هذه القضية وتطوراتها حتى شعرت بانه ضروري ان ادافع عن سليمان المرشد لا كمحام يؤدي واجبه فحسب بل كلبناني حر في آمن بهذا العهد الاستقلالي واشعر بنفس السعادة التي غمرت كل وطني يوم تم نشوءها وانبثاق استقلالها ورحيل من اوضحها آخر جندي اجنبي.

« ان المهمة التي اخذتها على نفسي تلتقي مع اماني للعهد الاستقلالي القائم وبعد ذلك ان اني اشعر بانني ادافع عن متهم لم يخن هذا العهد كما قيل ولم يكن له مستعمرة فيه احدثه كما قيل ولم يحارب الاستقلال من سيادة وطنية اشترتها البلاد بكفاح بنيها ودم شهدائها ».

« تذكروا ايها السادة ان نفس سليمان المرشد لم ترتعد للعقوبة الرهيبة التي طلبتها النيابة العامة بقدر ما اهتزت لنوع التهمة الموجهة اليه ، تذكروا انه رجلا كسليمان المرشد لا يجبن امام الموت لو كتب عليه ان يشرب كأسه حتى الثمالة في غير هذا المجال الذي زجه في الاتهام . واذا شعر سليمان المرشد بالالم يلقى عليه تهمة ويعتزها حزاً ، واذا ارتعدت فرائصه امام ما جلبه ذلك لانه يتهم خائناً لبلاده ، ولانه ككل مواطن في هذه البلاد يؤمن انه لا حياة لامة الا في حريات من هذه القصة المكرمة التي تم لها بعد جهد مؤلم طويل »

واستطرد الاستاذ تقي الدين يقول :

منذ بضعة اشهر وبالذات في اليوم الثالث والعشرين من شهر ايار ١٩٤٥ اجتمع المجلس النيابي السوري بحضور ممثلي التحدي التي لها الجيوش الافرنسية في مواقف نواب الامة يطالبون من القضية الوطنية ويعلنون على الملأ ما لقي من الاحتلال الافرنسي من ما لم يخص قومنا للعهد الوطني الراهن وصفحات تاريخ الارهاب ويقول بالحرف الواحد نقلا عن الجريدة الرسمية: ارجو مقام الرئاسة ان يسمح لي بالقاء كلمة كلفني بها السيد سليمان المرشد وهي انه يضع نفسه وعشائره وامواله تحت تصرف الامة والحكومة ويعلن انه اذا كان هناك خلاف بينه وبين الحكومة فهو وطني قبل كل شيء وعلى استعداد للقيام بكل ما يتطلب الوطن وبكل ما توحيه سيادة البلاد واستقلالها . وجاء في الجريدة الرسمية ان الكلمة قوبلت بالتصفيق ».

« ايها السادة ، ان الكلمة التي ستخرج من افواهكم ستكون لها دويها البعيد ، ولن ينحصر صداها في اروقة العدالة بل سترددها الاقطار العربية جمعاء . ولهذا كان الرأي العام قد اهتم في مستهل هذه القضية بالحادث حتى خلاصه لاستغرابه قيل له ان جماعة استمعت اليه ، فان هذا الرأي العام نفسه ادرك بعد ان عرف الحقيقة بروية وتروٍ وبان القضية حدث اكثر مما تستحق . وبان منزلة المرشد واولاده لم يخونوا عهداً كانوا وما يزالون مستعدين لافتدائه بدمائهم ».

أمّا رواية النهار لطلب الموت حتى ولو كانت النهار قد حوّرت بها فإنّها ما زالت تعترف بها على الأقلّ. وإليك ما روت النهار حول هذا الأمر :

« وعندما سأله الرئيس هل يطلب شيئاً قبل ان ترفع الجلسة قال :

المرشد — اطلب الموت !

الرئيس — ولماذا هذا الطلب ؟!

المرشد — لست جباناً لاني لا ارهب الموت ولكن اهلي واولادي ذبحوا في تحقيق غاية واحدة

وعلى الاثر رفعت الجلسة على ان تنعقد المحكمة حكمها نهار ... من اياشر من الشهر الجاري

ـ يظهر من هذا أن سلمان طلب الإعدام قبل وبعد الحكم. فهو كأنّه يقول لهم في المرّتين: لن أطلب شيئاً منكم سوى الموت الذي تريدونه لي. فأكملوا عمل ما أضمرتموه لي بقلوبكم حتى وبعد أن برأتموني من التهم الموجهة إليّ.

صورة عن محضر الجلسة العاشرة من الدورة العادية السابعة للبرلمان السوري

الصفحة الأولى ويظهر فيها جدول أعمال الدورة

قسم من الصفحة الثانية ويظهر فيه تاريخ الجلسة وهو السابع من كانون الأول سنة ١٩٤٦

مجلس النواب

الدورة العادية السابعة

الجلسة العاشرة

جدول الأعمال

[illegible]

-١٣٢-

١ – افتتاح الجلسة

في الساعة [illegible] من بعد ظهر يوم السبت الرابع عشر من المحرم ١٣٦٦ والسابع من كانون الأول ١٩٤٦ اجتمع مجلس النواب [illegible] برئاسة نائب رئيسه الأول [illegible] وحضور النواب [illegible]:

[illegible]

والغائبين دون معذرة السادة:

[illegible]

الرئيس – الاقتراحية رقم [illegible] (الأول) [illegible] (الثالث) [illegible] (الرابع) [illegible]

[illegible]

الرئيس – هل [illegible] من ملاحظة عليها (سكوت) [illegible]

٣ – تقرير [illegible]

قسم من الصفحة الثالثة ويظهر فيه الموافقة على اقتراح رفع الحصانة عن سلمان المرشد بتاريخ ٧/ ١٢/ ١٩٤٦، وكان اقتراح رفع الحصانة قد قُدّم للمجلس بتاريخ ٢٨/ ١١/ ١٩٤٦

١١ – اقتراح رفع الحصانة النيابية عن السيد سليمان المرشد

رئاسة المجلس النيابي الموقر

تجري الآن بالمجلس العدلي باللاذقية محاكمة نائب اللاذقية سليمان المرشد المتهم بجناية مختلفة قبل أن ترفع الحصانة النيابية حسب الاصول لان المادة ٥٩ من الدستور تنص على أن أعضاء المجلس النيابي يتمتعون مدة انعقاده بالحصانة النيابية ولا يجوز اتخاذ اجراآت جزائية بحق أي نائب كان من النواب بدون موافقة المجلس الا في حالة الجرم المشهود فالنائب سليمان المرشد اوقف بحالة الجرم المشهود، واودع الى المحاكمة قبل انعقاد هذه الدورة وكان من الواجب أن تتقدم الحكومة من المجلس النيابي بطلب رفع الحصانة النيابية عنه لاستمرار محاكمته حسب نص الدستور. ولما كان القصد من ذكر الفقرة الاخيرة من المادة ٥٩، الا في حالة الجرم المشهود، انما وضعت بحق النائب الذي يرتكب جرماً يستلزم اتخاذ الاجراآت السريعة بحقه للحؤول دون فراره فترى امر توقيفه واتخاذ الاجراآت الجزائية بحقه القوة الاجرائية ولكن هذه الاجراآت البدائية لا تمنع طلب رفع الحصانة النيابية من النائب للاستمرار في محاكمته كفرد من الافراد. وهذا هو العرف المتبع في جميع الدول التي تتمتع بالحياة النيابية. والاجتهاد الفقهي الدستوري متفق على انه لابد من طلب رفع الحصانة النيابية عن النائب الذي يحدث جرماً يستلزم المحاكمة ولو كان في حالة الجرم المشهود. ولذلك فاني اقترح على المجلس الكريم أن يتخذ القرار الآتي:

بناء على الاعمال الجنائية التي قام بها نائب اللاذقية سلمان المرشد

-١٤٥-

ومقاومته المسلحة لقوانين الدولة وتآمره على سلامة الدولة تقرر رفع صفة النيابة عنه لنتيجة المحاكمة.

في ٢٨/١١/١٩٤٦ نائب حمص
مظهر رسلان

الرئيس – ما هو رأي الحكومة بهذا التقرير

وكيل رئيس الوزراء السيد خالد العظم – الحكومة توافق على هذا الاقتراح

الرئيس – ما هو رأي المجلس (اصوات نوافق بالاجماع)

وكذلك شهادة الشيخ محمود الذي طُلب إلى المحكمة ليقدّم دعوى على سلمان لأجل ابنته أي لأجل أمّ فاتح. فلمّا صعد إلى منصّة الشهود علق بصره بسلمان وتهلّل وجهه لرؤيته، فقال له القاضي: هل أنت منفعلٌ لأنّك رأيت مَن قتل ابنك؟.. فأجابه: واللّه لستُ فرِحاً بكم أنتم الذين تحاكمونه، بل إنّني مسرورٌ جدّاً لرؤيته هو - مشيراً إلى أبي الفاتح - وكنتُ في شوقٍ عظيم لرؤيته.

كلّ هذه الوقائع أذهلت المحامي اللبناني الذي طُلِبَ إليه أن يحضر من لبنان للدفاع عن سلمان وهو الأستاذ بهيج تقيّ الدين وقد صار بعدها وزيراً لوزارة الداخلية اللبنانية.

فاستهلّ مرافعته بقوله: جئت إلى هذه المحكمة كمحامٍ يترافع في قضيّة. ولكنّي بعد قراءة الوقائع أترافع عنها لا كمحامٍ فَحَسب، بل كلبناني عربي. فهو لم يجد محاكمة على تهمة بل وجد غزواً عشائريّاً بلا سبب وتعصّباً طبقيّاً يفرض نفسه قانوناً، يتّهمون الناس بموجبه، ويطلبون حكمهم بالإعدام.

كما وجد ما وجده سواه أنّ هذه المحاكمة سابقة خطيرة لا نظير لها، فالمواقف الصحيحة أو الأعمال الجليلة لا تمنع الحكومة من تأليب الناس على أصحاب هذه الأعمال ما استطاعت ولا تمنعها من القيام بغزوٍ عشائريّ مقاصده مفضوحة فقد أُريد له أن يكون سنّة حكم. كما كانت سنّة حكم العثمانيين - هنا علينا أن نتذكّر أنّ زعماء الكتلة كانت ثقافتهم تركية عثمانيّة قبل تحرّر تركيا من السلطان - وكان المحامي درزيّاً لبنانيّاً فاستشفّ منها بدايةً سيعيدونها على طائفته وقد قاموا بمثلها على طائفته في سورية بعد سنة واحدة، وعلى يدِ حكومة القوتلي نفسها عندما عمد القوتلي على إيقاع الفتنة بينهم، ثمّ قاموا بغزوٍ وحشي تسانده الطائرات لجبل الدروز أيّام الشيشكلي وضربوا المدن ودمروا القرى وقتلوا وهجّروا سكّانها.

انتظر المحامي بهيج تقي الدين حتى انتهت إجراءات المحكمة في أواخر تشرين الثاني وطلب من المحكمة إلغاء كافّة الإجراءات التي اتُّخذت في محاكمة سلمان لأنّ سلمان نائب في البرلمان السوريّ ويتمتّع بحصانة نيابيّة ولا يصحّ توقيفه قانونيّاً إلّا بعد رفع الحصانة النيابيّة عنه، فرُفض طلبه من المحكمة وتابعت جلساتها إمعاناً بتحدّي كلّ قانون يقف عقبة دون إعدام سلمان. وانتبهت المحكمة لمخالفتها الدستوريّة الفاضحة فرفعت طلباً للجهات المختصّة بهذا الخصوص فأُحيلت القضيّة إلى البرلمان واقترح نائب عن حمص رفع الحصانة عن سلمان في تاريخ ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٩٤٦ وتمّت الموافقة على اقتراحه في ٧ كانون أوّل ١٩٤٦ أي قبل صدور الحكم عليه بالإعدام بثلاثة أيّام فقط وبعد خمسة وثمانين يوماً من توقيفه. وبكلّ وقاحة وتعنّت اعتبرت المحكمة أن كلّ الوقائع بما بها شهادات جماعة الجوبة ضدّ سلمان والتي تمّت قبل رفع الحصانة اعتبرتها قانونيّة.

وهذا دليل فاضح على أنّ المحاكمة لم تكن إلّا محاكمة صوريّة فكلّ الأمور التي أجريت قبل هذا التاريخ لم تكن قانونيّة وكان عليهم إعادتها جميعها بحال أرادوا أن يظهروا بمظهر دستوريّ على الأقلّ.

وهذه الأمور تظهر لكلّ عين لها قدرة الرؤية بطلان محاكمة سلمان دستوريّاً. وقد تمّت الموافقة على رفع الحصانة عن سلمان بالإجماع ودون أيّ مناقشة مّما يدلّ أن ما من أحد من النوّاب كان يجسر على الاعتراض أو حتّى على المناقشة، أمّا الذين أرادوا أن لا يشتركوا بهذه الجريمة الكبرى فقد تغيّبوا عن الجلسة. وكان عدد المتغيّبين خمسة وأربعين نائباً من أصل مائة وعشرين نائباً.

أمّا بشأن قانونيّة المحكمة فأين القانون من هذه الدماء التي كانت تجري من أجساد الرجال من عشيرته ومن غيرها ليستخلصوا ولو شهادة واحدة تدينه ولكنّهم فشلوا بكلّ ما أرادوه. ولم يتقدّم لا من الجانب المسيحي ولا من الجانب السنّي أيّ شخص للشهادة وكانت الأسئلة مثل: هل شاهدت أحد أبناء سلمان ومعه بندقيّة أمام بيته؟.. أي على بعد جبل من الحادث. أو هل شاهدت فلاناً من الرجال معه بندقيّة أينما كان يوم الحادث؟ علماً أنّ أكثريّة الشعب السوري يومها كانت تمتلك البنادق. وكان امتلاك بندقيّة من دواعي الفخر ودلالة وطنيّة وقد نوّهتُ عن هذه الحقيقة سابقاً.

سألت هيئة القضاة زعيمنا سلمان إن كان حقاً يقول عن نفسه أنّه ربّ فأنف أن يجيب إلاّ بقوله: أنتم تقولون ذلك. جوابٌ أخرس الحاكم وميّع السؤال، فهم الذين يقولون هذا القول فلمَ لا يسألون أنفسهم هذا السؤال؟.. ولم يقولون ذلك في المحكمة وهم لم يذكروه في الاتّهامات؟.. كانت الجرائد لا تفتأ تهاجمه بكلّ ما لديها من قوّة الزور والبهتان فأعداؤه هم الذين يمتلكونها، وقد ابتكروا حكايات سخيفة كثيرة لا يصدقها صاحب عقلٍ واعٍ ومنطقٍ سليم، فمن يصدّق بها دلّ بتصديقه هذا على قلّة اطّلاعه وضحالة ثقافته، فهو كالدابّة يستجيب لمنْ يقوده دون أن يعلم إلى أين يجرّه.

شموخ النسر على الأدعياء

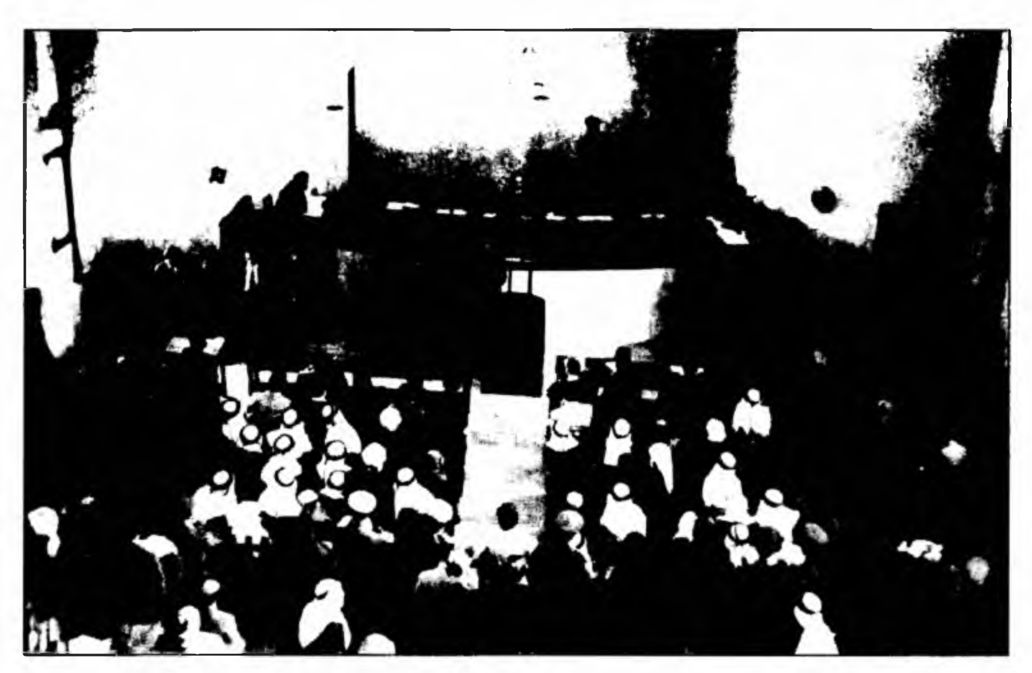
بعد تلاوة الحكم طلب المجلس العدلي من المتّهمين أن ينهض كلّ منهم ليقول أطلب الرحمة والشفقة، فلمّا جاء دور سلمان وقف وقال: بعد أن برّأتنا المحكمة من تهمة الخيانة لا أُبالي وأطلب الإعدام. وكأنّه يقول لهم: أمّا وقد سَقَطَتْ وبإقراركم حجّتكم التي تذرّعتم بها لمحاكمتي والتشهير بي، فأكملوا جرمكم بإعدامي حتى بلا ذريعةٍ وحجّة. وهكذا لم يرضخ للجبابرة الحاكمين ورفض طلب الرحمة منهم وما خشيَ الموت بسبيل الحقّ والعمل الصحيح بل طلبه.



في المجلس العدلي يبدو في الصورة سلمان في سكينته المعروفة



سلمان مقيداً وحوله عشرات من رجال الدرك



صورة قاعة المحكمة



حراسة مشدّدة بالمصفحات أثناء مرور موكب المحاكَمين في شوارع اللاذقية يومياً بين السجن والمحكمة.



يبدو في الصورة سلمان والمحامي يوسف تقلا





سلمان وأولاده فاتح وأمير ومجيب مع المحامي يوسف تقلا



الأستاذ بهيج تقي الدين يلقي مرافعته

وهكذا عندما فشل المحاكمون في إثبات تعاونه مع فرنسا بل ظهر العكس في المحكمة عندما جلبوا الشهود كانت الشهادات بأكثرها تبارك أعماله ولا تدينه. ولذلك صارت المحاكمة محاكمة صورية وأبدلت التهمة من الخيانة الوطنية إلى اتهامه بمقاومة الدرك يوم خرجوا إليه مع أنه هو الذي سلّم نفسه إليهم، وطلب من أهله وجماعته تسليم أنفسهم أيضاً، وكان يستطيع الهرب لو شاء ولكنه لم يحاول، بل وضع نفسه عن جماعته.

وذكروا بحيثيّات الحكم مقتل أمّ فاتح وهو الذي قتلها حماية لها من الوقوع بأيديهم، وهم يحملونها معه بهذه التهم فقد كان بحقهما ٢٦١ مذكرة إحضار و٩٣ مذكرة توقيف و١٤٨ مذكرة قبض، وأكبر دليل على صحّة نظرته بهم يتمثّل بما عمل الدرك بعد احتلال حارته من نهب وسلب وحفر وضرب وتعذيب خاصّةً في السجون. والحكم عليه بالإعدام بعد تبرئته من كلّ ما اتهموه به هو أكبر إدانة لهم. وقول المحامي أن سلمان قتل أمّ فاتح لأنها أمرت الرجال بإطلاق النار على الدرك عندما باشر رجال الدرك إطلاق النار عليهم يعود لأنه لو صرّح المحامي في المحكمة بأنه قتلها ليحميها من الوقوع بأيدي الدرك لاعتبرت أقواله هجوماً على الدرك والحكومة وتشكيكاً بأمانتهم ولربما حوكم المحامي نفسه على هذا القول، ولذلك رأى أن يقول بل قتلها لأنها أمرت الرجال بإطلاق النار على الدرك.

في صباح ٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٦ عقد المجلس العدلي أولى جلساته وصدر الحكم بالإعدام في ١٠ كانون أوّل ١٩٤٦ في اللاذقية، وسارع القوتلي إلى التصديق على الحكم بقصد تمرير جريمتهم قبل أن يتدخّل بها أحد فقد صادق عليه بعد أقلّ من أربعة أيّام من صدوره، ثم نُفّذت الجريمة فجر يوم الاثنين في ١٦ كانون أوّل سنة ١٩٤٦ في دمشق، أي بين يوم صدور الحكم ويوم تنفيذ الجريمة في ساحة المرجة التي في دمشق ستة أيّام فقط وغير كاملة أيضاً، صدر بها الحكم وتمّ التصديق والتنفيذ. وبين الجلسة الأولى للمحكمة وصدور الحكم ١٥ يوماً فقط حوكم بها مئات الناس وصدرت الأحكام بحقهم جميعاً من إعدام ومؤبّد وسجن طويل الأمد وقصير الأمد وبراءة، فما هي محكمة بل ثورة معاكسة لثورة الفلاحين قادها أغنياء سورية ومالكو أراضيها بمساعدة بريطانيا ومباركة فرنسا.

وعُلّق اثنان على يمينه ويساره وهما من جماعته ورجاله وكان عمره يوم ذاك أربعين عاماً أو أقلّ بقليل. وسُجن ونُفي جميع أولاده البالغين والقُصَّر ووجوه عشيرته، إمعاناً (بتربية الناس به).

أرسل سلطان باشا الأطرش والشيخ صالح العلي إلى رئيس الجمهورية يطلبان منه إيقاف الإعدام، كما توسّطت المملكة السعوديّة والمملكة الهاشمية أيضاً كي يتوقّف تنفيذ الإعدام، لكن القوّتلي لم يقابل أحداً من وفودهم إلّا بعد تنفيذ الحكم[1]. وهذه المطالب تعطينا معرفة سبب السرعة الغريبة بالتصديق والتنفيذ، وذلك لأنّ فرنسا وبريطانيا كانتا قد اتفقتا وأوعزتا إلى الحكومة السوريّة بوجوب إعدامه لتربية الناس به وبعشيرته كي يقيموا دولة قويّة تستطيع حماية وفرض مصالحهما الاقتصاديّة والسياسيّة. وقد علمنا أنّ تشرشل رئيس وزراء بريطانيا آنذاك أرسل برقيّة إلى القوتلي يهنئه بها على تخلّصه من سلمان المرشد.

وسلمان لم يُقتل إلّا بعد أن أرسى بقلوب جماعته التطلّع لله والتعلّق به وهذا هو سرّ القوّة وسرّ النصر وشعور العزّة الذي لا يموت.

---

(١) المصدر: مذكرات أحمد نهاد السياف (شعاع قبل الفجر). تقديم وتحقيق محمد جمال باروت، إصدار خاص ٢٠٠٥، صفحة ١٨٣:

صباح وأي صباح عندما دخل علي أحد موظفي الفندق يحمل جريدة أحاط بصفحتها الأولى السواد وتوسطتها صورة لمشنقة ضمت المحكومين الثلاثة يتوسطهم سلمان وانتشرت الأخبار تشيع أن رسلاً قد أتوا دمشق موفدين من قبل الملك عبد الله وسلطان الأطرش ليقابلوا فخامة الرئيس وأن رسولاً آخر من قبل الملك عبد العزيز آل سعود في طريقه إلى دمشق للغاية نفسها وهي الشفاعة لسلمان، كما أن برقيات من جهات سياسية أخرى أرسلت بهذا المعنى وقد حاولت الوفود التوسط لدى فخامة الرئيس ولكنه استقبلها مبدياً أسفه لأنها جاءت متأخرة بعد تنفيذ حكم الإعدام، ونقل المحكومون بالسجن إلى سجن دمشق، كما اتخذت قرارات إدارية بالإقامة الجبرية في مناطق متعددة من الجزيرة والفرات لفريق من أفراد عائلته وأتباعه كما وصلتني الأخبار بأن رجال الشرطة قد استنفروا الأهلين وأزعجوا نزلاء الفنادق في الصباح الباكر يدعونهم إلى ساحة المرجة للاستمتاع بمنظر المشنقة والمشانق.

صورة عن صفحة الجريدة الرسمية للجمهورية السورية

يظهر بها التصديق على حكم الإعدام

تابع المراسيم

الداخلية

مرسوم رقم ١١٥٩

بموجب المرسوم رقم ١١٥٩ تاريخ ١٦/١٢/٩٤٦

خصص لمنكوبي السيول في قصبة الباب (محافظة حلب) الحاصل خلال شهر تشرين الاول ٩٤٦ مبلغ قدره ٦٠٠٠٠ ل.س على ان يجري توزيعها على المصابين والمتضررين باشراف ولجنة محافظ حلب وان تؤخذ بعين الاعتبار درجة الضرر المثبتة بشهادة اصولية من اللجنة الخاصة المؤلفة لهذه الغاية .

مرسوم رقم ١١٦٠

بموجب المرسوم رقم ١١٦٠ تاريخ ١٦/١٢/٩٤٦

نقل السيد فؤاد الحلاني المفتش الاداري الممتاز الى مديرية ... [illegible] بمرتبته وراتبه الحاليين .

العدلية

مرسوم رقم ١١٥٨

ان رئيس الجمهورية السورية

بناء على الحكم الصادر عن المجلس العدلي المنعقد باللاذقية بتاريخ ١٧ المحرم ١٣٦٦ وفي ١٠ كانون الاول ١٩٤٦ رقم ١ اساس و ٢ قرار باعدام سلمان بن مرشد اليونس من اهالي قرية جوبة برغال ، وعلي ابن سلمان سعيد من اهالي قرية القرموليه وحسن بن طريف الحمد من اهالي قرية ليفين التابعة قضاء الحفة من اعمال محافظة اللاذقية لارتكابهم جناية ترؤس عصابة من الاشقياء المسلحين غايتها ضبط املاك جم غفير من الاهلين ونهبها والاغارة عليها وقيامهم مع افراد عصاباتهم لصد رجال الدرك عن ادراكهم والقبض عليهم بقوة السلاح عما ادى الى قتل كل من محمود عديره وصالح شرارة والدركي ابراهيم بغدادي اثناء قيامه بوظيفته قصداً بتاريخ ٢١ شباط ١٩٤٥ وقتل كل من الضابط الدركي السيد جميل حلاق والجندي الدركي طاهر مكانس قصداً وجرح كل من القائد الدركي السيد صادق الداغستاني والملازم الدركي السيد حسن الحبر والوكيل الضابط السيد هابل الجرمقاني والعريف السيد صبحي الماردني ، وعدنان الزين والدركيين السيدين عبد الكريم هارون وتيسير السباعي اثناء قيامهم بوظائفهم بتاريخ ١٣/٩/١٩٤٦ وقتل هلاله بنت محمود داود بتاريخ ١٣/٩/١٩٤٦ قصداً من قبل المجرم الاول سلمان مرشد وقتل الدركي عبد القادر ... [illegible] اثناء قيامه بوظيفته قصداً من قبل المجرمين علي بن سلمان سعيد وحسن بن طريف الحمد بتاريخ ٣ مارس ١٩٤٥ ، وذلك عملا باحكام المادتين ٦٢ و ١٧٤ من قانون الجزاء .

وبناء على المادة ١٦ من قانون الجزاء .

وبناء على اقتراح وزير العدلية .

يرسم ما يلي :

مادة ١ — ينفذ الحكم الصادر عن المجلس العدلي بتاريخ ١٧ المحرم ١٣٦٦ وفي ١٠ كانون الاول ١٩٤٦ رقم ١ اساس و ٢ قرار باعدام المجرمين سلمان بن مرشد اليونس من اهالي قرية جوبة برغال وعلي ابن سلمان سعيد من اهالي قرية القرموليه وحسن بن طريف الحمد من اهالي قرية ليفين التابعة قضاء الحفة من اعمال محافظة اللاذقية .

مادة ٢ — يبلغ هذا المرسوم ويبلغ الى من يلزم لتنفيذ احكامه .

دمشق في ٢١ المحرم ١٣٦٦ و ١٤/١٢/٩٤٦

شكري القوتلي

صدر عن رئيس الجمهورية

وزير العدلية	ورئيس مجلس الوزراء
خالد العظم	خالد العظم

تابع القرارات

الخارجية

قرار رقم ٧٩

بموجب القرار رقم ٧٩ تاريخ ١١/١٢/٩٤٦

عين السيد رمزي الصيروان ... [illegible] ملازماً متمرناً في الادارة المركزية بوزارة الخارجية من المرتبة ... [illegible] براتب اساسي شهري قدره ٢٠ ل. س تابعة للتوقيفات القانونية

الدفاع الوطني

قرار رقم ٨٩٠

بموجب القرار رقم ٨٩٠ تاريخ ١٨/١٢/٩٤٦

سمح لمديرية التموين والصيانة باجراء اشغال ترميم دار القيادة في دير الزور بطريقة الامانة ضمن نطاق اعتماد قدره ٢٨٠٠ ل. س وفقاً للكشف المربوط تصرف من مخصصات الفصل ٧ مادة ٢ باب ٥ من موازنة ١٩٤٦ .

كشف تقديري بالنفقات اللازمة لترميم دار القيادة في دير الزور

نوع الاشغال	مقدار النفقة
ترميم وتصليح السقوف والجدران	١٠٥٠ [illegible]
تصليح التجهيز وتوابعه	[illegible]
تصليح الادوات الصحية	[illegible]

تعليق على حكم محكمة عهد الإقطاع

لم يذكر في الحكم أيّ تهمة بالتعاون مع دولة أجنبيّة أو قيام ضدّ الحكومة كما كانوا يعلنون للناس بواسطة الجرائد والمجلاّت التي كانوا يملكونها، بل يذكرون أحداث شغب راح بها قتلى من الدرك ومن رجال عشيرة سلمان عندما كان سلمان منفياً في دمشق ولم يثبتوا أبداً أنّه كان له يد في كلّ تلك الأحداث التي افتعلتها قوّات الاحتلال والحكومة وعائلات اللاذقيّة الإقطاعيّة فعاث مخبروهم فساداً في قرى العشيرة بمساعدة رجال الدرك ينهبونها ويعذّبون أهلها ويُغيرون على أملاكها مما أدّى إلى حوادث قُتل فيها أحد رجال الدرك وعشرة قتلى من الأهالي، ويتهمونه بقتيلين من الدرك في معركة العزرا أحدهما جاءته رصاصة من الدرك الذين كانوا يطلقون النار من ورائه وذلك عندما قفز من مصفّحته في محاولة لإيقاف هذا التراشق الذي حسبه نتيجة صدفة، وهذا التراشق أوقفه سلمان شخصياً منذ عرف ما يجري على العزرا وحمى رجاله من مهاجميهم وحمى الدرك من رجاله وأوقف هذه المعركة التي لم يؤجّج نارها لا هو ولا أمّ فاتح، بل ما أجّج نارها إلاّ الدرك المهاجمون حتّى أنّهم لم يأمروا الرجال الذين كانوا مصطفّين لاستقبالهم واستعلام الأمر منهم عمّا يريدون بهذا الخروج الحربيّ المُعلن، لم يأمروهم بتسليم أنفسهم لهم بل باشروا إطلاق النار عليهم فوراً بدون أيّ سؤال أو سبب واضح فقتلوا ستة منهم. ولم يُنسب إليه في الحكم تهمة بشكل شخصيّ إلاّ مقتل أمّ فاتح وهو فضّل أن يقتلها ويُحاكم على ذلك ولا يسلّمها لذئاب الدرك الذين كان إقطاعيّو اللاذقيّة قد أوغروا صدورهم حقداً على سلمان يقودونهم كما تُقاد العميان.

تمنّى عليّ أحد أصدقائي وهو المحامي منذر صالح العلي أن أضع هذه النبذة في كتابي وها أنا ألبّي له طلبه:

«(سؤال أتمنى أن يطرحه على نفسه كلّ ذي فهم ورويّة يريد الحقيقة ويسعى لها)

1 ـ ما هو قصد الحكومة ورئيس الدولة بكفّ يد القضاء السوري وإصدار مرسوم بتشكيل مجلس عدلي يقومون هم باختيار من يريدونه من القضاة ضامنين بمرسومهم هذا أن تكون أحكام هذا المجلس قطعيّة غير خاضعة لأي طريق من طرق الطعن، فقام هذا المجلس المسخّر بإصدار أحكامه خلال مدّة 15 يوماً وبهذه الفترة الوجيزة قام بالتحقيق والتدقيق وإصدار أحكام الإعدام والمؤبد والإبعاد والسجن والحجز وذلك لحوالى مائة شخص من بين ألف موقوف مع العلم أن أي قضيّة ولو كانت مخالفة أو جنحة بسيطة تأخذ من المحكمة أكثر من هذه المدّة بعشرات الأضعاف وهذا يعرفه القاصي والداني؟.

2 ـ كيف قام هذا المجلس بإصدار أحكام بالإعدام والمؤبد وهذه الأحكام قطعية غير قابلة لأي طريق من طرق الطعن من المرحلة الأولى؟.. هل هكذا يكون حقّ الدفاع المشروع الذي تنادي به كل الدساتير والقوانين أي لا يحق للمحكوم أن يعترض أو يستأنف أو يطعن؟ هل يكون هكذا بداية عهد جديد يدّعي الديمقراطيّة ويقول أنّ حق الدفاع مقدّس؟.

3 ـ من المؤكّد أنّ من قام بإصدار هذا المرسوم وتشكيل هذا المجلس الصوري كان متأكّداً من أنّ القضاء الرسمي لن يخلص إلى النتيجة التي يريدها الحاكم مهما كان هذا القضاء وخاصّةً أنّه سيمرّ بأكثر من مرحلة وسيُتاح حقّ الاستئناف والطعن وهذا ما لا تريده العصبة الحاكمة ولذلك لجأت إلى كفّ يد القضاء بالرغم من تشدّقها باحترام النظام الجمهوري واحترام مبدأ فصل السلطات وأدائها القسم على ذلك.

4 ـ أظن أو شبه متأكّد أنّه لم يصدر حكم بتاريخ العالم الحديث ويُصدّق ويُنفّذ خلال ستة أيّام عدا المحاكم العسكرية وأثناء الحرب فقط، هذا ممّا لا يدع مجالاً للشك بأنّ قرارات هذا المجلس كانت مُعدّة وموقّعة من الكتلة الحاكمة ومن القضاة الذين انتقاهم الجهاز الحاكم والذين تخلّوا عن واجبهم وانساقوا مغمضي العينين لتنفيذ ما يريده أسيادهم.

5 ـ وأخيراً وليس آخراً فلنتساءل: من هو الذي يجب أن يحاكَم ..؟ شريحة من الشعب تُعَدّ بحوالى مئة ألف مشت بقيادة زعيمها الذي قادها ووضعها على طريق المنعة والعزّة ورَفْض الذلّة والمهانة ووأد عادات التخلّف الموروثة بها بعد أن كانت تتلاعب بها أهواء المستغلّين والمتنفذين وغيرهم ...، أم عصابة حاكمة وضعتها بريطانيا وفرنسا على سدّة الحكم لتنفّذا ومن خلالها مصالحهما في المنطقة، ولا شك عند القارئ المنصف الجواب، وشكراً».

استعراض وتحليل عن المحاكمة كتبه محمّد الفاتح

«كانت الدعاية الحكومية قد طلبت من الناس أن ينتظروا يوم المحاكمة ليشاهدوا عرض مختلف أنواع السلاح والكميّات الكبيرة التي صادرتها في بيت سلمان المرشد. كما كانت قد روّجت في صفحاتها أنهم صادروا أجهزةً ووثائق خطيرة ستعرض في المحاكمة. ورغم ذلك فإن قاعة المحكمة التي عُقدت في دار الكتب الوطنية ووضعت فيها عشرات المقاعد للحضور لم تعرض الحكومة فيها أي شيء، ولم يقصدها إلّا الصحفيون والمخبرون في القرى ولم تكن الحكومة قادرةً على عرض شيءٍ غير عادي فهي لم تجد في بيت سلمان إلّا الأسلحة الفردية لأصحاب البيت وبعض قطعٍ للحراسة وكانت كلّها من النوع الألماني والعثماني القديم.

كان سلمان المرشد في المحكمة هادئاً ثابتاً لا يثيره جوّ الأعداء المحتشدين في قاعة المحكمة من مخبرين خاصة وسواهم ومن الدرك المسلّحين الذين يحيطون بالمقاعد. وكانوا يفكّون له القيد الحديدي من يديه أوّل وصوله إلى القاعة فيتناول سيكارة وقلّ أن يلتفت إلى أحد وبدا أنّه لا يأبه بنتيجة المحاكمة التي يعرفها سلفاً بل يردّ كعادته الصاع صاعين لمن يحاول النيل منه وقد جاءت النيابة العامة بشاهدٍ يتّهم سلمان بأنّه كان له ميلٌ للفرنسيين فلمّا سأله رئيس المحكمة عمّا يعقّب به على شهادة الشاهد اكتفى بأنّه قال له: اسأله ماذا كانت وظيفته في ذلك العهد؟ فتلعثم الشاهد وحاول ألاّ يجيب وكان في المحكمة صحفيّون مصريون يتبعون لدار أخبار اليوم وقد هالهم أن الشاهد عندما أصرّ عليه رئيس المحكمة أن يجيب على سؤال سلمان قال: كنت مديراً للداخلية في الدولة الإقليمية المستقلة إدارياً ومالياً في محافظة اللاذقية. وكان هذا هو القائمقام (أي مدير المنطقة) في الحفّة الذي كلّفه الفرنسيون باضطهاد وتعذيب جماعة سلمان المرشد وأوّلهم سلمان وكان يومها يتّهم سلمان والناس معه أنهم يؤلفون كتلةً واحدة مع ثورة حلب بقيادة إبراهيم هنانو. وقد أعطى الفرنسيون له ولأحد أفراد عائلته أوسمة الشرف من رتبة ضابط لعملهم ضد ثورة الشيخ صالح العلي ولم يطق رئيس المحكمة هذا الموقف الزريّ الذي يحاولون فرضه عليه بتقديم مثل هذا الشاهد فنظر إلى ممثّل النيابة العامة شزراً وصاح بالشاهد: يعني أنك كنت وزيراً للداخلية اخرج من القاعة. وكان هناك شاهدٌ آخر ذكر منذ بداية شهادته أنّه كان يعمل في المخابرات الفرنسيّة وكان الاثنان قد جاءا ليغطّيا على ماضيهما ويكسبا رضى المحافظ والإقطاعيين في المحافظة باتّهام سلمان المرشد. وكانا هما الوحيدَين اللذَين وجّها لسلمان المرشد هذا الاتهام وذلك لتغطية ماضيهما أمام العهد الجديد ومحاولة درء غضب الحكومة شأن بقيّة الشهود الذين جاؤوا لمجزد الشتم لأنّه لم يكن لديهم ما يشهدون فيه فهم من مناطق بعيدة. وكان سلمان يجيب كلّ شاهد بطرفةٍ أو نكتةٍ تتناول ماضيه الموبوء فيترك منصة الشهادة مطرقاً برأسه. ولكن سلمان لم يهاجم المتهمين الذين عُذّبوا حتى وقّعوا على إفادةٍ ضدّه ولم يكونوا قادرين على إعادتها أمام المحكمة فبعد عدّة مراجعاتٍ لهم ليتطابق كلامهم مع الإفادة في التحقيق كان يسألهم رئيس المحكمة: أتوافقون على ما جاء في إفادتكم السابقة؟.. فيجيب بعضهم بكلمة: نعم. هؤلاء كان يجيب سلمان على سؤال رئيس المحكمة عمّا يقولونه بإفادة كلّ منهم كان يجيب: اشترى نفسه. وقد أجاب عليهم كلهم بهذه الكلمة وكانت تعني أن هذا الشاهد بقي في التعذيب إلى أن قَبِلَ بالتوقيع على هذه الإفادة.

وقد كتب صحفيّان من أخبار اليوم مقالةً ضد الحكومة وشبّها قضية سلمان المرشد

بقضيةٍ من التاريخ هي قضية الغدر التاريخي من جهة والتأمين من صاحب القلب السليم من جهة ثانية.

ومن الغريب أن المحكمة اهتمت قبل كل شيء أن تثبت أن سلمان المرشد ليس سليل عائلةٍ إقطاعية وأنها لم تكن موسرةً. كان منطقهم أنهم طالما لا يحاكمون إحدى العائلات الإقطاعية في البلاد فلا لوم عليهم. وقد دار رئيس المحكمة بالسؤال عن وضع عائلة سلمان المرشد الاقتصادي أي وضع الأجداد على سائر المتهمين. هل كانت لدى عائلة سلمان المرشد أراضٍ كثيرة أم كانوا فقراء؟.

أوّل المحاكمة طلب محامي الدفاع شهادة رئيس الجمهورية والوزراء المختصين ورؤساء الكتل النيابية، أي أنّه طلب شهادة كلّ مَنْ كان على صلةٍ بالموضوع وكان قصده أن يهدم هذا الهرم الدعائي الذي أقامته الحكومة حول سلمان المرشد، وذلك بالسؤال عن مواقف علنيةٍ ووطنيةٍ وقفها سلمان ولكن المحكمة رفضت سائر الشهود الذين طلبهم الدفاع كما رفضت توجيه سؤال إلى أيٍّ منهم ليجيب عليه خطياً بدون حضوره.

كما لم يُسأل أيٌّ من الشهود الذين اتّهموا سلمان لم يُسأل أحدٌ منهم ماذا كان يمكن أن يحقق أيّ انتصار في القتال لسلمان بعد تبنّيه عودة الأحوال الطبيعية منذ البداية؟.. كما لم يُسأل أحدٌ إن كان سلمان يريد القتال فلماذا لم يدعُ أحداً للقتال معه بل جميع رجاله كانوا بعيدين عن القتال المصطنع ولم يسمع فيه الناس في بقيّة مناطقهم إلّا بعد أن أنهاه سلمان بزمن؟.. بل رضيت المحكمة بمنطق أن تكون ثورةً أو جريمة بلا دافع ولا مصلحة ولا تأثير من أي جهة كانت.

وقد شهد أحد الجرحى من الدرك أن الرصاصة أتته من الخلف لا من الناس الذين أمامه.

ومن الغريب أن اتهام النيابة العامة وقرار المحكمة لم يذكر إن كان لسلمان أو لأحدٍ من أبنائه أو لأيّ أحدٍ ممّن له سابقة في القتال أي تواجدٍ في المعركة المزعومة ولم يذكروا أو يتّهموا أحداً أنّه كان قائد هذه المعركة المزعومة، ولم يثبتوا إلّا أنّه جرى إطلاق رصاص من بعيد قُتل من جرّائه اثنان من الدرك أحدهما لم يكن من عداد الحملة أصلاً بل كان قائد فصيل الحفّة وكان واثقاً أن سلمان لا يمكن أن يسمح بالقتال وأنّ الناس جميعاً تفهّموا ضرورة السلم وعلى استعداد لتسليم أسلحتهم فسار أمام المصفحة يصرخ محاولاً إسكات الرصاص الذي لم يأته من الأمام بل جاءه من حيث

لا يحتسب وقد اعتبره آل المرشد فقيدهم مثلما هو فقيد الدرك وبقيت ذكراه عاطرة في الجبل كلّه.

بعد أن أبرأت المحكمة ساحة المتهمين من أي اتصال أجنبي في هذه القضية وبعد تلاوة الحكم عليهم طلبت من المتهمين جميعاً أن يقف كلّ منهم ويذكر طلبه الشخصي من المحكمة وقد علّموهم أن يقولوا أطلب الرحمة والشفقة، فلمّا جاء دور سلمان وقف وقال: أمّا وقد أبرأت المحكمة ساحتنا من تهمة العمل مع الأجنبي فإنني أطلب الإعدام وأن يكفّن جسدي بالعلم».

النهاية

مساء يوم الأحد ١٥ كانون الأوّل ١٩٤٦ أخذوا سلمان المرشد وولديه (محمّد الفاتح وسميع) ومعهم علي السلمان سعيد وحسن طرّاف وعشرة آخرين من الذين حكموا بالسجن مدداً طويلة إلى دمشق بعد صدور الحكم من المجلس العدلي في اللاذقيّة الذي شُكّل خصّيصاً لمحاكمة جماعة سلمان، وحكموا به على سلمان بالإعدام وعلى مرافقَيه علي السلمان سعيد وحسن طرّاف أيضاً بالإعدام وعلى ابنه البكر محمّد الفاتح بالإعدام وخفّض إلى خمسة عشر عاماً سجناً ومثلها نفياً وكان عمره حينذاك حوالى العشرين سنة وعلى ابنه سميع بالسجن عشر سنوات ومثلها نفياً وخفّض إلى السجن خمس سنوات ومثلها نفياً وكان عمره سبعة عشر عاماً.

أخذوهم من اللاذقيّة مقيّدين داخل سيّارة كبيرة (بوسطة) ترافقها المصفّحات إلى دمشق ليلاً. وفي منطقة تلكلخ لاقاهم قائد الدرك العامّ ومعه مصفّحتان، فأخذ معه سلمان في سيّارته، ووضعوا علي السلمان سعيد وحسن طرّاف في سيّارة بيك آب، وبقي ولداه ومن معهما في (البوسطة) التي ذهبت بهما مع حرّاسها إلى سجن القلعة بدمشق مباشرة.

وكانوا قد نصبوا ثلاث مشانق في ساحة المرجة في دمشق، ووقف صبري العسلي وزير الداخليّة، وفؤاد المحاسني رئيس مجلس العدل وكثير من رجال الدرك والتحرّي ومنعوا الاقتراب من المكان الذي نصبت فيه المشانق وأبقوا الصحفيّين مع المتفرّجين على بعد كبير من المكان ومنعوهم من التصوير. وأحضروا الشيخ علي أديب وهو مقيم في دمشق.

وصلوا إلى المرجة قُبيل الفجر، وترجّلوا من السيّارات، وجلسوا على كراسٍ قرب المشانق. وطلب سلمان عندما سألوه عمّا يطلب قبل الإعدام فنجان قهوة.

لفّ سلمان سيكارة بهدوء وأشعلها، وقال لصبري العسلي: أهذا هو عهد الشرف عندكم يا صبري ؟!.. لأنّه كان قد تعهّد هو ورفيقاه سعد اللّه الجابري وشكري القوتلي تعهدوا بشرفهم وأقسموا الأيمان أن لا يُمَسّ أبو الفاتح أو أحدٌ من رجاله بسوء.. فتلعثم العسلي كمن أصابه الخرس ولم يُفهم منه كلام.

بعدها توجّه سلمان بهدوء إلى المشنقة. أراد الشيخ علي أديب أن يوجّه بعض الكلمات الدينيّة إلى سلمان كالعادة عند الإعدام فأشار سلمان إليه بيده ألاّ يتكلّم إطلاقاً، وصاح به

بصوته القويّ (اسكت)، وصعد إلى المشنقة ولم يسمح لأحد أن يلمسه أو يغطّي وجهه. أمّا علي السلمان سعيد فعندما سألوه عن مطلبه قبل الإعدام قال: اسمحوا لي أن أقبّل يد هذا المشنوق مشيراً إلى جسد سلمان المتدلّي أمامه.. فسمحوا له بذلك، ثمّ صعد إلى المشنقة. أمّا حسن طرّاف فقد ولول وانهار ومضى يندب حظّه إلى أن اقتيد إلى المشنقة قسراً.

وبعد التنفيذ سُمِح للصحفيّين بالاقتراب والتصوير ووزّع عليهم صبري العسلي بيان الإعدام.

وهكذا قُتِل سلمان وعمره أربعون عاماً أو تنقص قليلاً. وهكذا قتلت الطبقة المحتكرة ذات الثقافة العثمانيّة الرجلَ الثائرَ ضدَّ الظلم المطالبَ بالمساواةِ الرافضَ الذلّ، حسبوا أنّهم قتلوه وانتهى أمر الثائرين عليهم، (ولكنْ هيهات هيهات، فما هي إلاّ سنوات حتّى ثارت عليهم البلاد لخياناتهم وإيثاريّتهم، ثورات تتبعها ثورات حتى استُخْلِصت منهم أراضي سورية ورجعت إلى أصحابها أي للشعب السوري وأُمِّمت معاملهم التي أقاموها على الاحتكار بقوّة السلاح، فانتهى أخيراً أمرهم نهائيّاً وأُبيدت أفكارهم الطبقيّة الإيثاريّة أواخر الخمسينات وأوائل الستينات بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي وثمّ قانون التأميم).

أمّا أولاد سلمان وزوجاته الثلاث فقد كان مصيرهم السجن والنفي إلى الجزيرة. ومن وجوه العشيرة سجن حوالى عشرين رجلاً مدداً متفاوتة بين مؤبّد وخمس سنوات وقضى أكثر المحكومين بقاءً في السجن حوالى عشرة أعوام. ونفي منهم ما يزيد عن أربعين رجلاً إلى مناطق متفرّقة في الجزيرة كمثل أبنائه.

وكان صبري العسلي بالاتّفاق مع شكري القوّتلي قد أصدر القرارين رقم / ٥٤٩ / تاريخ ١٦ كانون الأوّل ١٩٤٦ (أي يوم إعدام زعيمنا سلمان المرشد) ورقم / ٥٥١ / تاريخ ١٨ كانون الأوّل ١٩٤٦ بنفي أفراد عائلة سلمان المرشد وكثيرين من المعروفين بالعشيرة إلى الجزيرة والفرات.

ولكنّ اللّه كان بعون هؤلاء المنفيّين إذ لم يبقَ لهم من ملاذٍ غيره، فقد أمالَ قلوب أهل الجزيرة إليهم وكان الجميع متعاطفين معهم واستقبلوهم كضيوف وكانوا يقيمون لهم ولائم في كلّ المحلاّت التي نُفوا إليها. ومن معارف سلمان من زعماء السنّة أيضاً مَن أرسل لهم إمدادات شهريّة أمّا بقيّة الطوائف فلم يلتفت إليهم منهم أحدٌ رغم كلّ ما قدّمه لهم سلمان من مساعدات ورغم كلّ ما كان له بهم من أيادٍ بيضاء، ومن المنفيّين من توظّفوا عند القطاع التجاري الخاصّ وهكذا فتح اللّه لهم باب رزق دون ذلّ بل كان يُنْظَر إليهم كأبطال ورجال حقّ.

والملفت للنظر أنّ من السنّة الأغنياء مَن عادى سلمان ومنهم مَن صادقه وكذلك من المسيحيّين ومن بقيّة الطوائف كالعلويّين. ولكن لم يقدّم أحد من كلّ هؤلاء عوناً مادّياً لأهله وجماعته في المنفى إلّا واحد من دمشق وهو من السنّة. أمّا أهالي مدن الفرات فقد كانوا نعم الرجال بهذا المجال كما ذكرنا سابقاً. ولم يزر محمّد الفاتح في السجن إلّا قلّة وكانوا من السنّة كما زاره إثر وصوله إلى سجن القلعة المقدّم زيد الأطرش معزّياً باسمه وباسم شقيقه سلطان باشا الأطرش الذي كان مرسلاً من قبله وأوصى الدرك أن يتساهلوا مع فاتح.

الاستيلاء على بيت سلمان ونهب الحارة

استولى الدرك على كلّ بيوت حارة سلمان في الجوبة وبدون أيّ صفة قانونيّة أو حتّى أيّ ورقة رسميّة تخوّلهم أن يستولوا عليها. ووكّلت نساء سلمان محامياً لأجل ذلك. وترى في الصفحة التالية متابعات الدعوى التي أقيمت بدون جدوى بخصوص الاستيلاء والنهب.

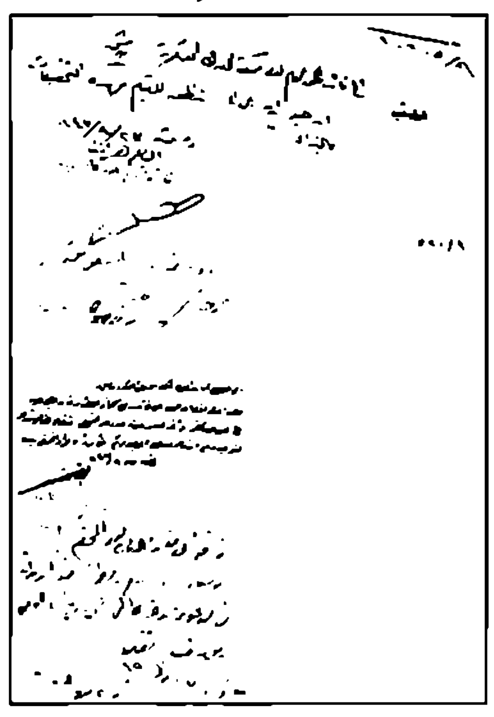
تعليق:

في هذه المراسلات يظهر كيف قام رجال الدرك بمصادرة دار سكن سلمان المرشد الواقع في قرية جوبة برغال مع جميع محتوياته ومفروشاته، وكيف أُحيل الأمر إلى الزعيم هرانت ليعيّن مستنطقاً يستنطق العقيد محمّد علي عزمت قائد الدرك حول هذا الأمر، ولكن هذه الدعوى لم تسفر عن شيء، إلّا أنهم بعد فترة تركوا نصف البيت ونصف الحارة إلى عائلة سلمان والنصف الآخر بقي ملك الحكومة ودركها حتى تمّ الاستيلاء عليها نهائياً سنة ١٩٥٦ بعد أن رجع القوتلي وصبري وشلّتهما إلى الحكم ثانياً.

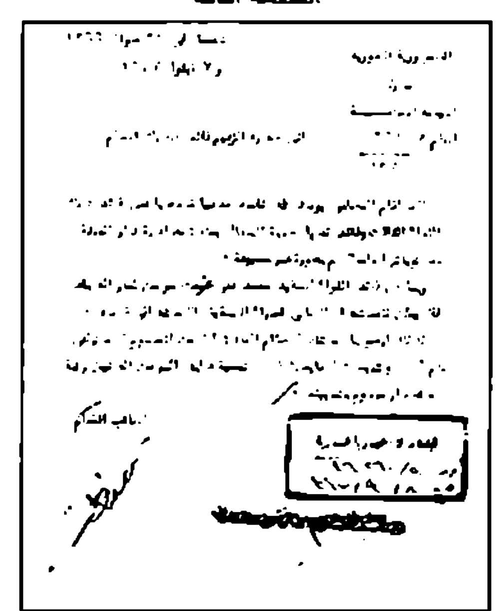
صور أخذت عن الأصل عن وثائق متابعات قضية الاستيلاء على البيت

الصفحة الأولى

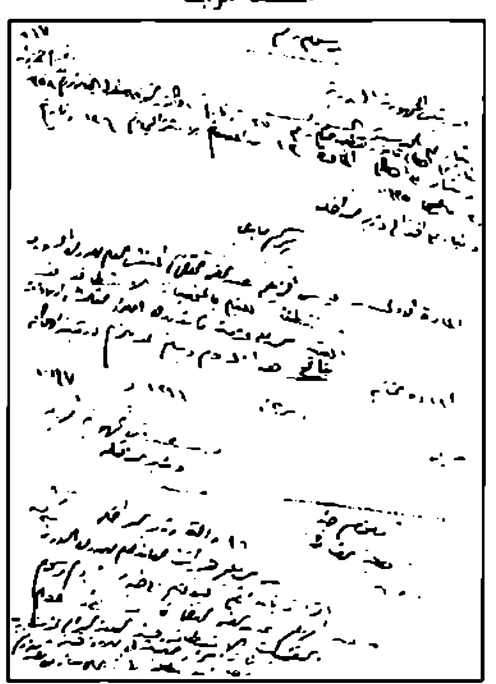
الصفحة الثانية



الصفحة الثالثة



الصفحة الرابعة



سلمان جاء بالسلام وليس بالحرب

أحبّ أن ألفت النظر هنا أنّ ثورة أبي الفاتح على الظلم سواء ضدّ فرنسا وبريطانيا أو ضدّ مستغلّي الشعب كانت كلمات وتوجيهات ومواقف، أي كان يحارب بسيف السلام، ولم يقاتل أبو الفاتح إلّا دفاعاً عن النفس أو دفاعاً عن العشيرة ولم يبدأ في قتالٍ أبداً. وقد قال مرّةً لمن طالبه أن يقاتل ضدّ أحد معاديه. قال له باللّغة الدارجة بما معناه: (السيّوفة تركناها لغيرنا) أي السيف تركناه لمن أراد الشرّ والحرب، أمّا نحن الأخيار فبغيتنا الحكمة وليس الحكم.

فهو لم يهاجم بعثات التبشير كقتال جسديّ بل كانت محاربته لهم بسلاحٍ معنويّ، أي بالاعتزاز بالمذهب وبتوعية الناس عن مقصد هؤلاء المبشّرين.

وكذلك شركة الامبريال لم يحاربها قتالاً بل كان يوقف التعامل معها كلّ مرّة تدنّي بها أسعار الدخّان حتى ترضخ وتعطي أسعاراً مقبولة.

أمّا محاربة الإقطاع فكانت بتوعية الفلاحين أنّ هؤلاء الإقطاعيّين يستغلّونهم استغلالاً بَشِعاً إلى حدّ لا يمكن تصوّره تقريباً. فمن الغنيّ عن التعريف ما تنطوي عليه نفسيّة الفلّاح الذي يحكمه الإقطاعي، فشخصيّته مسحوقة من ثقل الظلم الدائم، فالإقطاعي يملك كلّ ما عنده، حتى أنّ الفلّاح لا يملك بيته الذي يسكنه ولا أرضه التي يزرعها، ومتى أراد المالك (الآغا) يطرده من بيته هو وأطفاله وامرأته، ومن أرضه التي هي معين قوته. تضمحلّ في هذا الجوّ المعرفة حتى تكاد تصل إلى الصفر، فتقلّ مفردات اللغة حتى تصبح فقط تلك الجمل التي يتبادلها الناس فيما بينهم كلّ يوم لتنفيذ الأعمال وإقامة المعيشة اليوميّة.

وإليك وصف «الموسوعة البريطانيّة Encyclopaedia Britannica» للإقطاع السوري إذ تقول:

«سكّان سورية كانوا مؤلّفين من سكّان المدن، الفلاحين، والبداوة ـ القصد في البداوة عائد إلى سكّان ريف الجزيرة ـ ثلاث جماعات يجمع بينها القليل. أضافت الفروق الاقتصاديّة تعقيداً أكثر، ففي المدن كانت ثروة الأغنياء التفاخريّة تتعارض بشكلٍ حادّ مع فقر الكمّ

الأكبر. وهؤلاء الأغنياء أنفسهم كانوا أيضاً ملاّك الأراضي الكبيرة حيث كان الفلاحون عملياً بمثابة عبيد أرض».

وإليك النصّ كما جاء باللّغة الإنكليزيّة:

The population of Syria was composed of townspeople, peasants, and nomads, three groups with little in common. Economic differences added further complexity; in the cities the ostentatious wealth of the notables contrasted sharply with the poverty of the masses. Those same notables were also the owners of large agricultural estates on which the peasants were practically serfs(1).

لقد ثار سلمان على هذا الواقع اللاّمعقول ولكن بتأنٍّ وحكمة، فالأهمّ توعية الفلاح وتوعيته تكون بأن يجعله يرى كيف يمكنه أن يتغلّب على هذا الواقع، وأن يساعده في قومته ضدّ (الآغا أو البيك) الذي يملك أرضه ويعامله بكلّ ازدراء واحتقار. فتغيّرت نظرة الفلاح إلى سلطة الإقطاع السماويّة كما كان يظنّها سابقاً أنّ الله هو الذي رزق البيك هذه الأرض، وأصبحت تتلاشى هذه النظرة المتألّهة بالنسبة إليه بعد أن رآه يضعف ويضمحلّ تحت أحذية رجال سلمان. وقد ساهم عمل سلمان هذا في تشجيع الفلاّحين حتّى وبعد مصرعه على انضمامهم إلى الأحزاب التقدميّة كالقوميّين العرب وإلى حزب البعث والناصريّين فيما بعد، تلك الأحزاب التي نادت بسقوط الإقطاع.

كما أنّ سلمان نادى بالمساواة كشعار وكعمل وكان ضدّ أيّ اقتتال طائفي. وكانت قائمته في البرلمان تضمّ جميع الطوائف. وأصدقاؤه كانوا من السنّة والدروز ومن الأكراد ومن المسيحيّين والعلويّين.

مَن هم الذين اختلقوا الأكاذيب على سلمان

عمد ضبّاطٌ فرنسيّون وإنكليز إلى مهاجمة سلمان بكتاباتهم وأصبحت هذه الكُتُب سُنّةً لمن كتب بعدهم من مسيحيّي سورية ولبنان، أولئك الذين كان ارتباط كثيرين منهم بفرنسا غير خافٍ حتّى على الأعمى، كتبوا يكيلون الشتائم لسلمان ولعشيرة بني غسّان اقتداءً بالكتب الغربيّة. (والغريب أنّه رغم هذا الترامي والتهالك على سلمان من قبل كتّاب مسيحيّين من لبنان وسوريّة وبكل جهدٍ يدّخرونه إلّا أن الشعب المسيحي ككلّ لم يبدِ لنا أيّة عداوة لا في

(١) المصدر: Syria after independence -- Syria. History of --
ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA CD 2000 DELUXE EDITION --
2000 October 18. 1999 -- (A CD-ROM-based encyclopedia from the editors of the Encyclopaedia Britannica).

سوريا ولا في لبنان مّما يدلّ على أنّ هذا الهجوم الشرس واللامعقول كان بإيحاءٍ خارجي) وما زال بعض الكتّاب الأميركان والألمان سادرين بغيّهم هذا حتّى التسعينات من القرن الماضي. وكلّ ذلك لأنّ سلمان رفض أن يخضع للفرنسيّين وللإنكليز كما فعل زعماء الكتلة الوطنيّة. ولأنّه تصدّى وحده للبعثات التبشيريّة التي كانت تعمل على أن ينقلب الناس من الإسلام إلى المسيحيّة.

هؤلاء المستعمرون الأقدمون والجدد حاربوا كلّ من لم يخضع لهم في كلّ بلدان العالم، اسأل الهند والصين والسند (الباكستان) وكلّ الدول الإفريقيّة والآسيويّة. عرقهم الآري هو صاحب الحقّ بالفوقيّة كما تهوى قلوبهم. يريدون التحكّم بكافة جماعة هذا الكوكب. وللآن ما فتئوا على غيّهم القديم. ونأمل أن يكون القرن الواحد والعشرون نهاية تعسّفهم وأن يريهم الله أنهم ليسوا خيراً من أحد ولن يكونوا أخياراً إلّا بمعرفته تعالى والسيرة على طريق الهدى والخير الذي أناره أمام الإنسان وأنّ كثيراً من الناس يفضلونهم ضميراً وأخلاقاً.

النصر كان في الحقيقة حليف سلمان

بعد كلّ هذا التهالك والترامي من قبل الرجعيّين على سلمان وجماعته فإنّ هذا كلّه لم يُفِد الحاكمين في شيء، بل إنّ الأحزاب التقدّميّة في البلاد كانت لا تفتأ تَصِمهم بالتعاون مع الأجنبي ضدّ بلادهم، وبأنّهم عملاء الاستعمار وأذنابه. هذا وبعد الجلاء الفرنسي والإنكليزي عن سورية بثلاث سنوات أُطيح بشكري القوّتلي، وقامت المظاهرات التي تندّد بحكمه وتطلب طرده وبالأخص طلاب جامعة دمشق وكليّة حلب واتُّهم بالتعاون مع بريطانيا لصالح إسرائيل في حرب ١٩٤٨. وأُركِب القوّتلي في مصفّحة طافت به في كلّ دمشق وسط هتافات الناس التي كانت تصمه بالتعامل مع الاستعمار وخذلان الجيش أثناء الحرب. وكانوا يرمونه بالبيض وبالبندورة وهم يطوفون به في الشوارع. وكذلك جرى لرفيقه الملك فاروق في مصر سنة ١٩٥٢ فقد ثار عليه الجيش بقيادة عبد الناصر لنفس السبب وطُرِد من البلاد.

وإليك كيف تصف «الموسوعة البريطانيّة Encyclopaedia Britannica» ما آل إليه الوضع العربي بعد حرب سنة ١٩٤٨ إذ تقول:

«إنّ الفشل المخزي للتدخّل العربي في فلسطين ضدّ دولة إسرائيل المخلوقة حديثاً وذلك في أيّار ١٩٤٨، أضفى عدم الثقة بشكلٍ خطير على حكومات البلاد العربيّة المتورّطة، ولكن ليس في مكان أكثر من سورية».

وهذا نصها كما جاءت في اللّغة الإنكليزيّة :

The humiliating failure of the Arab intervention in Palestine against the newly created state of Israel in May 1948 brought serious discredit to the governments of the Arab countries involved, but nowhere more than in Syria(1).

وجاء أيضاً في الموسوعة البريطانية عن القوتلي ما يلي :

«بسبب النصر الإسرائيلي على القوات العربيّة سنة ١٩٤٨ وبسبب كراهية حكم القوّتلي أيضاً فقد أُسقِط بواسطة انقلاب عسكري في آذار ١٩٤٩. وبعد سجنه لفترة قصيرة ذهب منفيّاً في مصر ينتظرُ فرصةً ليستعيد مركزه بينما شلّت سلسلةٌ من الانقلابات الحياة السياسية في سوريا».

وهذا نصّها كما جاء باللغة الانكليزيّة :

Because of the Israeli victory over Arab forces (1948), as well as dissatisfaction with Kuwatli's rule, he was overthrown by a military coup in March 1949. After a short imprisonment, he went into exile in Egypt, waiting for a chance to regain his position, while a series of coups paralyzed Syrian political life(2).

---

(١) المصدر: Syria after independence – Syria, History of--

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA CD 2000 DELUXE EDITION--

2000 October 18, 1999 – (A CD-ROM–based encyclopedia from the editors of the Encyclopaedia Britannica).

(٢) المصدر: Kuwatli, Shukri al- -- Syria, History of –

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA CD 2000 DELUXE EDITION --

2000 October 18, 1999 – (A CD-ROM—based encyclopedia from the editors of the Encyclopaedia Britannica).

ما هي حقيقة نظرتنا إلى سلمان

سلمان زعيمنا نحبّه كثيراً ونراه قدوة ونبراساً للحقّ وللهدى وثورةً على الظلم والطغيان أكان هذا الطغيان أجنبياً أم وطنياً أم من أيّ مصدر كان.

نداء سلمان جعل جماعته يشتهرون بالطيبة وصفاء القلوب، متسامحين مثله ونادراً ما عرفت الأرض مثل هذا الرجل بصفاء السريرة وعدم الحقد على معاديه.

لماذا قتلوا سلمان (برأي فتاة مرشديّة)

تحدّثت فتاة مرشديّة عن قول بعضهم أثناء نقاش قوميّ فقال أحدهم: أنّه لن يكون عندنا نحن العرب لا حضارة ولا رقيّ أمثال غيرنا، فعلّقت الفتاة المرشديّة قائلةً: حاول سلمان المرشد أن يحضّر عشيرته، فتح مدارس، شقّ طرقاً، وبدأ يعلّم الناس الحقوق الحديثة، ويحارب المعتقدات الخرافيّة، ولذلك قتلوه. هم ما أرادوا رجل حد، أي ما أرادوا شخصاً يبرز من خلال أفعال حميدة، بل ما أرادوا أن يبرز إلّا الذين لا يرون إلا كما يريدونهم أن يروا.

صاحب أوّل ثورة اجتماعيّة في تاريخ سوريا الحديث

ـ سُئل أحدُ المرشديّين: ماذا فعل سلمان؟

ـ أجاب: أعطى شعور العزّة ليس لجماعته فقط بل أثّرت قومته على كثيرٍ من المستضعفين من جميع الطوائف من الذين كانوا تحت إمرة الإقطاعيين وغيرهم. لذلك حُورِب ولذلك قُتِل، كان في بلادنا فعلاً منادون بالإصلاحات العالمية الحديثة ولكن سلمان كان الوحيد الذي أنزل تلك الدعوات إلى أرض الواقع كإرجاع قرى كان يمتلكها الإقطاع إلى أصحابها وقسر شركة التبغ والتنباك إلى الرضوخ لمطالب الفقراء المستضعفين، ورضوخ الحكومة الأثرويّة لحقّ تمثيل جميع الفئات بالوظائف الحكوميّة. أمّا غيره فاكتفى بشعارات لعلّ أكثر الفلاحين والمستضعفين لم يفهموا مضمونها فهو بحق صاحب أوّل ثورة اجتماعيّة في سورية الحديثة. والعمل العظيم أنّه ذكّر الناس بوعد الله القائل أنّ الله سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. ونادى بتحضير النفوس له بالخير والتسامح. فهو جندي وفخر الجنود في عسكر الهداية والسلام.

وأضع جواب ساجي المرشد ـ معلّم المرشدية ـ لكاتب غربي.

سؤال: هل كان سلمان مع الحركة الوطنيّة وكيف؟.. أم كان ضدّ الحركة الوطنيّة ولماذا؟.

جواب: «إن كنت تقصد بالوطنيّة ما كان يسمّى بالكتلة الوطنيّة والتي كانت مؤلّفة من عائلات وأبناء العائلات المتحكّمة بالبلاد إقطاعياً ومالياً وسياسياً واجتماعياً، والتي هي بأغلبيّتها من عرقٍ تركي، ويعود تاريخ تحكّمها إلى العهود العثمانيّة، والتي كانت تُفسّر الوطنيّة على أساس مصالحها الطبقيّة فسلمان كان ضدّ الوطنيّة.

أمّا إذا كنت تقصد بالوطنيّة الطبقات المحكومة من قِبَل هذه العائلات فسلمان كان مع الوطنيّة. بدليل لجوء الكثيرين إليه (ومن كافّة الطوائف) ليساعدهم ضدّ طغيان هذه الطبقة المتحكّمة وكان يفعل. والدليل مساعدته لبعض القرى على الخلاص من إقطاعيّيها.

إن كنت تقصد بالوطنيّة شركة الأمبريال الإنكليزيّة، التي كانت هي وبعض العائلات في اللاذقيّة يحتكرون تجارة الدخّان المدخون، ويتلاعبون بالأسعار بحيث يخرج المزارع مديوناً دائماً وهم بالمرابح الوفيرة فسلمان كان ضدّ الوطنيّة. أمّا إذا كنت تقصد بالوطنيّة مزارعي الدخّان المغلوبين على أمرهم فسلمان كان مع الوطنيّة. بدليل لجوئهم إليه سنوياً ليكتّلهم لرفع الأسعار وهذا ما كان يجري.

إن كنت تقصد بالوطنيّة أصحاب الرأي القائل أنّ العلوي لا يؤتمن على مصالح البلاد ولا يجوز له أن ينال إلّا الوظائف الدنيا فسلمان كان ضدّ الوطنيّة. أمّا إن كنت تقصد بالوطنيّة أصحاب الرأي القائل أنّ للعلوي حقوقه سواسيةً مثل بقيّة الطوائف، وليس مواطناً من الدرجة الثانية أو الثالثة فسلمان كان مع الوطنيّة، بدليل مجابهته لأصحاب الرأي الأثروي ومناصرته لأصحاب الرأي السليم المناهض للإقطاعيّة الطائفيّة.

إن كنت تقصد بالوطنيّة الرأي القائل أنّ على العلوي أن يتلوّن كالحرباء ويسايس ويداهن بدون أن يبرز بخاصّيته ويكتفي بالتبعيّة[1]، هذا الرأي الذي كان سائداً بين أكثريّة وجوه ومشايخ العلويّين فسلمان كان ضدّ الوطنيّة. أمّا إذا كنت تقصد بالوطنيّة أصحاب الرأي القائل أنّ على العلوي أن يبرز بخاصّيته ويدلي برأيه ويتمتّع بإرادته فسلمان كان مع الوطنيّة. بدليل تزعّمه وقيادته لأصحاب هذا الرأي».

(١) عشائر سلمان المرشد كانت تلك الأيام تُعد مع العشائر العلويّة.

تحليل للعهد الإقطاعي كتبه محمّد الفاتح

«من الغريب أنّه بعد ضربة الحكومة لسلمان المرشد وجد أبناؤه في السجن والمنفى كل العون من أصدقائه في المعارضة خاصة من دمشق وحمص وحلب وكمثال على صداقتهم: لم تستطع الحكومة أن تحمل المجلس النيابي على التصديق على عفوٍ عامّ عن السجناء ما لم يشتمل على قضية أبناء سلمان المرشد وكانت مشاريع العفو تُردّ تباعاً من المجلس النيابي لأن الحكومة لا تقبل أن يشمل العفو قضيتهم والمعارضة وكثير من المستقلين يصرّون على أن يشملهم العفو. وبقي الأمر حتى مشروع العفو الأخير بعد عدة سنين. في حين أن أبناء سلمان المرشد لم يجدوا لهم في أوساط زعماء الساحل أي عونٍ في ضيقتهم الكبرى.

لم تكسب الحكومة أي تأييد من الدعاية الكبرى التي أحاطت بها توقيف سلمان فقد أعدّت الرأي العام لقتال طويل نسجت حوله الأساطير والأباطيل فلمّا جاء نبأ القتال جاء معه نبأ الاستسلام الفوري يكذّب كل ما سبق من أنباء وأباطيل، فبقيت الإثارة مقصورةً على الصحف ولم تثر في الناس أي حماسٍ.

وكانت المعارضة قد بدأت حملتها الكبرى لاستعادة الحريات العامة وإلغاء المرسوم / ٥١ / الذي منح الحكومة صلاحية توقيف الأشخاص ونفيهم بدون محاكمة. وعندما كان سلمان ما زال في السجن كان موكب المصفحات التي تتقدّم السيارات التي تقلّ المتهمين من السجن إلى قاعة المحكمة يمرّ أحياناً بمظاهرات الطلبة التي كانت تجوب شوارع المدن وتهتف بسقوط الحكم، وقد نفي بموجب هذا المرسوم أطفال ونساء سلمان المرشد وكثيرون من الناس معهم إلى مناطق الجزيرة ولم تُقدم لهم مخصصات لضرورات العيش وقُطع عنهم كل اتصال واستمر الرجال الذين حُكموا بالنفي منفيين قرابة سنتين استمرت فيهما ملاحقة المظاهرات التي تطالب بعودة الحرّيات العامّة وإنهاء التوقيفات التعسفيّة وقد شملت التوقيفات رجالات الأحزاب كما أُوقف أمين حزب البعث وكل من استطاعوا الوصول إليه من رجالات الأحزاب الاشتراكية. وهكذا سدّت الأحزاب الاشتراكية الطريق أمام البورجوازية لاستغلال التفرقة الطائفية التي لم يكن لدى الإقطاع ما يقدّمه للناس سواها فلم يترك حكمهم كلّه دراسة نظرية واحدة عن الوحدة العربية وعن تحسين الحالة الاجتماعيّة للفقراء ولا اهتمّ بنشر طريقة توصل إليها.

كان حزب البعث يعمّم في الشعب السوري آراءه النظرية والأسلوب الذي يراه للوصول إلى الوحدة العربية الشاملة وكان حديث الأحزاب الاشتراكية عن مدّ أنابيب المياه إلى القرى وعن إنشاء الطرق الكبيرة والأوتوسترادات وقيام الحكومة بإنشاء المصانع والمؤسسات الشعبية، كل هذا كان شيئاً غريباً عن التجمّع الإقطاعي الذي اتخذ فيما بعد اسم الحزب الوطني الذي لم تكن له أية دراسة أو نظرية، ولم يقدّم أية حلول للمسائل التي يطرحها الاستقلال على الحكومات الوطنية وكان حضورهم في ملاهي بيروت والملاهي الأوروبية هو الشيء الوحيد الذي عُرفوا به طيلة حكمهم.

وكانت السياسة الفرنسية ـ فرنسا التي تخلّصت من الإقطاع منذ قيام ثورة ١٤ تموز سنة ١٧٧٩ تعود لتحميه عندنا نحن المحتلّين من قبلها ـ تتفق سياسياً بشأن سورية مع هذه الأنظمة نفسها التي استندوا عليها وقد عُرف عنهم أنهم يؤلفون جبهةً سياسيةً واحدة فيما يخصّ سورية في وجه بريطانيا والعرش الهاشمي. فلمّا قام حسني الزعيم بانقلابه كان من أوائل القرارات التي أعلنها والتي تناقلتها الصحف والإذاعات العربية والأجنبية إعادة الحرية لأبناء سلمان المرشد المسجونين والمنفيين وبقية الرجال والأطفال المنفيين ثم لمّا عقد اتفاقيةً مع فرنسا وصار السفير الفرنسي يقابله كل يوم تقريباً تراجع عن موقفه.

وهكذا تحجّمت قضية سلمان المرشد والناس معه في البلاد وامتدّت على مستوى الحكومات في العهود التي تستند على ذلك النفوذ الخارجي. وهكذا ظلّ الناس يعانون على اسم سلمان المرشد اضطهاداً مستمراً توقد جذوته الصحف الإقطاعية التي تقبض من الدول المجاورة وذلك حتى إلغائها في العهد الاشتراكي الوحدوي عهد الوحدة مع مصر.

كان رجال الحكم في العهد الاستقلالي فئة من البورجوازيين والإقطاعيين يتحكمون بميزانية الدولة وبالاستيراد والتصدير ويقيمون ما شاؤوا من شركات احتكارية ويتحكّمون بالناس من خلال مصالحهم الاقتصادية، ولكن المؤسسات الشعبية كانت العدو الأول لطبقتهم القائمة على الاستغلال فحاربوا الأحزاب اليسارية التي كانت تطالب بها ومنعوا نشر المبادئ والأفكار التي تنادي بهذه المؤسسات. كانوا يفتقرون إلى الفهم الصحيح للبنيان الاجتماعي الذي تقوم عليه الدولة مثلما كانوا عاجزين ثقافياً عن فهم النظريات الاقتصادية الحديثة. فلم يهتمّوا إلّا ببقاء السلطة في أيديهم وإقصاء كلّ من يحذرون منه على هذه السلطة وبخاصة الأحزاب اليسارية والشخصيات التي عُرفت بجهادها المستمرّ من هذه الأحزاب أو من سواها من الشخصيات السورية المستقلّة. ومن

الغريب أن مناضلي الثورة وقادتها الذين خاضوا معارك سورية الاستقلالية ظلّوا بعيدين عن الحكم أول الاستقلال.

وقد سبق لبعض الوزراء في أول وزارة مثل سعد الله الجابري ولطفي الحفّار وجميل مردم بك الذين أصبحوا رؤساء وزارات فيما بعد أن اتُّهموا باغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر فهربوا إلى العراق. وهو الذي أقام مستشفىً سرّياً لرجال الثورة وكان هو المستشفى الوحيد الذي عرفته الثورة السورية فلما عاد إلى بلده دمشق إبّان الانتداب واشترك في الميدان السياسي برصيدٍ شعبي كبير وأخذ يفضح هذه الفئة لتسليمها المستمرّ بحقوق البلاد الاقتصادية والسياسية كلّما لوّح لهم الفرنسيون بالحكم وبدا أنّه أقرب الجميع إلى الرئاسة عاجلوه بالاغتيال.

وقد تجاوزت عداوة فئة الإقطاعيين لسلمان المرشد كل الحدود ولم تكن شراستهم بحقّه غريبة منهم، فقد كان بعض الملّاكين في محافظة اللاذقية يستغلون فلّاحيهم أباً عن جدّ ولم يحاسبوهم على الموسم مرّةً واحدة، ومن هؤلاء مَنْ كان الفلاحون يتناولون حَبَّ الذرة بأيديهم أثناء تعبئته في الأكياس ويقضمونه بأسنانهم كما هو لسداد جوعهم فلمّا أوجد سلمان في المحافظة التوازن في القوّة بين أهالي القرى من جهةٍ وبين الملّاكين والتجار من جهةٍ ثانية نقموا عليه هذا التوازن الذي يهدّدهم ويهدّد ما هو بنظرهم حقٌّ وراثي، وقد زادهم نقمةً على سلمان أنه لم يأبه لإجماعهم ولا لتهديدهم بل أخذ منهم عنوةً سائر القرى التي كانت تخصّ عشائره، ففي اللاذقية أخذ سطامو وفي حمص أخذ قرية العاليّات بتهديدٍ خطّي للملّاك الذي يملك مليون دونم وهو ابن سويدان فأعاد لهم الإقطاعي سنداتهم التي كانوا قد تنازلوا له فيها غصباً عن ملكيّتهم لأرضهم، وفي قرية فاحل الكبيرة جداً قلب الموقف على الملّاك وهو من آل الزعبي بأن طلب سلمان من فلّاحي القرية أن ينكروا أي تصرّف سابقٍ للملّاك في القرية وطلب الملّاك كشفاً على بيته في القرية نفسها وهو بيتٌ كبير يحوي غرفاً سكنية وما يسمّى بـ (الحوش) أي سورٌ دائري يحوي غرفاً للمواشي والفلّاحين. فأوعز سلمان للفلّاحين بنقل حجارة البيت كلّها وفلاحة أرضه قبل وصول هيئة الكشف وهكذا ربح الفلّاحون قضيتهم وملكوا أرضهم، وفي بعض القرى غيرها في حمص وحماه استخلصها جميعها للفلاحين دون أن يأخذ منها شيئاً بل كان يصرف على قضاياها من صندوق العشيرة فكانت حملة الإقطاعيين عليه حملة حياةٍ أو موت.

وكان الحكم مؤلفاً من شخصيات مارست الحكم إبّان الانتداب ولم تمارس الثورة فقد كان رجال الثورة جميعهم بعيدين عن الحكم، ولم يكن في سجلّهم الوطني إلا بعض

المظاهرات إنْ كانوا خارج الحكم أثناء الانتداب، وإلاّ جمع الأموال بلا حسيب عليهم كجمعهم المال لثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق.

ولمّا شكل هذا الجناح الحاكم من الكتلة الوطنيّة حزباً سنة ١٩٤٧ لم يطرح أي منهاج مفصّل ولم يطالب بأي مؤسسة اجتماعية أو اقتصادية للعمال والفلاّحين وكانت قوّته الانتخابية تعتمد على قبضايات الحارات وعلى سمعة العائلات القديمة وصلاتها القوية في الأحياء.

أمّا ردود الأحزاب اليسارية على هذا الحكم الاستغلالي فكان بمنتهى العنف. وكان الاتفاق مع الفرنسيين وضحالة التفكير الاجتماعي والاستغلال الفردي البشع هي الاتهامات التي يكيلونها للحكم في كل يوم وقد أعاد الأمين العام لحزب البعث سائر أعمالهم لمصلحتهم الطبقية كقوله «إلاّ أن البعث نفسه أخذ يكشف عن وجهه الثوري حين هاجم الطبقة الحاكمة الإقطاعية والبورجوازية متهماً إياها بتبنّي أنصاف الحلول وبالاتفاق مع الفرنسيين وبالإخفاق في فهم معنى الكفاح حتى إذا كان من أجل الاستقلال. لقد علّم أهله ورجاله أن تفسير تردّد الحكومة يوجد في مصالحها وعقليتها الطبقيّة».

وهكذا تحوّلت آمال الناس أن ينعموا في عهد الاستقلال بالكرامة والرخاء تحوّلت عنهم إلى الأحزاب اليسارية وبدأت انتشارها السريع في النقابات العمالية الجديدة وفي القرى بين الفلاحين. وكان الشعب في سوريا أسبق الشعوب العربية إطلاقاً إلى المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية الحديثة التي تمثّلها الأحزاب اليسارية وبتحقيق الأمل الغالي بالوحدة العربية الشاملة الذي ظلّوا يتاجرون به. ومن أمثلة هذه المتاجرة أن صبري العسلي سكرتير الحزب الوطني نفسه هذا الحزب الذي كان يجاهر بعدائه للعرش الهاشمي في العراق تحوّل فجأة عن عداء الحزب السابق ونشر باسمه شخصياً مقالةً في جريدة الحزب يؤيد فيها الوحدة مع العراق تحت ظلّ مليكه وبرغم معاهدة الملك مع انكلترا، وقد فضحت اعترافات رجال العهد الملكي في العراق بعدها أثناء الثورة العراقية في ١٤ تموز ١٩٥٨ المبلغ الذي قبضه ثمناً لهذا التأييد ومواقفه المشبوهة والمؤيدة لنوري السعيد - رجل بريطانيا الأوّل في الشرق الأوسط - وحلف بغداد ممّا جعل عبد الناصر يطرده من جميع مناصبه ومسؤولياته التي كان قد كلّفه بها ومنها نيابة رئيس الجمهوريّة.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الفساد أنهم أضاعوا وحدة الدولة خلال أقل من ثلاث سنين ففقدت الدولة الترابط الصحيح لكيانها بين الحكومة والجيش كما صارت كل قوى الدولة شبه قوى مستقلة أي تجمّعات انتهازية لقضاء المصالح الشخصية. وكان هذا ما أرادته الامبريالية العالمية بضرب الدولة السورية قبل دخولها حرب فلسطين.

وكانت الطبقة الحاكمة قد ضلّلت الشعب وملأت الصحف بالتصاريح التي تبشّر بنصرٍ سهلٍ قريب وتركت الجيش بدون مخصّصات. فقد كانت المخصّصات كلها للوزارات التي تُسهِّل سرقتها منها. فدخل الجيش الحرب بلا سلاح ولا ذخيرة وقد بلغ الفساد والجهل والتردّد بالحاكمين حدوداً لا تُصدَّق فقد أوكل الرئيس للقبضايات الذين يؤيدونه في حيّه وأهمهم من يُدعى بـ (راعي الصفرا) مهمّةَ البحث في القرى في سوريا عن الذخيرة وشرائها لحساب الجيش أثناء حرب فلسطين فكان هذا هو الحل الذي ارتآه عوضاً عن المخططات المدروسة والاتفاقيات الدولية التي تؤمّن موارد الجيش واستمراريته في القتال.

ولم يكن بعيداً عن هذا المنطق تفريق أبناء وجماعة سلمان المرشد بعد إعدامه وقيام حرب فلسطين كما لم يكن بعيداً عن هذا المنطق الإثارة الكبرى التي وجّهوها ضد قائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش وضرب وحدة الناس الذين لهم دراية باستعمال السلاح وذلك قبل أن يعلّم التجنيد الإجباري الناس القتال في البلاد كلها.

ومن الآراء التي انتشرت في الأوساط المطّلعة أن الفرنسيين بعد خروجهم من البلاد ظلوا أصحاب النفوذ الأقوى فيها وذلك بمقتضى اتفاقية (ديغول ـ ليتلتون) التي جاء فيها من الجانب البريطاني قولهم: نحن نقرّ بملء حريتنا أن لفرنسا المكانة الأولى المتقدمة على أية دولة أخرى أوروبية في سورية ولبنان. وأردفها رئيس الوزراء البريطاني بتصريح شهير في مجلس العموم قال فيه: نحن نعترف بمكانة فرنسا في سورية من بين جميع الدول الأوروبية ذات امتياز خاص ومهما كان الحدّ الذي وصل إليه نفوذ أي بلدٍ أوروبي في سورية فإن نفوذ فرنسا ستبقى له المرتبة الأولى.

واستمرّت فرنسا هي مصدر السلاح الوحيد حتى منتصف الخمسينات. وكان الساسة الرجعيون يتأرجحون بين المحورين اللذين كانت لهما مواقف محددة من معظم قضايا البلاد الداخلية ومن الكتل التي تؤيدها لاستلام الحكم.

وكانت الأوساط المطّلعة تعتقد أن إثارة القضايا الطائفية برمّتها جرت بإيعاز من الحكومة الفرنسية لتثبيت الحكم الإقطاعي وإعطائه منطق حكمه ومجال انتصاره السهل في البلاد، وأنّهم كانوا هم الذين زيّنوا لهم ضرب سلمان المرشد وجماعته وضرب سلطان باشا على التوالي، في المرة الأولى نفذها شكري القوتلي والمرة الثانية بعد عدة سنين نفذها الشيشكلي في المحافظتين.

فقد أرسل رئيس شرطته العسكرية فاغتال مجيب بن سلمان المرشد أوّل ما أخذ مكان أبيه بين الناس ثم التفت إلى جبل الدروز فأرسل حملة عسكرية تستهدف قائد الثورة سلطان الأطرش وقرى جبل العرب».

إقامة دولة يهودية في فلسطين

إنّ الشرق الأوسط كان مُقْتَسماً من قبل بريطانيا وفرنسا بعد إزالة الحكم العثماني عنه، ولم يكن له أهميّة عالمية كبيرة كما له في أيّامنا هذه (فنمو أهميته كان يتبع تزايد بتروله) خاصّة في الولايات المتحدة، والشعب الأميركي كان لا يكاد يعلم شيئاً عنه أو حتى عن العرب ككلّ.

ثمّ إنّ الإبادة الهتلريّة لليهود المُبالغ بها من قِبل الحلفاء بسبب الحرب العالمية الثانية كمأخذٍ للحلفاء على النازيّة خلقت تعاطفاً مع اليهود في الغرب وخاصةً في أميركا، حيث الجالية اليهوديّة كبيرة وقويّة نسبيّاً، وقد استغلّت هذه الجالية هذا التعاطف وضغطت بشدّة على الحكومة الأميركيّة للعمل على إقامة دولة يهوديّة لهم في فلسطين.

تنادت الأحزاب الأميركية لأجل قيام دولة لليهود في فلسطين مستغلّةً تعاطف الشعب الأميركي لقضيتهم لكسب الأصوات اليهوديّة وكسب أصوات المتعاطفين مع اليهود، وكان قد بات لليهود مركز قوي من الناحية الاقتصاديّة في أميركا، وهكذا قامت أميركا بالضغط على حكومات الدول الثلاث الكبرى بريطانيا[1] فرنسا روسيّا لإقامة دولة لليهود في فلسطين. فقامت هذه الدول ممثّلة في بريطانيا بالاتفاق مع عدّة حكومات عربيّة كي يمرّروا قيام الدولة العبرية المزمعة الحدوث، ويمتصّوا الغضب الشعبي العربي أثناء قيامها. ومن الأدلة الواضحة على ذلك قبول الدول العربيّة بالهدنة بعد اندلاع الحرب بـ ٢٦ يوماً لمدّة شهر بعد أن كانوا على وشك الانتصار، ممّا سهّل على الغرب أمر إمداد القوات الإسرائيليّة بما يحتاجون له من إمدادات، وبعد أن كانت

---

(١) بعد أن كانت بريطانيا قد تخلّت ضمنيّاً عن وعد بلفور الذي أصدرته أثناء الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٧ بإقامة دولة لليهود في فلسطين لكسب تأييد اليهود لها وذلك بعد أن رأت أنّ مصلحتها مع العرب باتت تناقض هذا الوعد ولكنها رضخت لطلب أميركا، وهذا يذكرنا بتخلّيها عن وعدها للعرب بإقامة دولة موحّدة لهم مكافأة لمساعدة الحلفاء بالتغلّب على تركيا ثمّ رجعت عنه واقتسمت هي وفرنسا المنطقة العربيّة في معاهدة سايكس بيكو. إلاّ أنّ وعد بلفور المشؤوم خلق روحاً في الصهيونيّة ساعدت بتسريع وتوسيع هجرة اليهود إلى فلسطين فقد أملوا من هذا الوعد أنهم رجعوا أو سيرجعون إلى أرض الميعاد أخيراً كما كانوا يحسبون.

الدول العربية المشتركة بالقتال منتصرة عادت الحرب بعد الهدنة لينتصر الصهاينة وتقوم دولة إسرائيل بعد أن تسلّح الصهاينة من الغرب تسليحاً يفوق تسليح الجيوش العربيّة وخاصّةً في سورية حيث كان الجيش السوري تقريباً لا يمتلك سلاحاً، وعلى أثر هذه الحرب ومن جرّائها قام انقلاب إجماعي في سورية وطُرد القوتلي ورئيس وزرائه خالد العظم من سورية، وفي مصر اشتهرت قضية شراء الأسلحة الفاسدة وكانت السبب الرئيسي الذي مهّد لقيام الثورة المصريّة عام ١٩٥٢ وطُرد الملك فاروق من مصر وأُسقِط حكمه.

ممّا كتب كتّاب بلادنا عن حكم الإقطاع

مساهمة القوتلي في خسارة حرب فلسطين

من كتاب «أسعد الكوراني» (ذكريات وخواطر مما رأيت وسمعت وفعلت)، دار رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٠، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٨٤. نقتطف ما يلي حول هذا الموضوع:

«ـ إنّ وزارة الدفاع إذا كانت لا تملك هاتفاً حربيّاً وهو من ألزم ما تحتاج إليه الجيوش المحاربة في جبهات القتال فهذا مثل على أنّ الجيش الذي دخلت به سوريا الحرب ناقص العدّة وأنّ الأمل مفقود في انتصاره.

ـ تدريب الجيش كان ناقصاً أو بحكم المعدوم والذخائر مفقودة.

ـ على إنّ ما يفسّر حقيقة الوضع في هذه الحرب التي خسرنا فيها فلسطين وقامت بها دولة إسرائيل استقالة وزير دفاعنا بعد خمسة أيّام من إعلان الحرب. تدلّ دلالة صريحة على ظهور الانكسار أو ظهور بوادره على أقلّ التقادير. وإظهاراً للحقيقة نترك الكلام لوزير الدفاع نفسه في الخطاب الذي ألقاه في مجلس النواب. فقد قال فيه بالحرف الواحد: وصلنا في الحديث إلى أسباب الاستقالة التي طالما رغبوا في معرفتها. لابدّ لي من الإشارة إلى بعض الأسباب التي تسمح الظروف الآن بالإشارة إليها . . . . فقد تجمعت الأدلة لديّ وأقنعتني تصرفات بعض القادة خلال الأربعة أيّام الأولى من المعارك أنّ العمل قد استؤنف من جديد لتنفيذ خطة مؤذية تهدّد سلامة البلاد وبالتالي رأيت أنّ واجبي الوطني ومسؤوليتي تجاه مجلسكم الكريم يقضيان عليّ بإجراء تبديلات سريعة بالقيادات حفظاً لسلامة الجيش وسلامة البلاد، وقد استُمهلت فلم أقبل الاستمهال لخطورة الأمر حسب تقديري الشخصي. . . لكن هذا الاقتراح رُفض».

ونتابع مع أسعد الكوراني: «هل توقفت أعمال الحرب ثم استؤنفت لتنفيذ خطة مؤذية؟ وما هي هذه الخطة؟» ـ إشارة للهدنة التي قَبِل بها العرب بعد اندلاع الحرب بـ ٢٦ يوماً وكانت مدتها شهراً وبعد أن انتصرت الدول العربية المشتركة بالقتال عادت الحرب بعد الهدنة لينتصر الصهاينة وتقوم دولة إسرائيل بعد أن تسلح الصهاينة من الغرب ـ.

ثم ننظر فيما كتبه أسعد الكوراني في نفس الكتاب في الصفحة ١٩٢ ـ ١٩٣. حيث يصف بهاتين الصفحتين مظاهر الانقلاب على القوتلي:

«هي أنّ الجيش كلّه كان من أقوى أنصار الانقلاب بكل ضبّاطه بلا استثناء تقريباً. والذين عملوا له كانوا كثيرين جدّاً مع أنّ الانقلابات العسكريّة كلّها كما رأيناها في سورية وغيرها من الأقطار العربية وغير العربية يتولاها ضابط يتعاون مع عدّة ضبّاط، فإذا قاموا بجندهم بالانقلاب واستولوا على الإذاعة تركوا رفاقهم الضبّاط الآخرين أمام الأمر الواقع فقبلوا به. أمّا انقلاب الثلاثين من آذار (مارس) الذي تولّى الزعيم قيادته فكان الجيش كلّه مشتركاً فيه. ولمّا التقيت في الأركان بالضبّاط، وكنت أعرف الكثيرين منهم، على اختلاف رتبهم، قالوا لي: كفانا ذلاً ما سمعناه عن انكسارنا في فلسطين مع أنّ الذنب كلّه يقع على المدنيّين الذين تولّوا إدارة الجيش .... حتّى أنّ وزير الدفاع الذي استقال من منصبه بعد أربعة أيّام من إعلان الحرب تكلّم في تبرير استقالته بالحملة على قادة الجيش بأنّهم قد عمدوا إلى (تنفيذ ما يهدّد سلامة البلاد)».

ـ ونقل في كتابه هذا صفحة (١٩٥) اتهام الجيش لحكومة القوتلي: «إضعاف الجيش بعدم شراء كلّ الأدوات التي رأت فرنسة أن تتركها لجيش الشرق الذي تسلمته سوريا واتخذته جيشها الوطني. وكانت الأسعار زهيدة. وكانت تلك الأدوات على قدمها لا تترك الجيش بلا سلاح على الأقلّ إلى أن تعوّض بالأسلحة الحديثة شراء على التدريج. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، إلى أن دخلنا حرب فلسطين بلا أعتدة حتى اضطررنا إلى شراء الرصاصة الواحدة بخمسة قروش على مختلف أنواع الرصاص غير المتناسقة، وكان منه ما لا ينفع لأنّه لم يكن ممّا ينطلق من سلاحنا».

ويضيف الكوراني أنّ من الأخطاء التي اتّهموا بها الحكومة أيضاً إخراج العناصر المقاتلة من الجيش كالشراكسة والأكراد وأشباههم بحجة تعريب الجيش.

ثم نعرج في طريقنا على صاحب صحيفة (بردى) منير الريس لنقرأ في كتابه المسمى (الكتاب الذهبي). مطابع ألف باء ـ الأديب ـ دمشق ـ ١٩٧٧، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤. ما يلي عن سبب خسارة الحرب:

«العملاء لن يستطيعوا إنقاذ فلسطين

الجيش السوري الذي سلّمه الفرنسيّون للحكومة السورية في عام ١٩٤٥ مع أهزل السلاح، وأعتق المعدّات، برواسبه التي عاونت فرنسا على العدوان ضدّ وطنها، بدلاً من أن تصلحه الحكومات السورية، وتسلّحه وتعدّه، أخذت تسرّح من جنوده، وتُبقي ضباطه ليصبح جيشاً صغيراً لحفظ الأمن الداخلي، يكفيه من السلاح القديم الهزيل ما يقمع مظاهرة، أو حركة تمرّد في عشيرة بدوية، أو في ناحية من نواحي البلاد. وكنت كلما نبّهت في «بردى» إلى أنّ العرب سيجدون يوماً أنفسهم في فلسطين وجهاً لوجه مع اليهود المدرّبين المسلّحين الذين وراءهم الاستعمار، والصهيونية العالمية، والدول الكبرى من شرقيّة وغربيّة، هزئ المسؤولون بنبوءتي، وكلّما طالبت بتعزيز الجيش وإصلاحه وتسليحه، هزئوا أكثر، وردّد كبيرهم شكري القوتلي وصيّة الخبير البريطاني في الجيش السوري، قائلاً: وماذا ينفع سورية جيشٌ قوي كبير؟ إن سورية ذات الأربعة ملايين نسمة مهما بذلت من جهد، ووضعت من إمكانيات في إعداد الجيش، فإنّه لن يقوى، على حدوده الشماليّة، صدّ الجيش التركي الذي يزيد عدده في السلم على نصف مليون جندي . . . . أمّا فلسطين فلن يتخلّى عنها الإنكليز لا للعرب ولا لليهود، لأنّ لهم بها مصالح حيويّة كالنفط وحماية قناة السويس. لذلك يصبح من الخطل إعداد جيش قوي لسورية تنفق عليه أكبر قسط من موازنتها، ما دامت لا تستطيع بالجيش دفعاً للجيوش الأجنبية المحيطة بها، وللأساطيل الكبرى التي تمخر عباب البحار، وأنّ المنطق السليم أن تُبقي سورية لنفسها جيشاً صغيراً يكون ظهيراً لقوى الأمن المجهّزة بالمدرّعات، عندما تحاول الدسائس أن تحرك في إحدى المناطق التمرّد والعصيان!.».

سبب سقوط حكومة القوتلي

يصف د. سليمان المدني في كتابه (هؤلاء .... حكموا سورية ١٩١٨ ـ ١٩٧٠) دار الأنوار، الطبعة الثالثة ١٩٩٨، ص ٥٣ ـ ٥٤. حكم حكومة القوتلي للبلاد بهذه المقطوعة :

«إنّ حكم شكري القوّتلي في تلك الفترة بدأ يتعرض لكثير من الانتقادات. سواء من بعض السياسيّين المخضرمين أو من الأحزاب الحديثة العهد في تلك الفترة كمكتب البعث العربي والحزب الشيوعي السوري. إضافة إلى تذمّر شعبي واسع. فقد لاحظ الشعب بأن الإقطاع في العهد الفرنسي مازال إقطاعاً في فترة الاستقلال. والزعامات التي تعمّقت جذورها أخذت تعتبر أنّ كل من يعارضها خائن. حتّى أنّ صبري العسلي وزير داخلية ذلك العهد تفتقت قريحته عن قاعدة قانونيّة جديدة حين قال: لا يجوز لأفراد الشعب إبداء الرأي. طالما أنّهم استعملوا حقهم بالتصويت يوم الانتخاب.

إضافة إلى أن رئيس الجمهورية شكري القوّتلي قام بتعديل مواد الدستور أكثر من مرّة بما يتلاءم مع مصالحه الذاتية ومصالح حكومته ممّا زاد موجة الاستنكار ضدّه حيث قامت مظاهرة شعبيّة ضدّه واستخدم وزير الداخلية في إخمادها إطلاق النار على المتظاهرين فسقط عدد من القتلى والجرحى.

وعندما اقتربت المدّة القانونيّة لإعادة إجراء الانتخابات النيابيّة شنت الأحزاب التقدميّة انتقادات كبيرة لأساليب الغش والخداع والتزوير في الانتخابات بقولها إنّ هناك من يشتري بعض الضمائر أو يستعمل أساليب الضغط والإرهاب ضدّ البعض الآخر.

وقالت بأنّها أسوأ عملية انتخابية تعرض لها البلاد في تاريخها الطويل. ممّا دفع بالدولة إلى إصدار قرار بتعطيل صحف المعارضة. إضافة إلى أنّها قامت بإغداق الأموال الطائلة العامّة والخاصّة على الصحف المؤيّدة للعهد.

وقد زادت في تلك الفترة نسبة الضرائب على الشعب، وعمّت الرشاوي والسرقات بين أوساط كثير من الموظفين. إضافة لكل هذا فإن هناك انتقادات شعبية عامّة ضدّ الحكومة بسبب تقصيرها في حرب فلسطين.

وكانت كل هذه الأسباب كافية لقيام الشعب بتأييد أي محاولة ومهما كان مصدرها لإنقاذ البلاد. وهذا ما حدث عندما قام أول انقلاب في تاريخ سورية الحديث».

ويصف د. سليمان المدني في الصفحة ٥٥ من كتابه الانقلاب العسكري بقوله:

«الانقلاب العسكري الأوّل

في صباح يوم الأربعاء ٣٠ آذار ١٩٤٩ شهدت شوارع دمشق منظراً غير مألوف لديها من قبل، فقد استيقظ الناس ليروا الدبابات والمصفّحات ترابط حول المباني العامّة للدولة، حيث يطلّ من أبراج تلك الدبابات والمصفحات جنود بلباسهم الميداني الكامل وبأسلحتهم الرشاشة الثقيلة.

إضافة إلى جنود آخرين يحتلّون مبنى الإذاعة بشارع النصر، وبالعديد من مفارق الطرق الحساسة».

ثمّ جاء في كتابه أيضاً في الصفحة ٥٥ ـ ٥٦:

«وقد كانت طريقة الانقلاب هادئة جدّاً، حيث توجّهت قوّة من الشرطة العسكرية إلى قصر الرئاسة وقرأت على رئيس الجمهورية شكري القوّتلي أمراً موقّعاً من رئيس الأركان حسني الزعيم جاء فيه (إنّ الجيش قد تسلّم مؤقتاً مقاليد الأمور). وعليه فإنّ الرئيس شكري القوّتلي بدأ من تلك اللحظة في حكم المعتقل. ويبدو أنّه وبسبب المفاجأة أحس بآلام في المعدة ممّا جعلهم ينقلونه فوراً إلى المشفى العسكري للعلاج.

أمّا رئيس وزرائه خالد العظم فقد تمّ إيقاظه من نومه ونُقل معتقلاً إلى جوار زميله شكري القوّتلي. ثم تمّ اعتقال محافظ دمشق والمدير العام للشرطة إضافة لرئيس صحيفة الإنشاء وجيه الحفار».

ثمّ نعرج إلى ما كتب راشد الكيلاني في كتابه (مذكرات وأحداث) الطبعة الثانية ١٩٩٧، ص ١٥٥ ونورده حرفياً:

«حدوث استياء شعبي:

كان الاستياء قد أصبح عاماً، بين مختلف فئات الشعب، من أوضاع الحكم وتصرفاته. وقد غذّى هذا الاستياء تعديل المادة (٦٨) من الدستور، من قبل مجلس النواب، لكي تتم إعادة انتخاب رئيس الجمهورية شكري القوتلي، مدّة خمس سنوات أخرى، وجرى ذلك بتاريخ ١٨ / ٥ / ١٩٤٨، أي بعد ثلاثة أيام من بدء الحرب، وفي نفس الوقت، كثر اللغط عن الاتجار بإجازات الاستيراد، وعن الإثراء غير المشروع، اللذين تقوم به حاشية السياسيين، وعن الفوضى وسوء الإدارة في دوائر الدولة. وامتد هذا الاستياء إلى صفوف ضباط الجيش، الذين اتهموا زعماءهم السياسيين بإهمال الجيش إهمالاً إجرامياً، وأنّه كان من الممكن الحصول على مزيد من السلاح والعتاد، قبل إعلان الحرب من أي مصدر، وخاصة من الفرنسيين، الذين عرضوا بيع الجيش، كل ما تحتويه مستودعاتهم، من سلاح وعتاد،

قبل رحيلهم عام ١٩٤٦. لكن السياسيين رفضوا هذا العرض، كما سرّحوا الكثيرين من رجال الجيش المدربين، بحجة أنهم كانوا موالين للفرنسيين. لذا فقد ذهب الجيش إلى فلسطين وزُج في حرب قاسية، بسلاح قديم وضئيل، وبعتاد قليل، بما لا يتجاوز بضع مئات من الطلقات لكل سلاح».

ويصف راشد الكيلاني في الصفحة ١٥٨ من نفس الكتاب فرح الشعب السوري عند طرد المسؤولين عن ضياع فلسطين :

«أمّا الشعب فقد ابتهج، عند سماعه بنبأ حدوث الانقلاب، وأفرحه ذهاب السياسيين، الذين أضاعوا فلسطين، والذين أوصلوا البلد إلى حافة الفوضى وعدم الاستقرار. وقد قيل إن الزعيم الذي كان خائفاً من نقمة الشعب عليه، أمر بأن يطاف برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، في شوارع العاصمة، بسيارة مغطاة، ليشاهدا بأم عينهما، ابتهاج الشعب بزوال حكمهما، وكيف أن هذا الشعب قد خرج إلى شوارع العاصمة، يرقص ويهزج بهذه المناسبة وكيف ملأت صور قائد الانقلاب الصحف».

الطواف بالقوتلي والعظم في شوارع دمشق بين المظاهرات
القائمة عليهما ليريا فرحة الشعب السوري بطردهما

الأيام

نقل القوتلي والعظم الى تدمر تعيينات المحافظين والغاء المراقبة عن الصحف وتمديد التجول

رسالة ملكية

الى حسني الزعيم

بريطانيا وامريكا تعتبران الانقلاب السوري حدثاً داخلياً

اجتماع بالشرق سفراء ... الى دمشق حيث قابل الزعيم فيها

وزير ... كا قابل الزعيم امس اطلاق سراح بعض الموقوفين

تعيين محافظ لدمشق والبرازي لحلب والعنبري لحمص

الغاء المراقبة عن الصحف وتمديد منع التجول حتى الساعة العاشرة مساء اليوم

تسمية حسن جبارة مستشاراً لوزارتي المالية والاقتصاد

ممثلو الدول العربية اجتمعوا الى لجنة التوفيق ظهر اليوم

القوتلي والعظم شاهدا امس المظاهرات بشوارع دمشق

ثم نقلا من المزة الى تدمر على احدى طائرات الجيش السوري

تأليف لجنة دستورية لوضع مشروع دستور للبلاد

مع كتاب الاسباب الموجبة الموجه الى دولة السيد فارس الخوري

القوتلي والعظم شاهدا امس المظاهرات بشوارع دمشق

ثم نقلا من المزة الى تدمر على احدى طائرات الجيش السوري

علم مندوب «الايام» ان السلطة العسكرية نقلت امس من المستشفى العسكري في المزة كلا من السيدين شكري القوتلي رئيس الجمهورية وخالد العظم رئيس الوزارة المستقيل الى تدمر بطائرة عسكرية.

وقد جيء بهما الى دمشق قبل نقلهما الى تدمر بسيارة مصفحة مغلقة طافت بهما شوارع العاصمة الرئيسية فشاهدا فيها مظاهرات الاهلين التي خرجت من المسجد الاموي وطافت بالشوارع الرئيسية مؤيدة الانقلاب الذي قام به الجيش.

تأليف لجنة دستورية لوضع مشروع دستور للبلاد

مع كتاب الاسباب الموجبة الموجه الى دولة السيد ...

ثم نمرّ بطريقنا على ما كتب الدكتور نزار الكيالي في كتابه (دراسة في تاريخ سورية السياسي المعاصر، ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠) دار طلاس، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ٣١٩ ـ ٣٢١ ـ ٣٢٢:

«إن الخطأ الكبير الذي ارتكبته الحكومات العربية هو الاستخفاف بقدرة القوات الإسرائيلية على الصمود أمام القوات العربية التي صدرت إليها الأوامر بدخول فلسطين في عام ١٩٤٨ لإنقاذ سكانها العرب من المجازر الوحشية التي ارتكبتها العصابات الفلسطينية[1] المسلحة لإرغامهم على النزوح عن بيوتهم وممتلكاتهم واللجوء إلى البلاد العربية المجاورة. وهذا ليس مجرد خطأ بسيط في التقدير، بل أنه جريمة كبرى .... ولمّا انتهى تدخل الجيوش العربية النظامية إلى الفشل الذريع، حدثت هزة عنيفة في مختلف العواصم العربية، الأمر الذي أدى إلى خلخلة أنظمة الحكم القائمة فيها، وبخاصة دمشق، حيث أقفلت المدينة أسواقها، وأغلقت المدارس أبوابها، وغمّت مشاعر النقمة وخيبة الأمل قلوب جميع أبناء الشعب، وخرج آلاف المتظاهرين في مختلف المدن والقرى يطالبون بسقوط شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية، واعتبار الحكومة مسؤولة عن الهزيمة التي لحقت بالقوات السورية في فلسطين.

... ولعلّ هذا التقصير في الاستعداد للمعركة يعتبر أكبر من جريمة».

أمّا خالد العظم رئيس وزراء القوتلي آنذاك فقد كتب في مذكراته عن دور القوتلي بخسران الحرب مع اسرائيل ما يلي:

«كان الجيش بكثرة ضبّاطه كباراً وصغاراً، يعتبرون القوتلي مسؤولاً عن حرب فلسطين والفشل الذي أصاب الجيش السوري، وأحد المسؤولين من ملوك العرب ورؤسائهم، عمّا آلت إليه تلك القضيّة وما أصاب سكان فلسطين من تشريد وتقتيل».

المصدر: مذكرات خالد العظم، المجلد الثاني، الدار المتحدة للنشر، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٣ ص ٤٤٨.

---

(١) خطأ مطبعي فالواضح أنها العصابات الصهيونية..

صدور المرسوم بحل المجلس النيابي وتأليف لجنة لوضع دستور وقانون انتخاب جديدين

الف باء

متى تؤلف اللجنة الدستورية؟

حل مجلس النواب السوري

كتاب الزعيم الى الرئيس فارس الخوري افندي

المظاهرات في دمشق والمدن السورية

فشل النواب في تأليف الوزارة الدستورية

المظاهرات في دمشق والمدن السورية

خطباء المساجد يؤيدون الانقلاب في خطبهم

قال مندوب «الف باء» الخاص:

القى الخطباء في مساجد دمشق والبلاد السورية عامة يوم امس (الجمعة) ولاسيما في مسجد بني امية خطباً بتأييد الانقلاب والثناء على الجيش السوري الباسل وتمجيد مواقفه، وتحبيذ اعماله.

ـه التل في دمشق

قدم لمقابلة الزعيم

الجيش والقوى المسلحة الزعيم حسني الزعيم في مكتبه مقابلة غير قصيرة ثم عاد الى فندق اوريان بالاس

والمفهوم ان جلالة الملك عبد الله اوفده بمهمة خاصة الى مقابلة القائد العام وانه تحدث اليه، وسيغادر صباح اليوم متجهاً الى عمان

وخرج المصلون بمظاهرات هاتفين للزعيم، والجيش، والسورية الحرة المستقلة.

و[illegible] الجيش على مراكبهم مهللين مكبرين كما خرج طلاب المعاهد العلمية، ولاسيما طلاب المدرسة البطريركية الكاثوليكية والمدرسة الارثوذكسية واللاييك فطافوا شوارع دمشق وامروا امام وزارة الدفاع الوطني هاتفين لحياة الزعيم والجيش السوري الباسل.

وقد القى فريق من الطلاب خطباً وطنية مجدوا الجيش وزعيمه بحركتهم [illegible] والبلاد بعهدها الجديد.

ووردت الانباء من مختلف المدن السورية تحمل انباء المظاهرات التي قامت بها تأييداً للجيش والزعيم.

القسم الثاني

قيام الدعوة

استعراض

الأحزاب التقدمية في سورية

كان للأفكار العالمية التي هزت العالم وساهمت في تغييره في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتي سببتها الثورة الصناعية. كالأفكار الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وأيضاً التعاونية والنازية وغيرها، والتي يتجلى بها صراع الطبقات على أشده بين الطبقة الأرستقراطية مالكة الأرض وصديقة الكنيسة ـ التي كانت قد أعطتهم دماً إلهياً أزرق ـ وبين الصناعيين (برجوازيين) الذين أخذوا الحكم من الارستقراطيين غصباً، كان لها صدى في البلدان النامية أو المتأخرة التي بدأت تظهر فيها حركات النمو.

وكان لسورية نصيب من هذا الصدى كقيام الحزب الشيوعي السوري، وحزب البعث العربي الذي أسسه ميشيل عفلق الذي أكمل دراسته خارج القطر، وصلاح الدين البيطار، والحزب الاشتراكي برئاسة أكرم الحوراني ـ في بدايته كان يُدعى حزب الشباب ـ وحزب القوميين السوريين ـ تغير اسمه فيما بعد ليصبح الحزب السوري القومي الاجتماعي ـ الذي أسسه أنطون سعادة وهو من لبنان.

وكانت هذه الأحزاب في مبادئها تتقاسمها النظريات الشيوعية والديمقراطية والنازية كحزب القوميين السوريين فقد كانت أفكاره في بدايتها قريبةً من النازية.

أمّا البعث والحزب الاشتراكي ـ اللذان اتّحدا في حزب واحد قُبيل الأيام التي نكتب عنها ـ فهو يؤمن بالأمة العربية عوضاً عن العرق السوري. أمّا اشتراكيته فقد كانت في بدايتها أقرب إلى التعاونية منها إلى الاشتراكية. وازدادت اشتراكية البعث تشبّهاً بالشيوعية على مرور الأيام ولكنه لم يصل تماماً إلى امتلاك الدولة لكلّ الممتلكات. وقد اشتركت جميع الأحزاب برفض الطبقية العائلية. هذه العائلية التي كان يقدسها ويحميها زعماء الكتلة الوطنية الذين رجعوا بصورة حزبين بعد الاستقلال: الحزب الوطني وحزب الشعب.

وككلّ حزبٍ سياسيٍّ كان أصحاب ومؤسسو الأحزاب التقدّمية يطمحون للوصول إلى الحكم، فهم في صراع دائم مع الحزب الوطني وحزب الشعب. وقد أسموهما بعملاء الاستعمار وأذنابه والرجعيين. وقد نشأت فيما بعد أحزاب تقدّمية عربية كثيرة، وقد نال حزب البعث مركز الصدارة بين هذه الأحزاب جميعاً.

انتسب بعض زعماء الأقليات إلى الحزب الوطني وحزب الشعب بعيد الانتداب

الفرنسي، وظلّوا على انتسابهم لهذين الحزبين حتى فنيا في أواخر الخمسينات أمام الموجة التقدّميّة الاشتراكيّة بقيادة عبد الناصر والتي هزّت العالم العربي آنذاك. وتقاسم العامّة من الأقلّيّات من غير الزعماء حزبُ البعث العربي وحزبُ القوميّين السوريّين، وهذا لكونهم فقراء.

فرنسا وبريطانيا تتجاذبان سورية

شاءت فرنسا أن تستأثر بسورية لنفسها بعد الاستقلال. فبدأت بالانقلابات العسكريّة مستعينةً بضبّاطها السوريّين الذين كانوا في الجيش الفرنسي مستغلّةً خسران الحرب مع إسرائيل الذي خطّطت له إنكلترا وبمعونة فرنسا، وساعدت الزعيم[1] حسني الزعيم كي يطرد القوتلي ورفاقه، ولكنّ بريطانيا لم تقف مكتوفة اليدين من هذا التصرّف فقد مدّت يدها إلى الجيش ثانيةً وساعدت سامي الحناوي في التغلّب على الزعيم وإعدامه بعد مدّةٍ قصيرةٍ من انقلابه، فإنكلترا دائماً دمويّة في تعاملها في مستعمراتها على عكس ما تنادي به داخل بلادها. ويشهد التاريخ العالمي بصحّة قولنا هذا في كلّ أسطره. فالحناوي إنكليزيُّ السند كحزب الشعب الذي تمحور قيادته من رجالات الكتلة الوطنيّة في السلطة، فأصبح هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنيّة رئيساً للجمهوريّة بقوّة الحناوي أمّا الحكم الحقيقي فبقي للجيش.

أصبحت الكرة الآن في مرمى فرنسا فعمدت إلى إحداث انقلابٍ جديدٍ مستندةً على أبنائها الخلّص في الجيش السوري كالعميد فوزي سلو والعقيد أديب الشيشكلي، وما لبث هذا الأخير حتى أقال سلو وأعلن نفسه رئيساً للجمهوريّة في انتخاباتٍ صوريّةٍ مضحكةٍ وأصبح طاغية سورية الشهير، وطفل فرنسا المدلّل، وعندما طرده أحرار سورية إلى لبنان ذهب بعدها إلى فرنسا حيث استقبلته فرنسا كرئيسٍ وليس كلاجئٍ سياسي.

وبقيت هاتان الدولتان تتناحران على سورية حتى غلبتهما روسيا (الاتحاد السوفياتي سابقاً) في المنطقة وذلك عندما اشترت مصر وسورية السلاح من المنظومة الشيوعيّة في منتصف الخمسينات، ذلك تمّ بعد إعطاء الضوء الأخضر من أميركا، فأميركا كانت تتّفق مع الاتّحاد السوفيتي على كلّ عمل من هذا النوع لأهمّيته رغم ما كان قائماً بينهما من حرب باردة.

---

(١) كلمة الزعيم الأولى تعني رتبة عسكريّة تلك الأيّام أمّا الزعيم الثانية فكنيته.

بُعيد الإعدام

مما حدّثني به شقيقي عن مرحلة ما بعد الإعدام:

«انكفأ القوم على أنفسهم بعد غياب زعيمهم، وتسمّروا على يوم غيابه يتعرّضون بأنفسهم وأموالهم للاعتداء من كلّ صوب.

كانوا قوماً مشتّتين في المنافي والسجون، تلاحقهم الأوامر التعسّفيّة فيها جميعاً، فأصبحوا وبتأييدٍ من الحكومة مطمعاً للآخرين، فغدا كلُّ دركيٍّ يتصرّف وكأنّه سلطان، وكلّ موظّف مهما قلّ شأنه من مأمور الأحراج إلى مراسل الريجي وكأنّه سلطةٌ قائمة بذاتها، ووشاية الواشي تُعتبر عند السلطة صدقاً منزّلاً لا مجال للاعتراض عليه أو نكرانه، وأحكام المحاكم جائرة ومتحيّزة. ضغط شرّير مُركّز لقتل كلّ عزيمةٍ للنفوس، ومحوِ كلّ أثرٍ للشموخ بأنفس مَن كانوا على قلّتهم ولأيام خَلَتْ مضرب المثل بالعزّة والمنعة، فتراخت النفوس، واضمحلّت العزائم، وغدا تملّق الوُشاة والسلطة عُرْفَ ذكاء، وكلمة (المهمّ انْفُد بريشي)[1] ضمير حكمة العقول.

اسودّت الأيام، وتباطأت الساعات، ومشت الدقائق واهيةً حزينةً، الكرامة مداسة والحقوق مهضومة، وتهمة (هذا من جماعة سلمان) إدانة، وعدم نكرانها جريمة، فلم يتبقَّ من مواقف العزّة إلّا شعلةٌ خافتةٌ في قلوب البعض لا تسترسل بأعماله، بل ذكرى لنفسه لا يُفاتح فيها إلّا مَن استوثق منه.

وفي دير الزور حيث أُبعد ساجي وأُلحق به مجيب ومَن معه بعد أن بُرّئت ساحتهم من فرية القتل. كانت سموم الدعاية قد صوّرت جماعة سلمان وحوشاً كاسرة. ولكنّهم فوجئوا برؤية مجيب فتىً أنيقاً ذا جمالٍ أخّاذٍ، لطيف المعاشرة لذيذها، وبساجي فتىً مرحاً وديع النفس، وبجماعتهم رجالاً بُسطاء عاديّين. وانقشعت سموم الدعاية. ولم يطل الأمر ببعض عائلات دير الزور حتى ابتدأت تتعازمهم إلى بيوتها وتعاملهم باحترام.

---

(١) هذه الكلمة تعطي بالكلام المحكي معنى أنّ وجدان الواحد أصبح أن يخلّص نفسه من غضب الحكومة مهما فعل في سبيل ذلك.



نجيب
في دير الزور
ومعه اخوته
ساجي ومرشد
ونجيبة
ونور المضيء

أمّا في دمشق حيث كان محمد الفاتح مسجوناً، فقد ابتدأ بعض أبناء العشيرة من (القبالى) يتوافدون إلى زيارته أسبوعيّاً يُقدّمون له وللمسجونين معه العون المادّيّ. لم تكن الأحوال عند (القبالى)[1] كما هي في محافظة اللاذقيّة. فلم يكن عندهم آنذاك طبقة من الوشاة، ولا الحكومة كانت تهتمّ لهم كثيراً. وكان لِما تتركه معونة آل سلمان في قلوب الزائرين من رغد الشعور بالانتماء الصحيح أثره في النفوس تتقاوى شيئاً فشيئاً، وعدد الزائرين يتزايد أسبوعاً بعد أسبوع، حتى أصبح تقاطراً، وحتى ابتدأ أفرادٌ قلائل من الشمالى بالزيارة سرّاً. يُشيع واحدهم أنّه نازل إلى اللاذقيّة ومن هناك يركب البوسطة سرّاً إلى دمشق ليزور فاتح.

(١) تقسم عشيرة بني غسان إلى قسمين في التسمية (شمالي) و(قبالي). أمّا (الشمالي) فهم الذين يسكنون في محافظة اللاذقيّة والغاب. و(القبالي) الذين يسكنون في محافظة حمص ومنطقة مصياف وفي قرى حول دمشق وقرى على الحدود قبل أن يُهاجر سكّانها أثناء حرب ١٩٦٧ مثل قرية زعورا والغجر..

كان قد حُكِم على مجيب بخمس سنين من النفي قطعها بعد حوالى السنة والتحق بالمدرسة في بيروت دون إذن السلطات. ومن قبلها كانت المظاهرات التي عمّت البلاد قد أسقطت المرسوم - ٥١ - الذي يخوّل الحكومة حقّ إبعاد المواطنين والذي بموجبه نُفي ساجي ومَن معه إلى بقاع الفرات والجزيرة المختلفة. وكان أوّل شيءٍ فعله ساجي بعد عودته من المنفى أنّه قَبِلَ أن يُضحّي بدراسته ويعود إلى العشيرة.

كان عمره قرابة ستّة عشر عاماً، وكانت عودته أمراً طبيعياً، فهو الآن رجل البيت الذي لم تطله أحكام السجن من المجلس العدلي. وكانت له حجّةٌ شرعيّةٌ للاتّصال بالناس وهي تحصيل المواسم الزراعيّة وقد قبلت السلطة بها، ولكنّها أتبعت سائر تحرّكاته وإقامته بمراقبةٍ مشدّدةٍ تُرفع تقاريرها إلى دوائر الحكومة في اللاذقيّة ودمشق.



ساجي في دير الزور
ومعه أخوه الصغير نور المضيء

عاد ساجي بعد النفي لا إلى مناخ العزّ في الجوبة والجبل، ذلك المناخ الذي رَبِيَ فيه وانطبعت صورته بنفسه، بل إلى جوٍّ خانقٍ من الضغط والإرهاب، خيّم ضبابه على الجبل فما في الناس إلّا الخائف الحذر أو المستسلم الخانع. عاد إلى تجرّع كؤوس الألم لِما يراه من ذلّةٍ في عشيرة بني غسّان، ومن ميزاتٍ لسواهم. فقد احتكر الوشاة والأعداء سائر الميزات المعاشيّة في الجبل من مخاتير ووظائف مدنيّة، وكانوا الوحيدين الذين تعترف السلطة بحقوقهم كمواطنين، بينما الغسّانيون يتعرّضون للخسائر المادّيّة الفادحة، والضرب الشديد عند كلّ وشايةٍ يفتريها أولئك عليهم.

عاد ليتجرّع كؤوس المرارة، وليصارع خانوق الشعور بالعجز أمام الضبوط والمخالفات وشتّى أصناف الطغيان التي ينزلها رجال السلطة من دركٍ وسواهم بجماعة سلمان، وفق الأوامر التي تأتيهم. وكان مفروضاً على كلّ دركي أن يكتب عدداً معيّناً من الضبوط شهريّاً، وإلاّ تعرّض للّوم والنقل، وبالوشاة أن يقدّموا افتراءاتٍ دائمةً، وإلاّ فقدوا

ميزة خدّام السلطة. مّا اضطرّ الكثير من جماعة سلمان إلى تقديم الرشاوى إلى هذه الطغمة لمجرّد اتّقاء شرّها. مرارة زاد من مرّتها أنّ بعض حوادث الضرب والفلق كانت تجري في حارة بيت سلمان نفسها حيث تمركزت قيادة الفصيل محتلّةً نصف الحارة والطابق الأرضي من البناية تاركةً الطابق العُلوي والنصف الثاني من الحارة للعائلة. ولكنّ ساجي كان ينطوي على شعور العزّة بسلمان، وشعور المحبّة لأتباع سلمان، مّا جعله يقدم ولا يبالي بالأمر الواقع.

أقدم (وبشعور الحَدَث الممتلئ بالعناد) ولم يبالِ أنّ وجوده في الجوبة ضاعف نشاط الأعداء، ونقل تركيزهم على أفراد العشيرة إلى التركيز عليه شخصيّاً في وشاياتهم، وأنّه صار لهم على كثرتهم من مجرّد وجوده في الجبل الهدف الذي يفتقدونه في تقاريرهم وأنّ الحملة بمجملها رُكِّزت عليه. فكلّ الوشايات والافتراءات بعد عودته ذُكِر فيها اسمه يعزون له فيها كلّ ما تتفتّق عنه أذهانهم من زيف الافتراءات ومكر الاتّهامات الباطلة.

استنفر المعادون الوشاة في قرى العشيرة لمتابعة تصرّفات ساجي، فابتدعوا الافتراءات اليوميّة عن أقواله وأعماله في قرى جماعة سلمان وذهابهم إليه. وكان بعضهم يحضر مجالسه مثل وشاة الجوبة. هؤلاء كانوا كثيري التردّد على منزله يبدون له الاحترام، وإن نقلوا للسلطة كلّ ما يدور عنده، وكانوا يقبلون مزاحه الذي لا يُراعي منهم أحداً، ويتبارون فيما بينهم بالسخرية من أنفسهم أمامه، في حين كان كثيرٌ من جماعة أبيه يلتفت جانباً إذا مرّ ساجي بهم في القرى. وإذا أبصروا به عن بعدٍ في المدينة تحاشوا ملاقاته وجهاً لوجه وغيّروا الرصيف. وفي جولاته على نواحي العشيرة سمع من بعضهم في إحدى القرى كلاماً غير لائق. واشتطّ بعضهم في قريةٍ غيرها بعد ذهابه منها فحفر التراب الذي جلس عليه (وكلّ ذلك خشية الوشاة). وأمّا في جهة الدراوسة ـ وهي عشيرة كمثل العمامرة وقراها بقرب قرى العمامرة والاثنتان من بني غسّان ـ التي تكاد تخلو من الوشاة، فقد لاقوه ملاقاة حسنة، ولمّا غادرها لحق به إلى الجوبة القائمقام ـ مدير المنطقة ـ وقائد الفصيل يحقّقان معه ومع رفاقه بماذا تكلّموا وماذا فعلوا؟.

ولم يكترث ساجي بتحوّل جماعة أبيه عنه، وبغيرها من المظاهر التي عادت إليهم مثل مظاهر الضعف التي استُبدلت بأعراف العزّة، ولم يعد معظمهم ينتظر وعد سلمان، ومَن انتظر لا أثر في تصرّفاته لانتظاره. كما لم يكترث بملاحقة السلطة والوشاة له، بل تابع جولاته في نواحي جماعته كلّما ارتفعت عنه الإقامة الجبريّة التي كانت تُفرض عليه وتُرفع بين الفينة والأخرى حسب تكاثر التقارير والمراجعات لرفعها، وسرعان ما صاروا يجتمعون إليه، وبعضهم كان يفضّل أن يأتيه في المدينة نظراً لبُعدها.

لم يكن جدّياً بمحاولة تحصيل المواسم وإن كانت هي حجّته في الجولات التي قام بها في بداية الأمر، وكان ما حصّله منها أقلّ من أن يُذكر ـ ولا المزارعون من جماعة سلمان وغيرهم كانوا مستعدّين لتقديم ما عليهم باستثناء الندرة منهم ـ ولا بملاحقة دعاوى الاعتراض على ملكيّة سلمان المقامة من منتهزي فرصة تحيّز المحاكم، أو من قبل مُتّقي شرّ الحكومة لإقامة هذه الدعاوى إلّا مسايرةً لرغبة باقي أفراد العائلة، وكان يتمنّى لو يُعفى من هذه المهمّة. حتى أنّه نصح بعضهم بالاستمرار في محاولة نقل الملكيّة إلى أسمائهم.

لم يكن حديثه مع مَن يجتمع بهم يدور حول المواسم والأراضي كما هو مظنون، لكنّها في غالبيّتها جلسات مرح ومزاح وبثّ عزيمةٍ. باستثناء بعض المرّات التي أقام فيها مجامع الصلاة للّه عن بداهة رغبةٍ ونشوة. لم يكن عند مَن تجرّؤوا على الاتّصال به إلّا أمورهم العاديّة يحدّثونه بها وكان يجيبهم عليها بما عُرِف عنه من جرأةٍ وصوابيّة رأي. وبعد فترةٍ وجيزةٍ ابتدأ بعض الرجال بزيارته في الجوبة ليلاً، وبوشايةٍ من بعض سكّان الحارة نفسها ابتدأ الدرك يكمنون للزوّار حيث يذيقون الذي يقع في أيديهم الضرب الأليم.

تناقل أفراد العشيرة الأحاديث عن ساجي وخاصّةً ما كان يؤكّده لهم من وعد سلمان بقرب ظهور القائم، وراقهم منه أنّه لم ينقطع عن الجولات عليهم برغم التدابير التي اتُّخِذت بحقّه من تحقيقٍ وإقاماتٍ إجباريّةٍ في اللاذقيّة أو دمشق، وكانت تذوب كلّها تلقائيّاً، وأُعجبوا بمواقفه وأعماله سواءً منها التي كان ينهي بها خصوماتهم ويُنهض هممهم لمجابهة الآخرين وخاصّةً المواقف القليلة التي دفعهم بها إلى تحدّي السلطة علناً كالانتخابات النيابيّة، والردّ على الدرك كلمةً بكلمةٍ وضرباً بضربٍ، هذه المواقف وبالرغم ممّا أعقبها من تزايد نكير الحكومة عليهم أثارت بهم حِسَّ الوجود وأعادت لقلوبهم التربة الصالحة لنموّ شجرة العزّة، رائين بساجي آيةً فقد كان سلمان يسمّيه (ختيار العشيرة) وهو مازال طفلاً يرضع. ذكرى كان لها العامل الأقوى بإلانة القلوب لساجي وإسلاس الرأي له.

كان لهذه المواقف، ولانتشار مجامع الصلاة بين صفوف العشيرة بعد المبادهة التي خرجت من ساجي، ولتزايد عدد الذين يزورون فاتح وما يلمسون منه من صبرٍ وهمّةٍ، وما يسمعون من حديث، أثره في تحسّسهم بأنفسهم وإذكاء الشعور بوجودهم، حتى أصبحت زيارة فاتح عند الكثيرين منهم نوعاً من العُرف والواجب. وصارت العشيرة تبرز بوحدتها في كلّ مناسبةٍ عامّةٍ يتحدّى رجالها الظلم ولا يبالون بموقف السلطة (وينكمش الوشاة فيها جميعاً ليدوا بحجمهم التافه مع كثرتهم وتشعّب صِلاتهم الرسميّة). فلمّا جاء الانقلاب الأوّل على شكري القوّتلي غصّت الساحة أمام السرايا بدمشق والشوارع القريبة منها بجماعة سلمان وبكثيرين من العلويّين أيضاً ليشكروا قائد الانقلاب لإعلانه بالإذاعة

والصحف العفو عن فاتح. ولكنّ الأعداء الرجعيّين الإقطاعيّين مازالوا به حتى عدل عن إعلانه الرسمي.

بعد الانقلاب الأوّل خفّت شراسة الاضطهاد على العشيرة واستمرّت على بيت سلمان في دوائر القضاء خاصّةً والملاحقات والإقامات الإجباريّة. فقد كان بعض رؤساء الانقلابات يسعى في البداية لاكتساب جماعة سلمان عن طريق ساجي أو يتّصلون بفاتح في السجن، ثمّ لا يلبثون أن تتغلّب عليهم مكائد الإقطاعيّين الذين استمرّوا مع تعدّد الانقلابات هم الطبقة المتنفّذة لأنّهم كانوا هم العائلات الإقطاعيّة والرأسماليّة الذين حاربوا سلمان، والذين استمرّوا يخشون انبعاث عنفوان زعامة سلمان ثانيةً في بنيه وعشيرته.

وابتدأت بعض الشخصيّات الحزبيّة والسياسيّة ولمصلحتهم الانتخابيّة يتظاهرون بالمصادقة، والبعض كان يطالب فاتح وساجي بالدعم الانتخابي على لسان حال (أنا معكم لأنّي لست ضدّكم).

استقام قوم سلمان وقد استعادوا شخصيّتهم شعباً ملتفّين حول بيت مؤسسه وكان أملهم متعلّقاً بفاتح. هو المرجع النهائي وجلّ احترامهم له، وإن كانت ثقتهم بساجي تامّة واستعدادهم للانصياع له كاملاً أو شبه كامل. وابتدأت جملةٌ من القرى تتعازم ساجي وتستقبله بالرقص والفرح غير آبهين بالدرك ووعيدهم. وعلى رأس المستقبلين مَن كانوا من أعداء سلمان أو من الوشاة المعروفين. وكثيراً ما نزل ساجي في ضيافتهم، كما ابتدأ البعض بزيارة الجوبة نهاراً عندما يكون ساجي فيها. ومع ما كانت الصبوة تعمر أفئدة الجميع صبوة إلى سلمان وأيّامه فقد بقي السرّ الذي صانه سلمان مصاناً عن الجميع فما من أحد كان يتوقّع أنّ القائم الذي سيقوم بالدعوة سيكون مجيب. كان تصوّر الجميع أنّ النهضة ستشرق من فاتح باعتباره الابن البكر.

استمرّ الوضع مقيتاً رغم الانفراج النسبيّ الذي حصل وخاصةً بعد الانقلاب على شكري القوّتلي. ففاتح مازال سجيناً، والعفو عنه أمرٌ غير قابلٍ للبحث، والعقليّة السائدة في دوائر الحكومة والسياسيّين أنّه رهينة يجب الإبقاء عليها لمنع جماعة سلمان من أيّ محاولةٍ للنهوض، والتشدّد في منع زيارته أو التراخي أو غضّ الطرف عنها يجري تبعاً لما تريد الحكومة من ممارسة ضغطٍ محدّد لأمرٍ سياسيٍّ معيّنٍ، أو تبعاً لسيل التقارير المنهمر على وزارة الداخليّة من طبقة المنتفعين من استضعاف العشيرة.

والنظرة النكراء وسياسة الضغط على جماعة سلمان وإن لم تَغْدُ سياسةً معتمدةً كأمرٍ نهائي إلّا أنّها استمرّت عرفاً وتقليداً تتوارثه الحكومات المتعاقبة عن بعضها، ويرثه الموظّف عن

سلفه. فالوشاة ما برحوا يلقون من السلطة تشجيعاً وأذناً صاغيةً، والتصرّفات اللئيمة والأليمة ما فتئت تبدر من حينٍ لحين من بعض رجال السلطة. ولا تجاوب مع شكوى المتضرّر من قِبَل رؤسائهم أو دوائر القضاء إلّا فيما ندر.

إلاّ أنّ التنفّس الحيوي البسيط الذي ابتدؤوا يمارسونه والآخذ في التعمّق بالنفوس أعطاهم دفعاً قويّاً حفظهم من الانهيار، وهيّأهم بلا وعيٍ منهم لِما يُراد بهم، ولِما ستأتيهم الأيّام به من واقعٍ جديد».

قُبَيل إعلان الدعوة

كان مجيب شاباً يلفت جماله الأنظار إليه حيث يكون، ودوداً لطيف المعشر، رَغِب بمصادقته مَن تعرّف عليه، بسّاماً محبّباً إلى القلوب، يعامل رفيقه معاملة أخوية صادقة. ولم يُسمع أنه تكبّر يوماً على أحد، أو قصد الإساءة إليه، ولم يكن يتصدّى للناس بشيء يزعجهم إلّا أن يقتضي الموقف قولة حقّ. فقد كانت الجرأة بالحقّ هي الطبع الذي عُرف به بين إخوته وجماعة أبيه ورفاق المدرسة.

كان يدرس في الجامعة الأميركيّة وحصل على الشهادة التوجيهية بعد أن كان قد اضطرّ إلى قطع دراسته عندما كان في السجن مع أبيه وأخوته ثمّ في النفي لأكثر من سنة أي قُطِعت دراسته سنتين ورجع إلى سورية وعمره إحدى وعشرون سنة وحوالى خمسة أشهر. والتحق بكليّة الحقوق سنة ١٩٥١ في دمشق.

أمّا رفاقه في المدرسة وفي الجامعة بعدها فكانوا كثيرين لا نذكر أنّنا صدفنا شخصاً عاشره أو جالسه إلّا وحدثنا عنه فكلّهم أحبّوا رفقته، وكثير من رفاقه في الجامعة الأميركيّة كانوا من بيت الأطرش من جبل العرب. وفي المنفى في دير الزور ما فتئوا يتعازمونه هو وساجي، وبعد أن فارقه ساجي وبقيّة العائلة ورجعوا إلى دمشق أشهراً ثمّ عادوا إلى ما أبقت لهم الحكومة من حارتهم في الجوبة أي نصفها، الطابق الأعلى من العمارة وبعض الغرف العربية ذوات القَلَد، بقي مجيب في دير الزور حوالى سنة هو وبعض الوجهاء المنفيين، وكم حدّثني رفيقه عيسى خضور (من الجوبة من رجال سلمان) عنه فقد كانت العائلات المعروفة في دير الزور تتعازمه وظلّوا يتكلمون عنه حتى بعد ثلاثين أو حتى أربعين سنة من ذلك، عندما جاؤوا إلى اللاذقية وتعرّف عليهم بعض المرشديّين.

حدّثنا عنه ساجي حديثاً حلواً عندما كان مجيب ما زال طالباً في مدرسة الجامعة الأميركيّة ولا أظنّ كان عمره يتجاوز اثنتي عشرة سنة إلّا قليلاً والحكاية رواها ساجي في اللّغة المحكيّة طبعاً وأصوغها في اللّغة الكتابيّة لأنني لا أظن أنّها ستكون مفهومة للكلّ في لهجتنا المحليّة يقول ساجي : مجيب كان قدوة منذ صغره، كنت مع مجيب في المدرسة في لبنان وقام الطلاب بمظاهرة وأنا وأمير كنّا معهم وما كانت سهلة علينا وقد طال بنا المطاف كثيراً، لكن مجيب لم يذهب معنا غير مبالٍ بنظرات الجميع. وعندما سألوه قال (ماني شايف سبب مقنع للتظاهر).



INTERNATIONAL COLLEGE
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Preparatory Section
Academic Year 1948 — 1949

Reg. No. 494 Date Oct. 7, 1948

This is to certify that Mujib Murshid

having duly registered is hereby admitted as a boarding student ~~day student~~

in the 4th Year Class

Director Cashier

هوية الكلية



American University of Beirut

International College

This is to certify that

Mujib Salman Murshid

has satisfactorily completed the studies of the Intermediate Section (Arts Programme) and is hereby granted the Intermediate Certificate of International College

Second Class

مجيب سلمان مرشد

الشهادة التوجيهية

الحديث الثاني : كنّا في المدرسة الداخليّة في لبنان وفرضوا علينا خبزاً من نوع رديء، وقرّر الطلاب أخذ النواشف من المطعم فقط وترك المواد المطبوخة والخبز، وبالتالي يؤدّي ذلك لخسارة ماديّة لإدارة المدرسة وتضطرّ لتغيير نوع الخبز. والجميع تقيّد بهذا الأمر إلّا مجيب فقد أخذ من المواد المطبوخة. إذاً مجيب في صغره كان لا يفعل أمراً إذا لم يقتنع به ولا ينساق مع أحد.

أوّل عودة مجيب إلى الجبل فاجأ زائريه في الحارة أنّه يقيم فيها مجامع صلاة إلى جانب بيوت الدرك. وكان معظم سكّان الحارة تقريباً من رجالٍ ونساءٍ مخبرين عند السلطة. ازداد إقبال الوافدين لزيارته لحضور هذه المجامع التي اجتذبت قلوبهم، وكان يتلو فيها تسابيح جميلةً للّه تنتشي بها أرواحهم. كان عمره عند قيام الدعوة إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهر تقريباً. وكانت سنة ١٩٥١ سنة الخير للجميع. فقد عمّت جودة المواسم فيها سائر النواحي في كلّ البلاد.

من صور مجيب في الجامعة قبل إعلان الدعوة





صورتان أُخذتا له في الجامعة الأميركيّة في لبنان بين رفاقه وللأسف اقتطع مَن كانت عنده الصورتان رفاق مجيب منهما



مع رفاقه وأحد اخوته في الجامعة الأميركيّة في بيروت



صورة له في برمّانا في ١٩٤٨/٦/٣٠



هذه الصورة أظنّ أُخذت في برمّانا



صورة له مع أحد معارفه في شوارع بيروت

موجز عن الدعوة

أجاب ساجي المرشد معلّم المرشدين كاتباً غربياً:

سؤال موجّه إلى ساجي من الكاتب : أرجو أن تشرح لي الأحداث التي أحاطت بدعوة مجيب وكيف قُتِل؟.

أجاب ساجي : «كان عمر مجيب عندما نهض بدعوته ٢١ سنة. وقد نهض بها تحت ظروفٍ مريرةٍ وصعبة. فقد كان الدرك يحتلّون نصف بيتنا في الجوبة، والنصف الآخر تقطنه العائلة. وكانت الحكومة المحلّيّة والحكومة المركزيّة لا تزال تمارس الضغط الشديد على جماعة سلمان. كما كانت قد نشأت طبقة من المخبرين والموظّفين المستفيدين من هذا الضغط والتي تغذّي الحكومة بتقارير كاذبة بقصد استمرار هذا الوضع. حتّى ساد القرى جوٌّ من الخوف والرهبة، دفع بالكثيرين من جماعة سلمان إلى الانكفاء على أنفسهم، ودفع قسماً منهم إلى المراءاة والمداهنة لينقذوا أنفسهم من براثن هذه الفئة. وبقي قسمٌ معروف بولائه لسلمان ولكنّه لا يتجرّأ على القيام بأيّة حركة.



صورة له بعد إعلان الدعوة (استديو)

في هذا الجو المليء بالرهبة والخوف، والمشحون بالحذر، نهض مجيب بدعوته. وقد نهض بها معتمداً على نفسه فقط. فقد فاجأ الجميع (إخوته والموالون والأعداء) بإقامة مجامع صلاة في القرى التي يزورها، ومجامع مع الذين يزورونه سرّاً في البيت بالجوبة أو في اللاذقيّة، وكانت خطبه بهذه المجامع كلّها تسبيحاً للّه. وكان يوجّه بحديثه بعد المجامع إلى الأخلاق الحميدة والسلوك الطاهر. وكان لما يراه الحاضرون من أفعاله أثناء المجمع وبعده، ولما يسمعونه من قوله أثرٌ كبيرٌ بالنفوس، بحيث كان يبادر من حضر المجمع أو حضر جلسةً مع مجيب إلى إبلاغ أصدقائه بما رأى وسمع، وقد استمرّ الوضع كذلك حوالى شهر.

أعلن بعدها عن قيام دعوته جهراً، وابتدأ يملي أحياناً على من يكون حاضراً عنده صلواتٍ وتسابيح وأشعاراً مليئةً بالمعرفة الجديدة عن الله والسمو بمعرفته، وأخذ المؤمنون به يزدادون. وقد عارضه في بادئ الأمر جميع إخوته بما فيهم أنا معارضةً شديدة. أمّا أسباب المعارضة فالبعض من إخوته والموالين عارضوا لأنّهم لم يكونوا قد آمنوا به بعد (أي ابتدؤوا بمعارضته منذ سمعوا بالدعوة قبل أن يروه ويستعلموا منه). والبعض الآخر عارضه خشية ردّ فعل الحكومة.

ولكنّه استمرّ بدعوته غير مبالٍ بمن يعارضه سواء أكان من عائلته أو من الموالين أو من الخصوم. حتّى آمن له أكثريّة (المرشديّين). ونفضوا عن أنفسهم ذلّة الخوف، ونهضوا بالسيرةالجديدة غير آبهين بما قد يتعرّضون له. حتّى أنّ البعض ممّن كانوا من المعادين لسلمان، والبعض من المخبرين تابوا إليه وآمنوا به، وجهروا بإيمانهم غير وجلين ممّا قد يصيبهم من جرّاء ذلك. وكان المخبرون والموظّفون المحلّيّون يرسلون سيلاً من التقارير بحقّه إلى دمشق.

وبعد حوالى الخمسة أشهر ونصف أُوقِف إقامةً إجباريّةً في دمشق استمرّت شهراً واحداً، قابل بعدها الشيشكلي (ديكتاتور سورية) بناءً على طلب الأخير، وأُفرِج عنه بعدها. فعاد إلى الجبل واستمرّ بدعوته وتعليمه حتّى كان الأوّل من تشرين أوّل، استُدعي إلى المحكمة بتهمة إثارة النعرات الطائفيّة، وأوقف في سجن الحفّة. وكان قصد السلطات من توقيفه هو إشاعة الذعر في صفوف أتباعه ليرتدّوا. ولكنّ المؤمنين توافدوا إلى الحفّة بالعشرات والمئات، غير مبالين بإنذار الشيشكلي من أنّه سيبادر إلى إفنائهم. ولمّا رأت السلطات أنّ لا جدوى من سجنه، أُفرِج عنه بعد خمسة أيّام. وقد زادت هذه الحادثة من قوّة المؤمنين وجرأتهم. خاصّةً بعد أن سمعوا أنّ مجيب جهر بدعوته بالمحكمة غير مبالٍ بنتائجها، وأنّ التهمة من أساسها كانت مؤامرةً مدبّرةً للإيقاع به.

استُدعي إلى دمشق بعد الإفراج عنه، وعاد في تشرين الثاني بعد أن قابله الشيشكلي، واعتذر عن توقيفه ملقياً اللّوم على الحكومة المحلّيّة، واعداً أنّه سيمنع هكذا تصرّفات في المستقبل.

وفي أواخر تشرين الثاني، وكان الشيشكلي يعتزم زيارة اللاذقيّة، بعد أن شكّل حزباً جديداً تزعّم فرعه في اللاذقيّة عائلات معادية[1]. وقد طلبوا من مجيب أن يشارك باستقبال

---

(١) إشارة إلى إقطاعيي اللاذقية الذين عادوا سلمان سابقاً.

الشيشكلي. وأن يكون استقبالاً شعبياً كبيراً. ووافق معهم بعد إلحاح من بعض إخوته (لأنهم كانوا وُعِدوا بالإفراج عن فاتح إن فعل). وقد تمّ الاستقبال. ويظهر أنّ هذا الاستقبال قد أرعب متنفّذي مدينة اللاذقيّة يوم ذاك كما لم يرُق للشيشكلي أن يرى علوياً[1] بهذه الشعبيّة. فكان أن تآمروا على اغتياله، وأرسلوا عبد الحقّ شحادة لتنفيذه. علماً أنّ مجيب لم يكن يهتمّ بالأمور السياسيّة، بل كانت إرادته منصبّة إلى تعليمنا وتوجيهنا إلى السموّ الروحاني واكتساب معرفة الله ورضوانه.

بعد أيام من الاستقبال وصل إلى الجوبة عبد الحقّ شحادة ومعه اثنان آخران وسأل عن مجيب. ولمّا علموا أنّه في منطقة الغاب ذهبوا وراءه، وكان مجيب في زيارة لقرية الصَيَر، وهي قرية صغيرة مؤلّفة من ثلاثٍ إلى أربع عائلات. ولمّا وصل شحادة إلى الصَيَر وكان قد اصطحب معه بعض رجال الدرك من مخفر شطحة سأل من فوره مَنْ مجيب؟ فقال له أنا. فما كان منه هو ومَنْ معه إلّا أن بدؤوا بإطلاق النار من رشاشاتٍ يحملونها. وقد قُتِل معه شخصان. أحدهما لمّا رأى ما فعلوه هاجمهم بعصاه، فأطلقوا عليه النار. والثاني كان واقفاً فأُصيب.

ويجدر بي بهذه المناسبة، أن أخبرك أنّ مجيب كان قد أخبر أتباعه من بدء دعوته أنّه سيُقتَل، وأنّ بقاءه بينهم هو أيّامٌ قليلة فقط. كما قد أخبر كثيرين ممّن كانوا في الاستقبال أنّه سيُقتَل بعد أقلّ من أسبوع.

فمجيب قام بالدعوة لنفسه، وقد فاجأ الجميع بدعوته، وقد عارضه فاتح وجميع إخوته في بادئ الأمر. وأنا نفسي لم أبايعه إلّا بعد مضيّ تسعة أشهر من قيام الدعوة، وقد آمنت به بعد أن سمعت ورأيت منه ما جعلني أصدّق وأومن بدعوته، وفاتح آمن به بعدي بشهور، ومن العائلة مَنْ لم يؤمن به إلّا بعد مقتله بسنين.

وأهمّ ما أحبّ أن ألفت نظرك إليه، هو أنّه لم يُطلَق علينا اسم مرشديّين إلّا بعد دعوة مجيب. وأنّ كلّ الأحداث السياسيّة، والصراعات الاجتماعيّة التي وقعت قبل دعوة مجيب لا تلقي الضوء على الحركة المرشديّة، ولا تجلو حقيقتها. لأنّنا بما نحن عليه الآن من واقع قائم، إنّما هو متأتٍّ عن المعرفة الجديدة السامية عن الله وحكمته بالخلق، وبالتالي من صفاء

(١) كانت النظرة العامّة في الناس يومها لم تزل أنّ المرشديين قسم من العلويين. ومن الصحيح أنّ الشيشكلي كان مستبداً أكثر مما كان طائفياً الاّ أنه ركّز ميوله الاستبدادية على إثارة الخوف من بعض الطوائف المعيّنة، ولذلك لم يرُق له أن يرى زعامة متفتحة وجاذبة لالتفاف الناس حولها بشكلٍ صادقٍ وطوعيّ ومندفع وملتزم مثل ما تمّ حول مجيب الشاب الذي لم يكن أتمّ سنواته الثلاث والعشرين والذي برزت شعبيته في الاستقبال وهو ما أثار حفيظة الشيشكلي وخوفه من أن تبرز أيّ زعامة يمكن أن تطغى على سمعة شعبيته المصطنعة والاستبدادية في سوريا كلّها.

النظرة إلى الخير والناس، ومنْ تَدَرّج بالسموّ الروحاني والخُلُقي، وبما نحن عليه من أعراف وعادات اجتماعيّة، إنّما بدؤنا من قيامة مجيب، لأنها كلّها مستقاة من هدايته».

ـ وأجابه إمامنا ساجي عن سؤاله عن الأعياد التي للمرشديّين : «لدينا عيد واحد هو عيد الفرح بالله الموافق ليوم إعلان مجيب للدعوة».

ـ وأجابه عن سؤال حول مكانته في المرشديّين : «يسمّونني الإمام والمعلّم. ولهم بقيادتي ثقةٌ تامّة». نقصد بكلمة الإمام قدوة ومثل.

تعريف

إنّ المعرفة الجديدة التي جاء بها مجيب جاءت على هيئة كلمات يلقيها بين المرشديّين وأحاديث يحدّثهم بها واستمرّ ساجي يعلّم هذه المعرفة الجديدة طيلة ستّة وأربعين عاماً، وأقام ندوات ثمّ نواديَ وبعدها مدرسةً طالت سنواتٍ وسنواتٍ، فنهل من هذه المعرفة الجدّ والابن والحفيد أي علّم المعلّم ثلاثة أجيالٍ.

مجيب وضع بنود المعرفة وساجي توسّع بها وشرحها بحيث لم يبقَ من لَبس على عين من أراد أن يعلم، فنور المعرفة جاء به مجيب وساجي أضاء بصر العقل والوجدان بهذا النور كما ملأ جيوب الفؤاد من هذه الحلوى الروحيّة بأشعارٍ تاقت حور السماء إلى الرقص على إيقاعها.

مجيب جاء بالمعرفة الجديدة وأشار للمرشديّين باتّباع ساجي وقال عنه الإمام وأنّه معلّم المعرفة الجديدة، وبعد غياب مجيب قام ساجي معلّماً وإماماً يقتدي به الذين أجابوا الدعوة الجديدة. ونتعرّف في هذا الكتاب على بعض كلمات هذه المعرفة وتطالعنا نظراتٌ مقتبسة منها.

من وصف جلسات التعليم

نقتبس من قول إمامنا ساجي ما يلي عن جلسات التعليم التي كان يقيمها مجيب:

«كانت هذه الجلسات غالباً ما تبدأ قرابة منتصف اللّيل، وتستمرّ أكثر الأحيان إلى الضّحى أو ما بعده. ولم تكن كلّها تعليماً وتفقيهاً، بل كان يتخلّلها أحاديث عن الأنبياء والصالحين من السّابقين. وكان يطلب منهم ألاّ يسلّموا معه إلاّ بعد الاقتناع، أي أن يناقشوه حتّى يقتنعوا. وكان البعض يناقشونه عن إرادة فَهم، وأحياناً عن نوعٍ من التّعنّت والغباوة. ولم يروه يغضب مرّةً واحدةً، بل كان يستمرّ بالشّرح والتفهيم حتّى يتفهّم المسائل.

وكان حديث مجيب يملؤهم بأحاسيس شتّى من الفرح والمسرّة. وكانت الغبطة والبهجة باديتين على وجوههم وعلى نمط حياتهم، وكانوا يحسّون ويشعرون بما يسمعون عنه من

عوالم سماوية[1] وأفعال غيبيّة يكادون يشعرون بوجودها بينهم. وكانوا يزدادون إيناساً لها يوماً فيوماً.

وكان يأخذهم شعور عميق بالتحزّب لكلّ أصحاب دعوة يتحدّث عنهم مجيب، بل كانوا يتلذّذون بها تلذذاً. كانوا على شعورٍ من العزّة بالإله، وكانوا سكارى بمحبّة الله تأخذهم العزّة بربّهم، وتزداد مداركهم وتتّسع كلّ يوم عن سابقه.

وكانت أحاديث مجيب تبعث فيهم شعوراً عميقاً بالتحزّب للحقّ عندما كان يتحدّث عن القُبب السّابقة ـ أي الدعوات السابقة ـ وكان يغمرهم الإحساس بمودّته للأولياء والمؤمنين وإعزازه لهم، ويشعرون بما يكنّه لهم من احترام وتقديرٍ. فقد كان مجيب يفتخر بالأنبياء السّابقين افتخاراً، ويوقّر كلّ مَنْ كان له تعبٌ في سبيل الله من قديم وحديث.

لم يكن هناك سلوك معيّن يتقيّدون به أثناء الجلسة، بل كانوا يجلسون معه بكلّ حرّيّة حتّى وهو يتكلّم، فيتّكئون على مرافقهم ويتمدّدون ويدخّنون ويشربون القهوة، وقد يكون هو جالساً على السرير أو على السّجّادة بينهم حسبما اتّفق وكان جالساً قبل بداية الجلسة.

وكان من عادته حين يتأمّم فيهم للصّلاة من حينٍ لحينٍ أنّه بعد أن يتوضّأ ـ وكان هو أوّل مَنْ يفعل ذلك ـ كان يستعير قضاضة أحد الحاضرين يتعمّم بها، ويقف منتظراً البقيّة إلى أن يفرغوا من الغسيل، ولم يروه يتبرّم من الانتظار إلّا مرّة أو مرّتين. مع أنّ بعضهم كان يُطيل من وضوئه وخاصّة الكهول منهم، وكان رفاقهم يتبرّمون من طولتهم، وكان مدى ما أظهر من ضيق لطولتهم أنّه قال : (هودي شو ميقروا؟). منبّهاً ومذكّراً لهم بهذا القول أن لا يقرؤوا إلّا ما يجب أن يقرؤوه عند الوضوء. لقد لمسوا منه في كلّ حين أنّه أوّل ما يفعل الأمر قبل أن يأمر به، ثمّ يأمر به بعد أن يفعله. فإذا سبق وأمر قبل أن يفعل، فَعَلَ ما أمَرَ به رأساً معطياً بذلك القدوة الصّحيحة من نفسه مباشرة.

كانت الغرفة التي يعلّم بها مجيب في الطابق الثاني والأخير من العمارة والغرفة كانت مفروشة بسجادة كبيرة وسرير (تخت) ينام فيه مجيب، ولم تكن الكهرباء قد وصلت إلى الجبل تلك الأيام فكانوا يستضيئون على ضوء القنديل.

لم يكن التّعليم مستمرّاً بلا انقطاع طيلة السهرة بل كان يتخلّله فترات تشبه الاستراحة

---

(١) السماء هنا ليست تلك الزرقة التي نراها بأعيننا ونسميها سماء بل سماء ما خلق الله أي ملكوت الله.

انفتحت الحياة على النساخ جبّار أمام أعين وبصائر من كانوا يحضرون جلسات التعليم عنده. فقد علموا أنّ هنالك سماوات تتلوها سماوات. وكل أحياء هذه السموات أعظم إدراكاً وأقدر فعلاً تصل إلى ما يتصور الإنسان عن القدرة الإلهية. ولو أردت الآن أن أسرد ما علّمني إمامنا عن هذا الأمر لأخذتني السعة إلى كتب كثيرة.

يتخلّلها بعض المزاح. ولكنّ المزاح لم يكن يتناول بحالٍ من الأحوال ما كان من أمور الدّين، وكان يحذّر منه كثيراً. وكان مجيب دائماً في أقواله وأشعاره وحديثه يحثّ على محبّة الإخوان لبعضهم البعض. وفهمنا منه أنّ الصلاة هي حقّ اللّه على الإنسان، ومَن لا يؤدّي الصّلاة يكون ناكراً لحقّ اللّه.

ومن قوله عن كونيّة الملائكة بمعنى: إذا ظهرت لا تحجب الأشياء، فإذا وقف ملاك أمامك ترى ما وراء الملاك من شخصٍ أو شيءٍ. فالملاك ليس من عالمنا فهو ليس من مركّبات الأرض مِثلنا لينعكس عليه الضوء كما ينعكس على الأشياء الأرضيّة ويدخل العيون لنتمكن من رؤيته. وإذ نراه أمامنا إنّما بإرادته نراه وكما أراد أن نراه، طبعاً هو يفعل بما وضع اللّه بقلبه من مشيئة، وفعله كامل. وكونية الملاك نورانيّة.

وأوصى تلاميذه أنّه إذا عنى لأحدهم سؤال في المعرفة الجديدة، فليأتِ إليه ويسأله هذا السؤال، ولو كان مجيب نائماً فليوقظه ليسأله. وأوصاهم بالتفكير والاستغراق بالعلم الجديد ساعةً من الزمن كلّ يوم. وأوصاهم أن لا يقبلوا معه بأمرٍ من أمور التعليم حتّى يقتنعوا به.

ومن حديثه عن الأنبياء، أنّ الملائكة يهيّئون النبيّ من أجداده، وكيف يقترن فلان من فلانة وهكذا حتّى يولد النبيّ، وتأتي أطباعه ونفسه وفق ما قضت حكمة اللّه لهذا النبي أن يكون.

ويذكّرنا هذا القول بما جاء في القرآن العظيم في خطاب الخالق إلى موسى في سورة (طه) من الآية ٣٩: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي». وبقوله تعالى يخاطب موسى في سورة (طه) أيضاً من الآية ٤١: «واصطنعتك لنفسي» فموسى صُنِعَ على عين اللّه فهو رسوله. قال مجيب عن النبي محمّد بن عبد اللّه أنّه سرّ الكمال فهو الذي علّمنا الإقرار للّه كيف نشهد بالقول للّه وما هو ملكوت اللّه ووصفه فصار صبوة في القلوب وهي المرّة الأولى التي تصف رسالة نبي ملكوت الإله، وعلّمنا النبي كيفية إجلال اللّه عن كلّ شيء. وعرّفنا باللّه بقوله عنه الرحمن الرحيم وهذه هي كلمة معرفة اللّه، وهي التي تُعرّف جوهرية أفعال الإله فالفعل بأساسه جاء من رحمان رحيم. وكثير من أشعاره كان يختمها بالصلاة على النبي محمّد.

لم يكن مجيب يعترف لأحدٍ ما بقيمةٍ معنويّةٍ أو بكرامةٍ شخصيّةٍ إن لم يكن من أهل المعرفة والإيمان، حتى ولا لأقرباء الأنبياء أنفسهم من أبناء وآباء أو بقيّة الأقارب، لم يكن لهم عنده أي اعتبار إن لم يؤمنوا باللّه ويتبعوا هدايته. وكان يعطي كرامةً شخصيّةً لكلّ مَن قام له عملٌ في خدمة الحقّ.

علّمنا مجيب أنّه لا ينال العَظَمة إلّا مَن استحقّها بجهده وعمله. وكان يُعطي أمثالاً على ذلك عن الأنبياء والمؤمنين في الأدوار السابقة. وكان الناس يحترمون أولاد سلمان ومشايخ العشيرة، ويقبّلون أياديهم ويسمّونهم بالأسياد سيّدنا فلان وسيّدنا فلان كباقي مشايخ القوم وأولاد زعماء العشائر ذلك الزمن، فرفض مجيب هذا الأمر، وأمر أن لا تقبيل أيادٍ لأي كائن من كان، ولا مخاطبة بالسيادة فسيّد المؤمن هو اللّه وليس أحداً غيره، ولا قيام لأحدٍ عند الدخول والخروج ـ إلّا في اللقاء الأوّل ـ فالأخوّة تتطلّب ذلك، جعلها كاملةً كعادته.

ثمّ أبطل الخمر والميسر ومنع الآثام، وقال: كلّ ما حرّمه القرآن فهو حرام، وهو لم يقسر أتباعَه على اتّباع السيرة الصالحة، بل جعلها نصيحةً. كان يفضّل المعرفة على كلّ شيء ويدعو لها، ويعتبرها الكنز الحقيقي. ولم يقبل مع المرشديّين أن يقسروا بناتهم على الاقتران بمن يحبون لهن أن يقترنّ به بل لكل فتاة أن تقترن بمن تحبّ.

وبيّن لهم أنّ مَن يؤجّر ابنته فقد قتلها، وكانت قد استشرت عادة تأجير البنات في كثيرٍ من قرى الساحل نظراً لفقرهم الشديد، يؤجروهن وهنّ قاصرات ليعمَلن كخادمات عند أغنياء المدينة. ومنذ ذلك الحين خلّصنا مجيب من مثل هذه العادات السيّئة. طبعاً هي لا تشمل المرأة الناضجة التي تعمل في بيت أو مطعم من تلقاء نفسها لأجل معيشتها.

من أمثال الحكمة

في قعدة عند مجيب كان الحديث عن الأمثال أو ما يسمّونه بالحِكَم، قال مجيب لأحد صحبته: أعطني مفكّرتك لأرى إن كنت أستطيع أن أقول حِكَماً. وكتب على صفحات مفكرة الرجل الصغيرة حِكَماً لعلّها كانت تربو على العشرين. وبعد مُضيّ إحدى عشرة سنة على غياب مجيب تحدّث هذا الرجل عن هذا الأمر، وقَلَّبْنا صفحات هذه المفكرة الصغيرة التي كان ما زال هذا الرجل يحتفظ بها وفتّشنا فيها عن خطّ مجيب ذلك الخطّ الذي كان يعرفه ساجي وفاتح تمام المعرفة فوجدنا هذه الكلمات. وأورد هنا بعضها:

- «أمثال الحكمة بيّنات الصدق».

إذاً الحِكَم هي أمثال من الحكمة تظهر بها حقيقة الفعل إن كان صاحبه صادقاً أم لا، ومن هذه الأمثال:

- «مكرمة الفرد في جمال المجموع».

هذا ميزان جمال كلّ مجتمع، فبقدر ما في المجتمع كرامة لكلّ فرد به بقدر ما يحوي هذا المجتمع من جمال، ومن ثمّ بقدر وعدد الأفراد المهانين في المجتمع وليس لهم كرامة به بقدر ما هو خالٍ من الجمال.

- «طيف الأحلام سرّ القلب».

هنا انكشف القلب وعُرفتْ ماهيّته فقلبك حبّك وسرورك، وسرّ قلبك هو طيف أحلامك (أي المراد) الذي تدور أمانيك حوله أي تتمنّاه.

ومنها أيضاً:

- «مصدر الحبّ حقيقة النفس».

حقيقة شعور الإنسان تدور في مدار ما يحبّ إنْ كنت تحبّ الرحمة فأنت رحيم إن كنت تحبّ العدل فأنت عادل بشعورك، إن كنت تحبّ المجرم دون قرابة أو صداقة فأنت في الحقيقة مجرم، إن كنت تكره الظلم بكلّ أشكاله فأنت حرّ.

- «لا تَلُمْ أيّامك بل لُمْ أحلامك».

هنا يظهر جليّاً أنّ أحلام الإنسان وأمانيه هي التي توصله إلى الشقاء وليس أيّامه، فهي

الأجدر باللّوم. طاهر الفؤاد والسريرة لا يصل إلى شقاء مهما حصل له من آلامٍ ومنغّصات. بل يبقى له استرواح يهبّ من الخالق الذي اتّبع هدايته.

- «مجهرة الحقّ مقبرة الباطل».

مجرّد أن تقول الصحيح تقبر الباطل.

- «مكرمة النّاس الأعمال».

الكرامة على الأعمال وليست للانتماءات العائليّة أو القوميّة أو أيّ شيء غيرها، فبقدر ما هو عملك خير أنت مكرّم حتى وإن لا يكرّمك كثيرٌ من الناس، ذلك أنّهم لا يفقهون معنى الكرامة بل يقيسونها على ميزان العائلية أو المال أو المنصب. الخ.

- «من أثّر على نفسه أثّر على العالم».

إذا فاحت منك رائحة أخلاقٍ صادقةٍ كريمة فهي حتماً ستؤثّر على من حولك، يحترم الناس صاحب الخلق الكريم وتؤثّر أخلاقه بهم، فهو أصبح بأخلاقه الكريمة دعوة إلى الفضيلة.

- «ميتٌ بلا شرّ خيرٌ من حيٍّ يضرّ».

هنا عرفنا ما هو الشر بالتحديد هو إلحاق الضرر بالآخرين أو بالنفس روحيّاً أم معنويّاً أم جسديّاً.

- «مَنْ أمر بالخير كان له، مَنْ أمر بالشّرّ كان به».

لو كان الإنسان على وعيٍ كبير لما ارتكب شراً أو حتى أمر به، لأنّ هذا الشرّ الذي أمر به سيرتدّ إليه شخصيّاً أو على أولاده أو أحبّائه. الخ، فهو بإيقاد الشرّ أشعل ناراً في مجتمعه لا يمكنه إطفاؤها، أمّا إذا أمر بالخير فقد شارك بأن يسود الخير في مجتمعه فهذا الخير الذي أراده وأمر به سيعود له.

- «القلب الفارغ مستعدّ للامتلاء بأيّ شيء» .

أدرك منها : القلب الذي يفرغ، دائماً يريد أن يمتلئ من جديد. من فرغ قلبه من الحبّ يجد قلبه مستعداً أن يتقبّل أي حبٌ آخر يُعرض عليه، فمَن فقد حبياً يفرغ فؤاده وكثيراً ما يحاول أن يملأه بحبٌ جديد، وكذلك الطفل تراه على استعدادٍ أن يأخذ كلّ سرور يُعرض عليه لأنّ قلبه لم يمتلئ بعد وهكذا اليافع والمراهق، هؤلاء تسابق إليهم الأحزاب السياسيّة كي يضمّوهم إليهم لأنهم أغرار يجدون سروراً بكلّ جديد يُعرَض عليهم.

ـ «مَنْ قام للعزّ أهلكه الحقّ».

أفهمها : أنّ من أراد الأبهة والعزّة لنفسه فقط، بات لا يطيق الحقّ ولا الإنصاف لأنّهما يعارضان مركزه بين الناس وهو بهذا الفعل سار على درب الهلاك لأنّ من الحقّ هلاكه فالحياة تلفظ كلّ الوضعاء وهو بات وضيعاً لا يستأهل حياة البقاء.

ـ «نداء الصّدق منجاة الوحي».

فإرادة الإله هي أن ينجو الناس، وينجو كلّ من يتّبع رسائله.

ـ «قرب الأجل شفاء العلل».

الموت رحمة من اللّه لأنه ليس فقط شفاء علل الجسد بل به شفاء علل النفس أيضاً وهذا الأهمّ، حيث يكرّر الإنسان في القمصان ناسياً كلّ ما حدث وما فعل في الجيل السابق ليعود كالورقة البيضاء ليُكتب عليها من جديد، أو يتخرّج إلى الملكوت حيث الحياة هي الحياة وحيث تعود الذاكرة من جديد.

ـ «مَنْ هبّ إلى اللّه هبّت إليه الصّعاب».

من قصد معرفة اللّه كما هو اللّه فقد قصد النقطة التي هي فوق إدراك العقول نستذكر القرآن الكريم سورة (الرعد) الآية ١٣ : «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ»، بل بقدرتنا أن ندرك ما أرادت حكمة اللّه في تسيرها لنا أن ندرك. ومن العجيب أنّ من يهبّ هذه الهبّة تقوم عليه الناس وتعترض طريقه كل المصاعب كما رأيناها حدثت مع الأنبياء على الصورة المكبّرة. نوح وهود وصالح وشعيب. وإبراهيم إذ يرمونه بالنار لأنّه هبّ إلى اللّه ونكر عباداتهم لأصنامهم، ويعقوب إذ فقد ابنه، ويوسف وما جرى له من محاربة إخوته له إلى اتّهامه باطلاً إلى سجنه ظلماً، وهكذا موسى سواء محاربة فرعون له أو محاربة جماعته له بعدها وكيف فضّلوا عبادة العجل على عبادة اللّه وكيف كانوا يقومون ضدّه على كلّ خير يقوم به، وهكذا كثيرٌ من الأنبياء نراهم كيف هبّت إليهم المصاعب. وأيوب غزت العلّة جسده ومات أولاده ولم يغيّر ما في فؤاده من إيمان باللّه سبع سنوات حتى وافاه اللّه وشفاه وعوّضه عمّا فاته حتى في هذه الدنيا. وكذلك أنبياء بني إسرائيل كيف كانوا يقتلونهم ويلاحقونهم لأنّهم أعلنوا عبادة اللّه أنّها هي الصحيحة وعبادة بعل هي الباطلة. وكذلك عيسى عندما هبّ إلى اللّه وأنكر على الكهنة سرقاتهم وشفى بقدرة اللّه وإيمانه به الميت والأعمى وكثيراً من العلل أرادوا رفعه على الصليب لينزف حتى الموت، وكذلك محمّد هبّت إليه كلّ قريش عندما هبّ إلى اللّه وأنكر عليهم أصنامهم.

هذه وضعتها على الصورة المكبّرة لأنّ الناس يعلمون ما جرى للأنبياء أكثر من غيرهم. أمّا

على الصورة المصغّرة فكلّ إنسان يهبّ إلى اللّه ستعترضه الصعائب فإن اجتازها فهنيئاً له. وإن لا، عاد إلى ما كان عليه.

ـ «مَنْ دان بدين الحقّ أكبّ على الوَحْشَة».

أفهمها : دنيانا مليئة بالشرور كالكذب والحقد والاستعلاء فلا تكاد تجد للخير بها مكاناً، فمن تمسّك بقول الإله كما هو ولم يبدّل به تبديلاً يصبح هذا القول روحه التي يحيا في باطنه بها، فلا يكاد يجد له رفيقاً أو نديماً ليشاركه ما في سريرته من صفاء إلّا نادراً فيشعر بالوحشة.

الطبيب

كان سلمان أوّل مَن لقّبَ مجيب بلقب الطبيب، وظنّ الناس يومها أنّ مجيب ـ وكان يومها صغيراً ـ سيتعلّم الطبّ ويصبح طبيباً.

كان ساجي يمثّل نصائح مجيب بوصفة الطبيب لأنّ مجيب هو الطبيب، وعلمت منه أنّه كما تتمثّل وتتجلّى لذّة الإنسان الروحيّة في معرفة اللّه والتي بها شفاء روح الإنسان، كذلك تتمثّل وتتجلّى الإرادة في صخنها في النصائح التي أعطاها والتي بها شفاء النفس الإنسانيّة. فشفاء روح الإنسان في لذّة المعرفة عن اللّه وتنشّق الشعور بوجوده تعالى، أمّا شفاء نفس الإنسان فهي بالإرادة الثابتة باتّباع الهدى فتمّحي الشرور من نفسه ويزداد بالخير.

وكان ساجي يركّز على نصائح مجيب، ويقول مداعباً لنا مرّاتٍ عديدةً أنّها تشبه (الراشيته) أي الوصفة التي يصفها الطبيب لمرضاه، فهي تعالج علل الإنسان علّةً علّة. وكان يهيب بنا أن لا نأخذ كلمات مجيب إلّا على أساس أنّه طبيب جاء يداوي الجراح والعلل.

ويضيف قائلاً: طبّ مجيب مجّاني لم يطلب عليه أجراً، بل إنّ ما أراده لنا أن نتعالج ونشفى فقط. (يشفى مَن منّا استمع إليها وعمل بموجبها فقط إذ لا مجال لشفاء من لا يأخذ الدواء).

حدّثني البعض أنّ معلّمنا ساجي كان يعطيهم مثالاً حول طبّ مجيب، والمثال هو:

سمعتَ أنّ هنالك طبيباً ماهراً جداً، وعندما يكشف على المريض سرعان ما يعلم العلّة ويعطي الدواء الصحيح، أنت حتماً ستذهب إليه إذا ألمّ بك المرض. أمّا إذا سمعتَ أنّ هنالك طبيباً آخر يُعطي العلاج قبل وقوع المرض، طبعاً هذا أمهر لأنّه يحصّنك من الداء قبل وقوعه. وأنتم رَزَقكم اللّه طبيباً اسمه مجيب، يعلم منشأ العلل قبل وقوع المرض فيحصّن الإنسان منه، فإن تعالجتَ بعلاجه زال الخطر من المرض كلّيّاً لأنّ المناعة كاملة. فبشعورك تكمن الأمراض، والشفاء هنا هو شفاء الشعور وليس شفاء الجسد.

من بعض نصائح مجيب كما فهمتها وليس حرفياً

نصحنا مجيب بالابتعاد عن الفحشاء والخنى: الفحشاء هو الزنى والخنى كلام العهر.

ونصحنا بالتقليل من إشباع شهوات الجسد.

ونصحنا أن لا نغضب إلّا على باطلٍ أو انتصاراً للحق.

ونصحنا أن لا نروي حكاياتٍ نسيناها كي لا يقودنا لساننا إلى الكذب.

ونصحنا بالابتعاد عن الرياء والمخادعة.

ونصحنا أن لا نحقد على أحد.

ونصحنا أن لا نقرب الزناة ولا نسايرهم فهذا يجعلنا نحبّذ الزنى.

ونصحنا أن لا نهلك أنفسنا بالتقتير بل نعطي أجسادنا حاجتها.

ونصحنا أن لا نستشير بعمل الخير أحداً إذا علمنا أنّه خير.

ونصحنا أن لا نلوم أنفسنا إذا ثرنا على الباطل وقمنا بتعنيف المبطل.

ونصحنا أن لا نكدّر المستمعين إلينا وأن نَقْصِر من الحديث إذا لمحنا علائم الكدر ظهرت على وجه من نحدّثه.

ونصحنا أن لا نتظاهر بعَظَمَة أخلاقية لا نمتلكها.

ونصحنا أن لا نبكي أنفسنا بل نشكي مصابنا إلى الله وهو العليم الخبير.

ونصحنا أن لا نتحزب إلا للحق.

ونصحنا أن لا نحسد أحداً فمعرفة الله هي كنز البقاء الذي يُحسد صاحبه عليه.

ونصحنا أن لا نذلّ أنفسنا إلّا للحقّ فمذلّة النفس أمام الحق عزّة لها.

ونصحنا أن لا نتباهى فما من أحدٍ بأعزّ من أحد إلا بقدر ما يعزّ الله.

ونصحنا أن لا ننوي فعل أمرٍ نستحي أن نجهره أمام الناس.

ونصحنا أن لا نخاف قط فدنيا الآخرة خير للمؤمن من دنيانا هذه.

من اقوال معلّمنا ساجي عن بعض النصائح التي اعطاها مجيب:

- «النصيحة شرعة حياة طاهرة نصحك بها مجيب لتطهّر حياتك بها قدر الإمكان. المهمّ أن يكون لهذه النصائح بعض الأصالة بنفسك، المهمّ أن لا تخلو حياتك من العمل بها.

وإذ بهذه النصائح كلّها للعامل بها حسّ بخالقه، فإنّ الإيمان يتولّد من العمل بها لأنّها كلّها ضمير بالخالق».

ـ عن نصيحة التقليل من إشباع شهوات الجسد.

علّمنا ساجي:

«أي لا تجعلها همّاً قائماً بنفسك، فتحاول ممارستها بالرغم من شعورك بعدم الحاجة الجسديّة لها. ولا تمل على نفسك نيّة عدم ممارستها لكن (دَع ممارستك لها تبعاً للحاجة الجسديّة)».

ـ عن نصيحة: لا تهلك نفسك بالتقتير بل اعطِ جسدك نصيباً منها يكون للحاجة...

قال معلّمنا:

«نفهم من هذه أنّ الطهر ليس بممارسة الشهوات ولا بكبتها، بل بتقويمها».

ـ عن نصيحة: الإبتعاد عن الرياء والمخادعة.

قال معلّمنا:

«مردودها عصمة النفس من اللجوء إلى أساليب شرّيرة».

ـ عن نصيحة: لا تحقد على أحد.

قال معلّمنا:

«الحقد نواة اللؤم ودافع للشرّ، فإنّك بحقدك لا تضرّ مَن حقدت عليه كما تضرّ نفسك، إذ تغرس بها نواة للشرّ».

ـ عن نصيحة: لا تقرب ولا تساير الزناة.

قال معلّمنا:

«لأنّ حديث الزاني يدغدغ الغرائز، فمن الأفضل عدم الاستماع له».

ـ عن النصيحة الناهية عن بكاء النفس بل يشكو الإنسان مصابه للّه.

قال معلّمنا:

«الحكمة منها إعزازاً عن الامتهان، تعكس الشعور بالرفيق الأعلى».

ـ عن نصيحة: عدم التباهي فما من أحدٍ بأعز من أحد إلا بقدر ما يعزّ اللّه.

قال معلّمنا:

«أصالة النفس وتطهيرها من القشور».

ـ عن النصيحة النافية للخوف تصديقاً بوعد اللّه في دنيا الآخرة...

قال معلّمنا:

«الحكمة منها الاطمئنان للآخرة، وبهذا الاطمئنان يخلد المرء إلى السكينة ويتمتع بالراحة النفسيّة».

كلمات عن النصائح

هذه النصائح يقول معلّمنا ساجي عنها أنّها تقود المتسامي إلى الفضيلة، تُكوِّنُ الفضيلةَ في نفسه. وهي تُعلِّمُ الإنسانَ قدرةَ التمسّك وقدرةَ التخلّي. وأضاف المعلّم بما معناه:

النصائح مسلّم بصحّتها عند جميعكم، ولكن إذا كان أحدكم يعمل ما يعارضها أو يهملها رغم معرفته بصحّتها فلن تتولّد عنده القناعة بلذّة العمل بها. أمّا عندما يمارسها يشعر بما فيها من لذّة ويحسّ بمردودها على نفسه، وقتها تتولّد عنده قناعةٌ كاملةٌ بصحّة العمل بالنصائح وبما فيها من لذّةٍ وخير، ولِما تعكسه على نفسه من شعورٍ سامٍ بنفسه، ومن سرورٍ يجذبه ويعطيه عزيمة الاستمرار، حتى تستقرّ بنفسه ذاتَ طبيعةٍ تخرج تلقائياً بأعماله وتصرّفاته. وهكذا لن يعود يشعر بأيّ خسارةٍ إن لم يراءِ ويخادع. وعلى الرغم أنّه قد يفوّت اتّباع النصائح عليه أحياناً غرضاً أو أنصاراً إن لم يتحزّب حقّاً وباطلاً لدمويّته أو سواها، فإنّه لا يشعر بالخسارة لأجل ذلك، بل يشعر بالربح دائماً. بربح النفس والسموّ، ويبدأ يشعر بالخسارة عندما يضعف عن القيام بها. يشعر بالمهانة كلّما ضعف، وبالسرور العزيز كلّما أحسّ قوّته بها.

أمّا كيف تتولّد القناعة في نفس الإنسان، فهي لا تتولّد كما أرى وكما تعلّمت من ساجي إلّا بالتدقيق في فحص كلّ عملٍ يقوم به الإنسان ليرى الخير في كل عمل من أعماله أين موقعه.

في دعوة عجيب جاء الطبيب يداوي العلّة، علّة الإنسان قبل وقوع الإنسان في المرض. فالطبيب هنا يتعامل مع الشعور نفسه، وليس مع الأعمال فقط. فما أفعال الشرّ كالسرقة والقتل وسوء الائتمان والاغتصاب والخيانة والغدْر والتزوير وبقيّة أعمال الضعة، إلّا مظاهر وأعراض لما في الشعور من أمراض. فالمرض كامنٌ في شعور الإنسان، تظهر عوارضه وعلائمه في أعماله، وطبيبنا العالم يتعامل مع الشعور، ويعطي الدواء الذي يشفي الشعور نفسه. وهكذا يصبح المتداوي في عزّةٍ ومنعةٍ عن كلّ مرض.

ومن حديث المعلّم عن نصائح مجيب أنّ المهمّ أن يعمل بها الإنسان على قدر إمكانه فقط، وكان يقول : ما هو قدر الإمكان؟ إن كان بإمكانك أن تتّبع النصائح ولو بمقدار (حبّة حنطة) فقد قمتَ بها، ولكن من يتّبع النصائح بقدر (حبّة حنطة) يصبح قادراً بعدها أن يتّبعها بأكثر، لِنَقُلْ بقدر حبّتين وهكذا، حتى يكتمل باتّباعها أو يتوفّاه اللّه قبلها وهو على الطريق القويم. هذا الذي مازلت أذكره من هذا الحديث، أمّا الشرح الذي كان يشرحه المعلّم عن هذا الأمر، فقد كان طويلاً ومتعدّد الجوانب، ولا أدّعي بأنّني أتيت بأكثر من حبّة منه.

ذكريات عن مجيب

سرّه حبّ الإخوان لبعضهم، وصفاؤهم في أخوّتهم. لا يسكت للمتكبّر كائناً مَن يكون. يلهو ويلعب مع رفاقه، ولكنّ لعبه طاهرٌ وبريء، تمتلئ الأمكنة بالحياة حيث يكون وحيث يمرّ، فكأنّ الحياة تنحدر منه حيث مرّ وحيث أقام. فعندما يأتي إلى دمشق يمتلئ البيت بالأغراض والحديقة بالطيور، والمشاوير في السيّارة تصبح يوميّةً، يذهب معه بعض سكّان البيت فيلعبون كرة القدم أو غيرها، يشترون زوّادةً قبل ذهابهم، ولهذه الرحلات أثرٌ في نفوسنا حتى الآن لما فيها من حياةٍ زاهرةٍ. وكذلك كان يذهب إلى صيد الغزلان في البيطاريّة[1] عندما يكون في دمشق. أمّا في المرّة الأخيرة وكان يرافقه ساجي ما أحبّ متابعة هذه الرياضة لما بها من قسوة على هذه الغزلان، وارتأى تركها.

كان يذهب إلى السينما في دمشق يأخذ معه بعضاً من إخوته وبعضاً من أتباعه، لا يخجل لثياب بعضهم الرثّة، ويجلس معهم في أفخم الأماكن، وعندما أُعيب عليه هذا العمل من بعض إخوته، أرسل لهم أخاهم مرشد، ليقول لهم عن لسانه بما معناه : إذا كانوا هم يخجلون بهم فهو لا يخجل بجماعته ولا يستحي بهم. فهو كما قال عنه ساجي : (مجيب كان يكره الأثرويّة والبيكويّة ويحبّ الرفاقيّة).

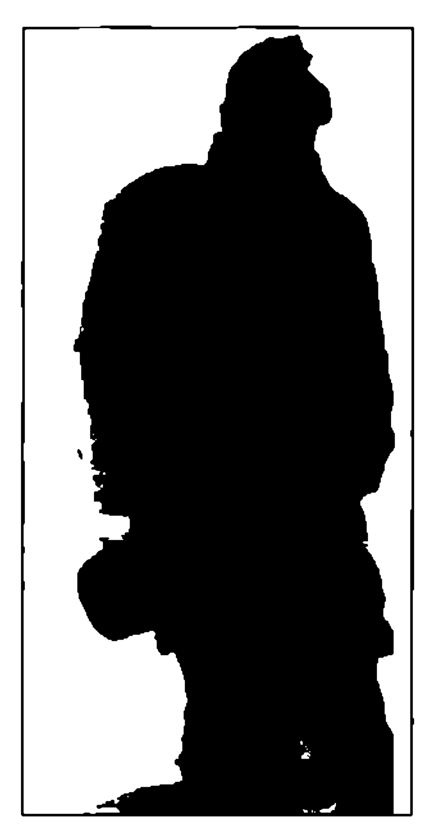
مازلت أذكر لعبه في كرة الطاولة كم كان جميلاً أثناء اللعب، يتناثر شعره الأشقر المجعّد (المكعزل)، وقميصه يخرج عن البنطال في عدّة أماكن، ويستلفت نظري أثناء اللعب لجماله فلا أتابع اللعب بل أنظر إليه، وكنت صغيراً يومها ابن ثمانية أعوام، وكان يلاعبني كثيراً، وأوجعه أثناء اللعب وأشدّ شعره الجميل الأشقر. وكان بعض الحاضرين كما أخبروني فيما بعد يغضبون منّي لهذا العمل فهو يتألّم فعلاً.

لعرق جسده رائحةٌ طيّبةٌ ما عرفتها في إنسان، بياض جسده لا يشبه بياض الأجساد، لا أستطيع أنْ أصفه إلّا بقولي : بياضٌ تفرّده عند رؤيته عن باقي البياض.

---

(١) البيطاريّة قرية مرشديّة تبعد عن دمشق حوالى ٤٠ كم من جهة الشرق الجنوبي، قضى بها مجيب سنة ١٩٤٨ صيفاً كاملاً متخفّياً عن حكومة القوتلي بعد أن جاء إليها متخفّياً من بيروت حيث كان يكمل دراسته في الجامعة الأميركيّة.

مرّة كنت أفخر بنفسي جداً وأنا صغير، وقلتُ : (ما شايفيني شو عظيم؟) وكنت أرتدي ثياباً جديدة. فنظر إليّ مجيب وقال لي بجدّية بمعنى : (لا، ما شايفنك عظيم). وكم ذكرتها بعدها، وكانت تحدّ من غلوائي بنفسي ولو شيئاً قليلاً. وعندما أرى نفسي عظيماً لأيّ عمل دنيويّ كان، وكسب أو جاه، أعلم أنّ الحقّ لا يراني عظيماً لأجل هذا. ورغم كلّ تدليله لي، ما كان يرضى لي أن أخطئ في القول إذا كانت القضية تخصّ الدين.


في الهواء الشديد

وكان يعيّرني بعض أخوتي مرّة برجل كافر لا أعلم مَن هو الآن، فضحك مجيب من هذا العيار، وكان يجلس على كرسيّ صغير وأخذ يستحثني بكلامه كي لا أقبل بهذا (العيار) فالرجل الذي يتحدّثون عنه (وحش وكافر). فرغم كوني طفلاً كان يعلّمني كيف لا أقبل أنْ أعيّر برجل كافر وشرير في أعماله.

كان أكثر ما يرجو المرشديّون في قلوبهم هو زيادة أموالهم وحيثيتهم في المجتمع، وهم بذلك لم يقتدوا بقدوتهم الذي رفض أن يقوم إلّا للدين وأن يعمل إلّا للخير وأن يبني إلّا للخلود. وهو لو جاء واعداً بالدنيا ومغرياتها لجلب معه دنيا جديدة، أين هذه الدنيا منها !. كما قال مجيب في دعوته عندما أشار عليه البعض أن يستخرج الذهب من باطن الأرض : أنا لم آت لأجل هذا.

كان مجيب كثيراً ما يقرأ في القرآن أمام الحضور، وينبههم إلى حقائق لم يكونوا لينتبهوا إليها لولا تعريفه لها. ومن ذلك أنّه شرح مرّة فاتحة القرآن حرفاً حرفاً وكلمةً كلمةً وجملةً جملةً، وعلى عدّة أوجه، ويُظهر لمستمعيه أثناء الحديث كمْ وجهٍ يستطيع أن يجلّيه من كلّ وجهٍ من الأوجه، حتى ظهر لهم أنّ لا نهاية لهذه الأوجه إذا تتابعت، فكلّ وجهٍ تنبثق عنه أوجه، وكلّ وجهٍ من هذه الأوجه المنبثقة تنبثق عنه أوجه أيضاً وهكذا إلى ما لا نهاية كما رأوا يومها.

لقد فعل هذا عندما سأله أحدهم كيف أنّ عليّاً قال أنّ باستطاعته أن يوقر أربعين بعيراً أو شيئاً من هذا القبيل لِثِقَلِ حمولة الكتب التي يشرح بها الفاتحة. وما كان السائل يرتاح لهذا الكلام إذ كيف يمكن أن يحدث هذا !!. وقد أوضح له مجيب بهذه الأوجه التي أعطاها من شروحات الفاتحة كيف أنّ علم الإله لا نهاية له، وليس هنالك ما يدعو للعجب من قول عليّ. فهي فعلاً كانت بقدرة عليّ. ومجيب فعل هذا عندما طلبوا منه ذلك ليفهمهم كيف يمكن أن يمتدّ العلم إلى هذه السعة، وما أوقف مجيب شرح الفاتحة حتى طلب منه الحاضرون ذلك، فقد شعروا أنّ عقولهم لم تعد بقادرةٍ على هذا الاستيعاب ولا على النظر إلى هذا الوسع الكلّي.

ما قَبِلَ مجيب أبداً أنّ إيمان المؤمن يجيز له أنْ يعمل أعمالاً غير أخلاقيّة، بل المؤمن ملومٌ أكثر من غيره إنْ عمل هذه الأعمال، فهو يعلم وغيره لا يعلم، ومَنْ يعلم تقُم عليه الحجّة أكثر ممّنْ لا يعلم. وعُرِف هذا الأمر عندما أرسل رسالةً إلى مرشديّين في المهالبة كانوا قد تشاجروا مع آخَرين وقاموا بأعمالٍ غير مرضيةٍ، فأرسل لهم مجيب رسالةً تلومهم، وتشعرهم أنّهم بموقفهم هذا كانوا أكثر خطأً من خصومهم الذين تشاجروا معهم، فهؤلاء غير ملومين بقدر ما هم ملومون لأنّهم مؤمنون، فهم يعلمون أكثر. إذ ليس بإمكان أحدٍ أن يخطئ خطأ العارفين إذا أخطأ، فعارف الصحّة يُلام أكثر من غيره في خطئه ـ هم مؤمنون بدعوته وقوله وأعمالهم تنافي هذا القول ـ.

حدّثني المعلّم أنّ أهالي الجوبة ـ هؤلاء الذين عادوا سلمان بتوجيهٍ من أغنياء اللاذقية كما ذكرنا سابقاً ـ أنّه عندما أعلنوا إيمانهم بدعوة مجيب وجاءوا إليه، كان حديث مجيب إليهم أنّه صار يصف المفسد (الواشي) وكيف ينعكس هذا الفعل على نفسه، وكم يزيد من شقاوته وكيف ينتهي به هذا الأمر. وكان مجيب يقول لساجي بمعنى : إنّ هؤلاء لا يفهمون الخُلُق الحميد ولا السيرة الرضيّة، فهم ما خبروها. فهم إنّما يفهمون أخلاقيّة الواشي الذميمة لأنّهم عركوها، وبهذا يفهمون هذا الكلام. وقد ابتدأت فعلاً كلمات مجيب تؤثّر فيهم منذ الجلسة الأولى، إلّا أنّهم توقّفوا عن حضور هكذا جلسات، لعلّهم خشوا على أنفسهم من الإيمان.

كان يحدّثنا ساجي كيف أنّ مجيب لم ينَل أجراً على كل ما عمل، وهو الذي أعطى الكثير الكثير. أمّا قصّة الزعامة فهو وإنْ كان قد جمع المرشديّين كلّهم تحت رايته، فهو يصرّح أنّه لن يبقى له من العمر إلّا أيام. فما نال من كلّ هذا شيئاً، كلّ ذلك المجد الذي صنعه في دعوته لم يأبه منه شيء، إنّما ابتُدِئت الأشعار تُغنّى والأقوال تتداول على الألسنة بعد ذهابه، ولم ينتظر ليرى أثر فعله في أتباعه أو أثر أقواله، إنّما قضى قتلاً وأبقى كلّ ما فعله إلى

ساجي، وأخبر أتباعه أنّ ساجي الإمام وأنّه هو الذي سيعلّم المعرفة الجديدة بعده، تلك المعرفة التي جاء بها مجيب. وهو قبل أيّام من غيبته[1] عندما ودّع ساجي ما أوصاه بشيء. إنّه لعلى ثقةٍ كاملةٍ من عمله، وقوته في الدين ومسراه به تفرّد به وحده.

من الواضح والجليّ لكلّ عينٍ رافقته في الدور أنّه ما كان ينظر إلّا بمنظار الآخرة كقدوةٍ للمؤمنين، وما أرادهم أن ينظروا إلّا على هذا الأساس، وكان ساجي بعدها يعيدنا دائماً إلى نظرة مجيب هذه في كلّ نهضة من نهضاته العديدة أو موقفٍ من مواقفه الفريدة.

حدث أنّ أحد الحضور قال أثناء الحديث: (ايلي عَ المومنين) أي يا حسرتي على المؤمنين. وهذا لما يعانونه في كلّ دعوة. فقال له مجيب: (لا، ايلَك عَ الكافرين ما عَ المؤمنين) أي حسرتك على الكافرين وليس على المؤمنين، فالمؤمنون هم الفائزون وهم العائدون إلى روابي المجد، أمّا الكافرون فما لهم إلّا حياتهم الدنيا هذه ويعودون إلى البوار. فالحسرة على الخاسر وليس على الرابح. بهذا المنظار تطلّع مجيب، وبهذا المنظار تطلّع ساجي، ووضع هذا المنظار على عيوننا كي نرى حقيقة الأشياء. وتذكّرنا هذه النظرة بقول القرآن المبين في سورة (يس) الآية ٣٠: ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾. فالحسرة يجب أن تأخذنا على الكافرين وليس على المؤمنين التابعين هداية الله، فالقاتل قتل نفسه وهكذا السارق سرق نفسه. أمّا الذي لبّى نداء الله ووفى بما عاهد الله عليه فهو نبراسُ هدىً وليس مدعاةَ شفقة.

زار مجيب في دعوته حوالى سبعين قريةً ومحلّةً. أكثر هذه الزيارات كان يبقى يوماً في القرية الواحدة، ينادم الرفاق في النهار، ويقيم معهم مجمع الصلاة في الليل، ويتسامر معهم، ويدعوهم إلى سيرة الصلاح ويبيّنها لهم. وحوالى نصف هذه القرى زارها مرّتين لا مرّةً واحدةً، وكثيرات منها مرّ عليها ثلاث مرّاتٍ أو أربعاً. يمتطي في هذه الروحات فرسه الشعلاء والرجال على يمينه ويساره ووراءه، وبعضهم يركب أفراساً أحياناً، وبعد أن انضمّ ساجي إليه كان يذهب معه دائماً، فكنتَ ترى مجيب على الشعلاء يتقدّم الموكب وساجي على الشقراء بجانبه والرفاق حولهما ووراءهما وبعض الرفاق يمتطون أفراساً أيضاً.

وما كان يقتصر الحديث على النذر والتسبيح، ففي كلّ قريةٍ يقيم ألعاباً، مصارعاتٍ أحياناً ورمايةً في أوقاتٍ أُخَرَ أيضاً، والرقص أثناء النهار وخاصّةً في الغاب. والرقص لم يكن ضمن البيوت بل في الساحات الواسعة في القرية، يشترك بالدبكة الرجال والنساء أمام

---

(١) أقصد بغيبته رحيله من دنيانا.

أعين الجميع مرشديّين وغير مرشديّين، والدبكة تبقى من ثلاث إلى أربع ساعاتٍ لا تنقطع، وتسمع صوت (البنجيرة) يغنّي والجميع يرقص مع مجيب. جموع غفيرة رجالاً ونساءً، تارةً يمسك مجيب على المقدّمة أو في صفّ الراقصين وطوراً آخر يقف بين الراقصين ليغنّي لهم على إيقاع رقصهم، فالعرس منعقدٌ حيث ذهب وحيث أقام، والغناء كلّه فرحةٌ باللّه ورجاءٌ به.

لفت ساجي نظري إلى أنّ مجيب أحبّ تلك الغرفة الترابيّة الصغيرة في مزرعة حارة الزيارة ـ حارة صغيرة في الغاب ـ قُبيل غيابه، هذه الغرفة التي صلّى بها متأمّماً ببعض المصلّين، كان يقول لي أنّ مجيب ما استهوته قصور العالم بأسرها ولا أبنيته، إنّما استهوته تلك الغرفة المتواضعة جدّاً بالنسبة إلى البناء في العالم، فهذه حقيقة دنيانا هذه، كلّ ما فيها حطامٌ، وخيرها بالزهد بها، أي عدم التوقّف عندها، فالمجد بالآخرة موعودة المؤمنين وليس بها.



هو وساجي على الأفراس. مجيب يرتدي جلابيّة وجاكيت وهو مكشوف الرأس ويمتطي الفرس الشّغلاء، وساجي يرتدي العباءة ويعتمر الشملة والبريم ويمتطي الفرس الشقراء، والصورة مأخوذة على طريق عين شنشل بجانب الحارة التي في الجوبة.

تقدّم مرّة أهالي قرية في الغاب بدعوة مجيب إلى قريتهم، وقَبِل العزيمة وكان ينتظره فيها حوالى سبعمائة رجلٍ من القرية ومن القرى المجاورة لها. وقد تحدّث بينهم، ويذكرون مما أوصاهم به أن لا ينكر أحد حقاً لأيٍّ كان. وإن كان لأحدٍ دَيْنٌ عليك بألف ليرة، فلا تقل له : لك معي تسعمائة وتسع وتسعون بل اعترف له بحقّه كاملاً. وأوصاهم بما معناه : إذا سرق أحدكم كبريتةً من أيٍّ كان في هذه الدنيا، فكأنّه سرقها من جيبي أنا.

علّمني ساجي كي أنظر إلى كلمة عليٍّ في سيرة مجيب على الأرض، والكلمة : «اعمل لدنياك كأنّك عائشٌ أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك مائتٌ غداً». فمجيب رغم أنّه كان يحدّث عن مقتله أنّه سيقع بعد أشهرٍ ثمّ بعد أيّام ثمّ بعد سويعاتٍ. فقد بدأ عمارة في قرية مرشتي الصغيرة في الجبل وخطب كي يتزوّج، وبدأ مشاريعَ غيرها في العمل، وكأنّه يعمل لبقائه في هذه الدنيا وليس لذهابه منها، وقد أخبر الجميع أنّه لن يتزوّج، وأنّه لن يسكن في مرشتي، بل قال أنّ ساجي مَنْ سيسكن بها. وسكن بها ساجي بعد إحدى وأربعين سنةً من هذا القول.

وقد ثبّت اللّه قلوب المهتدين بمجيب، فما ترك أحداً إلّا رأى مجيباً بحلمه مباشرةً بعد غيابه قتلاً. رؤىً تثبّت لهم إيمانهم بدعوته، وتؤكّد أنّ طريقه هو طريق المنجاة. وكانت هذه الأحلام بصفائها وطهارتها تدلّ أنّها جاءت من اللّه خصّيصاً لصاحبها.

كمال القدوة التي أقامها مجيب كانت غيبته وقد ذكرها منذ بداية الدعوة ووصفها قبل وقوعها بستّة أشهر وصفاً عجيباً إذ قال بمعنى : (كنّا بضيعة صغيرة، وكان معي أحمد ومحرز ومنير والشيخ حبيب، واللاّ جابي سيّارة نزل منها ضابط من الشرطة ومعه كم واحد، وقوّسونا ولا ضلّ حدي عندي، أنا قتلت وقتل معي اثنان، ومدّيت ايدي على أحمد تمايموت[1]).

وذكر مقتله مرّاتٍ كثيرةً، فهو نادى مؤمني البشر إلى أنّ الحياة في الآخرة وليست الدنيا التي نحن فيها بشيءٍ عند الآخرة موعودة المؤمنين، وسار إلى مقتله فرحاً به متصراً بقدوته.

السجن

قَبِلَ مجيب دعوة إلى قرية البور وهي قرية في منطقة المهالبة وأهلها لا ينتسبون إلى جماعة سلمان المرشد، ولمّا عاد منها تقدّم أحد الذين كانوا هناك بوشاية خطّيّة عليه، فأحالتها الحكومة المحلّيّة إلى المحكمة بتهمة إثارة النعرات الطائفيّة، كانوا يقصدون أن يُحكَم بمدّة

---

(١) أي مدّ يده باتجاه أحمد كي لا يموت.

تراوح بين الستة أشهر والسنتين. وكانوا جلوساً معه ليلاً لما تبلّغ مذكّرة الدعوى فسخروا منها، ولكن بدت على وجهه علائم الاهتمام، وأظهر أنّه قد يتوقّف بسببها، فأقسم كثيرون منهم أنه لن يتوقّف، فقال : (بكرا منشوف) أي غداً نرى.

وإذ لم ينكر مجيب دعوته فقد أمر القاضي بإيقافه. وأُوقف مجيب يوم المحاكمة نفسه، وهو أوّل تشرين الأوّل سنة ١٩٥٢، وأراد قائد الفصيل في السجن أن يمتّنه لأنهم لم يحلقوا شعر رأسه كعادتهم مع كلّ مَن يدخل السجن، فلم يقبل منّته. وبعدما حلقوا شعره لبس قضاضة بيضاء وعقالاً حتى نهاية أيّام دعوته.

فَرَشَ السجن بعد دخوله فرشاً كاملاً. وكان المرشديّون يأتون لزيارته في السجن بالمئات يومياً من سائر القرى مظهرين للملأ بذلك إيمانهم ومحبّتهم له. وكان يبدو مسروراً بذلك رغم ما كانت تنطوي عليه من مخاطر أن تتشدّد الحكومة أكثر.

وكان المفسدون أعداء الدعوة قد أظهروا الشماتة بالمرشديّين، ولكن تدفّق الألوف على السجن أوقف كلّ شماتة. وفي اليوم الخامس من تشرين الأوّل خرج من السجن.

بعد خروجه من السجن طلبه الشيشكلي مباشرةً، وكان يضاحك مجيب ويقسم أنّه لم يسمع بأمر السجن، كما قال : (عملوّا العكاريت). أي الموظفون المحلّيون في المحافظة.

عندما جاء مجيب إلى دمشق لوحظ جمال بياض وجهه وحلاوة القضاضة، يلفّ بها رأسه بعد حلاقة شعر الرأس.

وكان يزور فاتح في السجن ويقصّ عليه أحياناً ما فعله من أمور. ويذكر فاتح أنّ مجيب كان بادي السرور وهو يتحدّث عن دعوته. وحدّثه عن الأمثال التي قالها ويقول فاتح عنها : «لقد أذهلتني هذه الحكم ووجدتها بالغة القوّة والفصاحة، تذهل بنفسها كلّ مَن اطّلع عليها.

وقد حدّثني مرّةً عن مقتله الداني الوقوع، وكنت آمل أن يُفتدى، ولم أتصوّر يومها أنّه بهذا القرب، فلم يكن في البلاد عندما حدّثني عنه ما يُنذر به، فلمّا سمعت نبأه، انقشعت الغشاوة عن عيني، وامتلأ قلبي إيماناً به، وكان الندم على تقاعسي ممتزجاً مع لوعة فراقه، وغمرني الشعور بالوجود الحبيب الغريب عن دنيانا. أطلّ علينا بالسعادة والحبور، فعشنا بقربه حياةً غير حياتنا ولا تتمثّل إلّا بوجوده».

بقي مجيب حوالي الشهر في دمشق، وكان محبّوه يقصدونه إليها، وفي هذا الشهر كان أحياناً يذهب إلى البيطاريّة، وكان يرافقه في السيّارة بعض أهلها. وفي إحدى هذه الرحلات حدّث أهالي البيطاريّة عن مقتله. ويذكرون أنّهم عرفوا منه يومها أنّ القتلة سيأخذون جثمانه.

سمع المرشديّون بسجن مجيب فأتوا الحفة أفواجاً تتلو أفواجاً حاملين للسجن هدايا وطعاماً ودثاراً، كانوا ينظرون إليه وراء القضبان فيرونه لا يكترث بالسجن بل ينثر كعادته فيهم الحبور. وبعد أن اعتمر كوفية عوض أن يخفت جماله الآسر ازداد وجهه جمالاً وبهاء وزادهم هذا المرح وهذا الكلام الطيّب الذي كانوا يسمعونه منه زادهم وزوّدهم عزماً ومضاء فلم يخشوا طاغية البلاد عندما هدّدهم بالسحق والفناء.

أمّا ما جاءه من هدايا فقد وهبها إلى السجناء وإلى الشرطة وكأنّهم ليسوا هم الذين أوقفوه.

هو لم يطلب شيئاً أو يشكُ حالاً أو يحذر أمراً مخشياً إلّا أمراً واحداً وهو أن يمازحه ساجي عندما يرى رأسه بدون شعر.

هذا الجو العملي الذي أوجده مجيب في محيط السجن وفي المرشديّين عامّةً قلب العذاب والمرّ إلى مرح وحبّ وكأنّ الحكاية لا تعدو عن كونها لعبة أطفال يختبئون على أحدهم فيسعى لمعرفة أمكنتهم والآن دور مجيب في هذه اللّعبة.

اجتماع المرشديين عند مجيب

كان الشيشكلي قادماً إلى اللاذقيّة في موعدٍ محدّدٍ استعدّت له الحكومة في المحافظة والمناطق، وكانوا يطلبون استقبالاً شعبيّاً من الجميع، وكان بعض الأخوة من غير المستجيبين لدعوة مجيب يرتؤون استقباله لأنهم وُعِدوا بالإفراج عن فاتح وكانوا يلحّون على مجيب لإقامة هذا الاستقبال.

قَبِلَ مجيب في النهاية معهم، ولكنه كان يُظهر الاستياء منه. وأرسل مجيب إلى كافّة أماكن المرشديّين يطلب منهم الحضور إلى مفرق الجوبة حيث سيجري الاستقبال. وَرَدَ إلى المرشديّين في الشمال والجنوب خبر دعوة مجيب لهم ليحضروا إلى المفرق، فتوافدوا جميعاً إلى المكان، وذلك في العشرين أو الحادي والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٢، واجتمع على مفرق طريق الجوبة الرجال المرشديّون جميعاً، كلّ من كان قادراً على الحضور منهم تقريباً وكانت مناسبة سعيدة لتعرّف المرشديّين على مجيب وخاصّة (القبالى) منهم الذين كان مازال أكثرهم لم يرَ مجيب بعد. وكان يمرّ بين جموعهم في مكان الاجتماع.

كان مجيب يطوف في السيّارة على المرشديّين، ويذكر محمود رضا (من رفاق مجيب عندما يكون في المهالبة والجوبة) أنّ مجيب كان يتحدّث مرّة فقلنا له: آمنّا وصدّقنا. فلم يقبل قولنا وطلب منّا أن يكون الإيمان عن معرفة. ويقول: ولم أرَ في حياتي طلعةً جميلةً جمال طلعته. فقد تألّق وجهه بياضاً جذّاباً يوم الاستقبال سواء لمّا كان يطوف على الناس أو عندما كان يقف وسط الجموع على مفرق الجوبة.

وبعد الاستقبال مرّ مجيب على تلآرو في طريقه إلى الجوبة، وتحدّث عن قرب مقتله. ويذكرون من حديثه أنهم لمّا قدّموا له القهوة شرب الفنجان، والتفت إليهم وقال : (هادا آخِر فنجان بشربو عندكم). فسألوه عن السبب. فقال : (بدّي إقْتَل). وكان محمود رضا يقدّم القهوة وكانت الصينيّة مازالت بيده، فقال : (بْقَضْف عمري). فضحك مجيب وقال له : (لا، هالمرّة بْقَضْف عمري أنا).

وفي الاستقبال كان المرشديون كلّهم فرحين لتلبيته. ومنهم مَن كان فرحه لأنّها كانت الفرصة الأولى له لرؤية مجيب. وكثيرون من شتّى القرى لحقوا مجيب إلى الجوبة، حتى غصّت بهم الحارة على وسعها.

إحدى الجلسات، وكانوا يسمرون فرحين، ظهرت عليه علامات الملل والأسى وارتأى ساجي على الآخرين أن يتركوه لوحده، فذهبوا مع ساجي إلى غرفةٍ أخرى، ولم يمكثوا إلّا قليلاً حتى دخل عليهم مجيب وقد زالت عنه علائم الحزن، وبدا مسروراً متهلّلاً وبحالٍ من الفرح الجليّ، وألقى فيهم خطبةً تطفح بالبِشْر وتتدفّق بالحزم وحرارة الإيمان. واستمرّت خطبته هذه نحو السّاعتين، وختمها بنبأ قرب غيبته. ولشدّة ما استغربوا الخبر، وللسّرعة التي نقلهم بها إلى ما لم يكونوا يتوقّعونه، فإنّهم لم يستطيعوا أخذ قوله على محمل الجدّ، فأصرّ عليها، وطلب منهم أن يحزروا المدّة الباقية حتّى تقع الغيبة. قال أحدهم : سنتان، فقال مجيب : أقلّ، فقال آخر : سنة، فقال له : أقلّ، وقال غيره : ثمانية أشهر، فقال له : أقلّ، وآخر : ستة أشهر، وكان جواب أحدهم أقرب الأجوبة قال : بقي ثمانية أيّام، فقال مجيب له : أقلّ.

وكان يزداد فرحاً باقتراب غيبته ساعةً فساعةً، وقد طلب منهم أن يفرحوا لغيبته وأن لا يحزنوا عند سماعهم بها، وهمّ أن يأخذ عليهم عهداً بذلك، لولا أن اعتذروا قائلين: لا نستطيع أن نفرح لغيبتك عنّا. وكان دائماً يطلب منهم أن يسألوه، فلمّا يُعْيون يقول لهم : اسألوني من الأشعار (أي أشعاره) اسألوني من أقوالي. وكان يُظهر لهم كيف سيفتقدونه بعد قليل، وكم سيتمنّى أحدهم أن يكون قد سأل هذا السّؤال أو ذاك عندما كان مجيب عندهم. وكم كانوا يتذكرون هذه الكلمات سنوات ما بعد رحيله.

وقد أنبأهم مجيب بما سيكون بعد رحيله من النّفي والسّجن والعذاب. وقد طلب مرّة من أحمد داوود أن يقول شعراً يذكر فيه ما سيصيب يديه بعد أيّام بقوله : (أحمد غنّي على ديّاتك). وأحمد هو الذي كان قد أعطاه مجيب هبة قول الشّعر قبلها، وهو الذي أُصيب يوم الاغتيال بيديه الاثنتين.

وأثناء حديثه عن غيابه خرج من الغرفة فالتقى بالشّيخ علي ناصر عند بابها، وكان الشّيخ علي يترنّم بشعرٍ يُنسب لعلي (أبو السبطين)، ولم يكن معهم عند حديث الغيبة، بل كان قادماً لتوّه إلى الجوبة، وكان يرنّم قائلاً:

اشدد حيازيمك للموت   فإنّ الموت لاقيكا

فقال له مجيب : (لا، يا شيخ علي هايا جيْت سطر) أي جاءت كأنّ الشيخ علي بمجرّد أن رآه يطلب منه أن يستعدّ للموت، ثمّ لمّا اشترك الشيخ علي في الجلسة وسمع عن الغيبة والنّفي والعذاب بعد الغيبة، سأل مجيب إن كان سيرى هذه الأشياء، لاعتقاده أنّه سيموت قبلها نظراً لشيخوخته. فأكّد له مجيب أنّه سيراها جميعها.

وفي الصّباح كان مجيب سيسافر إلى الغاب، فاغتسل وصلّى متأمّماً بأحدهم، وسأل مجيب رفيقه بالصلاة إن كان يذهب معه، فأبدى رغبته بذلك. فقال له : (لا، ما خرجك عندك ولاد صغار)[1].

كانوا قد سهروا الليل بطوله، فاستيقظ ساجي ظهراً، وكان يرتدي ثيابه لمّا دخل مجيب يودّعه، وقد نظر إليه نظرةً ملؤها الحنان أثناء وداعه. وقال له : (صلّينا بلا فيك). فقال متحيّراً : (شو عليه هلّق بصلّي لحالي!) وقال له : (خدناها لفرسك أبقا فيك بتروح معنا). وكان مجيب قد طلب من ساجي قبلها أن لا يرافقه في هذه الرحلة[2].

وبعد أن ودّعهم وسار حتّى وصل إلى باب الصّالون، استدار إلى ساجي ورفاقه وودّعهم ثانيةً، وكان قد شرب معهم قبل ذلك كأس ماءٍ وقال لهم : هذا شراب الوداع. وسأله أحدهم عندما كان واقفاً عند باب الصّالون : (كم يوم اسّا فيه للغيبة؟). فأشار مجيب بيده، ورفع إصبعين وإصبعاً ثالثاً رفعه نصف رفعة[3]. وطلب منه محرز أن يسمح له بمرافقته. فقال له : (ما رح يخدك معي بَسْ بدك تلحقني)[4].

ولمّا وصل ومَن معه إلى قمّة الشّعرا أوقفوا خيلهم عندها. وإذ القمّة لا ماء فيها، فقد قرأ مجيب ترنيمةً حلوةً عوضاً عن الغسل، ثمّ صلّى ركعتين. وفي اليوم الثّاني دعاه أهل قرية مجاورة. يذكر الرواة من الذين نثق بهم أنّه لمّا وصل إلى بيت الذي دعاه، كان يلبس جلّابيّةً بيضاء مفرّعةً بأصفر، وقد اجتمعوا عنده في البيت. ثمّ ألقى مجيب فيهم كلمة قال فيها أنّ

---

(١) علم مجيب أنّ هذا الرجل لن يتجرأ على مواجهة الموت معه لأنّه سيتذكّر أولاده الصغار.

(٢) عالماً ما سيكون بهذه الرحلة كي لا يتعرّض ساجي لخطرها.

(٣) يشير بهذا أنّه بقي لرحيله يومان ونصف يوم أي من صباح الثلاثاء إلى مغرب الخميس.

(٤) مشيراً بذلك أنّ محرز سيضطرّ إلى الذهاب إليه إلى الضير، بخبره عن قدوم رجال الحكومة يسألون عنه، ولكن لا أحد كان يدري لماذا يتكلّم هكذا لأنّ أحداً منهم لا يعلم ما سيكون ورغم كلّ هذا التأكيد من مجيب بقرب رحيله، وأنّه لم يبقَ إلاّ أيامٌ قليلة أقل من ثمانية أيام في الأوّل وأقلّ من ثلاثة أيام في اليوم الآخر في الجوبة، ورغم شرب كأس الوداع معه، ورغم كلّ الذي ذكر سابقاً، لم يستطيعوا أن يتصوّروا أنّ رحيله سيكون بهذا القرب.

موعد غيابه بات قريباً، وختم الخطاب بقوله : الحمد لله والشكر إليه. وقال : هذا آخر خطاب منّي لكم.

بعد الخطاب تحدّث إليهم عن مقتله ويذكرون من قوله : (بذّي غيب عنكم لأنّه فيه خلق مجروحين أكثر منكم، بذّي روح داويهم). ويذكرون قوله : (ساجي بذّو يسكن بالمدن) وأوصاهم : لا يأخذكم الحسد لأنّ الحسد يهبط الأعمال. وحذّرهم من الفتنة. ثمّ لمّا ودّعهم وركب على الفرس، كانوا يرونه أبيضَ شديد البياض أكثر من العادة، وعندما امتطى ظهر الفرس بدا غلاماً صغيراً لا تصل رجلاه للرّكاب، وظلّت الفرس تسير قرابة مائتي متر وهو ملتفتٌ إليهم إلى الوراء. قالوا : كان يتطلّع إلينا بشكلٍ حنونٍ كمَنْ يودّع أهله وجماعته. بعدها تعثّرت الفرس، فصاحوا جميعاً : يا ألله يا ألله. وكان مجيب قد أوصاهم ألّا يلحقوا به.

توجّه مجيب من هذه القرية رأساً إلى الصَّيَر، فصلّى وقت المغرب، وقد تأمّم بالبعض وقال لهم بعد ختامها : (هايا آخِر صلا بصلّيا معكم). وفي السّهرة كان يحدّثهم عن مقتل الأنبياء والصالحين ويذكر أسماء بعضهم وقال : (أنا بذّي سوّي متلن)[1]. وفي ختام السّهرة ألقى فيهم كلمةَ نذرٍ وتحدّث فيها عن مقتله قائلاً : لم يبقَ إلّا سويعات قليلة.

وفي اليوم التّالي وهو يوم ٢٧ تشرين الثّاني عام ١٩٥٢ وصلت سيّارة الشّرطة إلى الجوبة، وفيها ضابط من الشّرطة العسكريّة ومعه ثلاثة يرافقونه. أحدهم مدني، وفتّش البناية كلّها غرفةً غرفةً بحثاً عن مجيب، ولمّا علم أنّ مجيب في الغاب ركب ومَنْ معه السّيّارة وذهبوا إلى هناك. فطلب ساجي من محرز أن يسبقهم إلى الصَّيَر، وينقل خبرهم إلى مجيب قبل وصولهم. وكان محرز مِن أسرع النّاس في المشي، وطريقه يختصر مسافةً كبيرةً عن طريق السيّارة الوعِر، ولا يمرّ على طريق الجوبة ـ الغاب. وقد قطع المسافة بسرعةٍ فائقةٍ، فلمّا وصل إلى الصَّيَر وجد مجيب يلعب المنقلة مع صافي خرفان في بيته، فروى له خبر الضابط وتفتيشه للبيت وسؤاله عنه وتوجّه السّيّارة إلى شطحة. فلم يتحرّك مجيب عن مقعده، واستمرّ في لعب المنقلة وكأنّ محرز لم يخبره بشيءٍ جديدٍ. ولكنّ الرعب داخَلَ قلب صافي وغيره، فأخذ يفرّق الحاضرين كلّاً إلى قريته أو بيته، وكانوا حوالى الأربعين، ولم يبقَ منهم عند مجيب إلّا عشرة أو أكثر بقليل.

ثمّ خرج مجيب من الغرفة، وجلس على كرسيّ أمام البيت، وجلس الباقون عنده. واستبطأ قدوم السّيّارة فكان يسأل محرز عنها، ومحرز يؤكّد أمرها ويقسم عليه.

---

(١) أي سأعمل كما عملوا مشيراً إلى مقتله.

كان الوقت حوالي غروب الشمس لما وصلت السيّارة، وكانت من نوع جيب، وخرج منها ضابط من الشرطة العسكريّة يلبس قبّعةً حمراء وهو برتبة ملازم أوّل، وخرج معه جنديّان يحملان بندقيّتين، وكان معهم بعض أفراد الدّرك ببنادقهم جاء بهم هذا الملازم من مخفر شطحه، أمّا المدني فقد بقي في السيّارة.

سأل الملازم مباشرة: (مينْ مجيب؟). أجابه مجيب: (أنا). فتوجّه رأساً إليه وأراد أن يضربه بيده، فصاح به مجيب: (إيدك). ومسك يده ولواها إلى الوراء، فتراجع المجرم إلى السيّارة وأخرج منها رشاشاً (توميكان) وأطلق النار على مجيب بغزارةٍ. وكان مجيب واقفاً واستمرّ على وقفته قليلاً ثمّ استلقى على مهل على الأرض، واضعاً مرفقه تحت رأسه كمَن يريد أن ينام، وقد نزلت نقطة دم واحدةٍ من أنفه.

أمّا الذين كانوا مع المجرم فقد شهروا بنادقهم بسرعةٍ وأخذوا يطلقون النار إرهاباً كيفما اتّفق، فانهزم الجميع تقريباً من المكان. وكان أحمد قد ابتعد قليلاً، فلمّا سمع إطلاق النار التفت إليهم ولربّما تقدّم بعض الشيء، فرماه المجرم بعدّة طلقاتٍ أصابته خمسٌ منها، اثنتان في يديه واثنتان في ساقيه وواحدة في بطنه فوقع على الأرض، ونظر إلى جثمان مجيب وكان ممدّداً على الأرض، فرآه ينهض قليلاً ويرفع يده باتّجاهه، ثمّ يعود إلى وضعه الأوّل واضعاً مرفقه تحت رأسه. وهكذا كما كان قد وعده سابقاً عندما قال : (مدّيت إيدي علاك تماتموت).

وكان شابّان من المرشديّين من بشمّانا وهما مسعود مصطفى عديره ونظير ابراهيم عديره يقفان بعيداً عن إطلاق النار، أحدهما هجم على الملازم فأطلقوا عليه النار وقُتل.... ولمّا لم يبقَ أحدٌ في المكان هجم أحد رجال الدّرك وضرب جثمان مجيب بعصا بيده. وكان الآخَر الذي من بشمّانا لا يزال واقفاً لا يتحرّك، فلمّا رأى ما فعله الدركي هجم عليه واستخلص العصا عنوةً من يديه وضربه بها، فأطلقوا عليه النار فَقُتِلَ.

ثمّ جاء الشيخ حبيب وهو من الصُّيَر، وطلب منهم أن يطلقوا عليه النار على كيس مجيب (يقصد احتساباً عند الله بمقتله فداء دعوة مجيب) فاتحاً يديه الاثنتين بعباءته، فأطلقوا عليه طلقة أصابته في فخذه.

حدث هذا كلّه بسرعةٍ، وأسرع الملازم ومَن معه إلى السيّارة، وعادوا من فورهم، وكان الخوف ظاهراً عليهم بشكل غريب بعد الحادث. بعدها جاء محرز وسليمان رشوق ويوسف رشوق وحملوا الجثمان الطاهر وأدخلوه البيت. لأنّ المطر كان قد ابتدأ بالهطول. ورجع محرز إلى ساجي في الجوبة ليحمل إليه نبأ الغيبة، ولمّا سمع ساجي نبأها قال : صدق الله العظيم. وكذلك سائر المرشديّين في مختلف قراهم لمّا وصلهم نبأ الغيبة قالوا : صدق الله العظيم.

فكلّهم كانوا قد سمعوا بنبئها قبل وقوعها لكثرة ما كان مجيب يحدّث عنها. وقد أصدق الله ما وعدنا به مجيب.

بعد الغيبة مباشرةً هبّت رياح شديدة، وتجمّعت الغيوم بلحظات واستمرّ المطر والبرق والرّعد ثلاثة أيّام متتاليةٍ بدون انقطاع وكان قد أشار مجيب سابقاً عن حدوث هذه الظاهرة عند مقتله. ولم يعهد الناس بتلك المنطقة مطراً بغزارة ذلك المطر. وقد عادوا في اليوم الثاني للحادث أي الجمعة، وأقاموا حرساً على الجسد الطاهر، ثم جاءوا وأخذوه إلى حيث لا نعلم. وهكذا جرى كما كان قد أنبأ أنّهم سيأخذون جسده بعد مقتله.

في يوم الغيبة نفسه أخذت ساجي سِنَة من الكرى، فرأى مجيب فرحاً بغيبته ضاحك الوجه، وأوصاه قائلاً : لا تقتل نفساً.

أمّا في الجوبة حيث كان ساجي فقد أصبحت تعجّ بالعسكر والشرطة مخافة أن يتحرّك المرشديّون إثر اغتيال مجيب، وكان العسكر وأهل الجوبة فرحين يرقصون شماتةً بالمرشديّين. ولم يكن يسمح لساجي بالتحرّك منها إلّا بإذنهم.

وهكذا جاء مقتله كما رواه بالتفصيل. اسم القاتل عبد الحقّ شحاده ملازم في الشرطة العسكريّة كما كان قد قال جهراً أمام الناس : (البدّو يقتلني اسمو عبد الحق من الشرطة)[1]. قُتِل معه اثنان كما كان قد أنبأ. ثم جاءت أيام العذاب والنفي والسجن. وهكذا أصدق الله كلّ ما أنبأنا به مجيب.

كان قد قال لنا (دعوتي بداية وليست نهاية) فقد فتح الطريق، الطريق إلى الحياة السامية، ووجّه الناس إليها، وابتدأ ساجي المساق العظيم.

(١) عبد الحقّ شحادة كان من أعمدة نظام الشيشكلي وكان مرسلاً بهذه المهمة من الشيشكلي نفسه. فهو ازداد بعد فعله الأثم تقرّباً من الطاغية ولا أرى وصفاً لشحادة هذا يضعه بمكانه الصحيح بقدر قولنا قاتل مأجور تابع لديكتاتور دموي، وفي النهاية بات الطاغية يخافه على نفسه لما وصل له من إجرام. وبعد طرد سيده الشيشكلي سنة ١٩٥٤ فرّ هارباً من البلاد وحكم بعد ذلك في سورية حكماً غيابياً بالإعدام، والتجأ إلى مصر وقبلته حكومة مصر لاجئاً سياسياً وعاش بها معتزلاً الناس حتى مات. وجاء مرّة إلى بيروت وما إن علم أنّ مرشد المرشد بها ويسأل عنه حتى فرّ من لبنان كلّه، وحدّثني أحد معارفي من الضباط أنّه في الستينات التقى المذكور بضباط سوريّين من جهات جبال الساحل وما إن علم بوجودهم في الفندق معه في القاهرة حتى فرّ هارباً في صباح اليوم الثاني. وحدثنا مؤرخ معروف بمصداقيته أنّه عندما كان في القاهرة في أوائل الثمانينات رأى عبد الحقّ شحادة أكثر من مرّة في مقهى من مقاهيها وعندما أراد التحدّث إليه كان يهرب منه. وحدّثوه بعدها أنّ هذا الرجل يعيش منكمشاً على نفسه ولا يرغب بمقابلة أحد. كما أنّه حصل على رقم تليفونه محاولاً مكالمته ولكن أحداً لم يردّ عليه رغم تأكده من وجوده في البيت. فقد بقي هذا الرجل منزوياً خائفاً غير متزن وأصبح معتوهاً. وكان يخاف حكم الإعدام الذي صدر بحقّه في سورية نتيجة جريمته انظر الصفحة (٢٦٢) ففيها حديث عن ماضي هذا المجرم.

ومضة من المعرفة الجديدة

كمال عقل الإنسان في معرفة الله

علّمنا مجيب أنّ ظنّ الإنسان أنّه يعرف الله كان بمشيئته سبحانه، ومعرفة الله إكمال عقل الإنسان.

أفهم هذا التعليم: بعد أن صار باستطاعة العقل البشري أن يظن هذا الظن الجبار فقد استطاع أن يعلم عن شيء غير محسوس بالنسبة له وفوق مستوى إدراكه وهكذا استطاع استقبال رسائل الإله وفهمها.

وفهمت من تعليمه وشرح معلّمنا له:

الله أزل صفته غيبيّة لا تُدرك ولا يُعنى لها بقول، ولكنّه تكنّى كناية المعرفة وهذا التكني هو رحمة منه فلو لم يرد لما حُقّت الكناية. والكناية هي اسم الله، وبعد أن تكنّى بهذا الاسم صار لنا نحن الخلائق أجمع أن نعزي أفعال الخلق إلى الله فقد أصبح لدينا اسم لمن هو فوق المعاني والأسماء. وفي الاسم بدت له صورة بأوهامنا، أي على أساس هذا التكنّي صار بمقدور الخيال أن يتصوّره أو يظن أنّه يعرفه، وهذه هي الرحمة الكبرى لأنه أصبح لنا أن نتكلّم عنه ونصلّي له ونسبّح باسمه أي صار لنا صلة به وصار بمقدورنا أن نرتبط بحباله فلولا يتكنّى لما استطعنا نحن ولا الملائكة الكبرى أن نقول عنه كلمة واحدة، أمّا ما تصوّرت الخلائق عنه فلا يمثّله بل يمثّل جانباً من رحمته تعالى وحكمته بتسييرهم.

الحياة والمنجاة

علّمنا مجيب أن الحياة هي إمرة الخالق، يرتفع إليها العظماء ويُطرح منها الوضعاء، علّمنا أنها كمرآة تعكس الحكمة الإلهية بكل جانب من جوانبها. وعلّمنا أنّ العظمة هي بالإيمان والطهر والصفاء.

كان المعلّم يشرح علوم مجيب عن الحياة والمنجاة وإليك طائفة مّما حفظت من شرحه لها: إن جئت بمرآةٍ مصقولة وسلّطتَ عليها نوراً فأنت لا ترى إلّا ضياء النور في هذه

المرآة، وهكذا الحياة تعكس ضياء الحكمة الإلٰهيّة في كلّ جوانبها. وليس هنالك من شيء في الحياة جاء عبثاً فكلّ شيء بها له وظيفة وضرورة وجود، وينتهي بقاؤه واستمراره بانتهاء ضرورة وجوده وهذا ينطبق على كلّ خَلْقٍ وكلّ أمرٍ مهما صَغُرَ هذا الخَلق وتناهى في الصغر. وهي ما نشأت أصلاً إلّا لتعكس نور الحكمة فالحكمة جوهر الحياة. وشبّهها المعلّم بالمصباح إذا فرغ زيته انطفأ نوره وهكذا كلّ حياة إن فقدت الحكمة فقد بدأت أن تنتهي وتتلاشى.

لا يرتفع للحياة أحدٌ إلّا بالقوانين التي وضعها الخالق، وهو الذي له الحقّ أن ينسق من الحياة وأن يُثْبِت فيها. لذلك على كلّ مَنْ أراد أن يرتفع إلى الحياة ويُثْبَت بها أن يأتمر بإمرة الخالق صاحب الحياة. فهو وحده القادر أن يقودنا إلى الحياة الباقية المتسامية دون خطر بل قيادته هي المنجاة.

فالحياة تحتاج إلى الترويض وإلى التعليم وإلى تنقيتها من الشرور. فَمَنْ لم يَسِرْ على حسب الهداية التي جاءته من الخالق لا يتقوّم بنور الحكمة المتسامية بالحياة إلى جوهر الخلود وإلى حقيقة نقائها وصفائها من كلّ شائبةٍ تُعيق جريانها. فالحياة وفقاً لهذا الإدراك العالي لا تقبل الوضاعة بكلّ ما بها من شرور، فإنّما أُنشئت الحياة لتتهذّب من الشرّ وتسمو إلى الكمال. هذا ينطبق على كلّ حيٍّ خَلقه الخالق، فهو يستطيع السير والانضمام إلى إمرة الخالق ويستطيع الانفلات عنها.

فالحياة لا تكون إلّا لِمَن أراد وبالحرّيّة الكاملة، أي ليس تحت أيّ ضغطٍ أو قسرٍ. بل جاءت رسالات الأنبياء تبيّن للإنسان عاقبة الأمور، فإن سار على هداية الخالق يسمُ إلى طريق الكمال الذي يتواصل في أزليّة لا تنتهي فالكمال بمعرفة الأزل يتطلّب بقاءً أزليّاً، فحقّ صاحبها في البقاء أصبح أزليّاً لا ينتهي.

وإن أبى هداية خالقه ينعطف إلى طريق الفناء والزوال. وأعطى الخالق الإنسانَ قدرةَ الاختيار، فهو نفسٌ والنفس البشريّة قادرةٌ على الإرادة لما بها من وعي.

وهكذا نرى أنّ الحياة وكلّ ما بها من بقاءٍ وعزّةٍ تتواءم فقط مع العُظَماء الذين فضّلوها وأرادوها ولم يكدّروها بشرورهم أو يحاولوا العبث لنيل شهوات أنفسهم فيقتلون ويكذبون ويراؤون ويتبعون كلّ وسيلة ملتوية لنيل شهواتهم. فالشرير يحاول إفناء الحياة وليس إبقاءها، فالسيف الذي يقتل به يُقتل به واليد التي سرق بها قوت الناس سرق بها ضميره فما عاد صالحاً للحياة. فالوضعاء تلقائيّاً تلفظهم الحياة، لأنّ الحياة بصحّتها لا يمكن أن تتكامل في وضيعٍ شرّير. فهذا سُلِّفَ الحياة ولكنّه لم يستأهلها ولم يُثْبِت جدارته بها، فأصبح حقّه بها هو

البقاء المؤقت لكمال غيره من الأخيار الذين تتجلّى بهم الحكمة التي يسيّرهم بها الخالق، فالحياة لا تقبل إلّا العظيم.

(إنّ الحياة لا تصحّ إلّا لِمن أراد نفسه)، أفهمها أي أراد نفسه أن يبقى حيّاً وعمل بمقتضى هذه الإرادة، لأنّ دليل وجود الإرادة خروج صاحبها إلى العمل بها. ويبيّن الخالق في رسائله قبسَ الصحّة في الأمر، فمَن أراد المنجاة فعليه بأفعال العَظَمة. ومقوّمات أفعال العَظَمَة هي بالإيمان باللّه والطهر النفسي القائم بذاته وصفاء خبيئته في تعامله مع الناس. وحذّرهم الخالق وأنذرهم من الانحراف بالانسياق وراء الشهوات إلى أعمال الشرّ التي تورث صاحبها الضِعة فيصبح بها شرّيراً ويتوجّب نسفه من الحياة. وأعمال الضِعة هي بالعهر الذي يفني العائلة ويدمّرها ويكتسح الإنسان فيقوده من إثم إلى إثم أي يدخله إلى الشر. وبالفجر وقتل الناس بعضهم بعضاً لامتلاك واحدهم ما عند الآخر. وبالفسق حيث تدرج الخيانة والغدر. وأخيراً بالكفر حيث ينكر المخلوق وجود خالقه كي لا يبقى له من ضمير يأبى تعاطي أعمال الشرّ.

أعطى المعلّم مثلاً يُظهر به بشكلٍ جليّ كيف ينال الكائن حقّ البقاء في الحياة، وكيف يخسر هذا الحقّ، والمثل هو :

دخل شخصٌ إلى حديقة وأكل من أثمارها واستنشق من رائحة أزهارها وقطف من ورودها، أعجبته واستهوته وما أقدم على عملٍ يضرّها، فهذا يحقّ له أن يدخلها متى أراد. وشخصٌ آخَر دخل إلى نفس الحديقة وأكل من أثمارها أيضاً، ولكنّه راح يعبث بها ويرمي بها الأوساخ ويدوس على الأزهار ويكسّر الأغصان، وحاول الناس نصحه وإعادته إلى الصواب مراراً فأبى، فهل يحقّ له الدخول إليها بعد؟. كلاّ، بل الصحّة إخراجه منها.

وكان الإمام يوضّح لنا كيف أنّ الحياة لا تُعطى عنوةً، فهي لا تُعطى إلّا لِمن أرادها وعمل لأجلها. مَثَلُها في ذلك مَثَلُ العقيدة، فالعقيدة لا تقوم على القسر والجبر. فإن قَسَرْتَ إنساناً على اعتناق عقيدةٍ لا يؤمن بها، فهو يكون قد تظاهر باعتناقها تظاهراً، إذ لا يمكنه أن يعتنقها إلّا إذا اقتنع بها. فالسير بإمرة الخالق لا يكون بالقسر بل بالاختيار الحرّ وبالاقتناع.

علّمنا مجيب أنّ الخالق هو معلّم الحياة ومروّضها، فهو يعلّم كلّ كائنٍ حيّ يأتمر بأمره ويقدّر له مساره ونماءه، لا فرق في ذلك بين أكبر وأصغر فهو يسع الجميع، كلّهم يسيرون في هدايته وفيما أراد لهم من تسيير. أمّا كيف يتناول كلّ فردٍ منهم في تسييره فهذا أمرٌ لا تصفه الكلمات.

لكلّ كائنٍ رعايةٌ وإشرافٌ شخصيّ من الخالق، قد تختلف العلاقة في شكلها وصورتها من شخص إلى آخر، ولكنّ هذه العلاقة في مضمونها هي الحِلم الذي لا ينتهي. وكلّ هذا يجري بإشرافٍ شخصيّ من خالق الحياة.

أمّا كيف كان المعلّم يُدْخِل مفهوم الحِلم في أذهاننا فقد جرى بأحاديث وأمثال شتّى وهي جاءت كالآتي :

زرعْتَ شجرة، فعليك أن تصبر عليها حتى تكبر بشكلٍ طبيعي، وعليك أن تسمّدها وتقلّمها وتسقيها وتعتني بها. وإنْ لم تفعل هذا تَيْبَس الشجرة.

وهكذا الخالق عندما يزرع الحياة في شخص، فهو يعتني به ويروّضه ويهذّبه حتى يستقيم ويسمو في مدارج الكمال إلى الرفعة التي علّمنا مجيب أنّها بما أراد الله لكلّ الخلائق.

وهو إذ خَلق الأحياء وأعطاهم من حِلمه سبيلَ المنجاة فهو لا يقسرهم على أمر، بل يعلّمهم ويروّضهم وذلك فقط لِمن قَبِلَ أن يؤمر منه. الخالق أنزل على الإنسان القول بواسطة الرسائل، فمَن يرِد اتّبع هذا القول. فالعُظَماء في الحياة يظهرون لأنفسهم وكأنّهم هم الذين يلدون أنفسهم لحياة البقاء من أبٍ هو الإيمان بالإله وأمٍّ هي الضمير الطاهر. فهم أصحاب الإرادة وهم الذين أثبتوا جدارتهم وهم الذين أثبتوا عَظَمَتهم ومن هنا تأتي رفعتهم، وذلك عن طريق التسيير الحكيم الذي أمدّهم به الله في كلّ دور. يذكّرنا هذا الحديث بما جاء في القرآن الكريم في سورة (الفجر) الآية ٢٤ : «يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي».

بالنسبة للأخيار يتمثّل الحِلم الذي هو المنجاة على صورةٍ من الكمال عظيمة، وذلك بتسييرهم وأخذهم بكلّ رعايةٍ وكلّ رفق، أكان هذا التسيير على الأرض أم كان في السماء. أمّا بالنسبة للأشرار فلا يقوم الحِلم عليهم إذ رفضوا التسيير، إلّا أنّ الله يخلقهم من جديد فلعلّهم يغيّرون رأيهم ويرجعون إلى جادّة الصواب. ولا تُغلق أبواب التوبة وينتهي حِلم الله بالكائن وتنأى عنه منجاة الله إلّا بعد أن ينكر هذا الكائن وجود الله ويصرّ على محاربة الهداية جاعلاً من نفسه عدوّاً لها ولربّما في أكثر من جيل. ولا يقتصر هذا القول على الذين كانوا يعادون دعوة الله عند قيامها، بل يضمّ أيضاً الأجيال بعدهم من الذين أصرّوا على معاداتها كأسلافهم السابقين. وعداوة الدين إمّا في النكران وتسخيف الهداية، أو في تحريف صراط الدين وتشويه صورة الله بعقول الناس بقصد استغلال الدين للمنفعة الدنيويّة، ومَن يصل إلى هذه النقطة الأخيرة يعجز عادةً عن الرجوع ويعجز عن التوبة. فالتشويه الذي حاول إلصاقه بصورة الربّ في الأذهان انعكس على نفسه فأصبح حقيقته. فهو بات يخاف

من ظلّه فقد صدّق نفسه من حيث لا يدري ووقع بمزلق لا رجوع بعده، لأنه بات لا يستطيع التوبة وقيّدته «العزّة بالإثم» بقيد زلأت لا تنتهي فما إن تختفي في صاحبها حتى تعود وتظهر بشكلٍ أشدّ مما كانت عليه، فهو لا يستطيع الانفكاك عنها.

فقاتِلُو ضمائر الناس لا يمكنهم الرجوع إلى التوبة وهذا حقٌّ وعدل. فهم أجرموا وقتلوا أنفساً كانت لو استمسكت بعزّة الله مؤهّلة للبقاء وكان لها أن تصل إلى الحياة. فعقاب الآخرة فقط على من جريمته تتعدّى حدود الدنيا.

نزول الأرواح إلى الإنسان

عرّفنا مجيب أن الأرواح في بدايتها كانت طاهرة ثمّ أنزلها الخالق إلى الإنسان وكمّنها به وأنّ الروح هي الضمير وأنّ خوف الإنسان من ضميره هو بداية طريق الصفاء، ولكن بعض الأرواح بدأت تشتهي شهوات الجسد وهكذا مات الضمير الطاهر الذي يكمنه هذا الإنسان فتحوّلت نفسه إلى نفس شريرة بعد موت ضميره. وقال ساجي عن هذا الأمر: «نتنبه أنّ الروح هي الضمير أو أنّ الضمير هو ما بالإنسان من روح، ولأوّل مرّة جاء مَنْ يُعرّف ما هي الروح، ما وظيفتها بالإنسان» يقصد أنّ مجيب هو أوّل من عرّف عن الروح.

وفهمت من شرح المعلّم عن هذه النقطة:

الروح مخلوقٌ بلا علّة وهو الإنسان الصحيح، الجسم مخلوقٌ بعلل. نزول الروح على الجسم كي تُصارع، كي تَستعمِل وتُجرِّب وتعلم ما ذخر بها الخالق من قدرة ومن طهر. أتاح لها الخالق في الكون البشري مجالاً كي تُخرِج ما في نفسها وتكمل به. كي تُروِّض بإرشاد الحكمة الإلهيّة دوراً فدوراً، فتصبح حكيمةً وزكيّة. فهمت من تعليم المعلّم أنّ ذلك الإنسان الروحي يدخل في معترك الصراع بين الخير والشرّ، معترك اختيار العَظَمَة أم اختيار الوضاعة، وذلك في دخوله الجسد وتكرار القمصان. فإنْ عزّ بالإيمان بخالقه وعزّ بالطهر والصفاء، أي اكتمل بمقوّمات العَظَمَة، وما أطاع الجسد في الشرور، بل على العكس من ذلك جلب معه إلى الحياة كائناً جديداً هو الإنسان الترابي الذي يكمن به كضمير، عند ذاك يعود أدراجه إلى عالمه الطاهر حكيماً مروّضاً مؤهّلاً للبقاء.

الخالق أراد بالأرواح أن تكون أرواح برّة، ولذلك أنزلها إلى حلبة الصراع البشري كي تمارس ما بها من برّ. وفهمت من المعلّم أنّ علّة بُعد عالمنا عن الخير وتوغّله في الشرّ وانقطاعه عن عالم الحياة السامية، علّة كلّ ذلك وأكثر من ذلك هي قَدَر نزول الروح على الجسم. فالروح كي تمارس فاعليّتها وتستخرج كمونها الذاتي عليها أن تصارع حقيقة الفناء والموت بما لديها من إرادة الحياة. وعلى قدر صعوبة العمل يظهر قدر كفاءة العامل، فصعوبة

أرضنا من قَدَر كمال الأرواح والإنسان صاحب الروح. فالروح أُنزلت إلى الجسم كي تجري في مجرى الكمال هذا، نزلت على شخصٍ تأمره وتنهاه، نزلت عليه كي تطهّره، أعطاها الخالق شخصاً كي تعمل على تطهيره. وتأتي الحكمة الإلٰهيّة في كلّ دور بأديانٍ ورسالات لتعلّم الضمير نفسه، كي تساعده في هذا الصراع الجبّار.

الروح بالنسبة للإنسان قدرةٌ في نفسه كي يحفظ طهره، كي يعلم عن خالقه. فالروح في الإنسان قدرةٌ يستطيع بها أن يصل إلى المنجاة وأن يدخل في سلك البقاء الأبدي. ومذ أعطى اللّه الروح للإنسان فهو غير ظالمٍ له، حتى وإنْ كان ذلك الإنسان لا يعرف اللّه، فقد أودع اللّه في نفسه قدرةً يستطيع بها أنْ يصل إلى المعرفة وإلى الكمال.

إنّ كثيراً من الناس في عالمنا هذا، بعد نزول الروح جنحوا إلى نسيان هذه الضمائر الكامنة بهم، واستزادوا من شهوات الجسد والنفس، حتى فقدت الروح قدرتها في نفس الإنسان، وخسرت الأمن الذي كانت تستشعر به من طهر الإنسان. ولكثرة ما اقترف صاحبها من موبقات وسار عكس طريق الحكمة والصواب بدأت بعض الأرواح تخسر من جوهريّتها الطاهرة، فلا يكون الضمير عنيفاً في لوم صاحبه كما كان في البداية، بل يعجز عن متابعة شدّته الأولى، فوصلت مثل تلك الروح إلى العجز، فقد أصبحت لهذه الشهوات فاعليّة في الإنسان أكثر ممّا للروح، في البداية كانت القدرة للروح في نفس الإنسان وفي النهاية أصبحت للشهوات.

وبعض الأرواح استمرأت الشهوات النفسيّة والجسديّة، فأطاعت صاحبها بعهره وفجره وفسقه وكفره فانقلبت إلى روحٍ شرّيرة، وأصبح ضمير مثل ذلك الإنسان يقوده في دروب الشرّ عوضاً عن أن يقوده في دروب الخير.

الرسالات والتقدير

علّمنا مجيب أن الأعمال هي مرآة النفس عند اللّه. وسأحاول هنا أن أوجز ما فهمته عن هذا الموضوع:

قضت الحكمة الإلٰهيّة أن يكون هنالك رسلٌ وأنبياء يأتون إلى العالم بكتبٍ فيها الهداية وفيها الحقّ. فاللّه لا يأخذ الناس بأعمالهم قبل أن يرسل لهم الهداية والنور. وبهؤلاء الرسل يجري تقدير المسرى وتقدير العمل. أي بعد قيام الهداية يصبح تقدير كلّ شخص على أساسها. فالإنسان قبل الهداية لا يُقدَّر له الخالق حسب أعماله فالهداية لم تأتِ بعد. أمّا بعد طرح الهداية يكون التقدير لكلّ واحد بحسب قيامه بها. فهذا وصل بها إلى نقطةٍ معيّنةٍ

فيكون خَلقه وتكراره بالقمصان على حسب هذه النقطة التي وصل إليها. هذا نكر الهداية وتأبّاها فيكون خَلقه وتكراره بالقمصان من النقطة التي وصل إليها أيضاً. فإمّا أن يُكرَّز ويُدعى إلى الهداية ثانيةً وإمّا أن يتمّ نسقه من الحِلم بعد أن يكون قد أصرّ على باطله وناصب الهداية وأصحابها العداء ووصل إلى طريق اللّارجعة.

أمّا بالنسبة للمهتدي أي للمتّبع، إذا كُرِّزَ بالقمصان فيكون تكراره عن مراد كماله، فهو إن وصل في الهداية إلى نقطة معيّنة يُتِمّ في الدور الثاني مسراه الأوّل، وهكذا حتى يصبح روحاً طاهراً ـ كائناً حرّاً ـ فيصعد إلى ملكوت ربّه. ويصبح حقّ المنشقّين عن الهداية القائمين لمحاربتها هو فقط في تسييرهم لإكمال المهتدين. ولا يقف التقدير عند هذه الحدود بل يؤثّر على مستقبل الشخص بالكامل، كالوضع الذي سينتقل إليه، والفرص التي ستُفتح أمامه، والسماء التي سينتقل إليها إن كان قد أصبح من أهل السماء في سريرته. وهكذا تتقدّر الحياة وتتطوّر بتأثير ردود الفعل لدى مجيء رسالات الخالق إلى خَلقه. ودعونا نفهم تكرار القمصان والخلق من جديد بآية القرآن الكريم في سورة (الانفطار) الآيات ٦ و ٧ و٨: «يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ».

الرسالة دائماً هي التي أثّرت على العالم سلباً أم إيجاباً في أقطار العالم وتاريخه في قديم الزمان وحديثه. قديم زمن الأرض يمثّل الرسالات التي جاءت إلى الصين والهند والترك والزنج والسند والفرس والكرد. أمّا حديث الرسالات فهي الرسالات المتابعة في شعب بني اسرائيل من ابراهيم إلى عيسى إلى الرسالة العربيّة. كما جاء في القرآن الكريم سورة (الرعد) الآية ٧: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». فليس هنالك قوم في الدنيا لم يرسل اللّه لهم هادياً منهم.

وقد أعطت الحكمة الإلَهيّة مجالاً للأرواح الطاهرة للاستزادة بطهرها وذلك من طريقة تكوين هذا العالم وتضارب أعماله. كما أعطت مجالاً للأرواح الشرّيرة للاستزادة بالآثام وتوغّلها بها.

أمّا الرسل أصحاب الرسالات فقد علّمنا مجيب أن اللّه طهّرهم ونفى عنهم «عجز الكسل» وذلك بحقّ الرسالة. ولكنّ هذا لا يمنع كونهم هم الذين أرادوا الكمال من تلقاء أنفسهم فقد عُرض عليهم هذا القدر الجبّار وتقبّلوه بروح الحمد والإخلاص، وقوّة الأنبياء وأعمالهم لم تكن مسطورةً على اللوح سابقاً بل إنّ اللّه يستحدثها بالنبيّ خلال دعوة النبيّ وقيامه. وكذلك أقدار الناس لم تكن مسطورةً قبل مجيء النبيّ وطرح الرسالة بل هي تتقدّر

خلال دعوة النبيّ وبعد دعوته من نقطة ردود فعل رسالته في العالمين. كما جاء في القرآن الكريم سورة (آل عمران) الآيات ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢: «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ».

الكسل والشرور

يجب لم يدْعُنا أن نهجر الشهوات الجسدية منها والنفسيّة، بل دعانا أن نخفّف من حدّة هذه الشهوات التي تسوق صاحبها إلى الشرور وأن نستمع إلى صوت الضمير كي نصل إلى «اللّذة الروحيّة» التي تخفّف بصاحبها لذة شهوات الجسد وتزهّده بحدّة أطماع النفس وقبل كلّ شيء تنبّهه إلى وجود الإله. الشهوات والأطماع تسوق الإنسان إلى عجز الكسل الذي يقيّد أهل الطغيان والشرّ عن السير وفق الهداية الإلهيّة.

وأحاول في الكتابة التالية أن أوجز ما فهمته من حديث الإمام حول موضوع عجز الكسل:

كما أنّ العمدة الأولى للصفاء هي الخوف من الضمير والتضحية بالشهوات، فإنّ أوّل طريق الشقاء هو تناسي الضمير والانسياق وراء رغبات الجسد ومطامع النفس بدون رويّة. وهذا الانسياق يولّد في النفس كسلاً عن القيام بالهدى، وهذا الكسل لا يزال يزداد في صاحبه حتى يصل به إلى العجز عن القيام بأيّ عملٍ خيرٍ ولو أدرك صحّته. فالكسل يتولّد منه عجزٌ، هذا العجز يطغى على عقل الإنسان فيبرّر أعمال الشرّ والآثام التي يقترفها، يبرّرها لنفسه ويعلّل نفسه بعللٍ كثيرة. فهي الحياة ـ كما يقول لنفسه ـ تتطلّب هذا المسرى الوضيع الذي يختطّه، وهو مجبرٌ على ذلك برأيه وليس له في الأمر حيلة.

كما أنّ الذين يسيرون وفق شهواتهم ويصلون إلى أعمال الشرّ لا يستطيعون مواجهة الحقيقة، فيحاولون إخفاء أنفسهم وراء مغالطاتٍ شتّى وكثيرة جدّاً.

وأعطى المعلّم مثلاً أراه يوضّح حقيقة هذا القول، المثل هو: إنسانٌ تكاسل عن صلاته وأصبح كلّما طالت فترة انقطاعه عن الصلاة ازداد تكاسله عنها، حتى يصل أخيراً إلى العجز عن إقامتها. في بداية الأمر يتكاسل عن وقتٍ من أوقاتها ثمّ يتكاسل عن وقتين، وفي آخِر الأمر يهملها بشكلٍ تامّ. بعد أن يهمل صلاته يعلم أنّه ليس على صواب بهذا التكاسل ولكنّه عاجزٌ عن أداء الصلاة فيقول لنفسه ليطمئنها: إنّ الله يرحم بلا صلاة. الصلاة ليست ضروريّة. وهكذا يعلّل لنفسه تكاسله. وتدخل به علل الفساد فيكره الذين يصلّون لأنّه يعلم

أنّ عملهم خيرٌ من عمله (ودائماً الإنسان غير الصفيّ يكره الأفضل منه). وهكذا قاده عجز الكسل إلى الشرّ.

بعض الناس يكسل عن عمله ثمّ يزداد كسله حتى يصل إلى العجز عن العمل فيقع بالحاجة، ويغضب من الوضع الذي أوصله إليه كسله. وكي يبرّئ نفسه يلوم الربّ الذي لم يرزقه، ويلوم القدر الذي لم يُعِنه، أو يلوم المجتمع القاسي، ولكنّه لا يلوم نفسه. ذلك لأنّه يعلم أنّه إن لام نفسه فسيدفعه هذا اللّوم إلى الاجتهاد في العمل ثانيةً، وهذا ما لا يريده له التكاسل الذي في نفسه، ويدفعه هذا الشعور إلى الحسد وإلى الحقد. ويصل به عجز الكسل هذا إلى مرحلةٍ يكره بها الربّ والمجتمع.

وأخيراً أُوجز الكلام أنّ عجز الكسل الذي سبّبه تكاسل الإنسان عن التقوّم بما تأمره الحكمة أعمى بصيرته، فطفق يختلق المغالطات ويكدّسها فوق بعضها البعض في محاولةٍ للهروب من السيرة الصالحة التي دعته إليها الأديان ورسالات الطهر في كلّ عصرٍ ومصر.

كلّ ما ذكرناه سابقاً عن عجز الكسل يعطينا رؤيةً لشرح المعلّم أنّ عجز الكسل يسبّب طغياناً على العقل. فعجز الإنسان عن العمل الصالح يطغى على عقله ويصوّر للعقل الأمور بغير صورتها. وعجز الكسل هو الذي دفع بالعاجزين أن يقولوا أنّ الإقرار بالكلمة يكفي ولا ضرورة للعمل الصالح. متناسين أنّه لو لم يكن للعمل الصالح وجوبه وضرورته لما أمر اللّه به في كلّ رسالة.

استقراء شيءٍ عن عزّة اللّه من كوننا وتراكيبه

علّمنا مجيب أن ما نرى بناظرنا من الحياة هو عزّة اللّه في خلقه. ومن فهمي لشرح المعلّم لها :

إنّ للّه العزّة، وهي عزّةٌ غيبيّة أزليّة فوق الإدراكات الكونيّة. فهو الذي أنشأ الحياة الأبديّة ثمّ أنشأ الحياة المتسامية إلى البقاء بما بها من سمواتٍ عُليا وأكوانٍ دنيا. ومن هذه الأكوان أرضنا التي نعرفها. وكلّ هذا الخَلق بأقصاه وأدناه إنّما يعكس العزّة للّه في خَلقه وفي جريانه.

إنّ هذا الكون بكلّ ما فيه يشير إلى عزّةٍ غيبيّةٍ للّه الخالق، لِما به من قدرةٍ في تكوينه، ولِما به من تعدّد الخَلق بأشكالٍ لا حصر لها، ومن حسّ اليقين، ولِما به من جريان حكمةٍ سواءً في الخَلق والتركيب أم في تسيير الشعوب وفي تمازج الأفكار وفي تولّد العواطف وفي تشابه الأجيال واختلافاتها، لِما به من رحمةٍ متواجدةٍ في قلوب الأمّهات والآباء في الحيوان والإنسان تلك الرحمة التي حفظت للعالم إمكانيّة بقائه واستمراريّته، للحبور الذي هو منتشرٌ

في كوننا والذي لا نستطيع الحياة بدونه، للنقاء الذي بهذا الكون وكيف تُبْصَرُ الأشياء، كلٌّ له شكلٌ معينٌ ولهذا نستطيع الإدراك. فنرى في هذا الفعل أنّ قدرة الخالق متحابكةٌ في حكمته وعزّته وإبداعه حتى لا تستطيع أن تميّز حركةً من هذه الحركات في فعلها عن حركةٍ أخرى. فأنت إذ تنظر إلى الكون ترى به سِعة عزّةٍ للخالق يرتدّ معها بصرك إليك وهو حسير، وعَظَمةً له تضحك من صغرك اللامتناهي أمامه، ورفعةً عن كلّ ما تتصوّر وتعلم عنه.

وكان المعلّم يعلّمنا كيف ننظر إلى تكوين الأفلاك والأكوان ويلفت أنظارنا لما تعكس من عزّةٍ للخالق في تكوينها وفي جريانها. فدعنا نتكلّم الآن عمّا نعلمه عن تكوين الأفلاك والأكوان. فنحن نرى أو بالأحرى بتنا نرى منذ القرن الماضي أنّ هنالك ملياراتٍ تتلوها مليارات من الأفلاك ولربّما الأكوان بشكلٍ لم نصل به إلى التقويم أو إلى التحديد بعد. وبتنا نعلم أنّ كلّ هذه الأفلاك والأكوان إنّما هي في الحقيقة من عنصرٍ واحد، هذا العنصر هو قدرةٌ مجرّدة انفلقت في بداية الخَلق فتشكّلت فيما لا يُحصى ولا يُعدّ من أشكال. فالنجم أي الشمس - وهنالك مليارات النجوم - هو شكلٌ من أشكال هذه القدرة، وكلّ ذرّةٍ بهذا النجم أو إشعاع أو كهرباء ما هي إلّا شكلٌ أيضاً من أشكال هذه القدرة. فأرضنا مثلاً، ككُلّ، هي شكلٌ من أشكال هذه القدرة، وكلّ شجرة بها شكلٌ من أشكالها أيضاً، وكلّ إنسان وكلّ حيوان وكلّ حجر وكلّ ذرّة تراب وكلّ ذرّة ماء وكلّ شيء بدون أيّ استثناء ما هو إلّا من تركيبات تلك القدرة ومن أشكالها، هذه القدرة المجرّدة التي تشكّلت في خَلقٍ نعرفه أو لا نعرفه على امتداد سِعة كوننا.

وهكذا نستطيع أن نتصوّر شيئاً من قدرة الخالق. فيعكس لنا شعوراً بعزّة الله يفوق ما كان لدى الإنسان في قديم الدهر والذي كان يجهل هذه العلوم. ونحن كلّما ازددنا سِعةً بإدراك عالمنا ازددنا شعوراً بسِعة عزّة الله، وأشارت معارفنا أنّ قدرة الله وحكمته أوسع مما نعلم، وهذه السِّعة الإدراكيّة تزداد في صاحبها المتسامي في اكتشاف كونه.

وهكذا في الخَلق فإنّ الأشكال التي اتّخذتها القدرة المجرّدة ما هي إلّا أنواع الخَلق الذي لا يُحصى، والمتواجد على مدى اتّساع الأفلاك والأكوان. فهذه القدرة خرجت في فعلٍ هو الخَلق في أكواننا هذه، ولا حاجة بنا هنا أن نعدّد أنواع الخَلق اللامتناهي حتى في الأرض وحدها. فكم نوع من التربة؟. وكم نوع من الأشجار والأثمار ومن الإنسان نفسه ومن الحيوان في البرّ والبحر؟. وما أدرانا بتعداد الخَلق في أكوانٍ غير كوننا وفي أفلاكٍ غير فلكنا؟.

وحكمة الخالق مكتملةٌ في كلّ خَلقه، في وظيفة كلّ خَلق. وهي تزداد في الأحياء عنها في الجماد. فالحيّ ذلك الكائن المنفصل بوجوده، الواعي لنفسه، المتناسل من بعضه، الشاعر بالرغد وبالغيظ وبالحنق وبكثيرٍ من أفعال الحياة، تجد كمال حكمة الخالق في إنشائه وفي تقويمه وفي إعطائه وظيفةً في عالمه، تجدها كاملةً ومتناغمةً مع بقيّة الكائنات من أمثاله. وخاصّةً في الإنسان الذي أُعطي الروح والعقل فأصبح قادراً على الإرادة والاختيار.

وكان المعلّم يعلّمنا كيف ننظر إلى قدرة الله وعزّته في خلائق الكائنات الحيّة، فكلّ عنصرٍ منها قادرٌ أن يُعطي نفسه وأن يجدّد نوعيّته وهكذا امتلكَ البقاء النسبي. هذا بالنسبة للإنسان وللحيوان وللنبات بصورةٍ عامّة. كلّ نوعٍ من هذه الأنواع جعل الخالق سرّ تكوينه به، فبات ينتج نفسه ويتضاعف عدده فقد خَلقهُ قدرةً مستمرّة الجريان. وكلّ أفعال الخالق تراها متناهية إلى الحدود القصوى، أي لا حدود لها، فالحبّة قادرةٌ أن تُنتج أمثالها إلى ما لا نهاية وهكذا الإنسان وهكذا الحيوان. فهو قد خَلقها كلّها منذ أنْ خَلق جرثومتها الأولى بالنسبة لكلّ نوع. ونلاحظ أنّه في الإنسان لم يمنع هذا التعداد المتناهي وكلّ هذا الكمّ لم يمنع قيام الفرديّة.

ونعود إلى ما بدأنا به إذ نرى أنفسنا ثانيةً أمام وسع لا نستطيع معه المتابعة. فإن أردنا إبراز حكمة الخالق في تكوين كلّ نوعٍ من جسدٍ لحيوانٍ لأخذنا هذا الوصف إلى حيث لا ننتهي. فإنْ تكلّمنا عن يد الإنسان مثلاً، وحاولنا أن ندرك كم أعطته هذه اليد السهلة الحركة من قدرةٍ يستطيع بها عقله أن يميّز الأشياء، لأخذنا هذا البحث إلى كتبٍ كثيرة. وقد علّمنا المعلّم أنّ يد الإنسان ـ لما تتمتّع به من سهولة الحركة وكيف يقابل الإبهام منها الأصابع الأربعة التي تختلف في أطوالها وذلك ليتمكّن الإنسان من العمل بأدقّ الأشياء وأضخمها ـ هي التي نبهت عقله. ولولاها لما استطاع العقل أن يميّز تماماً بين الأشياء وأن يَخْبَرها، وإذاً لما استطاع إتمام وظيفته بالتمييز بل كان خسرها.

وكان المعلّم يعطي أمثالاً عن كيفيّة النظرة الصحيحة إلى ما في الكون من عزّةٍ وحكمة. فالمياه التي على الأرض هي نفسها لم تنقص نقطة واحدة. تخرج من البحر، تتبخّر وتنزل إلى اليابسة، ثمّ تعود إلى البحر مرّةً أخرى. لنأخذ قطرة من الماء، كم مرّة يا تُرى مرّت في جسد كائنٍ ما إنسانٍ أو حيوانٍ أو نباتٍ ثمّ خرجت منه وقد تعود إليه آلاف المرّات، مَنْ يدري؟!.

ونمرّ في طريقنا على الحواسّ كيف تنقل الحركة إلى الوعي، فالحركة هنا عبارة عن اهتزازات صوتيّة أو هوائيّة أو لمسيّة، تعود في الجسد لتصبح كهربائيّة. تغيّر الناقل

ولكنّ الاهتزاز بقي نفسه، وهكذا وصلت المعلومات إلى وعي الإنسان فاستطاع التعامل مع بيئته.

ثمّ النماذج الكيميائي في الحيّ، الذي يجعل كلّ كائنٍ حيّ عندنا عبارة عن مليارات العمليّات الدائمة، وكلّ هذا استلزم خَلق كائنٍ واحد، وإن توقّفت تلك العمليّات لحظات فقد فني الكائن. فهو في الحقيقة ليس إلّا حركات مستمرّة الجريان، متناهية التعداد (أعدادها هائلة)، متمايزة الأغراض (لكل خلية أو عضوٍ كاملٍ عمل قد يختلف في بعضه عن البقية)، متكاتفة التقويم (كلّها كائن واحد كأحجار البناء)، متجانسة الشعور (كلها مشاركة بالشعور بنفسها لها شعور واحد بالذات). وأنت عندما تنظر هذه النظرات إلى خالق هذه الأشياء ومبدعها تتلاشى الصورة الجامدة في وجدانك عن الله، لتحلّ محلّها صورة الحيّ العالم دائم الفعل والحركة.

في تمثيل ماهيّة الكون كتب مجيب مثلاً على مذكّرة أحدهم وهو «ماهيّة الكون كالرمية الخافية» شرحها لهم المعلّم في جلسات المدرسة عندما سُئِلَ عنها. ويذكرون من قوله في شرحها مثلاً هو:

إن كنتَ ماشياً في طريقك، رماك أحدٌ بحجرٍ على كتفك، أنت لم ترَ الرامي ولم تعلم من أين جاءتك هذه الحجرة مع أنك أحسستَ بها، هذه الرمية رمية خافية، أي لم يُدرك مصدرها.

وهكذا الأفلاك والأكوان كالرمية الخافية. فالكون تحسّ به وتراه وتجده ولكنّك لا تحسّ بمَنْ صيّره ولا تراه. فهو كالرمية الخافية رماها رام ولكنّه غير معروف. ولكنّك تعلم أنّ هذا الرامي هو خالقٌ ابتكر الشيء ابتكاراً وأوجد الوجود إيجاداً، ولكنك لا تعلم ماهيّة هذا الخالق ولا طبيعته ولا تعلم أيّ شيءٍ عن كونيّته.

وأعطى المعلّم مثلاً آخر يُظهر هذه الحقيقة أيضاً والمثل هو:

مرَرْتَ بأرضٍ ليست بذات زرع، وبعد فترةٍ من الزمن مرَرْتَ بنفس الأرض ووجدتها مزروعةً مليئةً بسنابل الحنطة. سيصوّر لك عقلك أنّ هنالك مزارعاً قام بزراعة هذه الأرض بواسطة الصَّمْد (المحراث القديم) أو بواسطة التركتور. وإنْ كنتَ أنت نفسك مزارعاً تعلم إن كان المزارع الفاعل ماهراً في زراعته أم لا وذلك من رؤية الزرع.

وكذلك إنْ مرّ أحدهم ببقعة أرضٍ خالية من البناء، وبعد فترةٍ جاء إليها ثانيةً فوجد بها بناءً شامخاً، سيتصوّر رأساً أو بالأحرى سيعلم أنه في غيبته عنها جاء مَنْ أشاد هذا البناء، وسيعلم أيضاً مهارة الباني أو البُناة من معاينة عملهم.

تصوّر نفسك الآن أنك موجودٌ قبل الأفلاك والأكوان، قبل تلك المليارات من المجرّات السابحة في الفضاء، وحتى الفضاء نفسه لم يكن موجوداً. ثمّ رجعت بعد فترةٍ بعيدة فرأيت فضاءً حيث لم يكن فضاء، وأكواناً وأفلاكاً وعالماً يكاد أن لا يكون له حدّ. فماذا سيصوّر لك عقلك أو بالأحرى وهمك؟. سيصوّر لك حتماً أنّ هنالك فاعلاً، هذا الفاعل خالقٌ ذو قدرةٍ قادرة وحكمةٍ تامّة، وأنّه عليمٌ خبيرٌ ومحيطٌ متمكّن. لأنّ كلّ شيء يجري بتقديره ولا يخرج عن تقديره مع أنّ الفاعل لا نراه قابضاً عليه بيديه، بل الفعل متروكٌ قائمٌ بنفسه، محفوظٌ ومستمرّ بحركته الذاتيّة. خاصّةً إذا انتبهتَ أنّ هذه الخلائق كلّها انوجدت لا من مادّةٍ سابقة لها، بل قدرة الفاعل أوجدتها إيجاداً. فهذا الفاعل خالق، فهو لم يعتمد بما فعل على مادّةٍ موجودةٍ سلفاً، بل أوجد الشيء حيث لم يكن شيء.

وكان المعلّم ينبّهنا إلى أنّ الخليقة لا تُنبئ في تكوينها عن مدى قدرة خالقها، بل تنبئ فقط عن إرادته بها. أي بقولٍ آخر هذه الأفلاك والأكوان لا تنبئ عن مدى قدرة الخالق، لأنّه خَلق قبلها أعظم منها وأوسع، بل تنبئ عن إرادته وعن حكمته بها فقط. وأعطى المعلّم مثلاً يُظهر أنّ الفعل تبعاً لإرادة الفاعل : صنع أحدهم فنجاناً لشرب القهوة، ولأنّه لشرب القهوة فقط فقد صنعه صغيراً، ولو أراد أن يشرب به الماء لكان جعله أكبر. وهكذا الفعل يبقى مُعبّراً عن إرادة الفاعل وليس عن مدى مقدرته واستطاعته.

العمل مرآة النفس

علّمنا مجيب أنّ العمل هو مرآة النفس ولله مرآة أنفسنا بما نعمل.

فهمتها من المعلّم أنّ الله لا يُعامل الإنسان على حسب نيّته بل على حسب فعله، فهو دائماً يترك له مجالاً لعلّه يغيّر نواياه. ولكن عندما يفعل يعامله الله وفق هذه الأفعال أكانت صالحة أم طالحة. فالنيّة الصالحة والنيّة الطالحة إن لم تخرجا إلى الفعل تبقيا في نفس الإنسان عرضةً للتغيير أو للاستبدال أو للتأثيرات. فقد تتغيّران أو تضعفان أو تتقوّيان قبل خروجهما إلى الفعل. ولا يكون قرار الإنسان كاملاً إلّا بعد أن يفعل بموجب نيّته. فقبل أن يشرع بالفعل يبقى هنالك مجالٌ للرجوع عنه أو تخفيفه أو تضخيمه. أمّا بعد أن تخرج النيّة إلى الفعل يكون القرار كاملاً. فمرآة أنفسنا عند الله هي أعمالنا.

والصحّة أن تحاكم الناس من أصحابك وغيرهم على مرآة أفعالهم، وليس على أساس الظنون، لا أن تقيسهم على نفسك ولا أن تحزر رجماً بالغيب بما يضمرون. ومَن اعتاد على هذه النظرة تجرّد عن الخطأ إلى حدّ كبير، ويصبح نادراً ما يخطئ في تقويم الأمور. ولا

يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه القدرة، قدرة تقويم الأمور على مرآة النظرة الصحيحة إلى الأعمال إلّا إذا بدأ بنفسه. وأوّل سبيل إلى الصفاء كما علّمنا مجيب هو أن يفحص الإنسان أعماله كلّها أكانت خيراً أم شرّاً ويدقّق النظر إليها على مرآة هداية الله. وهكذا يصبح يحاكم نفسه من خلال أعماله، ويصل في هذا الأمر إلى النظرة الصحيحة إلى نفسه فيراها على حقيقتها ويعلم مدى قصوره عن فعل الخير ويعلم مدى قوّته به. ويعلم مدى توغّله بالشرّ ومدى خروجه منه في كلّ عملٍ له مع الناس أو لنفسه. وفي هذا التكامل بإدراك الأعمال يصل الإنسان إلى إمكانيّة رؤية الآخرين أيضاً (من خلال أعمالهم) ومعرفة الشرّ في كلّ أمر وملاحظة الخير في الناس، حتى يصل في هذا العلم إلى فهم قبس الحكمة الإلٰهيّة التي أعطاها الله له في كيفيّة النظرة الصحيحة إلى أعمال الحياة. ويتفهّم رسائل الإله. ويقتنع بها. ويريدها لنفسه، وهذا هو باب الدخول إلى اتّباعها.

إنّ المسؤول الأوّل عن مخاصمات العائلات ومنازعاتهم هو الظنون السيّئة التي تصبح يقيناً في أصحابها قبل التروّي والتمعّن في الأعمال التي تستفزّهم إلى الحقد والعداء، وهذه الظنون تشي بهم أنّهم لا يتّبعون ولا يحاولون أن يتّبعوا سبيل الصفاء الأوّل وهو تفحّص الأعمال الذي ذكرناه سابقاً. فلو اتّبعوه أو حاولوا اتّباعه على الأقلّ لَخَلَق هذا الاتّباعُ هدأةً في نفوسهم ورويّةً وحكمةً في عقولهم ولَمَا أخذوا بعضهم بالظنون، لكانوا نظروا إلى سرائر بعضهم وحاكموها من خلال أعمالهم فقط. فأنت إذ ترى شخصاً مثلاً يقترف بحقّك خطأً ما، قد تسارع رأساً إلى الظنّ السيّئ به وإلى درجةٍ مُبالَغ فيها. أمّا الذي يحاكم نفسه على أعماله فهو يتعوّد أن لا يقطع بالحكم قبل التبيان الكامل لأنّ المُحاكَمَ هنا هو نفسه، وهو لا يحبّ أن يظلم نفسه. وهكذا يتعلّم التميز الصحيح، ويبيت يحاكم أعمال غيره كما يحاكم أعمال نفسه.

التوبة والغفران

علّمنا مجيب أنّ الله يغفر للتائبين وليس هنالك غفران إلّا بالتوبة، فإن لم تَتُب عن أيّ ذنبٍ تقترفه لن يُغفر لك.

والتوبة كما تفهّمناها من المعلّم هي في الرجوع إلى الله بطلب العفو وبالتطلّع إلى الخالق والاقتداء بتوجيهاته. أفهمها، أي لا يكون للإنسان رجاءٌ وراء التوبة إلّا رجاء مغفرة الخالق والائتمار بأمره.

والآن دعونا نتصوّر كيف ستُغفر الذنوب بدون توبة؟! كيف ستنال الغفران إن سرقت

وما توقفت عن السرقة؟ فأنت قد سرقت نفسك وبدأت بقتل ضميرك أي روحك التي هي وسيلتك الوحيدة إلى معراج الحياة الأبدي. أنت عندما تسرق أو تقتل بدون حقّ لك في ثأر أو حماية لنفسك أو للناس من الأشرار، بثّ شريراً وخسرت الضمير الذي كان لك أن تنال به معرفة اللّه ذلك الغفور الودود الذي يجتبي أخيار الكائنات إلى ملكوته العظيم. وإن أوهمناك بالغفران نكُن قد ساعدناك في طريق الشر الذي يخرجك من الحياة.

ومن تاب عن أيّ إثم أو إجرام لا يمكن أن يعود له أبداً، فالتوبة يجب أن تكون صادقة وغير ذلك ما هو إلّا تقوّل أو محاولة غير جديّة أي غير صادرة من القلب والضمير، ومن تاب إلى اللّه فقد أسلم له نفسه وأطلق يد اللّه به فيهديه اللّه بحكمته إلى الطريق القويم.

وكيف سيتمّ الغفران لآثم طالما يعود إلى إثمه كالسرقة أو القتل أو الاغتصاب بين فترة وأخرى؟. فتوبته لم تخلّصه منْ هذا الإثم حتى وإن ظنّ هو نفسه أنّه من التائبين عنه. وتوبته لو صدرت صادقةً من القلب يتقبّلها اللّه، عندها لا يعود الإنسان إلى إثمه أبداً. لو كنا نصدّق حقّاً أن الغفران يكون بالاسترضاء فقط لكان على كل قاضٍ بالناس أن يبرّئ المجرم إذا استرضى الحكومة ورجاها أن تعفو عنه.

الدينونة لا تحقّ إلّا للرحمن

عرفت منه أنّ الرحمن هو الذي يُدين وليس غيره، وليس من أحدٍ يستطيع أن يقوم ديّاناً إلّا الرحمن نفسه. ومن قضاء الحقّ أنّ الرحمن هو الذي يدين لا غيره. لأنّ الرحمن أرحم بالإنسان من نفسه، ولن يدع ذرّة خير عملها هذا الإنسان إلّا وسيحتسبها له، وهو الذي لن يفوّت على الإنسان فرصة لعمل خيرٍ إلّا ويتيحها له، فلعلّه يعود إلى الرشاد ويتوب من جديد.

الرحمن هو الذي إذا أدان إنساناً، فستكون هذه الإدانة لصالح الإنسان. فهو يعلم صالحه أكثر منه وأكثر من أيّ كائن كان. والرحمن إن قضى نسق إنسانٍ من الحياة، إنّما يكون هذا القضاء هو الحقّ الصواب. فهذا هو الدليل الكامل والبيّن على أنّ هذا الإنسان لا يُرجّى منه أيّ خير عند نسقه، فلو بقي من سبيلٍ إلى ذلك أو إمكانيّة لحصول ذلك الخير في هذا الإنسان، لما نسقه الرحمن.

أمّا إذا تنطّح للإدانة غير الرحمن ومن كان يكون مهما علت مداركه ومهما تعاظمت خبرته ومهما صفي ضميره، لا يكون حكمه تامّ الصحّة، لأنّه ستبقى أشياءُ لا يعلمها عن هذا الإنسان الذي يدينه، وعن فرص عمل الخير التي لا تُعَدُّ، وهو سيخطئ في حكمه على

الإنسان لا محالة. فهو حتى إن كان كامل الإدراك، يبقى لا تمثّل مداركه شيئاً من السعة الإلٰهيّة، وما بها من حلم. فالديونة لا تصحّ إلّا للرحمن فسعة رحمته لا يمثّلها وسع السماوات ولا سعة كلّ الخلائق أجمعين وهو بكلّ شيء عليم.

نظرة إلى مجرى الحكمة الإلهيّة في أرضنا البشريّة

علّمنا مجيب أنّ طريق الحكمة وطريق القدرة سيلتقيان في نهاية الأمر في طريق واحد، وفهمت من تعليم إمامنا أنّ الإنسان الكامل لا يبدأ قيامه على الأرض إلّا بعد اجتماع الحكمة والقدرة فيه، أمّا قبل ذلك فمازال الإنسان ككلّ بمرحلة التكوين.

وبهذا الاجتماع تبدأ قيامة الإنسان فعلاً. والحكمة في هذا التسيير هي أنّ الكمال لا يتمّ إلّا بتواجد الحكمة والقدرة في الإنسان.

وطريق الحكمة غير طريق القدرة، ولا يمكن لصاحب القدرة أن يسير في طريق الحكمة، والعكس صحيح. فاكتشاف القدرة على الأرض وامتلاكها يستوجب وجود الشرّ في الإنسان، فهو يتكامل بامتلاك القدرة من خلال حروبه وحكمه وصراعاته، فالاقتتال دفع بالإنسان إلى اختراع المخترعات ابتداء بإشادة القلاع واختراع السلالم لقهر المحاصرين بها وانتهاء بالصواريخ عابرات القارات والمركبات الفضائيّة مروراً بآلات المواصلات والإتصالات فكلّ هذه القدرات كانت حصيلة الحروب. وتسبّب الإقتتال باكتشاف القدرات التي تبطن في أرضنا هذه كالمعادن وكالبترول والكهرباء والأورانيوم الذي تحقّق به الانشطار النووي وكل هذه القدرات المكتشفة بدأت في الأساس كي يحارب الخصم خصمه بها، ثمّ بعد ذلك صار يستعملها في الحياة المدنيّة بدافع الربح والسيطرة التجاريّة إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم من قدرات ويصل في النهاية إلى ما لا يسع عقلنا تصوّره بعد أن تقوده هذه القدرات نفسها إلى معرفة اللّه وتفهّم الخير تفهّماً حقيقيّاً وليس توهّماً. أمّا إنسان الحكمة فهو يتكامل بتفتّح مداركه للخير، وهو يستجلي الخير من رسالات الأنبياء عن دافع الضمير الذي كمّنه الخالق به.

ففي اجتماع الحكمة والقدرة، يقوم الإنسان الحكيم الذي بيده قدرة، فهو بات يتصرّف بقدرته بحكمة، أي هذه القدرة صارت مسخّرة لخير الإنسان وكماله فقط، لا للتسلّط والإيثار وما شابه ذلك. أمّا بقاء الإنسان في الأفلاك والأكوان الترابيّة بعد اجتماع الحكمة والقدرة لديه، فلربّما يكون بعيداً، وبعيداً جدّاً إلى أن يسمو من عالم التراب ويصبح روحاً.

هداية الله

علمت من قول مجيب أن ليس هنالك من مجد إلّا بالارتباط بهداية الله لأنّ بها المنجاة، ولا يترك الله أحداً إلا إذا رفض وتأبى ذلك الشخص هداية الله فالمنجاة لمن يرتبط بها، والمجد لمن يرتبط بها ارتباطاً عظيماً، فقدر ارتباطه قدر عظمته. فالله أراد الرفعة لجميع خلائقه فمن أراد ما أراد الله له هنيئاً له وطريقاً أمامه زاهراً أبدياً.

(هذا غيض من فيض مّا فهمت من أقوال مجيب)

أختتم هذا القسم من الكتاب بأبيات شعر لإمامنا ساجي يصف به مرور مجيب :

رَجُلٌ لا كالرِّجالْ قِيلُهُ لِلنّاسِ قالْ
مَرَّ فينا لَيْلَةً فَذَكَرناهُ لَيالْ

حَمَلَتْهُ نَفْسُهُ رَحمةً فوقَ الجِبال
فَأَتانا داعِياً لِذُرى غَيْبِ الجَلال

ناطَقَتْنا رُوحُهُ فَتَسَمَّونا لِلأَعالْ
وانْتَشَيْنا عِزَّةً في أحاسيسِ الكَمال

ساحَ فينا نُورُهُ في رُبى سِرِّيِّ الجَمال
فَقَطَفْنا باقَةً مِنْ كَنِيْناتِ الخِصال

فَرَجَ الغَيْبَ لَنا وأَرانا اللا مِثال
فَشَرِبْنا جُرْعَةً مِنْ نَقِيّاتٍ زُلال

عَبَّرَتْ أقوالُهُ عَنْ شَديداتِ المُحال
فامْتَلَكْنا قُدرةً لِجُنَيْناتِ المآل

عُصِمَ الفِكرُ بِهِ عَنْ جُنوحاتِ الخَيال
واسْتَوى روحُ الهُدى في مَضامينِ الفِعال

مِثْلُ بَرْقٍ وانْطَفا لَمْ يُطِلْ فينا المَطال
غابَ بَلْ أبقى بِنا سَرْمَديَّ الاشْتِعال

القسم الثالث

مجابهة

أحاول في هذا القسم أن أغطّي أحداث فترةٍ من دور إمامنا ساجي، وهي الفترة الممتدّة من أواخر سنة ١٩٥٢ حتى بداية سنة ١٩٦٣. تلك الفترة التي اعتدنا على تسميتها فترة العذاب، وهي في الحقيقة فترة المجابهة، فبها برزت المرشديّة في الناس كدعوةٍ قائمةٍ لنفسها، وأُطلق على معتنقيها اسم المرشديّين، وخابت محاولات إطفاء شعلتها.

هذه الفترة تمتدّ بين مقتل مجيب وبين مباشرة ساجي تعليم أتباعه المعرفة الجديدة التي جاء بها مجيب، وذلك حين توقّف العذاب ونقلّص الاضطهاد، مع أنّ النفي والتهديد والإقامات الإجباريّة ما فتئت تلاحق ساجي وأتباعه حتى سنة ١٩٧٠.

بنى سلمان لنا بيتاً ننتمي إليه، وقِدْماً نعتزّ به، فقد أصبح لنا تاريخ على هذه الأرض مُحَدَث وغير بعيد، وكلّل ذلك التاريخ بدمائه، فكانت مأساتنا مأساته وآلامنا آلامه.

وجاء مجيب وأعطى معرفة جديدة عن اللّه. ودعانا أن نتحرّر من قيديّة الإدراك المحدود إلى شموليّة الإدراك بما أعطى من علم ونور. وإكليل هذه المعرفة التي أعطاها مجيب هو معرفة الإلٰه على حقيقة كبريائه، ومن ثمّ معرفة أفعاله في مجرى الحياة والخلق وسَير الحكمة وكيفيّة السامي، وحقيقة ما أراد اللّه من رفعةٍ لجميع ما خلق من كائنات واعية كالإنسان والروح والملائكة النورانيّة.

وأهاب مجيب بأتباعه أن يترفّعوا عن الدنس، ويتّبعوا قبس الهداية. وسرى نداء مجيب فعّالاً بقلوب أتباعه، فابتعدوا عن الآثام وطُهِّر الصفّ، وأصبحت اللطافة عنوان تعاملنا مع بعضنا ومع الآخَرين.

وافتتح مجيب درب المعاناة بسبيل المعتقد ورفع لواءها وذلك يوم دخل السجن، وجعل مقتله بشرى يزفّها لأتباعه، وأكمل به قدوته.

وجاء إمام العصر ساجي يسير بنا سيرة الفخر، غير آبهٍ بحكّام البلاد، يجابه العالم بالجهر والخير، يبثّ القوّة والعزم برجال القضيّة المرشديّة، يطهّر القلوب ويشيع الصفاء في النفوس، ويحارب في الإنسان ضعفه في إدراك حقيقة الخير وحقيقة الشرّ.

الإقامة الإجبارية

بعد غياب مجيب في عصر السابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٥٢ تولّى ساجي قيادة المرشديّين جميعاً. إنّ المرشديّين هم الذين لأنفسهم توجّهوا إلى ساجي. وكان مجيب قد أوضح إرادته بوجوب اتّباع ساجي، وكان قد أسماه الإمام قبلها. وكلمات كثيرة صدرت من صاحب الدعوة مجيب دلّت المرشديّين أنّ ساجي هو القائم بعده. آنذاك كان قد بقي لساجي سبعة وعشرون يوماً ليتمّ إحدى وعشرين سنة.

قَدِم ساجي من الجوبة إلى اللاذقيّة حيث تمّ تخييره من الحكومة بين الإقامة في دمشق أو في اللاذقيّة، فاختار دمشق وقَدِم إليها، أمّا سبب اختياره دمشق فقد كان كما علمتُ منه لأجل المرشديّين القبالى لأنّه أراد أن يعلّمهم وأن ينهض بهم إلى ما فاتهم من دعوة مجيب، ولسبب أنّ الحكومة المحلّيّة في اللاذقيّة لن تسهّل عمليّة ذهاب المرشديّين إليه، وذلك لقيام أعداء الدعوة بالوشاية الدائمة للسلطات في اللاذقيّة، ولتعاطف هذه السلطات معهم فقد ورث رجال السلطة المحلّيّة عداوة سلمان وشعبه عن آبائهم وأقربائهم ومجتمعهم. فالجوّ في اللاذقيّة كان مشحوناً بالبغضاء ضدّ المرشديّين أكثر بكثير منه في دمشق.

وصل ساجي إلى دمشق قادماً من اللاذقيّة وسكن في بيت الزعيم ـ كنّا نسمّي البيت على اسم صاحبه ـ الذي في القصّاع وهو بيت مستأجر كانت تسكن به عائلة سلمان المرشد. وكان الشيشكلي خوفاً على نفسه من أيّ محاولة ثأرٍ قد يقوم بها أبناء سلمان قد وضع إقامةً جبريّةً على جميع أبناء سلمان البالغين في البيت، يُمنَع أيٌّ منهم من الخروج من البيت إلّا بمرافقة رجل الأمن (التحرّي)، وأقام رجال الأمن حرساً على باب البيت، ومنعوا دخول أيّ شخصٍ إلّا بمعرفتهم.

حدّثني أخي مرشد المرشد الذي كان له من العمر يومها ١٤ سنة عن قدوم ساجي إلى البيت: «فور وصوله طلب من الجميع عدم البكاء، ولم يقبل أن يرى أحداً يبكي ـ كما كان قد أوصى مجيب وكما علّم ـ ورفض بشدّةٍ قصيدة رثاءٍ وتباكٍ كتبها أحد المقيمين في البيت وهو من غير الأخوة.

بعد أيّام من وصوله لم يَعُد يُسمع الكلام النابي أو التعليقات الجارحة لأنّه كان يشمئزّ إذا سمع شيئاً منها، فتوقّفوا عنها خجلاً منه.

طلب النظافة وخاصّة ممّن معه في الغرفة وكان معه شقيقه نور المضيء (٨ سنوات)

وأخوه غير الشقيق مرشد وانضمّ إليهم أحمد (٢٤ سنة) الذي جُرح يوم اغتيال مجيب، وكان ما زال يتلقى المعالجة عند الطبيب. وأكثروا من الاستحمام وكانت فرشاتهم نظيفةً، ورائحة الغرفة دائماً طيّبة[١]».

ونتابع مع مرشد وصف الأحوال الماديّة تلك الأيام: «ضاقت الأحوال الماديّة جدّاً فاضطرّوا لبيع فرشات الصوف واستبدالها بقطن. أرسل ساجي حسين محمّد علي ـ الذي كان دائم الإقامة في بيت ساجي تلك الأيام ـ لبيع فرسه الشقراء، وباعها بمبلغ أربعمائة ليرة سوريّة على ما أذكر وذلك للمصروف اليومي، ولشراء الطعام الجاهز من المطعم يوميّاً لرجال التحرّي وآخِر ما باع يومها كان قلمه (ماركة باركر) بمبلغ ثماني عشرة ليرة سوريّة».

وكان يزور فاتح في السجن أيّام المواجهة العموميّة ـ كما كانوا يسمّون زيارات السجناء العامّة ـ يوم الثلاثاء ويوم الجمعة. وبعدها بات يستطيع الحصول على إذنٍ بالمواجهة الخصوصيّة حيث يجلسون مع فاتح في غرفةٍ خاصّةٍ. أمّا المواجهة العموميّة فكان ساجي يقف فيها بين الناس الكثيرين أمام شَبَك الحديد لرؤية فاتح والتحدّث إليه مع رفاقه السجناء المرشديّين.

فكرة الثأر

بعد فترةٍ وجيزةٍ من اغتيال مجيب أرسل الشيشكلي رسالةً إلى إخوته يعزّيهم بها لفقْد مجيب، ويحاول أن يبرّئ نفسه وذلك بوصفه للقاتلين بأنّهم أنذال. ويدعو الأخوة إلى إعادة الأمور كما كانت سابقاً. ولكن لم يأبه أحدٌ منهم لهذه الرسالة، ولم يردّوا عليها، وقوبلت بالتجاهل التامّ وقد أرسلها لخوفه من الثأر بعد أن أدرك شيئاً يسيراً عن فداحة إثم ما سبقه واحد في العالمين إليه. فوضع إخوة مجيب تحت الإقامة الإجباريّة في بيتٍ كانوا قد استأجروه سابقاً في دمشق. ولاحق كلّ القرى المرشديّة بواسطة الدرك في السجون والنفي والإقامات الإجباريّة. ومن المهمّ هنا أن نذكر أنّ هذا الدكتاتور قد فرّ من سطوته لاحقاً زعماء المعارضة وغادروا البلاد وكان يلاحقهم في لبنان.

قام إخوة مجيب البالغون[٢]: أمير وسميع ومنير ـ معظم الأخوة لم يكونوا قد أصبحوا

---

(١) أحبّ ساجي أن تكون الثياب نظيفة والغرفة نظيفة، وهو دائماً منذ صغره كان يحبّ النظافة.

(٢) إخوة مجيب غير الأشقّاء، أمّا أبناء سلمان من هلاله (أمّ فاتح) فهم فاتح ومجيب وساجي ونور المضيء فقط.

مرشديّين تلك الأيّام ـ قاموا بعد أن انتهت الإقامة الإجبارية عنهم بعدّة محاولاتٍ لقتل الشيشكلي، وجلبوا السلاح من الغاب في محافظة حماة بشكلٍ سرّيّ. وكان أمير أكثرهم حماساً، وكان يقول : لا أستطيع أن أصدّق أنّ مجيب كان سيترك ثأري لو قُتِلْتُ أنا. وانضمّ إليهم مرّةً حبيب علي ناصر ومرّةً حسين محمّد علي في هذه المهمّة وهما من المرشديّين. وأخبر ساجي إخوته أنّ محاولاتهم لن تنجح. وفعلاً في إحدى المحاولات كادوا أن ينجحوا وبعد أن سدّدوا الرشاشات على الشيشكلي وهو خارجٌ من القصر الجمهوري، ولم يبقَ إلّا ثوانٍ لإطلاق النار مرّ أناسٌ بينهم وبينه، وركب السيّارة بسرعةٍ على غير عادته وفشلت المحاولة.

لو مكّنتهم الأيّام من اغتيال المجرم لهيّضت الدعوة وأصبحت القضية قضية جريمة وثأر. وهذا لا يتماشى مع منطلق الدعوة الجديد. بل تركهم ساجي يحاولون ولم يمنعهم لأنّ لهم الحقّ أن يحاولوا الثأر فقد أجازه الله في كتبه، ولكنّه أنبأهم أنّهم لن ينجحوا بها، كي يخفّف عنهم عاقبة الفشل الذي سيواجهونه في المحاولات التي قاموا بها خاصّةً أنّهم لم يكونوا يؤمنون بدعوة مجيب تلك الأيام.

إنّ مجيب كإمام للناس لم يقم بالثأر من أعدائه الأوائل الذين تسبّبوا بمقتل أمّه، والذين حاكموا أباه، ونفّذوا حكم الإعدام به ظلماً وعدواناً، كما أنّه لم يُطالِب بالثأر له عندما كان يتحدّث عن مقتله أثناء دعوته بل طلب منّا أن نعقد الفرحة لمقتله لولا أن نستعفيه من أنّنا لا نستطيع.

كذلك ساجي فهو لم يقُم بالثأر الدموي بعد غياب مجيب. وقد عجب الآخرون منّا لذلك. فنحن رغم كلّ جرأتنا ومواجهتنا الناس بعقيدتنا بلا خوفٍ معرّضين أنفسنا لشتّى أنواع التعذيب لم نثأر لا لسلمان ولا لمجيب ولا لباقي الشهداء الأبرار الذين بذلوا دماءهم فداءً لإخوتهم.

وإدراك حقيقة هذا الأمر هو أنّ الثأر يؤخذ في جهنّم كما علّمني ساجي، وكما هو واضحٌ في رسالات الإله منذ القديم. فثأر الشهداء وثأر المعذّبين في سبيل الله مأخوذٌ في جهنّم. وكان ساجي يضيف إلى هذه المعاني في قوله معنىً آخر وهو أنّ الثأر المؤسّس العقيدة أو صاحبها يأتي في نصرة عقيدته. أمّا نصرة العقيدة فهي حقيقة الجهاد وأصله. وقد قام ساجي وأتباعه بهذا الأمر خير قيام، وشهدت البلاد بأسرها، وشهد أعداؤهم بصلابةِ وقفتهم واعتزازهم بمذهبهم وهم القلّة المستضعفة والمستهدفة من كلّ أحزاب البلاد.

لقد دفع ساجي وأتباعه بأجسادهم وأعمارهم لتُستهلك في نصرة العقيدة التي حاول الناس إرجاعهم عنها.

وبعد أن ثارت البلاد على الشيشكلي في بدايات سنة ١٩٥٤ وطُرِدَ خارجها قُتِلَ على يد أحد الدروز لأنّه كان قد أرسل حملةً عسكريّةً لتقتيل الدروز، وقَتَلَ مئات منهم، واحتلّ جيشه جبل العرب. ولم يُقتل بأيدي المرشديّين لأنّ المرشديّة كمثل كلّ مذهب وعقيدة لا تعتني بالثأر. فهل ثار محمّد رسول الله لمقتل عمّه حمزة الذي أدمى قلبه بعد أن مكّنه الله من قاتلي حمزة؟. أم ثأر لجميع القتلى في أُحُد أو بدر من قاتليهم؟. وكذلك هل ثأر شمعون وبقيّة التلاميذ أو عملوا على الثأر لعيسى بل قضوا حياتهم لإعلاء دعوته؟. أم ثأرَ يوسفُ من إخوته الذين رموه في الجبّ وكانوا ينوون قتله ويصارحونه بذلك؟. بل قال لهم عندما مكّنه الله على مصر، كما جاء في القرآن الكريم في سورة (يوسف) الآية ٩٢: «قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ولكن ليس معنى هذا أن لا يدافع المرء عن نفسه وعن أمّته بل الصحيح أن يدافع عن أهله ونفسه وأمّته. وإذا ثأر من قاتلي أقربائه فله الحقّ بذلك لأنّ الله أعطاه الحقّ بذلك فقد جاء في سورة (الإسراء) الآية ٣٣: «وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا».

الروحات إلى المامونيّة

بدأ ساجي يذهب سرّاً في الليل للالتقاء بالمرشديّين الذين يواعدهم في المأمونيّة ـ وهي حارة في ضواحي دمشق بقرب الغوطة ـ بشكلٍ شبه يومي. عندما كان يخرج من البيت لم يكن التحرّي الذي على الباب يستطيع التعرّف عليه. فقد كان يرتدي عباءةً سوداء فوق الجلّابيّة، ويعتمر شملةً بيضاء وعقالاً. وكان ساجي يتذاكر مع القادمين إليه كلمات مجيب وأحاديثه.

ويصف مرشد المرشد هذه الروحات: «يخرج ليلاً من البيت ويجتمع بالاخوان المقيمين والقادمين إلى دمشق ويُقام المجمع هناك ويتحدّث بينهم ثمّ يعود قبل الصباح، وأحياناً يتأخّر في العودة فيتمشّى ومَن معه بين المستشفى الفرنسي والبيت عدّة مرّات ـ المستشفى الفرنسي كان يبعد عن البيت أكثر من مئة متر ولم يكن هنالك عمار بينهما ـ وبذلك يظنّ رجال التحرّي أنّه كان ومَنْ معه يتمشّون أمام البيت فقط نظراً

لكون رجال التحرّي هؤلاء استلموا نوبتهم من رفاقهم صباحاً، ثم يدخلون من الباب الرئيسي أمام التحرّي. كان هؤلاء ونظراً للطعام الجيّد الذي يقدّم لهم يقبلون أن يتمشّى مَنْ يريد من أبناء سلمان (البالغين) الذين فُرضت عليهم الإقامة الإجبارية في الأوقات التي لا يتوقّعون حضور رؤسائهم فيها. ثمّ سمحوا لبعض المرشديّين بزيارته لفتراتٍ قصيرةٍ في البيت».

صدى غياب مجيب

إنّ مقتل مجيب لم يوهِن العزائم لدى المؤمنين بدعوته، بل زادهم تمسّكاً في عقيدتهم ورجاءً بإيمانهم بالله، فهو كان قد أخبر الجميع بقرب رحيله، وما كان في المرشديّين أحدٌ إلّا وسمع عن قرب مقتله قبل حدوثه، فجاء آيةً من الله وكلماتٍ توالت من أفواه المؤمنين به: صدق الله العظيم. أي أصدق الله ما أنبأنا به مجيب وجاء غيابه قتلاً كما كان قد وصفه سابقاً.

ولا اغتيال مجيب، ولا الإقامة الإجبارية، ولا المنفى، ولا العذاب كانوا برادّي المرشديّين عن القدوم إلى ساجي سواء في بيت الزعيم في القصّاع أو في المأمونيّة بعدها لتلقي كلمة الهدى منه.

تبيان المساق

أكمل ساجي سيرة الصفاء والجهر، وقد أرسل إلى أتباعه يومها يعرّفهم المسرى الجديد الذي اختطّه الله لهم، ألا وهو مسرى العذاب في سبيل الدعوة الجديدة.

لم يكن لدى ساجي وأصحابه من المؤمنين إلّا شعور الاعتزاز بالله والتسيير الحكيم كسلاحٍ يواجهون به أعداء الدعوة ورجال السلطة ودولةً بأسرها أنكرت عليهم حقّهم بالوجود لاعتناقهم هذه العقيدة الجديدة عليهم والتي لم يسألوا عنها وعن ما بها من قول فقد أدانوها قبل أن يعرفوها، وأكثر ما أغضبهم أنّ صاحب هذه الدعوة الجديدة هو مجيب الذي اغتاله رئيسهم الشيشكلي ومجيب هو ابن سلمان المرشد عدوّ حكّامهم وأغنيائهم الذي ظنّوا أنّهم غلبوه وقتلوه وشتّتوا أبناءه وأذلّوا رجاله، فكيف يسمحون أن تقوم لهم قائمةٌ بعده؟. أوهموا الناس من أتباعهم أنّ المرشديّة ما هي إلّا خروج عن معتقداتهم ومذاهبهم المتعدّدة لأنّها جديدة فأسموها (البدعة المرشديّة).

انتهاء الحجز وزيارة المنفيّين

بدأت كلمات مجيب تؤوّل نفسها. فها هو ساجي ساكن في المدن، وها هم المرشديّون يساقون إلى السجون وإلى المنفى في دير الزور والرقّة والميادين، وها هو دور العذاب في سبيل الدعوة يبدأ كما أنبأ مجيب قبل غيابه.

وانتهت الإقامة الجبريّة على ساجي في بيت الزعيم، ولكنّها بقيت قائمة عليه في دمشق، أي يحظّر عليه مغادرتها. ولكن ساجي أبى إلّا أن يزور المنفيّين في الرقّة ودير الزور. وبدأ المرشديّون يرسلون مالاً ومساعداتٍ لإخوانهم المنفيّين وغيرهم في السجون. وبذلك بدأت عادة المساعدة لصاحب الحاجة التي يعرفها المرشديّون بصفوفهم منذ تلك الأيّام حتى أيّامنا هذه.

ساجي يسكن في المامونيّة

في أيلول من عام ١٩٥٣ انتقل ساجي من القصّاع إلى المأمونيّة وهي ضاحية من ضواحي دمشق مُعظم بيوتها شُيِّد من اللِّبن. واستأجر بيتاً من غرفتين : غرفة صغيرة جدّاً له ولزوجته التي اقترن بها غبّ انتقاله إلى المأمونيّة، وكنت أنام عندهما في الغرفة وكان عمري يومها تسع سنوات، وغرفة كبيرة بالنسبة للأولى يستقبل فيها الزائرين ويسهر معهم وينام بعضهم فيها. وأمام هاتين الغرفتين باحةٌ صغيرة فيها زيتونة صغيرة، ومطبخ يستعملونه للاستحمام أيضاً.

كانت ضاحية المأمونيّة شبه منفصلةٍ عن دمشق، يربطها بالطريق العامّ الذي يحدّ دمشق من جهة الشرق طريق ترابي يمتدّ قرابة ٢ كيلو متر. وعندما تغادر الطريق المعبّد منعطفاً في الطريق الترابي إلى المأمونيّة، تطالعك بعض ظواهر غوطة دمشق، فتبتدئ بعد مسافةٍ بسيطةٍ أن ترى أشجار الحور منتصبةً على يمين الطريق، ثمّ تنتشر هذه الأشجار هنا وهناك في كلّ مكانٍ، وترى أشجار الجوز أيضاً وأشجار التوت. بيتٌ هنا وبيوتٌ هناك، قطعٌ من الأراضي متناثرة بين تلك الأشجار تُزرع فقط لعلف الحيوانات. فالمياه والخضرة تكادان تكتسحان المكان، ولكن ليس بغزارة ولا برطوبة الغوطة نفسها. فأنت عندما تتوغّل في الغوطة لا تجد إلّا الخضرة والمياه.

وكان يزيّن منظر المأمونيّة الأبقار والعنزات الشاميّات التي ترعى في بقعٍ خضراء، أمّا الشوائب فهي الغبرة في الصيف والوحل في الشتاء.

ثمّ يتفرّع من هذا الطريق طرقات ترابيّة كثيرة تأخذك إلى بيوت سكّان المأمونيّة المنتشرة بشكلٍ عشوائي. أحياناً تصطفّ صفوفاً بجانب بعضها البعض، وأحياناً تتباعد.

وكانت جداول الماء التي يصعب حصرها تمتدّ في كلّ أنحاء غوطة دمشق امتداد الأوردة والشرايين في الجسم البشري، هذه الجداول التي كانت تغذّي الغوطة الشهيرة بخصوبة أرضها. أمّا المأمونيّة فما كانت إلّا حارة صغيرة تقع بين نهايات مدينة دمشق وبدايات الغوطة.

الدار في المأمونيّة كانت تحتوي عادةً على غرفتين أو ثلاث أو حتى أربع غرف. ودائماً تتوسّط غرف الدار فسحة سماويّة. ولكلّ بيت بئره الخاصّ به، وترفع الماء من البئر بواسطة المضخّة اليدويّة، أرض الدار وأرض الغرف كانت بالأغلبيّة مصبوبة بالبيتون. وغرفها (مليّسة) وغالباً غير مدهونة (بدون طرش). كانت الكهرباء قد وصلت إلى حيّ المأمونيّة، إلّا أنّ المياه العامّة (الفيجة) لم تكن قد وصلت إليها بعد. لذلك كان أهالي المأمونيّة يشترون مياه الشرب يومياً من السقّا، فهم ما كانوا يستعملون مياه البئر إلّا للغسيل وما شابه، لعدم ثقتهم بنظافتها، وكان السقّا يطوف على البيوت كلّ يوم حاملاً تنكات الماء على ظهره.



في البيت الأوّل في المأمونيّة (استديو)

وعلى زاوية إحدى الطرقات الترابيّة الصغيرة المتفرّعة من الطريق الترابي العام تجد (دكّان علي) الذي يُعتَمَد من قِبل جميع سكّان البيوت المجاورة له لشراء كلّ الحاجيّات اليوميّة الخاصّة بالطبخ والغسيل والمعلّبات وما شابه من حاجات العائلة.

كان أناسٌ من زائري ساجي يتوزّعون على غرف في بيتين للمرشدّين العسكر المجاورين لبيته للنوم وللتسلية أثناء النهار، ومنهم مَنْ ينام في بيت ساجي. أمّا البهلول ذلك الرجل الذي قدم من تركيا غبّ صيحة سلمان، والذي اشتهر بلحيته البيضاء الطويلة، والذي يبلغ من العمر عتيّا، فكان يرغم الجميع على اتّباع نصائحه، لا يستثني من هذا أحداً، وكان طيّب القلب كما يظهر من أعماله رغم عناده الشديد في رأيه.

رجال المأمونيّة يرتدون بأغلبيّتهم زيّ الفلّاح الشامي القديم، الشروال، الصدريّة، العرقيّة. أمّا في أرجلهم فالقباقب أو الشواريخ. أمّا النساء فكنّ يرتدين لباساً لا أُحسن وصفه لكثرة متناقضاته، تميزهنّ تلك العباءة أو قطعة القماش التي يغطّين بها رؤوسهنّ وأجسادهنّ حتى النصف. أمّا وجوههنّ فكنّ سافراتٍ بالأغلبيّة. لم يكن هنالك أيّ علاقة

تقريباً بين المرشديّين في المأمونيّة وبين السكّان الأصليّين. ولكن لم يكن هنالك أيّ عداوة أيضاً فالسلام يُجاب، والوجوه غير عابسةٍ، والتعامل المعيشي اليومي مُرضٍ ومقبول.

وجاءت الأخوات غير الشقيقات : منى ومجيرة ومجيبة وطهران إلى المأمونيّة ليعشن في كنف أخيهن ساجي. وهنّ كنّ في بيت القصّاع قبلها حيث كنّ يذهبن إلى المدرسة. أمّا بقيّة الأخوة فقد بقوا في بيت القصاع فترةً وجيزةً حتى انتهت مدّة أجرته، ولأسبابٍ ماديّةٍ بحتةٍ غيّروا البيت إلى بيتٍ صغيرٍ وسط المدينة.

وما ان انتقل ساجي إلى المأمونيّة حتى وفد إليه المرشديّون القبالى زرافاتٍ ووحدانا، وبدأ الالتقاء بين القبالى والشمالى في بيت إمامهم، وبدأ تعرّفهم على بعضهم، وبدأ هذا الاختلاط يشكّل شعباً جديداً برعاية ساجي وصنعة يديه.

ففي العسكرية يتلاقى المرشديّون ويتعرّفون على بعضهم في الثكنات والقطعات في الجبهة وغيرها. أمّا في الحياة المدنيّة فكان المرشدي الذي له بيت في المدينة ـ بالأجرة طبعاً إذ من أين كان لأيّ مرشدي أن يمتلك بيتاً في المدينة ـ يزوره المرشديّون سواء من الشمالى أو القبالى. فكثيرون من زائريه أناس لم يسمع بهم حتى لحظة زيارتهم له. وانتشرت هذه البادرة كسرعة انتشار النار في الهشيم. كانت هذه الزيارات وإقامة المرشديّين في بيوت بعضهم تزداد وتتكاثر مع تزايد تواجدهم في المدن. يلتقي ببيوت المدينة هذه أبناء قرى من شتّى النواحي، يصلّون جماعة، ويقيمون المجمع ويسهرون ويسمرون، ولا يستحي أحدهم من تناول الطعام في بيت أخيه المرشدي، يأخذ حريّته به وكأنّه بيته هو نفسه. ودرجت عادة مخاطبتنا لبعضنا بكلمة (خيّي). أو (خيتي) وذلك في جميع أرجاء المرشديّين.

صدى المرشديّين في الصدق والأمانة

اشتهر المرشديّون منذ قيام دعوة مجيب بالصدق والأمانة وعدم الغش في التعامل مع أيٍّ كان، ذلك ما كان يوصي به مجيب في دعوته وما فتئ يوصي به ساجي، وقد لَقِيَتْ هذه الوصايا صدًى عظيماً في قلوب المرشديين، واشتهروا بشكلٍ عام في كلّ أنحاء سورية بالصدق والأمانة والإخلاص في التعامل. فكان يُعرف المرشدي من طريقة تعامله مع الناس فهو لا ينكر حقّاً عليه، ولا يشي بأحد ولو ناصبه ذلك الشخص العداء، لا يحاول إيقاع الأذى بأيٍّ كان ولو كان ذلك الرجل قد أصابه بضررٍ عظيم. إذا حدث وأخطأ أحد الناس مع مرشدي وأعطاه أجرة أكثر من أجرته يُرجِع المرشدي كلّ مالٍ زائد، مؤتمنٌ على العرض كلّ الائتمان، قد سمعت عشرات المرّات يُرسل بها الضابطُ

مرشديّاً من عساكره مع امرأته أو بناته لثقته الكاملة بكلّ فردٍ مرشديّ أنّه لن يخون أبداً. ولم يكونوا جميعهم بهذا الطهر والصفاء فقد كان بينهم وشاة ومتلاعبون و«عتاة على الإنصاف» ولكن بمعظمهم كانوا من الأبرار لذلك عَبَرَت منهم على غيرهم هذه الرائحة الزكيّة في الصدق والأمانة.

الحالة الماديّة وطريقة المعيشة

كان ساجي هو معيل جميع العائلة. أمّا مصدر المال فكان إرث سلمان ومنه أراضٍ يقوم بحراثتها أناس يأخذون من الأرض أكثر بكثير ممّا يعطون خلافاً للاتفاق السابق بينهم وبين سلمان، وأكثرهم يأبى أن يُعطي شيئاً ومِن هؤلاء كثيرٌ من المرشديّين، ولم يكن ساجي ليطالب أحداً من القائمين على حرث الأرض بشيء، فهم وضمائرهم. وكان من إرث سلمان أراضٍ لا بأس بها ولكنّها كانت أقلّ بكثير من أن يطالها قانون الإصلاح الزراعي لصغر حجمها. ولكن هذا الدخل بقي مع بعض الأعمال الصغيرة يعيل أبناءه ويتكفّل بمصاريفهم، ولكنّهم لم يستطيعوا شراء بيتٍ في أيّ مدينةٍ من سورية إلّا بعد أن تيسّر لهم العمل وأوقِفَت ملاحقتهم في السبعينات.

وكان على ساجي إطعام الوافدين إليه، وإعالة إخوته وأخواته، وكلّ المقيمين عنده في البيت. وكان بعض إخوته غير الأشقاء يطالبونه بإلحاح كي يمدّهم بالمال، وأحدهم استعمل كلاماً غير لائقٍ في إحدى رسائله في طلب المال. ولكن ساجي لم يقطع بهم أبداً، وكان متسامحاً معهم.

إنّ الذي كان يساعد ساجي كثيراً في تحمّل هذه النفقات الكبيرة هو أنّ الزائرين كانوا يجلبون إلى البيت مُعظم المواد التي تُستعمل في الطبخ كالبرغل ومشتقّات الألبان كالسمن والجبن، واللحمة أحياناً كثيرة، وكذلك مواد غير هذه لم أعد أذكرها. ومن البديهي أنّ هذا كان يخفّف جدّاً من المصاريف اليوميّة.

كان ساجي يعيش عيشةً بسيطةً في البيت الأوّل في المأمونيّة. يأتي كلّ يوم بعض الزائرين إلى الغرفة الكبيرة نسبيّاً من غرفتَي البيت حيث يستقبلهم فيها. كانت مفروشة بُسُطاً من الصوف فوق الحصر وهذا كلّ فرشها، وينام بعض الزائرين فيها أثناء الليل، فقد كان هناك بعض الفرشات وُضِعت فوق بعضها لتُمَدّ ليلاً لأجل النوم.

كان ساجي قد سَمِنَ قليلاً، فبدأ يخفّف من الطعام. ويذهب أحياناً برفقة محرز (المثّى الشهير) يجوبان شوارع دمشق على الأقدام، ويصعدان أحياناً جبل قاسيون. وهكذا استعاد لياقته البدنيّة.

أمّا النظافة فقد كان يحبّها حبّاً جمّاً وقد اعتاد عليها منذ صغره. كان كثير الاغتسال حتى أنّ مجيب كان يمازحه لكثرة اغتساله. أمّا ثيابه فكانت نظيفةً وأنيقةً، ومَنْظَره دائماً رَضيّاً ترتاح العين لمرآه، وأناقته طبيعيّة. عُرفت عنه هذه الصفة منذ كان صغيراً. يمكن للمرء أن يعرف مكان جلوسه بعد أن يغادر هذا المكان نظراً لنظافة المكان وبقائه مرتّباً، وكان كثير الحديث مع معاشريه سهل الأخذ والعطاء أثناء الحديث.

أمّا مخاطبتنا له فكانت كمخاطبتنا لبعضنا أي بكلمة (خيّي) كلّ أفراد جماعة المرشدين رجالها ونساؤها يخاطبون إمامهم بهذا الخطاب.

هَلَعُ الطاغية

لم يكتفِ الشيشكلي بوضع الإقامة الجبريّة على ساجي وإخوته في بيت الزعيم، بل نهضت قوى الدولة من مباحث وشرطة تشتمُّ الأخبار في المرشديّين إن كان هنالك من مؤامرةٍ لقتل أديب الشيشكلي، ونشط المفسدون (أي الوشاة) تبعاً لتوجيهات الشرطة والمكتب الثاني - سُميت بالمباحث لاحقاً - بإلصاق التُهَم بأناسٍ مرشديّين في هذه القرية وتلك، تتّهم المرشديّين أنّهم يتآمرون لقتل أديب الشيشكلي. ثمّ يُساق المتهمون منهم إلى المحاكم حيث يتمّ الإفراج عنهم لعدم توفّر الأدلّة.

وعمدت السلطات إلى وضع الإقامة الجبريّة على كثيرٍ من وجهاء المرشديّين، ومراقبة تحرّكاتهم. وذلك لمنع قيام المرشديّين ضدّ أديب الشيشكلي الذي كاد الخوف يفنيه، وهو لا يصدّق أنّ المرشديّين سيتركونه ولا يقتلونه لِما اقترفت يداه من إثم عظيم. ومن هذا أنّه بعد اغتيال مجيب مباشرةً، وكان ساجي ما زال في الجوبة أن ملأَ العسكرُ ورجالُ الشرطة الجوبةَ، وانتشروا في الجبل في دورياتٍ وكذلك في الغاب.

ويروي نجدت غنيجة من قرية نبع الخندق في الجبل، أنّه في الأيّام الأولى لاغتيال مجيب هاجمت قوّة من الشرطة مؤلّفة من ثلاثة وعشرين شرطياً بيت علي صقر غنيجة في الجبل، وفتّشوا حارتهم كلّها غرفةً غرفةً بحثاً عن السلاح، فلم يجدوا إلّا بعض مصابيح الكهرباء (بيل)، وسكاكين المطبخ. وكانوا يقصدون بذلك أنّه إن كانت هنالك بوادر ثورةٍ في المرشديّين أو قيامةٍ ضدّ السلطات كفعلٍ انعكاسي لاغتيال مجيب، فمن المرجّح عندهم أن يكون السلاح قد خُزِنَ في بيت علي صقر غنيجة لأنّه كان من وجهاء المرشديّين المعروفين.

واساقوا علي صقر غنيجة وأبناءه إلى قرية المزيرعة ثمّ إلى الحفّة، حيث تبعتهم جموع الناس في شوارع البلدة، ينادون : ها هو علي صقر وأولاده قد جلبتهم الحكومة يُساقون مقيّدين. سيقوا في اليوم الثاني إلى اللاذقيّة، وفي المحكمة وُجّهت إليهم تهمة محاولة مهاجمة مخفر المزيرعة للاستيلاء على السلاح، والقيام ضدّ السلطة، فأنكروا ذلك طبعاً. قالوا كيف سيهاجمون مخفراً مليئاً بالسلاح وهم لا يملكون أيّ قطعة سلاح ؟!. وقد خبّر ذلك رجالُ الشرطة عندما فتّشوا بيوتهم كما ذكرنا سابقاً ولم يجدوا إلّا مصابيح الكهرباء (بيل يد) ثمّ أخلى القاضي سبيلهم.

ويروي جميل صقر من قرية بحوّارة أنّه بعد غياب مجيب بشهرٍ تقريباً، سُجِنَ مع اثني عشر مرشديّاً آخَرَ خمسةً وتسعين يوماً في سجن اللاذقيّة بتهمة اجتماعٍ سرّيّ ضدّ سلامة الدولة، وخرجوا بسند كفالةٍ. وأخيراً جاء الحكم بالبراءة.

ويروي إبراهيم سليمان المنصور من عوج قضاء مصياف، أنّه سُجِنَ مع عشرةٍ من المرشديّين عشرة أيّام بتهمة اجتماعٍ سرّي ضدّ سلامة الدولة، وخرجوا بسند كفالةٍ. وجاء الحكم بالبراءة أخيراً.

يروي محمود فوزي من بسيقه في المهالبة، أنّه سيق مع عددٍ من المرشديّين إلى السجن، فأخذوا يسألون بعضهم عن سبب مجيء الواحد منهم، فاتّضح أنّه ليس منهم مَنْ يعلم سبب سجنه. وسيقوا من سجن الحفّة إلى سجن اللاذقيّة، حيث كانت التهمة جاهزةً، والشهود من المفسدين طبعاً. أمّا التهمة فهي أنّ هؤلاء المرشديّين قد شكّلوا عصابةً ترمي إلى اغتيال أديب الشيشكلي، وقد هال هذا الأمر رفاقهم في السجن من غير المرشديّين، يقولون لهم : إنّ حكمكم هو الإعدام، ومَنْ يخفّفها منهم يقول : المؤبّد، فالتهمة غايةٌ في الخطورة. ومكثوا في السجن اثنين وسبعين يوماً بدون أيّ إفادةٍ أو سؤالٍ أو جوابٍ.

وجاء الشهود إلى المحكمة يقسمون الأيمان أنّ هؤلاء المرشديّين كانوا يتدبّرون فيما بينهم قتْل أديب الشيشكلي، وهنا تدخّل رئيس المحكمة، وقد رأى كذبهم وصاح بهم : هؤلاء اثنان وثلاثون شخصاً يعيلون اثنتين وثلاثين عائلة، فإنْ ترمِهم الحكومة في البحر أفتحصلون على قصرٍ في الجنّة؟!. وتابع كلامه مبيّناً حقّ حرّيّة العقيدة والفكر. ونظر إلى المرشديّين وقال لهم : قرّرت المحكمة براءتكم (يا ابني). ونظر إلى الشهود الأربعة وقال لهم : أنتم موقوفون بتهمة شهادة الزور، وذلك نظراً لتضارب شهاداتكم. وكانت شهاداتهم متضاربة فعلاً، ولكنّ المحامي العامّ أخلى سبيلهم.

يروي عزيز خليل ستيته من المهالبة، أنّه في كانون سنة ١٩٥٣ سيق هو وبعض المرشديّين إلى السجن بتهمة اجتماعٍ سرّيّ ضدّ سلامة الدولة وإثارة النعرات الطائفيّة. وعندما لم يعترفوا بشيءٍ أثناء التحقيق، استعمل الشرطة معهم التعذيب. وجيء بالشهود أي المفسدين، فأدلوا بشهادات الزور كعادتهم دائماً. ويصف عزيز شعوره أنّه كان يحسّ بعونٍ من الله إلى درجةٍ لا يكترث معها بما يفعله هؤلاء رغم خطورة هذه التهمة.

ووكّلوا محامياً لقضيّتهم، وبقوا في السجن خمسةً وتسعين يوماً، وخرجوا منه قيد المحاكمة، وفي المحكمة جاء الشهود الخمسة كي يقسموا الأيمان المغلظة أنّ هؤلاء المرشديّين يتآمرون لقتل أديب الشيشكلي، وأنّهم سيضعون فاتح المرشد محلّه - ومن المضحك أنّ فاتح كان في السجن يومها يقضي حكمه، وهؤلاء المتهمون عبارة عن بعض

الفلاّحين الفقراء في قريةٍ نائيةٍ في محافظة اللاذقيّة، كيف سيغيّرون رؤساء البلاد حسب ما يشتهون ؟! ـ وقال أحد المفسدين للحاكم بعد أن سأله الحاكم إنْ كان هناك عداوةٌ بينه وبين المرشديّين نظراً لهذه الشهادة الجائرة التي يدلي بها، أجاب المفسد : كلاّ ليس هنالك عداوة بيننا ولكننا نحن نعبد اللّه وهم لا يعبدون اللّه. فسأل القاضي عزيز : أأنتم لا تعبدون اللّه؟. قال المرشديون : نحن نعبد اللّه الذي خلق السموات والأرض. قال الحاكم للشاهد : كيف تقول أنّهم لا يعبدون اللّه ؟!. قال الشاهد وقد احتدّ لهذا الأمر : اطلب منهم البراءة من المرشديّة لنرى إنْ كانوا يتبرّؤون ـ فالمفسدون يعلمون أنّ المرشديّين الأشدّاء لا يتبرّؤون من معتقدهم ولو دفعوا في سبيل ذلك حياتهم ـ أجابه الحاكم : أأنت تأمرني وأنا أنفّذ أوامرك ؟!. ونظر إلى المرشديّين وقال : ماذا تريدون من المحكمة أن تحكمكم به؟. فقال المرشديّون : لا نريد إلّا الحقّ والعدل. فقال القاضي: مع السلامة برّأتكم المحكمة.

مقاطعة انتخاب الشيشكلي

أعلن الشيشكلي في سنة ١٩٥٣ ترشيح نفسه لرئاسة الجمهوريّة بعد أن أصدر مرسوماً منح بموجبه سلطات مطلقة لرئيس الجمهوريّة، أجرى في شهر تشرين الأوّل انتخابات نيابيّة حصدت على أثرها حركة التحرير العربي التي كان قد أنشأها وأراد جميع الأحزاب أن تنضمّ إليها، حصدت غالبية المقاعد النيابيّة وانتُخب هو رئيساً للجمهوريّة بغالبية وهي ٩٩،٩٩ ٪ من الأصوات !! فهو قبل هذا كان يحكم سورية منذ ثلاث سنوات على الأقل، وما من أحدٍ في سورية إلّا ويعلم أنّه هو الحاكم الفعلي للبلاد. أمّا الآن فقد أراد الحكم بشكلٍ رسميٍّ وعلنيٍّ وبعد انتخاباتٍ صوريّةٍ.

وطلب الشيشكلي ساجي وسميع المرشد قبل الاقتراع وطلب منهما العمل على جعل المرشديّين ينتخبونه. أمّا ساجي فقد رفض هذا الطلب رغم التهديد قائلاً له : (كلّ واحد ألو رأيو). أرسل ساجي إلى كافّة المناطق المرشديّة ليقاطعوا الانتخابات مقاطعةً تامّة. وكان أنْ مَنْ ضَعُفَ وانتخب الشيشكلي (ولا أظنّهم كانوا يزيدون عن عدد أصابع اليدين) بقيت هذه الفعلة كوصمة عارٍ تلاحقه بين المرشديّين عشرات السنين بعدها.

وكما قلنا فقد قاطع المرشديّون هذا الانتخاب لأنّ ساجي كان قد شدّد على مقاطعته جدّاً، وقاطعوه رغم التعذيب والتهديد من قبل رجال الشرطة وغيرهم من موظّفي الأمن. وكان موقفهم شجاعاً.

وعلم الشيشكلي وأعوانه أنّهم لم يقضوا على دعوة مجيب إنّما الفئة الوحيدة في سورية التي أعلنت موقفها بلسان إمامها ضدّ الشيشكلي ونفّذت هذا الموقف فعلاً كانت الفئة

المرشدية، وذلك رغم التعذيب والإرهاب والتزوير. أمّا بقيّة زعماء المعارضة فقد هربوا كلّهم خارج البلاد فهم عارضوا وهم في أمان، أمّا ساجي فقد عارض وهو داخل البلاد ويواجه قوىً تفوق قوّة جماعته بآلاف المرات.

هزيمة الطاغية

وانتهت سنة ١٩٥٣. وانتهى بنهايتها فصلٌ من التصدّي في وجه أعداء الدعوة والقوّة الحاكمة التي كان يرأسها الشيشكلي. وقامت سورية في شباط سنة ١٩٥٤ بكاملها شعباً وجيشاً على هذا الطاغية، جامعة دمشق وكليّة حلب اللّتان كانتا سبّاقتين للتظاهر ضد القوتلي وضدّ الشيشكلي، ومدارسهما وعمّالهما، خرج الجميع في المظاهرات المناوئة لهذا الطاغية، يساندهم الجيش في ثكناته وخاصّة في حلب، حيث استقلّ الجيش بإذاعة حلب وبدأ يبث الخطب الحماسيّة ضدّ الطاغية ويعدّد مثالبه التي لم تكن لتُحصى من سرقات ومحسوبيّات، وإرهاب الناس، وفضائح قذرة، وجرائم قتل، وخوفه اللامعقول من كلّ إنسان، ونومه بالثكنات عوضاً عن القصر الجمهوري حيث تحرسه الكلاب وشرطة الجيش. وكانت تبرز خاصّةً تبعيّته إلى فرنسا بشكلٍ علنيٍ وفاضح، فقد اتّخذته فرنسا عميلاً لها واضح العمالة، وانضمّت كلّ أحزاب سورية وتجمّعاتها السياسيّة ضدّه، بينما رؤساء هذه الأحزاب والتكتّلات يقبعون خارج البلاد لخوفهم من بطش هذا الديكتاتور.

ومنذ بدأت إذاعة حلب تبث بيانات ضدّ الشيشكلي أرسل ساجي أخاه غير الشقيق سميع إلى حمص للاتّصال بالضبّاط الثائرين لإعلان تأييدنا لهم وعرض كلّ ما يمكن من مساعدة. وفعلاً ذهب سميع وأدّى هذه المهمّة وأجابوه أنّه إذا توسّعت المعارك مع الشيشكلي فقد يحتاجون إلينا لأنهم سيحتاجون عندها دعماً من الأهالي. ولكن سرعان ما هرب الطاغية ولم يثبت عند اشتداد المحن.

كان الخوف يلاحق الشيشكلي منذ سنة ١٩٥٢. ورغم كلّ هذه السلطة كان لا يثق بأيّ إنسانٍ كان إلّا إذا ربطه بمصالحه ربط كلابه المسعورة بالجنازير، واتّحد مصير هذا الإنسان بمصيره. ورغم قيام الناس والجيش ضدّه، كان حرسه أقوى من الجميع. ولو لم يجبن ويفرّ هارباً خارج البلاد إلى لبنان آخذاً معه ما استطاع من أموال الدولة طالباً النجاة بنفسه وماله، لربّما كان استطاع القضاء على هذه الثورة التي قامت ضدّه.

هذا وقد استقبلت فرنسا الشيشكلي عندما جاء إليها من لبنان استقبالاً رسميّاً وكأنّه ما زال رئيساً للبلاد. وما فتئ بعد هذا لعدّة سنواتٍ يحيك المؤامرات بمساعدة المسؤولين الفرنسيّين وغيرهم كي يعود إلى الحكم. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل. وكانت

نهايته على يد أحد الدروز الذين حاربهم الشيشكلي وأرسل المدرّعات تحتلّ بيوتهم وقراهم. وقد قتله هذا الدرزي بإطلاق الرصاص عليه في بيته في البرازيل بعد طرده من سورية. وفرّ بعده أشرس كلابه وأقربهم إليه وهو عبد الحقّ شحادة. وكان قد أصبح هذا الأخير من الشراسة بحيث بات يخافه الشيشكلي على نفسه. وقد فرّ الشيشكلي قبل أن يعلم به شحادة، فلحق به يريد إرجاعه إلّا أنّ الشيشكلي كان قد أصبح خارج البلاد قبل أن يدركه شحادة الذي ذُعِرَ لأنّ سيّده تركه، ونجا بنفسه تاركاً شحادة يواجه الأمّة بجرائمه، وقيل أنّه كان يخاف المرشديّين أكثر من الجميع. استلم شحادة قيادة الحرس بعده يوماً أو ساعات ثمّ لحق بقرينه هارباً من البلاد إلى غير رجعة[1].

(١) جاء في مذكرات رياض المالكي أخي عدنان المالكي «ذكريات على دروب الكفاح والهزيمة» مطبعة الثبات، دمشق، ص ١٠٩ - ١١٠، وصفاً لشحادة يقول به:

«إنّ من جملة الجرائم التي ارتكبها هذا الضابط المتهوّر، قتل المواطن السيد مجيب المرشد ظلماً وعدواناً، ثم الاشتراك، مع العقيد الشيشكلي نفسه، في قتل الرقيب ناجي البحري أثناء تعذيبه في سجن المزّة. لقد انغمست يدا هذا القاتل في دماء الأبرياء، فبات متعطشاً للدم البشري كالوحش المفترس، يطلب المزيد منها، دون روية أو خوف من حساب أو عقاب، اعتقاداً منه أن تسخير نفسه ووجوده لخدمة عهد التسلط والسيطرة سيحميه وللأبد من القصاص الذي يستحقه مقابل ما ارتكبه من جرائم وآثام خطيرة».

ويقول المالكي أيضاً:

«ولابدّ للتعريف بهذا الـ (عبد) الحق من العودة إلى ماضيه، وكي لا أظلمه أو أتحامل عليه فإني أنقل وصفه كما ورد بقلم الزميل المحامي عبد الفتاح الزلط، في رسالة وجّهها لي من الزنزانة التي كان معتقلاً فيها خلال وجودي في السجن وورد في تلك الرسالة:

فأنا أعرف هذا الأبله قبلكم، بل أعرفه منذ زمن بعيد جدّاً يعود لعهد طفولتي حين كان يأتي إلى بيتنا مستجدياً بأخي ليحل له بعض مسائل الحساب خوفاً من أن يأكل من معلّمه «فلقة» ومن ثم يسجل المسائل في دفتر وظائفه وينتحل حلّها لنفسه. هذا شأنه منذ كان في الثانية أو الثالثة عشرة من عمره، ومن ثمّ صار أخي بعد هباط ومباط وعرق من شفاه عريفاً في الشرطة ووصل ملازمنا إلى ما هو فيه الآن. نعم أعرفه منذ ذلك التاريخ، وأعرفه حين كان عضواً مفرفاً في جمعية الأخوان المسلمين حين كان محط اشمئزاز وسخرية من كافة رفاقه وأعرفه كيف ظلّ ست أو سبع سنوات وهو يحضّر البكالوريا ويخفق. ولست أدري إذا كان الأخ حمدي يعرف معي هذه التفاصيل. فإذا كان أمره لدي كذلك، فليس من الطبيعي في شيء أن أغمض عيني عن سخافاته. بل لعمري أنّه ذل ما بعده ذل أن أرى هذا الحقير في وجهي يتخطى ويتمطى ولا أستطيع أن أطبق على خناقه بيدي بل برجلي ان استطعت حتى أراه يلفظ أنفاسه الأخيرة كما يموت الكلب. ولكنها سنة الدهر حين يغلط - وكم للدهر من غلطات - وقد عبّر عنها أبو الطيب المتنبي بقوله: فالحر مستعبد والعبد معبود». عبد الفتاح

انفراج

في أوائل أيلول سنة ١٩٥٤ انتقل ساجي إلى بيتٍ ثانٍ في المأمونيّة وكان أكبر من البيت الأوّل الذي لم يكن سوى غرفتين صغيرتين، أمّا البيت الجديد فكان ترابيّاً ويحتوي على أربع غرف، غرفة نوم المعلّم (كما بات جميع المرشديّين يلقّبون ساجي منذ تلك الأيّام) وغرفة صغيرة بجانبها، وغرفة كبيرة نوعاً ما يجلس فيها الزائرون أثناء النهار وبعضهم مَن ينام فيها أثناء الليل، وغرفة رابعة كانت مخصّصةً للاستقبال، وقد وُضِع فيها بعض الكتابات. وهذه كانت المرّة الأولى التي يحتوي فيها بيته على كتاباتٍ منذ استلامه أمر العشيرة بعد غياب مجيب. وتتوسّط هذه الغرف الأربع فسحةٌ سماويّةٌ كبيرةٌ نوعاً ما.

بعد الإطاحة بالطاغية، قرّر السياسيّون في سورية إقامة انتخاباتٍ برلمانيّةٍ حرّةٍ (أي مجلس الشعب كما أصبح اسمه في هذه الأيّام)، وتوافد السياسيّون على بيت ساجي، كلّ



مع أخيه الأصغر نور المضيء في البيت الثاني في المأمونيّة في الفسحة السماويّة

فئةٍ تحاول أن تستميله إلى طرفها في مناطقهم الانتخابية، يشحذ منه المرشحون أصوات المرشديّين.

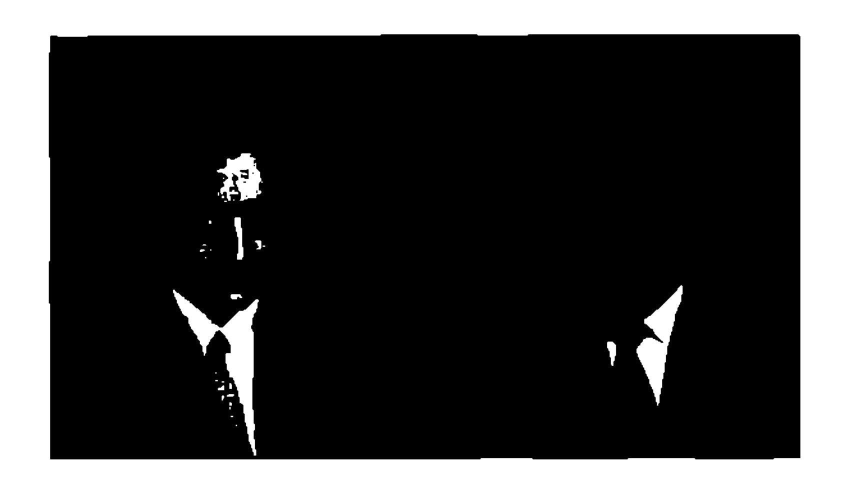
إنّ انتشار المرشديّين في مناطق عديدة في سورية كان دائماً وفي كلّ انتخاباتٍ حرّةٍ نسبيّاً يجعل السياسيّين يأخذون بالاعتبار وقفة ساجي منهم. ولكن نظراً لتعاقب الحكومات التعسّفيّة على حكم سورية لم تُعطَ هذه الأهمّيّة الكبيرة للمرشديّين حتى زمن الانتخابات التي نتحدّث عنها.

خروج محمّد الفاتح من السجن ودورة المعلّم على اتباعه

واستغلّ ساجي هذه الظروف استغلالاً حكيماً. وأنزل مرشّحاً لنا وهو عزيز عباد، وهو وإن لم يكن مرشديّاً ولكنه كان يدّعي الولاء والإخلاص وخاصّةً أثناء الانتخابات ـ فقد انتخبناه مرّةً في زمن حكم الشيشكلي وسقط نظراً للتزوير الفاضح ـ وسبب اختيار المعلّم لعزيز عباد أنّه كان متعلّماً في المدرسة، وقد حصل على إجازة الحقوق، ولم يكن في المرشديّين كلّهم مَنْ حصل على البكالوريا نظراً لمحاربة الدولة للمرشديّين، وعدم بناء مدارس في قراهم. وكان ساجي يعمل جاهداً لأجل خروج فاتح من السجن. وكانت السلطة متشدّدةً جداً على إبقاء فاتح سجيناً لديها، فهم يرون بخروجه إعادة عزٍّ وتقويةً لجماعة سلمان، وهذا الذي يحذرون منه.

أمّا في تلك الظروف الانتخابية، فقد خفّت شدّة هذه القبضة نظراً لقيام عهدٍ شبه ديمقراطيّ، وخاصّةً قُبيل الانتخابات. فقد جيء بهاشم الأتاسي ليكمل مدّة رئاسته السابقة، والتي قُطِعَت عندما نحّاه الشيشكلي عن الحكم. ولم يكن يتمتّع بأيّ سلطةٍ عسكريّةٍ. وقد جاء كثيرٌ من ضبّاط الجيش من البعثيّين إلى ساجي ومنهم مصطفى حمدون الشهير والذي كان له شرف القيادة أثناء الإطاحة بالطاغية الشيشكلي، ومحمّد الفاضل الذي كان ألمع شخصيّةٍ ثقافيّةٍ في العلويّين. وجاء حزب أكرم الحوراني ممثّلاً ببعض قادته يطلبون من المعلّم أن يلتزم بمرشّحهم وهيب الغانم في منطقتنا، ولكنّ المعلّم أبى أن يلتزم بهذا المرشّح، ورفض إلّا أن ننتقي المرشّح الذي نريده، وقد أثار هذا التأبّي الرافض للتبعيّة ضغينة وهيب الغانم وأكرم الحوراني.

في هذه الظروف الاستثنائيّة استطاع ساجي أن يحقّق خروج فاتح من السجن الذي ألهب مشاعر المرشديّين فرحاً، وكان قد استطاع أن يعمل من أجل السماح له من قِبَل



مع أخيه فاتح
في المأمونية في
البيت الثاني
(استديو)

السلطة بزيارة المرشديّين في نواحيهم للدعاية الانتخابية. وبدورة ساجي هذه على المرشديّين عمّت الأفراح قراهم جميعها، وكان ساجي يمسك بحلقة الرقص معهم في قراهم العديدة ويشاركهم دبكاتهم وأغانيهم. أمّا الأغاني والفرحة فلم تكن بشكلٍ من الأشكال تمتّ إلى الترشيح أو الانتخابات بأيّ صلة، بل كانت فرحةً بقيام الدعوة الجديدة دعوة مجيب، وبعودة ساجي إلى جماعته.

حدث هذا في أيلول سنة ١٩٥٤ وهي المرّة الأولى التي ذهب بها ساجي إلى مناطق المرشديّين بعد مقتل صاحب الدعوة المرشدية في سبيل دعوته. وكأنّها جاءت ردّاً على توافد المرشديّين إليه. تلك كانت الدورة الأولى وكانت هذه الدورة دورةً تعليميةً، فقد كان يعلّم في كلّ قريةٍ المذهبيّة المرشدية، واستمرّت هذه الدورة شهراً أو أقلّ من شهر. واصطحب معه فاتح في زيارةٍ إلى شين في الجولة نفسها.

وهكذا فقد استغلّ المعلّم هذه الفرصة التي أتاحتها الإنتخابات كواسطةٍ للدورة التي دارها على جماعته، ولخلق الجوّ المناسب لخروج فاتح من السجن، ولإثبات قوّتنا الشعبيّة بإيصالنا نائباً إلى البرلمان، ومساعدة نائب آخر هو نوري الحجّي وهو سنّي من الأكراد وكان عن منطقة الحفّة أيضاً. وقد أوصلنا في هذه الانتخابات أيضاً اسبر اليازجي وهو مسيحي إلى البرلمان عن منطقة تلكلخ، واستطعنا بواسطة عزيز عباد إسماع كلمتنا وسط البرلمان.

رجوع أعيان الكتلة الوطنية إلى الحكم

وما إن جاء إلى البرلمان شخصيات الكتلة الوطنيّة السابقة والممثلين في حزب الشعب والحزب الوطني بعد هذه الانتخابات فهم أغنياء سورية وأصحاب الكلمة بها، حتى جلبوا شكري القوّتلي من منفاه وجعلوه رئيساً للجمهوريّة كعادتهم قبل وبعد الاستقلال وذلك بعد أن فاز على خالد العَظْم مرشّح الجيش والذي كان يدعمه المستقلّون في المجلس والأحزاب التقدّميّة لا حبّاً به بل نظراً لكونه أهون الشرّين.

استيلاء حكومة القوّتلي الثانية على بيت الجوبة بشكل كامل

قامت حكومة القوّتلي بعد حادثة (العزْرا) سنة ١٩٤٦ باحتلال الطابق الأسفل من العمارة في حارة سلمان، وأبقت لبيت سلمان الطابق العلوي، كما احتلّ الدرك صفّ الغرف أمام العمارة إلّا بيتين : بيت مرشد القديم، وبيت أشاده سلمان بجانبه. كما أشاد صفّاً آخر من البيوت بجانب العمارة ومطبخاً كبيراً وذلك لاستقبال جموع الوافدين إليه من جماعته ومن شتّى الأجناس والملل والأحزاب.

وفي سنة ١٩٥٦ صادرت حكومة القوّتلي الثانية حارة سلمان بكاملها، وطالب فاتح بثمن البيت، لأنّ البيت والحارة كانتا مطوّبتين باسم محمّد بن سلمان المرشد (أي محمد الفاتح لأن في النفوس اسمه محمّد فقط)، ولكنه لم ينل شيئاً من ثمن البيت بل وكيلنا القانوني قبض المبلغ نيابةً عنه مستغلاً الوكالة التي كانت له عن فاتح، لأنّ حضور فاتح إلى موقع المحاكمة في اللاذقيّة كان شبه مستحيل فهو كان ما زال يقضي فترة حكم النفي بعد السجن في دمشق، فإنّ ذهابه إلى اللاذقيّة كان سيسبّب كثيراً من الإزعاج لو تمّ، فهو سيجري بإشراف الشرطة، هذا من جهة ومن جهة أخرى فما كان ينتظر من هذا الوكيل هذه الفعلة. وقام الوكيل بهذا العمل بتحريض من عزيز عباد ليشاركه في السرقة، وادّعيا زوراً أنّ الحكومة دفعت المبلغ إلى الدائنين ومنهم يوسف تقلا المذكور سابقاً، ولكن لم تطُل الأيام حتى انكشفت لعبتهما فالحكومة لا تدفع إلى الدائنين قانونياً فقد تابع تقلا الإجراءات القانونية كي يقبض قيمة السند الذي كان قد قال أنّه صوريّ وهكذا تبيّن كذب الوكيل وعزيز عباد.

كان تقلا قد توكّل كمحامي دفاع في المجلس العدلي، وقد طلب كما ذكرنا سابقاً وصلاً من سلمان بمبلغ خمسين ألف ليرة وذلك بشكل صُوَري كي لا يظنّ به الناس أنه يتعاطف مع سلمان، بل يعمل بأجره كعادة كلّ محامٍ. عالماً يومذاك أنّه لم يكن مع سلمان

مالٌ ليعطيه. وبعد الحادثة أقام دعوى على فاتح بهذا المبلغ وحكمه به. ولكنه لم يستطع التنفيذ لأنّ أموال بيت المرشد كانت جميعها على هيئة أراضٍ يستغلّها الناس فهو لا يستطيع قانونياً أن يبيعها طالما يستغلها غير بيت المرشد ولكن له أنْ يضع حجزاً عليها في حالة البيع وقد فعل. ولكن كما ذكرنا سابقاً ما انفكّ يطالب به فاتح المرشد الذي كان السند باسمه سنوات تتلو سنوات وأقام حجزاً على أغراض بيتنا المتواضعة جدّاً أكثر من مرّة إلى أن قبض أخيراً ثمنه في السبعينات عندما أصبحت الليرة السورية لا تكاد تمثل شيئاً من قيمتها أيّام إعطاء السند وأصبحنا قادرين أن نعطيه أجره. وهذه صورة الوصل الذي أعطاه بعد أن قبض أتعابه :

انا الموقع بذيله المحامي يوسف [illegible] بن اسعد [illegible] المولود بعام ١٩٠٢ في [illegible] مباشر من اعمال محاماة [illegible] في مدينة [illegible] محلة باب [illegible] مسكن ١٣٨

اقر وانا بكامل [illegible] القانونية شرعا بانني ابرأت ابراء عاما تاما السيد محمد فاتح المرشد واخوانه من الحكم موضوع الملف التنفيذي رقم اساس ٨٨٠ لعام ١٩٢٥ الموضوع في دائرة تنفيذ اللاذقية بعد ان وصلت كافة حقوقي من المحكوم عليهم وعليه [illegible] .

اللاذقية في ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٥

صورة عن الوضع السياسي

سنة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦

قبل أن أخوض في تعليل أسباب حملة مرشتي[١] ونقمة الأحزاب على المرشديّين، أرى أنّه من الأفضل أن أحاول أوّلاً تصوير الجوّ السياسي في البلاد في سنتَي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ قُبيل الهجمة وأثناءها.

أسفرت الانتخابات النيابيّة التي جرت بعد الإطاحة بالشيشكلي سنة ١٩٥٤ عن برلمانٍ يمثّل كافّة أحزاب البلاد : الحزب الوطني وحزب الشعب والإخوان المسلمين وحزب البعث وقوميّين سوريّين وشيوعيّين وبعض المستقلين من رؤساء العشائر وغيرهم.

وشُكِّلت حكومة سُمِّيت بحكومة التجمّع الوطني، ضمّت إليها جميع الأحزاب. وكنتيجة لهذا التوازن السياسي فقد عرفت البلاد أو كادت ولأوّل مرّةٍ حكماً برلمانيّاً غير دكتاتوريّ، ولكنّه لم يدم أكثر من سنةٍ ونيّف. أي منذ الإطاحة بالشيشكلي حتى ازدياد نفوذ المخابرات في ٢٢ نيسان سنة ١٩٥٥ وذلك عند مقتل عدنان المالكي.

وبرزت دولةٌ كبرى جديدة على مسرح الصراعات السياسيّة في المنطقة، وهي روسيا (الاتّحاد السوفييتي سابقاً) الذي كان قد بدأ يستجلب إليه عبد الناصر وأحزاب اليسار في البلدان العربيّة، وكان القول أنّ الغرب لن يسلّح العرب ليحاربوا إسرائيل عميلتهم وربيبتهم، وأنّ المعسكر الشرقي هو خيرٌ للعرب من الغرب، وهو سيسلّح العرب ضدّ إسرائيل ـ وأثبتت الأحداث بعدها صحّة هذا القول عندما باعت تشيكوسلوفاكيا السلاح لمصر سنة ١٩٥٥ وكذلك لسورية ـ. وابتدأ عبد الناصر والأحزاب اليساريّة ينادون بشعارات الوحدة العربيّة والصداقة مع المعسكر الاشتراكي.

وتصاعدت موجة الوحدة العربيّة في سورية تباعاً، وكان يذكي نارها ويتزعّمها عبد الناصر في كلّ البلدان العربيّة، وكانت سورية تتجاوب معه أكثر من

---

(١) مرشتي حارة صغيرة جداً تقع على مقربة رأس رابية في جبل اللاذقية أكمل بها ساحي بيتاً كان قد وضع مجيب أساسه ثمّ في الأيام التي نتحدث عنها أرسلت حكومة القوتلي الثانية حملة عسكرية لتخرج المرشديين من معتقدهم وتمركزت في هذه القرية.

الجميع، وأصبحت شعبيته في سورية في تزايدٍ مطّردٍ، وانضمّ المكتب الثاني (المخابرات السوريّة) إليه برئاسة عبد الحميد السرّاج أحد ضبّاط الشيشكلي المقرّبين إليه سابقاً، وأصبح للمكتب الثاني قوّةٌ تحت إمرة السرّاج أكثر بكثيرٍ ممّا كان له قبله. وكان هذا قد أكمل دورةً تعليميّةً في فرنسا مدّتها أربع سنوات، تعلّم فيها أساليب المخابرات زمن الشيشكلي. ولأوّل مرّةٍ في سورية تصبح المخابرات قوّةً منفصلةً بذاتها، تعمل وفق إرادة رئيسها فقط، غير تابعةٍ فعليّاً للقيادة العسكريّة والمدنيّة ولو كانت ما تزال تابعةً لهما اسميّاً. وكان السرّاج يتلقّى أوامره مباشرةً من عبد الناصر ولا يعود إلى رؤسائه في شيء. وقد اختار السرّاج خطّ عبد الناصر كي يقوّي مركزه نظراً لشعبيّة عبد الناصر المتزايدة في العسكريّين والمدنيّين.

واختار أكرم الحوراني خطّ عبد الناصر أيضاً، وذلك كي يركب شعبيّة عبد الناصر المتزايدة، وليستطيع الوقوف بوجه أعدائه كالحزب الوطني وحزب الشعب والإخوان المسلمين والقوميّين السوريّين. والحزب الوطني وحزب الشعب كانا يمثّلان الحكم الشرعي يومها، فمنهم رئيس الجمهوريّة ورئيس الوزراء وأعضاء الوزارة البارزون.

رضخ الحزب الوطني ـ كعادته دائماً في الرضوخ ـ أمام هذا الضغط الجماهيري والعسكري الذي مارسته الأحزاب التقدّميّة، وانجرف غصباً في هذا التيّار الوحدوي، وفضّل زعيم هذا الحزب وهو شكري القوّتلي أن ينساق مع الجماعة صاحبة القوّة خوفاً من مهماز الجيش وعصا المخابرات، وانجرف معه كلّ زعماء حزبه، فما كانوا يَفْضُلُون رئيسهم في شيء، وكان رئيس الوزراء صبري العسلي قبل ذلك يتلقّى راتباً شهريّاً من العراق ثبت هذا الأمر عليه بعد ثورة العراق سنة ١٩٥٨. وما كان أهون على أحدهم أن يتخلّى عن كلّ مبادئه التي يعلنها ويغيّر اتّجاهه السياسي ١٨٠ درجة إذا أمره العسكر أن يفعل ذلك خوفاً من بطشهم.

وتوارت شخصيّات حزب الشعب، لا يجد واحدهم بنفسه جرأةً كي يواجه هذا المدّ العربي الوحدوي، خاصّةً وأنّ الجيش هو قائد هذا المدّ.

وخلاصة هذا القول أنّ شعبيّة عبد الناصر والميول العربيّة الوحدويّة كانت تتصاعد شهراً بعد شهر منذ سنة ١٩٥٥ وصاعداً بقيادة المخابرات والجيش وتهليل أكرم الحوراني وحزبه والقوميّين العرب عموماً، يساعدهم في ذلك رضوخ شخصيّات الحكم من الحزب الوطني وتخاذل شخصيّات حزب الشعب.

تجمّع الغيوم وتلبّدها قُبيل العاصفة

علمنا أنّ السبب الرئيسي المباشر لحملة مرشتي (التي سترد تفاصيلها فيما بعد) كان أمراً شفهيّاً أرسله رئيس الجمهوريّة شكري القوّتلي إلى قيادة الجيش بوجوب الضغط على المرشديّين حتى إفنائهم. فقد استغلّ القوّتلي مركزه كرئيس للبلاد للتخلّص من المرشديّين، الذين أعدم زعيمهم في السابق، والذين يَظُنّ بهم أنّهم لا يتمنون شيئاً في الدنيا أكثر من قتله. وكما سمعت مرّةً كلمةً من إمامنا وهي بمعنى (قد يسمح القتيل ولكنّ القاتل لا يمكنه أن يسمح فهو لا يفتأ يدافع عن نفسه بجرائمَ جديدة) وأيّد السرّاج هذه الفكرة وحبّذها، خاصّةً أنّه هو الضابط المقرّب سابقاً إلى الشيشكلي.

ما كان لهذا الأمر أن يكون فعّالاً لولا مساندة الأحزاب له، وما ساندته المخابرات إلاّ لأنّها تبغي محاربة فئةٍ يعلمون أنّه لن يساندها أحد في البلاد لما هوّل المسؤولون السابقون من خطر المرشديّين وضرورة التخلّص من هذه العقيدة الجديدة. فهم أرادوا هذه الحملة أن تكون فاتحةً لتسلّطٍ ما عرفت له البلاد قبلهم مثيلاً، فهم يستطيعون بعد أن يسلّم الناس لهم بها أن يضربوا أي فئةٍ أو حزبٍ دون تقديم أيّ مبرّر. وهكذا طُلِب من الجيش إرسال حملةٍ عسكريّةٍ إلى جبال المرشديّين، مهمّتها القضاء على ما أسموه بالبدعة المرشديّة الجديدة وتخليص البلاد منها ضاربين بالدستور وحقوق الإنسان والقرآن وباقي رسائل الربّ عرض الحائط.

ويبدو أنّ أشدّ الأحزاب جذلاً في تلك الحملة كان حزب الإخوان المسلمين وذلك لِما يشاع أنّ في المرشديّة مذهبيّة متنافية مع الدين الإسلامي مع أنّهم لم يكونوا يعلمون عن المرشدية شيئاً[1]. وذاك لا يبرّر لهم عملهم بل يدينهم أنّهم ما يتّبعون بشأننا إلاّ الظن وهذا ثابت في القرآن الكريم في سورة (يونس) الآية ٣٦: «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ». فالعمل وفق الظن عمل غير محمود.

أمّا بقيّة الناس العاديّين أي من غير الأحزاب، فلم يكن يهمّهم أمر المرشديّين في شيء، تأخذ أحدهم ضحكة استهزاء عند سماعه بتعذيب المرشديّين، ويشعر بالرضى عن حكّامه

(١) ولم يسألنا أحدٌ من الناس عن حقيقة مذهبنا إلى ما بعد سنة الألفين بل يقول واحدهم: أنتم تقولون هكذا، وتؤمنون هكذا، كما وضع معادو المرشديّين في فيه أن يقول، وعندما ننكر هذا القول يكزّون على أسنانهم غيظاً منّا فهم يتبعون أعيانهم دون تفكير، ألا ما أسخف الإنسان إذا اتبع غيره دون تفكير!!.

لهذه الخطوة. وما انتبهوا أنّهم بحكمهم على المرشديّين إنّما يحكمون بالحقيقة على أنفسهم، لأنّهم سمحوا وباركوا للحكّام إقامة إرهاب شعبي ومخالفة القانون العلنيّة. فقد كان هذا السيف الذي أُشهر ضدّ المرشديّين ذا حدّين، فإنّ نفس السيف قد ضرب فيما بعد جميع الفئات السوريّة. فقد ابتُدئ أن يُسَلَّمَ للحاكم منذ إرسال حملة مرشتي ومنذ محاكمة الناس لانتمائهم المرشدي أن يفعل هذا الأمر في البلاد متى شاء وأنّى أراد. فالواضح أنّ عبد الحميد السرّاج وغيره من رجال السلطة كانوا يرمون بهذه الحملة إلى تعويد الناس الخضوع أمام سلطانهم بدون أيّ قانون.

وقد تعلّق بها أكرم الحوراني وزمرته، وأيّدوا هذه المبادرة من القوّتلي وباركوها، وشجّعوا الجيش على إرسال حملةٍ عسكريّة إلى جبال المرشديّين، مهمّتها القضاء على المرشديّة وتخليص البلاد منها. ولا نرى أن موقف هذا الرجل المعادي للمرشديّة إلّا لأن المرشديّين على لسان إمامهم رفضوا التبعيّة له مما أثار الضغينة بنفسه كما ذكرنا سابقاً.

قد يتصوّر للقارئ من خلال ما ذكرته عن أسباب حملة مرشتي أنّه كان للمرشديّين مركز وقيمة في البلاد أكثر ممّا كان لهم، والحقيقة أنّ الأحزاب رغم ما أبدته من عداوةٍ نحو المرشديّين كانت ملتهيةً في صراعاتها الحزبيّة المستمرّة والمتزايدة ضراوتها آنذاك، ونظرتهم للمرشديّين ما كانت إلّا نظرةً هامشيّة.

بيت امّ خليل

انتقل ساجي في أواخر سنة ١٩٥٥ من المأمونيّة إلى القصّاع، إلى بيتٍ كنّا نسمّيه بيت أمّ خليل على اسم صاحبته. كان هذا البيت يتألّف من خمس غرف بينها صالون كبير ويضمّ إليه حديقة خلفيّة واسعة في وسطها نافورة، وعلى أطرافها بعض الأشجار. وأنت تصل إليها من الصالون. ويحتوي البيت مطبخاً عربياً وحمّاماً عربياً. تدخل إلى الصالون حيث تجد غرفةً واسعة على يسارك شغلها المعلّم وزوجته، وتجد غرفة على اليمين شغلتها الأخوات الأربع، ثمّ غرفتين صغيرتين على اليمين وعلى اليسار. التي على اليمين وُضع فيها (طقم كنبايات) من نوع أقلّ من الوسط، وكنت أراه آيةً في الجمال، أمّا التي على اليسار فلم تكن مخصّصةً لنوم أحد ينام فيها من يريد. ثمّ تأتي في آخر الصالون غرفة واسعة جداً ينام بها فاتح وأنا وبعض الملاحقين من الدولة أو غيرهم، بعضهم كان مطلوباً للسجن أو للمحاكمة أو حتى أنّه مجرّد خائف من العذاب في الجبل، فيبقى هارباً عند المعلّم في هذا البيت مدّة غير قصيرة من الزمن.



ساجي في بيت
أم خليل

كنت ترى بعضاً من سكّان البيت يتمشّون في الحديقة جيئة وذهاباً. مرّة ترى واحداً ومرّة اثنين وقد يصل العدد إلى الخمسة أو إلى العشرة، ونادراً ما تخلو تلك الحديقة منهم. وكان المعلّم يتمشّى فيها يومياً. أحياناً يتمشّى لنفسه وأحياناً يصحبه واحد أو جماعة من سكّان البيت. ووُضع فيها صوفا وعدّة كراسي للجلوس.

وكانت هنالك غرفة صغيرة في طرف الحديقة وتطلّ على الحديقة من شبّاكها، ولهذه الغرفة مدخلٌ خاصّ غير مدخل البيت الرئيسي. وقد شغل هذه الغرفة حسين محمّد علي وعائلته وكان هذا الرجل يرافق مجيب للاعتناء بحاجاته أثناء جولاته على أتباعه، وجاء بعدها إلى بيت المعلّم لتلبية حاجات من السوق أو ما شابه. ويمثّل البيت الطابق الأوّل من بناية ذات ثلاثة طوابق.

ويسهر المعلّم في الغرفة الكبيرة ويستقبل زائريه فيها، وقد يتصادف ويستقبلهم في غرفة الاستقبال. ولم تكن السهرات كلّها غناء بحبّ الله ورجائه أو حديث معرفة، فقد تمضي

فترات طوال لا يحدث فيها إلّا التسلية أو الحديث العادي. وكان هنالك شطرنج ومنقلة يتسلّى بهما من أراد. وكان ساجي من أمهر لاعبي المنقلة يشاركه بهذا بعض سكان البيت من المشهورين بلعب المنقلة كعلي حبيب (٢٠) عاماً والشيخ أسعد (٤٢) وصالح علي (٣٤) ويوسف محمود (٢٧) لدرجةٍ ما. وكان ساجي لاعب شطرنج ممتازاً يشاركه بهذا فاتح وأنا وعلي حبيب. أمّا البقيّة فلم يستطيعوا تعلّم لعبة الشطرنج بشكلٍ جيّد رغم كلّ محاولاتهم. وأخيراً كنّا نأتي بجريدة تصوّر ألعاباً عالميّة في الشطرنج لنحلّها. وكنّا نحلّها جميعها تستعصي واحدةٌ منها ليومٍ أو لساعات إلى أن يوفق أحدنا إلى حلّها.

كان البيت يقع في نهاية الكتلة العمرانيّة تقريباً بالنسبة لشارعه، وهنالك حقلٌ بعد الكتلة العمرانيّة كبيرٌ جدّاً يُزرع موسميّاً، ولا يفصله عن البيت إلّا بيتٌ واحد. وبجانب هذا الحقل طريقٌ ترابيٌ حيث يذهب المعلّم وبعض سكّان البيت يتمشّون هناك كثيراً من الأوقات. كانوا يرتدون لهذا الجلّابيّات فقط وكأنّهم ما زالوا في البيت.

لا أظنّ أنّ المعلّم ارتدى بزّة (أي جاكيت وبنطلون) منذ سكن في المأمونية حتى سنة ١٩٥٤. لربّما ارتدى بزّة عندما طُلب إلى مقابلة رئيس الجمهوريّة زمن انتخاب الرئاسة. أمّا في القصّاع فبات يرتديها دائماً أثناء الذهاب إلى السوق أو إلى أيّ مكان خارج البيت، وهكذا فاتح. كان المعلّم أنيقاً في ثيابه وفي اختيار ألوانها وتناسقها أناقة غير متطرّفة أو مصطنعة، بل هو أنيقٌ من طبعه سواءٌ أكان يرتدي البزّة أم الثياب العربيّة. أمّا زيارات المأمونيّة فباتت قليلة أو شبه منقطعة بعد انتقاله إلى القصّاع، ولم يكن يتواجد في بيته حشدٌ كبير آنذاك إلّا في أوقاتٍ خاصّة.

حملة مرشتي

ولم يمضِ أكثر من شهر بعد انتقالنا إلى هذا البيت حتى جاء خبر صعود العسكر إلى الجبل. أوّلاً إلى قرية ليفين حيث أرعبوا الناس وروّعوا النساء والأطفال، وخلطوا إنتاج الأرض بعضه ببعض. وكان خبراً عجيباً لم يكن يتوقّعه أحد. ولكنّ قائد هذه الحملة إلى ليفين قُتل بحادثة سيّارة خلال الحملة، وكان متعصّباً أشدّ التعصّب ضدّ المرشديّين وكان من الإخوان المسلمين، ويبدو أنّه كان في نيّته الإجرام وليس التعذيب فقط.

وبعد هذه الحملة صعدت إلى الجبل قوّةٌ من الجيش قوامها ثلاثون نفراً بقيادة رقيب أوّل

اسمه أجود الهنيدي. واحتلّت هذه القوّة بيت ساجي في مرشتي (وضع مجيب بيده حجر الأساس لهذا البيت وأكمله ساجي بعدها) وبقيت هناك.

أرسل ساجي إلى جماعته أنّ هذه الحملة هي هديّة من الله إلى المرشديّين، فبها ينالون العذاب في سبيل انتمائهم إلى الدعوة الجديدة فليتقبّلوها بصبرٍ وإيمان. وكانت هذه الحملة العسكريّة قد أرعبت المرشديّين أوّل الأمر، لِما كان يفعله أفرادها بقراهم من ضربٍ بالعصيّ وسَوْقِ الناس إلى مرشتي ليستأنفوا تعذيبهم هناك، ودائماً طالبين منهم البراءة من الدعوة المرشديّة. وقد روّعوا النساء والأطفال والشيوخ، وكان إرهاباً من نوعٍ جديدٍ ذا طابعٍ عسكريٍّ أين منه الإرهاب الأوّل إرهاب الشرطة أو الدرك كما كان اسمهم في الماضي.

وكان جلّ ما يتمنّاه شكري القوتلي وحزبه وأكرم الحوراني ووهيب الغانم شخصيّاً (ولا أقصد حزبهما) وما يخطّطون له أن لا يسكت المرشديّون لهذه الحملة ويقاوموها، وبذلك يتسنّى لهم أن يتّهموا المرشديّين بالهجوم على الجيش، فيطلبون من قيادة الجيش إرسال الحملات الكبرى إلى الجبل وغيره، وتصفية المرشديّين تصفيةً كاملةً زعيماً وشعباً. ويظهر ذلك واضحاً كيف أنّهم لم يرسلوا إلّا ثلاثين جنديّاً، يأمرونهم بترويع الناس وبتعذيبهم، وكان عسكر مرشتي يجاهرون بالأوامر التي تلقوها وهي حتّى وإن مات بعض المرشديّين بين أيديهم كنتيجةٍ للتعذيب فلا مانع لديهم.

علم المعلّم منذ البدء ما هي نواياهم، وأرسل إلى المرشديّين في كلّ مناطقهم في الجبل أن لا يقاوموا عسكر مرشتي مهما حدث، وبأيّ شكلٍ كان. والتزم المرشديّون بتوجيه المعلّم التزاماً عظيماً كعادتهم دائماً، فكان يهاجم عسكر مرشتي القرية ويُذيقون أهلها الأمرّين حتى يكاد المرشدي أن يموت بين أيديهم، فلا يتحرّك أهل القرية لنصرته، وقد يقدّمون أنفسهم للعسكر بقصد تخفيف العذاب عن هذا الرجل. حربٌ معنويّةٌ مادّيّة، انتصر بها المرشديّون انتصاراً عظيماً، وأثبتوا جدارتهم بعقيدتهم.

ولا أظنّ أنّه بقي هنالك مرشدي حقيقي آنذاك في أيّ مكان كان إلّا وتعرّض إن لم يكن للضرب أو للسجن فللتشريد أو التهديد. كما أنّ حملة مرشتي قد أخذت طابعاً جديداً، فإنّ مواجهتها والتصدّي لها قد أخذ طابعاً جديداً أيضاً لم يعهده المرشديّون بأنفسهم قبلها، ألا وهو طابع الفرحة بالعذاب والغبطة بعد التعرّض إليه، والشعور بالفخر والاعتزاز لكون أحدهم قد تعرّض للعذاب وقد ثبت على دينه ومذهبه.

كان المعلّم يتلقى أخبار العذاب في بيته في دمشق وكم كانت كثيرة. كنّا نحزرُ الخبر السيّئ من وجه صاحبه، هاجم العسكر القرية الفلانيّة وهام الرجال على وجوههم في البراري، قام رجال العسكر بمضايقة النساء والأطفال، فلانٌ من الناس (خَيَّسْ) أي تبرّأ من دينه بعد عذاب وهذا كان مؤلماً جدّاً، فلانٌ من الناس (خَيَّسْ) بعد كفٍّ أوْ كفّين وكان هذا الرجل محتقراً، فلانٌ (خَيَّسْ) بدون عذاب، فقط بالتهديد، وهذا كان مذموماً، نذمّه دون مناقشة، وبدون الرجوع إلى المعلّم، خاصّةً إذا ذهب من نفسه وأعلن البراءة من المرشديّة بدون أن تُطْلَب منه وذلك خوفاً على نفسه من العذاب. وما من أحدٍ في المرشديّين كان يرى حرجاً في ذمّ مثل هؤلاء. أمّا مَن جاء خبره أنّه ثبت بعد عذابٍ شديد، فكان الجميع يشعرون بالفخر والاعتزاز به لكونه من جماعتنا.

قليلون من المرشديّين أعلنوا البراءة من المرشديّة بعد عذابٍ بسيطٍ، وكثيرون ثبتوا للعذاب، كان هنالك قرى لم يسقط بها أحد وهي كثيرة، وقرى سقط بها قليل، وأخرى سقط مُعظم رجالها ولم يثبت إلّا القليل وهي قليلة جدّاً.

في فترات العذاب هذه في مرشتي وغيرها كان المرشديّون يتندّرون على بعضهم أثناء الهرب من وجه رجال العسكر، وكيف قفز فلانٌ عند سماعه بقدوم العسكر وما هي إلّا لحظات حتى اختفى عن الأنظار بين أحجار الجبال وأشجارها. وأحدهم واصل العسكري ملاحقته بين الأدغال، فلمّا أصبحا لوحدهما التفت الهارب إلى العسكري وقال له : نحن الآن لوحدنا، فإن قتلتكَ أو ضربتك أو فعلت بك ما أريد، فمَن سيعلم بأنّني أنا فعلت هذا؟. واتّجه إليه، ففرّ العسكري مرتعداً. وآخَر وكان تحت العذاب أشهر أحد العسكر الذين كانوا حوله بندقيّته عليه، وكان هذا الرجل شيخاً معمّراً فقال له: دعْها وشأنها، لو أنّكم وحدكم مع هذا السلاح، لأخذناه عنوةً منكم بعصيّ الأحراج، ولكنّ وراءك جيشاً جرّاراً. وآخَر وكان يختبئ في أحراج الجبل ليلاً بعد مداهمة قريته من قبل رجال العسكر أو الشرطة وكان بردٌ شديدٌ، وبات يخاف الوحوش من جهة ورجال الحكومة المطاردين له من جهة، ويشعر بالبرد الشديد، فنظر إلى السماء وقال : يا ربّ أنا لا أستطيع أن أقاوم ثلاث دولٍ بمفردي. يقصد الحكومة والبرد والوحوش. وكان هذا الرجل ـ وهو حبيب التعّ ـ في دور مجيب ممّن اشتهروا بالمرح وخفّة الظلّ، وكان كثيراً ما يلقي بالنكات عند مجيب. وآخَر تحدّاه رجال الدرك وهو ـ عيسى خيوي من جورين ـ وكان يشرب الشاي معهم إن كان يؤمن بمجيب فعلاً، فليشرب هذا الإبريق المليء بالشاي المغلي. والغريب أنّه قَبِل التحدّي، وأخذ الإبريق بين يديه وابتلع مُعظمه في جرعةٍ واحدةٍ أمام تعجّب الجميع ودهشتهم، ولم

يحدث له مكروه ولم يتغيّر صوته كنتيجة لحرق الحنجرة، وبقي يتحدّث معهم وكأنّ شيئاً لم يكن.

وهكذا توالت على المعلّم في البيت هذه الأخبار المفرحة طوراً، والمؤلمة أحياناً كثيرة. وعضّد هذا العذاب من صفاء القلوب لبعضها بينهم، وارتسمت نضرة النعيم على وجوههم، فكانوا يتعرّفون بعضهم البعض حيث التقوا، وأصبح المرشدي يتعرّف على المرشدي الآخَر بدون أيّ دليلٍ ماديّ، فقط لنضْرَة وجهه، سواءٌ في العسكريّة أم في المدينة أم في القرى، وفي لبنان التي كانت قد بدأت تُقصد من قِبَل المرشديّين طلباً للرزق والمعيشة.

وكانت قرى المرشديّين تستقبل كلّ مَن أمّها من القرى الأخرى لجوءاً من العذاب والملاحقة، يأكل فيها ويعيش مع اخوانه رَغِداً هانئاً في جوٍّ من السعادة والحبّ. وكثيرون من أهالي قرى الشمال أمّوا قرى الجنوب (القبالي) وعاشوا فيها لفتراتٍ قد تطول أحياناً لأشهرٍ وربّما لسنةٍ. ولم يقتصر هذا الترحيب على القرى، بل تعدّاه إلى المدن في اللاذقيّة وحمص ودمشق، ولم يكن اللاّجئ ليشعر بأقلّ تمنّنٍ من مضيفيه، بل على العكس لربّما كان يشعر بمنّةٍ على مضيفيه لكونه قصد بيتهم أو محلّتهم ولم يقصد غيرها.

وكان من أشدّ الأخبار التي ترد إلينا إيلاماً هي انهيار أحد الأشذاء في وقفةٍ له في العذاب. أو الحكم بالسجن على رجلٍ منّا لمدّةٍ طويلةٍ، فعائلته تحتاج الآن إلى الإعالة. أمّا إخوانه فقد ملؤوا السجون بالأغراض والمآكل التي تواردوا بها على سجنائهم في كلّ مكان. تماماً فعلَ المرشديّون لأخوانهم الذين سُجنوا بسبيل دعوة مجيب ما فعلوه قبلاً لقدوتهم ومثلهم الأعلى مجيب عندما دخل إلى السجن فملؤوا سجن الحفّة طعاماً ودثاراً. ولم يكن العون مقتصراً على الطعام والدثار بل تعدّاه دائماً إلى المال، فكانوا يرسلون ما لديهم من مالٍ إلى السجون، أو إلى العائلات التي افتقرت بعد أن سُجن معيلها وكان الذي يعود من السجن يجد أنّ إخوانه قد عملوا في أرضه نيابةً عنه، وتفقّدوا عائلته في غيابه فلم ينقصهم شيء.

ملاحقة المرشديّين في كلّ الأمكنة

إنّ حملة مرشي بكلّ ما فيها من إرهابٍ وتعذيب، لم تأخذ إلّا حيّزاً من موجة الإرهاب والاضطهاد التي تعرّض لها المرشديّون سنة ١٩٥٦ وصاعداً. فكأنّ البلاد قد

انقلبت بأسرها ضدّ المرشديّين. بات المرشدي ملاحقاً حيثما تواجد. قد يُعْتَقَل في المدينة لا لسبب إلّا لمعرفة رجال الشرطة أنّه مرشدي. تكالبت المخافر والمفسدون على المرشديّين في كلّ الأمكنة. استغلّ المفسدون - بعض من المفسدين كانوا من جيران المرشديّين وليسوا من عشائرهم، وبعض آخر كان من عشائر المرشديّين وبعض آخر كان من الناكصين عن المرشديّة - هذه الفرصة، وبدؤوا يعقدون الاجتماعات ببعضهم، ويخطّطون كيف ينالون من المرشديّين: لنجبرنّهم على الهجرة، ولنأخُذنّ أراضيهم وبيوتهم. موجةٌ من العنف تصاعدت ضدّ المرشديّين. الحكومة ضدّهم، وكما قال الإمام علي «الناس على دين حكّامهم إلّا مَنْ عصم الله». إذا عرف المدنيّون في المدينة رجلاً مرشديّاً، تنادوا عليه: هذا مرشدي امسكوه. يشيرون بأيديهم إليه، ويدعون رجال الشرطة إلى الإمساك به.

جوٌّ من الإرهاب والضغط والتهديد خَبَرَه المرشديّون ذلك الزمن. المرشدي يحاذر السير في الشارع، فلربّما تعرّف عليه بعض المفسدين وكثيرٌ من هؤلاء المفسدين كانوا من معارف أو أقرباء المرشديّين، في كلّ قريةٍ مفسد أو مفسدون من رجال قريته، أو ممّن يعرفه، المرشدي يحاذر السير نهاراً بين القرية والقرية، لعلّه يصادف مفسداً فيَشي به أنّه كان يذهب إلى فلانٍ من الناس كي يتآمر معه ضدّ الدولة. أصبحت اجتماعات المرشديّين ليلاً، وتنقلاتهم في الليل أيضاً.

لمحة عن موقف المرشديّات أثناء العذاب

ويصف محمود فوزي (من قرية بسيقا قرب اللاذقيّة) في حديثه انطباعه عن تلك الفترة من الزمن: «كانت حياتنا في تلك الفترة لذيذةً ومرّةً. لذيذةً لِما بها من عزّةٍ ومجابهةٍ، ومرّةً لِما بها من ضيقٍ واضطهادٍ وإرهابٍ. كنّا نقضي مُعظم أوقاتنا خارج منازلنا، قليلاً ما يتجرّأ أحدنا على التنقّل في ضياء النهار خشية أن يرانا رجال الشرطة، فتجرّ رؤيتهم لنا إلى ما لا نشتهيه، أو يرانا أحد المفسدين فيَشي بنا إليهم. وفي المدينة كنّا نفضّل الأزقّة على الشوارع الرئيسيّة لنفس السبب. ونعقد اجتماعاتنا في الليل بعيداً عن أعين الوشاة. - في ذلك الزمن فضّل المرشديّون الليل على النهار فكانت لقاءاتهم ببعضهم في الليل إن كان اللقاء للصلاة أو حتى لحديثٍ عَرَضيّ، أو لشغلٍ ما -.

لم يكن رجالنا فقط هم الذين يعانون ويقاسون من هذا الاضطهاد، بل نساؤنا أيضاً فقد كنّ يشاركننا في كلّ المعاناة، كنّا نفرّ ونتركهنّ في المنازل وحيدات مع أطفالهنّ،

وكم امرأةٍ تعرّضت للمواقف الصعبة القاسية وهي وحيدة بين أطفالها. كان هدفهنّ السهر على تربية الأطفال وزرع شعور صحّة معتقدنا في قلوبهم ونفوسهم، وكان عليهنّ القيام بأعمال البيت كلّها حتى زراعة الأرض أحياناً كثيرةً لعدم استطاعة رجال البعض منهنّ المجيء إلى القرية للعناية بالأرض، كانت زوجتي تقول لي : اهرب واسلم بدينك واتركنا، ما عليك أنت، يرزقنا ربّنا. وكانت تبقى في البيت وحيدةً مع طفليها فتستخدم خشبةً غليظةً تضعها وراء الباب إمعاناً بإيصاده، وتكون قد قفلت قفل الباب وسحبت الدرباس وكلّ ذلك خشيةً من رجال الحكومة والمفسدين. وما كان هدف أحدنا أن يجمع مالاً ولا أن يعمل لعزٍّ في هذه الدنيا ولا يجري برأسه فكر من هذا القبيل. وما كنت أرجو سوى أن أتحرّر من هذا الظلم والاضطهاد، وأن يأتي يومٌ أُصبح فيه حرّاً بعقيدتي لا يُحاربني أحدٌ لأجلها، وكنت عندما أُصلّي أدعو الله أن يعفو عنّي ويغفر لي ولإخواني حتى ولأعدائي».

يصف سلمان خرفان (من قرية جورين في الغاب محافظة حماة) أحوال المرشديّين آنذاك : «ما توقّفت الجلسات[1] في تلك الأيام لا في القرية ولا في البرّيّة. كانت النساء تجلب الطعام والحاجات إلى الرجال المختبئين في البراري والكهوف.

وكانت النساء تُعين الرجال في كلّ أمر. ومن هذا كيف ترمي الواحدة منهنّ بنفسها على الذي يكون مرمياً بين رجال الشرطة والضرب منهالٌ عليه، كي تتلقّى الضرب عنه. حتى أنّ هؤلاء الذين انقلبوا إلى مفسدين ومن دهاة المفسدين أيضاً، ظلّت نساؤهم اللواتي كنّ مرشديّات على مرشديّتهنّ، وترمي الواحدة منهنّ بنفسها أيضاً على مَنْ يُضرب في بيتها لتمنع عنه الضربات. فكثيراً ما كان يجري الضرب في بيت أحد المفسدين. وعندما يُقدّم المرشديّون المعونات إلى رفاقهم في السجون وفي الملمّات، تأتي المرشديّة من نساء المفسدين بمعونتها أيضاً وتقول : هذه المعونة باسمي أنا وحدي وليست باسم زوجي. هؤلاء النسوة أنشأنَ أولادهنّ على الطريقة المرشديّة، وعندما كبروا دخلوا في الصفّ المرشدي. واحدةٌ منهنّ كانت في قريةٍ بعيدة، وإذ خافت على أولادها من كلام زوجها البذيء على المرشديّين، رجعت إلى قريتها جورين وجلبت أطفالها معها. اشتكى عليها زوجها للحكومة فما نفعته في شيء. واضطرّ أخيراً إلى الاستعانة بالمرشديّين وجلب وجاهةً منهم، وما قبلت أن تعود إليه حتى تعهّد أنّه لا يعارض في كون أولاده مرشديّين، وهذا ما كان».

---

(١) يقصد جلسات الستة أشخاص التي وضعها المعلّم بدل المجامع الكبيرة تفادياً لغارات الشرطة والمفسدين لسهولة ملاحظتها من قبلهم، وقد أقام جلسات الستة بعد صدور قرار سجن المرشديّين من الزرقا وحزبه.

أحبّ أن أنوّه هنا أنّ المعلّم كان يوصي بمساعدة المرشديّين بعضهم بعضاً أثناء العذاب والسجن، ويركّز على هذا الأمر جدّاً، ويرسل مساعدات دائمة لمن منهم في السجون، ويرضى ويتهلّل وجهه إشراقاً عندما يسمع بمساعدتهم لبعضهم.

المعلّم يعرض نفسه على السلطة لتأخذه عن المرشديّين

ما إن سمع المعلّم بالفظائع التي ترتكب بمرشتي حتّى ذهب إلى المكتب الثاني (المخابرات) وطلب مقابلة السرّاج رئيس المكتب. لكنّه لم يقابله وقابله معاوناه. وقال لهما ساجي أنّه هو السبب في كلّ ما يجري، فهو الذي يحضّ المرشديّين على التمسّك بدينهم وهو إمامهم، فعلام يضطهدون المرشديّين ويتركونه هو؟. فرفضا طلبه. وكانت قد تولّدت قناعة لدى المسؤولين في سورية آنذاك، أنّ المرشديّة لا يُقضى عليها بالقضاء على إمامها، فقد قتلوا سلمان فجاء مجيب، وقتلوا مجيب فجاء ساجي، ونجم المرشديّة في صعودٍ وليس في أفول. وقد قالوا لأنفسهم إن قتلناه فسوف يأتون بغيره، لذلك توجّهت أنظارهم الآن إلى عامّة المرشديّين يريدون تبرئتهم من هذه العقيدة بواسطة الضرب والسجن والإرهاب لذلك رُفِضَ طلبه أن يؤخذ هو عن الكلّ.

سألهما ساجي عن السبب لهذه الحملة من الاضطهاد؟. فأجاباه : لا نستطيع أن نقبل بوجود مجموعةٍ كبيرةٍ من الناس تأتمر وتتحرّك بأمر فرد (بلكي بكرا ثاروا). ومعنى هذا الكلام أن ليس للناس أن يأتمّوا إلّا بمن يعيّنونه هم. فأجابهما : إذاً هذه الحملة ليست بسبب فعلٍ فعلناه ولكن على ما تصوّرتم أنّا قد نفعل مستقبلاً. سألهما هل بدر منّا أيّ بادرةٍ تدلّ أنّنا قد نفعل؟. فأجاب أحدهما وهو راشد قطّيني : (لأ، لكن بلكي) فلمّا سمع منهما هذا المنطق تركهما وانصرف.

السجن لكل مرشدي

وكان أشدّ ما لاقاه المرشديّون هو السيف الذي أشهرته عليهم السلطات الحاكمة، ألا وهو الحكم بمدّة ستّة أشهر إلى سنتين على كلّ مرشدي يجتمع للصلاة، أو يعترف فقط في المحكمة أنّه مرشدي. وإليك قصّة هذه المأساة بشكلها القانوني أوّلاً ونتائجها ثانياً.

صدر القانون رقم (١٧٩) في ٢٦ أيار عام ١٩٤٥، وقد أطلقت عليه السلطة التشريعيّة في الدولة السوريّة (قانون حماية الاستقلال). وصدر قانون العقوبات الجديد عام ١٩٤٩. أُلغيت بموجبه ضمناً مواد قانون حماية الاستقلال، وقد تضمّن مواد جديدة ومنها أحكام المادّتين ٣٠٧، ٣٠٨ من القانون المذكور.

نصّ المادّة ٣٠٧

١ ـ كلّ عمل وكلّ خطاب وكلّ كتابة يُقصد بها أو ينتج عنها إثارة النعرات المذهبيّة أو العنصريّة أو الحضّ على النزاع بين الطوائف ومختلف عناصر الأمّة، يُعاقب عليه بالحبس من ستّة أشهر إلى سنتين، وبالغرامة من خمس وعشرين إلى مئتي ليرة، وكذلك بالمنع من ممارسة الحقوق المذكورة في الفقرتين الثانية والرابعة من المادّة (٦٥) ـ أي جميع الحقوق المدنيّة ـ.

٢ ـ ويمكن للمحكمة أن تقضي بنشر الحكم.

نصّ المادّة ٣٠٨

١ ـ يتعرّض للعقوبات نفسها كلّ شخص ينتمي إلى جمعيّة أُنشئت للغاية المشار إليها في المادّة السابقة.

٢ ـ لا ينقص الحبس عن سنة واحدة، والغرامة عن مائة ليرة إذا كان الشخص المذكور يتولّى وظيفة عمليّة في الجمعيّة.

٣ ـ كلّ ذلك فضلاً عن الحكم بحلّ الجمعيّة ومصادرة أملاكها.

وكان المرشديّون يُحاكَمون بموجب هاتين المادّتين، وكان مجيب هو أوّل مَن أوقِفَ من المرشديّين بموجب هاتين المادّتين ودخل السجن كنتيجةٍ لذلك، وطُلِب ساجي غيابيّاً إلى المحكمة بموجب هاتين المادّتين عشرات المرّات.

وحدث أنّه في البداية عندما كان المرشديّون يُحاكمون بموجب هاتين المادّتين، أنّ كثيراً من القضاة إن لم نقل أكثرهم يبرّئون المرشديّين، ولا يعتبرون المرشديّة جمعيّةً تدعو لإثارة النعرات المذهبيّة.

وفي أوائل سنة ١٩٥٦ زمن الهجمة الشرسة على المرشديّين، صدر قرارٌ من محكمة التميز كنتيجةٍ لحكمٍ حكم به أحد القضاة، وكان قد برّأ بعض المرشديّين من

صغار السنّ - أي القاصرين - من تهمة الانتماء إلى جمعيّة تثير النعرات الطائفيّة. كما وأنّه اعتبر أنّ الانتماء وحده غير كافٍ للعقوبة، ويلزمه التنفيذ. وهذا هو نصّ القرار :

قرار الغرفة الجزائيّة في محكمة التميز

قرار رقم / ٨١ /

لَمّا كانت الفقرة الثالثة من المادّة / ٣ / من الدستور السوري تنصّ على أنّ حرّيّة الاعتقاد مصونة، والدولة تحترم الأديان السماويّة، وتكفل حرّيّة القيام بجميع شعائرها على أن لا يخلّ ذلك بالنظام العامّ. وكان قيام فئةٍ من الناس بأعمال الإلحاد تحت ستار حرّيّة المعتقدات بصورة مخالفة للأديان السماويّة الثلاثة، واجتماع هذه الفئة سرّاً للقيام بذلك مخالفاً للنظام العامّ، ويؤدّي إلى إثارة النعرات المذهبيّة بين مختلف الطوائف الدينيّة، ويشكّل الجريمة المنصوص عليها في المادّة / ٣٠٧ / من قانون العقوبات خلافاً لما ذهبت إليه النيابة من حيث التنفيذ فقط.

ولّما كان ذهول قاضي الأحداث عن ذلك، واعتباره هذه الأعمال غير منصوص على معاقبتها يدخل تحت حكم الفقرة الثانية من المادّة / ٣٤٣ / من قانون أصول المحاكمات الجزائيّة.

دمشق في ١٩ كانون الثاني ١٩٥٦

وقد علِمنا أنّ هذا القرار اتُّخذ بإيعاز من وزير العدل آنذاك مصطفى الزرقا[1] وقد سارع الزرقا إلى تعميم هذا القرار على كلّ القضاة في سورية ليعملوا به، وذلك في بلاغه رقم / ١٣ / الصادر في / ٢٨ / ٢ / ١٩٥٦ وإليك نصّه:

---

(١) مصطفى الزرقا: ١٩٠٤ - ١٩٩٩ عضو بارز في الإخوان المسلمين ولد عام ١٩٠٤ لأحمد بن محمّد الزرقا، درس في المدرسة الخسرويّة الشرعيّة في حلب، وحصل على درجة الدكتوراه من كلية الحقوق في جامعة الأزهر. انتخب في عامَي ١٩٥٤ - ١٩٥٨ نائباً عن الكتلة الإسلاميّة، عيّن وزيراً للعدل ما بين سنة ١٩٥٥ وبين سنة ١٩٥٦.

يوهانس رايسنر، الحركات الإسلامية في سوريا من الأربعينيات وحتى نهاية عهد الشيشكلي، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ٤٧٠.

الجمهوريّة السورية

وزارة العدل

رقم ٢٩٩١ بلاغ رقم / ١٣ /

لمّا كانت بعض المحاكم تتردّد في وجود نصّ يعاقب الأشخاص الذين يجتمعون في مكانٍ خاصّ دون ترخيص، ويعتنقون ديناً غير سماوي، ويجمعون الأموال في سورية ممّا يشكّل خطراً على المجتمع.

ولمّا كانت الغرفة الجزائيّة في محكمة التميز قد أصدرت قراراً برقم / ٨١ / أساس / ٦٥ / بتاريخ / ١٩ / كانون الثاني / ١٩٥٦ / أبانت فيه رأيها في الأفعال المذكورة، فإنّنا نوزّع فيما يلي صورة عن القرار المشار إليه لإطلاع السادة القضاة، والعمل بموجبه.

دمشق في ٢٨ / ٢ / ١٩٥٦ وزير العدل

مصطفى الزرقا

وجاء خبر تعميم مصطفى الزرقا إلى المعلّم، وتغيّرت وجوه المرشديّين في البيت قهراً وغضباً. غضب المعلّم جدّاً، ولكنّه لم يُفاجأ كعادته، فهو لم يُفاجأ في أمرٍ من الأمور، لا قبل ذلك ولا بعده.

ومضة خاطفة عن أشعار ساجي أيّام العذاب

أمّا أشعاره بتلك الفترة من العذاب ـ وكان عمره أثناءها بين خمسٍ وعشرين سنة إلى ستٍّ وعشرين سنة ـ فتعطينا فكرة عمّا كان يكنّ بنفسه من شعور وكيف كان يسقي أتباعه من هذا الشعور بأكؤس الأشعار التي كان ينشدها فتتناقلها الألسن وتحفظها القلوب وتحيا بها معنوية الإنسان فيرى نفسه في أعلى القمم بينما معذّبوه ما زالوا في هوّة من الضلال السحيق. وإليك هذا الشعر الذي يصوّر كيفيّة الجرأة بالمعتقد وتصدّي الإنسان المؤمن بوجه العالم بمعتقداته وأفكاره وهو:

طَعْمُ الرَّدى أحلى مِنَ الأثمارِ ... بِسَبيلِ ما آمَنْتُ مِنْ أفكارِ
كيفَ التَّواني وكلُّ شيءٍ دافِعٌ ... للمَوتِ قُرباناً بِحُبِّ الباري

فهذه العقيدة التي نفديها تتحدّث عن اللّه حديث الحقيقة، فاللّه بها شمسٌ والهداية نور هذه الشمس:

فَعقيدَةٌ أللّهُ شَمسُ ضِيائِها ... لَحَرِيَّةٌ بالفَدْيِ والإيثارِ

أمّا الشهادة فإليك كيف ينظر إليها شاعرنا:

إنّ الشهادة للشهيد مكانةٌ ... كانت بمنعتها قوى الأقدار
قبسٌ من الرحمن أذكاه الرضى ... قدساً وفي متخلّد الأوّار

فمن يستقِ الهداية يصبح نوراً لا إنساناً فلمَ لا تحتسيها قلوبنا ؟!. فما أمضّ الحياة دون هذا السموّ:

هذا السُّمُوُّ وما أمضَّ حياتَنا ... إنْ لَمْ تَكُنْ بِمُدرَجِ الأنوارِ

وبما أنّ الموت يمثل خلاصنا من غائلة الجسد وقيده فعلامَ نخشاه وإنّما هو الوصول بعينه:

الموت عين خلاصنا وحياتنا   فعلام نخشى حِطّة الأسفار

وعلامَ يتفوّق علينا مَنْ في السماء صفاة وشعوراً والدين واحد والقول واحد بنا وبهم:

وعلامَ لا نحيا وفينا قوله   بصفاء مَنْ في سرمديّ الدار

ولن ينقصنا العزم، فنحن نستمدّه من جبّارٍ أزل:

أيعوقنا عزمٌ ونحن إمرةٌ   من واحدٍ متفرّدٍ قهّار

إنّ الصبر هو القدرة والمقدرة وهذا زمان قطافه فهاتِ يا أقدار ما عندكِ من الأضرار:

ألصبرُ مقدرةٌ وهذا وقته   فانصبّي يا أقدار في الأضرارِ

أمّا كيف نرى أنفسنا في هذا العالم القائم علينا فهذه الرؤية ممثلةٌ في هذه الأبيات:

نحن الجبال الراسيات على المدى   من فوقِ ما يودي مدى الأنظار
نهزا من الأقزام خالوا أنّهم   بأناتنا نالوا إلى الأوطار
إنّ العقيدة وهي ذات حياتنا   لم تُنْتَقَص بتهجّم الأشرار
زادت على عتوِ الطغاة معزّة   أبداً تُصانُ بأنفس الأحرار

وشعرٌ آخَر يصف به كيف نستقبل البلوى برحابة صدرٍ ونستخلص الإيمان من الألم حتى تصير لنا دنيا في هذه الدنيا هي من الهناء وكأنّها مصغّرة عن جنّة عدن:

إنّا إذا ما نابَنا عسْفُ الزّمنْ   أبيَتْ قلوبُنا بالحُسنِ وبالحَسَنْ
نَسْتَقْبِلُ البَلْوى بِصدرٍ أرحَبٍ   نَسْتخْلِصُ الإيمانَ مِن ألَمٍ وأنْ
نَمتَصُّ دنيا يَحُفُّ بِها الهَنا   فكأنّها تصْغيرُ موْعِدِنا عَدن

ففي كلّ جرحٍ باتت لنا لذّة لا يُقدَر ثمنها وبكل توجّعٍ مكبوتٍ طعمُ طهرٍ يعمّ أجسادنا بشعورٍ ماديٍّ محسوسٍ:

فـي كُـلِّ جُـرحٍ مِـن جـراحِـنـا لَـذّةٌ   رُوحـيّـةٌ لـيـسـتْ تُـقـدَّرُ فـي ثَـمـن
وبـكـلِّ مـكْـبـوتِ الـتّـوجُّـعِ نـكـهَـةٌ   تَـنْـسـابُ طعْـمتُها طَهوراً في البَدن

ثمّ هات يدك واتبعني لنرى كيف يصف الرجلَ القويَّ في الهداية العامل بها أثناء المصائب والعذاب:

وتَـراهُ فـي عَـسْـفِ الـزّمـانِ بَـشـاشـةً   طَـفَـحَـتْ بِـوَجـهِـهِ مُـنْـتـهى اطـمِـئـنـانِ
مِرآةَ صِـدقٍ لا تُريكَ سوى الرّضى   فَـزُجـاجُـهـا الـدُّرِّيُّ مِـنْ رُضـوانِ
بُـسْـتـانُ بَـهْـجـاتٍ مُـواتٍ أُكْـلُـهُ   بـرَبـيـعِـهِ الـبـاقـي عـلـى الأزمـانِ
ألـحـقُّ إنَّ الـحـقَّ أوجـزُ صُـورةً   فـي كـلِّ شـخـصٍ بـالـهـدى مَـلآنِ

ثمّ في نهاية استعراضنا لما اقتطفناه من أبيات أشعاره التي تتحدّث عن العذاب أرى من الطيب أن أضع كيف يقدّم الحمدَ إلى الله على قدر العذاب هذا:

يـا مَـنْ يُـقـدِّرُ فـي الـخَـفـاءِ أُمورَنـا   حَـمْـداً لِـمـا قَـدَّرْتَ مِـن بَـلْـواءِ

وكما تسطّر حكمتك يا رب يكون الرضوان، وهذا ما نريده في الحقيقة أن يكون:

فكما تُسطِّرُ حكمةُ الحقِّ لنا الرّضوانُ نِعْمَ قَرارةٍ ورَجاءِ

أين علّين؟. أين ذلك المكان الطاهر. أين شهوة أهل السماء وأمل أهل الأرض أهي على هذه الأرض. أم في السماء. أم في عالم الروح. أم هي في عالم الأساطير. أم قالة وأمنية سكنت القلوب رجاءً وأملاً. أليس مِن مُجيب؟. بل أجاب شاعرنا على تساؤل الكائنات هذا:

عِـلّـيـنُ لـيْـسَـتْ فـي مـكـانٍ عَـيْـنٍ   بـل كـلُّ روحٍ فـي هـواكَ تَـقـوَّمـا

فلا الطين ولا غيره بقادرٍ أن يحجب المؤمن عن اللّه، بل قلبه زاهر بالخير وهو بالحق روضة تحفّ بها ملائكة سماء النور العليا، لا والذي له القدرة أن يخلق ما يشاء دون حتى أن يتكلّم، لا يحجب مَن يحبّ اللّه عن اللّه أيّ شيء:

أتصُدُّني عنْكَ الطّيونُ ومُهجتي ... رَوْضٌ تَحُفُّ بِهِ ملائكةُ السّما
كَلاَّ وحقِّ مُحَجِّبٍ بِبَهائِهِ ... إنْ شاءَ يخلُقُ دونَ أنْ يتكلَّما

فمن أراد اللّه تسعَ به دربه إليه:

وَلَرُبَّ يومٍ قد وقفْتُ تأمُّلاً ... في أينَ أمشي زِدْتُ فيهِ تَقَدُّما

يريد الشاعر ويتمنّى على اللّه أن يخبره عن الزلفى التي يرضى بها اللّه كي يجعل لها الأولويّة بالعمل والفعل طيلة العمر حتّى يوافيه الأجل:

قُلْ لي عَنِ الزُّلْفى الّتي ترضيكَ كي ... أجعلها في أصلِ اعتِقادي ألْزما
وأظلُّ أدْأبُ في هواكَ موحِّداً ... حتّى أموتَ على رِضاكَ مُتَيَّما

ولنرَ نظرة شاعرنا آنذاك إلى محبّة معنى كلمة اللّه ومفعولها في النفس والشاعر ما زال في عمر الورود:

أللّهُ ما أحلاها معنى قولَةٍ ... تَندي بقلبٍ قَوْلِها الحقَّ السَّنيْ
شُغلاً تظلُّ بقلبِهِ ديمومةً ... لحياتِهِ بِمكارِمِ الخُلْقِ الغَنيْ

ولننظر إلى ما يتمنّى على اللّه وما يشاء منه:

كُلُّ مَشيئَتُهُ ابتِغاهُ لِنَفْسِهِ ... وَمَشيئَتي ما شِئْتَ مِن أشياءِ
مَعنايَ أنتَ وكانَ حُبُّكَ خَمرتي ... وصِفاتُ حُبِّكَ جَلَّ عَن أسماءِ

ثمّ إليّ لنرى كيف يحمد شاعرنا اللّه على ما أعطاه، هل يحمده يا تُرى على دنيانا دنيا الحطام فقط أو على كوننا هذا، كون الالتباس وضعف القدرة الاستيعابيّة؟. لا، ليس على هذا بل على ما أعطى المؤمنين به من جوهر البقاء ألا وهو الطهر والتقوى ذلك الجوهر الذي هو وحده القادر أن يتواصل مع اللّه حيّاً وفناءً به:

لكَ الحمدُ كوَّنتَني مِنَ الجوهَرِ الأثمنِ
نَقيّاً تَلَذُّ لَهُ الطّهارةُ في المُؤمِنِ

بداية التدخّل السياسي

في سنة ١٩٥٦ السنة التي جرت فيها أحداث مرشتي كانت تُحاك خارج البلاد مؤامرات مع المعارضة السوريّة ذات الميول الغربيّة. وكان الحزب القومي السوري من أشدّ المعارضين للوضع في البلاد آنذاك. وكان هو المنفّذ المباشر لمؤامرة ١٩٥٦ التي كانت تُموَّل وتُقاد من المملكة الهاشميّة في العراق، وهكذا فهي تدار من قبل بريطانيا عن طريق العراق.

فهذا الحزب بعد أن استؤصل من سورية وضُرب بشدّةٍ على أثر اغتيال عدنان المالكي ـ على يد بعض القوميّين السوريّين ـ الذي استغلّه السرّاج والأحزاب التقدّميّة بشكلٍ هائلٍ ما فتئ يحاول الرجوع إلى البلاد وإلى السلطة بأيّ طريقةٍ كانت. وكانت هذه المؤامرات تُحاكُ في لبنان، ويشترك فيها المعارضون السياسيون من شخصيات حزب الشعب والحزب الوطني، الحزبين اللذين حجّمهما وقزّمهما التجمّع التقدّمي الحاكم في سورية ذو الميول الشرقيّة وبعض رؤساء العشائر السوريّة في الجزيرة. وكان يشرف على هذه المؤامرات ويغذّيها الغربيّون الذين أحسّوا بالخطر نظراً لميول سورية تدريجيّاً نحو المعسكر الشرقي بقيادة مصر وزعيمها عبد الناصر.

وكان أن طلبت الأركان العامّة من ساجي بواسطة عزيز عباد أنّه إذا اتّصل به الحزب القومي كما يتّصل ببقيّة العشائر في سورية[1] أن يخبرها به. وفعلاً أرسل القوميّون إلى ساجي يعرضون عليه التعاون معهم وتصوّروا قبوله نظراً لما كان يجري على المرشديّين من اضطهاد تلك الأيّام، وقَبِل ساجي هذا العرض، وأخبر به الأركان في دمشق.

كانت المؤامرة تضمّ أيضاً ضبّاطاً سوريّين مسرّحين، كما انضمّ إليهم الشيشكلي مؤخّراً

---

(١) حاول القوميّون السوريّون - أثناء دعوة مجيب - استغلال المرشديّين وإدخالهم إلى حزبهم عن طريق تعرّفهم على أبناء سلمان المرشد، وكان الحاكم الفعلي في البلاد أديب الشيشكلي وثيق الصلة بالحزب السوري القومي، وبناء على طلب الشيشكلي وإلحاحه ثم وعوده بإنهاء سجن محمّد الفاتح فقد قرّر وجوه العشيرة بما فيهم بعض أبناء سلمان المرشد أن يكون هناك دخولٌ في الحزب ولو كان ظاهريّاً وعلى الرغم أنّ مجيب كان قد كشف حقيقة ما يريد هذا الحزب فقد سمح بالدخول به مبيحاً لنا من يومها حريّة العمل السياسي. ولم تدُم هذه العلاقة سوى أشهر ولم يُعطِ المرشديّون الحزب القومي أيّ انتباه. وهم لم يحتجّوا على اغتيال مجيب أو يشجبوه في جرائدهم في سورية وفي لبنان ولم يقدّموا لنا تعازي لا شفهيّاً ولا كتابيّاً حتى ولا هاتفيّاً ولم يرسلوا أيّة برقيّة مع العلم أنهم كانوا قد أصبحوا على غير وفاق مع الشيشكلي.

مؤمّلاً رجعته إلى الحكم[1]، وقد علِمَ ساجي بهذا الأمر رغم أنّ القوميّين السوريّين حاولوا إخفاءه عنه، ولذلك كانت الأركان والمخابرات مطمئنّةً في طلبها من ساجي التعاون معها لأنّه سيصفّ حتماً مع اليسار وليس مع هذا اليمين المتطرّف المتآمر على بلاده، الذي انضمّ إليه الشيشكلي وأنّ هذا اليمين المتآمر كان من الطبقة الإقطاعيّة، أعداء المرشديّين في السابق، والمخابرات تعلم أنّ جماعة ساجي كلّهم من الفقراء، ورجال المخابرات خبروا ولمسوا منه إنّما لا يهمّه شيء بقدر ما تهمّه قضيّة جماعته. وموقفه منهم كان موقفاً عفيفاً وكريماً، فهو لم يتلقَّ مالاً منهم ولم يعرضوه عليه أساساً، بل على العكس من ذلك كان يدفع لهم بعض المال بين الفينة والأخرى على شكل هدايا لبعض الضباط ناقلي الأقوال فهم قد يستاؤون ويشوّهون الحديث قبل نقله إلى رؤسائهم إذا لم يحرزوا مكسباً ماديّاً. فبدل أن يكسب ساجي مِن هذا الأمر كان يخسر من ماله، كعادته أن يفعل الأمر لأنّه صحيح وليس بغية مكسب.

كان ساجي يعلم، أنّه إذا وقفنا موقف الحياد من هذه المؤامرة، فستكون النتيجة أنّه إذا خسر القوميّون السوريّون ورفاقهم سَيَتّهمنا السرّاج بالتعاون مع القوميّين باطلاً، نقمةً ونكايةً بنا، لأنّنا رفضنا التعاون معه. أمّا في حال نجاح المؤامرة، فسيتقم المتآمرون منّا بعد نجاحهم لعدم تعاوننا معهم أيضاً. وكان كلّ ما يهمّ زعماء القوميّين السوريّين هو أن يقبضوا المال من الغربيّين كأجرٍ لهم. ففي حالة نجاحها يحكمون البلاد، وفي حالة فشلها فهم غير خاسرين، بل هم الرابحون من المال الشيء الكثير، ولا يهمّهم بهذا تَعَرُّضُ المرشديّين للعذاب وللقتل كنتيجةٍ لتعاملهم معهم في حال فشل المؤامرة. فلم يكن هنالك أيّ مجال

---

(١) يذكر محمّد معروف هذه المؤامرة في كتابه (أيّام عشتها ١٩٤٩ - ١٩٦٩) دار رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ٢٤٠: «أخبرت الحزب السوري القومي باستعداد الشيشكلي للتعاون فرحبت القيادة أشد الترحيب بهذه الخطوة؛ وتمّ القرار بسفري أنا وأسد الأشقر إلى باريس للاجتماع به».

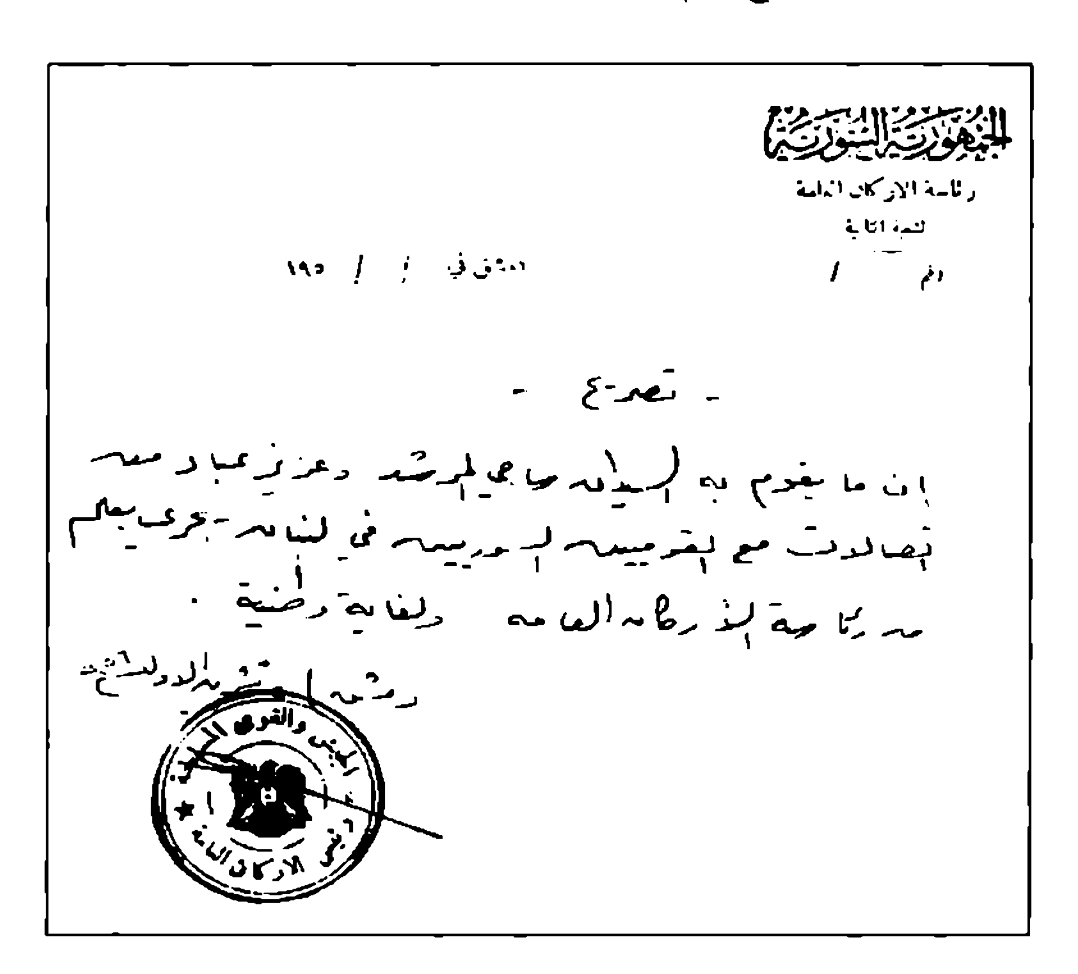
ثمّ جاء في كتابه في الصفحة ٢٤١: «وصل أديب الشيشكلي إلى بيروت، واستأجرت له شقة قرب محطة الدبك وطلبت من الحزب أن تكون حراسته من عناصري، ممن كانوا قد خدموا معي في الشرطة العسكرية، وطلبت منهم معرفة أسماء جميع زوار أديب الشيشكلي. طلب الشيشكلي الاجتماع باللواء «داغستاني» على انفراد وطلب منه مبلغ «٢٠٠٠» ألف ليرة فوعده خيراً. وعندما أخبرني اللواء غازي بالأمر اقترحت عليه أن يدفع «١٠٠٠» ألف ليرة فقط على أن يدفع الباقي فيما بعد؛ وهكذا كان».

وجاء في كتابه في الصفحة ٢٤٣: «كان دور العراق هو تأمين متطلباتنا من السلاح والمال من غير أن يتدخلوا في أي شأن من شؤوننا إلاّ عند الطلب. وبهذا تكون حركتنا شبه ثورة شعبية يشترك فيها بعد بدئها العشائر القريبة من الحدود السورية العراقية (شمر، طيء)؛ وكانت بعض العشائر العلوية ستتحرك لمؤازرتنا في محافظة اللاذقية (عشيرة النميلاتية والمتاورة) عند بداية الحركة ولا سيما عشيرة سليمان المرشد بزعامة ولديه ساجي وفاتح - وهم بحق، إن قالوا صدقوا وإن وعدوا وفوا - وكانت تربطني بهم صداقة متينة وبالأخص بعد أن نزحوا من سورية وسكنوا في أحد المنازل في بيروت (في الأشرفية) حيث كنا نتبادل الزيارات».

للوقوف على الحياد. وقد تصرّف المعلّم حيال هذه المؤامرة فيما بَعد حيث استطاع أن لا يلحق أي ضرر بأي شخص من القوميين رغم أنّه كان يحبط أعمالهم دون أن يُلحق بهم أضراراً.

واشترط المعلّم إنهاء حملة مرشتي، وإنهاء موجة العذاب ضدّ المرشديّين، مقابل قبوله بالقيام بهذا الدور الذي طُلِب منه، واشترط أيضاً إعطاءه وثيقةً رسميّةً من الأركان العامّة للجيش والقوّات المسلّحة تعترف وتُثبت أنّ ما يقوم به ساجي من اتّصالٍ مع القوميّين السوريّين إنّما هو برغبة وطلب الأركان العامّة، وذلك كي لا ينكروا علينا ما طلبوا منّا.

وفعلاً أعطيت وثيقة رسميّة من الأركان العامّة نظراً لشعورهم بحاجتهم إليه في هذه المرحلة السياسيّة الخطرة. وتنصّ هذه الوثيقة على أنّ ما يقوم به ساجي من اتّصالاتٍ مع القوميّين السوريّين هو بعلم وطلب الأركان العامّة، وهو للمصلحة العامّة. وهذه صورة طبق الأصل عن هذه الوثيقة مع العلم أنّ الأصل ما زال بحوزتي.



الجمهورية السورية
رئاسة الأركان العامة
الشعبة الثانية

رقم / دمشق في / / ١٩٥

- تصريح -

إن ما يقوم به السيد ساجي المرشد [illegible]
من اتصالات مع القوميين السوريين في لبنان جرى بعلم
من رئاسة الأركان العامة ولغاية وطنية.

[illegible]

الجيش والقوى [illegible] رئاسة الأركان العامة

وقامت المخابرات رأساً بالإيعاز إلى الحكومة المحلّيّة في اللاذقيّة للعمل على إنهاء حملة مرشتي، والاتّفاق مع ساجي على كيفيّة حلّها. وكان أن استُدعي ساجي إلى اللاذقيّة حيث قابل بعض المسؤولين من رؤساء المكتب الثاني ورجال الدولة هناك. وتمّ الاتّفاق على إنهاء هذه الحملة وإيقاف الاضطهاد.

وبدأت الاتّصالات بالقوميّين السوريّين في لبنان، وقد أرسل القوميّون السوريّون ما يقارب ثلاثمئة بندقيّةٍ جديدة، جرى تهريبها من لبنان إلى جبل الساحل ليلاً وتخبئتها هناك. وأخبر المعلّم الجهات المسؤولة بها، فكان أن نقلتها المخابرات إلى مستودعاتها.

ما خبّأ ساجي عن القوميّين أنّه على اتّصالٍ بالأركان العامّة في سورية، وأنّه قد أخبر الأركان باتّصاله بالقوميّين السوريّين، فهو لم يستأذنهم بإخبار الأركان بل وضعهم أمام الأمر الواقع، واضطرّوا للقبول بالأمر لِما كانوا يشعرون به من حاجةٍ لساجي وجماعته ولأنّهم لا يستطيعون أن يثبتوا لساجي أنّ الأركان لن تصلها أخبار تعاونه معهم من وشاةٍ في صفوف القوميّين، وكذلك باح ساجي للأركان أنّه أعلم القوميّين السوريّين أنّه على اتّصالٍ بالأركان، ووافقت الأركان بعد أن أقنعهم ساجي بصحّة هذا التصرّف.

وأدّى هذا الوضع الذي فرضه على الجهتين أنّ كلّ جهة منهما باتت تعلم أنّ ساجي يستطيع بحكم هذه المرونة أن يعمل لمصلحة أيّ جهةٍ أراد، ولكنّها أدّت أيضاً إلى عدم اعتباره من كلتا الجهتين أنّه تابعٌ لها، بل حرصت الجهتان على استمراريّة اجتذابه إليها، وذلك بمراضاته دائماً نظراً لحاجة الجهتين الماسّة إليه. وبذلك أخذ المعلّم موقعاً ممتازاً في هذه اللعبة السياسيّة.

وكانت فئاتٌ وعشائر كثيرة في سورية قد اشتركت في هذه المؤامرة كما قلنا سابقاً. وفُضِحت المؤامرة[1]، وقُبِضَ على جميع المشتركين بها داخل البلاد، زعمائهم وكلّ رجالهم.

---

(١) يقول محمّد معروف عن افتضاح المؤامرة:

«انكشفت حركتنا عن طريق الصدفة، ففي منتصف تشرين الأول / أكتوبر وصلت شحنة من الأسلحة إلى حدود جبل الدروز مرسلة من العراق إلى الأمير حسن الأطرش والشيخ هايل سرور. تسلم هذه الشحنة على حدود الجبل المدعو فارس الدويعر، غير أنّ السيارة التي كانت تقل السلاح تعطلت في الطريق وصادرتها مفرزة من الهجانة بالتنسيق مع لوزانس الشعلان. وأوقف فارس الدويعر وفضل الله جربوع وغيرهما من الجبل؛ كما تم القبض على الشيخ هايل سرور من قبل السلطات اللبنانية - وكان ينزل في فندق النورماندي - وسلّم إلى السلطات السورية في دمشق وكرّت المسبحة فأوقف عدد من النواب في دمشق منهم الدكتور عدنان الأتاسي والدكتور منير العجلاني وصبحي العمري. وبتاريخ ٢٤ / ١٢ / ١٩٥٦ نشرت قائمة الاتهام بحق ٤٧ متهماً، منهم من ألقي القبض عليه من المذكورين آنفاً ومنهم من كان غائباً. وشمل الاتهام الغيابي الأمير حسن الأطرش وعدنان العجلاني وفيضي الأتاسي وميخائيل إليان ونوري بن مهيد وفرزت المملوك؛ ومن الضباط: أديب الشيشكلي ومحمد صفا وغسان جديد ومحمد معروف - ولم يكن لكثير من هؤلاء أي علاقة بالحركة .- كما طال الاتهام من العراقيين: برهان ـ

وحوكم الجميع في محكمةٍ علنيّةٍ في دمشق، تُبثُّ وقائعها من الإذاعة مباشرة. وجاءت الأحكام مرعبةً من الإعدام إلى السجن المؤبّد. وكان قد تمّ تعذيبهم قبل المحاكمة حتى فنيت أجسادهم أو كادت. وهكذا أنقذنا تدبير المعلّم من هذه الكارثة وذيولها.

نهاية حملة مرشتي

رحل عسكر مرشتي في صيف ١٩٥٦ لربّما في أوائل آب، وكان قد توقّف الاضطهاد قبل ذلك بفترةٍ، وعمّت البهجة وجوه المرشديّين، شاعرين أنّ نصرهم واضحٌ مبين، فما زادهم العذاب إلّا يقيناً وتمسّكاً بعقيدتهم الداعية إلى الخير الرافضة كلّ الشرور، وما كانت النار التي ألقوهم بها إلّا برداً وسلاماً.

وحلّ الفرج مكان العذاب، ونُقل أجود الهنيدي رئيس تلك الحملة إلى مكان آخر، وبتعذيبه للمرشديّين باتت له شهرةٌ في مناطق اللاذقيّة كلّها، فما من أحدٍ تقريباً إلّا ويعلم مَنْ هو أجود الهنيدي معذّب المرشديّين. وبعد انتقاله مات حرقاً، فقد احترقت به غابة في الفرلّق بعد بضعة أيّام من انتقاله، فطفق يركض ويستجير، حتى وصلت إليه النار وهو في قلب الغابة، فأحرقته. وشمت به المرشديّون وارتاعت قلوب المفسدين. وروى عزيز عباد، وكان ما زال نائبا في البرلمان أنّ أحد السياسيّين من حزب الشعب قال له : (والله ربّكم بيخوّف) مشيراً إلى موت أجود الهنيدي حرقاً. فقد انتشرت أنباء حرقه في كثيرٍ من المناطق في سورية نظراً لشهرته المنوّه عنها سابقاً.

استمرّ هذا الانفراج الذي بدأ في تمّوز سنة ١٩٥٦ حتى حوالى ٢٠ نيسان سنة ١٩٥٧. وما كانت حملة مرشتي ولا أحكام السجون إلّا نصراً للمرشديّين ونكسةً لأعدائهم، فقد حاولوا أن يقضوا على الدعوة المرشديّة وباؤوا بالفشل المبين، وما كانت نتيجة هذه الحملة إلّا أنّها وطّدت العزائم وأجلت للعيون نور اليقين.

- باشا أعيان وزير خارجية العراق، واللواء غازي الداغستاني معاون رئيس أركان الجيش العراقي، والعقيد صالح مهدي السامرائي الملحق العسكري العراقي في بيروت. كان المتهمون جميعاً سوف يحاكمون أمام محاكم عسكرية لأن البلاد تخضع لأحكامٍ عرفية». وجاء في كتاب معروف أيضاً في الصفحة ٢٥٤ عن هجوم البارزين الشديد على الرجعيّين بعد افتضاح المؤامرة إذ يقول: «وجرت حملة شعواء لتشويه سمعة سائر العناصر السياسية المحافظة، وليس المتهمين فقط. وكتب ميشيل عفلق في إحدى افتتاحيات جريدة البعث: إن الطبقة الاجتماعية المحافظة لا المتهمين فقط هي المجرمة لأن مصالحها الخاصة دفعتها للقيام بهذه المؤامرة، فلا بدّ من تدميرها».

مصدر مذكور سابقاً: (أيام عشتها ١٩٤٩ - ١٩٦٩) دار رياض الريّس للكتب والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ صفحة ٢٥١ - ٢٥٢.

ورجع المرشديّون الذين كانوا قد التجؤوا إلى أماكنَ شتى إلى قراهم، وأصبح واحدهم يتجوّل من قريةٍ إلى قرية، ويتجوّل في المدينة بدون رقيب.

وغادر الذين كانوا قد التجؤوا إلى المعلّم البيت إلى قراهم، فرغ البيت بعد أن غصّ بسكّانه، وأصبح متسعاً جدّاً على مَنْ بقي فيه، فلم يبقَ عنده إلّا نحن أخواه، وقد يتصادف ويأتي أحد الزائرين، فيمكث في البيت أياماً قبل أن يغادره. ودرجت عادة قدوم المرضى إليه حيث يرسلهم هو أو فاتح إلى الأطباء، وابتدأتَ ترى في بيته المرضى جالسين هنا وهناك.

ازمة الداحول

في نيسان سنة ١٩٥٧ وعلى أثر مشاحنة بين أحد المرشديّين وبين أحد المفسدين يلقّب بالداحول في منطقة الغاب. وعندما وجد المرشدي أنّ الآخر أقوى منه استعمل مديةً كانت معه فقتله.

هبّ المفسدون لحرب المرشديّين تارةً أخرى، يتّبعون صفرات أكرم الحوراني ووهيب الغانم اللذين أقبلا على هذه الحادثة يريدان أن يجعلا منها أمراً خطيراً، ويخترعا مؤامرةً تصل جذورها إلى أميركا وإلى دول الغرب، يعاونهما بذلك أنصارهما في الحزب، وفي مقدّمة جماعتهما آنذاك كان عنان علي بذّور وهو ابن علي بذّور صاحب وسام الشرف الفرنسي.

مئات الوشايات تصل من كلّ مكانٍ إلى الحكومة، تصف هذا التآمر وتتّهم المرشديّين أنّهم يخطّطون لقتل أناسٍ آخَرين ولمهاجمة الحكومة. ونتيجةً لهذا الجوّ الذي اختلقه أكرم الحوراني، أرسلت الحكومة مخفراً إلى دير ماما، ومخفراً إلى عين المجنونة في الغاب، ومفرزةً عسكريّةً إلى نبع الخندق.

وجاء الفاعل فور فعلته إلى المعلّم في دمشق، وكان خائفاً جدّاً، وطمأنه المعلّم وطلب منه أن يسلّم نفسه، ويتحمّل مسؤوليته كاملةً ولا يحمّلها لغيره. وفعلاً ذهب الرجل وسلّم نفسه واعترف بفعلته.

طفق رجال الحكومة يسوقون المتهمين إلى مخافر صلنفة والحفّة وإلى مخافر الغاب، وكان المطلوبون كثيرين، فما فتئ الواشون يزجّون بأسماء المرشديّين زجّاً، وعُذّبَ أفرادٌ من المرشديّين المطلوبين عذاباً شديداً.

طلب المعلّم من عزيز عباد أن يثير هذه القصّة في المجلس النيابي فوراً، وأثارها،

وقدّمت مذكرةً بهذا الخصوص، تتهم الحكومة المحلّيّة بالظلم، وكان أن شُكّلت لجنةٌ برلمانيّة للتحقيق في الموضوع، وأُرسلت إلى اللاذقيّة. وكانت تجتمع بالناس بالجوبة وفي غيرها. وحاول رجال الحكومة المحلّيّة أن يُظهروا للّجنة أن ليس هنالك شيء يستحقّ الذكر، إنّما المرشديّون هم الذين يعتدون على جيرانهم، وليس كما تدّعي مذكّرتهم. وتصدّى المرشديّون للأمر، يثبتون الحقيقة، فأمّت اللجنةَ وفودٌ من جماعة المرشديّين رجالاً ونساءً يشكون الظلم والإرهاب. وإحدى النساء المرشديّات ألقت بابنها الصغير إليهم، وقالت: خذوه فقد سجنتم أباه، ولا أستطيع إعالته. ولم يُسفر إرسال هذه اللجنة عن أيّ نتيجةٍ من حيث اتّهام الحكومة المحلّيّة إلّا أنّها خفّفت كثيراً من مغالاة رجال الحكومة المحلّيّة نظراً للتدخّل الرسمي البرلماني.

وإليك رواية محمّد يوسف ناصر وهو مرشدي من قرى غربي الجبل وروايته تعطي صورةً عن ماهيّة أسئلة اللجنة البرلمانيّة والإجابات عليها. وإنّي لمؤمّل أن تعطي هذه الرواية شيئاً من الانطباع الصحيح عن جوّ تلك الأيّام.

يقول محمّد يوسف ناصر: «شُكّلت لجنة برلمانيّة وجاءت إلى الجوبة للتحقيق في المظالم والشكاوى التي كنّا أثرناها في البرلمان، وكان يرأسها على ما أذكر عبد الكريم الدندشي.

س: أصحيحٌ أنّك تقوم بجمع أموالٍ من الشعب لساجي وإخوته؟. ـ يظهر من هذا السؤال أنّ اللجنة لم تكن مَعنيّةً بالتحقيق بمظالم المرشديّين بقدر ما هي معنيّةٌ باتّهامهم. فقد وجّهوا تهمةً مباشرةً إلى محمّد يوسف بجمع المال (أقصد اعتبروها تهمة)، وهي ليست تهمة قانونيّة. وهل يحرّم القانون المساعدات؟ ـ.

ج: ساجي وإخوته غير محتاجين والعكس صحيح، فإنّ ساجي هو الذي يساعد الفقراء والمحتاجين من المرشديّين وغيرهم.

س: أصحيح أنّكم لا تؤمنون بالقرآن ولا بالدين الإسلامي. وتحاربون المسلمين المؤمنين في القرى المجاورة. وطبعاً هذه تعاليم مجيب لكم؟ ـ هنا يظهر بوضوح أنّ هذه اللجنة البرلمانيّة كان قصدها اتّهام المرشديّين وإدانتهم وليس إنقاذهم من المظالم والشكاوى التي تقدّموا بها ـ.

ج: علّمنا مجيب أن نحترم كلّ الأديان، وعلّمنا ما هو الإيمان الصحيح باللّه، وعلّمنا ما هي قيمة القرآن وفضله على الأمّة الإسلاميّة، وإنّ ساجي يصف القرآن بأحد أشعاره إذ يقول:

قاف والقرآنُ ظِلُّ ... اللهِ في هذا الوجودْ

حِكمةٌ كُبرى ودُنيا ... مِنْ هَناءٍ وسُعودْ

ليسَ كالقُرآنِ شيءٌ ... يُكسِبُ العِلمَ شُعورْ

كانَ والقِدَمُ ويَبقى ... قائِماً مَرَّ الدُّهورْ

فاقرأِ القُرآنَ تأويـ ... ـلاً وعُبَّ العِلمَ نُورْ

وانظُرِ اللهَ ضَحوكاً ... بينَ طَيّاتِ السُّطورْ

إنّما القُرآنُ شمسٌ ... شَعشَعَتْ سِرَّ الخلودْ

هِبَةُ اللهِ إمامٌ ... وصِراطٌ لِلصُّعودْ

بسمِ رَحمنٍ رَحيمٍ ... إبتدى النُّذرَ هَداءْ

إنَّ لِلباري صِفاتٍ ... فيها يَبري ما يَشاءْ

إنْ لِخَلقٍ أو لِمَوتٍ ... أو لِتَقسيمِ العَطاءْ

عُروةٌ دونَ انفِصامٍ ... قُوّةٌ دونَ وَهاءْ

واستوى فيها على عَـ ... ـرشِ العُلى زيناً يَسودْ

نَبَعَ الأركانُ مِنهُ ... عَينَ حَقٍّ لِلوُرُودْ

تَرِدُ الأملاكُ صَفّاً ... تَستَقي سِرَّ البَقاءْ

يَحمَدونَ اللهَ حَمداً ... مُستَمِرّاً بالولاءْ

مُذْهُمْ بالوَحيِ قاموا ... في كَمالٍ وضِياءْ

واستَداموا عُظَماءْ ... عُلَماءْ أنقِياءْ

سَلَّمَ اللهُ عليهِمْ ... رَحمَةً مَلأى رُفودْ

دَندَنوا في الحَمدِ آياً ... لَكَ يا باري السُّجودْ

وَغَدَ اللهُ حَياةً ... يُعطيها لِلأتقِياءْ

تأمَنُ الرُّوحُ بَقاءً ... في هَناءٍ وعَلاءْ

تَتَلَقّى الوَحيَ مِنهُ ... إنطِلاقاً في الصَّفاءْ

حِكمَةُ اللهِ غِذاءٌ ... عِزّةُ اللهِ كِساءْ

تَغدو إدراكاً طَليقاً ... قُدرةً دونَ حُدودْ

غَيرُ هذا العِزِّ ذُلّاً ... كَيفَ ما كانَ يَعودْ

أبهذا ما يدلّ على أنّنا لا نؤمن بالقرآن ؟!.

س : ألم تتلقّوا أوامرَ من ساجي وفاتح بالضغط على الناس المجاورين لكم من غير المرشديّين وإجبارهم على اعتناق الدين المرشدي. فإذا لم يعتنقوه تمنعونهم من الرعي في

مراعيكم. وتمتنعون عن مجالستهم والتحدّث إليهم وذلك بتوجيهات ساجي وفاتح. وكنتم في السابق على وئام معهم؟

ج : أستغرب كيف تصدّقون مثل تلك الأقاويل الملفّقة والإشاعات المغرضة، ومن تعاليم مجيب أن لا نقابل الشرّ بالشرّ، بل أن نقابل الشرّ بالخير، كي تستجلب صاحب الشرّ وتدعوه بذلك إلى ما أنت عليه من حقّ وخير. فكيف يأمرنا ساجي بالاعتداء بعد هذه التوجيهات الصريحة ؟!.

س : لماذا إذاً تقاطعون الناس؟

ج : لا نحبّ مجالسة بعض الناس لكفرهم وتجديفهم على اسم الله، وليس لسبب آخر. وإنّ كثيرين منهم يقومون بافتراءاتٍ علينا إذ يقولون أنّنا استدنّا منهم مالاً ولم نرجعه لهم، ويعلّلون هذا للمسؤولين أنّ دين المرشديّين يبيح لهم ذلك. وأنا شخصياً لا أتصوّر كيف تصدّقون مثل هذه الأقوال وأنتم المثقفون والمسؤولون في الدولة. فما هي إلّا عمليّة ابتزازٍ واضحة لكلّ ذي بصيرةٍ وإدراك».

بعد مقابلات اللجنة في الجوبة طلب أعضاؤها الاجتماع بساجي وبعض أبناء سلمان المرشد وعيّن مكان الاجتماع حيث تقيم اللجنة في فندق السياحة (الكازينو) في اللاذقية.

وجاء ساجي من دمشق وفي اليوم المحدد ذهب سميع وأمير ومنير والمرشد إلى الفندق ودخل ساجي لمقابلة اللجنة أمّا إخوته فقد انتظروا في ردهة الفندق الواسعة.

يقول المرشد : «اختلفت أسئلة اللجنة التي وجّهتها لساجي في غالبيتها عن أسئلتها لمن اجتمعت بهم من المرشديّين في الجوبة فقد دارت حول العقيدة وعلاقتها ببقيّة المذاهب الإسلاميّة ثمّ ببقيّة الأديان. وممّا أذكره من أجوبته وليس بحرفيتها :

- لا نقبل أن يحاسبنا على ديننا أحد إلّا الله فهو الديّان.

- مجيب هو القدوة في الإيمان والأخلاق والتعامل.

- وعندما سألوه إن كان يتقاضى الزكاة من المرشديّين أجاب بأنّ الزكاة للفقراء والمحتاجين. واستمرّت المقابلة حوالى الساعتين واكتفت اللجنة بما قاله ساجي ولم تطلب أحداً من الأخوة أو أفراد المرشديّين بعدها وعادت إلى دمشق».

وما هي إلّا أسبوعان أو ثلاثة حتى خرج الجميع من السجون، ولم يبقَ إلّا الذين كانوا يُحاكَمون بتهمة قتل الداحول.

انطفأت نار الداحول بسرعة كما استعرت بسرعة، ولربّما ما اجتازت أيّامها العشرين، وما كان سبب انطفائها إرسال اللجنة البرلمانيّة فحسب بل إنّ السبب الحقيقي يكمن في تدخّل المعلّم سياسيّاً للمرّة الثانية بعد أن طُلِبَ منه ذلك وسآتي على ذكر ذلك لاحقاً.

انتهاء عزيز عباد كتائب عن المرشديين

وحدث عندما أثار عزيز عباد قضيّة الداحول في البرلمان أنّه اصطدم مع حزب البعث وهذا الذي كان ساجي قد حذّره منه، وما كان سرّ صدامه وملاسنته في البرلمان مع بعض رجالات هذا الحزب إلّا أنّه كان قد دخل حزب الشعب عدو البعثيّين فاستغلّ حادثة الداحول ليهاجمهم. وعلى الرغم من أنّ موقف أكرم الحوراني من المرشديّين لم يكن طيّباً في يوم من الأيّام إلّا أنّ ساجي ما أراد صداماً مع البعث عالماً من نظره البعيد أنّ هذا الحزب ولو عادانا أفراد منه، فلابدّ له أن يعود إلينا يوماً من الأيّام لأنّ شعاراته بتوزيع الأرض على الفلاحين تتّفق وأحوالنا المعيشيّة ولأنّه يحارب الذين يعادوننا من إقطاعيّين ورجعيّين. وهكذا شذّ عزيز عباد عن توجيهات المعلّم وبات لا يمثّل إلّا نفسه. ولم يأتمنه ساجي بعدها ولم يكلّفه بأي عمل وانقلب بعدها حتى أصبح من أعداء المرشديّين.

حرب سيناء ١٩٥٦

تعرّض اليساريّون العرب إلى محاولةٍ غربيّةٍ بقصد إرجاع مصر قائدة اليساريّين مؤيّدي الاتّحاد السوفياتي في العرب إلى أحضان الدولتين المتسلّطتين على المنطقة العربيّة سابقاً، وهما بريطانيا وفرنسا، واللتان كانتا لا تفتأان تقتسمان المنطقة العربيّة أيّام الاستعمار والانتداب، ثمّ تحوّلتا بعد استقلال الدول العربيّة إلى إيجاد مناطق نفوذٍ لهما في هذه المنطقة، وما انفكّتا عن التخاصم والتراضي لأجل مصالحهما في هذه المنطقة كغيرها من مناطق العالم. ولكن نظراً لوجود البترول في المنطقة العربيّة، فقد تزايد اعتناؤهما بها. واستغلّتا تأميم عبد الناصر لقناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦، ذلك التأميم الذي قام به عبد الناصر ردّاً على رفض أميركا تمويل بناء السدّ العالي، فكان أن تآمرتا مع إسرائيل، وطلبتا منها الانقضاض على مصر. وفعلاً استطاعت إسرائيل احتلال صحراء سيناء بكاملها. ومن الواضح أنّ العسكري المصري لم يكن قد استطاع فهم هذه الأسلحة الحديثة التي كان قد اشتراها عبد الناصر حديثاً ولم يظهر لها أيّ أثرٍ فعّالٍ في المعركة فعدوّهم لم ينتظر عليهم ليتدرّبوا عليها فقد هاجمهم في

نفس السنة التي اشتروا فيها الأسلحة، وخلفها الجيش المصري وراءه في صحراء سيناء بعد أن جاءه أمر بالانسحاب الكيفي من القيادة وهكذا لم يشترك الجيش في أيّ قتال.

هنا تدخّلت بريطانيا وفرنسا واحتلّت بريطانيا إذاعة الشرق الأدنى في قبرص وأسمتها (صوت بريطانيا) وأعلنت أنها هي وفرنسا كنتيجة لهذا التطاحن بين مصر وإسرائيل، قرّرتا التدخّل لحماية القناة، بدعوى حقّهما الشرعي بها، ومحافظةً منهما على التجارة العالميّة. واحتلّتا بور سعيد، وأعلن عبد الناصر أنّه سيتحوّل إلى المقاومة الشعبيّة.

ولكنّ أميركا قامت بمساندته، تؤازرها روسيّا (الاتّحاد السوفييتي) التي بدأت تأخذ دورها في المنطقة منذ ذلك التاريخ في سياق احتدام الحرب الباردة. وقدّمتا مذكّرةً إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بوجوب الانسحاب فوراً، وهدّدتا بالتدخّل الفوري. وكانت أميركا في ذلك الزمن وقبله تحاول تقليص نفوذ بريطانيا وفرنسا في كلّ مناطق العالم لتحلّ محلّهما من حيث النفوذ، وكانت تحبّ أن تظهر للعالم على أنّها محرّرة الشعوب المستعمَرة، وكانت تتّفق مع روسيا (الاتّحاد السوفييتي) في كثيرٍ من الأمور رغم كلّ هذه الحرب العالميّة الباردة التي نشبت بينهما منذ الحرب العالميّة الثانية وحتى أواخر الثمانينات. وأذعنت الدولتان العُظْمَيان أمام تهديد مَنْ هو أعظم منهما وانسحبتا. وأُرغِمت إسرائيل لاحقاً على الانسحاب من سيناء تحت تأثير ضغط إيزنهاور رئيس أميركا آنذاك. ولم يكن للصهيونيّة يومها ذلك النفوذ الجبّار الذي صار لها في الستّينات.

وألهب هذا الحدث مشاعر العرب، وازدادت شعبيّة عبد الناصر وفقاً لذلك، وازدادت الجماهير طلباً للوحدة العربيّة في كلّ مكان من العالم العربي. وباتت حمّى القوميّة تغزو جميع الأقطار العربيّة تقريباً. وأصبح الفرد العربي العادي يجد لذّةً في ذكر اسم عبد الناصر في كلّ مكان.

كان لهذه الحرب الصغيرة أثرٌ سيّئ على بريطانيا وفرنسا في المنطقة، فقد سُحق نفوذهما كلّيّاً في مصر وسورية واستُبدل بالنفوذ الشرقي، كما اشتدّت وتعاظمت الأحزاب اليساريّة في معظم الأقطار العربيّة مطالبة حكّامها بسحق نفوذ الغرب، واتّباع خُطى عبد الناصر.

السكن في لبنان

سبب الإنتقال إلى بيروت

كان سبب انتقال المعلّم من دمشق إلى بيروت هو أنّ قيادة الجيش السوريّ قد طلبت منه أن يذهب إلى لبنان كي يلاحق المتآمرين على البلاد ويفضح مؤامراتهم في لبنان، تلك المؤامرات التي ما كانت قد انتهت حتّى بعد فشل المؤامرة الأولى. وساجي كعادته وعادة سلمان قبله يلبّي نداء الأُمّة إن كان في هذا النداء خيرها، وكان في نداء الحكومة آنذاك خيرٌ للأُمّة بإبعاد الرجعيّين الأوائل عنها، أولئك الذين سلّموا لواء اسكندرون ومرّروا قضية فلسطين لأجل أن يصبحوا ويبقوا حكّاماً للبلاد، ثمّ وكان يتآمر معهم الشيشكلي أيضاً وهو ليس فقط عدوّاً للمرشديّين بل للبعثيّين وكلّ القوميّين العرب الذين عملوا على طرده من البلاد وللدروز الذين قُتل منهم مئات القتلى والتجأ منه زعماؤهم إلى الأردن. وهو عدوٌّ لكلّ فرد ما زال يحتفظ بقلبه ولو بأقلّ قَدرٍ من الكرامة. ويظهر أن أميركا ما فتئت تحاول إعادته إلى سورية عن طريق المؤامرات كما جاء في كتاب سليمان المدني (هؤلاء حكموا سورية)[1].

انتقل ساجي إلى بيروت في أواخر حزيران سنة ١٩٥٧ بعد أن هدأت الأمور وتوقّفت

---

(١) «المؤامرة الانقلابية الثانية: بتاريخ ١٢ / ٨ / ١٩٥٧ أصدرت الحكومة السورية بياناً بعنوان:

«تفاصيل المؤامرة الأميركية على سورية» جاء فيه:

إنّ الأميركيين أرسلوا أمهر خبرائهم وهو «هوارد ستون» ليجري اتّصالات مع بعض رجالات الحزب القومي السوري الاجتماعي بهدف الاحتكاك بضباط الجيش للعمل على تبديل الأوضاع في سوريا بالتعاون مع العقيد ابراهيم الحسيني الملحق العسكري السوري في روما وذلك تمهيداً لإعادة أديب الشيشكلي لحكم البلاد.

وكان الحسيني قد أكّد لأحد ضباط الاستخبارات الذي دسّه الحكومة بأنّه اتفق مع الأميركيين على مبلغ يتراوح بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ مليون دولار لقاء تصفية الحكومة الراهنة في سورية وعقد صلح مع اسرائيل ولخّص خطته الانقلابية بقوله:

تقوم بعض قطعات الجيش بالتحرّك نحو العاصمة لإحداث انقلاب عسكري. بينما يقوم عملاء أميركيون باغتيال مجموعة من الضباط ضماناً لنجاح الانقلاب.

وكان الشيشكلي أثناءها قد تسلّل سرّاً إلى دمشق وأقام في منزل أحد الدبلوماسيين الأميركيين متنكّراً. حيث حاول إجراء اتّصالات ببعض معارفه من الضباط وعندما أدرك فشل محاولته الانقلابية هرب من دمشق إلى مكان مجهول بعدما حصل على جزء من أموال المؤامرة».

المصدر: د. سليمان المدني. هؤلاء. حكموا سورية ١٩١٨ - ١٩٧٠. دار الأنوار. الطبعة الثالثة ١٩٩٨. ص ١٠٢.

موجة الاضطهاد العنيف ضدّ المرشديّين، وأخذني معه فيمن أخذ من أفراد العائلة وكنت يافعاً ابن ثلاثة عشر عاماً.

بيروت كما عرفتُها سنوات الخمسينات

كانت بيروت تختلف عن دمشق بشكلٍ ملفتٍ للنظر، فهي أكثر تقدّماً ومدنيّةً، الحياة تعجّ في كلّ جنباتها والشوارع تمتلئ بالناس وبالسيّارات الفخمة والمتواضعة، الجديدة والقديمة، وما كانت تمثّل دمشق من حيّز الحركة والمدنيّة إلّا قليلاً بالنسبة إلى بيروت في أبنيتها المتسامقة الملوّنة في الروشة على كورنيش البحر، مطاعمها المنتشرة على الشاطئ، أبّهة مخازنها وزركشتها، ديكورها الأميركي الحديث.

كنتَ تسمع رنّة ضحكات الناس في الشوارع، وتلاحظ كيف أنّهم منفتحون في بيروت على عكس ما في دمشق من كبتٍ أسّسته قرون العبودية للسلطان. أمّا المسيحيون في لبنان فما كانوا منغلقين على أنفسهم في مجتمعهم الخاص بهم كمسيحيي سورية، لربّما بسبب أنّهم لم يُقاسوا محنة الاضطهاد عبر مئات السنين زمن الأتراك كما قاسى السوريّون، ويعود السبب في ذاك إلى كثرتهم نسبياً إلى سكّان لبنان تلك الأيّام، كما أنّ لبنان لم تقبل بيومٍ من الأيّام أن يكون لطوائفها من السنّة والدروز والشيعة باشا تركي، بل أصرّ الشعبُ اللّبناني على أن لا يترأسه إلّا أمير لبناني، وجرت حروب فخر الدين المعني وغيره مع العثمانيّين ولاقى الشعب اللّبناني في سبيل نيل ذلك الأمرّين، ولكن بقي يتنشّق بعض عبير الحريّة تلك الزهرة العزيزة القطاف، ولم يسلّم نفسه للأتراك كما حدث لسوريا وفلسطين اللّتين حكمهما باشوات أتراك، فكنت ترى الناس في لبنان ضاحكين مستبشرين، وليس من أحدٍ يزاورك في الطرقات كما يفعل الناس في سورية وبدون أي سبب.

وأمّا نساء بيروت فيكدن يُظهرنَ أكثر أجسادهنّ، يتفنّنُ بذلك تفنّناً ويقلّدن بهذا الباريسيات والأوروبيات، ويكدنَ يسبقنهنَّ في هذا المضمار لولا أنّ الأصالة هي الأساس. كانت بيروت يوم ذاك ملتقى السيّاح من العرب الأغنياء ومن الأجانب الأوروبيّين، تزدهر بها السياحة أيّما ازدهار، فأُنشئت الفنادق الضخمة أو كان أكثرها بطريق الإنشاء. وأقيمت دور السينما الواسعة التي تغطّي سقوفها ثريّاتٌ عملاقة تعطي جوّ السينما أبّهةً وفخامةً.

وبينما يملأ مسابح الشواطئ الرمليّة والصخريّة المحيطة ببيروت ـ وبيروت رأس بحري ـ

أناسُ الطبقات الأرستقراطيّة في المجتمع التجاري اللبناني العالي الكفاءة يحاكي لون بشرة أجسادهم العارية من نساءٍ ورجال لون رمال الشاطئ القريبة إلى الصفرة، كان يملأ شوارع بيروت أناسُ الطبقات الفقيرة في المجتمع، يدلّك مظهرهم على مدى فقرهم، ولا تكاد تجد مثالاً لتقيس به بُعد المسافة بين الفئتين. كما كنت ترى العمّال السوريّين منتشرين في شوارع بيروت، وخاصّة الفخمة منها، يبحثون عن العمل ويطلبون الرزق، وقد سنحت فرصته في لبنان نظراً لهذه الحركة العمرانيّة النشطة.

والغريب أنّك ما كنت ترى فقراء بيروت حانقين أو حاقدين على الأغنياء نظراً لهذا الوضع إلّا بحيّزٍ ضيّقٍ جداً، بل كنت تراهم منفتحين مشرقي الوجوه، فما زال لهم أملٌ في ارتقاء هذا السلّم من عزّ الدنيا ورفاهيتها، أمّا بالنسبة للسوريّين العمّال فكانوا على الأقلّ يجنون ماديّاً في لبنان أكثر من بلادهم. وممّا جمل المجتمع المسيحي، ولدرجةٍ محدودة الإسلاميّ في بيروت آنذاك أنّ الطبقة الوسطى كانت واسعةً جداً، ولربّما كان عدد أفرادها يفوق أو يوازي عدد أفراد الطبقة الفقيرة.

كان لبنان ملجأ المعارضة لكلّ دولةٍ عربيّةٍ، فالحكّام العرب على عادتهم لا يستطيعون تحمّل وجود معارضةٍ لهم في بلادهم. ودائماً يلجأ المعارضون إلى لبنان من كلّ الدول العربيّة. واجتمعت المعارضة العربيّة في بيروت تبعاً لذلك، ورجال المعارضة لكلّ نظام يكيدون المؤامرات لنظامهم، ويعملون على إسقاط الحكم في بلادهم، وكلّ ذلك يجري في بيروت. ودائماً تكون المعارضة على اتّصالٍ بالدول الغربيّة أو الدول الشرقيّة وبين بعضها البعض. فأصبحت بيروت السياسيّة بذلك تعجّ بالمؤامرات، فهي كمجتمع الدبابير لا تسمع به إلّا الطنين والوعيد والتهديد، كلُّ معارضةٍ لحكّامها. وكان يساعدهم في ذاك طبيعة الحكم في لبنان الذي كان وفقاً لدستور البلاد خليطاً من القوانين الطائفيّة وقوانين الديمقراطيّة الحديثة. فهنالك مجلسٌ نيابي فعلاً، وهنالك وزراء فعلاً، ورئيس جمهوريّة وقضاة ومحاكم وكلّ مظاهر التشكيلات الديمقراطيّة المعروفة. ولكن تتوزّع الطوائف الدينيّة على جميع هذه المناصب، فرئيس الجمهوريّة يجب أن يكون مارونيّاً وليس مسيحيّاً فقط. ورئيس الوزراء يجب أن يكون من المذهب السنّي، ورئيس المجلس النيابي من المذهب الشيعي، ووزير الدفاع يكون عادةً درزيّاً. وهكذا تتوالى المناصب وتُقسّم على جميع الطوائف. حتى وظائف الجيش نفسه، فلكلّ طائفةٍ كانت مارونيّة أم أرثوذوكسيّة أم أرمنيّة أم سنّيّة أم شيعيّة أم درزيّة حصّة في المجلس النيابي وفي الوزارة وفي تنظيمات الجيش والقضاء. وكان للمارونيّة حصّة الأسد في كلّ هذه التنظيمات.

وتبعاً لهذا الجوّ الطائفي وتوازن القوى هذا، فقد تحقّقت شبه ديمقراطيّةٍ وحزبيّةٍ في الوضع اللبناني السياسي. فقد كانت حقّاً هذه الدولة الصغيرة أكثر حزبيّةً وأكثر ديمقراطيّةً من كلّ الدول العربيّة، ولربّما كلّ الدول النامية أيضاً. وكان يهدّد نظامها دائماً الشعور الطائفي بالظلم ويتجلّى هذا في نظرة زعماء المسلمين إلى زعماء المسيحيّين.

كان المجتمع اللبناني الغني عبارة عن مجتمع تجاريٍّ عالي الكفاءة، شهد له العالم منذ قديم الدهر بمهارته في هذا المضمار. واللبنانيّون يفهمون التجارة أنّها على مستواها الرفيع عبارة عن سلسلةٍ من الاحتكار والاستغلال والصراعات الماليّة.

الوحدة مع مصر

وأخيراً استطاع التقدّميّون في سورية من مخابراتٍ وضبّاطٍ وبعثيّين جرّ الحكم في سورية إلى الوحدة مع مصر، وأُخِذ القوّتلي مع كافّة السياسيّين السوريّين إلى مصر، حيث طلبوا من عبد الناصر قيام الوحدة. وكانت حالة القوّتلي يُرثى لها، فهو يبكي بفؤاده ويضحك بوجهه، وقُدّم إلى الإذاعة كي يتنازل عن سلطانه لبطل الوحدة العربيّة عبد الناصر، فما كان أشبهه بثورٍ رُبِطَ بالحبل في عنقه يُجَرُّ إلى الذبح جرّاً وذلك كما كانوا يصفونه في بعض وسائل الإعلام في لبنان، فقد كان صوته محموماً فعلاً عندما أعلن تنازله و(تضحيته) بمنصب رئاسة الجمهوريّة إلى عبد الناصر.

وقَبِلَ عبد الناصر بكلّ تواضع هذا الأمر، وأنعم على شكري القوّتلي بلقب المواطن العربي الأوّل مكافأةً له على تضحيته المزعومة هذه، وأعلن قيام الوحدة بين مصر وسورية في ٢٢ شباط فبراير ١٩٥٨. وسمّيت هذه الوحدة بالجمهوريّة العربيّة المتّحدة، وأصبحت مصر الإقليم الجنوبي وسورية الإقليم الشمالي، وأُعلن أنّ هذه الوحدة ما هي إلّا نواةٌ للوحدة العربيّة الكبرى. وعُيِّنَ يومٌ للاقتراع العامّ في مصر وسورية على رئاسة الجمهوريّة، وانتخب لهذا المنصب جمال عبد الناصر. وكنّا نستمع إلى هذه الأخبار من الإذاعات المصريّة والسوريّة غير آسفين على ذهاب المواطن الأوّل[1].

---

(١) يصف خالد العظم رئيس وزراء القوتلي في مذكراته بيعة القوتلي لعبد الناصر بما يلي:

«ولم يتبه أجل واحد من قادة سورية وهو في أوج عزّه. ولست أدري إذا كان ذلك من قبيل الصدفة المجردة أم من سوء الطالع. أما القوتلي فأنهى حياته السياسية بتسليم بلاده إلى زميله عبد الناصر، ففتح صفحة جديدة من حياته مليئة بالنفاق والرياء والارتماء بين أرجل الحكام المصريين، وبإلقاء خطب المديح والثناء على أعمال لا شك أنه لا يستسيغها في قرارة نفسه. غير أنّ الراتب الضخم الذي خصص له والدار التي يسكنها بالمجان والخدم والحشم الذين تدفع الخزينة رواتبهم. كل ذلك كان أحجاراً لقم فمه بها ولم يبق منه سوى منفذ ضيق يستنشق الهواء منه ويطلق المديح والتلفيق متظاهراً بدعم الوضع الحاضر، وهو لا ينسى تنازله عن الرئاسة التي ارتكب كل خطيئة في سبيل بلوغها والمحافظة عليها». المصدر: مذكرات خالد العظم، المجلد الأوّل، الدار المتحدة للنشر، الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٣، ص ٣٩٣.

الحرب الأهليّة في لبنان

وما طالت الأيام بعد ذلك حتى نشبت الحرب الأهليّة بين المسلمين والمسيحيّين في لبنان. واندلعت في بادئ الأمر في طرابلس، ثمّ امتدّت إلى بيروت وشملت لبنان بأسره. كان المسيحيون في لبنان بمعظمهم يمثلون الميول الغربيّة نظراً لثقافتهم الغربيّة ولدينهم وتقاليدهم. أمّا السنّيون والدروز وبعض من الشيعة أيضاً فكانت تعصف بهم عاصفة القوميّة العربيّة، وقد بلغت شدّتها بعد اتّحاد مصر وسورية كما حدث لبقيّة العرب في كلّ البلدان العربيّة. وأراد زعماء السنّة ولفيفٌ من زعماء الشيعة والدروز في لبنان استغلال قوّة عبد الناصر لنيل مكاسب طائفيّةٍ دستوريّةٍ جديدةٍ، وإذ كانوا يمثلون العائلات الإسلاميّة الغنيّة في لبنان فهم ما كانوا يخطّطون لانضمام لبنان إلى الجمهوريّة العربيّة المتحدة لأنّ هذا ضدّ مصالحهم التجاريّة. بل كانوا كما قلنا يستغلّون عبد الناصر للتساوي مع المسيحيّين في اقتسام المناصب السياسيّة. أمّا عبد الناصر فيظهر أنّه أراد استغلالهم لتحقيق الوحدة مع لبنان تحت زعامته كما حقّقها في سورية سابقاً.

وعلى أثر اندلاع الحرب الأهليّة انقطع قدوم المرشديّين وغيرهم إلى بيت المعلّم، فقد أصبح هذا مُتعذّراً. وبقي سكّان البيت لأنفسهم. واشتدّت الحرب في بيروت، وبدأنا نسمع ونشاهد انفجارات وإطلاق النار يوميّاً وذلك من نوافذ الصالون ومن الفيراندا في الطابق السادس. بدأت الحرب الأهليّة في بيروت بتفجير القنابل في هذا المكان وذاك، واضطرّ كميل شمعون رئيس الجمهوريّة إلى إنزال الجيش في الشوارع، ممّا زاد الطين بلّةً، وأصبحت الانفجارات وإطلاق النار تأخذ طابعاً يوميّاً ومستمرّاً، وتعذّر علينا التجوّل إلاّ في حارة الأشرفيّة التي كان بيت الدفوني فيها. وكأنّ الأيام كانت قد مهّدت للإمام وصحبه هذا البيت الكبير، لتعطيهم بعض المُتنفّس عند اندلاع نار الحرب هذه. فما شعروا بالضيق كثيراً، بل كانوا يتسامعون أخبار الحرب يوميّاً، ويتحدّثون بأخبارها ومفارقاتها.

وانضمّت أكثريّة الفئات الإسلاميّة في البلاد إلى جبهة العروبة، وأصبحت الحرب حرباً طائفيةً بحتة. واستنفرت (الكتائب) للحرب وهي الحزب الرسمي لبيير الجميّل أكبر الزعماء المارونيّين في البلاد. وكان رجال الكتائب يحملون قلوباً من هواء، فلا يكادون يصمدون في معركة أو حتى يتواجدون فيها (على عكس جرأتهم في السبعينيّات). وكان سكّان الأشرفيّة كلّهم من الموارنة، وتعليقاتهم على الحرب مضحكة. فهم على عكس ما كان يُنتظر منهم يُبالغون بقوّة أعدائهم وبجبروتهم، كي ينتهوا إلى نتيجةٍ هي أنّهم لا يستطيعون حربهم، فلِمَ القتال؟. ومرّةً خرجت نساؤهم في مظاهرةٍ ضدّ الثورة ـ كلمة الثورة كانت تُطلق على قيامة

المسلمين على المسيحيّين الحاكمين ـ ولم يشاركهنّ فيها الرجال، فكان الأمر يبدو غريباً ومضحكاً. وما كنت أراهم يحملون حقداً طائفياً لا هم ولا المسلمين إنّما زعماء الطائفتين زجّوا طائفتيهما بهذا القتال الغريب.

وكان بعد أن نشبت الحرب في أكثر شوارع بيروت وأكثر مدن لبنان، وبدا أنّ المسلمين هم الرابحون بها، أو هذا ما ظنّه كميل شمعون ـ رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة آنذاك ـ على الأقلّ، وخاصّةً عندما حدثت ثورة العراق بقيادة عبد الكريم قاسم، تلك الثورة التي كانت في بدنها ذات ميولٍ يساريّةٍ ناصريةٍ، ومقتل الملك فيصل وحاشيته، وإنزال جنودِ انكليز في الأردن لحماية العهد الهاشمي به، فقد سارع شمعون إلى طلب التدخّل العسكري الأميركي، ووافقت أميركا فوراً، وأنزلت جيشاً لها في بيروت.

استيقظنا صباحاً على أخبار نزول الجيش الأميركي، وذلك بواسطة سفنهم الحربيّة في الأسطول السادس الذي يتمركز في البحر الأبيض المتوسّط. وقد نزل الجيش من حاملة طائراتٍ عملاقة، وانتشرت قطع الأسطول على الساحل اللبناني من مدمّرات وبارجاتٍ وغيرها. ونصب الجيش الأميركي مرصداً له على رأس الجبل اللبناني، وكان ممّا يدعو للعجب سرعة انتشارهم هذه، واحتلالهم لبيروت وضواحيها في ساعاتٍ قليلة. أمّا الثوّار فما حرّكوا ساكناً. كان يبدو على الجنود الأميركيين أنّهم مسالمون، وكانوا مسرورين جدّاً لنزولهم في لبنان، وملؤوا المقاهي والملاهي وانتشروا في كلّ مكان، يدفعون بسخاءٍ لأجل كلّ غرضٍ يشترونه. واستغلّهم التجّار اللبنانيّون أيّما استغلال.

وأجرى المسؤولون الأميركان مباحثات واستشارات مع المسؤولين اللبنانيّين، أسفرت عن انتخاب فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني يومها كرئيسٍ للجمهوريّة، وهو مسيحي ماروني من أصلٍ سنّيّ كما هو معروف تاريخيّاً، وكان رجلاً متعقّلاً وغير متلاعب ككميل شمعون، ورغم أنّ التقسيم الطائفي السياسي بقي على حاله، إلّا أنّه استطاع أن يعيد التوازن وأن يرضي الطرفين طيلة حكمه في لبنان.

ثورة العراق

وقبل أن تنتهي الحرب اللبنانيّة حدث حدثٌ في المنطقة، كان له أثرٌ عظيمٌ في مجرى السياسة الدوليّة في الشرق الأوسط، وهو الانقلاب على الهاشميّين في العراق، وأعلن الانقلابيّون تأييدهم لعبد الناصر واعترافهم بالجمهوريّة العربيّة المتّحدة، وأخرجوا العراق من حلف بغداد، وألغوا الاتّحاد الذي كان يربط الهاشميّين في العراق مع الهاشميّين في الأردن.

كم كان هذا الانقلاب مروّعاً في بداياته !. كان دمويّاً إلى حدودٍ بعيدةٍ، ويشبه الحركات الدمويّة التي حدثت في الثورة الفرنسيّة في بعض الوجوه. فها هي جثث زعماء البلاد بالأمس تُسْحَل في الشوارع اليوم، كنوري السعيد وخال الملك الشهير عبد الإله وعصابة الحكم، أمّا الملك فيصل فقد قُتل وأُظهرت جثته للجماهير. كان يجري السحل في شوارع بغداد المكتظّة بالجماهير التي أسكرتها الدماء. يعلو صياحهم تأييداً للثورة، وتجوب جموعهم الأمكنة بحثاً عمّن يسمّونهم الخونة، ثمّ تُعلّق الأجساد بعد السحل لتراها الجماهير.

وأصبحت إذاعة بغداد لا تبثّ إلّا الأشعار والخطب الحماسيّة، وأشعار العراق أكثرها كما هو معروف من النوع القديم الجيّد، وهلّل الشعب في مصر وسورية لثورة العراق هذه، وظهر عبد الناصر وكأنّه البطل المنتظر فعلاً ليوحّد الأمّة العربيّة ويقتل أعداءها. فها هو قد استطاع تخليص العراق من عملاء الاستعمار الإنكليز، وجلبها إلى الحظيرة اليساريّة العربيّة. ولكن وكما قال المتنبي : تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. فقد أعلن العراق أنّ الزعيم الأوحد هو عبد الكريم قاسم، وهو زعيم العرب الجديد المنتظر متناسيةً عبد الناصر.

وما هي إلّا أيّامٌ أو أسابيع حتى اندلعت المعركة الكلاميّة بين إذاعات الجمهوريّة العربيّة المتّحدة تتقدّمها صوت العرب بقيادة مذيعها الشهير أحمد سعيد أكبر أبواق عبد الناصر الإذاعيّة وأشهرهم قاطبةً وبين إذاعة العراق. واستنفر هيكل أكبر صحفيّي ناصر وأكثرهم لمعاناً معلناً حربه على العراق وثورتها الجديدة.

وانعقدت محكمة في العراق لمحاكمة الخونة رجال العهد البائد كما كانوا يقولون. وكان يرأس هذه المحكمة المهداوي الشهير، وكانت محكمةً كوميديّةً بكلّ ما تعني هذه الكلمة. تُلقى فيها الأشعار والخطب، ويُرَدّ على عبد الناصر وأبواقه من قاعة المحكمة، وكانت تُبثُّ وقائعها يوميّاً، ويلقي رئيسها الخطب الرنّانة في كلّ جلسة، يتوعّد بها هؤلاء الذين يقفون في قفص الاتهام بالإعدام وبالسحل بعد الإعدام، وذلك قبل أن تنتهي محاكمة أيٍّ منهم، فمصيرهم معلومٌ سلفاً عنده.

أوائل الجلسات كان المهداوي يحترم عميد الأدب العربي الشهير طه حسين جدّاً ويذكره كثيراً أثناء خطبه مستشهداً به لقولٍ ما، وبعد اندلاع نار الحرب الكلاميّة بين الناصريّين والعراق، هاجم طه حسين ثورة العراق. وهنا تصدّى المهداوي للردّ عليه، فهو كان قد تولّى مسؤوليّة الردّ رسميّاً. ومن كلامه الذي يصف به طه حسين : يا غراب البين يا أعمى العينين. ثمّ : (ما أنت أعمى، ويش يدريك شو اللّي يجري بالعراق؟!).

أمّا المحاكمون في محكمة المهداوي فكانوا مئات، وهم أعوان العهد البائد كما أصبح اسم حكم الهاشميّين في العراق يوم ذاك. ومن الغريب أنّه رغم أنّ المهداوي كان يحكم بإعدام أكثر مَن يُرسلون إليه، فإنّ عبد الكريم قاسم ـ الزعيم الأوحد ـ كان يخفّف الحكم ولم يعدم أحداً منهم.

الجيئات

أوّل مرّةٍ تُفتح بها الجيئة كانت في بيت الدفوني في أوائل سنة ١٩٥٩ على ما أذكر وكنّا نسمّيها (الجيّة). وقد سمح بها المعلّم، لا بل دعا إليها، وأظنّه أرسل أنّ مَن يريد أن يأتي إليه من العشيرة فليأتِ. وتوافد الزائرون المرشديّون مئات تتلو مئات تعرج إلى البيت، يلقي بهم المعلّم كلمةً، قائماً بينهم أحياناً وجالساً أحياناً أخرى. وما تغادر هذه المئة أو المئة والخمسون حتى تأتي تلك المئة أو المئة والخمسون. مرّةً أحصينا ما استطعنا من الرجال الذين يجلسون ويقفون في الصالون، فكانوا مئتين وخمسين رجلاً.

(شملات) بيضاء وعقالات سوداء (برايم) ملأت شوارع الأشرفيّة في بيروت، يسألون الناس عن بيت ساجي المرشد أين يكون؟.

في البدء يأتي الزائرون بالعشرات، ويتكاثرون إلى المئة فإلى المئات، فيوقف المعلّم هذا الزحف بعد فترة نظراً لضيق المكان أن يتّسع لهذا الحشد. تستمرّ الجيئة نحو خمسة عشر يوماً، وقد تصل إلى الشهر أحياناً. وقد فُتحت الجيئة في بيت الدفوني مرّتين أو ثلاث أو أكثر لم أعد أذكر تماماً. أعطت هذه الجيئات صدًى حسناً في قلوب الأهل، مودّةً بينهم وبين إمامهم وتعرّفاً شخصيّاً عليه. فلا يبقى أحدٌ من المرشديّين تقريباً إلّا ويزور ساجي ويكلّمه ساجي.

كنتَ ترى في شوارع الأشرفيّة أهالي قرية شين ـ من المرشديّين طبعاً ـ آتين كلّهم تقريباً، وكانت قرية شين تُعَدّ يومذاك على ما أذكر بثلاثمئة وخمسين رجلاً متعلّماً الصلاة (١٤ سنة).

وهكذا قرىً كثيرةٌ غيرها، قرىً عديدة تأتي بأسرها، تارةً من الجنوب وتارةً من الشمال، يجتمعون في البيت، ولربّما بصدف تجمّعهم أنّ أهالي قرية من أقصى الجنوب يجتمعون في البيت مع أهالي قريةٍ من أقصى الشمال، أفواجٌ تتلوها أفواج، يرون المعلّم، يسمعون الكلمة منه، يتناولون وجبةً وهم وقوف في المطبخ أو حوله، ثمّ يغادرون، يمكثون في البيت مقدار ساعة إلى ساعتين، بعض القرى تصطحب باصات معها يأتون بها

ثمّ يعودون بها، أمّا الذين لم يجلبوا معهم باصات، فيقوم فاتح بواسطة حسن يوسف ناصر أو حسين محمّد علي أو عزيز خليل من القائمين على أعمال البيت بتدبير باصات من أجل عودتهم. وبينما تتناول طائفة منهم وجبتها في المطبخ، تكون طائفة أخرى تتلقى الكلمة من المعلّم، وأحياناً تأتي طائفة ثالثة قبل أن تغادر إحدى الطائفتين الأوليَين فيغصّ البيت على اتّساعه، فلا تعود تستطيع أن تمرّ من غرفة الاستقبال إلى الصالون أو إلى المطبخ عبر الموزّع بينهم إلّا بشقّ النفس.

ولم تكن تقتصر زيارة المرشديّين للإمام على هذه (الجيئات) الكبيرة، بل كانت زيارة الأفراد والجماعات الصغيرة شبه مستمرّة، لا تتوقّف إلّا أحياناً قليلة، وذلك عندما يوقف المعلّم (الجيئة) رسميّاً، عندها يكاد يتوقّف مجيء المرشديّين إليه، فلا تمضي عدّة أيّام حتى يأتوا، واحدٌ من هذه المحلّة وآخر من غيرها، اثنان من تلك القرية وثلاثة من غيرها، هؤلاء من قرية في الجنوب وهؤلاء من قرية في الشمال، ثمّ تتزايد هذه الأعداد، فإن زادت عن هذه الحدود كثيراً يوقفها المعلّم، فتتوقّف فترة وجيزة من الزمن لتعود إلى سيرتها الأولى. وأحياناً يشجّع هذه الزيارات أي يجلس ويتكلّم مع الزائرين، فيتزايد قدومهم حتى يصبحوا كما ذكرنا سابقاً أفواجاً من الناس تؤمّ البيت.

انفصال حزب البعث عن حزب اكرم الحوراني

كان عبد الناصر قد اشترط حلّ الأحزاب في سورية كشرطٍ لإقامة الوحدة. فحلّ حزب البعث نفسه، وتعرّضت قيادته المؤلّفة من ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأكرم الحوراني إلى لوم البعثيّين. ومنذ ذلك الوقت بدأ الانشقاق في حزب البعث حتى أصبح لأكرم الحوراني حزب صغير لنفسه.

أمّا الحزب الشيوعي فقد رفض طلب عبد الناصر بحلّ نفسه وامتنع أمين الحزب خالد بكداش عن حضور الجلسة التي تمّت فيها موافقة المجلس النيابي على الوحدة وقد ساقهم هذا الأمر فيما بعد إلى التعرّض لاضطهاد عبد الناصر طيلة زمن الوحدة.

بعد الوحدة ونظراً لخدمات أكرم الحوراني وعصبته ومساهمتهم في تحقيقها، عيّن عبد الناصر أكرم في الوزارة المركزية ـ المجلس المركزي للبلاد ـ ونائباً للرئيس، وكان نوّاب الرئيس أربعة. وكذلك عيّن ناصر في المجلس المركزي بعض الساسة من رفاق أكرم. وكان النظام في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة يقضي بقيام مجلس مركزيّ، أظنّه كان يجتمع برئاسة عبد الناصر، وإقامة مجلس تنفيذيّ لكلا الإقليمين الجنوبي والشمالي أي

مصر وسورية. وكانت الأهمّية والفعاليّة للمجلسين التنفيذيّين وليست لأعضاء المجلس المركزي. وكانت وزارات هذا المجلس عبارةً عن مناصب يعطيها عبد الناصر لمَنْ يريد أن يكافئه ويرفعه، ويبعده في نفس الوقت سياسيّاً عن أيّ فاعليّة. وهذا ما فعله بأكرم ورفاقه، فأصبحوا بذلك مبعدين عن أيّ فاعليّة، وباتوا لا يمثّلون كبير قوّة في البلاد.

وهكذا أراد أكرم الحوراني وجماعته استغلال عبد الناصر والسرّاج فاستغلّهما هذان الأخيران أيّما استغلال. أمّا السرّاج فقد عيّنه عبد الناصر وزيراً للداخليّة في المجلس التنفيذي في سورية، وأبقاه رئيساً للمكتب الثاني أو ما سُمّي يومها بالمباحث، وبذلك يكون قد حافظ عليه وعلى فاعليّته، بل رفع من قوّته في سورية. فهو من الأساس كان من جماعته، وليس كأكرم الذي ما كان يريد إلّا استغلال ناصر، وناصر ما خفيَ عنه هذا الأمر. وعُيِّنَ قريب لأكرم الحوراني محافظاً في اللاذقيّة، واسمه مصطفى الحوراني، وكان هذا التعيين يمثّل شيئاً من مكافآت عبد الناصر لأكرم.

اكرم يحاول إثارة القلاقل

وجد أكرم الحوراني نفسه مقصوص الجناحين في مصر، ورأى جماعة حزبه تنقسم ضدّه، وكان قد حلّ الحزب وكوفئ على ذلك باسم لامع فقط، فعلم أيّ خسارةٍ جنى بميوله الناصريّة. وما استسلم لهذا الوضع، وكان يُحاول جاهداً أن يقنع عبد الناصر بإعادته إلى سورية كرئيس للمجلس التنفيذي حيث يستلم شؤون البلاد، فأخذ يحيك المكائد هنا وهناك ليُظهر لعبد الناصر أنّ الأمن غير مستتبّ، وأنْ ليس بقدرة السرّاج نشر الأمن في البلاد، فقد أصبحت هذه وسيلته الوحيدة للعودة إلى الحكم والفاعليّة. وحصّة المرشديّين من محاولاته هذه كانت جدّ كبيرة. فهو يعلم أنّ المرشديّين لا يسكتون لمَنْ يشتم دينهم متقصّداً أمامهم، أو لمَنْ يتسبّب بوشاياته بسجنهم وتعذيبهم، فقرّر إثارتهم مستفيداً من تعيين قريبه محافظاً للاذقيّة، وغالبيّة المرشديّين كانوا في هذه المحافظة، فقد كانت تضمّ الغاب في ذلك الزمن.

فبدأ بواسطة أعوانه يثير الشغب في المناطق المرشديّة هنا وهناك، فقد جعل رجاله يثيرون المشاكل في صلنفة ومنطقة الغاب. وتعدّى محافظة اللاذقيّة إلى محافظة حماة، حيث جعل أعوانه يثيرون المشاكل في منطقة مصياف ضدّ المرشديّين. كما أهاب بجميع المفسدين في الجبل وفي المهالبة، الذين كانوا بأجمعهم تقريباً قد أصبحوا تابعين له، أن يقوموا على المرشديّين ويشوا بهم، ويختلقوا بوشاياتهم مؤامراتٍ غربيّةً وشرقيّة أيضاً ـ لأنّ عبد الناصر

كان قد بدأ يسجن الشيوعيين ذلك الزمن بعد بيانهم في كانون الأوّل عام ١٩٥٨ بالمطالبة باتحاد فدرالي بدلاً من الوحدة الاندماجية ـ.

ومن المظاهر المضحكة آنذاك أنّ بعض المرشديّين كانوا يُتّهمون بالتعامل مع أميركا وبريطانيا وفرنسا في هذه القرية، وبعضٌ آخر في قريةٍ غيرها يُتّهم بالانضمام إلى الحزب الشيوعي للإطاحة بالرئيس عبد الناصر. ومن المخزي أنّ التحقيق كان يجري حول هذه التهم وكأنّها أمرٌ مقبول، ثمّ يُصار إلى إيصال المتّهم إلى محكمة أمن الدولة في اللاذقيّة التي شُكّلت في عهد الوحدة حيث يُسأل سؤالاتٍ مضحكةً محزنةً في آنٍ واحد. فهذا فلاّحٌ لم يعرف إلّا قريته منذ ولادته، يُسأل كيف اتّفق مع رؤساء بريطانيا وأميركا وشخصيّاتٍ عالميّةٍ شتّى، ولربّما لم يكن قد سمع ببعض هذه الأسماء، أو يخال أنّ هذه الأمكنة لا تبعد عن قريته إلّا قليلاً. أمّا الواشي، (أي المفسد) فلم يكن أكثر درايةً وعِلماً من المُوشى به، فقد أملى عليه أسياده من جماعة وهيب الغانم وعنان بذور كلماتٍ يتلفّظها وهو لا يعلم ما تعني. أمّا القضاة فمنهم مَنْ يضحك لهذا، والغريب أنّ منهم مَنْ كان يحكم.

رجعت المحاكم تحكم المرشديّين بموجب المادّتين ٣٠٧ ـ ٣٠٨ كما في زمن الداحول وزمن مرشتي قبله، وكانت قد شُكّلت محكمة أمن الدولة زمن الوحدة كما أسلفنا. كانت هنالك محكمة لها في اللاذقيّة ومحكمةٌ في حماة. وبدأت هذه المحكمة تحكم المرشديّين بالمادّتين المذكورتين مجدّداً سنة ١٩٥٩ وصاعداً.

وكان في سنتي ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ أن تمّ مشروع تجفيف الغاب الذي كان قد بدأ منذ سنواتٍ قبل هذا، ووزّعت الدولة أرض الغاب الخصبة والصالحة للزراعة جدّاً لكونها مجفّفةً حديثاً نظراً لخصوبة تربتها ولعدم وجود ميولٍ بها، ورغم أنّ هذا التوزيع كان فيه من الإجحاف الشيء الكثير، إلّا أنّه بقي سنداً ومنقذاً للمرشديّين وغيرهم من سكّان الجبل الشمالي والغاب من الهلاك جوعاً بعد هذه القوانين المجحفة التي ذكرناها سابقاً ـ في التمهيد ـ عن الدخّان والحراج، خاصّةً بعد تزايد عدد السكان بشكلٍ كبير حيث عجز معه العمل كفَعَلة والانخراط في الجنديّة عن استيعاب هذا الكم الجديد.

وجاء سكّان الجبل من كلّ منطقةٍ يطالبون بحقّهم في التوزيع، وقد وزّعت الدولة على الجميع تقريباً، فتدخّل أكرم الحوراني وجماعته في توزيع هذه الأراضي، وجلبوا عائلاتٍ من مسافاتٍ بعيدةٍ من محافظة حلب وأسكنوها في قلب الغاب، وأعطوها من الأراضي الأكثر خصوبةً في الغاب، متناسين أنّ أولى الناس بالمشاريع العامّة في كل قوانين العالم هم

القريبون منها والأشدّ فقراً كما تنصّ قوانين سورية وغيرها وخاصّة الدول المتقدّمة. وكان المرشديّون وبقيّة مجاوريهم من سكّان الجبال الشماليّة أقرب الناس إلى الغاب وأكثر الناس فقراً. كما وأنّهم نقلوا قصداً قرابة ثلاثمائة عائلةٍ مرشديّة إلى أراضٍ في الغاب غير ذات خصبٍ، وتبعد عن قراهم أكثر من ٢٥ كيلو متراً، وتجلّى بهذا مظهرٌ من مظاهر همجيّة هجمة أكرم الحوراني على المرشديّين تلك السنة[١].

تأديب المفسدين

استأسد المفسدون كنتيجةٍ لهذا التحريض على المرشديّين، فباتت اجتماعاتهم تُعقد في أكثر القرى المرشديّة، يدبّجون مؤامراتٍ شتّى، تقوم بها جماعة هذه القرية أو تلك، وكان بقدرتهم أن يوصلوا المرشديّين إلى السجن بواسطة وشاياتهم متى شاءوا، فما كان أسهلها من مهمّة. وبذلك أصبح للمفسدين وضعٌ مميّز في الجماعة المرشديّة، يطلب بعضهم أن يُقتَطَع له الحطب بواسطة نساء القرية، وبعضهم يفرض أتاواتٍ على القرى، تُقدَّم له كي لا يختلق وشايةً بحقّهم، وبعضهم يجلس على الفراش في بيوت المرشديّين، ويُقدَّم له الطعام الجيّد، ويُخدَم وكأنّ أحدهم من رجال الحكومة أو من المسؤولين الذين تهابهم الناس في العادة.

كان المعلّم منذ البداية يهيب بالمرشديّين ألاّ يسكتوا للمفسدين، وتعجبه جدّاً جرأة أحدهم إذا ضرب أحد المفسدين، وعندما وردته تلك الأخبار عن غطرسة المفسدين في قرىً مرشديّة، أخذ يُركّز على هذا الأمر، ويوجّه جماعته كي لا يسكتوا على هذا الوضع، بل يضربوا المفسدين إذا فسدوا، ويُقاطعوهم ويبصقوا بوجوههم حيث يرونهم عند اللزوم. وابتدأ المرشديّون من الذين لم يكونوا يتجرؤون على مجابهة المفسدين، ابتدؤوا يتجرّؤون على مجابهتهم. وسرت كالعدوى بينهم كعادة المرشديّين دائماً، فصارت كلّ قريةٍ تؤدّب مفسديها.

أرسل المعلّم إلى المرشديّين توصيةً أثناء المضاربات. يُفهَم منها أنّه أثناء الضرب أن لا يحمل أحدٌ عصاً بها حديدة أو (منكوش) لأنّ هذا يجرح جرحاً بالغاً وقد يقتل. فهو لا يريد للمرشديّين أن يميتوا أحداً، أو حتى أن يجرحوا أحداً جرحاً بليغاً. بل يكون الضرب فقط لردع هؤلاء المعتدين عن غيّهم.

---

(١) رجع المرشديّون المنقولون إلى أراضيهم تدريجيّاً. وفي سنة ١٩٦٩ أحدثت لجانٌ جديدة للبحث الاجتماعي وتمّ التوزيع على ما هو عليه في أيّامنا هذه.

وتوالت أخبار ضرب المفسدين من قبل المرشديّين إلى الأشرفيّة في بيت الدفوني في بيروت. هنا في الجبل في القرية الفلانيّة ضُرب ذلك المفسد حتى كاد أن يموت. وهناك في المهالبة حدث نفس الأمر لمفسد آخر، أو في الغاب، أو في القرى الجنوبيّة، أو في اللاذقيّة أيضاً. أحياناً كان المرشديّون يضربون المفسد ويتركونه بين الموت والحياة، وأحياناً أخرى كانوا يظنّونه ميتاً، وذلك كما حدث لمفسد مرشتي الذي أصله من القرّير، فبعد أن ضربه أهل ليفين بقوةٍ شديدة، رجعوا إليه لمعرفة إن كان مات فعلاً أم لم يزل حيّاً، فضربوه عشرات العصيّ للتأكّد من ذلك، وعندما لم يختلج منه عضوٌ تأكّدوا من موته، لقد فعلوا ذلك رغم توصية المعلّم أن لا يقتلوا أحداً من المفسدين، والغريب أنّه لم يَمُت رغم كلّ هذا الضرب، ولكن لا يطيق ذكر أهل ليفين ولا يتصدّى لهم في شيء.

لم يكن المرشديّون الأبطال مِمّن يقومون من تلقاء أنفسهم بضرب المفسدين هيّابين من الحكومة بشرطتها وزنزاناتها وسجونها، فهذا مفسدٌ يُضرب في وضح النهار في وسط اللاذقيّة أمام مبنى الحكومة، وذاك في قلب حمص، وهذا بين أهله وعائلته، ترتجف قلوب أهل قريته غير المرشديّة ولا يعينونه، ولا يحاولون. يسمعون صياحه وولولته ولا من سعيف. واستمرّ الضرب رغم تهديد الدولة وتعذيب المرشديّين إذا استطاعت القبض عليهم، ولكنّ الغريب في الأمر أنّ العذاب أثناء ضرب المفسدين كان أخفّ من قبله، وذلك على ما أرى يرجع إلى كون المفسدين وهم أيادي السلطات التعسّفيّة في تعذيب المرشديّين واتّهامهم، باتوا لا يجرؤون على مساعدة رجال الحكومة في القبض على الفاعلين، أو حتى على التقدّم بالشكوى ضدّهم في كثيرٍ من الأحيان، لِما كانوا يسمعونه من أيمانٍ مغلظةٍ من الضاربين مهدّدين المضروبين من المفسدين أثناء الضرب أنّه إذا ما وشى المضروب بالضارب فسوف يلقى أشدّ من هذا بكثير، أو التهديد بالموت في أحيانٍ كثيرة، فيفضّل المفسد المضروب في كثيرٍ من الأحيان لعق جراحه على أن يكون وليمةً دسمةً مرّةً أخرى لهذه النسور الجارحة، والبعض منهم تجاسروا فقاموا بإخبار السلطات، فوفى المرشديّون بوعودهم. وكانت (القَتْلَة) في المرّة الثانية أشدّ منها في المرّة الأولى. تبقى الضحيّة في البيت أو في المستشفى أشهراً للنقاهة، ومنهم مَن تركت به (القَتْلَة) عاهات طيلة عمره.

وأخذت موجة الضرب فيما أخذت رؤوس المفسدين وأعداء المرشديّة منذ القديم كمفسد الإيريزه وآخر ملقّب بـ (أبو ناب) وأولاده، ولعلّها لم توفّر من المفسدين أحداً لا كبيراً ولا صغيراً، لا قديماً ولا جديداً. وكان أحد المفسدين يجد بنفسه

زعيماً لقريته (القلعة) وهو يرشّح نفسه للنيابة دائماً بدون فوز، وهو يقلّد بكلّ تصرّفاته الأغوات الأتراك بشكلٍ مضحك. هذا الرجل أيضاً انضمّ إلى قائمة المفسدين ضدّ المرشديّين، نظراً لضلوعه بمعاداة سلمان أثناء دور سلمان. فما أحبّ أن يترك مبدأه هذا. وجاء لتأديبه شابّ ما أظنّه يتعدّى العشرين سنة واسمه كامل فيّاض وكان من القلعة، فضربه وأذلّه وشعر ذلك الزعيم الوهمي بهذه الذلّة، وخاف الفضيحة أن يسمع الناس به كيف أُهين، فحاول أن يتّفق مع ضاربه أن لا يبوح أحدهما بهذا الأمر، ولكن كامل باح بما فعل.

أمّا الملقّب بـ (أبو خريزة) الذي ادّعى النبوّة أيّام سلمان، والذي لم يكن يعرفه أحدٌ منّا إلاّ بهذا اللّقب. وكان قد ادّعى أيّام سلمان أنّ له خرزة زرقاء، مهما طلب منها يكُن. والتفّ حوله بعض الناس لفترةٍ وجيزةٍ من الزمن. ووعدهم بالقضاء على المرشديّين بواسطة خرزته الزرقاء هذه، ومن الطبيعي أن ينضمّ إلى قائمة المفسدين في الأيّام التي نتحدّث عنها. وجاء المرشديّون إليه أثناء موجة الضرب، واحتاج إلى علقتين ساختتين أو أكثر حتى ضمنوا سكوته نهائيّاً. وكاد أن لا تبقى قرية في الجبل والمهالبة والغاب إلاّ وضربت مفسدها أو مفسديها.

هرع المفسدون أعداء المرشدية إلى المعلّم في بيروت، طلباً للرحمة وللشفقة، عسى أن يوقف المرشديّون عنهم عصا الضرب هذه. وجاءت فترةٌ كنتَ تراهم يوميّاً تقريباً في بيت الدفوني ينتظرونه على باب البيت في الطابق السادس، ليعلنوا توبتهم عن الفساد طالبين إرسال توجيهٍ بالكفّ عنهم، ولم يبقَ منهم إلاّ قليلٌ لم يقصد بيت المعلّم طلباً للشفقة.

أمّا السلاح الثاني الذي استعمله المعلّم ضدّ المفسدين فكان المقاطعة، وهي كانت أشدّ فتكاً ضدّ المفسدين. فبعد إعلان المقاطعة لا يجد المفسد مَن يكلّمه في القرية أو مَن يتعامل معه في أقلّ شيء، ولا مع أهل بيته حتى يشعر بنفسه وحيداً معزولاً عن كلّ الناس. فلا سلامٌ ولا كلام، ولا بيعٌ ولا شراء، ولا أيّ تعاونٍ أو تعاملٍ كان بأيّ صورة من الصور. منهم مَن يهجر قريته إلى المدينة، أو إلى قريةٍ ليس فيها مرشديّون، ومنهم مَن يذلّ نفسه لهم. فإذا لم ينهوا مقاطعته، يذهب إلى ساجي في دمشق أو في بيروت، ليعلن توبته أمامه.

إنّ الضرب وحده لم يكن يكفي لتأديب هؤلاء، فلربّما يعودون بعد أن تخفّ عنهم شدّة الضرب إلى ما كانوا عليه. ولكنّ المقاطعة تبقى طيلة العمر إذا ظلّ المفسد يشي بالمرشديّين،

وهو إن أراد أن يوقف مقاطعته، فعليه أن يذلّ نفسه إلى المرشديّين، ويسترضي أكثر أهل قريته، ويلاحقهم أشهراً بل لسنواتٍ بالنسبة لبعضهم. يذهب بها إلى بيروت وإلى دمشق بعدها لمقابلة المعلّم ويأتي عشرات المرّات. فهو لن يخاطر بالفساد ثانيةً إذا تمّ قبول توبته وتوقّفت مقاطعته.

مقتل حوريّة في جورين

يروي كثير ممّن شهد هذه الفاجعة:

إحدى المرّات وبعد أن طُلِبَ بعض المرشديّين إلى المخفر، علم المرشديّون مَنْ هو المفسد الذي وشى بهم، فذهبوا إليه وضربوه حتى أُغميَ عليه بين أيديهم، فأخذوا يقفزون على بطنه إمعاناً بأذيّته لغضبهم منه، ثمّ داهموا بيت قريب عنان بدّور في قريته، وذلك أثناء انعقاد اجتماع للمفسدين على أثر ضرب المفسد المنوّه عنه آنفاً، وكنتيجة لهذا الهجوم أُخِذ المضروب إلى المعاينة الطبّيّة، وأُرسلت الشكاوى إلى المخفر الذي أبرق بدوره إلى رؤسائه، فجاءت قوّةٌ من الشرطة من غربي جبل الشعرا إلى الغاب بقيادة مدير المنطقة يصحبه مدير الناحية، والقوّة أربعون نفراً. واحتلّوا قرية ناعور جورين التي حدث بها القتال. وكانوا يأخذون مَنْ يجدونه من المرشديّين. وفرّ المرشديّون من القرية كلّها أي من ناعور جورين ومن جورين وكلّ حاراتها، أناسٌ إلى الغاب وأناسٌ إلى الجبل.

لم يبقَ في قرية جورين بعد مهاجمة القوّة الحكوميّة لناعور جورين إلّا النساء والأطفال وثلاثةٌ أو أربعةٌ من الرجال. واجتمع المفسدون في القرية، ويُقدّر عددهم بمئة رجل. وكان بين المفسدين مَنْ يحمل بنادق صيد. ابتدأ المفسدون يتحرّشون بالنساء شتائمَ وأوامرَ، وقعت مشادّة بين الرجال المرشديّين وبينهم، أحدهم أمسك بالبندقيّة وأطلق النار على رجل مرشدي، وكانت هناك امرأة مرشديّة اسمها حوريّة، أمسكت بالبندقيّة قبل الإطلاق بثوانٍ، ورمت بالبندقيّة وراءها، ولكنّ الطلقة كانت قد خرجت من البندقيّة فأصابتها وقتلتها. وإثر ذلك هجم هؤلاء المرشديّون القلائل على المفسدين، وصار المفسدون يطلقون النار عليهم. تجمّعت نساء القرية وهاجمنَ المفسدين وأخذنَ سلاحهم عنوةً عنهم، فهرب أكثرهم من القرية، وبعضهم ضربته النساء ضرباً شديداً.

سمعت القوّة التي في ناعور جورين بالحادث، فداهمت جورين، وقبضوا على أولاد حوريّة، وكانوا يضربونهم ليعترفوا أنّهم هم الذين قتلوا أمهم. أمّا عنان بدّور وعصابته فقد

أسرعوا بإرسال البرقيات، أنّ المرشديّين هم الذين قتلوا حوريّة، وأنها خالة عنان بدّور، وهي في الحقيقة لا تمتّ له بأيّ صلة قرابة. فهي مرشدية من جوربن في الغاب، وهو من قرية قرب صلنفة. وهذه المرأة هي عمّة سلمان خرفان المذكور سابقاً. وكتب مدير المنطقة في التحقيق أنّ القتيلة هي خالة عنان بدّور.

عندما يئس سلمان خرفان من حكومة اللاذقية ذهب إلى دمشق، وقابل وزير الداخليّة حيث قال الوزير أنّ القتيلة هي خالة عنان بدّور. أجاب سلمان : لا واللّه بل هي عمّتي. رجع سلمان خرفان إلى الحفّة في طريقه إلى قريته جوربن التي في الغاب. وفي الحفّة قُبِض عليه كنتيجةٍ لوشايةٍ قام بها أحد المفسدين، رآه صدفةً في الحفّة ودبّج ما أراد. اقتيد إلى مدير المنطقة، طلب منه البراءة من المرشديّة رفض سلمان. طلب منه البراءة من محمّد رسول اللّه، رفض سلمان أيضاً. احتار مدير المنطقة جدّاً وكان من السنة، وكان المفسدون قد ملؤوا رأسه بما يريدون، وأفهموه أنّ المرشديّين لا يؤمنون بالأنبياء ولا باللّه، وأنّهم يتكلّمون بكلام بذيء على كلّ الرسالات. وكي يختبر هذا الكلام طلب من سلمان خرفان أن يعدّ له الأنبياء. فابتدأ سلمان يعدّ له الأنبياء (والمرشديّون يعرفون أسماء الأنبياء أكثر من كثيرٍ من الناس) وانتهى إلى محمّد وقال : رسول اللّه وخاتم النبيّين. شُدِهَ مدير المنطقة جدّاً، ويظهر أنّه أطلق سراحه وتغيّرت معاملته له.

مكيدة تنقلب على أصحابها

دبّر أعوان أكرم الحوراني ووهيب الغانم يرأسهم عنان بدّور في منطقة الحفّة مكيدةً ضدّ المرشديّين في ربيع سنة ١٩٥٩. فقد أرسلوا رجالاً كي يتحرّشوا بالمرشديّين أثناء وجود أحد الوزراء والمحافظ في مصيف صلنفة وأثناء وجود الجماهير المحتشدة لاستقبالهما. يخلقون بذلك فتنة، يتّهمون على أثرها المرشديّين بقيامهم ضدّ عبد الناصر بطل العروبة، فيُساقون إلى السجون وإلى العذاب وربّما إلى المنافي البعيدة.

وكانت جماعة أكرم دائماً تهدّد المرشديّين أنّ عبد الناصر سينفيهم إلى أقاصي البلاد في الجزيرة، كي يستصلحوا أراضي الصحراء هناك، وبذلك يموت المرشديّون جوعاً وقهراً وعطشاً، ويأخذون هم بيوتهم وأراضيهم. وقيل أنّ أكرم الحوراني قدّم اقتراحاً لعبد الناصر في هذا الخصوص، بحجّة استصلاح الأراضي الصحراويّة في الجزيرة، ولا أستغرب أنْ يكون قد فعل.

وابتدأ العراك في صلنفة عندما تحزّشت جماعة عنان بذور بالمرشديّين. وكان عدد المرشديّين زهاء مئة رجل، أمّا عدد رجال عنان بذور وأتباعهم فكان زهاء ثلاثمئة رجل. وثب المرشديّون كالصاعقة على أعدائهم، وما هي إلّا لحظات يسيرة حتى انهزم الآخرون وهم يتصايحون (قتلونا المرشديّة دبحونا المرشديّة) وخصوصاً عندما يشاهدون الشرطة. وبعد أن انهزم الآخرون، استمرّ المرشديون يضربون بعضهم بعضاً لعدم معرفتهم لبعضهم أثناء القتال، فقد كانوا من قرى متفرّقة من القرى التي حول صلنفة. وأُلقي القبض على بعض المرشديّين كنتيجةٍ لذلك وعُذّبوا بعض الشيء، وأقاموا دعوى على رجال الشرطة، وتوسّط رجال الشرطة حتى أسقطوا عنهم الدعوى، وباءت المكيدة بالفشل وما زادت المرشديّين إلّا عزّاً، وما زادت جماعة أكرم ووهيب إلّا ذُلّاً.

صراع في ليفين أيّار سنة ١٩٥٩

يروي ظريف اسماعيل من قرية ليفين الجبل: «سمعت أنّ أخي ضربه أهالي قرية القرّير ـ قرية غالبيّة أهلها غير مرشديّين ـ وكسروا يده وطلبوا منه أن يتبرّأ. روى الحكاية لي أخي إسماعيل نفسه عندما جاء مع العنزات مساءً. ذهبت إلى (أبو علي) إبراهيم بن علي ابراهيم، وكان من الوجوه، ورويت له القصّة. سمع أهالي القرية، واشتدّ بهم الحماس، وقمت أنا ومحمّد حسن صقر وضاحي حسن إبراهيم بملاحقة مشاهير المفسدين من القرّير في الجبال، وجدنا اثنين من المفسدين وأشبعناهما ضرباً، وتوجّهت مجموعة أخرى من قرية ليفين إلى مرشتي، وضرب رجالها مفسد مرشتي وما فتئوا يضربونه حتى حسبوه ميّتاً، وكان بجانبه أثناء الضرب مفتّش من (الريجي)، قال الرجال له: لو تكلّمت أثناء التحقيق بغير ما سنقول لك الآن لَيحيقُ بك ما حاق به، تقول: الجماعة تشاجروا من أجل البقر. وفعلاً ما زاد عليها حرفاً أثناء التحقيق. وجُنَّ أهالي القرّير خوفاً وهلعاً، يشتكون إلى رجال الشرطة حيث وجدوهم، وجاء جميع مخافر المنطقة ومعهم مدير المنطقة إلى ليفين، وهرب رجال قرية ليفين ونساؤها، ولكنّ الشرطة أمسكت براعي الماعز يوسف حمدان، وجلبوه إلى القرية موثوق اليدين، وجاءنا خبرٌ إلى البرّيّة أنّ أهالي القرير ستداهم القرية وتنهبها، فتشاورنا وقرّرنا أن نكمن في مكان اسمه (اللزاقة)، وصلنا إلى هذا المكان، وجدنا أهالي القرّير هناك، هجمنا عليهم وطردناهم أمامنا حتى وصلنا إلى آخر الطلعة. ثمّ وجدنا يوسف ـ الراعي ـ مكتوف الأيدي مع الشرطة، قرّرنا الهجوم على الشرطة وإنقاذ الراعي منهم، وهجمنا عليهم

أفلتوا يوسف وأخذوا يطلقون النار ونحن نضربهم بالحجارة. انهزمت الشرطة تَخُبّ بهم الخيول فراراً إلى المخفر.

وبعد ذلك جاء رجال الشرطة ثانيةً بقوّات كبيرة ومعهم جمع غفير من أهالي القرّير والجوبة، ووقف الجميع على تلّة النامورة المشرفة على القرية، وجلب أهالي الجوبة والقرّير أكياساً معهم بغية النهب والسلب. وأخذ رئيس المخفر يشجّعهم بالوثوب على القرية، ولم يجرؤ أحدٌ منهم أن يُهاجم القرية، ولكن الشرطة هاجمتها. أمّا أهالي القرية فقد فرّوا ثانيةً، ودخل رجال الشرطة بقيادة آمر المنطقة إلى القرية يعيثون بممتلكات أهالي القرية، ومكثوا بها نحو أسبوع، وأهالي القرية خارجها. وقابل آمر المنطقة رفيق محمود في دير ماما وأقسم له بشرف جمال عبد الناصر أنّه إذا سلّم الرجال أنفسهم فلن يُضرب أحدٌ منهم. أقنعنا رفيق أن نسلّم أنفسنا، وسلّمنا أنفسنا في دير ماما. أمّا التهمة المدبّجة بحقّنا فكانت أنّنا شتمنا جمال عبد الناصر، وكنّا ننادي بسقوط الوحدة بين مصر وسورية، وكنّا نحيّي مجيب المرشد.

وسيق منّا كثيرٌ من الرجال وعددٌ من النساء وأخذونا إلى جوبة برغال. وفي الطريق إلى الجوبة مررنا بالناموره المطلّة على ليفين، فوجدنا رجال الشرطة يعيثون بالقرية فساداً، يحطّمون كلّ ما يجدونه. قلت لمدير المنطقة : لقد أقسمتَ بشرف عبد الناصر أنّك لا تضرّ أحداً. ولم يجب.

وفي الجوبة بدؤوا بتعذيبنا ووضعنا على الكهرباء حتى العصر، ثمّ أخذونا إلى الفاخورة، وكان الجوع قد أهلكنا، فجلب مختار الفاخورة بعد أن طلب منه مدير المنطقة رغيفاً وبيضةً لكلّ واحد، وكان هنالك شرطيّ كنيته الخربطلي، تقدّم وقال لمدير المنطقة بمعنى : سيّدي هؤلاء لا يستحقّون الطعام، بل يستحقّون الضرب. أجابه مدير المنطقة : واللّه ولا مئة مثلك يأتون بواحدٍ منهم ـ إشارةً إلى جرأتهم ـ وكانت قشور البيض على الأرض. فقلت للشرطي : يا خربطلي ارمِ هذه القشور خارجاً.

ثمّ أخذونا إلى اللاذقيّة. اجتمع علينا رجال الشرطة في السجن صائحين : هؤلاء هم الذين (بهدلوا) رفاقنا في الجبل، علينا أن نأكلهم أكلاً. ووضعوا لنا حصراً في الزندان، وحُكمنا ستّة أشهر، قضينا منها ثلاثة. وكان محامينا أمير المرشد، وكان يسعى لفسخ الحكم واستطاع أن يخفّضه إلى ثلاثة أشهر».

ويروي اسماعيل ديّوب من البراج ـ قرية بجانب ليفين ـ الجبل عن نفس الحادثة يقول:

«بينما كنت أزرع الحمّص في أرضي، مرّ عليّ أحد الاخوان من ليفين، قال لي: أنت تزرع وليفين تخرب. وأعلمني بما يجري بها. هرعت مسرعاً إلى ليفين، وجدت الشرطة تجول في القرية، وأهالي القرّير على النامورة مقابلها، وفي الطريق صادفت امرأةً من ليفين قالت: الشرطة تنهب ليفين. نزلت إلى الحارة الشرقيّة، رأيت شرطيّاً يقف بجانب الحائط، عندما رآني صرخ بي كي أرجع، ما رجعت، قوّسني قرابة ثماني طلقات وما أصابني، نزلت إلى الشرطيّ وضربته بحجر فهرب، ولحقت به وضربته حجراً ثانياً. وبندقيّته سقطت منه أثناء الهروب. رآني رجال الشرطة، رشّوني رشّتين من بنادقهم وما أصابوني، وكنّا قد اجتمعنا زهاء سبعة رجال وبدأنا القتال مع الشرطة، وطردناهم إلى الطريق خارج القرية، وكنّا نصيح بهم: يا شرطة علقتنا ليست معكم، علقتنا بجماعة القرّير، هؤلاء الذين جاؤوا كي ينهبوا القرية. صاح بي واحدٌ من الشرطة: لو تظهر لي. أجبته: أنا لا أختبئ منك. وكشفت نفسي. أطلق عليّ النار وما أصابني. صحتُ به: (فشرت ما صبتني). وكان هنالك امرأةٌ شتمت دينه وشتمها. وضربتها بحجرٍ ولكنّي أخطأتها ـ يظهر لأنّها شتمت الدين ـ. طفق الشرطة يشجّعون أهالي القرّير كي يهجموا علينا، وما هجموا. وأخيراً ركب رجال الشرطة الخيول وانهزموا، وكذلك أهل القرّير. وكان الأخوان ـ أظنّه يقصد من القرى المجاورة ـ قد تجمهروا حوالى ليفين.

وبعد فترةٍ من ذاك. جاءت ثلاث سيّارات كبيرة معبّأةٍ بالشرطة وداهمت ليفين، وسيّارة أخرى جاءت إلى البراج. وطالبت الشرطة بالذي ضرب الشرطيّ، وأقاموا نساء ليفين فلقاً كي يعترفْنَ بالفاعل، وما اعترفْنَ لا عليّ ولا على رفاقي.

ذهبت إلى المعلّم في بيروت، رويت له ما جرى، قال لي: ارجع إلى بيتكم ولا تهرب. رجعت وما هربت وما طلبوني بعدها».

مضاربة في القرّير

يروي ابراهيم خازم من القرّير الجبل ـ هذا الرجل كان مرشديّاً هو وأخوه، أمّا أبوهما فقد كان غير مرشدي، وهذه العائلة كانت تمثّل كثيراً من عائلات المرشديّين في قرى كثيرة فقد تجد في نفس العائلة المرشدي والمفسد، قد يكون الأب مفسداً وضالعاً في محاربته للمرشديّين، وبعض أولاده أو كلّهم يكونون مرشديّين ومن الذين يتلقّون التنكيل والاضطهاد بسبيل معتقدهم، أو قد ترى العكس حيث يكون الأب هو المرشدي، والابن هو المفسد ـ. يروي ابراهيم كيف كان يصلّي هو وبعض المرشديّين في بيته إذ سُمِعَت ضجّة

في القرية، استفسروا عن الأمر، علموا أنّ عائلة مرشديّة تتنازع مع عائلة غير مرشديّة، هبّوا إلى العراك والعراك تراشق بالأحجار، ثمّ جاء مرشديّو جورة السلبين وانتصرت القلّة المرشديّة على الأكثرية. وجاء رجال الشرطة واستاقوا سبعة عشر رجلاً مرشديّاً إلى مخفر الجوبة، وجدوا هناك جميل عبّود ـ جميل هو ابن حسن عبّود الذي كان قد اشتهر بعدائه لسلمان وكان جميل من أشهر المفسدين ومن زعمائهم ـ. يقول ابراهيم: «فما فتئ المحقّق يضربني أثناء التحقيق، حتى امتلأت ثيابي بالدماء، دخل رئيس المخفر وقال لي : أأنت عيسى؟. أجبته : أستغفر الله. قال : إذاً أنت موسى. قلت : أستغفر الله. وهنا تدخّل الذي يحقّق معي، وشكاني إلى رئيس المخفر قائلاً : إنّه لا يقول إلّا أنّ الناس هم الذين اعتدوا على المرشديّين. وكأنّي جئت أمراً نُكراً لأنّي أقول الحقيقة. وكنت أشتهي في قلبي أن يقيموني فلقاً عوضاً عن هذا الضرب الشديد الذي بتُّ لا أكاد أحتمله. صرخ رئيس المخفر يأمرني بخلع حذائي، وأوثق قدمَي بعقالي، فضحكت بالسرّ، فقد نلت ما كنت أرجوه سابقاً. وأثناء الفلق ما استجرت، ولا صحت (آخ) وكأنّني ميتٌ. تدخّل شرطيّ وقال لرئيس المخفر : سيدي يكفي هذا، هذا الرجل قد انتهى، والضرب بعد الموت محرّم. أجابه رئيس المخفر : كلّا، بل هذا يغطّ ـ يقصد يتصل بملائكة ـ ومَن يكلّمه يقول له : لا تصرخ، ولا تستنجد. وهنا خلع الشرطيّ سترته وألقاها عليّ، ورفض أن يضربني بعد ذلك ولو سُرِّح من الشرطة، فأخذ رئيس المخفر العصا من الشرطيّ وأخذ عصاً أخرى، وطفق يضربني بالعصوين وعندما خرجت وافاني بضربة بيديه الاثنتين على رأسي، وجدتها أصعب من كلّ الضرب السابق، وظننته ذهب ببصري. ثمّ أخذونا إلى الحفّة حيث مكثنا ثمانية أيّام في السجن، ثمّ خرجنا بسند كفالة» ـ رأيته بعد أربعين سنة من هذه الحادثة وكان مُعافى ولم يلحق به أي ضرر من جرّاء ذلك الضرب الشديد ـ.

روايات من المهالبة

يروي دانيال ساهيّة من سطامو : «في ٢١ أيّار سنة ١٩٥٩ أيقظتني جارتنا ليلاً. علمتُ منها أنّ رئيس المخفر يطلبني وأنّ المختار معه. خرجت إليهم وزوجتي ورائي، ومددتُ يدي لأصافح رئيس المخفر، تمسّك بيدي وأمر الشرطة بالقبض عليّ. التفتُّ إلى زوجتي وأمرتها بالرجوع إلى البيت، تسرّب الخوف إلى قلبي، ذكرت كلمة المعلّم ـ كلمة كان المعلّم قد قالها وهي تبعث بقائلها شعور الأمان بعون الله ـ تلوتها بقلبي وسرت معهم. ارتحت بعد قراءتها وهدأ قلبي، وعدت غير مكترث بهم. ساقوني إلى بيت المختار، أمروني بنزع بعض ثيابي، وأدخلوني إلى سدّة البيت ـ السدّة مكان التبغ سابقاً، وكانت تمثّل مستودع البيت أيّام هذه

الأحداث ـ رأيت بداخلها الأخ علي الحجر واسماعيل بكداش، ثمّ دخل رئيس المخفر، اتهمني بما سمع من وشاية قائلاً : انعقد عندك في البيت اجتماعٌ سرّيّ، حضره أربعةٌ وعشرون رجلاً، وصلّيتم صلاةً مرشديّة، شعرت بالحيرة، لأنه ما عُقد في بيتنا أيّ اجتماع، وما دخل إليه يومذاك إنسان. أجبته : ما كان عندي أحد. أمر الشرطة بإقامتي فلقاً، امتنع الشرطة ولم يلبّوا أمره فقد كانوا أصحابنا، وكثيراً ما كانوا يزورونني في البيت لتناول الغداء. قلت له : أنا أرفع قدميّ لنفسي ـ يظهر أنّ دانيال كان يحبّ أن يأخذ نصيبه من العذاب وما كان يريد أن يُضيع هذه الفرصة بعد أن شعر بالشجاعة والإقدام ـ ورفعتُ قدميّ، وانهال ضرباً بالخيزرانة على قدميّ هو وشرطيٌّ آخر غير أولئك الذين رفضوا ضربي، وما كان هدفي من ذلك إلّا العذاب في سبيل مذهبي، وكنت أعلم أنّ الله سينجّينا وأنّه لن يتركنا.

أثناء الضرب سألني : أأنت مرشدي؟. أجبت : نعم، أنا مرشدي منذ أربعين سنة. وكان عمري يومها أربعين سنة. وازدادت سؤالاته عن الاجتماع السرّيّ المزعوم وما تكلّمنا به وما قلنا، كلّ ذلك أثناء الضرب، حتى صحتُ به أخيراً من الألم والغيظ : واللّه إنّ كلّ المرشديّين من جبال الشعرا حتى البحر كانوا مجتمعين عندي في البيت. قال : أوَسِعَهُم بيتك كلّهم؟. أجبتُ : ووسعهم بيتي. ضحك رئيس المخفر وذهب يكلّم المختار، وسمعته يقول له : يظهر أنّه لم يكن عنده أحد. أجاب المختار : عندي شاهدان. ثمّ جلبوا الشاهدين، وسألهما رئيس المخفر. أجابا : إنّهما ما شاهدا أيّ اجتماع. فانهال عليهما رئيس المخفر ضرباً، وقال لهما : قولا أنّكما شاهدتما الاجتماع، وأنّكما كنتما تحتشان بين الغنم أثناء الاجتماع. وبدؤوا يجمعون المرشديّين من القرى، أناساً من قرية مرخو وأناساً من قرية حرف الهوى. وكانوا يحقّقون مع الجميع، ويتضاحكون أثناء التحقيق، عالمين أنّ هذه التهمة تهمة الاجتماع السرّيّ التي يلصقونها بنا كانت كذباً وافتراء.

أخذونا بالسيّارة، كنت أشعر بالسرور والانشراح يرافقان شعوري بالألم الجسدي. كان المهمّ عندي أنّني وقعت بين أيديهم، ومرّت الوقعة بسلام. وذلك الشعور يعود لحديثنا بين بعضنا تلك الأيّام، كنّا نعتبر أنّه إذا أراد اللّه إكرام شخص منّا، يُهيّئ له وقعةً من هذه الوقعات، وما وجدت كلمةً تُريح القلب والضمير في الضرب وفي السجن وفي كلّ ضيقة إلّا ذكر مجيب ودعوته.

وفي الطريق أوقفوا السيّارة، وأنزلوا الأخ علي الحجر وبدؤوا بضربه وبتعذيبه، وطلبوا

منه البراءة من المرشديّة فرفضها. وكان تعذيبه قاسياً ومنكراً. كنت أهتمّ به أكثر من اهتمامي بنفسي لأنّ قضيّتي انتهت، أمّا قضيّته فقد بدأت. وأثناء كلّ هذا الضرب والعذاب ما قال (آخ)، فاعتبرته (أرْجَل) منّي لأنّني كنت أصرخ أثناء الضرب. وبعد أن انتهوا منه، بات يدبّ على يديه ورجليه، وما استطاع المشي. وعلى الطريق أيضاً أمسكوا الأخ داوود حيدر، ثمّ وصلنا إلى الفاخورة، وبعدها إلى المباحث في اللاذقيّة، ثمّ إلى النيابة العامّة. وكان معنا في السجن أحد عشر شيوعيّاً. ما كنّا نغفل عن ذكر الله في السجن، فأنت لا تهتمّ بجسدك إذا تمركزت القوّة بشعورك.

وحكمتنا المحكمة بالسجن ستّة أشهر. وكان معنا في السجن اخوانٌ من قرى ليفين وزنبوره والبلاط ـ ذلك أثناء دوكة ليفين ـ. فبلغ مجمل عددنا زهاء تسعين أخاً، وبيننا تسع نساءٍ ـ النساء من ليفين ـ وكنّا من المهالبة أحد عشر أخاً.

كنّا نصلّي في السجن ونسبّح الله، وكان شعورنا أنّنا أقوياء».

يضيف محمود أسعد من قرية الشيخ ريح عن نفس الحادثة أنّ المحكمة التي حكمتهم كانت محكمة أمن الدولة، وأنّهم قضوا فترة السجن ستّة أشهر في سجن اللاذقيّة.

يروي درغام رشيد طرّاف من قرية اللدينة المهالبة : «جاءنا مرّة رئيس مخفر اسمه عادل، وكان أشدّ على المرشديّين من أجود الهيدي نفسه على ما أظنّ.

ابتدأ رئيس المخفر هذا بتعذيب المرشديّين وملاحقتهم وطلبهم للبراءة من المرشديّة. وكان له أصحاب يعتمد عليهم كمفسد نقورو ومفسد من الفاخورة ـ الذي رجع عن الفساد وثاب إلى رشده من يومها ـ وكان هو وشرطته يلاحقوننا ويركضون وراءنا في البرّيّة. قلت للأخوان : لقد ضاقت الدنيا بنا، ثمّ اتّفقت مع أحد رفاقي سرّاً، وخطّطنا لمهاجمته بعد أن رفض بعض الأخوان القيام معي بهذه المهمّة. وسرنا ليلاً حتى وصلنا إلى بيت رئيس المخفر. كَمَن رفيقي غير بعيد من البيت، تقدّمت ونقرت على باب البيت، صاح رئيس المخفر : مَنْ؟. أجبتُ متظاهراً أنّني شرطيّ : قائد الفصيل يريد أن تأتي إليه بسرعة، ثمّ رجعت إلى الوراء، وكمنت له متخفّياً عالماً أنّه سيخرج ويفتّش عن الذي كلّمه، خرج وبيده مصباح كهربائي ـ بيل ـ حتى وصل إليّ وثبت عليه وضربته بعصاً ضربة رمته على الأرض، وصار يصرخ من شدّة الألم. وهنا برز رفيقي وساعدني في ضربه، وتركناه يخبط في الظلام وابتعدنا هاربين».

يروي أحمد المهلوبي من مرخو: «بعد أن وشى بي اثنان من المفسدين وهما من قرية مرخو، استدعاني مدير الناحية للتحقيق.

أمّا الوشاية فكانت تقول أنّنا نتعاون مع تركيّا ونجلب السلاح منها. وأثناء التحقيق ضربني كفّاً على عيني أراني شرراً من النار. وفي المخفر حبسني مع رئيس المخفر في النظارة على أساس أن يضربني ـ يظهر أنّ أحمد كان قد اتّفق مع رئيس المخفر على أن يمثّلا تمثيليّة بصوتيهما أمام مدير الناحية والمفسدين، فلا يظنّون إلّا أنّ رئيس المخفر يضرب أحمد، وهو في الحقيقة لا يريد إيذاءه ـ. وفي النظارة كان يصرخ رئيس المخفر بي وأنا أصرخ مستجيراً، وما منّا مَنْ يمسّ الآخر، وكان يقف في الصالون مدير الناحية والمفسدون. ثمّ أفلتوني.

في اليوم الثاني أُلقي القبض على بعض المرشديّين من سطامو ومرخو. سمعت زوجتي، أيقظتني ليلاً وأخبرتني. هربت مع بعض الأخوان. ظللنا في البرّيّة ستّة عشر يوماً، ثمّ استُدعينا إلى محكمة أمن الدولة في اللاذقيّة. سألني القاضي عن سوابقي بالسجن، أجبته: سُجنتُ أحد عشر يوماً. سألني عن التهمة التي سُجنتُ بسببها. أجبت: لأنّني مرشدي. قال القاضي: أمّا الآن فقد حكمتك المحكمة ستّة أشهرٍ حكماً مبرماً غير قابل للاعتراض ولا للاستئناف ولا للتميز. وقضيت بعض محكوميّتي في سجن الحفّة وبعضها في سجن اللاذقيّة».

رواية من الجبل

يروي مسعود درويش عديرة من نبع البارد الجبل: «في أيّام العذاب سمعت مختار قريتنا وهو من بيت بدّور ـ هذا المختار كان من المفسدين ـ سمعته يشتم أهل بلتعه ـ قرية مرشديّة ـ. هذذته قائلاً: (إيّاك أن تشتم بذك تِيكلا). أي أنّه ينوي أن يطعمه علقة ساخنة لأنّه تكلّم بسوء عن أهالي بلتعه. نزلت إلى البيت، قلت لأخوتي: زاهي يبقى عندي يحفر معي أساس بيت كنّا نبنيه، أمّا اسماعيل فيذهب ويراقب المختار ولكن ما مضت إلاّ برهةٌ وجيزة، حتى سمعنا صياحاً وضجّةً في القرية، طلعنا إلى مكان الضجّة راكضين، وجدنا اسماعيل قد فَجّرَ دماء المختار ضرباً، وأقرباء المختار حوله، وما تكلّموا بكلمة، ولكن ابنه ذهب واشتكى علينا في صلنفة، وادّعى أنّنا سرقنا لأبيه / ١٠٠٠ / ليرة سوريّة.

جاء رجال الشرطة ليحققوا، قال المختار في التحقيق : ما أخذوا مني مالاً، ولكنهم أشبعوني ضرباً. أخذونا اثني عشر رجلاً إلى المخفر، وما هي إلّا برهة وجيزة حتى جاء اثنا عشر مرشدياً آخر من المجدل ـ وهي قرية تقع شمال صلفة ـ. وكانوا قد أطعموا مختارهم علقةً ساخنةً أيضاً، نمنا نحن وهم حتى الصباح، في الصباح أرسلونا إلى الحفّة، وما إن وصلنا حتى أدخلوا إلينا اثني عشر مرشدياً آخر من قرية ترمي ـ هذه القرية من جهة المهالبة وهي تبعد كثيراً عن هاتين القريتين ـ. وكانوا قد أطعموا مختارهم علقةً ساخنةً أيضاً. ومكثنا في السجن اثنين وعشرين يوماً أو أربعاً وعشرين يوماً لا أذكر تماماً. وصلنا إلى قريتنا، وجدنا أنّ اخوان بشمانا ـ قرية مرشدية بجانب قريته ـ كانوا قد حصدوا زرعنا مساعدةً منهم لنا».

سيف الخير

ما كان المرشديون بقيادة إمامهم يواجهون العالم من حولهم بالتصدّي للعذاب ومجابهة المفسدين بالعراك وبالمقاطعة فحسب، أي ليس بسيف الجرأة فقط، بل كانوا يواجهون العالم بسيف الخير أيضاً، ذلك السيف الذي استلّه أبطال الخير في كلّ دعوةٍ حقّانيّةٍ عبر العصور. فقد تزامنت المجابهة مع سيرة الطهر الحميدة، وانتشرت رائحةُ طيبةِ المرشديّين في كلّ أنحاء سورية، يعترف الناس بصدقهم وإخلاصهم وجدّيتهم في الأخلاق الكريمة رغم كرههم لهم.

إنّ صفات الطهر التي يتّصف بها الأخيار في كلّ دورٍ، وخاصّةً في بداية كلّ دعوة، كانت قد قامت كلّها أثناء دعوة مجيب إلى أن أصبحت جماعة المرشديّين معروفةً لكلّ جيرانها ومشهوداً لها في كلّ أنحاء سورية بالصدق والأمانة وعدم الغشّ وإرادة الخير. واستمرّت لا تنقص بل تتمكّن في الأنفس. فعندما يُعْرَف فلان أنّه مرشدي يُسَلَّف الثقة فوراً من الآخرين على مالٍ أو متاع، فهذا مرشدي لا يمكن أن يغشّ أو يسرق، وعندما يحدث حادثٌ ما يكون الناس بجهلٍ من أمره فإن شهد مرشديٌ به فقد صدّقه الجميع لأنّ المرشدي لا يكذب. ونظراً لعمل المرشديّين في بيروت كفَعَلَة، فقد عمّت هذه الشهرة للمرشديّين في لبنان أيضاً.

وهذه الصفات الطاهرة لم تتضعضع، ولم تؤثّر عليها تصرّفات بعض المنحرفين عن سيرة الطهر، فقد كانت من القوّة في مكان. تغلغلت إرادة الخير هذه في النفوس والقلوب والعقول، فأصبح هذا الاقتناع وهذا الميل الطاهر متأصّلاً في الإنسان المرشدي، وغاية المستحيل فصله عنه، وكانت تُسقى هذه النبتة الطاهرة بماءٍ طاهرٍ من حينٍ إلى حين. وذلك بأشعار المعلّم وخطبه بين المرشديّين، ثمّ في الرسالات حيث باتت تُسقى بكمّياتٍ أكبر نظراً لأنّ هذه الكلمات أصبحت رسائلَ بين أيديهم يقرؤونها متى يشاؤون، ويفهمون لغتها المبسّطة للفهم إضافةً لغزارتها. وقد بدأت ترد إليهم بين الفينة والفينة.

تقويم المسرى

وما أن ارتاح المرشديون من العذاب أشهراً حتى بات أولو الفساد الداخلي من المرشديّين يلعبون بالمياه العكرة، وهؤلاء لا يظهرون إلّا أيّام الانفراج ويختبئون في جحورهم أيّام العذاب.

وبدأت تتوارد إلى المعلّم أخبار المرشديّن في مناطقهم، وما كانت كلّها مُرضيةً. فقد بدأ يظهر انحراف عن المسرى الصحيح هنا وهناك. يتمثّل هذا الانحراف بمعتقداتٍ باطلةٍ، وطفيليّاتٍ ترافق عادةً دعوة المنجاة عند بزوغ فجرها. فارتأى المعلّم أن يُباشر بتقويم المسرى. وبما أنّه لا يستطيع أن يذهب إلى جماعته، فقد بدأ يكتب رسائلَ يرسلها إليهم بين الفينة والفينة.

إنّ حرب تحقيق الوجود التي باشرها المعلّم لم تكن خارجيّةً فقط، بل داخليّةً أيضاً. فالمنظار الخارجي يُظهره على رأس شعبٍ صغيرٍ جداً، يخوض حرباً شنّها عليهم العالم المحيط بهم، هذا العالم الذي رأى في مذهبهم خروجاً على مذاهبه لأنّه جديد، والمجتمعات تفعل كما تفعل الأجساد إذ تحارب كلّ جديد يظهر فيها، وتعتبره شاذّاً ويتوجّب القضاء عليه وتستغرق فترة التأقلم مع الجديد عادةً مدّةً طويلةً.

أمّا المنظار الداخلي فيُظهر أنّه يحارب كلّ السلبيّات التي تنشأ عادةً كطفيليّاتٍ عبر مسير العقيدة الجديدة دنيويّة كانت أم دينيّة، وتنمو وتترعرع حتى تصبح أشجاراً وغاباتٍ، فتكاد على مرّ الأيّام أن تحجب شجرة العقيدة.

أمّا وضعه في الحرب الداخليّة فكان أصعب من وضعه في الحرب الخارجيّة. ففي الثانية يحارب أحزاباً وأشخاصاً معروفين، لهم ميولهم وتطلّعاتهم، ومن السهولة بمكان أن ينتصر عليهم، نظراً لتدبيره الحكيم، ولولا أنّ الداخل كان مليئاً بأمثال هؤلاء المتلاعبين بعقيدتهم وبطائفتهم، لكانت الحرب الخارجيّة أسهل ممّا كانت عليه. فبعد كلّ تدبيرٍ يقوم به مع الساسة، يأتي أناسٌ من الداخل ليعكّروا صفو هذا التدبير، وذلك بتحريضهم لبعض المرشديّن أن يفعلوا أفعالاً لا يمكن لهؤلاء الحكّام السكوت عنها، كالاجتماعات الكبيرة على شكل ولائم تقام لهم أحياناً، والقتال بدون أيّ سببٍ أحياناً أخرى. وهكذا دائماً تنمو مع الأزهار أشواك.

كان للرسالات التي بدأ يرسلها إلى جماعته من بيت الدفوني أثرٌ فعّالٌ بمحاربة ما زرع هؤلاء المنحرفون في نفوس الناس من ضلالةٍ وتعويجٍ للمسرى. ومن هذا حديثه عن القائم الذي تَعِدُ به الأديان ورسائل الأنبياء. فهو يقول بها أنّ القائم إنّما يأتي ليحقّق لك معادك إلى الحياة المتسامية الخالدة، لا ليورثك أرضاً فانية. وكان هذا الوجدان المغلوط عن القائم قد أرست دعائمه ألفٌ من السنوات وتزيد، وقد ورد إلينا قديماً عن طريق الجوار فكثير من الفرق أرادوا قائماً يغلب سياسيّاً وينتصر عسكريّاً، ويأخذ الدنيا بأسرها، ويقيم العدل غصباً عن الجميع، ويورث شعبه ملذّات الدنيا، ويُحكّمهم برقاب الناس قاطبةً بلا استثناء (فأين العدل؟!!).

وعلّم في هذه الرسالات أنّ المؤمن هو الذي يلذ نفسه، فحسْب أعماله يتكوّن في السماء، وعند موته يكون هو ذلك المتكوّن السماوي الجديد، فلا يستطيع قائلٌ منهم أن يقول للّه : لِمَ أعطيتَ فلاناً أكثر مما أعطيتني؟. إنّما هذا يكون قد قدّم لحياته أكثر من ذاك.

وقد تحدّث المعلّم بهذه الرسائل عن وجوب ترك الآثام كلّها والموبقات، وعدّدها واحدةً واحدةً. وأسمى هذا التعديد بالتذكير، يُذكِّر به المؤمنين بما أوصتهم رسائل الأنبياء، وبما أوصى به مجيب في دعوته. وقد كان لهذا التذكير، ولنور المعرفة هذه أثرٌ مجيد في نفوس المرشديّين، فبدأ كثيرون منهم يستصغرون هؤلاء المنحرفين من المدّعين لبيان جهلهم بعلم الحياة الصحيحة.

وإليك بعضاً من التذكير الذي أرسله ذلك الزمن:

«الطاهر لا يكذب ولا يفحش بالقول، ولا ينطق بكفر ولا يسعى بفجور.

الطاهر لا يرتكب الفحشاء.

الطاهر لا يسرق.

الطاهر لا يقامر ويتجنّب شرب المسكرات.

الطاهر لا يزني.

الطاهر لا يشتهي ما عند غيره ولا يحسد.

الطاهر لا يخادع ولا يرائي.

الطاهر يترفّع عن الوشاية ولا يسعى بفساد.

الطاهر لا يحقد.

الطاهر يصدق إذا نطق، ولا ينتصر إلّا للحقّ ويسلّم للحقّ ولو كان عليه.

الطاهر يلوم نفسه إن زلق ويتوب للّه بكلّيّته.

الطاهر يطلب معرفة اللّه ويسعى لها.

الطاهر يستر على غيره ولا يفشي له أمراً يضيره .إلّا إذا كان الستر ضرراً للمجموع.

المؤمن يفرح بالعذاب في سبيل عقيدته، ولا يفرّ من الابتلاء.

الصبر من صفات المؤمنين.

الطاهر يغفر لِمن أساء إليه ويصفح عنه:

١ ـ إلّا إذا كان هذا الصفح سيطمعه.

٢ ـ إذا تاب المسيء عن إساءته واعتذر.

الجرأة بالحق من صفات المؤمنين».

كما أنّ رسائله هذه حدّت كثيراً من نشاط هؤلاء المنحرفين، فباتوا لا يجسرون على المصارحة بنواياهم إلّا لِمن يركنون إليه، ويجدون لديه استجابةً وتقبّلاً لمثل هذه الأراجيف. فعوضاً عن أن تمتدّ أباطيلهم وتنتشر بالبقيّة، أصبحت تُحدّ وتتقلّص.

علمت من المعلّم أنّه جاء (كي يمثّل رضوان اللّه تمثيلاً صحيحاً). وبما أنّه جاء يمثّل رضوان اللّه فهو قدوة لمن شاء من الناس أن يتّبعه، وأصبح مِن الكمال أن يمرّ ويحيا بكلّ ما يتعرّض له الإنسان في حياته من فقرٍ وغنى، وغضبٍ ورضى، وسجنٍ وعزٍّ، واضطهادٍ ومرضٍ، وحزنٍ وفرحٍ. وما إلى ذلك من أمور الحياة المعروفة. يمثّل في كلّ حالٍ من هذه الأحوال كيف يكون المؤمن في رضوان اللّه عندما يمرّ بهذا الحال أو يقع عليه هذا الأمر، كيف عليه أن يتصرّف في الفقر وكذلك الحزن والسرور وكلّ ما ذكرناه سابقاً. أقدارٌ أعطاها اللّه للإنسان في كلّ زمان ككلماتٍ في رسائله. فمَن رفض قدره، فهو في الحقيقة قد رفض نفسه. ومَن قَبِل بما أسعده اللّه من قدر، فقد عزّ وارتقى إلى صيرورته من أهل رضوان اللّه، وذلك لهو الفوز المبين.

نتائج التدخّل السياسي

إنّ تلك المداخلات السياسيّة التي قام بها المعلّم كان قطافها الأوّل إنهاء حملة مرشتي، وإيقاف حملة الأحزاب ضدّ المرشديّين ولو جزئيّاً. لأنّ أحكام السجن بموجب المادّتين / ٣٠٧ / و/٣٠٨ / كانت ما تزال قائمة، تختفي وتظهر حسب توجيهات القيادة للقضاء. كما وقد سارعت تلك المداخلات بإخماد نار فتنة الداحول التي أشعلها الحورانيّون (جماعة أكرم) للمرشديّين.

وقد كان لها أثرٌ إيجابيٌّ آخر، وهو قدرة المرشديّين على تأديب المفسدين كما فعلوا. لأنّنا لو فعلنا ما فعلنا بدون أن يكون لنا علاقة بالسرّاج وكبار مسؤولي مكتبه، لتضافرت علينا قوى الدولة جميعها من مباحث وناصريّين وحورانيّين، ولَباتَ من الوطنيّة القضاء على المرشديّين بالنسبة لكلّ هؤلاء المتطرّفين سياسيّاً. وباستعمال السرّاج تقلّصت قوّة أكرم الحوراني وحزبه أثناء قيامه ضدّ المرشديّين في بدايات ١٩٥٩ كما ذكرنا سابقاً.

وخلاصة القول أنّ التعامل مع قيادة المخابرات حدّ من قوّة المعادين أثناء المجابهة. وصار للمرشديّين بمقتضاه وضع جيّد في الحرب الدائرة بينهم وبين المفسدين ورجال الدولة من شرطةٍ وقضاةٍ، فإنْ سُجن أحد المرشديّين كنتيجةٍ لحادثةٍ ما، بات يمكن التوسّط لإخراجه من سجنه بواسطة قيادة المخابرات التي كان يهمّها أن لا يزيد الضغط على المرشديّين عن حيّز المعقول، لكونها لا تريد لهذه الاتّصالات التي يجريها المعلّم مع أعدائها أن تتوقّف.

وكان من نتائج ذلك التدخّل السياسي أيضاً أنّه أصبح لنا نائب في عهد الوحدة كبقيّة الفئات في سورية، وممثّلون في الاتّحاد القومي، وذلك عندما أعلن ناصر عن قيام انتخاباتٍ في سورية ومصر في ١٥ / ٥ / ١٩٥٩، يشكّل بها هرم الاتّحاد القومي، وينتقي منه مجلس الأمّة بمصر وسورية (البرلمان). وكان للمخابرات الباع الطويل في مجرى تلك الانتخابات. وقدّم المرشديّون للاتّحاد القومي كلاًّ من محمّد فوزي وجميل غنيجة. ثمّ انتُقيَ جميل غنيجة من قبل الدولة إلى مجلس الأمّة في مصر. ولم يكن لهذا المجلس أيّ حولٍ أو قوّة من حيث الصفة التشريعيّة أو غيرها، لأنّ الحكم كان ديكتاتوريّاً بوليسيّاً، فذلك الفوز كان معنويّاً بحتاً.

وأهمّ هذه النتائج أنها أعطت للمرشديّين اعتباراً أنهم قوّةٌ فعالةٌ مستقلّةٌ في البلاد، تتصرّف وفق مشيئتها ووفق مصالحها، والحكّام لا يستطيعون استغلالها. فإمّا يحاربونها ككلّ وإمّا يهادنونها.

وأنت إذ تظنّ أنّ المعلّم كان مشغولاً جدّاً بهذه الأمور بحيث ملأت عليه نهاره وليله، كرعاية أتباعه وجيئاتهم إليه، واستقبال الآخرين وزياراتهم، وهذه التدخّلات السياسيّة على سعتها، والمرضى الذين يقصدونه وأحوال البيت بسكّانه الكثيرين، فأنت تكون غير صائب، وأكون أنا غير دقيقٍ في نقل هذه الأجواء إليك. لأنّه كان يقضي كثيراً من وقته ضجراً لا يجد ما يعمله، وتمرّ بنا أوقاتٌ عنده يكاد يقتلنا الضجر، فلا (المشاوير) في شوارع بيروت، ولا التمشّي على الفيراندا العريضة الشبه مستديرة ولعب المنقلة أو الشطرنج، ولا أيّ تسليةٍ أخرى كانت كفيلة بتغطية النقص الحاصل من الفراغ اليومي. فمشاكل أتباعه ورعايتهم والقضايا السياسيّة والزيارات الحاصلة بموجبها كانت تتزاحم على باب بيته من وقتٍ لآخر تزاحمَ أتباعه في جيئاتهم الكبيرة إليه، ثمّ تعود وتخفت وتتلاشى كخفوت وتلاشي تلك الجيئات. وكثيراً ما كان يتمثّل بقول الشاعر مازحاً : (أرَقٌ على أرَقٍ ومثلي يأرق) فيغيّرها لتصبح (ضجرٌ على ضجرٍ ومثلي يضجر). فقد سمعتها منه عشرات المرّات في لبنان وبعدها في دمشق.

وانتهت محاكمة المطلوبين بشأن الداحول إلى تبرئتهم، وغادر بيت المعلّم كلّ من كان قد التجأ إليه خشية الملاحقة في أيلول سنة ١٩٥٩، وذهبوا إلى الجبل. ولم يبقَ في البيت منهم سوى علي حبيب.

أمّا سلمان محمود (أخو أمّ فاتح) ورفاقه الذين كانوا في السجن ذلك الزمن لأجل اتهامهم ظلماً بالاشتراك في مقتل الداحول فقد حُكموا أحكاماً متفرّقة، ثمّ برّأتهم محكمة النقض بعد أن سُجنوا حوالى ثلاث سنين، أمّا ماجد الفاعل وأخوه فقد حُكِما بأكثر من هذا ولربّما لم يُخرِجوا ماجد إلّا بعد سبع سنوات أو تزيد.

نهاية اكرم وبداية حكم السرّاج

وانتهت محاولات أكرم الحوراني للرجوع إلى الفاعليّة والحكم وانقسم عليه حزبه، وعَلِمَ أخيراً أيّ خدعةٍ دبّرها له ناصر والسرّاج، فأعلن استقالته هو وأعضاء حزبه من الوزارة المركزيّة للبلاد في ٢٥ كانون الأوّل عام ١٩٥٩ ولم تقم لأكرم قائمةٌ ذات قيمة بعدها، حتى ولا في حزبه الذي انشقّ عنه بعد هذا وأُقيل من زعامته. وبذلك تمّ الخلاص منه وقد شمتنا به وبأصحابه شماتةً لم نحاول إخفاءها.

أمّا السرّاج فقد عيّنه عبد الناصر رئيساً للمجلس التنفيذي في سورية، أي أصبح ممثّل عبد الناصر في سورية والحاكم الفعلي في البلاد، خاصّةً وأنّ قوى المباحث ما زالت تخضع له. بعد أن استلم السرّاج رئاسة المجلس التنفيذي في البلاد، وتّبعت له المخابرات بكلّ فروعها، بدأ العهد في سورية يتحوّل إلى عهد البوليس السرّي، وساد جوٌّ من الإرهاب سورية بكاملها. فلا يجتمع الناس للأعراس أو للمناسبات الدينيّة والدنيويّة إلّا بعد حصولهم على موافقة المخابرات، وأيّ اجتماع عامّ أو حتى اجتماع أفرادٍ قلائل يُقاد الذين يحضرونه إلى زنزانات المباحث صباح اليوم التالي. ووصل عهد الوحدة إلى ما وصل إليه عهد الشيشكلي من البطش بكلّ مُعادٍ للنظام أو بكلّ مَن لا يُظهر ولاءه للحاكم. وبات عهد الوحدة هذا يحارب البعثيّين والشيوعيّين ويلاحقهم. وقد امتلأت منهم زنزانات المباحث وسجن المزّة. وكان عبد الناصر قد جاء إلى الحكم في سورية عن طريق حزب البعث والقوميّين العرب والسرّاج والجيش، ولكنّ الذي قطف ثمرة الوحدة كان السرّاج ومخابراته فقط، ولكنّه سرعان ما ضرّس بها كما ستُظهِر الأيّام المقبلة.

السلطة تُرجِع فاتح إلى دمشق

في ربيع أو صيف سنة ١٩٥٩ استدعت المخابرات فاتح إلى دمشق، فمكث منفيّاً في دمشق، يأتي لزيارة المعلّم شهريّاً بعد أن يأخذ إذناً من المخابرات، ويمكث عنده في بيت الدفوني في بيروت أيّاماً تصل بعض الأحيان إلى نصف شهر كما أتذكّر.

يُعتبر طلب المخابرات إقامة فاتح في دمشق تحذيراً للإمام كي لا يقف ضدّهم، فهم لم يأخذوه رهينةً، لأنّهم كانوا يسمحون له بمغادرة البلاد إلى لبنان شهريّاً.

ويعود هذا التحوّل في معاملة المخابرات للإمام إلى ما شعر به السرّاج من قوّةٍ وغرور بعد أن تغلّب على أخصامه في سورية. وبات هو رئيس المجلس التنفيذي. كما وأنّ الخطر من السياسيّين المعارضين في لبنان بات لا يمثّل قيمته الأولى بالنسبة لحكّام الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، وذلك لأنّ المعارضة السوريّة في لبنان كانت قد ضعفت كثيراً، وأصبحت لا تمثّل أيّ قوّةٍ فعّالة في المعترك السياسي في المنطقة.

الانتقال إلى بيت الحدث

ضاقت الحالة المادّيّة بعض الشيء نسبةً لِما عند المعلّم من مصاريف، وكان إيجار بيت الدفوني مرتفعاً جدّاً فبحث عن بيتٍ آخر، واستأجر بيتاً في منطقة الحدث وهي ضاحية من

ضواحي بيروت وليست ضمن دائرة المدينة وبذلك يكون إيجار البيت أقلّ من المدينة. وتمّ الانتقال إلى البيت الجديد بيت الحدث في ربيع سنة ١٩٦٠.

ويتألّف البيت من طابقين صغيرين، وهو بيت مستقلّ لنفسه، يتألّف كلّ طابق من ثلاث غرف وصالون. الصالون عبارة عن صالونين مفتوحين على بعضهما، وتحيط بالبيت مساحات صغيرة من الأراضي من كلّ جوانبه، ولكنّها كانت جرداء غير مزروعة. وعندما تدخل إلى البيت عليك أن تصعد درجاً من عشر درجات أو أكثر في العراء قدّام البيت، والدرج درجان وهو على شكل نصف هرم فهنالك سفرةٌ أمام باب البيت ودرج على اليمين ودرج على اليسار.



في بيت الحدث

سكن المعلّم في الطابق الثاني، وخُصّصت غرفتان بجانب غرفته للأخوات وللأخوة عندما يأتون لزيارته. أمّا الصالون فقد وضِع به طقم الكنبايات الذي كان في غرفة الاستقبال في بيت الدفوني. أمّا الصالون الثاني فقد بقي بدون فرش لعدم الحاجة إليه. وأصبح الجزء المفروش من الصالون بمثابة غرفة استقبال. أما الطابق الأوّل فكانت غرفتي فيه وكان فيها سريران واحد لي والآخر ينام فيه فاتح عندما يأتي لزيارة المعلّم من دمشق ـ وهكذا كان يفعل في بيت الدفوني بعد أن طُلِبَ إلى دمشق ـ وغرفة أخرى ينام فيها بعض الذين يبقون عنده لفترة طويلة. والغرفة الثالثة خُصّصت للجلوس ووُضِعَ فيها كراسٍ لهذه الغاية، يجلس فيها المعلّم والذين يسهرون عنده، وكثيراً ما تعقد فيها جلسات غناء بحبّ الله أو جلسات معرفة، وأحياناً في الغرفة التي بجوارها، أو في الغرفة التي ينام بها فاتح وأنا، فلم يكن هنالك نظامٌ معينٌ يجب اتّباعه. أمّا الصالون ذو الغرفتين الواسعتين فقد خُصّص لمجيء إخواننا ولنومهم، تُمدّ به الفرشات بعد السهرة لأجل النوم، وقد تُمدّ بعض الفرشات قبل السهرة في الجزء الثاني من الصالون لوجود بعض المرضى الذين لا يستطيعون متابعة السهرة، أو أناس متعبين.

لم يحدث ثمّة تغيير جذري في الحياة العاديّة بين بيت الدفوني وبيت الحدث، إلّا أنّ الذهاب إلى سوق المدينة بات يأخذ وقتاً أكثر من الأوّل بكثير، نظراً لبعد الضاحية عن مركز المدينة. وبقي البيت واسعاً جدّاً بالنسبة لساكنيه، وكان الجوار في الحدث أطيب منهم في المدينة، وقد يعود هذا إلى طابع الريف المتحضّر الذي كانت منطقة الحدث تتمتّع به. فلم تكن حياة المدينة قد غزتها كلّيّاً بَعد، ومرّة سمعوا غناءنا وذُكِر عيسى مع الأنبياء فابتهجوا لذكر عيسى كثيراً.

إنّ زيارات المرشديّين للمعلّم في بيت الحدث ابتدأت كما انتهت إليه في بيت الدفوني. كان العمّال المرشديّون قد انتشروا في لبنان انتشاراً ملحوظاً، ولذلك لم يكن يخلو البيت منهم إلّا نادراً، فقد اعتاد المرشديّون الذهاب إلى بيروت لزيارته، وأصبحت زيارته إلى بيروت أمراً عاديّاً عندهم، فكنّا نرى في البيت دائماً مَن نعرفهم من إخواننا، هذا من القرية الفلانيّة وذاك من تلك، هذا من الجنوب وذاك من الشمال، لم يكن البيت يغصّ بالزائرين إلّا في بعض الأحيان. ولا أظنّ أنّ (الجنّة) قد فُتِحَت على مصراعيها كما حدث في الدفوني، إلّا أنّ مجيء المرشديّين لم يكن ينقطع يوميّاً. واتّسم مجيئهم بطابع خاصّ عنه عمّا سبق، فجلساته معهم في الصالون كانت أكثر ودّاً ودفئاً. يجلس عنده عشرون إلى ثلاثين رجلاً.

وتوالى قدومهم إليه، يملؤون الصالون يوميّاً، ويجلس بينهم يحدّثهم ويحدّثونه أحاديث وديّة، ويتفقّد أمورهم. وما طالت الأيّام سوى شهر أو بعض الشهر، حتى اضطرّ إلى إيقاف قدوم المرشديّين إليه، وذلك بسبب القطيعة بين الحكومة في سورية وبين لبنان.

القطيعة بين سورية ولبنان

بدأت القطيعة عندما منعت الحكومة السوريّة مواطنيها من دخول لبنان إلّا بعد الحصول على إذنٍ من الأمن العام، فاستصعب الأمر على المرشديّين جدّاً، وبات عليهم أن يقطعوا النهر الذي بجانب البهلوليّة كي يصلوا إلى الأراضي اللبنانيّة، وهو دخولٌ إلى لبنان وخروجٌ من سورية غير مشروع قانونيّاً. وكانوا يلاقون صعوباتٍ شتّى في هذا الأمر. إذ أنّ القرى هناك كان قد تنازع أهلها مع مرشديي البهلوليّة (وهي قريةٌ مرشديّة تقع على الحدود اللبنانيّة السوريّة) أثناء قيام المضاربات بين المرشديّين وغيرهم من جيرانهم. فابتدؤوا يشون بالمرشديّين الذاهبين إلى المعلّم. وكان معظم هذه الوشايات يتلخّص هكذا : إنّ هؤلاء المرشديّين فلانٌ وفلان قطعوا الحدود، وذهبوا إلى ساجي المرشد في بيروت، كي يأخذوا إليه مالاً وأحياناً

أن يجلبوا منه مالاً وسلاحاً يناوئون به العهد. هذا ما جادت به قريحة هؤلاء السذّج. وكانت تلقى بعض الأحيان التصديق. حتى وإن لم تصدّق وشايتهم، فإنّ الخروج من سورية بصورةٍ غير مشروعة عليه جزاءٌ قانوني، سيتعرّض إليه القادمون إن اكتُشِفَ أمرهم.

وحكاياتهم عن هذه الملاحقات كثيرة. وكانوا يتندّرون بهذه الحكايات تندراً. ولم تُعتبر كأيّام العذاب أبداً .إلّا أنّ بعض المرشديّين قد سُجنوا وعُذّبوا فعلاً أثناء اجتياز الحدود. وكانوا يأتون إلى البهلونيّة أوّلاً، ويقطّعهم رجال البهلونيّة المرشديون النهر الذي يفصل سورية عن لبنان بذاك المكان، وبعض رجال البهلونيّة يحملون مَن يقصّر لعلّةٍ أو شيخوخة أو مرض على أكتافهم قاطعين به النهر، ليوصلوه إلى الضفّة الأخرى. وقد قدّمت جماعة البهلونيّة كلّ مساعدةٍ لزوّار المعلّم من نوم وطعام وما إلى ذلك من حاجات. وكان الأوّلون بدورهم ممتنّين لهم جدّاً، وعندما يذكرونهم يذكرونهم باحترامٍ قلبيٍّ واضح.

وكانت المخابرات قد بدأت تقاوم المرشديّين، فكان بعض زائري المعلّم من الذين يوقفونهم على الحدود، يؤخذ بهم إلى مراكز المخابرات حيث يتعرّض بعضهم للتعذيب أو للسؤال : لماذا يذهبون إلى ساجي؟. وماذا يفعلون عنده؟. وكان ساجي قد أوصى منذ أيّام الدفوني أن لا ينكر أحد من المرشديّين إذا سُئل إن كان ذاهباً لزيارته، بل يصرّح بذلك ولا يخفي من أمره شيئاً. ما عهدت ساجي يوماً يعمل بالخفاء بل كلّ ما يعمله ويوجّه إليه يصرّح به لكل من يسأل أو يستفسر.

وهكذا أصبح المرشدي يلاقي صعوبةً في زيارة إمامه. ولكن هذه الصعوبات لم تثنِ عزيمة المرشديّين عن زيارته حتى أوقفهم هو نفسه، وطلب منهم عدم القدوم إليه، وذلك نظراً لشعوره بصعوبة هذا الأمر عليهم.

عودة إلى الحياة اليوميّة

بعد أن انقطع المرشديّون عن زيارة المعلّم في الحدث، بات البيت وسيعاً جدّاً على سكّانه. فإنّ السكّان الدائمين في البيت كانوا الأخوات الأربع، ومنهنّ مَن كانت تذهب إلى سورية وتعود إلى لبنان، أمّا أنا فكنت أتابع دروسي الخصوصيّة التي بدأتها في دمشق وتابعتها في بيروت في بيت الدفوني ثمّ في بيت الحدث. نظراً لأنّه لم يتسنَّ لي متابعة دراستي النظاميّة في المدارس بعد اغتيال مجيب، كما بقي في البيت أيضاً علي حبيب وكذلك حسن يوسف ناصر وكان من ضمن خدماته مرافقة المرضى إلى عيادات الأطباء، وعزيز خليل الذي كان يجلب أغراض البيت، وحسين محمّد علي الذي لم تطل به المدّة حتى غادر البيت واستقرّ في قرية في الغاب.

وكان يفدُ إلى البيت يومياً الفعلة من المرشديّين الذين يعملون في لبنان ذلك الزمن. وترى منهم في البيت اثنين أو ثلاثة أو أكثر بشكلٍ شبه يومي. وكذلك يؤمّ البيت أفراد بيت شهيرة كعلي شهيرة وأبو كاسر شهيرة وصالح شهيرة وبعض أبنائهم من الذين أصبحوا شبّاناً، وبيت شهيرة هؤلاء كانوا قد هاجروا إلى لبنان منذ أيام أبي الفاتح على ما أذكر. وكانت أحاديث كلّ هؤلاء العمّال عن عملهم وشؤونهم تشارك في إضفاء بعض الحيويّة على جوّ البيت.

ويأتي الأخوة من وقتٍ لآخر كسميع ومنير وأمير ومرشد ومجير الذي بقي يسكن البيت زمناً طويلاً، وكذلك بدأ يزور البيت الأخوة الصغار أيضاً كاليذكر وسلمان ودولت وكانوا قد أصبحوا يافعين.

وبقي يأتي إلى البيت معارف المعلّم من وجوه المرشديّين وغيرهم أمثال: محمود فوزي ومحمود رضا من المهالبة، وعزيز سعد وجميل غنيجة من الجبل، وسلمان خرفان وجعفر خليل وعلي شاهين من الغاب، وأبو رستم وخضر السليمان من مريمين، وشوقي العبد الله وسليمان الأحمد من قصير حمص، وصالح العبد الله من سهل حمص. وأظنّ أناساً من جهة الحدود من قريتي زعورا والغجر ومن البيطاريّة، وكثيرون وكثيرون غير مَن ذكرت. وكلّ هؤلاء يأتون بأوقاتٍ متباعدة. فقد يخلو البيت من الجميع، وقد يكاد يمتلئ بالناس.



في الحدث

كان المعلّم يخرج في صيف تلك السنة سنة ١٩٦٠ ليمارس رياضة المشي، ويرافقه عادةً بعض الأخوة وعلي حبيب وينضمّ إليهم فاتح في كثيرٍ منها عندما يكون عند المعلّم في لبنان، وكان يأتي إليه كثيراً، ويبقى عنده مدداً قد تصل إلى نصف شهر أو تزيد. وتزايدت مسافة المشي يوماً عن يوم حتى صاروا يصلون إلى بلدة (عاليه) صعوداً في الجبل ثمّ يعودون

منها إلى الحدث، وعاليه تبعد عن الحدث حوالى خمسة عشر كيلو متراً صعوداً قاسياً في الجبل، وكثيراً ما كان يجوب شوارع بيروت في أوقاتٍ شتّى.

وحدث أنّ علي حبيب كان يذهب يومياً إلى نادٍ للمصارعة، وبات يعرف بعض المصارعين، وكان من نتيجة حديثه أنّ المعلّم أصبح يذهب مع بعض الأخوة ليشاهدوا مباريات المصارعة التي تُقام في نوادي بيروت، وقد دام هذا الأمر لبعض الوقت، وقد ساهم في إبعاد الضجر بعض الشيء عن جوّ البيت. فالمصارعة تأخذ حيّزاً من الوقت لا بأس به، وذلك لجاذبيّة الحديث عنها بعد كلّ مباراة، والتنويه بهذا المصارع وذاك.

وجلب علي حبيب آلةً كاتبة إلى البيت، كان قد استأجرها من محلٍّ يجري فيه تعليم الضرب على الآلة الكاتبة، وكان يتسلّى بها المعلّم أوقات الضجر أيضاً، وأذكر مرّةً أنّه طبع على الآلة الكاتبة مقطوعةً تهيب بالمؤمنين أن يطردوا من أنفسهم شعور الذلّة والمسكنة، ويضعوا عوضاً عنه شعور الفخر والعزّة الذي أمر به الله المؤمنين.

ومرّةً طلب ممّن عنده أن يكتبوا مقالةً عن الحرّيّة، وكتب هو عنها، وأظنّ أنّه كتب أنّ الحرّيّة الحقّة هي التحرّر من استعباد المطامع وشهوات الجسد للإنسان، أو كلاماً بهذا المعنى. وأحياناً كثيرة كان يطلب من الذين عنده أن يكتبوا عن مواضيع شتّى وذلك في الدفوني والحدث، وكان دائماً يشاركهم هذه الكتابة.

أصبح قدوم المرضى كثيراً في هذا البيت، وفاق عددهم بيت الدفوني سابقاً، وذلك لازدياد اعتياد المرضى الذهاب إلى المعلّم. فكنتَ ترى الصالون أحياناً يكاد يمتلئ بهم، وأحياناً لا ترى إلّا بعض المرضى في الصالون، وأحياناً أخرى لا ترى أحداً منهم.

وفي هذا البيت زوّج المعلّم أخته منى مرشد إلى علي حبيب. ثمّ أرسلهما إلى بيت أمّ خليل في دمشق، ليعيشا هناك عند فاتح.

أمّا مجيبة مرشد والتي كانت تذهب إلى اللاذقيّة وتعود إلى لبنان، فقد ولعت برجلٍ غير مرشدي واقترنت به. وكذلك بعدها بفترة اقترنت أختهما طهران مرشد برجل غير مرشدي أيضاً.

وكان عند نهاية خريف تلك السنة أنّ المعلّم اشترى لنفسه ثياباً صوفيّة، فقد بات يتضايق من البرد، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يرتدي بها ثياباً صوفيّة كما أعلم، وأصبح يشعل المدفأة في غرفة الجلوس في الطابق السفلي وفي الصالون أيضاً، ولربّما بدأت تظهر أعراض آلام الظهر عنده منذ ذلك الوقت، إضافةً إلى تشنّج الأمعاء الغليظة الذي كان يُعاني منه بشكلٍ دائم.

السجن

تظاهر مرشدي في شوارع حمص

بدأت المخابرات تلاحق المرشديّين في حمص بحجّة أنهم قاوموا رجال الحكومة عندما حاولت إزالة مقام على اسم الخضر، وكان فعلاً قد حاول بعض البسطاء من المرشديّين ممانعة رجال الحكومة من إزالة المقام، ولكن مخابرات السرّاج اعتبرتها أمراً من ساجي للوقوف ضدّ الحكومة. مع أنّ المحافظ أمر بعدم هدم المقام بعد احتجاج هؤلاء المرشديّين، لربّما كي لا يثير حفيظة الطوائف الدينيّة الأخرى أيضاً لأنّهم جميعهم يحترمون هذا الاسم. وقد جابه المرشديّون هذا التعنّت السرّاجي بأن أظهروا احتجاجهم على سجن بعض المرشديّين، فتوافدوا من بعض القرى حول حمص يطوفون بالأسواق داعين رجال السرّاج إلى سجنهم هم أيضاً حتى امتلأت بهم سجون حمص وما انفكّوا يتوافدون.

وأثارت هذه الحادثة بلبلةً في الأوساط الرسميّة والشعبيّة. وخلقت في حمص ضجّةً عظيمةً، ووصلت أخبارها إلى كلّ مكان في سورية. وأضمر السرّاج أمراً وحيكت مؤامرة على مستوى الرئاسة في مصر، تقرَّرَ فيها التخلّص من ساجي وتصفيته جسديّاً وإبعاد إخوته والرجال المعروفين في المرشديّة.

إنّ السبب الرئيسي الذي دعا حكّام الوحدة آنذاك إلى سجن المعلّم، وإلى فكرة التخلّص منه بالتصفية الجسديّة ـ كما يسمّون اغتيالاتهم ـ هو التظاهر المرشدي في حمص، فإنّ هذا التظاهر كان شبه تحدٍّ علنيّ لعهد الوحدة الذي لم يتعوّد على المجابهات والذي لا يرضى بها، فعبد الناصر كان من النوع الذي لا يمكنه أن يتحمّل شعبيّةً في البلاد إلّا له، ولا يستطيع أن يقبل بكلمة (لا) مطلقاً حتى من الدول الكبرى، كما برهنت الأحداث قبل وأثناء الوحدة من تأميم القناة وشراء الأسلحة من الشرق عوض الغرب، وإعلان الحرب الكلاميّة ضدّ أميركا لأوّل مرّة في العالم العربي. فهو لشعبيّته الهائلة والمتزايدة آنذاك لم يكن ليستطيع أن يظهر بمظهر المخطئ، ولم يكن يسمح بأيّ اجتماع مهما كانت صفته إلّا مظاهرات التأييد. فكيف يسكت لهذه القلّة المرشديّة من الذين ملؤوا شوارع حمص احتجاجاً على سجن وتعذيب بعض منهم ؟!. وقد سُجن المعلّم بعد بداية التظاهر المرشدي بستّة عشر يوماً على وجه التقريب، فكثير من المرشديّين كانوا ما زالوا في السجن، ورجال المباحث والشرطة كانوا ما زالوا يجوبون الشوارع بحثاً عن المرشديّين المتظاهرين.

أمّا تراجعهم عن نيّة التخلّص منه قتلاً، فيظهر أنّ قيام المرشديّين بضرب المفسدين الشامتين من المجاورين أوّل دخول المعلّم إلى السجن جعلهم لا يجسرون على القيام بأمرٍ كهذا. أو غيّر فكرتهم حيث يكتفون بالسجن عوضاً عن القتل، فلا يثيرون المرشديّين ضدّهم بشكلٍ كبيرٍ، ولعلّ الأحداث التي جرت في سورية أثناء أيام السجن الأوائل، وهي المشاذات والنزاعات التي قامت بين عبد الحميد السرّاج وجماعته من جهة وبين المشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس ناصر من جهةٍ أخرى، ألهتهم عمّا كانوا يرمون إليه.

ساجي يسلّم نفسه عن اتباعه

أرسل عبد الحميد السرّاج إلى ساجي في بيت الحدث ببيروت أنّه يريد أن يقابله لأمرٍ خطيرٍ، ويجب الإسراع قدر الإمكان، وكان جليّاً للعيون ما بهذه الدعوة الملحوحة من أمرٍ خطيرٍ فهي كانت أوّل مرّةٍ تستدعيه بها المخابرات، وجاءت أثناء أحداث حمص وتجمهُر المرشديّين في شوارع المدينة فالأكيد أنّها لا تضمر إلّا شرّاً. ومع ذلك فقد جاء المعلّم فوراً غير متوانٍ أو محاذرٍ، وفضّل أن يناله ما نال المرشديّين أو ما حدث لمجيب وسلمان من أن يعاين أتباعه تُنْتَهَك أجسادهم بالتعذيب الاجرامي. فإنْ لم يأتِ فاللّه يعلم ما ستفعل القيادة بمصر وسورية بالمرشديّين الذين ثاروا على أفعالها وتحدّوا السلطات علناً، حتى ولم يستشيروا بالأمر معلّمهم إلّا بعد أن باشروا بالتظاهر، ولم ينفّذوا ما وجّههم إليه بهذا الشأن ولكن لم يكن هناك مناص من أن يفديهم بنفسه فهم جماعته وأهله، وخاصّةً أنّه كان قد دعا اللّه أن يحتمل هو العذاب عن المرشديّين.

غادر لبنان إلى سورية وهناك لم يقابله عبد الحميد، بل ضابطان من ضبّاطه حيث قيل له ولفاتح الذي كان معه أنّهما سيُسجنان مع إخوتهما وبعض الرجال المعروفين في المرشديّين، وذلك لأنّ قضيّتهم أُثيرت عند عبد الناصر في مصر، أثارها ضبّاطٌ سوريّون ولربّما مصريّون أيضاً، وطلبوا إعدام ساجي وبعض رجاله والتخلّص من هذه البدعة كلّيّاً. وقال هذان الضابطان : إنّ السرّاج ما زال بالرئيس حتى وافق على سجنهم فقط، وهكذا يُحال بينهم وبين المرشديّين وغيرهم، فلا يؤذن لهم بالاختلاط بأحد، ولا يؤذن لأحدٍ بمقابلتهم. ثمّ يُصار إلى ترحيلهم إلى مصر في منفى بعيد هناك. والحقيقة أنّ السرّاج هو الذي عمل على إقناع عبد الناصر بالتخلّص من ساجي المرشد بالتصفية الجسديّة وإرسال إخوته ومعهم المعروفون كوجوهٍ للمرشديّين إلى صعيد مصر وبذلك يقضي على هذه الحركة. وصوّرها له أنّها ضدّ عهده وذلك بسبب التظاهر الذي قام به المرشديّون في شوارع مدينة حمص الذي أظهر السرّاج بصورة العاجز عن حفظ النظام.

أمّا ردّ فعل الخبر على المعلّم فقد أخبرني به فاتح. كان هادئاً جدّاً وكأنّه شرد بفكره عن

متابعة الحديث معهم ـ أمّا سرّ شروده يومها فقد أخبرني به هو نفسه وهو أنه كان يتذكّر حلماً لمجيب قصّه على أصحابه قبل رحيله بصوّر هذا الحلم الواقع الحاصل يومها ـ وكان فاتح يتابع الحديث مع الضابطين لوحده، ثمّ طلب من ساجي أن يستلم الحديث بعد أن طاولهما جهده، فارتأى ساجي عليهما : أنّه طالما القرار يمنعنا من الاتّصال مع خارج السجن بشكل كامل، فمن الأوفق أن يتركوا واحداً يدخل إلى السجن يومياً بحجّة تأمين الأغراض، وهكذا يستطيع ساجي بواسطته أن يرسل لجماعته ما يريد، وهكذا نتلافى حدوث أيّ ردّ فعلٍ مفاجئٍ في المرشدِيّين لخبر سجن المعلّم، فقد يقوم بعض المتحمّسين بأعمالٍ لا ترغب بها الحكومة آنذاك. وراجع هذان الضابطان السرّاج فوراً، وقالا له (الجماعة تقبلوا الأمر بهدوء) وأعلماه بطلب ساجي السماح بدخول شخصٍ إليهم في السجن لتجنّب ردود الفعل. ووافق عبد الحميد مخافة حدوث ردّ فعلٍ قويّ. وهكذا استمرّت تَرِد إلى المرشدِيّين أشعار المعلّم وتوجيهاته طيلة فترة سجن القلعة بواسطة هذا الشخص وهو عزيز غزالو من حارة الزيارة، وكان أبوه يعمل عند سلمان.

رجع ساجي وفاتح إلى البيت يخبرانا بما جرى. وكان المعلّم ضاحكاً، وكان يبدو فرحاً بهذا الأمر، وأظنّه كان فرحاً لأنّ الله أصدق الحلم الذي رآه مجيب أمام أعيننا.



المعلّم وشقيقاه أمام المفردة التي كانوا مسجونين فيها

ودخل المعلّم سجن القلعة في دمشق في ٢١ أيار سنة ١٩٦١ وبهذا يكون قد سكن في لبنان أربع سنوات إلّا شهراً واحداً تقريباً. ودخلت مع المعلّم وفاتح إلى السجن وكان عمري يومها ستّة عشر عاماً ونيف. وكان بهجت مسوتي أحد الضابطين اللذين أخبرا المعلّم وفاتح بالسجن قد جاء بسيّارته إلى البيت وأخذنا بها، وقاد السيّارة هو نفسه إلى السجن حيث دخلنا غرفة صغيرة تطلّ على باحة في السجن بشكل مباشر. وكانت معاملتنا داخل السجن بكلّ احترام بأمرٍ من السرّاج وبتنفيذٍ من بهجت مسوتي.

وتوافد أخوة المعلّم وبعض الوجوه المطلوبين تباعاً، يأخذونهم من بيوتهم ويجلبونهم إلى السجن. جاءوا بسميع ومرشد ومجير وأمير ومغيث من الأخوة. والشيخ أسعد (وكيل سلمان في بيت الجوبة) وعلي حبيب (صهر العائلة) ويوسف محمود (أخو أمّ فاتح) وإبراهيم علي إبراهيم (من الرجال المعروفين) وصافي خرفان (من وجوه الغاب) وآخرين. في البداية تجنّبوا الوقوع في قبضة الحكومة بعد أن طُلبوا، ولكنّ الإمام أرسل لهم كي يسلّموا أنفسهم ففعلوا وكان عدد السجناء أربعة عشر رجلاً من غير الإمام .

أمّا الحياة في السجن فكانت حلوةً جدّاً في بدايتها، وكنا نتضاحك ونتمشى في الساحة الكبيرة التي تطلّ القواويش عليها ـ القاووش اسم تركي يُطلق في السجن على الغرف الكبيرة جدّاً التي يُزجّ بها السجناء ـ أمّا غرف المرشديّين فلم تكن قواويش، غرفتنا نحن الثلاثة كانت غرفةً صغيرةً لها مطبخٌ صغيرٌ جدّاً وتواليت، تدخل إليهما من الغرفة نفسها وعلى باب الغرفة شبكة الحديد، وكذلك كان هنالك غرفٌ أخرى على نفس الصفّ الذي به غرفة المعلّم والمطلّ على الباحة، وقد وُضع المسجونون من أخوتنا ورفاقنا في هذه الغرف.

وعندما تزايد عددنا أفرغوا الشكيّة لنا، والشكيّة عبارةٌ عن غرفةٍ واسعةٍ جدّاً كأنها صالون مربّع وشبابيكها لا تشبه شبابيك السجن بل هي شبابيك عاديّة خضراء تطلّ على الباحة من كلّ جانبٍ تقريباً، ويكسو أرضها البلاط على عكس قواويش السجن وبقيّة الغرف، ولها مطبخٌ واسعٌ جدّاً وتواليت وحمّام أيضاً. وكانت تُستعمل قبل مجيئنا إليها كمستوصفٍ مساعدٍ تابعٍ للسجن. ووضعوا لنا أسرّة بها وهي الأسرّة العسكريّة المعروفة ـ عرض السرير حوالى ٦٠ سم ـ بعضها فوق بعض كي يتّسع المكان لنوم عددٍ أكبر.

في البداية عندما دخلنا الشكيّة مع المعلّم كان جوّ مجتمعنا الصغير حلواً، صبغه المعلّم بحديثٍ شيّقٍ وتعليقاتٍ لطيفةٍ وممازحات بريئة. وكان المزاح والضحك يسودان مجتمعنا الصغير هذا سواء داخل الشكيّة أو خارجها، حيث ننتشر بالساحة أفراداً وأزواجاً أو جماعاتٍ مطلقين أنفسنا على سجاياها.

أمّا الخدمة في الشكنة فكانت مخصصة لكلّ اثنين منّا أن يستلما دورهما في الخدمة، فيقومان بتقديم الشاي أو القهوة وجلي الصحون وتحضير الطعام، وكما أذكر أنّه لم يكن كثيرون منّا ينتظرون دورهم فلا يساعدون في شيء حتى يأتي دورهم، بل كان بعضنا يشترك ويساعد مستلمي الخدمة في أعمالهم خاصّةً إذا كانوا مرضى، وكان فاتح يأبى إلّا أن يستلم دوره كغيره. أمّا المعلّم فقد استلم دوراً كغيره أيضاً وكان رفيقه في دوره هذا مرشد المرشد، وكان لا يقبل إلّا أن يساعده في جلي الصحون وتحضير الشاي والقهوة رغم اعتراضات مرشد الكثيرة، ولربّما اعتراضات غيره أيضاً. وقد اشترك المعلّم بهذه الخدمة فعليّاً عدّة مرّاتٍ، ولم يكن من المنطقي أن يقوم بها كأحدنا تماماً، فلن يقبل بهذا أحدٌ منّا. أمّا عادة تجهيز القهوة والشاي فلم يتركها لا في السجن ولا بعد السجن ولا قبله، وهي كانت تجري هكذا : يقوم بتحضير الشاي أو القهوة، ثمّ يدعو الذين عنده ليذهبوا ويحضروا فناجينهم أو كاساتهم.

أمّا في حمص فما إن سُجِنَ المعلّم حتى قامت الحكومة المحلّيّة ومخابراتها بإطلاق سراح السجناء من المرشديّين قائلين لهم : لم نعد نحتاجكم، فمَنْ نريده أصبح عندنا.

سجون المباحث

ما إن سمع المفسدون وأعداء المرشديّة بخبر سجن المعلّم ورفاقه حتى هبّوا إلى الفرحة وإقامة الولائم لبعضهم، وأعلنوا شماتتهم صراحةً بالمرشديّين. وأعلن المفسدون وبعض رجال الحكومة على مسامع المرشديّين أنّ الحكومة ستنفي أو تُعدِم المعلّم ورفاقه في السجن، وستنفي المرشديّين كلّهم إلى الصحراء، وستنتهي قصّة المرشديّة كلّيّاً. ولذلك طفق أعداء المرشديّة من مفسدين وغيرهم إلى تهنئة بعضهم البعض سعداء بهذه البشرى وبهذه النتيجة التي كانوا يرجونها منذ أمدٍ بعيد.

أرسل المعلّم من السجن إلى المرشديّين، أن لا يسكتوا لأحدٍ من المفسدين الشامتين، وأن يضربوهم إذا استمرّوا بوشاياتهم وافتراءاتهم المعتادة أو حتى إذا جابهوهم بالشماتة، غير هيّابٍ لكونه بالسجن وفي قبضة مَنْ يتآمرون لقتله. وفعلاً فعل المرشديّون ما أوصاهم معلّمهم به، وضربوا المفسدين في كلّ مكانٍ وجدوهم فيه، في شوارع اللاذقيّة وفي المناطق والقرى، حتى ضجّت اللاذقيّة بهذا الأمر، واستنفر السرّاجُ محمّدَ البيطار رئيسَ فرع المخابرات في اللاذقيّة لتأديب المرشديّين. فأخذ هذا الأخير يزجّ بهم في زنزانات السجون، وكان يتّبع طرقاً جديدة في علاج هذه المسؤوليّة التي أوكلت إليه، فكان يأتي بكل مَن سمع أو ظنّ أنّه وجهٌ من وجوه المرشديّين، حتى غصّت سجون المباحث في اللاذقيّة بالمرشديّين ووجوههم، فوزّعوهم على سجون المدينة.

ومن الطرق الجديدة في الإهانة أثناء التعذيب، أنّ رجال المباحث كانوا يأمرون المرشديّين بنزع ثيابهم ويتركونهم في الزنزانات بدون ثياب، فأخذ السجناء المرشديّون يتضاحكون من بعضهم لهذا العري مازحين مع بعضهم البعض، خالقين بهذا المزاح جوّاً من المرح بينهم، ما فتئوا يستذكرونه عشرات السنين بعدها. وكثيرون منهم كانوا ممّن عُرفوا بالوجاهة في الماضي القديم كعلي محمّد صقر غنيجة وكعزيز سعد وعلي شاكر وجعفر خليل ورسلان علي إبراهيم وصقر شعبان وعيسى خضّور وأسعد خضّور وجميل وهيب علّوش والشيخ درويش ونجيم الدواي وصالح يوسف طه وإسماعيل عدلا، وكثيرٌ غير هؤلاء، ووصل اعتقال المرشديّين إلى المئات. وقد طُلب أيضاً منير مرشد واليذكر مرشد وهما من إخوة المعلّم غير الأشقّاء، وجرى لهما ما جرى لغيرهما من المرشديّين، وقد عُذّب منير كالبقيّة ولم يتبرّأ من دعوة مجيب، وكان شجاعاً في هذه التجربة ممّا أدهشنا جميعاً. وكنّا نظنّه من الواهين ولا نعتبره مرشدياً، ولكنّه كان دائم الاعتراف أنّه رأى من مجيب كثيراً لا ينكر ذلك أبداً. هذا ولم أسمع أنّ أحداً من المرشديّين قد تبرّأ من مبدئه في تلك الأزمة رغم العذاب سوى واحدٍ على ما أظنّ، وقد نكث على أعقابه قبل أن يتعرّض لأيّ نوعٍ من أنواع العذاب.

وما أسكتت حملة التأديب هذه المرشديّين، فطفقوا يجوبون شوارع المدينة والقرى بحثاً عن المفسدين، وصدف أن ضُرِبَ في وقتٍ واحدٍ ثلاثةٌ من المفسدين في ثلاثة أماكنٍ متباعدة في نفس الزمن. وقد ضُرب أحد المفسدين وكان مشهوراً في فساده في المهالبة فأُدخل إلى المستشفى، وكان عندما خرج من المستشفى أنّ المرشديّين كانوا ينتظرونه على باب المشفى، فأطعموه قتلةً أخرى وأعادوه إلى المشفى ثانيةً. وضُرب الشيخ أيوب أيضاً في شوارع اللاذقيّة حتى أشرف على الموت. وهكذا كنتَ ترى شوارع اللاذقيّة ملأى بالشرطة وعناصر المخابرات يتبعهم المفسدون بالعشرات بحثاً عن المرشديّين. وإذ لم يعلموا مَن يَضْرب المفسدين من المرشديّين، باتوا يجلبون كلّ مرشديٍّ يرونه في الأسواق، أو يعلمون بتواجده في اللاذقيّة، ويقابلونه مع المضروبين من المفسدين على أمل أن يتعرّفوا عليه.

وجُنَّ جنون المخابرات لأفعال المرشديّين هذه، فقد انتشر الذعر في المدينة وما استطاعوا إيقافه رغم تأكيدات رؤسائهم عليهم بوجوب إيقاف النشاط المرشدي. وما هي إلّا أيّام حتى طلب السرّاج نائبنا جميل غنيجة إلى مكتبه واستقبله استقبالاً جيّداً، وعاتبه قائلاً: (شو دولة كرتون يا جميل ؟!) يقصد بهذا أنّ الناس خارج سورية ستستغلّ هذا الأمر وهذه الأحداث للتعريض بعهد الوحدة، وكيف أنّ الأمن فيها غير ثابت. وأتاح له زيارة المعلّم في السجن. ثمّ تمّ الاتّفاق الضمني بين المعلّم والسرّاج بواسطة جميل على إيقاف حملة المرشديّين وتظاهرهم، على أن تطلق الحكومة سراح جميع الموقوفين الجدد من السجون، وهكذا جرى.

وانتهت تظاهرات المرشديّين هذه وقد نفّذت أهدافها، ومنها إسكات المفسدين وإظهار القوّة، وتريُّث المتنفّذين عن إعدام المعلّم أو إبعاده مع بقيّة السجناء إلى صحراء مصر كما كان قد اقترح السرّاج على ناصر، فقد أخافتهم قومة المرشديّين هذه وتحدّي السلطات بقلب المدينة على الرغم من وجود إمامهم ووجهائهم في السجن، وتصوّروا أنّهم إذا أقدموا على خطوةٍ أكبر فإنّ المرشديّين لن يسكتوا لها بل لربما وصلوا إليهم هم أنفسهم.

ظهرت جرأة المعلّم حتى وهو في السجن إكمالاً لمواقف الجرأة بالحقّ التي ابتدأها منذ بداية قيامه بالمرشديّين في كلّ موقفٍ تطلّبَ هذا. وتعلّمنا من هذه المواقف كيفيّة الاتّكال على اللّه ونزع الخوف من الأنفس عندما يتطلّب الأمر مجابهة الباطل بالحقّ.

إنّ عناية المخابرات بنا في السجن خفّت حتى تلاشت وأصبحنا منسيّين منهم، وأصبح سجننا أمراً مسلّماً به ولا أحد يعدُنا بالخروج. أمّا بالنسبة للمعاملة الممتازة من قِبَل إدارة السجن، فقد بقيت على ما كانت عليه مع بعض الخفوت، ويعود الفضل في إبقائها إلى ما كان فاتح يقدّم إلى مدير السجن ورئيس المخفر وغيرهما وذلك طبعاً بمعرفة المعلّم. وقد شُغِل عبد الحميد وأتباعه عنا كليّاً .إلّا أنّ الأيّام جرت على غير ما ينتظرون.

انهيار عهد الوحدة

كان عبد الناصر قد أعلن قانون الإصلاح الزراعي، وبذلك أُخذت أراضي الإقطاعيّين منهم. ثمّ أتبعه عندما كنّا في السجن بالتأميم العامّ لكلّ الشركات الكبرى نسبيّاً في مصر وسورية. وأثار بهذا نقمة أغنياء سورية وتجّارها عليه ـ أعيان وأبناء أعيان رجال الكتلة الوطنيّة سالفة الذكر ـ فقد أُخذت أموالهم وهذا ما لا يستطيعون قبوله ولو جاء من عبد الناصر أعظم أبطال القوميّة العربيّة كما كان يُقال عنه تلك الأيّام، ورأى الغرب بهذا العمل أنّ المنطقة العربيّة بدأت تنحاز إلى جهة اليسار والاشتراكيّة بتسارعٍ خَطِر، فارتأى فَصْمَ عرى هذه الوحدة الجديدة بين مصر وسورية.

أمّا في داخل البلاد فقد طمع المشير عامر أن يصبح هو والياً على سورية بدل السرّاج، واستطاع إقناع عبد الناصر بسوء إدارة السرّاج للبلاد، وبتعسّف الحكم البوليسي الذي يتّبعه، وأنّه ضدّ مصلحة الوحدة. وكان من نتيجة ذلك أن عيّنه عبد الناصر نائباً له في سورية، وأتبع له المجلس التنفيذي بها. وأُحيل بين المخابرات وبين الشعب بصورة عشوائيّة وسريعة، وأجبر عبد الحميد السرّاج على الاستقالة من جميع مناصبه، وكُتبت هذه الاستقالة في الجريدة بما ليس أكثر من سطرين وفي هامش الصفحة الأولى،

وكأنها أمر تافه لا يستحق أيّ إبراز. وبذلك ضرب عبد الناصر رجله الخاصّ في سورية، وألغى المخابرات، فبات التحرّك ضدّه ممكناً. وجعل على البلاد عبد الحكيم عامر الذي اشتهر بالغباء في كلّ مهمّةٍ أوكل بها. وأصبح عامر هو الآمر الناهي في سورية وبدون أيّ منازع، وأخرج جميع السجناء من السجون من الذين كان سجْنهم تعسّفياً أي بدون أيّ محاكمةٍ وبدون أن تُنسب إليهم أيّ تهمةٍ. ولم يستثنِ عامر من هذا القرار أحداً إلّا المرشديّين أي المعلّم ومَن كان معه في السجن والشيوعيّين، وظهر بهذا أنّ نيّة عهد الوحدة بشأننا باتت خَطِرة.

وما دام هذا الوضع إلّا أيّاماً قد لا ترقى إلى الشهر حتى حدث انقلابٌ عسكريّ أطاح بالوحدة بشكلٍ كاملٍ. وحدث هذا الانقلاب في أواخر أيلول سنة ١٩٦١. اقتيد عبد الحكيم إلى المطار وطُيِّر إلى بلاده، وأعلنت الإذاعة السوريّة النبأ، وفرح بهذا النبأ كثيرٌ من الناس، وقابله كثيرٌ منهم بالرفض والمظاهرات.

وأمّا صاحب الانقلاب فكان برتبة عقيد واسمه حيدر الكزبري وكان له بعض المدرّعات القليلة احتلّ بها مبنى الإذاعة، وعُرف بعدها أنّ الذين خططوا وقاموا بالانقلاب هم من الضباط الدمشقيين ومنهم المقدّم عبد الكريم النحلاوي والعميد موفّق عصّاصة. وتوالت برقيّات التأييد من قِطَع الجيش، وحدثت انقلابات صغرى في قطعٍ شتّى، تغلّب بها الانفصاليّون على الوحدويّين في كلّ القطع التي ناوأت الانقلاب. وقد أُزيح هذا الضابط بعد أشهر ليأتي غيره. ولم يكن هنالك حاكمٌ معروفٌ في البلاد، بل تجمّعات عسكريّة ما تنفكّ عن الاقتتال. فمجلس قيادة الثورة الذي شُكِّل صبيحة الانقلاب والذي كان دائم التغيير، لم يكن ليُمثّل رأياً واحداً أو حزباً واحداً. فهذا الضابط يمثّل ذاك الحزب، وذاك الضابط يمثّل حزباً آخر. هذا يتعاطف مع دولةٍ ما ويُموَّل من قِبَلها، وذاك من غيرها. ويجمع هؤلاء الفئات من الضبّاط قاسم مشترك واحد وهو أنّهم كلّهم رجعيّون من أبناء العائلات الغنيّة، يناوئون الأحزاب التقدّميّة في البلاد .إلّا أنّ أكرم الحوراني قد أيّد الانفصال وصلاح البيطار أيضاً، وهكذا أيّد الانقلاب الانفصالي الرجعي أقطابُ أشهر حزبٍ تقدّميّ في المنطقة.

بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم

وجيء بالسرّاج إلى سجن المزّة وكذلك بضبّاطه، وبمحمد البيطار أيضاً، فما هو إلّا شهر أو يزيد قليلاً حتى جيء بمعذّبي المرشديّين كي يتلقّوا من العذاب والضرب والإهانة ما كالوه سابقاً للمرشديّين. وكان محمّد البيطار قد تعهّد لبعض المرشديّين أثناء تعذيبهم بإنهاء

المرشديّة خلال مدّةٍ لا تتجاوز الخمسة عشر يوماً، وجاء بعض المرشديّين إليه في السجن كي يطالبوه بإيفاء ما وعدهم به سابقاً، ولكنّهم وللأسف لم يستطيعوا مواجهته لتشدّد السلطات ضدّه. أمّا السرّاج فلا أعلم عنه شيئاً بعد هذا، إلّا أنّني سمعت بعدها بسنةٍ أو سنواتٍ، إنّما أصابه مرض في الدماغ يشبه الصرع وصار لاجئاً في لبنان ثمّ في مصر وانتهى ذكره من يومها.

المعلّم لا يؤيد الانفصال

واتُّهم يومها عبد الناصر من قبل ضبّاط الانفصال بالفساد، وبحكم المخابرات التي وضعت يدها على خِناق الناس، واتُّهم بأنّه ملأ السجون أيضاً. وكان ردّه على هذه الاتّهامات شخصيّاً وعلنيّاً في الإذاعات المصريّة. وقال أن ليس لديه في السجون إلّا عددٌ من الشيوعيّين وبعض المرشديّين. وقد خشي بعض أخوة المعلّم غير الأشقّاء من هذا القول لإثارة الناس ضدّنا .إلّا أنّ المعلّم قال : هذا يُعَدُّ اعترافاً بنا وبوجودنا وبلسان عبد الناصر نفسه زعيم العرب آنذاك.

وتوالت برقيّات التأييد على الانقلابيّين، غير أنّ المعلّم رفض أن يرسل أيّ برقيّة تأييد، فالانفصاليّون هم الرجعيّون أنفسهم الذين كانوا هم الأعداء الرئيسيّون منذ دور سلمان، ولم يكن ينتظر منهم خيراً، وقد أثبتت الأيّام صحّة نظرته هذه. واستطاع المرشديّون زيارة المعلّم في السجن بُعَيد انقلاب الانفصال، فجاءوا أفواجاً لزيارته في المواجهة العموميّة، عشرات ومئات تقف أمام شَبَك الحديد كالعادة دائماً في مجيئهم إليه، حتى أصبح السُّجّان يقولون لهم : (ما في غيركون ليش عم يتطاحشوا !). فقد كانوا يملؤون الساحة أمام غرفة المعلّم والدرج الصاعد إلى الساحة وزوايا كثيرة غيرها في السجن. فكاد يغصّ سجن القلعة بهم على اتّساعه الشهير.

القوتلي يوالي فضح نفسه

وطمع شكري القوتلي أن ينال رئاسة الجمهوريّة للمرّة الثالثة، لأنّ رئاسته كانت قد قُطِعت عند قيام الوحدة. وجاء يعلن ولاءه للانفصاليّين ويذيع من الإذاعة خطاباً مهلهلاً يهاجم فيه عهد الوحدة، وهو الذي كان يمتدحها في خُطبه ويعتبر عبد الناصر زعيم العرب الموعود. ولم ينَل من هذا التهافت شيئاً، بل عاد وقَبَعَ في بيته بعد أن فضح نفسه صراحةً بهذا الخطاب، وعرف الجميع أنّه لا يأبه إلّا لمصلحته الخاصّة غير مُنتمٍ في الحقيقة إلى حزبٍ سواها.

لجنة التحقيق الانفصالية تتجاهل أمرنا

وألّف الانفصاليّون لجنةً للتحقيق مع الموقوفين تعسّفياً كي يُصار إلى إطلاق سراح الأبرياء منهم ـ ولو شاءوا أن يكونوا ديمقراطيّين كما يدّعون لأطلقوا سراح الجميع فوراً وبدون تحقيق، لأنّ سجن هؤلاء كان مخالفةً للدستور والقانون ـ وباشرت اللجنة أعمالها، وجاءت إلينا في السجن، وكان منها ضابطٌ غِرٌّ لا يكاد يفهم شيئاً، والبقيّة مدنيّون، وسُئلنا بأيّ تهمةٍ دخلنا السجن؟. فأجاب المعلّم بلسان الجميع أنّه لم توجّه إلينا أيّة تهمةٍ فعلامَ التحقيق؟!. وهنا انبرى ذلك الضابط المغرور وقال للإمام: إنّ اللجنة هي التي ستوجّه إليكم التهمة، ثمّ تحاكمكم عليها، أي يخترعون تهمةً لنا ويحاكموننا بموجبها، وكان جواباً مضحكاً محزناً معاً، ولكنّه يدلّ على نوعيّة رجالات عهد الانفصال. ولم يسفر تشكيل هذه اللجنة بالنسبة لنا عن أيّ نتيجةٍ. وكان أن تجاهلتنا وتجاهلت وجودنا في آخِر الأمر.

سجن المزّة

وأعلن الانفصاليّون عن قيام انتخاباتٍ ستكون نزيهةً كما ادّعوا، يعيدون بها البلاد إلى حظيرة الديمقراطيّة. ويسلّم بعدها الجيشُ الحكمَ إلى الشعب، وذلك بعد انتخابات النوّاب ورئيس الجمهوريّة وتعيين الوزراء.

وسارع المرشّحون إلى المعلّم في السجن، يحاولون استمالته إليهم كعادتهم في كلّ انتخابات، وعمّت حمّى الانتخابات جميع الناس في سورية لم تستثنِ منهم حتى المرشديّين، وتواطأ بعض المرشّحين في اللاذقيّة مع ضبّاط القيادة في دمشق، وقرّروا نقل المعلّم ورفاقه من سجن القلعة إلى سجن المزّة العسكري الرهيب، حيث لا يُقابلهم أحد، فلا يستطيع المعلّم الاتّصال بالمرشديّين، حيث يُعامَلون بشدّةٍ وقساوةٍ على نمط نظام هذا السجن الشهير، وبذلك يتمكّنون من إيصال من يريدون في مناطقنا إلى مجلس النوّاب دون تمكّن المعلّم من التدخّل.

وفعلاً وبينما نحن نيامٌ وفي حوالى الساعة الثانية ليلاً، قَدِم بعض رجال الدرك إلى غرفتَي السجن اللّتين نشغلهما وطلبوا منّا أن نرتدي ثيابنا وأن نجمع أمتعتنا، ونجهّز أنفسنا للرحيل بأقصى درجات السرعة غير عالمين إلى أين. ولم تأخذ العمليّة إلّا بعض الوقت حتى أصبحنا جاهزين نظراً للإلحاح الشديد من رجال الشرطة الذين كانوا يُعَدّون بالعشرات، ومنهم مَن كان يتعاطف معنا نظراً لمعرفته السابقة بنا ولنيله منّا الطعام وبعض الإكراميّات. ولكنّهم كانوا مأمورين ينفّذون ما يُملى عليهم. اصطففنا في الساحة بناءً على أوامرهم الذين

اثنين، ومشينا إلى مدخل سجن القلعة الرسمي نصعد درجاً وننزل درجاً آخر ونمرّ بباحات السجن على هذه الصورة التي ذكرتها. وهناك فوجئنا برؤية مئات الأنفار من الشرطة تنتظرنا على باب السجن مدجّجين بالأسلحة حيث سلّمتنا الشرطة إلى الجيش، وكان قائد عمليّة الاستلام هذه عميداً من الجيش، ووضعوا بأيدينا قيود الحديد، قيدٌ مشترك بيدَي كلّ اثنين وقُيِّدَ المعلّم مع فاتح، وأصعدونا إلى سيّارتَي شحن والقيود بأيدينا.

وتوجّهت السيّارتان بنا خارج دمشق، ولم نكن نعلم إلى أين نحن ذاهبون حتى وصلت بنا السيّارتان إلى سجن المزّة الذي يقع على رأس رابيةٍ جرداء فوق بلدة المزّة، وجرى التعارف العسكري بين مرافقينا وبين حرّاس سجن المزّة الذين كانوا ينتظروننا هناك، وكان هذا التعارف أشبه شيءٍ بعواء الذئاب كما بدا لي. وأدخلونا إلى السجن وقصّوا شُعُورنا، وكان الضابط الذي يُشرف على هذه العمليّة يحاول أن يسخر منّا ويسأل عن كيفيّة الدخول إلى المرشديّة، ويَعِد أنّه سيستخرج ذلك من صغار السنّ منّا وينظر إليّ وإلى المرشد وعلي حبيب.

أمّا المعلّم فلمّا حلقوا رأسه نظر إلى الشيخ أسعد وإبراهيم علي إبراهيم اللذين لم يكن لهما شعرٌ على رأسيهما، وقال ضاحكاً : (تَشوف خلّيهن يقصّولكن أنتو). ولا أذكر أنّ الخوف بدا على أحدٍ منّا سوى (مغيث المرشد) الذي انهار تماماً فكان يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه.

وفوجئنا عند دخولنا إلى القاووش الكبير بوجود بعض الأشخاص هناك، رجلان أو ثلاثة. عرفنا بعدها أنّهم من الشيوعيّين الذين كان قد مضى عليهم في السجن قرابة الستين أو تزيد بدون محاكمة، وحملنا (فرشاتنا) ووضعناها على أرض القاووش ذات اليمين وذات اليسار، لأنّ القاووش كان عبارة عن قاعة مستطيلة كبيرة جدّاً. تجد على اليمين مصطبةً وعلى اليسار مصطبة أخرى والواحدة منهما بعرض يقارب مترين، وتعلو المصطبتان عن أرض الممرّ مقدار ٦٠ إلى ٧٠ سم، وتمتدّان إلى آخر القاووش لمسافة ٢٠ م تقريباً، أمّا الممرّ الذي يفصل المصطبتين فكان عرضه نحو مترين يزيد أو يقلّ قليلاً.

وفي الصباح عند الساعة السابعة استيقظنا جميعاً على صوت العسكر يصرخون بنا وبالسجناء في القواويش، أن يهبّ الجميع لتناول الشاي، فسارعنا جميعاً إلى الخروج من القاووش الذي فُتح بابه الموصود بالحديد لغرض تناول الشاي صباحاً. وكان العسكر ينهروننا كي نسرع فكنّا شبه راكضين، ووصلنا إلى حيث يجلس أحد العسكر القرفصاء عند برميلٍ ضخم من الشاي، وكان يرافقه عسكريٌّ آخر، أحدهما يصبّ الشاي من هذا البرميل، وكانوا قد أعطونا كؤوساً كبيرة، وكلٌّ منّا كأسه بيده، وكان الكيل الذي بيد العسكري

واسمه (الكفكير) يعبّئ الكأس من صبّةٍ واحدةٍ، ويعود مَن يملأ كأسه مسرعاً إلى القاووش، والمسافة تُقدّرُ بثلاثين متراً أو أكثر. وعندما رجع المعلّم كان يغنّي هازئاً (جنا العروس وجنا) إشارةً إلى كأس الشاي الذي بيده، سمعه إبراهيم علي إبراهيم فأخذ يضحك وطالت ضحكته، ولم تنتهِ رغم تدخّل رفاقه كي ينهوا هذه الضحكة غير المستحبّة في وضع كهذا نظراً لخطورتها. وكان من عادة إبراهيم أنّه عندما يضحك لا يستطيع أن ينهي ضحكته إلّا بعد زمنٍ يسير.

وهكذا عرفنا منذ اليوم الأوّل أنّ المعاملة في سجن المزّة مختلفةٌ جدّاً عمّا اعتدنا عليه في سجن القلعة. وكان أنّ لجنة التحقيق المنوّه عنها سابقاً اتّخذت قاووشنا هذا كمكان تجمّع للذين تريد أن تحقّق معهم، وكان الشيوعيّون يُنقلون من الطابق الثاني بسجن المزّة إلى قاووشنا في الطابق الأوّل، حيث يُطلبون إلى التحقيق حتى غصّ قاووشنا على اتّساعه، وأصبح به في الأيّام الأخيرة أكثر من مائة وخمسين رجلاً على ما أذكر، وهو مخصّصٌ أصلاً لخمسين رجلاً فقط.

وهذا السجن من مخلّفات فرنسا فهي التي بنته أو رمّمته في عهد الانتداب، وكان مخصّصاً لِمَن يرتكب جريمةً أو حماقةً من أفراد الجيش، وكانت فرنسا تستعمله كسجنٍ سياسيٍّ أيضاً بالإضافة إلى كونه سجناً عسكريّاً. واستمرّ هذا العرف مُتّبعاً من قِبل السياسيّين الذين توالوا على حكم البلاد في العهود التي تلت الانتداب.

كنّا نتضاحك من هذه المعاملة التي رأيناها غريبةً ومضحكةً في آنٍ واحد. ويعود كثيرٌ من المواقف المضحكة إلى تصرّف هؤلاء الحرّاس السذّج، وكيف كانوا يأخذون أو يفهمون الأمور. كلمة أحدهم يجب أن تُنفّذ وكأنّها مُنزّلة من السماء تنزيلاً (كما يتصوّرون التنزيل) ولسذاجته يتراجع عنها بصورةٍ سريعةٍ ومضحكةٍ، ليقينه الضمني أنّنا نفوقه معرفةً بآلاف المرّات.

وهذا ما كان يجري مع الشيوعيّين رفاقنا في السجن الذين كانت لهم خبرةٌ طويلة مع هؤلاء السذّج، فكانوا يستطيعون أن يقنعوهم بما أرادوا تقريباً. وكانت صحبة هؤلاء الشيوعيّين رائعةً ومسلّيةً، وكانوا يقدّمون لنا الشاي الممتاز الذي يحضّره للجميع (أبو ندره) وقد سلّم الجميع أنّ ما من أحدٍ يستطيع أن يحضّر الشاي كأبي ندره، فهو صاحب الامتياز في هذا العمل، وهو يفتخر بها. ويشتركون جميعاً في الطعام الآتي إليهم من عائلاتهم خارج السجن فيطبخون ويأكلون سويّةً، وكثيراً من الأحيان يدعوننا إلى وليمتهم، وكانت شهيّةً ولذيذة. أمّا طعام السجناء الذي يأتي به العسكر ظهراً ومساءً، فقد علّمنا الشيوعيّون

هؤلاء أن نرميه في التواليت فوراً كما يفعلون هم، وأخذوا يرمون حصّتهم وحصّتنا فور وصولها، لا يستثنون من ذلك سوى الخبز الذي كان يأتينا على شكل سمّون، والسمّونة ضخمة جداً ويابسة بحيث لو ضربتها بالحائط لعادت إليك سليمةً لا يمسّها أيّ ضرر، أمّا باطنها فكالعجين الذي لم ينضج بعد. وكان هؤلاء الشيوعيّون يقومون بالتناوب بغسيل القاووش وجلي الأواني. رجلان منهم يستلمان هذه الأعمال كلّ يوم، ويقومان بجلي الأواني التي تخصّنا أيضاً كما أذكر، وقد شارك بعضنا بهذه الأعمال. وكان إذا حاول المعلّم المشاركة بالعمل كان الشيوعيون يقومون فوراً بعمله عنه ولا يَدَعونه يعمل مثل هذه الأعمال. ومرّةً سبقوا بها رفاقه الطيّبين بهذا الخصوص أنفسهم أمثال مرشد وعلي حبيب. وكانوا يقومون بالأعمال بدون أن يشعرونا بأيّ حرجٍ (منّيّة) إطلاقاً، بل كانوا دائمي التودّد إلينا ومسايرتنا بشكلٍ طيّب. ومرّةً حدث أنّ أحدهم كان يكفر بالقول مستهزئاً بالدين، فطلب المعلّم من فاتح أن يطلب منهم إيقاف مثل هذه الأقوال لأنّها تجرح مشاعرنا وإن لم تكن موجّهةً إلينا. واستجابوا لهذا الأمر أيّما استجابة ووعدوا أنّ ذاك لن يحدث ثانيةً. وفعلاً وفوا بما وعدوا.

إنّ المعلّم لم يدخل في جدلٍ معهم حول الدين، ولكنّه كان عندما يُقدِم بعض المتطرّفين منهم من غير العقلاء على مهاجمة الدين فكرياً أمامه، أنّه يتصدّى لهذه الأقوال ولا يسكت عليها، وممّا أذكر من كلامه لهم حديثاً بمعنى : ولو اقتسم الناس كلّ مواردهم وإنتاجهم بالتساوي، فما فائدة الحياة بدون معنىً يحيا الإنسان له !!. مشيراً بذلك إلى الدين. أمّا بغير هذا فكان يجاملهم ويسايرهم ويضحك لنكاتهم كما كان يفعل أكثرنا. وكنّا نلعب معهم الشطرنج، والشيوعيّون مشهورون بهذه اللعبة، ولكنّهم ما كانوا يبزّون اللاعبين المهرة منّا، وطاولة الزهر والضامة أيضاً، وكلّ هذه الألعاب كان محظوراً إدخالها إلى السجن إلّا أنّهم صنعوها من صناديق الخشب (سحّارات الخضرة) التي كانت تردهم من عائلاتهم خارج السجن. أمّا أحجار الضامة والشطرنج والطاولة، فيصنعونها من باطن السمّون الذي كان كالعجين، يمضغونه بشكلٍ جيّد ثمّ يخلطونه بالكاز أو بغيره ويصنعونه أحجاراً للشطرنج وللضامة وللطاولة ويتمّ صبغه (بشخار موقد الكاز). وبعض هذه الأعمال كان جميلاً ويعتبر فنّاً، ومنهم مَن أرسل إلى عائلته شطرنجاً للذكرى وذلك لجماله ولإتقان صناعته.

وقد ساعد على خلق هذا الجوّ من المرح واللهو السائد بيننا فرحتهم بخروجهم من السجن بعد سنوات قضوها بالعذاب، فهم كانوا على أهبة الخروج من السجن، تحقّق اللجنة مع بعض أفرادٍ منهم ثمّ تطلق سراحهم. فبعضهم على أهبة الخروج، وبعضهم موعود. وكانت رفقة هؤلاء الشيوعيّين أفضل من رفقة البعض منّا بكثير، فهي أفضل من رفقة شابٌّ متطفّلٍ عصبيّ المزاج بكلّ شيء. وآخر ذلك الآغا الذي يأخذ النكتة على محمل الجدّ، وقد

تخلق عداوة بينه وبين قاتلها، وآخر أيضاً حوّله السجن إلى رجلٍ مزاجيٍّ وعصبيّ، بكّاء يشعر أنّه معذّب، فهو ليس مرشدياً فعلامَ يتحمّل هذا !!. وكان يُظهر تبرّمه من الحالة التي نحن فيها بشكل مثيرٍ للملل. مع أنّ المعلّم كان قد قال لجماعةٍ من إخوته وغيرهم من الذين لم يكونوا مرشديّين أن يكتبوا إلى المسؤولين أنّهم ليسوا مرشديّين، فيُفرَج عنهم. وقد أخبرهم أنّهم لن يستطيعوا أن يتحمّلوا ما يجري على معتنقي المرشديّة وهم لا يعتنقونها.

ويحدّثنا الشيوعيّون عن المفارقات التي جرت معهم أثناء سجنهم الطويل طيلة زمان الوحدة تقريباً، يصفون حياتنا في السجن ذلك الوقت كجنّةٍ بالنسبة لما لاقوه أيّام الوحدة. وكانوا جميعهم تقريباً مثقّفين، منهم مَن حاز على درجةٍ جامعيّةٍ في دمشق ومنهم مَن أكمل دراسته خارج القطر، ومنهم مَن ثقّف نفسه في السجن مستغلاً فترة سجنه الطويلة ليجني بعض الثقافة، يدرس على يدي رفاقه الذين كانوا أساتذةً فعلاً.

وما أعاد الحكّامُ المعلّم ورفاقه إلى سجن القلعة إلّا بعد أن انتهت الانتخابات. ورجع الوضع في القلعة إلى ما كان عليه قبل الذهاب منها، فالمعلّم وأخواه في الغرفة التي كانوا فيها قبلاً، والباقون في الشكيّة. أمّا المدّة التي قضاها هو ورفاقه في سجن المزّة فكانت شهراً كاملاً وذلك من حوالى منتصف تشرين الثاني إلى حوالى منتصف كانون الأوّل سنة ١٩٦١.

الإضراب والخروج من السجن

ظهر جليّاً أنّ الحكومة الانفصاليّة لا تريد إطلاق سراحنا أبداً، وقد توفّي أحدنا وهو الشيخ أسعد يوسف ناصر نتيجةً لمرضه من جهة ونتيجة للعناية غير الشريفة التي كان يتلقّاها في مشفى الدولة للسجناء حتى أنّهم كانوا يقيّدونه وهو على السرير رغم مرضه وإشرافه على الموت، وكانت حكومة الانفصال مؤيَّدَةً في ذلك من جميع القوى السياسيّة المسيطرة في البلاد. فجميع الرجعيّين لا يريدون أن يعلو اسم سلمان بل يريدون أن يطمسوه، وإمام المرشديّين في السجن وإخوته ووجهاؤهم - كما كانوا يحسبونهم - فعلامَ يطلقون سراحهم ولو ماتوا جميعاً !. وفي هذا الجوّ المشحون بالتوتّر، أعلن المعلّم الإضراب عن الطعام حتى الموت أو نخرج من السجن، وسمع المرشديّون بهذا الإضراب فما بقي رجل أو امرأة أو حتى طفل ابن عشرة أعوام إلّا واشترك بالإضراب وكانوا يرسلون البرقيّات معلنين إضرابهم إلى كلّ الجهات المسؤولة. وامتنع الجميع فعلاً عن تناول الطعام.

وفي اليوم الرابع من الإضراب جاءت سيّارات الشرطة مساءً إلى السجن، ونقلت المعلّم ورفاقه إلى بيت أمّ خليل في القصاع (المذكور سابقاً)، ووُضِعت عناصر من المباحث في غرفةٍ من البيت. وأوقف المعلّم الإضراب فوراً مساء ذلك اليوم، وأرسل إلى كافّة أنحاء المرشديّين خبراً بذلك، وسرعان ما انتشر هذا الخبر خبر خروج المعلّم وانهاء الإضراب في كلّ أنحاء المرشديّين، فقد انتشر بالسرعة التي انتشر بها خبر الإضراب قبلها. وقد انتهى الإضراب وخرجنا من السجن في ٢١ كانون أوّل سنة ١٩٦١. ولكنّ المعلّم لم يوقف صيامه حتى تأكّد أنّ الخبر وصل إلى كافّة أنحاء المرشديّين. وهكذا وللمرّة الأولى أو الثانية (إذا احتسبنا ضرب المفسدين أيّام السجن الأولى) يكون بها نصر المعلّم على يد جماعته.

لقد أُجبِرَت الحكومة الانفصاليّة على إطلاق سراحه قسراً، فهي كانت بين أمرين: بين أن تسمح بموت شعبٍ بكامله جوعاً، وبين أن تطلق سراح المعلّم. ففضّلت الثانية مرغمةً لأنّ المرشديّين كانوا قد نشروا الخبر في كلّ سورية، كتبته الجرائد، وقابلوا ناظم القدسي رئيس الجمهوريّة آنذاك ورئيس الوزراء وكلّ المسؤولين يُعلمونهم بالإضراب، وما هي إلّا أيّام وينتشر هذا الخبر خارج البلاد، عشيرةٌ كاملةٌ تعلن إضرابها في سورية وكانت جريدة أو أكثر كتبت أنّ ستّين قريةً أضربت عن الطعام في سورية (وهذا العدد أقلّ بكثير من الواقع) وكانت الحكومة الانفصاليّة حكومةً مضعضعةً لا تكاد تقوى على الوقوف لنفسها، وبذلك لم يكن للمسؤولين ثمّة خيار سوى أن يطلقوا سراح المعلّم ومن معه، أو يخرجوه من السجن إلى الإقامة الإجباريّة على الأقلّ، وهذا ما فعلوه.

ولكنّ المعلّم أوقف الإضراب حرصاً منه على أتباعه المتكاتِفين معه، فإنّ المرشديّين كانوا قد أخذوا الإضراب على محمل الجدّ الذي لا تَراجُعَ معه كعاداتهم لدى وقفاتهم معه. وامرأةٌ أو امرأتان من نساء المرشديّين قد أجهضتا نظراً لصيامهما، ولم يرضَ المعلّم بهذا الأمر، وكان قد أوصى أنّه لا يصحّ للحوامل أن يُضْرِبْنَ عن الطعام ولا للمرضعات ولا للأطفال. إلّا أنّ أكثر الحوامل إنْ لم يكنّ جميعهنّ امْتَنَعْنَ عن الطعام، فالواحدة منهنّ لا تستطيع أن تقبل أن تأكل وحدها وأقرباؤها وجيرانها كلّهم صائمون. ومن الغنيّ عن التعريف أنّ ساجي كان يعلم ما يسبّبه الصيام من وهنٍ ومرضٍ لدى الصائمين خاصّةً أنّ المرشديّين فقراء، وأن كثيراً من رجالهم فَعَلَة وفلّاحون عليهم أنْ يعملوا يوميّاً ليُقيتوا أنفسهم وعائلاتهم، فكيف يستطيعون الاستمرار في الصيام؟. فلم يكن هنالك بدٌّ من إيقاف الإضراب، خاصّةً وقد أُرغِمت الحكومة على إخراج السجناء من السجن وكسبنا القضيّة.

الحجز والانفصال

وسكنّا بعد الخروج من السجن في بيت أمّ خليل ـ الذي كان يسكن فيه فاتح والذي استأجرناه بعد أن غادرنا المأمونيّة منذ أواخر سنة ١٩٥٥ ـ مع الأخوة وباقي الرفاق، واستقلّ المعلّم وشقيقاه الغرفة الصغيرة في البيت.

واستأنف سميع المرشد إرسال الاستدعاءات التي كان قد بدأها في السجن، منها بمفرده ومنها بتوقيع بعض السجناء من إخوته، يعلنون بها أنّهم غير مرشديّين ويطالبون بالإفراج عنهم لأجل ذلك. وأطلقت الحكومة سراحهم جميعاً مرشديّين وغير مرشديّين. كان المعلّم قد قال ـ كما ذكرنا سابقاً ـ لمن ليس مرشدياً من الأخوة أو غيرهم منذ زمن أن يُعلِم السلطات أنّه ليس مرشدياً فتتوقّف ملاحقته. وقد أخبرهم أنّهم لن يستطيعوا أن يتحمّلوا ما يجري على المرشديّين وهم ليسوا مرشديّين[1]. والباقون من الرفاق وهم علي حبيب ويوسف محمود وإبراهيم وراجح فقد نَفَتْهم الحكومة إلى دير الزور وألحقوا بهم صافي خرفان.

وبقينا ـ الأشقّاء الثلاثة ـ وحدنا في بيت أمّ خليل، والمعلّم طبعاً لم يَضِقْ ذرعاً بإخوته غير الأشقّاء لما فعلوا، بل كان يستقبلهم عندما يزورونه وكأنّ شيئاً لم يكن بل ويساعدهم ماديّاً المرشديّين منهم وغير المرشديّين سواء.

مرض المعلّم مرضاً شديداً شخّصه الأطبّاء أنّه روماتيزم بالعظام ودخل إلى المشفى عدّة أيّام، ونصحوه أن ينتقل من البيت نظراً لرطوبته فاستأجر بيتاً بالمالكي بدلاً عنه. وفي البيت الجديد لم يَعُد يستطيع أن يزورنا أحد سوى إخوتنا. وبقينا في الحجز بعد ذلك سبعة أشهرٍ، ثمّ سُمح لنا بالخروج من البيت تحت المراقبة من بعيد، ودائماً كان البيت مراقباً بشكلٍ سافرٍ.

المعاناة في عهد الانفصال

لقد ابتدأت المعاناة في عهد الانفصال منذ قيامه، وذلك عندما رفض المسؤولون في الانفصال أن يطلقوا سراح المعلّم ورفاقه من السجن، ثمّ نقلوهم إلى سجن المزّة كي يبعدوا المعلّم عن جوّ الانتخابات.

وقد تمثّلت أشدّ مجابهةٍ قام بها المرشديّون ضدّ عهد الانفصال بالإضراب الذي أعلنوه، وتسبّب هذا الإضراب بخروج المعلّم ورفاقه من السجن غصباً. ولكنّهم احتفظوا بنا الثلاثة كرهينةٍ لديهم طيلة حكمهم تقريباً، وذلك بواسطة الحجز في البيت، ذلك الحجز الذي فرضوه علينا تسعة أشهرٍ يحظّر خروجنا من البيت. وكان بعد انتهاء الحجز أن بقيت الإقامة

---

(١) إنّ جميع الأخوة غير المرشديّين رجعوا تباعاً إلى الصفّ المرشديّ بعد هذا بزمن بعيد.

الإجاريّة مفروضةً على ساجي وفاتح في دمشق، وبقي البيت مراقباً بشكلٍ يوميّ. أمّا بشأن المرشديّين ككلّ فقد أكمل عهد الانفصال ما كان عهد الوحدة والعهود السابقة له قد باشروه ضدّ المرشديّين من حكم كلّ مَنْ يُدان باعتناق المرشديّة بالسجن ستّة أشهرٍ وصاعداً، وبالطرد من الجيش أي بالتسريح التعسّفي، وعدم قبول المرشديّين في الوظائف العامّة للدولة أو في الجيش.

وأصبحت التهمة الموجّهة للمرشديّين أنّهم ناصريّون، كما اتُّهموا بالشيوعيّة أيّام الوحدة، وبالانتماء إلى حزب القوميّين السوريّين زمن فاعليّة أكرم الحوراني ورفاقه، فكلّ عهدٍ كان يتّهمنا بالتعاون مع أعدائه، وما كانت جريمتنا الحقيقيّة عندهم إلّا أنّنا رفضنا أن نُستعبد لهم فكرهوا دعوتنا كرهاً يكاد لا يتصوّره العقل.

إنّ زمن الانفصال رجع بنا إلى أجواء زمن الشيشكلي من حيث الإقامة الجبريّة في دمشق على المعلّم وفاتح، ومن حيث أنّه بتْنا لا يمثّلنا أحدٌ في الدولة، ولا نعرف أيّ مسؤولٍ منهم، على عكس عهد الوحدة وعهد تجمّع الأحزاب قبلها.

ونظراً لانشغال الانفصاليّين بعضهم البعض في نزاعاتهم الدائمة حول السلطة وتكالبهم عليها، فلم تسنَّ لهم فرصةٌ كي يقوموا بهجومٍ عامٍّ على المرشديّين بقصد إنهائهم كما فعلوا أيّام مرشتي.

الانفصال يحقّق في مساعدة ساجي لجماعته

كانت الأوضاع السياسيّة في البلاد آنذاك غير مستقرّة. فانقلاب يتلوه انقلاب. ولا أجد نفسي بحاجةٍ لأذكر شيئاً من هذه الصراعات السياسيّة زمن الانفصال، لبعدها عن قضيّتنا ولتفاهتها، إلّا أنّ الجميع كان موقفهم منّا سلبيّاً. وأقصد بالجميع هنا أولئك الضبّاط الذين كانوا يتناوبون على السلطة، أو يتشاركون بها أحياناً لمدةٍ قصيرةٍ قد تمتدّ إلى أشهرٍ وقد تقصر إلى أيّام. وأيضاً وزراء تلك الفترة وموظّفوها بادرونا العداء.

وإليك هذه الرواية التي تصوّر إلى حدّ ما بُعدَ أفكار الانفصال عن حقيقة المعتقد المرشدي :

كان أنّ الأموال التي جاءت إلى المعلّم في السجن من المرشديّين كمساعدةٍ، أنّها فاضت عن الحاجة. فأرسل إلى محمّد يوسف ناصر، وطلب منه أن يأخذ هذه الأموال لمساعدة الطلّاب المرشديّين الذين يدرسون الثانويّة في مدارس اللاذقيّة وغيرها من البلدات التي بها ثانويّات يدرس بها طلّاب مرشديّون، وذلك نظراً لضيق يد أهاليهم عن إمدادهم بالمال المترتّب عليهم، نظراً لإقامتهم في اللاذقيّة أو غيرها.

وقد توالت مساعدة هؤلاء الشبّان لسنوات، وسمع بها المسؤولون، وظنّوا أنّ المعلّم قد أتى بالمال من عبد الناصر الذي كان يحاول إعادة سورية إليه. وقد استُدعي المعلّم إلى الشعبة السياسيّة للتحقيق معه بهذا الخصوص وأجاب بالصحيح. وطُلِب محمّد يوسف أيضاً إلى الأمن السياسي في اللاذقيّة ووجّهت إليه هذه الأسئلة :

س ـ هل صحيح أنّ ساجي كلّفك بدفع أقساط المدارس عن أولاد جماعتكم؟

ج ـ نعم صحيح وفي كلّ عام أسجّل أكثر من أربعين طالباً، إعدادي وثانوي.

س ـ وما هي الغاية من هذا العمل؟

ج ـ إنّ الفقراء من جماعتنا لا يتمكّنون من دفع أقساط تعليم أولادهم وتحمّل أعباء وجودهم في المدينة، والدولة لم تبنِ في قرانا مدارس إعداديّة أو ثانويّة.

س ـ وما هي غاية ساجي من هذا العمل وما هدفه؟

ج ـ الغاية هي فقط تثقيف أبناء عشيرته، وحرصه على مصلحتهم ورفع مستواهم.

الحكومات المتعاقبة تأبى ان تقيم مدارس في المناطق المرشديّة

كان المسؤول الذي يَعتبر نفسه صافاً مع المرشديّين، أو الذي يُعتبر أنّه متعاطف مع قضيّتهم، هو الذي يقول بالتعليم وفتح المدارس لأبناء المرشديّين. فبالتعليم وحده يمكن القضاء على هذه البدعة كما أسموها. فكان محور تفكير الأطراف جميعها التي ضدّنا والتي معنا هو القضاء على الدعوة الجديدة التي لم يتبيّنوا كنهها ولم يسألوا عنها فلقد حكموا على دعوتنا بالإعدام غيابياً قبل أن يتعرّفوا عليها، ولكنّ القدر لم ينفّذ حكمهم وما كانت أحكامهم إلّا كلمات ببغائيّة اعتادوا على ترديدها منذ صيحة سلمان الأولى ـ ورغم تشدّق المسؤولين بتعليم المرشديّين إلّا أنّه لم تفتتح الحكومات المتعاقبة مدرسةً إعداديّةً في جميع المناطق المرشديّة حتى السبعينات ـ فهم برأيهم أنّ المرشديّين مُستغَلّون من قبل ساجي كما كانوا مستغَلّين من قبل سلمان ومجيب. ونَسُوا بل تناسوا أنّ سلمان قُتِل لأجل قومه، وشُرّد وسُجِنَ أبناؤه لهذا السبب، سلّم نفسه إلى جلّاديه، عالماً بما سيحدث لشعبه من تقتيلٍ وتعذيبٍ لا يمكن احتماله إذا اختفى مع أولاده أو هرب إلى مكانٍ ما كلبنان مثلاً. فهذا أمرٌ كان من البعد بحضرة سلمان حتى أنّه لم يُذكر أثناء المناقشات في كيفيّة حلّ المشكلة القائمة مع الحكومة آنذاك. ومُجيب جاء واصفاً مقتله مُحدّداً أيّامه. وساجي كان قد وهب حياته لهذه الدعوة ولشعبه المدعو إليها، فبات لا يحيا على الأرض إلّا لأجلها، ولا يُفكّر إلّا بمقتضاها معرّضاً نفسه للقتل في كلّ لحظةٍ فاتحاً باب بيته على مصراعيه لكلّ المرشديّين أثناء العذاب والتهديد.

القسم الرابع

اقتـــلاع الأشـــواك

إعلان المعرفة الجديدة إلى كلّ المرشديّين

إنّ مَيْل الإنسان الفطريّ إلى الكسل هو الذي يقعد به عن اتّباع رضوان اللّه، ويدعوه إلى اختراع مبرّرات تجيز له ممارسة الآثام بما فيها من ظلم وطغيانٍ، واضطهاد من هو أضعف منه في المجتمع، مبتعداً عن الضمير الطاهر الذي أنزَله اللّه به، فكان أنْ وصل في آخر الأمر إلى الإلحاد، وبذلك تخلّص من الضمير الذي كان يتأبّى عليه سلوك طريق الشرور، وبموت الضمير فقد القوّة الروحيّة الوحيدة التي بواسطتها وحدها يستطيع الإنسان الخلاص من عالم الموت الذي يحيا به.

إنّ السيرة التي دعا اللّه إليها الناس في كلّ الرسائل هي واحدةٌ في مبدئها وجوهرها، تتجلّى في الصدق، ونبذ الأحقاد، والانتصار إلى الحقّ، وترويض النفس إلى أن تصبح مجبولةً بالخير مكوّنةً منه، فتحبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، ولا تستعلي على الناس، ولا تأمرهم إلّا بما أمر اللّه به من فعل الخير، وهي أيضاً الدعوة إلى تخفيف الشهوات الجسديّة وحدّة الأطماع النفسيّة كي لا تزلقك في مزالق الشرّ الوخيمة، هي عدم الخداع والرياء لنيل المكاسب، هي الجرأة في الحقّ وعدم الخضوع لأيٍّ كان أو الائتمار بأمره إن كان بهذا الأمر معصية اللّه، هي في عدم الظلم، وانكسار النفس أمام الحقّ ولو كان عليك أو على ذويك، هي في التطلّعات العليا إلى معرفة اللّه والتوجّه للتسامي إلى الحياة السامية، هي في الاتّكال على اللّه في كلّ مرضٍ وخوف، ففي الآخرة التي وعد بها اللّه الثواب والنعم والحياة المتدرّجة في التسامي الأبدي التي لا يعلم مدى رفعتها إلّا اللّه خالقها، فما أنت كمؤمن إلّا مسافرٌ في هذه الدنيا، عابرٌ إلى دنيا المجد، وطريق عبورك صراط اللّه الذي وضعه لكلّ شعبٍ وأمّةٍ، وما اختاره إلّا الصادقون.

انتصر ساجي وأتباعه في الحرب الخارجيّة، واعترف أعداؤهم بوجودهم، وأوقفوا محاربتهم وألقوا السلاح، واستحقّ المرشديّون أن يتعلّموا المعرفة الجديدة فهم لن يضيعوها الآن، بعد أن تعمّدت قلوب أفرادهم بماء الإيمان الذي شربوه بكأس العذاب والاضطهاد، وذلك في مجرى دور العذاب الطويل والاضطهاد شبه الدائم، وبعد أنسام القوّة التي كانت تهبّ من ساجي حيناً بعد حين، فتلقى استجابةً في أنفس الطاهرين.

الحقّ أن نجهر بما نؤمن به ولا نستر العقيدة بل نفخر بها أمام العالمين، والحقّ أن نقاطع

الحاكم الجبار رغم سلطانه ونفوذه ذلك الذي اغتال النفس الزكيّة، والحقّ يوم اجتمعت الأحزاب علينا يوم مرشتي أن نسكر في هذه الفرحة، فقد أخضع الله شجرة الحياة لنا بهذا العذاب وبهذا الصدام الجبّار غير المتكافئ، والحقّ أن نضرب المفسدين وأن نقاطعهم ونقلب الذلّ الذي أرادوه لنا إلى عزٍّ وفخرٍ حيث أصبح الفرد المرشديّ هو الأقوى، والحقّ أن نتفرّد بالأخلاق العظيمة تدلّ علينا وتشير إلينا في كلّ مكانٍ نكون فيه، والحقّ أن يضحّي أفرادنا عند الضرورة بمعيشتهم ولقمة عيشهم في سبيل عزّتهم التي لا تخضع لأيِّ كان مهما علا في هذه الأرض وتجبّر، والحقّ أن ننصر بعضنا ويُساعد بعضنا البعض وأن نؤمّ السجون بالهدايا وأن نعتني بأملاك سجنائنا، فكأنّ مجيب مازال في السجن، والمرشديّون مازالوا يؤمّون السجن في زياراتٍ يقدّمون له بها الهدايا، وهو مازال يمازحهم من خلف قضبان الحديد. فزيارة السجين الذي سار على خُطى مجيب زيارة لمجيب نفسه.

والحقّ أن يدخل المعلّم السجن، يشارك أتباعه تلك الوليمة الدسمة التي جاءت بها طيور السماء وأقدار العزّة، والحقّ أن يلاقي ما لاقى متبعوه باتّباعه وأن يركض مع السجناء في المزّة، وأن يناله من نظرات الشرّ والكره ما نال أفراد قومه أيضاً، والحقّ أن ينادي من غياهب السجون ويصرخ بالمرشديّين أن يتصدّوا لأعداء المعتقد كما صرخ خارج السجن من قبل، فرغم كونه بالسجن ما تغيّرت شدّة صرخته، بل زادت عنفاً. والحقّ أن ينصر المؤمنون إمامهم ولا يخذلونه بسجنه، وأنْ يُعلنوا الإضراب حتى يخرج من السجن.

كلّ تلك الأفعال كانت أنساماً من القوّة وعاصفةً من الطهر استحدثها ساجي بأتباعه استحداثاً، وبعثها بهم بعثاً، وروّضهم بها ترويضاً.

إنّ المعلّم في فترة ١٩٥٢ ـ ١٩٦٣ أتمّ انتخاب أتباعه وتميّزهم بوقفة الصدق أمام الناس، وباشر بعدها في تعليم المعرفة الجديدة التي جاء بها مجيب وكان عليه قبل أن يباشر بتعليمها أن يقتلع أشواكاً في معرفة الحياة والدين نبتت من عصور ماضية وهي الأشواك والأوهام التي تنبت دائماً حول شجرة الحقيقة.

إنّ كمال العمل ببقائه، فكلّ ما فعل المعلّم في أتباعه كان سيذهب سدًى، لولا أن يتبنّى تعليم المعرفة طريقاً لهم فهي حفظٌ يحفظ به المؤمن نفسه من غائلة الأيّام وتتابعها، فافتتح درب العلم ودرب الإدراك.

إنّ العلم هو (سيف قاطع) ولا يأخذنك بعده وهْمٌ من فكر، ولا تحيد بك بعده عن درب الحقيقة الظنون، والعلم هو (نور لامع) فلا تُستَّر دونك الحقيقة بعده، ولا يحجبها

ضعف الفكر البشريّ وران القلوب ومزاجيّة الطبيعة الإنسانيّة المتقلّبة، فالمنظار الذي على عينيك هو منظار الحقيقة، وبتّ ترى الأمور على حقيقتها، وتعلم صحّة المساق في معرفة الحكمة الإلٰهيّة سائقة العالمين إلى الكمال وإلى الخلود. والفوز الكامل لا يتمّ إلّا بعلم الحقيقة فعلمك سرّ شعورك، وشعورك حقيقتك، فأنت وما تعلم. وبعد أن تدرك الأمر، أيّ أمر، لا تخطئ به ولا تضيع عنه.

إنّ قيامة مجيب هي المعرفة معرفة الحياة معرفة الصدق والمنجاة وقبل كل شيء تنزيه الله التنزيه الكامل والإيمان بيده القادرة، والعلم هو أعظم النّعم التي أنعم بها الله على الناس في هذه الدنيا منذ مبتداها.

ففي العلم قهر العلل، وبه يستطيع الإنسان أن يتّبع ما أمر الله به، وأن يسلك طريق الهدى والاستقامة تلك الطريق التي تؤدّي بصاحبها إلى الحياة الأزليّة دائمة التسامي. فإن كنتَ ما تزال جاهلاً معاني الحكمة الإلٰهيّة ومرادها في أمور الحياة فكيف تستقيم لما تأمرك به، فأنت لن تفعل إلّا بعد الاقتناع فكيف يستطيع الإنسان أن ينزع الشرّ الذي في قلبه إذا أمره آمرٌ بذلك؟ كلّا، لا يستطيع، بل يفعل عندما يعلم ويتيقن بالخبرة من نفسه ومن غيره أيّ مساقٍ يأخذه إليه الشرّ، ولن يتيقّن إلّا بعد الاختبار، أي بعد اقتناعه بطريق الهدى واختباره لهذا الطريق بتكامل الإيمان به والشعور بصحّة قول الله فينضوي له ويُسرّ به.

وكان المعلّم قد قال لشعبه أنّه عندما يبدأ درب العلم سوف ينحسر العذاب ليترك مجالاً للتعليم، فالعذاب والاضطهاد يعطيك مجالاً لاكتمال شعورك بالانتماء إلى دعوة مجيب. أمّا تعلّم المعرفة فلا يستوجب العذاب أو الاضطهاد، فقد أصبح درج ارتقائك بما استنرت من نور وبما تعمل من صلاح، وميدان العمل بما تتعلّم مفتوحٌ لك على مصراعيه، فهو بينك وبين نفسك وبين أهلك وأقربائك والعالم الذي تعيش فيه.

وكان أعظم مانع دون هذا العلم هو ما توارثته الأجيال من أقوال ومعتقدات راسخة بعقول الناس بمعظمها غير صحيحة إنّما هي تقوّلات أنِسَ لها البشر لضعفهم عن السير في طريق الهدى تكاثفت عبر التاريخ منذ الزمن الأوّل، طفيليّاتٌ تنمو حول شجرة الحقيقة وتكبر وتتزايد إلى أن تحجب شجرة الحقيقة نفسها.

فكان على المعلّم أن يهدم ما أقام الناس على مرّ الأيام وتوالي السنين من سدود تحجب الإنسان عن الحقيقة قبل أن يشيّد مكانها بنيانه الجديد. وأن يقتلع جذور الشجر الطفيلي سريعة النمو فترةً بعد فترة بانتظار نموّ ما يزرعه في القلوب من بذور أشجار الخير.

جاء ساجي وبيده فأسٌ يهوي بها على جذوع تلك الأشجار الطفيليّة ويقتلع جذورها، فأسٌ يهدم بها الدُّور الفكريّة ـ الأفكار المغلوطة ـ المشادة بشكل خاطئ منذ عصور بعيدة، ليبني بيته الجديد.

وقبل أن أخوض في سيرة المعلّم في الفترة الثانية وأذكر من أفعاله بها، أحبّ أن أتحدّث ولو بشكلٍ مقتضب عن تلك الطفيليّات والسلبيّات التي هاجمت شعوباً وفتكت بضمائرَ، فهي تفعل بالضمير ما تفعله الأوبئة بالجسد السليم، وهي كلّها تحاول أن تختصر طريق الهدى إلى الجنّة، فتوهمك أنّك تنال الخلود بكلمةٍ تردّدها ترديد الببغاء، أو بلمسة قبر!. فما فائدة طريق الهدى والسيرة الصالحة إذاً؟!. فأنت وصلتَ دون تعب ولا حاجة لك بالفضيلة، وما عليك أن تخفّف شهواتك الجسديّة أو أطماعك، ولا أن تكفّ نوازع الشرّ الخبيثة التي احتوتها النفس الإنسانيّة، فأنت بهذه التخيلات تغادر طريق الهدى إلى طرقٍ متعرّجةٍ يتمثّل بها الجهل أيّ تمثيل.

إنّ نموّ هذه الطفيليّات في المرشديّين كانت قد خفّفت من حدّته في الفترة الأولى رسائلُ المعلّم والتذكير الذي أرسله من لبنان. أمّا بعدها فقد جاء واضعاً الفأس على أصل الجذوع. وبدأ الإنسان المرشديّ في المرحلة الثانية يتعلّم شيئاً عن الحكمة الإلٰهيّة، يتعلّم عن الخالق الذي بيّن إرادته للإنسان واصطفاه، ويتعلّم عن نفسه من هو، وكيف كان، وكيف أصبح، وكيف يعود.

وما أشبه دخول المرشديّين إلى جلسات التعليم بدخول الطفل إلى الصفّ الأوّل في المدرسة، بعد أن اجتاز مرحلة الطفولة المبكّرة ودار الحضانة، فهو علاوةً على تعليمه الأحرف الأولى والأرقام، يتعلّم أيضاً ما يجب عليه أن لا يفعله، فعليه أن لا يكسّر الأغراض ذات القيمة وأن لا يرمي بها، وأن لا يوسّخ ثيابه، وأن لا يخاصم رفاقه، وأن يحتمل الوقت فلا يبكي ولا يصرخ.

ثمّ جاءت ظاهرة أخرى من ظاهرات جرأة المعلّم وذلك عندما فتح جبّة المرشديّين إلى بيته في منطقة ركن الدين[1] في دمشق بل ودعاهم أن يأتوا إليه، وبدأ للمرّة الأولى يحدّث عامّة المرشديّين بحديث المعرفة الجديدة التي جاء بها مجيب، وذلك رغم الإقامة الإجباريّة المفروضة عليه وعلى فاتح في دمشق، وتمّ هذا بُعيد انتهاء الحجز ورغم مراقبة رجال التحرّي لبيته ليلاً ونهاراً، ورغم أنّ الاجتماعات كانت محظورة، ولم يكن هنالك أحدٌ في

(١) بيت ركن الدين كان قد انتقل إليه المعلّم غبّ انفكاك الحجز ودعا المرشديّين إليه فور الانتقال إليه.

البلاد يجرؤ على إقامة أيّ اجتماع ولو كان صغيراً، فكيف بالاجتماعات التي حدثت في بيت المعلّم بعد فتحه أبوابه ودعوته المرشديّين إليه ؟!.

أمّ المرشديّون بيته، فكنت ترى مئاتٍ منهم يتسابقون إلى البيت عشرات تتلو عشرات في شارع المزرعة الصاعد إلى بيته في ركن الدين والذي كان قد انتقل إليه حديثاً، باصات لا تجد مواقف كافيةً لتصفّ بجوار البيت، وكان المعلّم يتكلّم دائماً في مثل هذه الجيئات وفي الجلسات الخاصّة عن المعرفة الجديدة السامية عن اللّه وحكمته بالخلق، وبالتالي عن صفاء النظرة إلى الخير والناس، وعن التدرّج بالسموّ الروحاني والخُلقي، تلك المعرفة التي افتتحها مجيب.

وأظنّ أنّ هذه الجيئة قد سبقت ثورة الثامن من آذار الشهيرة بخمسة عشر يوماً أو تزيد، وأُوقِفت قبل يومٍ واحدٍ من حدوث الثورة. واستبشرنا خيراً بهذه الثورة لأنّها أراحتنا من حكم الانفصالً البغيض المتذبذب، ولأوّل مرّةٍ يرسل المعلّم رسالة تأييدٍ رغم تعدّد الانقلابات الماضية.

موقف ثورة آذار من المرشديّين

إنّ كثيراً من القادة الذين قاموا بثورة / ٨ / آذار عام ١٩٦٣ لم يكونوا من البعثيّين كاللّواء زياد الحريري، وهو أبرز الضبّاط من صانعي الثورة. ولكنّ قوّة البعثيّين كانت تكمن في الضبّاط الصغار وخاصّةً الفقراء منهم الذين كانوا قد انخرطوا بأجمعهم تقريباً في حزب البعث، وكانوا قد تواجدوا في الجيش بشكلٍ كبير، وكانوا نشيطين تملؤهم العزيمة والتصميم.

وشُكّل مجلس قيادة الثورة، وكانت أسماء أعضائه سرّيّةً في البداية لا يطّلع عليها إلّا المسؤولون في البلاد. وقد عُيِّنَ فيه اللّواء زياد الحريري وبعض الضبّاط الموالين له وكان يرأسه الفريق لؤي الأتاسي، وعُيِّنَ من البعثيّين الرائد حافظ الأسد والمقدّم صلاح جديد والعقيد محمّد عمران وغيرهم. وعُيِّنَ فيه قوّاد البعث من المدنيّين كميشيل عفلق (مؤسّس الحزب) ورفيقه صلاح البيطار وغيرهما.

وجُنّت مصر والعراق سروراً بهذا الخبر، وأعلنتا تأييدهما له، واستعدادهما لمساعدة الثوّار في دمشق بكلّ أمر. فقد سبقت ثورةُ البعث في العراق ثورةَ البعث في سورية بحوالى الشهر. وجاء رجال الثورة العراقيّة إلى دمشق يهنّئون رفاقهم البعثيّين في سورية. وأعلن أحدهم وهو علي صالح السعدي احتجاجه على الثوّار السوريّين، لأنّه لم يجد دماءً في الشارع السوريّ بُعيد الثورة، على عكس ما كان قد جرى في العراق. وكلمته يومها مشهورة وهي (ما كو دم، ما كو ثورة).

وعرض البعث في سوريّة إعادة الوحدة مع مصر تلك الوحدة التي فُصمت في عهد الانفصال، واجتمع أقطاب البعث من الدولتين بعبد الناصر ورجاله في القاهرة لأجل تحقيق وحدة ثلاثية تجمع مصر وسورية والعراق، وتوالت تلك الاجتماعات وطال أمدها، وما أسفرت عن أيّة نتيجةٍ إيجابيّةٍ. فعبد الناصر يريد حكماً فرديّاً، والبعثيّون يرفضون أن يدفعوا ببلادهم ليد عبد الناصر. فكان الوصول إلى اتّفاقٍ أمراً مستحيلاً. وهم يحذرون أن يقعوا بخطيئة أكرم الحوراني مرّةً ثانية الذي كان قد أصبح في عهد الوحدة ألعوبة بيدَي عبد الناصر يضعها حيث يشاء.

وكان في بادئ الأمر أنّ المسؤولين من الدول الثلاث أعلنوا عن قيام اتّحادٍ ثلاثي بينهم،

وغُيّرت الأعلام في البلدان الثلاثة كنتيجةٍ لذلك. وبهذا تغيّر العلم السوريّ والمصريّ للمرّة الثالثة. فمِن علم الاستقلال، إلى علم الوحدة، إلى هذا العلم الجديد.

وأثناء تلك الاجتماعات وفي شهر تّموز من تلك السنة حرّك عبد الناصر جماعته في الجيش السوريّ ضدّ البعثيّين وذلك إثر تسريح البعثيين لبعض الضباط الناصريّين من الجيش بينما أكثر المسؤولين البعثيّين عند عبد الناصر يتباحثون بشأن الوحدة. وكادت هذه الحركة أن تنجح في بادئ الأمر، إلّا أنّ البعثيّين سرعان ما تغلّبوا على خصومهم. وكان أمين الحافظ وزيراً للداخليّة ونائباً للحاكم العرفي (الحكم العرفي أُعلن بُعيد ثورة ٨ آذار). وهو الذي قاد بشكلٍ علنيّ محاربة الناصريّين القائمين ضدّ الحكم، وكان يعلن جلاءً في الإذاعة عن الإعدامات بين صفوف ضبّاط الصفّ والأفراد في الجيش أثناء القتال في الشوارع. كان يُعلن الحكم بعد تنفيذه فيقول: حُكم على فلانٍ بالموت، ونُفّذ الحكم فوراً. مّما أرعب القائمين ضدّ البعث. فقد كان هذا الرجل سفّاحاً وجباناً بوقت واحد.

واستتبّ الأمر أخيراً للبعثيّين، وأقالوا الحريري وجماعته، ولم يبقَ في الحكم غيرهم، وبدأت الحرب الكلاميّة بينهم وبين عبد الناصر بواسطة الإذاعات والصحف. ومن الغريب أنّ الأعلام لم تتغيّر بعد فصم الاتّحاد. ثمّ عُيّنَ أمين الحافظ بمركز القيادة، ولكنّ هؤلاء الضبّاط البعثيّين كانوا كلّهم متنفّذين في البلاد.

هدأت المنازعات بين القادة بعد أحداث تّموز، وكانوا قد شكّلوا الحرس القوميّ أثناء هذه الأحداث بقيادة ضابطٍ شابٍّ اسمه محمّد إبراهيم العلي كان له بالانفصال شهرةٌ واسعة، فقد اشترك في إحدى المحاولات العسكريّة للإطاحة بالنظام زمن الانفصال، واضطرّ هو ورفاقه أثناء تحرّكاتهم للدخول في معركة أسفرت عن مقتل ضابطين أو أكثر من رؤسائهم، وقُدّم إلى المحاكمة وحُكِم عليه بالإعدام، وأُخذ إلى الإعدام أكثر من مرّة، وفي كلّ مرّة كان ينجو بسببٍ ما، وأصبحت محاكمته مشهورةً، فقد صفّ الرجعيّون من حكّام ومحامين مشهورين ضدّه، وصفّ مسؤولون ومحامون يساريّون معه. وأخيراً أفرجت عنه الثّورة عند قيامها، ثمّ عيّنته قائداً للحرس القوميّ كما قلنا.

جاء هذا الضابط إلى بيت ساجي في حيّ الميدان[1] وقابل ساجي وفاتح هناك، وقدّم

---

(١) كان قد انتقل ساجي من بيت ركن الدين إلى بيت استأجره في الميدان وهو بيت عربيّ كبير، وكنّا نسمّيه بيت الميدان أو بيت سكّر على اسم صاحبه وسمّي سكّر كالعادة. بيت قديم بكلّ معنى هذه الكلمة، حجارة الطابق الأوّل أصبحت سوداء لقدمها. أمّا الطابق الثاني فقد بُني من الدفّ والطين، وهو بكلّ شيء نموذج للبيوت الشاميّة القديمة دون متوسطة الجودة. وكان به أدراج، وغُرفٌ صغيرة في منتصف هذه الأدراج، وغرفة كلّها شبابيك تطلّ على الشارع قدّام البيت من كلّ جهاتها إلاّ جهة البيت.

نفسه كموفدٍ من القيادة، وعرض عليهما التعاون مع الثورة والحزب نظراً لأنّ المرشديّين يمثّلون شريحةً من العمّال والفلاّحين، وماضيهم كلّه صراعٌ مع الرجعيّين قبل الوحدة وبعدها. ولم يقتصر هذا العرض عليه وحده، بل إنّ ساجي وفاتح قابلا تلك الأيّام كثيراً من شخصيّات الثورة وخاصّةً ابراهيم ماخوس ونور الدين الأتاسي[1]، وكان هذان الأخيران يأتيان إلى بيت المعلّم ليناقشا هذا الموضوع، أو يذهب المعلّم وفاتح لمقابلتهما في الوزارة وغيرها. وقابلا أمين الحافظ مرّتين، وشملت هذه اللقاءات صلاح البيطار[2] أيضاً وهو من مؤسّسي حزب البعث، وحمدي الصالح وكان من قيادة وفلاسفة حزب البعث العراقي الذي كان يحكم العراق آنذاك، وقد تلاقى الحزبان في البلدين في الأفكار والمعتقدات السياسيّة، وباتا كأنّهما دولةٌ واحدة، ولكن لفترةٍ قصيرةٍ جدّاً.

إنّ السبب الحقيقي الذي دعا البعثيّين يوم ذاك للالتفات إلى المرشديّين ومحاولة استقطابهم كان يكمن في الشهرة التي خلقتها للمرشديّين حوادث تحدّوا بها السرّاج وهو في أوج عظمته زمن عهد الوحدة في حمص سابقاً، يضاف إلى ذلك قيام المرشديّين بتحدّي السرّاج أيضاً في اللاذقيّة عند دخول إمامهم إلى السجن يوم لم يجرؤ أحد في البلاد على الوقوف بوجه السرّاج زمن عهد عبد الناصر إلّا هؤلاء المرشديّون، وإضرابهم الجماعي العجيب عندما أخرجوا إمامهم من السجن عنوةً في عهد الانفصال.

رأى ساجي وفاتح خلال تلك المحادثات مع المسؤولين نمطاً جديداً للحكّام لم يرياه قبل تلك الفترة، فهؤلاء المسؤولون الجدد لم يكونوا متعجرفين كالحكّام السابقين بما فيهم حكّام عهد الوحدة. كانوا يُظْهِرون أنّهم مازالوا من الشعب رغم قيامهم بدور الحكّام، فكانوا متواضعين في حديثهم ويتكلّمون بشكلٍ شعبيّ، ولا يستعملون لغة الحاكمين المتعجرفين التي كان لنا معها تجارب كثيرة قبل الثامن من آذار، ولا يلقون بالأوامر على مرؤوسيهم بشكلٍ مذلّ ولا يخاطبونهم بلهجةٍ متعالية. ولم يجد ساجي وفاتح أيّ حرجٍ في محادثتهم والنقاش معهم، لأنّهم كانوا يستطيعون أن يتحمّلوا آراء غيرهم، ولكنّهم لم يكونوا على استعدادٍ للاقتناع بأيّ رأيٍ سوى رأيهم، فحزبهم كان يمثّل لهم الحقّ الصُراح، وهم باتوا لا يجدون الصحّة إلّا بآرائهم، فقد آمنوا بشعاراتهم إيماناً مطبقاً بحيث لا يمكن نزعهم عنها، خاصّةً وأنّهم أي البعثيّين كانوا قد انتصروا في العراق ثمّ في سورية انتصاراً ساحقاً وغزوا المدن والقرى.

---

(١) ابراهيم ماخوس كان وزيراً للصحة، أمّا الأتاسي فقد استلم وزارة الداخلية في أوائل شهر آب في نفس السنة.

(٢) صلاح البيطار كان رئيساً للوزراء يومها.

وتهافت الفلاّحون على هذا الحزب وكذلك عمّال المدن، يرون به عهدهم هم، ويلمسون لأوّل مرّةٍ كيف أنّ رجالاً من طبقتهم قد استلموا الحكم.

خدّ البعثيّون ما للمخفر وللسلطة الإداريّة من نفوذ، وأصبح النفوذ بغالبيّته لرجال البعث في القرى والمدن، والبعث كان قد انتشر في أكثر القرى قبل قيام الثورة، وكذلك بين عمّال المدن وبين صغار الموظّفين، وخاصّةً أساتذة المدارس الذين لربّما كان معظمهم من البعثيّين، كما كان قد انتشر بين أطبّاء ومهندسين ومحامين وكثيرٍ من الفئات التي تمثّل الطبقة الوسطى في المجتمع، فبدا انتصارهم لعيونهم انتصاراً للحزب وعقائده على بقيّة العقائد السياسيّة وأحزاب البلاد الأخرى. وممّا كان يزيد ثقتهم بأنفسهم وبحزبهم أنهم انتصروا في العراق أيضاً، وأصبح النظام في سورية وفي العراق كأنّه نظام واحد نظراً لتكاتف النظامين وتعاضدهما، وقد استطاع البعث أن يقف بوجه عبد الناصر في البلاد العربيّة، وأن يحدّ من الشعبيّة الهائلة التي كان يتمتّع بها.

حديث المعلّم مع قادة الحزب

تتلخّص مناقشات ساجي مع البعثيّين الأوائل هؤلاء أنّهم كانوا يطلبون منه دخول المرشديّين كلّهم وفوراً في حزب البعث، فقد استقرّت البلاد ووصل الشعب الكادح أخيراً إلى أمانيه. أمّا جواب ساجي وتحليله لهذه الأمور فكان هكذا:

«أوّلاً: أنتم تدعون إلى الوحدة العربيّة وإلى إعادة مجد العروبة، ونحن المرشديّين عرقنا عربي، ونظراً لبقائنا في الجبال فقد حافظنا على نقاء هذا العرق، بينما سكّان السهول والمدن تعرّضوا للاختلاط العرقيّ نظراً للهجرات المتلاحقة من الشعوب الأخرى كالفرس والأتراك والأكراد وغيرهم. فبما أنّ عرقنا عربيّ لاشكّ فيه فليس من الغريب أن نُسَرَّ لإعادة مجد هذا العرق، وتأييد الوحدة.

ثانياً: أنتم تقولون بالحرّية، ونحن شعب مضطهد على مرّ السنين، وما فتئنا نتعرّض لأنواعٍ من الاضطهاد بسبب المذهب وبسبب الأفكار التي نحملها، فهل هنالك أشهى لقلوبنا من حرّيّة الأديان والمذاهب والحرّيّة الفكريّة، وإيقاف الاضطهاد، وإلغاء التمييز بكلّ أنواعه؟!.

ثالثاً: أنتم تقولون بالاشتراكيّة، ونحن فلاحون وعمّالٌ وفَعَلَة، وكلّنا فقراء وليس بيننا غني، والاشتراكيّة مطلب الفقراء وعدوّة الأغنياء في كلّ زمانٍ ومكانٍ. إضافةً لذلك فأنتم تدعون للاستقلال الذاتيّ السياسيّ، وعدم التبعيّة للاستعمار المُمَثَّل بالدول الأجنبيّة، والمرشديّون بشكلٍ خاصّ قد عانوا من الاضطهاد على أيدي الرجعيّين من الكتلة الوطنيّة

ومن الحكّام المستبدّين بعدهم جماعة بريطانيا وفرنسا، فمصالحنا المادّية والسياسيّة تلتقي مع شعاراتكم التقاء كاملاً.

فإذا كنتم جادّين فعلاً في تنفيذ هذه الشعارات، فأنتم ستوصلوننا إلى جميع مطالبنا السياسيّة والمادّيّة. أمّا بشأن دخول المرشديّين في الحزب، فهذا أتركه لكم ولنشاطكم بين المرشديّين، فأنا إذا أرسلت توجيهاً إلى المرشديّين فقد يدخلون جميعاً في الحزب، ولكن لا يكون دخولهم عن اقتناعٍ، فهذا واجبكم أنتم أن تنشروا شعاراتكم هذه في صفوف المرشديّين، وأنا بدوري أشجّعهم على الدخول في الحزب. نحن لا نريد أن نكون عالةً على الثورة تتبنّانا تبنّياً أي تتبنّى عشيرةً بكاملها، فيستخدم أعداؤها هذا الأمر لصالحهم، فيقولون : إنّ الثورة تستغلّ العشائريّة. بل نريد أن نشارك ونساعد في هذه الثورة كأفرادٍ وجماعاتٍ مقتنعين بشعاراتها، يناضلون مع رفاقهم من شتّى الفئات، وبذلك لا تكون حمّلناكم وجودنا، بل حملنا معكم قضيّة الثورة.

وإذا كنتم تصدّقون أنّه بأمرٍ منّي يدخل المرشديّون إلى الحزب، أفلا تصدّقون أنّهم بأمرٍ منّي آخر يخرجون منه كما دخلوا إليه؟. فهذا الدخول كما تطلبونه لن يكون إيجابيّاً، لأنّه غير صادرٍ عن اقتناعٍ أو عن تفهّم ودراية. أمّا الآن وقبل أن تباشروا بنشاطٍ بين المرشديّين أو أن تطلبوا منهم الدخول في الحزب، فلا أقلّ من أن توقفوا اضطهاد المرشديّين وتسريحهم التعسّفي من الجيش ومن الوظائف المدنيّة، وأن ترسلوا توجيهاتٍ جديدةً إلى جميع الجهات المسؤولة في البلاد من الدوائر الحكوميّة والأمنيّة، تلغي التوجيهات السابقة التي تقول بتسريح المرشديّين من الوظائف المدنيّة والرتب العسكريّة والتي توعز بالضغط على المرشديّين».

وكان ساجي دائماً يطلب منهم هذا الطلب نفسه، وهو إرسال توجيهاتٍ جديدةٍ تلغي التوجيهات القديمة التي تأمر رجال الأمن بمكافحة المرشديّين، وقد طلبها من أمين الحافظ مباشرةً، فكانوا يتلكّؤون بتنفيذ هذا الطلب، يعدون به ثمّ ينسونه مراراً وتكراراً. والطلب الوحيد الذي وافقوا عليه هو نقل المنفيّين في دير الزور (الذين كانوا مع المعلّم في السجن) إلى دمشق حتى أنّهم لم ينهوا نفيهم.

وكان ساجي قد أرسل أثناء اللقاءات بشخصيات البعث إلى المرشديّين للدخول بحزب البعث أو الحرس القومي لمن يريد منهم فليس هنالك قسرٌ في المرشديّة، وبذلك وفى من جهته بما وعد. أمّا هم فلم يفوا بما وعدوا، ولم يرسلوا أيّة توجيهاتٍ جديدةٍ حتى ولم ينهوا الإقامة الإجباريّة في دمشق عن ساجي وفاتح التي كانت مفروضةً عليهما زمن الانفصال. وبدا واضحاً أنّهم لا ينوون أن يرسلوا التوجيهات التي طلبها ساجي والتي تلغي القديمة.

ودخل كثيرٌ من شبّان المرشديّين إلى الحزب وإلى الحرس القوميّ كنتيجةٍ لرسالة ساجي ولرغبتهم بذلك.

ولم يكن موقف زعماء الثورة متساوياً من المرشديّين، فهناك من يحبّذ الالتقاء معهم وهناك من يحاربه وهناك مَن لا يهتمّ. كان هذا الشعور يختلف بين أفراد زعماء الحزب اختلاف جرأتهم، كان بعض الحزبيّين يرون أنّه إذا دخَل المرشديّون في الحزب، فسيُؤخَذ هذا الأمر على الحزب عند باقي الفئات والأحزاب الرجعيّة ويتّهمون بالطائفيّة. أمّا أصحاب الجرأة منهم والذين يعلمون حقّ العلم أنّ مصداقيّة المرشديّين ومصالحهم تدعوهم إلى الدخول في الحزب فلم يكن عندهم أيّ مانعٍ من هذا الدخول وكان على رأس هؤلاء حافظ الأسد الذي كان قد اشتهر بين رفاقه منذ ذلك الزمن وقبله بنظرته الثاقبة.

غنم أم ذئاب؟

ما ذكرناه سابقاً كان على مستوى القمّة في الحزب، أمّا على مستوى القاعدة فقد اختلفت الأمور جدّاً، فجميع المفسدين كانوا قد انخرطوا في حزب البعث بعد أن وصل الحزب إلى الحكم كعادتهم مع كلّ عهدٍ. وهؤلاء المفسدون كانوا يكنّون لنا كلّ حقدٍ وضغينةٍ كما هو معروف، ترعرع رجالهم وشبّانهم على هذا الشعور، رضعوه منذ الصغر مع حليب أمّهاتهم بواسطة بعض مشايخهم وبعض زعمائهم من الذين عادوا سلمان، فلا يعلمون له مبرّراً ولا يجدون لتركه سبيلاً. وما ان حاول المرشديّون الدخول في الحزب حتى تصدّى هؤلاء في كلّ مكانٍ لعرقلة هذا الدخول، يقولون : هذا مرشديٌّ فكيف يكون بعثيّاً؟!. يقولون للمرشديّ أمام جميع الرفاق : أنت مرشديّ تتلقى أوامرك من زعيمك ساجي المرشد وليس من القيادة الحزبيّة، إنّ ولاءك للحزب مشكوكٌ به. فكان من يدخل من المرشديّين في الحزب يتعرّض دائماً لمثل هذه المواقف ولا يجد مهرباً منها، فهو لا يستطيع إنكار تعلّقه بالمعلّم من جهةٍ، ولا يريد أن يُفصَل من الحزب من جهةٍ أخرى.

عاب كثيرون على المرشديّين صدق وثوقهم بإمامهم، ورأوه خَطِراً جدّاً قائلين : إنّ رجلاً تتّبعه بهذه الثقة، لا تتورّع عن عمل أيّ شيءٍ يأمرك به، فإن أمرك بالقتل فأنت تقتل، وإن أمرك بالضرب فأنت تضرب، ولطالما عيّروا المرشديّين بمثل هذا الكلام على لسان قادتهم وعلى لسان أفرادهم في كلّ مكانٍ من البلاد وفي كلّ العهود. وعلى الرغم أنّ المرشديّين لم يعتدوا سابقاً على أحد، وأنّ إمامهم لم يستغلّهم حتى بأخذ ثأره من قَتَلَةِ أبيه وأمّه وأخيه، أو من مضطهِديه وسجّانيه هو وجماعته اضطهاداً دائماً. كلّ ذلك لم يشفع لديهم أنّ مثل هذا الرجل لا تُحاذر بوادره، بل هو خيّرٌ بنفسه وبغايته وبوسيلته، فهو إمام الدين لمن أراده، لا يقسر أحداً على اتّباعه، وهو سيدلّهم على الصواب في كلّ أمر، إن قَبِلَ زعماؤهم أم رفضوا. هم يريدونه أن يفعل كمثل أصحابهم من الذين اتّخذوا لنفسهم الصفة الدينيّة يلقي المواعظ ويأمر الناس باتّباعهم وهذا لن يكون.

إنّ ساجي وأتباعه ما ناصبوا العداء أحداً من الناس لا كبيراً ولا صغيراً، إنّما الناس هم الذين كانوا يناصبونهم العداء، وكلّ ذلك كي يتركوا تمسّكهم بإمامهم ويتّبعوا

زعماء آخرين كزعماء القوميّين السوريّين وأكرم الحوراني وتابعه وهيب الغانم وكالسرّاج، ثمّ كزعماء عهد الانفصال فكلّ هؤلاء أرادوا من المرشديّين أن يصبحوا أتباعهم وأن يخرجوا من المرشديّة.

وهذا التهافت على ابتلاع المرشديّين كان هو سبب العداوة دائماً منذ البداية، فكلّ من ذكرناهم سابقاً يعلمون بقلوبهم وبعقولهم أنْ لا خطر من ساجي بتاتاً، فقد لمسوا هذا بأفعاله وأعماله، وقد لمسوا هذا من المرشديين منذ أيّام سلمان الأولى، وما حدثت (دوكةٌ) أي معركة مع أبي الفاتح إلّا وكان الآخَرون هم المعتدون، وما كان قتال المرشديّين لهم إلّا دفاعاً عن النفس، أيتركونهم يميتونهم وهم ينظرون؟!. ما أمر اللّه بهذا لا بالقرآنِ ولا بالتوراةِ ولا بالإنجيل. بل إنّ حَنَقَ الأحزاب على المرشديّين كان ناتجاً من أنّهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوفهم ويحوّلوهم إلى أزلام لهم، فمن الناس مَن كانوا على استعدادٍ لتسليم أخلاقهم وأعرافهم وبيعها بأبخس الأثمان، أمّا المرشديّون فقد أعزّوا ألماسة الضمير من أن تكون إلّا للحقّ.

فكان مَثَلُ المرشديّين بين جميع هؤلاء مَثَلَ قطيع الخراف الذي تطمع به وحوش الغابات، ومَثَلُ المعلّم مَثَلَ الراعي الصالح الذي لا يُسلِّمُ بأغنامه أبداً، ويتصدّى لكلّ مفترسٍ، فيحول دون أغنامه ودون هذا المفترس. فهو إن داور خصماً لجماعته ولدعوته وقَهَرَهُ، إنّما يقهره عندما يبعده قسراً عن مجال التحكّم في مصائر جماعته، ولا يستعمل في ذاك أيّ طريقةٍ ملتويةٍ، بل مجابَهَةً بحكمةٍ أمينةٍ ومتقنةٍ، وهو بعد أن يبعد الخصم لا ينقم عليه ولا يثأر منه لما اقترفت يداه من جرائم.

هل قام المرشديّون بتوجيهٍ من ساجي مرّةً بضرب أحدٍ ما، إلّا إن كان شاتماً دينهم بقصد إهانتهم وإذلالهم؟. وإن ضربوه فإنّما ليسكتوه عن إسماعهم هذه الشتائم ليلاً نهاراً. والخنوع ليس من الصفات الحميدة، فهل يرضى ساجي لشعبه بهذا الخنوع؟. بل إنّ من الصفات الحميدة مجابهة الباطل بالحقّ وعدم السكوت على المُبطِل. أقاموا بضرب أحدٍ إلّا من وشى بهم مفترياً عليهم افتراءً واضحاً لكلّ عينٍ وذلك كي يمنعوه من الوشاية مرّةً أخرى؟. فهو لن يكفّ شرّه عنهم إلّا بالضرب. وكما قلنا سابقاً : ما أمر المعلّم بضرب الوشاة إلّا إسكاتاً لهم، لا تعدّياً ولا حقداً عليهم بل دفاعاً عن النفس، كي لا يعودوا إلى مثل ذلك.

ما تعرّف أحدٌ من الناس على ساجي لا من المرشديّين ولا من غيرهم إلّا وائتمنه في النصيحة وفي المشورة على نفسه وعلى أولاده، يفزع إليه أيّام الخطر ويطلب منه الرأي أيّام

الملمّات. فكلّ من يقصده يأمَن له ولأخلاقه. وهؤلاء جماعته المرشديّون لا يعتدون على أحدٍ، ويرجعون الأمانة إلى أصحابها، لا يجابهون الشرّ بالشرّ إلّا بنيّة الخلاص منه، تدلّ عليهم أفعالهم أنّهم هم المؤمنون والأخيار. فصفاتهم تقرؤها في القرآن، وتلمسها في الإنجيل، وتُنْشَدُ في المزامير، وحكاياتهم هي نفسها تُقَصُّ دوراً فدوراً. هل جاء في القرآن والصحف الأولى من صفاتٍ للمؤمنين غير هذه الصفات؟. هل أمر اللّه عباده في رسالاته هذه إلّا بالصدق والأمانة وحبّ الخير للجميع؟. هل أمر إلّا بالعدل وبإلغاء الظلم وإيقاف السرقة والقتل وما إلى ذلك من آثام؟. وهل قوّم ساجي جماعته إلّا على هذه الأعراف؟ يعترف الآخرون بسيرة الطهر والأمانة والسلام التي أنشأها ساجي في المرشديّين، ويأبون عليهم في نفس الوقت الاقتداء به.

الجولة الثانية

وفي أوائل تشرين الثاني سنة ١٩٦٣ غادر المعلّم دمشق إلى قرية ليفين في محافظة اللاذقيّة، وابتدأت الجولة الثانية على المرشديّين وذلك رغم وجود الإقامة الجبريّة عليه في دمشق وعلى فاتح ولكن الحكومة لم تعترض طريقهم في البداية. وقبل أن يبدأ بهذه الجولة كان قد أوعز إلى جماعته يطلب منهم أنّه إذا ذهب إلى قراهم ومحلاّتهم، فلا يقيموا له أيّ استقبال ولا يجتمعوا عليه، وبذلك يتسنّى له أن يدور عليهم وأن يتحدّث معهم ويقيم بينهم حفلات غناء بها ابتهاج روحي بمعرفة الله بدون أيّ مكدّر داخليّ أو خارجيّ. وكانت هذه الرغبة دائماً ما تجوش في صدره، ودائماً ما يتمنّى أن يلبّي المرشديّون رغبته هذه، وبذلك يتسنّى له أن يدور على قراهم، ويدخل بيوت من يشاء منهم.

كان يكره المظاهر الصاخبة التي تتمنّاها الزعامات الدنيويّة، فهو يريد أن يُحتفى به قلبيّاً وليس جسديّاً. وكان قوله عن هذا بمعنى : أنت عندما تدعوني إلى بيتك، هيّئ لي فؤادك وليس بيتك، فأنت إن أردت أن تسرّ فؤادي بك، فإنّ فؤادي يُسَرُّ إذا رأيتك متّبعاً لنصائح محبّ متعطّشاً لمعرفة الله، ولن أُسَرَّ بك أبداً مهما زيّنتَ بيتك لاستقبالي، ومهما وضعتَ لمتّكئي من فراش، أُسَرُّ عندما أرى إخواني على سيرة الصفاء والطهر، وليس بتزيين قراهم أو بصخب اجتماعاتهم عليّ.

هذا ولم ينَل هذه الأمنية من جماعته أبداً، بل دائماً كانوا يعملون عكس ذلك، حتى أنّ بعضهم من الذين كان يحبّهم ويعرفهم جيّداً ويتمنّى زيارتهم في بيوتهم يحاولون استغلال هذه الزيارة لإبراز وجاهتهم أمام غيرهم فقد اختصّ بيوتهم دون سواها، فيقولون لفلانٍ من الناس : أنت تدخل بيتي عندما يأتي المعلّم، وآخر لا يقولون له شيئاً، فيعلم ذلك الآخر ما أضمروا له، فيتشبّث عند الباب حتى يدخل عنوةً عن صاحب البيت، وهكذا ما بين مَن يدخلهم صاحب البيت ومَن يدخلون عنوةً عنه، تزدحم بيوتهم عندما يكون المعلّم عندهم، ويحتشد الناس خارج الباب وعلى النوافذ وحول البيت. هذا هو المنظر المألوف دائماً عند زيارة المعلّم أحد بيوت جماعته، لا يتغيّر بين بيتٍ وآخر أو بين قرية وأخرى، حتى يصعب عليه الخروج من الغرفة التي يجلس فيها لقضاء أيّة حاجة له كغسل اليدين بعد الطعام مثلاً، لكون بيوت المرشديّين آنذاك كانت كلّها غرفاً تطلّ على العراء مباشرةً. أمّا إذا أراد أن يتمشّى

في الهواء الطلق عند البيت فما أن يباشر بهذا حتى يصبح من المحال إتمام المشوار، لأنّ المئات سترافقه عن قريب وعن بعيد رجالاً ونساءً وأولاداً.

وعندما يزور المعلّم قريةً من القرى فكلّ رجلٍ وغلامٍ والنساء أيضاً - وفي بعض القرى إذا سمح لهنّ رجالهنّ - يبغون ويريدون أن يسلّموا عليه ويصافحوه يداً بيد، ويستمرّ مشهد المصافحة هذه بعض الأحيان ساعةً أو ساعتين.

ومن الغريب أنّ المرشديّين لم ينتبهوا بعملهم هذا أنهم يزعجون إمامهم، ويضايقونه بشكلٍ لا يقبله المنطق، ولا يخطئ بتمييزه العقل السليم. ولا أستثني وجهاءهم وأصحاب الكلمة عندهم، لأنّ هؤلاء الأخيرين هم الذين كانوا يشجّعون البقيّة على مثل هذه الأعمال. وذلك باستثناءاتهم الأنانيّة لأصحابهم وأقربائهم في القرية.

وما من مرّةٍ كان يحاول بها المعلّم زيارة أحدهم، إلّا وتفشل هذه الزيارة بسبب ما ذكرناه سابقاً إلّا نادراً. وبقي هذا الحاجز بينه وبين أتباعه حتى النهاية، وقد أصرّ المرشديّون على هذا العمل إصراراً لا رجعة عنه، يضربون بعرض الحائط ما عاهدوه عليه من التزام السكينة والهدوء لدى زيارته لهم.

وعندما تيسّر له أن يدور على المرشديّين في سنة ١٩٦٣ أوعز إليهم بكلّ ما ذكرناه سابقاً من التزام الهدوء والسكينة وأن يتركوه (على عقله)، فالبيت الذي يجبْ يذهب إليه وهكذا القرية أو المحلّة، لا استقبالات ولا مظاهر أبّهة، ولا تجمّعات في القرى.

وعمل المرشديّون عكس ما أوصاهم به، وكأنهم درسوا وخطّطوا مسبقاً وبشكلٍ جيّد كيف يخالفونه تماماً في هذا الأمر، فلا يتركون كلمةً من كلامه هذا لا يعصونها، وقد نجحوا بمعارضته هذه كلّ النجاح، فكلّ القرى الموعودة بزيارته أو غير الموعودة حضّرت للاستقبال، فنزعت الأحجار عن الطرقات المؤدّية إليها، ومن القرى من قام أهلها بشقّ طريق جديد تستطيع السيّارة أن تمرّ عليه، وكانت طرقات قرى المرشديّين في الجبل خاصّةً وكثيرٍ من قرى المهالبة وقراهم في الجنوب لا تزال بدون تعبيد. وطفق المرشديّون يزيّنون الطريق عند قراهم بالريحان والورود وما شابه من الأشكال الجميلة، تعمر الفرحة قلوب الجميع، تسمع غناءهم وصياحهم حتى الصباح. فما إن سمعوا بقدومه إلى الجبل، حتى عمّت الفرحة والبهجة كلّ مكان، وتطاير الخبر إلى كلّ قراهم ومحلّاتهم، فترى الناس في جيئةٍ وذهابٍ يتناقلون أخبار المعلّم أين هو الآن، وعلى مَنْ سيمرّ من القرى.

أمّا المعلّم فقد ذهب في البدء إلى قرية ليفين وهي قرية تجاور مرشتي تقريباً، وأقام عدّة أيّام هنالك.

وتوافد وجهاء القرى إليه حيثما يكون في ليفين أو غيرها، يتعازمونه إلى قراهم، ويصفون له كم هم الاخوان في شوقٍ للقائه في هذه القرية أو تلك، ومنهم من يأبى الذهاب ويرافق المعلّم في جولته حتى يتلقّى وعداً منه بزيارة قريته، فيعود بالبشرى إلى أهالي القرية.

وما كانت الفرحة التي عمّت في جهات المرشديّين في الجنوب ـ محافظة حمص ومنطقة مصياف ـ أثناء هذه الدورة بأقلّ منها في الشمال. كثيرٌ من القرى تحضّر لقدوم المعلّم إليها لعلّ وعسى يمرّ عليها، يتعازمونه جميعاً إلى قراهم.

وصل المعلّم إلى قرية الغسّانيّة في سهل حمص في الساعة العاشرة صباحاً، فأُقيمت (مراسح) الدبكة، وبدأ المرشديّون بغناء الأشعار رجالاً ونساءً وأولاداً. وقد لفت نظر المعلّم ومرافقيه غناء بعض النساء على اللهجة البدويّة بقوّةٍ وعزيمة، وغنّت إحداهنّ مبتدئة هكذا (نحن الربع المرشديّة).

وقد شملت جولته قرىً كثيرةً في الجبل وفي المهالبة وفي الغاب. وعندما مرّت سيّارته في اللدينة أو الفاخورة (في المهالبة) كان كثير من المرشديّين ينتظرونه صفوفاً، وكانوا قد جاءوا من قرىً شتّى، يظنّون أنّه سينزل في قرية الفاخورة، أو لمجرّد اشتراكهم في الوقوف لاستقباله. وهكذا كان الناس في المهالبة دائماً يأتون من قرىً شتّى إلى القرية التي يكون فيها أو التي يظنون أنّه سيمكث فيها أو حتى سيمرّ بها فقط. حتى أضحت المهالبة في شغلٍ شاغلٍ لا يفتؤون يتنقّلون من قريةٍ إلى أخرى، وكلّ قراهم تهزج الأغاني ويدبك الرجال والنساء في الساحات أثناء النهار.

وكانت فرحة جماعة المهالبة في جولة المعلّم هذه أبهج وأحلى من فرحة جماعة الجبل على عكس ما كان يجري في أيّام دعوة مجيب، ممّا يدل على تقدّم وتوطّن شعور الانتماء للدعوة بالمهالبة ذلك الوقت عنه في أيّام دعوة مجيب.

والقرية التي أبهجت المعلّم ورفاقه أكثر من غيرها أظنّها بحوّارة، فقد جاء إلى البيت الذي يجلس فيه المعلّم كلّ رجال القرية ونسائها. وأنشد شاعرٌ من القرية قصيدةً مضحكةً طيّبةً تصف دور العذاب، وكيف كان المرشديّون يسارعون إلى البراري أثناء ملاحقات رجال الحكومة لهم. وكيف كانوا يفرحون في الصيف وكم كانوا يعانون في الشتاء، وكيف يدخل رجال الشرطة إلى البيت يسألون أهل البيت عن صاحبه، فتتصايح النساء قائلات : لقد مضى على غيابه يومان في منطقة الكليّة، بينما هو يقبع في نفس البيت تحت (مكبّة) الخبز أو ما شابه من أغراض. كان الشاعر يغنّي ويرقص معاً. أمّا وفيق فكان يمثّل كيف كان المرشديّون يفعلون عندما تأتي الشرطة، أو كيف كانوا يأكلون خبزهم في البراري وهكذا.

وكان التمثيل يجري بسرعةٍ فائقة يتناوب عليه الشاعر الذي ألّف القصيدة والشاعر وفيق جزعة. ثمّ إنّ الشاعر وفيق جزعة نفسه قرأ مغنياً جميع أشعاره أو أكثرها في تلك السهرة وكان يبدو فخوراً بها، وقد أعجبت الجميع، وسُرّ المعلّم بشعبه وبأفراده. ومن هذه الأشعار التي غناها وفيق شعرٌ يصف به نصائح مجيب المعطاة جديداً إلى المرشديّين.

وكان المعلّم أثناء جولته هذه قد جعل مركزه في ليفين، يذهب إلى القرية الفلانية أو إلى المنطقة الفلانية ثم يعود إلى ليفين.

وكان قد تمّ تجفيف الغاب وبدأ توزيع الأراضي على الناس منذ سنوات، والتوزيع كان مازال قائماً حتى ذلك الوقت الذي نكتب عنه ولكن بصورة جزئيّة، وكنت ترى آثار الهجرة إلى الغاب منعكسة على بعض قرى الجبل وخاصّةً ليفين، فأصبحت نصف بيوتها وأكثر من البيتون عوضاً عن البيوت القُلُد القديمة، وترى كثيراً من الناس يلبسون ثياباً أفضل من الثياب التي كانوا يلبسونها في الماضي. وبتّ تلاحظ البنطال والقميص أو الجاكيت كثيراً بين المزارعين. وسكن المعلّم في غرفتين كبيرتين من البيتون، غرفة للنوم وغرفة يستقبل فيها الناس.

وبدأ المعلّم يبث الروح الرياضيّة بين المرشديّين في طرقٍ شتّى، ومن هذه الطرق أنّه أجرى مصارعةً بين الشبان، وكنّا نسمّيها (المغالبة) وهي عدّة أنواع، ومن هذه الأنواع نوعٌ ندعوه (شاط وباط). وآخر نسمّيه (مغالبة بالزنّار) وهذه الرياضة كان عهدها قديماً عند سكّان الجبل لا يدري أحدٌ متى بدأت، فهي كالأغاني الشعبيّة (الفولكلوريّة) وكالعادات المتأصّلة في المجتمع. كانت هذه المصارعة تشبه إلى حدٍّ بعيد المصارعات اليابانيّة التقليديّة كالجيدو وغيرها، ولكنها لم تتطوّر إلى هذه الدرجة. وكان أبو الفاتح يقيم حلبات المصارعة هذه بين الفينة والفينة أثناء دوره. أمّا مجيب فقد أقامها كثيراً. وعندما بدأها المعلّم في ليفين تلك الأيّام فقد سرت كالحمّى في جميع جهات المرشديّين. سواءً في المناطق الجنوبيّة أو الشماليّة، حتى أنّ بعض المعمّرين باتوا يتصارعون.

أمّا واسطة النقل من قرية إلى قرية ومن منطقة إلى منطقة فكانت تحدّدها الأبعاد، فإن كانت القرية قريبة من القرية التي هم فيها يذهبوا سيراً على الأقدام، أمّا إذا كانت بعيدة ففي سيّارة اللاندروفر التي ما كان لغيرها من السيّارات الصغيرة أن تتحدّى طرقات ذلك الجبل شديدة الوعورة.

ورجع بعد جولته في الغاب إلى ليفين مباشرةً، واشتدّ برد ذلك الشتاء، وغطّت الثلوج الأودية والتلال وخاصّةً في ليفين القريبة من الشعرا، وما كان أشهى المناظر ليلاً وفي ضوء القمر، حيث ترى الأرض بقعةً بيضاء، تعكس الضياء الفضّيّ من وديانها وجبالها

وهضابها، وارتدت الأشجار الثياب البيضاء فكأنها أصبحت من المرشديّين ذوي الجلاّبيات البيضاء أوان إقامة الصلاة.

وتوالى قدوم المرشديّين إلى المعلّم في ليفين، فهم لا يتركونه أبداً، يسارعون إليه في جولاته حيثما يكون، يشدّون إليه الرحال كعادتهم دائماً منذ البداية.

واشتدّ البرد هذه السنة وخاصّة في ليفين، وكان البرد قارساً، وكانت من السنوات التي عُرِفَت بطقسها البارد، فقد تفجّرت قساطل المياه في المدن، وقُطِعَت الطرقات نظراً لغزارة الثلوج. ولكنّ المعلّم كان مازال جسمه يحتمل البرد نوعاً ما، وظلّ يسكن في ليفين، ولكنه كان يبدو عليه كَمَنْ أنهى عمله، وبدأ يشعر بعدم جدوى الإقامة في الجبل.

طفق المفسدون من كلّ القرى والمحلاّت في المدن يرسلون الوشايات إلى الحكومة المحليّة، وإلى الحكومة المركزيّة عن جولة المعلّم هذه، إلى أن تولّد شبه اقتناع لدى المسؤولين أنّ المعلّم قد مكر بهم، وظنّوا أنّه استغلّهم للدعوة المرشديّة، وإنّما كان بنيّتهم أن يستغلّوه هم، فأرادوا إيقافه عند هذا الحدّ.

وبينما المعلّم في ليفين، جاء مدير ناحية الفاخورة إليه يبلغه قرار المحافظ بوجوب عودته إلى دمشق.

ورجع المعلّم إلى دمشق، وانتهت هذه الجولة وكانت هي الجولة الثانية للإمام على أتباعه. فالأولى حدثت سنة ١٩٥٤ وقد تحدّثت عنها سابقاً.

وهكذا تسبّب المرشديّون بالاحتفالات العلنيّة والتظاهرات الشعبيّة والاستقبالات الكبيرة برجوع المعلّم إلى دمشق.

فترة تلّ منين

فور رجوع المعلّم إلى دمشق في أواخر شباط أو أوائل آذار سنة ١٩٦٤ استأجر بيتاً جديداً في القصّاع لا يبعد كثيراً عن بيت أم خليل القديم. وكان يقع في منطقة أُنشئت أبنيتها حديثاً، وهو عبارة عن شقّتين فتحتا على بعضهما، تمثّلان نصف الطابق الخامس والأخير من البناية، وكنا نسمّيه على اسم صاحبه كالعادة بيت شمس الدين دخّان. وأعلن المعلّم أنّه سيجري اختباراً لكلّ من يودّ تعلّم المعرفة الجديدة بشكل متتابع وكان الاختبار عبارة عن تجريد ما يحفظ من قول مجيب وليظهر ما عنده استيعاب لما سمع سابقاً من تعليم المعلّم وتقدّم للاختبار كثيرون من المرشديّين ولكن لم ينجح سوى عشرات وحاز على درجة بعض النجاح عشرات أُخَر، وقد ساعده فاتح وساعدته أنا في إجراء هذا الاختبار.

إنّ إجراء المعلّم لهذا الاختبار أراه بداعي سببين أوّلهما أنّه أراد متابعة تعليم المعرفة الجديدة وهذا من عمله الأساسي فليس من الحقّ أن تترك هذه المعرفة دون اعتناء، وليس من الصحّة أيضاً أن يتعلّم هذه المعرفة من لا يريدها، وثانيهما الاختبار يبيّن درجة تعلّق المتقدّم بها. ولكنّه كان يودّ لو يستطيع أن يعلّم المعرفة الجديدة لكلّ من يطلبها من كلّ أتباعه رجالاً ونساءً وشبيبةً ولكنّ ذلك لم يكن مستطاعاً.

ولم يَطُل السكن في هذا البيت إلّا شهراً وبعض الشهر لأنّ البيت كان من الصعوبة بمكان من حيث القدوم إليه، فهو في الطابق الخامس ويزوره يوميّاً حوالى الخمسين إلى الستّين رجلاً لإجراء الاختبار ولم يكن في البيت غرفة واسعة تتّسع لمثل هذا العدد على الرغم من كبره لأنّ البيت كان بالأساس شقّتين وليس شقّةً واحدة فليس فيه صالون يتّسع لأعداد كبيرة لذلك كان ينقسم الوافدون لأجل الاختبار على غرفتين وأحياناً ثلاث.

كان علي حبيب قد انتقل إلى بلدة تلّ منين وزاره المعلّم إلى هناك. ثمّ انتقلتُ إليها أنا أيضاً مع امرأتي وكنت قد اقترنتُ بها حديثاً، وكان المعلّم يأتي إلى بيتنا بشكلٍ شبه يوميّ من دمشق، وأعجبته منطقة التلّ هذه، فهو يستطيع أن يستقبل الناجحين في الاختبار هناك بدون أيّ حرج من الجيران ولما لهذه البلدة من طابع القرية الكبيرة الهادئة فاستأجر بيتاً فيها. وتلّ منين بلدةٌ متوسّطة الكبر، تبعد عن دمشق حوالى / ٢٠ / كم. واستأجر فاتح فيها بيتاً سكن فيه مع امرأته وابنهما صادق المولود حديثاً. وكان البيت الذي يقطنه المعلّم يُدعى بيت (أبو الخير) على اسم صاحبه.

إنّ مجيء المُختَبرين الذين انتقاهم المعلّم بعد الاختبار إلى بيت (أبو الخير) في التلّ كان مُنظّماً، فأصبح الذين يأتون إليه معروفين، وليس كلّ المرشديّين.

أمّا نومهم ففي بيت المعلّم نفسه، وما كان هذا البيت إلّا شقّةً عاديّة، ليست بالكبيرة رغم صالونها الكبير نسبيّاً الذي يتوسّط الغرف.

ولم تكن جدران البيت مطليّةً بأيّ طلاء لا من الخارج ولا من الداخل إلّا بطلاء الإسمنت (مليّسة) وكانت تصل إليه من الطريق العام طريقٌ ضيّقةٌ جدّاً، تعوجّ وتستقيم حسب متطلّبات فروع النهر التي كانت تخترق بلدة التلّ لسقاية الجنائن المزروعة بالخضار، والتي تحيط بمعظم بيوت التلّ.

أمّا البيت نفسه فلا أذكر منه إلّا ثلاث غرف، ولربّما لم يكن يحتوي إلّا على هذه الغرف الثلاث، غرفة لنوم المعلّم، وغرفتين واسعتين نسبيّاً لطلبة المعرفة الجديدة وللسهرات وللجلسات ليلاً ونهاراً، ينام الطلاب بهاتين الغرفتين ويأكلون في البيت نفسه. ولا أذكر المدّة التي كان يصحّ لأحدهم أن يقضيها في بيت المعلّم قبل أن يعطي مكانه لغيره، ولعلّها كانت ثلاثة أيّام. أمّا المغنّون فكنّا نُسرّ لبقائهم في البيت مدّة أكثر، لما كانوا يُضفون بغنائهم على جوّ السهرات من حبور.

الحياة اليوميّة في التلّ

أمّا الحياة التي كان يحياها المعلّم في التلّ، فكانت غايةً في البساطة، لا يكدّرها مكدّرٌ من علاقاتٍ حكوميّة أو أخبار مشاكل بين المرشديّين ببعضهم أو مع غيرهم إلّا قليلاً، وبقيت بهذا الصفاء أشهراً.

كان المعلّم يذهب إلى بيت فاتح وبيتي في كلّ يوم تقريباً، ويأتي معه أحياناً بعضٌ من الذين يقيمون أيّاماً في بيته، وكان المنفيّون في دمشق يقصدون التلّ لزيارته في معظم الأيّام. وكان الحديث عامّاً يتخلّله بشكلٍ دائم حديث الدعوة حتى أثناء النهار.

وقليلاً ما كان المعلّم ينزل إلى دمشق. وقد اعتاد علينا أهالي التلّ واعتدنا الحياة بينهم، وهم قومٌ لطفاء لا يضيق الإنسان بمجاورتهم، وكان أكثرهم نساءً وشيوخاً وأطفالاً. فقلّة تواجد الشبّان بينهم كانت ملحوظةً بشكلٍ كبير، ذلك لأنّ أكثر شبّانهم ورجالهم كانوا يذهبون إلى دول الخليج، ليعملوا فَعَلَةً هناك، ثم يعودون بالأموال الكثيرة نسبيّاً إلى بلدتهم.

وقد غيّرت هذه الموارد الاقتصاديّة الجديدة من منظر بلدة تلّ منين، فأصبحت ممتلئةً

بالأبنية الحديثة التي تمّ بناؤها حديثاً، أو مازالت في طور البناء. وكانت أبنيتها شبه فيلّات أو شققاً صغيرة من طابقٍ أو طابقين أو ثلاثة، وأكثر البيوت تحيط بها الحدائق، تلك الحدائق كانت تُستغلّ لزراعة الخضار. اختلط في هذه البلدة القديم بالحديث إلى درجةٍ ما، فالناس هناك مازالوا يعتمدون على تربية المواشي. يعتني بالمواشي الشيوخ والنساء والأطفال أولئك الذين يبقون في البلدة، ولا يغادرونها كما يفعل الشبّان والرجال. فأنت إذ تجوب بشوارعها، تجد أنّ كثيراً من هذه الأبنية الحديثة تمتلئ بالماعز عوض الناس، وأصبح للعائلة الواحدة من الشقق أكثر مما تحتاج، يظهر أنّ أكثر الأموال التي كانوا يجلبونها من الخليج يوظّفونها في بناء الشقق[1].

والذي حيّرني بهؤلاء الناس كثرة وجود العاهات بينهم، تجد أنّ عينيك تفتّش بين الناس، لعلّك تجد رجلاً من هؤلاء الرجال المسنّين لا يحمل عاهةً في وجهه أو جسده. لربّما يعود هذا إلى قساوة الحياة التي كان يتعرّض إليها الرجال في شبابهم في أعمال البناء واقتلاع الأحجار.

أمّا اختلاطنا معهم فكان مقصوراً على السلام الطيّب وردّ السلام، فلا تربطنا بهم أيّة علاقةٍ أو مصلحة. إلّا أنّ نساءهم كنّ يَزرْنَ نساءنا ويتعرّفْنَ عليهنّ.

وكان معظم أهالي التلّ ناصريّين يحبّون عبد الناصر فهم فَعَلَة، ومعظم الفَعَلة السوريّين كانوا ناصريّين. وبلدة تلّ منين هذه مبنيّةٌ على تلّ أو رابية، يمتدّ البناء من أعلى التلّ ثم ينتشر في وسطه، وينتهي قبل أسفله. أمّا بيوتنا نحن فقد كانت في أواخر البناء الذي ينتهي أو يكاد قبل الوصول إلى المستشفى الضخم الذي كان مبنيّاً في آخِر البناء في أعلى الرابية، وكان آنذاك ما يزال (على الهيكل). وقد نخرج مع المعلّم يرافقنا بعض المنفيّين أو بعض الذين يكونون عنده لنتمشّى عند العصر، فنصل إلى هذا المستشفى الذي يقف كماردٍ فوق مدينة التلّ. وبجانبه بقعةٌ كبيرة مستوية الأرض فهي فسحةٌ واسعةٌ نسبيّاً. ولهذه البقعة إطلالةٌ حلوةٌ وشاهقةٌ بعض الشيء. ونظراً لصغر البقعة التي تقف عليها نسبيّاً للمنظر الواسع الممتدّ أمام عينيك حيثما نظرت من هضابٍ وسهول، كنتَ تشعر وكأنّك واقفٌ بمكانٍ عالٍ وصغيرٍ تشرف على الأرض الواسعة. فقد كان ينتابني شعورٌ وكأنّني واقفٌ في القمر أو في كوكبٍ صغيرٍ مجاورٍ للكرة الأرضيّة أنظر إليها منه.

وكان هذا المشوار أو (الكزدورة) كما كنّا نسمّيها شبْهَ يومي، يستيقظ المعلّم عند الظهر

---

(١) هذا الوصف لبلدة تل منين في السبعينات لا يتفق بأيّ شكل مع منظرها في التسعينات وبعدها فلقد أصبحت بناياتها شاهقة وتكاد تتلاصق، وشوارعها ضيقة وفقدت كل حسّ بالجمال.

أو بعده، فيتناول القهوة، ويقضي بعض النهار في بيته أو في بيت فاتح أو في بيتي، ثم يسارع مع بعض الصحبة إلى هذا المشوار اليوميّ. وقد يعودون بعد المشوار إلى أحد بيتَينا، وذلك قبل أن تبدأ الجلسة مع الطلاب. تلك الجلسة المقامة يومياً. ولربّما تمتدّ السهرة حتى الصباح. فيخرج هو وبعض الرفاق يتمشّون في تلك البقعة أوان نهوض الناس إلى أعمالهم، وبداية دبيب الحياة في مجتمع البلدة الصغير. ترى على الطريق إلى المستشفى قطعاناً صغيرةً من الماعز أو الغنم تعترض طريقك، وإنّ النفس لتأنس أحياناً إلى مثل هذه المناظر. وأحياناً أخرى كان المشوار أثناء الليل أو غُبّ مجيء الليل، وما كان أحلى القمر وضوءه الفضّي. وقد كان لون القمر الفضّي هذا يثير التعجّب لدى الناظر لشدّة فضّيته، فكأنّك تسبح في نورٍ من لجين وأنت تمشي في ضوء القمر. وما رأيته هكذا إلّا في ليالي التلّ هذه. ولربّما يعود ذلك إلى انعكاس ضوء القمر على الهضاب البيضاء التربة والتي تحيط ببلدة التلّ.

كان المعلّم يبدو جميلاً بقامته الربعة وبمنظره الرجولي المعتدل. وقد تعلّقت به أعين نساء التلّ، وسمعَ بعض نسائنا كثيراً من التعليقات منهنّ حول منظره الجذّاب.

وكانت فروع الأنهر الصغيرة التي تخترق حارات التلّ، تعطي نغمةً موسيقيّةً حلوةً طالما المياه تجري بها. فالمياه كانت تنقطع فترات من الوقت، ثم تعود وتسمع خريرها ثانيةً، لأنّ أهل التلّ كانوا يقتسمون المياه، فيطلقونها على حارات من بلدتهم ساعات، ثم يوقفونها عنها، ويطلقونها في حاراتٍ أخرى.

وكان المعلّم يعلّق ضاحكاً على (أبو عمر) ذلك الرجل العجوز، وهو صاحب البيت الذي يسكنه فاتح. فهذا الرجل كان يجلس على السطح منفرداً بنفسه ساعات، يتطلّع إلى المياه الجارية بجانب بيته، ويسمع خريرها وذلك بمنتهى اللذّة. وكان يقول عنه أنّ لذّته ونعيمه يتهيان بهذه الجلسة، فهو لا يرجو نعيماً غيره. ومرّة كنت أمرّ بجانب بيته ليلاً ذاهباً إلى بيت أخي فاتح فرأيت عدّة رجال منهم شيخ متأنّق في لباسه وقفوا يحادثون أبا عمر وكان يقف على سطح البيت فلمّا دعاهم للجلوس معه في هذه القعدة الممتعة أجابه الشيخ المتأنّق شعراً : هنيئاً لأصحاب النعيم نعيمهم. فهم لن يقطعوا عليه هذه المتعة.

علاقات سياسيّة

تبدّل موقف المرشديّين البعثيّين من الحزب

نعود الآن إلى حديث العلاقة مع العهد آنذاك، وكيف تناسى العهد قضيّة المرشديّين كلّيّةً. فها هم المنفيّون مازالوا منفيّين بموجب القرار الذي صدر زمن الانفصال، لا لسبب إلّا لأنّهم ينتمون إلى المرشديّة (وهم من رفاق السجن ونُفوا إلى دير الزور وقد ذكرناهم سابقاً) وما يكون هذا إنْ لم يكن اضطهاداً طائفيّاً؟. أمّا الإقامة الجبريّة في دمشق والتي كانت مفروضةً على ساجي وفاتح زمن الانفصال، فلم يلغوها رغم وعودهم بإلغائها، هذا ولم تُرسَلْ أيّة توجيهاتٍ جديدةٍ تُلْغَى بها التوجيهات القديمة التي توعز بالضغط على المرشديّين، تلك التوجيهات التي وعدوا بإرسالها أثناء مناقشات المعلّم معهم[1]، وتعرّض ضابطٌ مرشديّ للتسريح التعسّفي لانتمائه (للبدعة المرشديّة) وفُهِمَ من هذا أنْ لا مجال للمرشديّين لدخول الكلّيّة الحربيّة. رأى بعض المرشديّين ممّن دخلوا بالحزب أنّ خير طريقةٍ تُتَّبَعُ مع أولياء الثورة آنذاك لإشعارهم بوجودنا وبمطالبنا التي لن نتنازل عنها ولا نستطيع، إذ كيف للمُضطهَد أن يتنازل عن طلب رفع الاضطهاد !!. أنْ ينسحبوا من الحزب، وأن يذكروا في طلب انسحابهم أنّ سبب انسحابهم هو أنّ الحكومة لا تزال تضطهد المرشديّين وتمارس

---

(١) بقيت هذه التوجيهات المعادية للمرشديّين حتى ألغاها حافظ الأسد عندما أصبح وزيراً للدفاع أي فيما بعد سنة ١٩٦٥. وهذا نصّها:

بلاغ

(يلجأ بعض رجال الأمن إلى توقيف من يسمّون بالمرشديّين بحجّة انطباق أحكام المادّتين ٣٠٧ و ٣٠٨ من قانون العقوبات عليهم.

ولمّا كانت المادّتان المذكورتان لا تعاقبان إلاّ على الانتساب إلى جمعيّة سرّيّة غايتها إثارة النعرات المذهبيّة والعنصريّة والحضّ على النزاع بين الطوائف.

ولمّا كان من سمّيوا بالمرشديّين إنّما هم فئة من العلويّين الذين يشكّلون بحدّ ذاتهم طائفة يجب أن نحترم آراءها وأفكارها، وبالتالي لا يعتبر من ينتسب إليها أنّه يثير نعرات مذهبيّة أو يحضّ على النزاع بين الطوائف كلّ ذلك ما لم يصدر قرار من المحاكم المختصّة يعتبر المرشديّة جمعيّة سرّيّة لإثارة النعرات المذهبيّة. لذلك تُلغى جميع البرقيّات والكتب والبلاغات السرّيّة السابقة المتعلّقة بتوقيف المرشديّين وتنظيم الضبوط بحقّهم وإحالتهم إلى القضاء، ويتوجّب عدم اللجوء إلى تنظيم الضبط أو توقيف أيّ مواطن استناداً إلى هذه الصفة، وإنّ إجراء مخالفة من قبل رجال الأمن قد يؤدّي هو نفسه إلى إثارة النعرات المذهبيّة. فنطلب منكم التقيّد بهذا البلاغ بكلّ دقّة).

ضدّهم التفرقة الطائفيّة، وهذا ما حدث. وقد أشعروهم بهذا العمل أنّ المرشديّين يقبلون بالدخول إلى الحزب وبالتعاون مع العهد، ولكن ليس على حساب عقيدتهم[1].

ولم يكن لهذا الانسحاب ردّ فعلٍ سريع من جانب الحكومة، ولكنّه أثار غضبها على المرشديّين وظهر ما بأنفسهم في أعمالهم التي كانت عموماً ضدّ المرشديّين.

حوادث تتسبّب باستدعاءات

بدأت تجري بعض الحوادث كشجارٍ بين مرشديّين وجيران من غير المرشديّين لأسباب تافهة عادة لا يتوقّف أحد عندها، ولكن الحكم يومها أو بعض المسؤولين اتخذوها ذريعة ليطلبوا ساجي وأخويه ثم أخيراً ليعيدوهم إلى دمشق من ضاحية التلّ.

فقد طُلِبنا، ساجي وفاتح وأنا، إلى الشعبة السياسيّة على أثر بعض الحوادث التافهة التي كانت قد جرت بين المرشديّين وجيرانهم، وقابلْنا مقدَّم هناك اسمه منصور حموي، وكانت جماعة الحكم تستعمله (كوجه قباحة) كما يقولون، يأمرونه بمقابلة من يريدون أن يسمعوه كلاماً فظّاً. وألقى هذا الضابط بتبعة هذه المشاجرات التي كانت تحدث في الجبل علينا وحمّلنا مسؤوليتها، وقال: إنّما كان القرار الذي يلغي نفينا في دمشق يُدَقّ على الحرير، ولكنّه توقّف الآن نظراً لهذه الأعمال وقد قام بتهديدي أنا شخصيّاً لأنّي ذهبت إلى الجبل عدّة أيام (ما فيك عَ الحكومة الحكومة أقوى منك)، وحاول أن يفهمني أنّ بحقّي أنا أيضاً إقامة جبريّة كمِثْلِ أخويّ. وقد ردّ عليه ساجي وفاتح هذا القول إذ لم تكن هناك إقامة جبريّة بحقّي، ولكنّ هذا الضابط أصرّ على قوله، وطلب منّا النزول من التلّ فوراً، لأنّ الإقامة الجبريّة في دمشق وليست في التلّ. ولمّا سألناه وما الفرق بين التلّ ودمشق فالتلّ كان يُعَدُّ من ضواحي دمشق يومها؟. رفض هذا القول بشدّة، وأصرّ على نزولنا من التلّ، وإلاّ ستتّخذ الحكومة التدابير الشديدة بحقّنا، وكان في كلّ كلامه فظّاً غليظاً، وقد فُهِمَ يومها أنّه اختير بشكلٍ خاصّ نظراً لغلاظته ووقاحته، فالحكّام كانوا يستطيعون أن يبلّغونا العودة إلى دمشق من التلّ بطريقة غير هذه الطريقة الفظّة. وأُعطيت لنا مدّةٌ لربّما كانت خمسة عشر يوماً لنتمكّن من إيجاد بيتٍ للإيجار.

ومن الواجب ذكره هنا، أنّ الأحكام العرفيّة كانت قد أُعلنت، وباتت الاجتماعات محظورة في البلاد، ولم يكن هنالك من غير الحزبيّين من يتجاسر على إقامة أيّ اجتماعٍ ولو

---

(١) وهذا ما جرى فعلاً بعد هذا التاريخ بسنوات، وذلك عندما أوقفت الحكومة اضطهاد المرشديين في بداية السبعينات وبدأ المرشديّون يدخلون في الحزب، كلّ مَنْ شاء دخل.

كان تافهاً. أمّا المعلّم فما فتئ يقيم الاجتماعات الكبيرة نسبيّاً، والتي كانت ترتاع لها قلوب المسؤولين التي تخاف كلّ اجتماع، مهما كان صغيراً ومهما كانت صفته.

استدعاء إلى الشعبة السياسيّة

ونشط البحث عن بيتٍ للإيجار في دمشق وأصرّ المعلّم كعادته على وجوب استئجار بيتٍ يتّسع لطلابه الذين يأتون إليه، ولم يحبّ لهذه الحركة حركة التعليم أن تتوقّف. وما استطاع أن يجد مثل هذا البيت في هذه الفرصة القصيرة، وإيجار مثل هذه البيوت الكبيرة والجميلة في آنٍ واحد كما كان يبغي مرتفعٌ جداً، ولا يتّفق مع ما لديه من مالٍ في أحيانٍ كثيرة، لأنّ المال الذي كان بحوزته آنذاك كان ينقص ويزيد، ولا يكاد يجتاز العشرة آلاف ليرة سوريّة إلّا نادراً على ما أذكر.

وبما أنّه لم يستطع إيجاد البيت الذي يرتاح إليه، فقد اضطرّ لاستئجار بيتٍ صغيرٍ من ثلاث غرف في حي أبو رمّانة، وكنّا نسمّيه بيت الدغلي على اسم صاحبه، اثنتان من هذه الغرف كانتا صغيرتين جداً، وغرفة جلوس غير متوازية الأضلاع، لا ترتاح لها العين، وتضيق بها النفس، ولم يرتح له المعلّم ولا صحبه ولا زائروه القلائل. فاستمرّ البحث عن بيتٍ آخر.

وسكنّا الثلاثة في هذا البيت في بادئ الأمر لأنّه لم يكن هنالك بيتٌ آخر. أمّا فاتح فلم يجلب عائلته معه إلى البيت ولم يمكث فيه إلّا قليلاً، واستأجر قبواً ظريفاً مفروشاً في منطقة التّجارة، وكان المعلّم يذهب إلى بيته هذا دائماً، يلاعب ابنه صادق الذي كان أبوه قد اشترى له (مشّاية) تلك الآلة التي يتعلّم بها الطفل المشي، ولم يكن قد تجاوز الثمانية أشهر بعد. أمّا أنا فقد جلبتُ امرأتي وسكنّا في بيت المعلّم.

وذات مساءٍ طُلِبنا نحن الثلاثة إلى الشعبة السياسيّة أو إلى قيادة الشرطة لا أذكر تماماً، وما علمنا في بادئ الأمر سبب هذا الطلب، وكانت المقابلة في السرايا بدمشق. وقابَلَنا هناك اثنان من المسؤولين، وسألانا عن مطالبنا، فتعجّبنا لهذا السؤال، إذ لم نقدّم أيّة مطالب ذلك الوقت. فقال المسؤولان لنا : عادةً من يختلق الحوادث والمشاجرات يكون له مطالب، يظهرها بهذا الشكل، وأنتم تختلقون مشاكل عديدة، وذكرا قصّة تافهة جرت بين أناس في الجبل وبين جيرانهم ضُرب بها رجلٌ غير مرشدي. وقصّة أخرى أشعل فتيل الفتنة بها رجل غير مرشدي واستطاع أن يخدع بعض المرشديّين ليقوموا معه لأجل استرجاع امرأته على ما أذكر. وكانت هنالك بعض الحوادث جرت بين رجالٍ من شين من المرشديّين وجيرانهم من غير المرشديّين. فأجبنا أنّه ليس لنا أيّة مطالب لنختلق لأجلها مشاكلَ وأحداثاً، إنّما هي أحداثٌ دائمة الوقوع بين الناس.

سيّارة باسمي

وفي بيت الدغلي هذا اشترى المعلّم سيّارة صغيرة قديمة بعض الشيء بابين ماركتها أوبّل لونها أصفر، وسجّلها باسمي.

وذهبت معه لنتعلّم قيادة السيّارة في مكتب في دمشق، ولم نتمّ هذا التعليم بشكلٍ كامل، ولكننا حصلنا على رخص قيادة السيّارات. وصار المعلّم يقود هذه السيّارة (ولكنّي كنت أستعملها أكثر منه) ويصحب معه رفاق المنفى وفاتح وأحياناً أكون معهم في نزهات بالسيّارة. فمرّةً إلى الزبداني أو إلى خرابو وإلى غيرهما.

وكنت أقود بتهوّرٍ في بداية قيادتي للسيّارة، وأذهب بقلوب الراكبين معي، وخاصّةً أخي فاتح وعلي حبيب الذي صرخ إحدى المرّات مستنجداً بالناس في الشارع كي يوقفوا السيّارة. ومن الغريب أنّ فاتح رغم خوفه من ركوب السيّارة عندما أقودها، ما انقطع عن الذهاب معي بها، وكنّا نذهب بها كثيراً. ومن المضحك أيضاً أنّني كنت أخاف بدوري عندما يقود المعلّم السيّارة وأنا معه، مع أنّ قيادته لم تكن متهوّرة أبداً، وإن لم تكن كاملة بعد في الرجوع إلى الوراء.

وما أطال فاتح إقامته في القبو، فقد غادره إلى بناية شمس الدين دخان في القصّاع، واستأجر شقّةً في الطابق الأرضيّ من هذه البناية الكبيرة، وكانت هذه الشقّة شمالية، وبرودتها في الشتاء شديدة، أمّا في الصيف فحرارتها أشدّ. ثم لحقت به، فأصبحنا نسكن معاً في شقّةٍ واحدة. ثم ترك المعلّم بيت الدغلي، وسكن معنا في هذه الشقّة لفترةٍ جدّ وجيزة.

فترة المزّة

أسفر البحث عن بيتٍ جديد يتّسع لزائري المعلّم من الذين يتعلّمون عنده عن إيجاد بيتٍ جميل (ڤيلّا لنفسها) في آخر منطقة المزّة قرب المطار، ويبعد عن دمشق حوالى سبعة كيلو مترات. وأمّا الذي وجد البيت فهو علي حبيب الذي اشتهر بيننا بإيجاد بيوتٍ للإيجار. وانتقل المعلّم إلى هذا البيت حوالى بداية الخريف سنة ١٩٦٤. وبذلك يكون قد مكث في بيت الدغلي شهراً أو شهراً ونصف الشهر لا أظنّ أكثر.

المزّة ضاحية من ضواحي دمشق، وهي في الأصل بلدة قديمة جدّاً، ثم امتدّت دمشق إليها، وفي الزمن الذي نكتب عنه بدأ تجّار دمشق يشيدون الڤيلّات في المنطقة الممتدّة من بلدة المزّة القديمة حتى ما قبل المطار، وسُمّيت هذه المنطقة دمشق الجديدة. وكانت آنذاك عبارة عن ڤيلّات مبعثرة هنا وهناك، وقد يصل البعد بين الڤيلاّ وجارتها إلى الكيلو متر، وقد يتصادف وجود ثلاث ڤيلّات متوالية أو أكثر. كثيرٌ من هذه الأبنية كان مازال في طور البناء، واحدةٌ يكاد ينتهي بناؤها بينما جارتها بدأت المباشرة بحفر أساسها، وقليلةٌ كانت الڤيلّات التي سكن فيها أصحابها، وخلاصة القول أنّ المنطقة كانت مازالت في مراحلها الأولى من الإنشاء.

وما كان أحلى انتقال الرجال القادمين للتعليم وتوزّعهم في هذا البيت، في صالونه وحديقته. للصالون أبوابٌ كثيرةٌ من الزجاج، فكنت تراهم أينما نظرتَ في غدوٍّ ورواح، ينشدون الترويح عن النفس في هذه الحديقة الغنّاء، وفي فناء البيت، وخاصّةً عند العصر وقُبيل الغروب.

وجاء المغنّون الثلاثة وهم محمّد إبراهيم ومحمّد عبدو وسلمان رجب وهم من قرية العقربيّة يأخذون الفواصل المحبّبة في تلك السهرات للترويح، وكذلك شاعران معروفان في المرشديّين، وانتقلت (قعدة) التلّ تماماً إلى المزّة وكأنّما لم يتغيّر شيء ما عدا المكان. ولكنّ هذا الحال لم يدم كثيراً فكأنّ الصعاب كانت تنشأ من نفسها، وتهبّ في وجه المعلّم تمنعه من الاستمرار في التعليم.

الكبسة

وحدث مرّةً وبينما الطلاب عنده في الجلسة، وهو يتكلّم بينهم، وكان العدد ينيف على

مئة رجل، وكانت الجلسة صفيّة، والحديث بها عن الإيمان وكان حديثاً عذباً. وفجأةً طُرِقَ الباب طرقاً قويّاً، وسُمِعَت (خرتشة) البنادق، ودخل بعض الرجال المسلّحين إلى الطابق العلوي، يطلبون ساجي المرشد وفاتح ونور المضيء. ودخل بعضهم أيضاً إلى الطابق الأرضيّ، ولكنّهم لم يجسروا على الاقتراب من الصالون، وطلبوا من الجميع عدم التحرّك. وقابلهم المعلّم فوراً، وأُخِذْنا الثلاثة إلى الشعبة السياسيّة، ذهبنا إليها في سيّارة الأوبّل نفسها التي تحدثت عنها سابقاً، وركب معنا أحد رجال الشعبة السياسيّة، وكان المعلّم هو الذي يقود السيّارة، ورافقتنا سيّارات الشعبة.

وصلنا أوّل الأمر إلى مكتب منصور حموي، ولم يكن هو الذي سيقابلنا، بل كان عليه أن يرسلنا إلى مسؤولٍ آخَر، لذلك اكتفى بالقول: (مارح تسكتوا حتى نحطّكُن بالقبر). أمّا رئيس الشعبة السياسيّة الذي قابلنا، فأظنّه هو نفسه الذي قابلنا في السرايا قبل أشهرٍ من ذلك التاريخ. وكان يظهر تعجّبه من هذا التجمّع الهائل. وقرب مطارٍ عسكريٍّ أيضاً !! ـ المقصود مطار المزّة العسكريّ ـ وكان واقعيّاً ومنطقيّاً في حديثه معنا. وقال لنا: إنّنا الآن ـ يقصد الحكومة ـ لا نكاد نسمح بإقامة عرسٍ أو مأتم أو طهور غلام، أو حتى إقامة مولد إلّا بعد ترخيصٍ رسميّ، وكلّ ذلك خوفاً من الاجتماعات، وأنتم تقيمون مثلَ هذه الاجتماعات الكبيرة وبدون أي ترخيص وبقرب مطارٍ عسكريّ ـ القصد بالترخيص هنا إعطاء خبر للشعبة السياسيّة قبل القيام بأيّ اجتماع ـ وفعلاً لم يكن أحد في البلاد يجسر على إقامة أيّ اجتماع ذلك الزمن. وكان المعلّم لا يفتأ يقيم الاجتماعات منذ بيت ركن الدين ثمّ في بيت الميدان وبعده في الجبل وبعده في بيت شمس الدين وبعده في التلّ ثم أخيراً في المزّة. وأنبأنا أنّ وشايةً قُدّمت بحقّنا، وكان الظنّ بالواشي أنّه صاحب البيت، وأذكر كنيته وهي الطبّاع، وذلك لخوفه عندما مرّ بسيّارته أمام البيت في الليل، وشاهد هذه الجموع المحتشدة، فما كان منه إلّا أنْ أقدم على هذه الوشاية قائلاً لنفسه: لربّما كان هؤلاء الناس يدبّرون أمراً، أو يخطّطون لأمرٍ سياسيّ فأُتَّهَمُ أنا معهم أيضاً.

وأثناء هذه المقابلة ما فتئ رئيس الشعبة السياسيّة يتّصل بالتليفون اللّاسلكيّ برجاله الذين يفتّشون البيت، ويأخذون أسماء المجتمعين به واحداً واحداً. فأفاده بعض رجال المباحث، أنّهم سمعوا في بادئ الأمر (خرتشة) السلاح داخل البيت. فأنكرنا هذا إنكاراً كاملاً ـ وفعلاً لم يكن في بيت المعلّم لا يومها ولا بعدها قطعة سلاح واحدة، ولم يعتنِ المعلّم ولا رجاله يوماً بحملِ السلاح إلى ما بعد هذه الحادثة بخمسة عشر عاماً ـ وطلبنا منه أن يفتّش البيت كلّه، ليتحقّق من هذا الافتراء. وقام رجال المخابرات بتفتيش البيت تفتيشاً دقيقاً، فلم يجدوا

أيّ سلاح، وأجابوا رئيسهم بعد أن أُخرِجوا أمامه وتبيّن كذبهم قائلين : لربّما رموا السلاح بدورات المياه. وكان هذا مضحكاً.

وقد أهاب رئيس الشعبة السياسيّة بنا أن لا نفعل هذا ثانيةً، قائلاً : الزيارة تكون شخصاً، شخصين، إلى ثلاثة، أكثر بقليل عند الضرورة، ولكن لا يصحّ أن تكون بالعشرات أو المئات. ولم يكن بالرجل المتعجرف، ولم يُسمعنا من الكلام ما تأباه النفوس، ولم يعاملنا إلّا معاملةً حسنةً أثناء الحديث كلّه.

ولمّا رجعنا إلى البيت، وجدنا أنّه لم يزل بعض رجال المباحث في البيت، ولم ينتهِ تسجيل أسماء الموجودين كلّهم بعد. وكان الذي يُسَجَّل اسمه، يُترك وشأنه. وأخيراً انتهى هذا المشهد، وجلسنا نرتاح في البيت بعد هذه الليلة الصاخبة، وبقي بعض رجال المخابرات عند باب البيت حتى الصباح.

أمّا بعد هذا، فلم يسمحوا بالاجتماعات أن تقوم في بيت المعلّم بتاتاً. وكان رجال المخابرات في الأشهر التالية يأتون ويذهبون أثناء النهار وأطراف الليل، ليتأكّدوا من عدم وجود أيّ تجمّع كبير.

وخلا البيت بعد هذه الحادثة مباشرةً، وقلّ عدد الزائرين كثيراً. فلا يكاد يأتي إلى البيت إلّا نحن أخواه، والمنفيّون الثلاثة، وحسن يوسف ناصر الذي كان دائم الإقامة عند المعلّم.

وسارت الأيّام على عهدها الأوّل، كما سارت عند انقطاع مجيء الزائرين في التلّ. فأصبح الحديث حديث (وِنْسَة) وكثرت الروحات إلى بيتَي (المنفيَّيْن) علي حبيب ويوسف محمود في المأمونيّة أو ما بقي منها (لاكتساح بيوت البيتون أشجارها ومزارعها) وكثرت المشاوير في السيّارة واكتشاف ما بقي من أنحاء المزّة الجديدة.

أمّا بقية الزائرين من المرشديّين فرجعوا إلى زيارة المعلّم اثنين إلى ثلاثة إلى أربعة حتى بات بيت المزة يستقبل العديد منهم يوميّاً، ولكن ليس كالأوّل أبداً، فما تجاوز العدد العشرين إلّا نادراً. وباع سيّارة الأوبل الصغيرة هذه بمبلغٍ زهيدٍ بعد حادثٍ وقع أثناء قيادتي لها، وكان يَوَدُّ بيعها قبل ذلك، وقد عرضها على البيع عدّة مرّات قبل الحادث. ومن المرشديّين من ارتاح إلى بيع هذه السيّارة الصغيرة القديمة، وخاصّةً عزيز سعد (وجيه بيت سعد). فلم يكن يرضى هؤلاء أن يروا إمامهم يركب في سيّارةٍ صغيرةٍ وقديمة كهذه السيّارة.

واشترى المعلّم سيّارة جديدة متوسّطة الحجم وماركتها (رامبلر) وهي ماركة أميركية، حلوة يميل لونها إلى الاخضرار، ويناسب لون البيت الأخضر الزاهي. وصار يذهب مع مرافقيه المذكورين في نزهات بهذه السيّارة الجديدة. ثم وضع لها سائقاً، وكان هذا السائق قد تعلّم قيادة السيّارة في الجيش، وهو أبو ناظم من عكاكير. ولم تَدُم هذه السيّارة كثيراً عنده، فقد باعها بعد مدّةٍ وجيزةٍ من شرائها وذلك كي يرسل ثمنها إلى مرشديي شين عند وقوع حوادث افتعلتها الحكومة المحلية في حمص ووضعوا كثيراً من المرشديّين في السجن ونهبوا القرية ولكن محكمة الأمن القومي التي أحيل إليها من بقي في السجن من المرشديّين أفرجت عنهم وقد قال رئيسها صلاح الضلّي : لماذا جلبتم هؤلاء إلى محكمة الأمن القومي. أكلّ مشاجرة بين الناس ترسلونهم إلى محكمة الأمن القومي ؟!.

ومكث المعلّم في هذا البيت أشهراً بعد هذه الكبسة المذكورة. وقد اضطرّته مقاطعة الحكومة المتكرّرة لاجتماعاته مع المرشديّين إلى التفكير بوسيلةٍ أخرى، يوصل بها التعليم إلى المرشديّين إلى جانب الطريقة المعهودة السابقة وهي قدومهم إلى بيته.

تعلّم المعرفة الجديدة حقٌّ لكلّ من اراد

لقد عمل المعلّم ترتيباً جديداً لقدوم من يريد أن يتعلّم على يديه وليس حصراً على الذين نجحوا في الاختبار، فهو من جهةٍ لا يستطيع أن يسمح لهم أن يأتوا إليه متى شاءوا، إذاً لملؤوا شوارع المدينة وغصّت الطرقات بهم ولأوقفت الحكومة الجيئة فوراً، وهو من جهةٍ أخرى لا يريد أن يوقف التعليم ولا أن يقصره على الطلاب. فهو يريد أن يعلّم أتباعه جميعهم، وليس فئةً منهم فقط، والنساء والأطفال أيضاً لو كان إلى ذلك من سبيل، فمعرفة الله الجديدة عنده وهذا حقّهم، فلِمَ الانتظار ؟!.

وهو ما أقام الاختبار الذي اختار بموجبه الطلاّب إلّا لكي يلفت أنظار كلّ المرشديّين إلى ضرورة تعلّم ما جاء به مجيب، وأنّ العالِم منهم خيرٌ من الجاهل، وأنّ دعوة مجيب إلى العلم هي حقيقة العطاء، فهي القطاف، وهي الثواب، وبها الرفعة، وهي الطريق التي اختارها الله لهم، فعلامَ يتكاسلون عنها ؟!.

استخدم المعلّم بعض الرجال لإرسال التوجيهات الآنيّة لأتباعه، وإرسال أشعاره ورسائله إلى قرى المرشديّين ومحلاّتهم الكثيرة وكان يُطلَق على مَن يُسلِّم عملاً بالمرشديّين اسم مستلم. وقد أراد المعلّم أن يسلّم أربعة ممّن رافقوا مجيب وهم أحمد حسن وأخوه علي حسن، وصالح علي ومحمود هوّاش مسؤولية التواصل بينه وبين المرشديّين وبذلك يعطيهم فرصةً

جديدة للسير وفق ما وجّهنا بجيب تلك السيرة التي أبوها وامتنعوا عنها، وكان قد سمع وعزف عنهم الكثير، فقد خبر ضعفهم وتخاذلهم عند الملمّات وذلك أثناء فترة العذاب والسجن وبعدها. وهم كانوا قد تواروا عن الأنظار في فترة سجن المعلّم ورفاقه، ولكنّه أحبّ لهم أن يعوّضوا ما فاتهم من قيام، وما كان يحبّ أن يفرّط بهؤلاء الذين كانوا من الذين رافقوا مجيب محاولاً بشتّى الطرق إنقاذهم من أنفسهم، وحاول لفت نظرهم إلى بيان الحقّ ونوره الساطع وكيفيّة المسلك القويم، إلّا أنّ عيونهم كان قد تأكّلها حبّ الدنيا، ومطامع الذات الأنانيّة، فما استطاعوا أن يروا شيئاً من النور.

إنّ المرشديّين كانوا يشكّلون دائماً مزلقاً خطيراً لكلّ مَنْ تَقَدَّم منهم، أو ظنّوا به الرفعة باحترامهم له، يتوددون ويتزلّفون إليه، حتى يشعروه أنّه فوق سائر إخوانه. وبذلك يجد الغرورُ منفذاً إلى قلب الرجل الذي يُعامَل مِثْلَ هذه المعاملة، ويعتبر نفسه شخصاً عظيماً، على الناس احترامه بشكلٍ مميّز. شهوةٌ في النفس تتطلّب ذاتها، ومن الصعب جدّاً التخلّص منها. حبّ العظمة والظهور غراس متأصّلةٌ بالنفس البشريّة، فإن أُتيح لها النموّ ولاقت جوّاً مناسباً غدت شجرةً تتكاثف أغصانها، وتزيد حتى تصل إلى ما يصعب تقديره من المغالاة بالذات[1].

أمّا المسلمون الأربعة المنوّه عنهم سابقاً، فكانوا قد تعرّضوا لهذا المرض، والتقطوا الوباء نظراً لتقدّمهم فترةً طويلةً في المرشديّين. فالأصحّاء أَوْلى بالإبعاد عن منشأ المرض من المرضى الذين أصبح الصواب بعلاجهم لا بإبعادهم، فقد التقطوا الوباء وانتهى الأمر. وهذا ما فعله المعلّم لهم فقد جعلهم نَقَلَةَ حديثه ليوصلوه إلى أتباعه في سائر القرى والمحلّات.

وقد أتاح لهم بهذا الأمر أن ينتبهوا إلى أنفسهم فيعودون أدراجهم إلى جادّة الصواب والضمير، خاصّةً وأنّ لهم تجربةً ومعاينةً من الساقطين الأوائل، ممّن تركوا الدعوة وأرادوا محاربتها كراجح محمود وعلي صقر، وممّن ساروا في طريق الضلال وادّعوا لأنفسهم العظمة الدينيّة كعبدو ديب ومغيث المرشد هؤلاء الأخيرون طرح بهم المعلّم خارج البيت المرشدي وأذاقهم كأس المرارة والندامة بعد الحلاوة والزعامة التي جنحوا إليها. فها هو طريق الخير على يمين المسلمين وطريق الشرّ على يسارهم، فأيّ طريقٍ يختارون؟. والمعلّم بهذا العمل لم

---

(١) هذه الظاهرة ظاهرة التزلّف للأفراد المظن بهم متقدمون دينياً، اختفت نهائياً وتلاشت من المجتمع المرشدي بعد أن طرد المعلّم المسلمين الأربعة من الصف المرشدي وبعد إكمال سيره لأتباعه بعزة تأبى أن يكون لها سيّدٌ إلاّ إلهها ونعم السيادة، حتى أخذت ظاهرة التحرر هذه بالمرشديين مأخذاً ربّما لم يسبقهم إليه مجموع قبلهم.

يكن يهدف فقط إلى إعطاء سبيل التوبة إلى هؤلاء الأربعة، بل إنّ هذا الحديث الذي عليهم إيصاله، لربّما نَفَعَ المرشديّين. كما وأنّ المعلّم استخدم هؤلاء الأربعة لإرسال التوجيهات الآنيّة للمرشديّين، وإرسال الأشعار وضبطها أثناء الكتابة لقرى المرشديّين ومحلّاتهم الكثيرة. وقد جعل لهم مسؤوليّة ذلك العمل الكريم، فهو باستخدامهم يسّر لهم سبيل الرجوع إلى الصواب من جهة، ويسّر للمرشديّين طريقةً لوصول رسائله وأشعاره وبعض كلامه إليهم من جهة أخرى. وهو لو استخدم غيرهم، إذاً لوقعوا بما وقع به هؤلاء فيما بعد، ولربّما أوغلوا في الضلالة، وساقوا الناس إلى الزَلّة أكثر ممّا فعل أولئك الأربعة.

فترة بيت الحريري

ولم يعد هنالك معنى للبقاء في بيت المزّة فقد انقطعت الجيئة وبات هذا البيت كبيراً جداً بالنسبة لساكنيه وبعيداً عن المدينة، فأسباب انتقائه قد بَطَلَتْ بعد توقّف حركة التعليم، وقد سكن به المعلّم ستّة أشهرٍ على ما أذكر من خريف سنة ١٩٦٤ إلى ربيع سنة ١٩٦٥ فنشط البحث عن بيتٍ غيره يتّسع لقدوم الوافدين أيضاً، ويكون في المدينة لا في ضواحيها، كي لا يلفت قدومهم إليه الأنظار بشكلٍ علنيّ، ففي المدينة يندمجون مع غيرهم، ثم أنّه قد قرّر ترتيب جيئتهم إليه، بحيث لا يشعر بها الحاكمون فيعمدون إلى إيقافها.

وعُثِرَ على بيتٍ يحوي بعض هذه الصفات المطلوبة، وفاتح هو الذي وجده. وتمّ استئجار هذا البيت في ربيع سنة ١٩٦٥ أو في بداية الصيف وكان في منطقة أبو رمّانة الشهيرة والتي يسكنها أغنياء دمشق.

علم ساجي أنّ المسؤولين يومها وإن ادّعوا الاشتراكيّة، فهم لا يقيمون وزناً لأحدٍ إلّا بقدر ما هو غنيّ أو بقدر سلطته. فنظرتهم للإمام وقد سكن بيتاً كبيراً وجميلاً في منطقة أبو رمّانة، وقبلها في ڤيلات المزّة وهي ضاحية لأغنياء دمشق أيضاً، تجعلهم ينظرون إليه بشيءٍ من الاحترام، فلا يعاملونه بازدراء كما كانوا سيفعلون لو سكن بيتاً متواضعاً في ضواحي دمشق مثلاً كما حدث في التل والمأمونيّة سابقاً.

وهو بالحقّ لم يكن لديه من المال بأكثر من أجرة أحد هذه البيوت بكثير، فأجرة البيت تمثّل المادّة الكبرى في قائمة المصروفات السنويّة، وإن حدث وتجمّع عنده المال بكثرة بعد دفع أجرة البيت، ظننته يحتار كيف سيصرف هذا المبلغ الزائد ولا يفتأ حتى يدبّر له مخرجاً، وكان يحيّرني هذا الأمر.

وكان هذا البيت الجديد يمثّل الطابق الرابع والأخير من البناية، به صالونان طويلان متوازيان منفتحان على بعضهما بواسطة بابين عريضين. وكان في هذا البيت ثلاث غرف للنوم، وغرفة استقبالٍ صغيرةٍ. واستقلّ المعلّم إحدى غرف النوم هذه، وشغلت الغرفة الثانية مع امرأتي وكان قد وُلِدت لي فتاة. أمّا غرفة النوم الثالثة فكان ينام فيها فاتح إن صدف وأراد النوم في البيت بعد سهرةٍ طويلةٍ مثلاً، وكان ينام فيها بعض المستلمين وغيرهم وذلك عندما يكون البيت غاصّاً بالوافدين، وقد يجلس فيها المعلّم في النهار أو في المساء مع المستلمين

عندما يكون البيت مليئاً، ليلقي إليهم بعض التعليمات أو ما شابه من أمور. أمّا غرفة الاستقبال الصغيرة فقد كانت لا تكاد تتسع لجلوس أكثر من عدد أصابع اليدّ الواحدة.

وكان البيت جميلاً ومدهوناً على الطريقة الحديثة وأبوابه من الخشب الممتاز. وفُرِش الصالونان بالسجّاد الممتاز ووضعت فيهما الفرشات لمدّها للقادمين أثناء النوم كالعادة.

كان مجيء المرشديّين إلى بيت الحريري مرتّباً ومدروساً سابقاً، فكان على الذي يريد زيارة المعلّم منهم أن يسجّل اسمه عند أحد المستلمين. وعندما يأذن المعلّم بالقدوم إليه، لا يأتي إلّا الذين سجّلوا أسماءهم فقط. كما كان المستلمون يعيّنون لكلّ قادمٍ يوماً يأتي فيه. فترى في البيت خمسةً من هذه القرية وثلاثةً من تلك وواحداً من غيرها، عددٌ معروفٌ مسبقاً يتوافد كلّ يوم لزيارته. وقد يصل هذا العدد إلى حوالى السبعين رجلاً أو المائة ويزيد أحياناً.

وكان قد بلّغ المعلّم المرشديّين عن طريق المستلمين طبعاً أنّ كلّ من يأتي لزيارته عليه أن يرتدي بنطلوناً، وعليه أن لا يضع على رأسه الشملة والعقال، وذلك كي لا يلفت منظرهم أعين الناس في المدينة وهم قادمون إلى بيته، فيسارع أهل المحلّة للوشاية بهم إلى الحكومة فتُقْطَعُ الجيئة كالعادة. لا يروق منظر الفلّاحين بلباسهم الشعبي أعيان أهل المدينة الذين يعتبرون طبقة الفلّاحين دونهم، ولا يستطيعون احتمال مرورهم بمحلّتهم بشكلٍ كثيف. أمّا إذا ارتدى المرشديّون الثياب المدنيّة فيقول الناس في المحلّة: هؤلاء بيت المرشد، يمتلئ بيتهم بالناس كالعادة، وهم يُقصدون من جماعتهم دائماً. أمرٌ مسلّمٌ به لا يكترث الناس له كثيراً، فهم لن يشوا بقدوم المرشديّين إلى بيت المعلّم، إلّا إذا ضايقهم هذا القدوم، وهذا الذي كان يحاذر منه المعلّم. فالناس لا يعنيهم أمر ما بين الحكومة وبيت المرشد. وخصام الحكومة وبيت المرشد كان قد اشتهر جدّاً منذ عهد سلمان.

ولذلك جعل المعلّم قدوم المرشديّين إلى البيت متقطّعاً، أي لا يدخلون كجماعاتٍ كبيرةٍ دفعةً واحدةً إلى البيت. فكان يُعنى في التدبير المُسبَق للجيئة، أن يُقال لأناسٍ منهم أن يؤمّوا دمشق مستخدمين باصات النقل الصباحي، ويُقال لآخرين أن يستخدموا باصات النقل المسائي، كما وإنّ عشراتٍ منهم يجتمعون في بيوت المرشديّين في المأمونيّة، قبل أن يُصار إلى نقلهم إلى بيته في أبو رمّانة على دفعاتٍ متلاحقةٍ، وكذلك عندما يخرجون من البيت صباحاً، يخرجون في دفعاتٍ متلاحقةٍ أيضاً، أي كلّ ساعةٍ أو لربّما كلّ نصف ساعة خمسة رجالٍ إلى عشرة رجالٍ. وكانوا يخرجون من البيت في الصباح الباكر قبل استيقاظ الناس وخروجهم، فلا يكاد يتنبه إليهم أحدٌ.

وبفضل ذلك التدبير لربّما لم يلحظ أهلُ المحلّة أو حتى سكّانُ البناية أنفسهم هذا

التواجد الضخم في البيت. وكان يُحرص في البيت على إبقاء الستائر مسدلةً على النوافذ، فلا تجيز النظر إن كان هناك أناسٌ في البنايات المقابلة يتطلّعون إلى البيت، ولربّما كان بينهم بعض رجال المخابرات الذين ما فتئوا يراقبون بيت المعلّم عشرات السنين قبل وبعد الزمن الذي نكتب عنه.

جلسات المعلّم في بيت الحريري

كانت جلساته في هذا البيت مع أتباعه من أصفى الجلسات التي عرفتها أو من أنقاها، وقد تلاشت أو كادت الشوائب المعتادة في مثل تلك الجلسات كنوم البعض أثناء الجلسة، وكدر البعض الآخر ممّن أتعبهم السفر، بل الجميع كانوا يصغون إلى الحديث وأيّما إصغاء، ذلك كما رسخت صورة الجلسات هذه في ذاكرتي.

وكانت الجيئة الواحدة تدوم حوالي العشرين يوماً أو تزيد، ثم تتوقّف شهراً أو أقلّ، ثم جعل المعلّم القادمين إليه يأتون إلى بيتي - وكنت قد انتقلت إلى بيت شمس الدين في القصّاع - فكان يقيم جلسةً في بيته، ثم جلسةً أخرى في بيتي في اليوم الواحد. وذلك كي يتسنّى له أن يتحدّث إلى أكبر عددٍ ممكن من المرشديّين، وبقيت الجلسة تُقام في بيتي حوالي الشهر، وكان هنالك في جميع هذه الجيئات يومٌ في الأسبوع مخصّصٌ للراحة فلا يأتي فيه أحدٌ.

توقّف الجيئات

وأثناء تلك الجيئات أصابت المعلّم نزلة بردٍ شديدة، وامتلأ أنفه بالطفح كنتيجةٍ لها. ولكنّه ما أحبّ أن يقطع الجيئة لأجل ذلك، وواظب على استقبال الوافدين إليه والجلوس بينهم يوميّاً، ممّا جعل الرشحة تزداد شدّةً. وكان يراجع الأطبّاء وكانوا يعطونه أدويةً مضادّات حيويّة، ومركّبات إزالة الاحتقان ومضادّات الحساسيّة، ولكنّ هذه الرشحة لم تُشفَ حتى ولم تتراجع، فيكرّر الأطبّاء إعطاء المضادّات الحيويّة وبقية الأدوية، فإذا يئسوا من نوعٍ باشروا بآخر ولكن بدون جدوى. هذا ولم يوقف الجيئة حتى أُجبرَ على ذلك إجباراً بسبب هذه الرشوحات، فما كان يجلس بين الوافدين حتى يبدأ بالعطس الشديد، ويبدأ نزيف الدم من الأنف فيضطرّ للخروج من الجلسة، ولا يستطيع المتابعة بأيّ شكلٍ كان.

وقد نصحه بعض الأطبّاء بإجراء عمليّةٍ جراحيّةٍ لتقويم الوتيرة الأنفيّة رغم بساطة انحرافها، فلعلّها تكون هي السبب في تلك الحساسيّة المفرطة جدّاً للرشح. وقام بإجراء هذه العمليّة، ولكنّها لم تسفر عن أيّة نتيجة.

دعنا الآن نتصوّر ما كان سيحدث لمرافقي المعلّم وللمرشديّن عموماً لو تُرِك على رغبته. فإنّ أحداً منهم ما كان استطاع متابعة ودوام هذا القدوم المنظّم، كان أرهقهم، وكذلك مرافقيه ولا أستثني نفسي ولا أحداً غيري. وخلاصة القول كما أرى أنّ أحداً منا لم يكن بقادرٍ لا نفسياً ولربّما ولا روحيّاً على هذه المتابعة الجبّارة، ولكن هل هذا هو السبب الحقيقي الذي لأجله سارت الأيّام هذا المسار؟! من يدري؟! لعلّه من الأسباب.

طالما ذكّرتني هذه الصعوبات التي كانت تعترض طريق المعلّم أكانت أسبابها حكوميّةً أم مرضيّةً أم داخليّةً بكلمةٍ لمجيب وهي: «مَنْ هبّ إلى الله هبّت إليه الصعائب». ولكنّ المعلّم لم توقفه هذه الصعائب ولم يستسلم لها. ففي كلّ مرّةٍ يعود إلى متابعة التعليم عند كلّ فرصةٍ مهما كانت صغيرة.

الحياة اليوميّة في بيت الحريري

إنّ الحياة اليوميّة في بيت الحريري كانت بسيطة وحلوة خلال الفترات التي تتوقّف فيها جيئات إخواننا. فهذه الجيئات كانت تتوقّف من عشرين يوماً إلى الثلاثين، ثم تعود فتستمرّ مقدار ما توقّفت، ثم تتوقّف، ثم تُستأنف من جديد. وعند توقّف الجيئات يُصبح البيت واسعاً على سكّانه، وكنت قد غادرت بيت المعلّم إلى بناية شمس الدين كما ذكرت سابقاً، وسكن فاتح في شقّةٍ من هذه البناية وسكنت أنا في شقة فوقها، ولم يبقَ معه أحدٌ يسكن البيت إلّا حسن يوسف ناصر وامرأته. وكان للبيت شقّة صغيرة على السطح عبارة عن غرفة ومتفعاتها، استقلّها حسن، ذلك الرجل الذي كان يرافقه ويعمل في بيته منذ السكن في بيروت.

أمّا الذين كانوا يأتون إلى بيته فهم نحن أخواه والمنفيّون الثلاثة. ونسهر عنده كلّ يومٍ تقريباً حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل. وأكثر الأيّام التي يتأخّر بها السهر، ننام في بيته حتى الصباح، ثم نذهب إلى بيوتنا. وكانت تلك السهرات هادئة ورضيّة، وهي وإن لم يتخلّلها حديث المعرفة إلّا نادراً، فقد كانت مشبعةً بجوّ الألفة، وتسودها روح الدعابة المحبّبة، ويهجرها النكد والرياء والإلزام. أحاديثها شتّى، وخاصةً عن مجرى الحياة السياسيّة في تلك الأيّام، وعن أقطاب العهد وكيف كانوا يتطاحنون للوصول إلى المناصب العليا في الدولة وعن قصصهم المضحكة آنذاك.

وكان العرب يوم ذاك مقسومين على أنفسهم كعادتهم، فإذاعة مصر تهاجم الحاكمين في سورية وتسخر منهم، وإذاعة سورية تحاول أن تردّ عليها، وكذلك إذاعة العراق تفعل نفس الشيء بالاثنين وتردّان عليها، فكانت هذه المهاترات الإذاعيّة تسليةً بحدّ ذاتها ولو أنّها غير مرضيّة.

وسكن كثيرٌ من المسؤولين ذلك الزمن في (أبو رمّانة) منطقة الأغنياء. فهم وإن كانوا اشتراكيّين وأصحاب دعوةٍ اشتراكيّة، إلّا أنّهم فضّلوا على ما يظهر مجاورة أرباب المال على مجاورة الفقراء من عمّال ومزارعين الذين كانوا يمثّلون المادّة الخام التي يصنع منها القادة شعاراتهم وتصريحاتهم وخطبهم الرنّانة.

وانطلقت النكات بين تجّار دمشق حول هذا الموضوع، ومن هذه النكات أنّهم باتوا يسمّون حي (أبو رمّانة) بحيّ الكادحين، نظراً لسكن معظم قادة العهد من مدنيّين وعسكريّين بهذا الحيّ، فقد كنت تسمع كلمة الكادحين من الراديو، وتقرؤها في الجرائد عشرات المرّات في اليوم الواحد.

وتعلّم علي حبيب بعد لأيٍ ركوب الدرّاجة (البسكليت) وصار يأتي من بيته في أواخر المأمونيّة إلى بيت الحريري بواسطة الدرّاجة قاطعاً معظم دمشق، ففي كلّ ليلةٍ تسمع منه حديثاً عمّا جرى له في شوارع دمشق، فمرّةً يصدم الباص، وأخرى تصدمه سيّارة، وهو رغم كلّ هذه المخاطر يصل سليماً معافى، ويضحك منه رفيقه يوسف محمود لهذه القيادة، ويُضحكنا برواية قصصه هذه.

وكان المعلّم كثيراً ما يذهب إلى بيت علي حبيب وإلى بيت يوسف في النهار وطبعاً إلى بيت فاتح، وكان ابنه صادق مازال طفلاً صغيراً. وكان المعلّم يلاعبه، ويقلّد كلامه الطفوليّ عندما يتكلّم معه. وكان هذا الصغير يحبّ السيّارات أكثر من كلّ شيء، وقد أستثني البوظة لأنّه كأبيه كان يحبّها جدّاً وكان يرضى مع أبيه أن (يُضرب إبرة) أي يأخذ حقنة وهي أصعب شيء على الطفل، بشرط أن يأخذه بالسيّارة، ويشتري له بوظة بعد الحقنة. ويتحمّل الألم ولا يبكي.

اضطُرّ المعلّم بعد إصابته بهذه الرشحة الجديدة التي ذكرناها سابقاً والروماتيزم قبلها إلى ارتداء الملابس الواقية من البرد على غير عادته القديمة، ففي بيروت كان يرتدي الملابس الخفيفة. في الصيف جلّابية بوبلين رقيقة، أو بزّة صيفية عند الخروج من البيت، وأحياناً كثيرة يرتدي البنطلون والقميص نصف كم فقط. أمّا في الشتاء فلم يكن يرتدي أكثر من كنزة تحت الجاكيت هذا إذا اشتدّ البرد. أمّا بعد هذين المرضَين الجديدين أصبح يحتمي من البرد جدّاً، وكان أكثر ما يضايقه أن يتعرّض لمصادر الهواء المباشرة. وأصبح ينتقي مكاناً معيّناً للجلوس في الغرفة أو في الصالون، وحتى في البيوت التي يزورها، يختارون له المكان الأقلّ تعرّضاً لمصادر الهواء المباشرة كالنوافذ والأبواب.

ولم تقتصر زيارة بيت المعلّم على من ذكرنا سابقاً، بل تعدّتهم إلى بعض المعروفين بشكلٍ جيّد في قراهم وعند المعلّم. وكان مجيئهم أثناء النهار أكثر منه في الليل. وقد يأتي أناسٌ

آخرون اعتادوا أن يزوروه ويقضوا عنده ساعاتٍ لمجرّد التسلية كمحمّد خازم الذي كان قد طُرِد من الجيش بسبب المرشديّة، أمّا تسريحه فكان بسبب اتهامه أنّه يزور بيت المعلّم، وقد ضُبِطَ في البيت أثناء الكبسة التي حدثت في بيت المزّة، وأعاده حافظ الأسد إلى الجيش بعد أن توسّط له قريبٌ للأسد واضطرّ الأسد أن يقول أنّ خازم كان مرسلاً بمهمّة إلى بيت ساجي المرشد من قبله حتى استطاع إقناع المسؤولين بإرجاعه.

ولم تكن هذه السهرات عند المعلّم تخلو من الغناء الروحي بحب الله، فكان الثلاثي العقربي المذكور سابقاً يأتي أحياناً إلى بيته، ويغنّون بأصواتهم الجميلة أشعاره وأشعار مجيب.

أبيات من اشعاره في فترة الحريري

ومن الأشعار التي أنشدها في بيت الحريري شعر يتحدّث عن الخمرة الإلهيّة (أي معرفة الله) كيف تفعل بشاربها:

لا غَـوْلُ بـخـمـرِكَ لا إثـمُ	ألـروحُ بـخـمـرِك والـنُّـعـمُ
وصـفـاءُ الـروحِ ونـشـوتُـهـا	والـطـهـرُ الـدائـمُ والـحِـلـمُ

ثم بعد أن تشرب الخمر القدسيّ، تأخذ النشوة روحك إلى أمكنةٍ لا يصلها الوهم:

تـعـلـو بـالـروح لأمـكـنـةٍ	جـلَّـتْ مـا طـاولَـهـا وَهْـمُ
لـربـوعٍ كـلُّـلَـهـا الـبـاري	بـالـعـزّ وجـلَّـلـهـا الـعِـظَـمُ

وما تفتأ حتى تصل بها إلى أعلى العلياء، ثم تعود الروح سكرى بخالقها وقد بلغت به الرشد، فلا نكسة بعد ذلك، بل العصمة أصبحت في جوهرها، وَسَعْدُها صار في الخالق:

فـتـعـودُ وقـد بـلـغَـتْ رُشـداً	وتـجـلّـى بـجـوهـرِهـا الـعِـصَـمُ
سـكـرى في الـخـالـقِ نـشـوانـه	ولـهـا فـي خـالـقـهـا نـجـمُ

ولعلّ أحلى وأطيب ما قاله في بيت الحريري (بالنسبة لي طبعاً، فلكلٍّ ذوقه ومزاجه) هو هذه الأبيات الأربعة:

روحي بحبِّكَ حرَكةٌ وسكونُ	ولـهـا بـحـمـدِكَ هـداةٌ وجـنـونُ
كانت لوجهك قبلَ كونِها جوهري	عـبـداً وبـعـد وجـودِنـا سـكـونُ

فهي ساكنةٌ على حبّ اللّه لا تبرحه، ومتحرّكةٌ به لا تنقطع عن حراكها، ولها بتسبيحه هداةٌ واستقرار، ولها أيضاً جنونٌ واستظهار.

هي عبدٌ للّه قبل أن تصبح جوهر المؤمن، وهي ستعود له كما جاءت منه، وهي التي سلكت غرام الإله في العهود القديمة قبل هذا الكون، وجاءت إلى هذا العالم تدين للإله بهذا العالم كما دانت له في العوالم السابقة، فهي فطرة الحبّ، وجوهرها الغرام:

سلَكَتْ غرامَك كلَّ عهدٍ أقدمٍ   وأتتْ بحُدْثِ العالمين تدينُ
هي فطرةُ الحبِّ الطهورِ وما بهاَ   إلاّ غرامُك جوهرٌ مكنونُ

الأحداث السياسيّة لسنوات ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦
وموقع المرشديّين فيها

إنّ الاتّصالات السياسيّة باتت شبه مقطوعةٍ تلك الأيّام. ولم تكن هناك من علاقة بين المعلّم وبين المسؤولين، وكان على سدّة الحكم تلك السنوات أمين الحافظ ومحمّد عمران، الأوّل بصفته رئيس مجلس الرئاسة، والثاني بصفته نائبه. وما أراد أمين الحافظ وهو من جماعة أكرم الحوراني منذ البداية أن يكون هناك أيّة علاقةٍ بين الحكم وبين المرشديّين. والمعتقد أنّه هو الذي سعى إلى إفشال مثل هذه العلاقة منذ أيّام الاتّصالات الأولى التي جرت بين ساجي وبين قادة الثورة. وكان محمّد عمران يمثّل التكتّل الأقوى في الجيش.

كانت هنالك تكتّلات عسكريّة غير هذا التكتّل الحاكم، وأقوى هذه التكتّلات تكتّل نور الدين الأتاسي وصلاح جديد، وقد دعم هذا التكتّل وزاده قوّةً انحياز الرجل القوي حافظ الأسد قائد سلاح الطيران يوم ذاك إليه.

وكان حافظ الأسد قد استطاع أن يفرض على رجال العهد ما أسماه بسرايا الدفاع، وكانت عبارة عن وحداتٍ صغيرةٍ من المصفّحات وبعض الدبّابات، مهمّتها الرسميّة حماية مطارين عسكريّين في دمشق. وعمل على تعيين أخيه رفعت الأسد قائداً لهذه السرايا الصغيرة.

لقد تعزّزت مكانة المرشديّين الاجتماعيّة ابتداءً من منتصف الستّينات من حيث الوظيفة والجنديّة. فباتوا غير مهدّدين بالتسريح التعسّفي من الوظائف المدنيّة أو من الجيش إلّا نادراً. أمّا بالنسبة للأحوال المادّيّة فقد ازداد دخل المرشديّين في الستّينات عنه في الخمسينات بشكلٍ عامّ، يظهر ذلك في أربعة مظاهر :

الأول : أنّهم شيّدوا البيوت من البيتون عوض بيوت القلّد في جميع قراهم تقريباً.

والثاني : أنّهم امتلكوا بعض البيوت الصغيرة في مدينتَي اللاذقيّة وحمص وهذا كان مستحيلاً في الخمسينات. فقد تجمّع المرشديّون في حارتين صغيرتين في مدينة اللاذقيّة في

مشروع قنينص وبوقا. وبأماكن أخرى متفرقة في أطراف المدينة. وفي حمص تجمعوا في حيّين في أطراف المدينة : حيّ كرم اللوز (الضهرة) وحيّ الزهرة.

أمّا المظهر الثالث : فيظهر في قدرتهم على ارتداء الثياب المدنيّة عوضاً عن ثياب الريف بالنسبة لأكثرهم، وفي تحسّن نوعيّة ثيابهم إجمالاً بالنسبة لما كانت عليه في الخمسينات.

والمظهر الرابع : كان في سهولة الانتقال في الباصات وما شابه من وسائط النقل، ففي الخمسينات كانت قدرة التنقّل جدّ محدودة، نظراً لعدم تواجد المال بين أيديهم إلّا نادراً. أمّا في الأيّام التي أكتب عنها فقد بات بقدرة مَنْ أراد من أهالي القرية أن يسافر متى شاء في أنحاء البلاد وسبب ذلك أنّهم باتوا يتقاضون أجوراً نظراً لكون كثيرٍ منهم يعملون فَعَلَةً في لبنان وفي البلاد، وبعضهم شغل وظائف لدى الدولة وكثير منهم التحق بالجيش ومع ذلك بقيت الغالبيّة العظمى تعمل بالأرض ولكن تجفيف الغاب ساعد الفلاحين كما ذكرنا سابقاً وأنقذهم من الفقر المدقع.

وخلاصة القول أنّ المرشديّين في الستّينات شأنهم شأن سكان الريف عامّةً أصبحوا بوضع ماديّ أفضل ممّا كانوا عليه في الخمسينات في المعيشة كما وإنّ الاضطهاد بدأ ينحسر عن المرشديّين وتوقّفت الملاحقات الفرديّة توقّفاً شبه تامّ، وبدأ انخراطهم في الوظائف العامّة في الدولة يزداد. كان المرشديّون لتوزّعهم في أنحاء سورية يمثّلون بعاداتهم ولهجاتهم وثيابهم المحلّيّة عادات معظم الفئات التي تتألّف منها سورية. فالقرى التي حول دمشق كالمنشيّة، لهجتهم وعاداتهم قريبة إلى أهالي حوران، والبيطاريّة إلى مناطق ضواحي دمشق، وكذلك أهل زعورا والغجر لهم لهجة أهالي الجولان وعاداتهم وثيابهم، وكذلك سهل حمص وتلكلخ. أمّا قرية الخرسان فكان لأهلها عادات البدو (العرب) بلهجتهم وثيابهم والوشم الأخضر الذي على الذقون. ولربّما اكتسب المرشديّون المجاورون للأكراد في منطقة صلنفة بعضاً من عاداتهم وتقاليدهم أيضاً.

انقلاب ٢٣ شباط

ومرّةً كنا نسهر في بيت المعلّم القريب إلى بيت أمين الحافظ وذلك في الثالث والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٦٦ وامتدّ بنا الحديث والتسلية حتى أوائل تباشير الفجر أو ما قبله بقليل، إذ بنا نسمع أزيز الرصاص خارج المبنى، ولم يكن إطلاق النار ببعيدٍ عن البيت، وكان هذا التراشق من رشاشاتٍ كبيرة، وكان واضحاً أنّ أمراً خطيراً يحدث في دمشق. فخرجنا إلى الشرفات نستطلع الأمر، فما رأينا إلّا ومضات الرصاص في الفضاء وبين

البـايات، وبدا أنّ مكان التراشق يبعد عن البيت بحوالى نصف كيلو متر أو يقلّ قليلاً، ثمّ توسّعت دائرة النار فأصبح يُسمع من بعيد ومن قريب، ثمّ اشتدّ القتال وبتنا نسمع دويّ المدافع القريبة والبعيدة وخاصّةً عند انجلاء الصباح، وخرجنا إلى سطح البناية لنعاين الدخان المتكاثف الذي دلّنا على أنّ بيت أمين الحافظ تأكله النيران.

وفتحنا الراديو في الساعة السادسة، فسمعنا بلاغاتٍ عسكريّةً عن الإطاحة بأمين الحافظ ورفيقه عمران ووزارتهما ومجالسهما، وعدّة بلاغات وبرقيّات التأييد. وبعد هذا الانقلاب أصبح نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة والأمين العامّ للحزب وأصبح صلاح جديد الأمين القطريّ للحزب.

ولكنّ السلطة الفعليّة كانت في يد صلاح جديد وبعض ضبّاطه. وشاركه بحكم البلاد بصورةٍ فعّالةٍ يوسف زعيّن رئيس الوزراء وإبراهيم ماخوس وزير الخارجيّة وعبد الكريم الجندي مدير إدارة أمن الدولة التي سُمّيت المخابرات العامّة فيما بعد ومحمد رباح الطويل وزيراً للداخلية، والأخير كان ممّن ناصبوا المرشديّين العداء بشكلٍ جدّي.

موقف البعثيين من المرشديّين

انقسم البعثيّون تلك السنوات بموقفهم من المرشديّين إلى ثلاث فئات :

الفئة الأولى وهي التي ناصبت المرشديّين العداء.

أمّا الفئة الثانية وهي الأكثر عدديّاً، كان موقفها من المرشديّين موقفاً لا مبالياً، فهم وإن لم يكونوا أصدقاءنا، فعلى الأقلّ لم يناصبونا العداء.

وتأتي الفئة الثالثة وهم هؤلاء الضبّاط وبعض السياسيّين المدنيّين من البعثيّين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم، ويُعْتَبَرون من قبل المرشديّين أنّهم أصدقاءُ لهم، وقد كانوا كذلك فعلاً. فقد كانوا متعاطفين معنا، يَظْهَر تعاطفهم هذا في الملمّات أو في مساعدة المرشديّين في شَغْلِ وظائف في الدولة. فقد توظّف كثيرٌ من المرشديّين أثناء هذه السنوات التي أكتب عنها. وأخصّ بعضهم بالذكر كالضابط محمّد إبراهيم العلي الذي ما وجدناه إلّا صادقاً في حديثه وفي تعامله مع المرشديّين، وسليمان العلي الذي توسّط لكثيرٍ من المرشديّين في الوظائف الحكوميّة. وأبوه وأمّه ومعظم إخوته من المرشديّين.

أمّا بيتُ الأسد إجمالاً فكانوا يعاملون المرشديّين كما كانوا يعاملون غيرهم من جيرانهم، لا يميّزون بين مرشديٍّ وغيره في التوسّط لهم لنيل وظيفةٍ ما.

نظرة عهد الأتاسي وجديد العدائية إلى المرشديين

كان من نتيجة قيام حركة شباط سنة ١٩٦٦ أنّ زيارة المرشديّين لإمامهم بشكل جماعي باتت مستحيلة، وذلك يعود لتشدّد الحكومة في مراقبة بيت المعلّم.

إنّ الضبّاط المتعاقبين على الحكم في سورية منذ ثورة ١٩٦٣ لم يحملوا بأكثرهم نيّة ترك المرشديّين لأنفسهم، بل إنّ كثيراً منهم كان يقف من المرشديين موقف المعادي. وعلى نقيض ذلك كانت هنالك طائفةٌ لا بأس بها من الضبّاط الواعين لا تحمل أيّة ضغينةٍ على المرشديّين أو حتى على عقيدتهم، والرأي الذي أبداه هؤلاء والقائل : إنّ دواء المرشديّين ليس بالاضطهاد والمواجهة، بل هذا سيزيدهم قوّةً ومضاءً ككلّ مذهبٍ وعقيدةٍ تتعرّض للاضطهاد في بداياتها، إنّما تتقوّى وتزداد رسوخاً، فدواء هذه العقيدة يأتي في التعليم (يقصدون المدارس) وبذلك تقتنع شبيبتهم ببطْلان أفكار آبائهم. هذا الرأي الذي أبدوه لم يكن ليمثّل نظرتهم الحقيقيّة إلى المرشديّين، إنّما أبدوه كحجّةٍ يقدّمونها لرفاقهم ضدّ رأي هؤلاء القائل بضرب المرشديّين شعباً وزعيماً، واستئصال جذور هذه الدعوة من أساسها.

إنّ هؤلاء رأوا في المرشديّة قوّة شعبيّة لها ماضٍ من التصدّي والمواجهة، فقد واجهت الصعوبات منذ بدايات القرن العشرين، واستطاعت أن تصمد بوجه الهجمات العنيفة التي شُنّت عليها من قبل سلسلة الحكّام المتعاقبين على سورية قبل وبعد الاستقلال، فما أحبّوا خسارة هذه القوّة الشعبيّة التي ستساندهم حتماً في حال نكوص حكمهم، أو بحال تعرّضهم للمواجهات الشديدة التي قد تقوم بينهم وبين الغير. فمصلحة المرشديّين كعمال وفلاحين تربطهم بثورة آذار التي أذلّت الإقطاع ذلك الإقطاع الذي عانى منه المرشديّون الأمرّين في العهود السابقة.

وخاصّةً أنّ هؤلاء الضبّاط الواعين لواقعهم، ما زالوا يذكرون أو ذكر لهم آباؤهم انتصار سلمان المرشد للمستضعفين، ومطالبته بإنصاف الفلاح، وقيامه ضدّ التعسّف الطائفي. ومن الضبّاط آنذاك مَن كان يملؤه موقف سلمان فخراً بهذا الرجل الشجاع وتصدّيه لحكّام البلاد ببعض المئات من الرجال أنصاف المسلّحين في معركة سطامو وغيرها. وهم مازالوا يذكرون تخاذل زعماء أقلّيات الساحل يومها عن نصرته، وقيامة أكثرهم ضدّه مسايرةً وخوفاً من بطش زعماء الكتلة الوطنيّة، وكيف طاف الدرك سنة ١٩٤٦ على القرى المجاورة في المحافظة، يُحضِرون من كلّ قرية بعض الرجال لقتال سلمان الناهض بقضيّتهم والمدافع عنها، ويشعر هؤلاء الضبّاط بقرارة أنفسهم بالذلّ لفعل آبائهم، وكانوا يعزون هذا العمل المشين إلى زعمائهم يومها، وهم بذلك محقّون.

كان هنالك كثير من الضباط الحاكمين يميل إلى ضرب المرشديّين إلّا أنّه كان هنالك ضباط متعقّلون لا يرون هذا الرأي ولا يحملون هذا الحقد، ويأتي على رأسهم وزير الدفاع آنذاك حافظ الأسد ومن قوله في أحد الاجتماعات الحزبيّة : المرشديّون لا يريدون إلّا أن يصلّوا فما ضرر الصلاة؟!. أتقاتلونهم فقط لأنّهم يصلّون أو يجتمعون للصلاة ؟!. فهم لم يقوموا بأيّ عملٍ ضدّ الحزب أو السلطة.

أمّا عصبة صلاح جديد التي دان لها الحكم بعد انقلاب سنة ١٩٦٦ فمعظمهم كان يرى المرشديّين بمنظارٍ آخر، وعلى الرغم من أنّ صلاح جديد نفسه لم يُعلن يوماً أنّه شخصيّاً ضدّ المرشديّين، إلّا أنّ معظم أفراد عصبته تقريباً كانوا يحملون الضغينة عليهم، تؤهّلهم نوعيّتهم وقصر أبصارهم لهذا الأمر.

فترة بيت شمس الدين

كان من نتيجة قيام انقلاب شباط سنة ١٩٦٦ أنّ (الجيئات) بعد أن انقطعت بات رجوعها مستحيلاً كما ذكرت سابقاً، وذلك يعود لتشدّد الحكومة في مراقبة كلّ اجتماع، ونظر إلينا العهد نظرة عداء بشكلٍ أشدّ من العهد السابق، وهكذا انتفت حاجة المعلّم إلى بيتٍ كبير في حيٍّ مرموق بعد توقّف قدوم المرشديّين، فانتقل من بناية الحريري في أبو رمّانة إلى بناية شمس الدين دخّان في القصّاع في ربيع أو صيف سنة ١٩٦٦ واستقلّ الشقّة التي كنت أسكن فيها، أمّا أنا فقد سكنت مع أخي فاتح في الشقّة التي هي تحت شقّة المعلّم مباشرةً، وكانت في الطابق الأرضيّ من البناية.

والحياة اليوميّة في هذا البيت لم تتغيّر كثيراً عن بيت الحريري، إلّا أنّ الروحات إلى بيت يوسف محمود أصبحت أكثر منها في بيت الحريري نظراً لقرب بيت يوسف من بيت شمس الدين، ولربّما كانت تفصلهما مسافة كيلو متر أو تنقص قليلاً. أمّا الذهاب إلى بيت علي حبيب فكان يحتاج لقطع مسافة كيلو مترين أو تزيد. وكانت هذه الروحات شبه يوميّة تقريباً وسيراً على الأقدام. وكان المعلّم يذهب إلى بيت ابراهيم علي ابراهيم (رفيق السجن والمنفى) أحياناً، ويقع بيته في حوالى منتصف الطريق بين بيت يوسف وبيت علي حبيب.

واعتاد المعلّم ومَنْ معه التمشّي حول ملعب العباسيّين[١] الذي يقع على الطريق ما بين بيته وبيت يوسف، وأمشي معه أنا أو فاتح أو أحد المنفيّين اثنان منّا أو أكثر حسب الظروف، نتمشّى حول الملعب متقصّدين إطالة مشوارنا. وكان يستغرق هذا التمشّي حوالى الساعة إلى الساعة ونصف، وكثيراً ما يُختتم بالذهاب إلى بيت يوسف، حيث يقدّم يوسف لنا بعض الأحيان البوظة أو الكازوز وأكثر الأحيان راحة الحلقوم غندور اللذيذة. أمّا القهوة والشاي فلا تسأل عنهما، وخاصّةً القهوة التي ما تكاد تخلو ساعةً من الزمن بدونها.

كنّا عندما ندور في التمشّي حول ملعب العباسيّين المستدير أو عندما نقصد بيت يوسف

---

(١) ملعب العباسيين لم يكن في الستينات بحجمه في السبعينات، ولم يكن هنالك بناء كثير حوله بل لا أظنّ أنه كان ثمّة بناء في الجهة التي تقابله جنوباً بل بساتين ما عدا بعض البيوت الترابية الصغيرة القديمة.

أو بيت علي حبيب لا نرتدي لهذه المشاوير إلّا الثياب العربيّة، فالتمشي في هذه الحارات لا يستدعي اللباس المدنيّ. ولم تقتصر هذه المشاوير على النهار فقط بل في الليل أيضاً، ولم يكن هنالك برنامجٌ يوميٌ معيّن نتقيّد به، بل إنّ الصدف وحدها كانت تتولّى ترتيب هذه الأمور.

وكان المعلّم يلتقي في بيوت المنفيّين بالمرشديّين العسكر الذين يقطنون في دمشق، فيقصّون عليه قصصهم ويشتركون بالحديث.

وبقي المستلمون على تنظيمهم الأوّل، يأتون إلى بيت المعلّم كلّ شهرٍ أو أكثر بأيام، ويمكثون أيّاماً، وأثناء هذه المدّة يكتبون التعاليم التي كان يكلّمهم بها، ويأخذونها ليقرؤوها على المرشديّين في قراهم ومحلاّتهم، ومن ثمّ يُصار إلى حرقها.

ولم يكن الحديث الروحيّ هو الوحيد أثناء تلك الجلسات، بل كانت هنالك أحاديثُ شتّى، وأبرز الأخبار هي الأخبار التي يأتي بها أحدهم واسمه صالح عن فلانٍ وعلاّن، وما يجري هناك في الجبل من أمورٍ مضحكة يُسلّينا بنقلها، وكانت له طريقةٌ خاصّةٌ وشيّقة بنقل الأخبار تحبّ دائماً أن تسمعها منه.

أذكر مرّة وكان المعلّم يحدّثنا كيف أنّ الحدْس قد خلقه اللّه بالإنسان، وأنّ الإنسان أضاعه في غمرة أفكاره ونواياه، وأثبت ذلك بواسطة حزّورات كنا نحزّره عنها ويحزرها جميعاً لم يخطئ بواحدة، مثلاً يطلب منه أحدنا أن يحزر أين وضع شيئاً ما فيخبره فوراً أين وضعه دون أي تلكؤ. إنّ المعلّم هنا لم يستعمل قوّة خارقة في هذا الأمر، ولم يستعمل سوى حَدْس الإنسان الذي خلقه اللّه به. وفَعَلَ هذا كي نعاين ونصدّق بوجود هذا الحَدْس في الإنسان ليس إلاّ.

كانت الشقتان اللتان نسكن فيهما تطلاّن على مرج واسع نسبيّاً، يمثّل أرض بنايةٍ كبيرة، استعملته الجالية الروسيّة الدبلوماسيّة كملعب لها للرّجال والنساء والأطفال، يأتي كثيرٌ منهم إليه في كلّ يوم. وقد تسنّى لنا بذلك معاينة طباع الروس وعاداتهم، وكيف يتعاملون فيما بينهم ويُعاملون أولادهم، ونوعيّة حياتهم وتقاليدهم.

وكان أولادهم يرتدون الثياب الجميلة والمدفئة جدّاً أيّام الشتاء، أمّا رجالهم ونساؤهم فلا يرتدون أكثر الأحيان إلّا الثياب الخفيفة والرياضيّة كالمايوهات مثلاً، لا يخشون البرد القارس أيّام الشتاء، مع أنّ الحرارة تكون بعض الأوقات تحت الصفر. وكان في منتصف هذا المكان مكانٌ خُصّص كملعب لكرة الطائرة (ڤولي) وكانوا يلعبونها كلّ يومٍ تقريباً نساءً

ورجالاً. هذا ولم نرهم يختصمون يوماً ولا يتنازعون على شيء، وكانت حفلاتهم التي يقيمونها بين الفينة والأخرى أروق وأهدأ من حفلات الغربيين وخاصّة الأميركان، ولكنّ حفلات الغربيّين الصاخبة هي أكثر جاذبيّة للناس من حفلات الروس وخاصّةً بالنسبة للمراهقين وللشبّان. وعلى الرغم أنّ نساءهم كنّ يرتدين ثياب الرياضة التي تكشف عن أجسادهن أمام أنظار سكان البناية المجاورة للملعب، إلّا أنّ عادة المعانقة الأوروبيّة بين النساء والرجال لم يكن لها أيّ وجودٍ مرئيّ. ولربّما تعمّدوا ذلك كي لا يُؤذوا شعور الجوار الذين لم يعتادوا على أمرٍ كهذا. أمّا الملاحظة السلبيّة الوحيدة فقد كانت أنّ هؤلاء الروس لا يكلّمون أحداً من جيران ملعبهم، ولا يحيّون أحداً. كما وأنّهم يغضّون من أبصارهم لدى النظر إليهم عن قربٍ، كي لا يتيحوا للناظر مبادرة أيّ حديثٍ معهم. وقد شاع يومها في الجوار أنّهم لا يجسرون على محادثة الناس لأنّهم مراقبون من بعضهم البعض فبعضهم جواسيس على بعضهم وتلك هي خطّة الحزب الشيوعيّ في مراقبة أفراده كما كان يُقال.

وكان المعلّم يخرج مع فاتح أو معي أو بمفرده للتمشّي في أسواق مدينة دمشق، وعندما يكون هنالك حاجةٌ ما يجب أن تُشترى من السوق كان واحدنا يبتهج لذلك، فهي حجّةٌ له أمام نفسه كي يخرج من البيت. فقتل الضجر كان شبه عملٍ، وهو العمل اليومي الوحيد الذي كنّا نمارسه. وما أصعب الحياة بلا عملٍ يوميٍّ ذي إيقاع رتيب.

وكان يأتي إلى زيارة المعلّم من غير مَنْ ذكرت سابقاً مرشديّون من البيطاريّة ومن أمّ ضبيب ومن علقين وغيرها (انتقل أهالي علقين بعد الإصلاح الزراعيّ إلى أرضٍ غير قريتهم، وشيّدوا بيوتاً لهم على طريق دمشق درعا وسُمّيت قريتهم بالمنشيّة) وهذه القرى مرشديّة وهي حول دمشق. وقد ذهب مرّةً أو مرّتين إلى البيطاريّة واجتمع بجماعتها هناك.

أمّا الشقّة التي كان يسكن فيها المعلّم فكانت عبارة عن ثلاث غرف متجاورة وصوفا ـ موزّع ـ صغيرة، تدخل منها إلى غرفةٍ صغيرة هي بمثابة غرفة معيشةٍ للبيت. فبات يلتقي بأتباعه في المأمونيّة في بيت ابراهيم علي ابراهيم، وفي بيت يوسف وبيت علي حبيب أيضاً. ولكنّ هذه الجلسات كانت مقصورةً على قلّةٍ من الذين كانوا قد أرسلوا له بطلب المقابلة مسبقاً، أو من الذين لهم عنده بعض الأعمال.

انحراف المستلمين عن المسير الصحيح

أمّا المستلمون ضِف عليهم المتطحين للرعاية الدينية فقد خلا لهم الجوّ في مناطق المرشديّين كما كانوا يشتهون. فالمعلّم لا يرى المرشديّين إلّا نادراً، ويكون الحديث بينه وبينهم عندما يراهم في الجيئات حديثاً تعليمياً فقط. وقد ظنّوا أنّ المعلّم يصدّقهم في كلّ ما

يقولون عندما يسألهم عن أمور الناس، وقد فعل المعلّم بهذا تماماً كعادته، يسلّف ثقةً لمن يوكله بأمر ما، وينتظر ليرى عمله. وكان يحذّرهم بين الحين والحين مغبّة الوقوع بالأخطاء القاتلة، وكان يلفت نظري أحياناً أنّ هؤلاء لا يسألونه شيئاً بخصوص عملهم الموكول لهم. فلو كانوا مخلصين حقيقةً في أعمالهم إذاً لتساءلوا كثيراً، ولنقلوا إليه تساؤلات المرشديّين عن هذا الحديث الذي يأتيهم بواسطتهم. وقد قال لي مرّةً أو أكثر أنّه يخاف عليهم وقوعهم في ما حذّرَ منه القرآن، وهو قوله في الناس الذين يحفظون كلمة الحقّ ولا يعملون بموجبها، يصبح مَثَلُ أحدِ هؤلاء «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا» سورة (الجمعة) الآية ٥. وقد حذّرهم المعلّم وأوضح لهم، أنّه إنّما يمثّل رضوان اللّه تمثيلاً صحيحاً، فَمَنْ شاء يتّبع، ومن شاء يمتنع، فهم لهم أن يصبحوا سعاة بالدعوة المرشديّة حقّاً، ولهم أيضاً أن يتقاعسوا عن هذا الكمال إذا أرادوا، ويصلوا بذلك إلى ما وصل إليه غيرهم من الساقطين في السابق.

رجعة إلى حالة البلاد السياسيّة

طبيعة حكم نور الدين الأتاسي وصلاح جديد

ساق نور الدين الأتاسي وصلاح جديد وعصبتهما اليسارية (جدّاً) البلادَ إلى أقصى ما يتصوّرون من يسار، حتى فاقوا بتطرّفهم الاتّحاد السوفييتي نفسه، وتعدّاه إلى الصين التي كانت تمثّل يوم ذاك أقصى اليسار في العالم.

وأصبحت سورية تحت حكم هذين الرجلين تُعرَفُ بين الدول بالدولة المتطرّفة جدّاً، وبعض الساسة السوفييت أنفسهم كانوا يحاولون إقناع سورية بالتوقّف عن هذا الانعطاف اليساريّ اللّامعقول. ومرّة وفي هيئة الأمم جاء السفير السوفياتي إلى جانب السفير السوري وقال له : ألا ترى ذلك الرجل بعيداً هناك؟. أجاب السفير السوري : نعم أراه. فقال السفير السوفياتي : اذهب إليه واضربه. احتار السوري وسأله : لماذا؟. أجاب السوفياتي : لأنّه لم يَعُد لكم صديق في الأمم المتّحدة إلّا دولة هذا السفير.

أمّا في الداخل فقد اختار صلاح جديد كلَّ ناقم على الناس ليشاركه الحكم، وكان يعطيهم صلاحيّةً ونفوذاً قويّاً كي يستميلهم إليه. وطفق يتخلّص من غيرهم من القادة البعثيّين فهو بعد أن أطاح بعمران وأمين الحافظ، تخلّص من سليم حاطوم[1] ومن صلاح الضلّي وأمثالهما، وبات دور حافظ الأسد غير بعيد، فقد حاول التخلّص منه بشتّى الطرق، ولكن الأسد كان من الوعي والجرأة بحيث لم يستطع صلاح جديد النيل منه رغم محاولات اغتياله تارةً والتشنيع عليه حزبيّاً تارةً أخرى.

أمّا أصحابه الجدد فأصبحوا يرتدون لباس العمّال أثناء العمل بدل اللباس الرسميّ،

---

(١) سليم حاطوم ضابط من مجلس قيادة الثورة، شارك (بالقفزة النوعيّة) مع نور الدين الأتاسي وصلاح جديد، فرّ من البلاد بعد محاولة فاشلة لاختطاف نور الدين الأتاسي وصلاح جديد، وقد نجح في البدء باحتجازهما في مدينة السويداء بعد أن دعاهما إلى الغداء هناك، ولكنّ الجيش وخاصّة الطيران رفض أن ينصاع له. وأرسل له حافظ الأسد وزير الدفاع وقائد سلاح الطيران آنذاك أن يعدمهما إذا شاء فما هما إلاّ كباقي أفراد الشعب، وذلك بعد أن كان قد هدّد حاطوم بإعدامهما، وأرسل الأسد الطيران فوق معسكر حاطوم وأعطاه مهلةً من الوقت قبل أن يباشر الطيران بقصف المعسكر ففرّ هارباً إلى الأردن. وجاء إلى سورية أثناء حرب ١٩٦٧ حيث أعدم بعد تشكيل محكمة ميدانيّة على وجه السرعة.

ويجوبون الشوارع ويطوفون بمعامل القطاع العامّ يضربون (المدراء) بأيديهم وبالعصي، يأخذون أصحاب (المحلّات) التجاريّة الكبرى في دمشق إلى سجون خاصّة، حيث يشبعونهم ضرباً ولكماً، ولا يخرجونهم إلّا على المحفّة بين الموت والحياة، وأحدهم مات فعلاً تحت وطأة التعذيب.

وصدر قرار من رئاسة الوزراء بارتداء ملابس العمل لكلّ موظّفي الدولة، تيمّناً بالصين أمّ اليساريّين في العالم. وصدر قرار العزل السياسيّ (تقليداً لعبد الناصر الذي كان أصدره بمصر) وكان يصدر هذا القرار متلاحقاً بحقّ أغنياء دمشق وبقيّة المحافظات. والعزل السياسيّ هو أن تؤخذ جميع أموال المعزول المنقولة وغير المنقولة، وتصادر جميع أملاكه، ويتمّ وضعه تحت الحراسة المشدّدة في تدمر. وقد صدر هذا القرار بحقّ العشرات من أعيان البلاد.

ودرجت عادة الشوارب الكبيرة ولبس الشاروخ وبزّة العمل بين العمّال، وكان سببها أحد الغلاة اليساريّين الموثوقين من العهد في اتحاد العمال والذي بات شاربه وشاروخه مضرب الأمثال، يتندّر الناس بهما سرّاً في كلّ مكان.

وأصبح العمّال أو ممثلوهم في اتحاد العمّال هم مالكو المعمل الذي هو للقطاع العامّ أساساً، يتصرّفون به كيف يشاؤون، لا يجرؤ مديرو المعمل على مخالفتهم، فاتحاد العمّال لهم بالمرصاد.

وانقطعت الصادرات والواردات من وإلى البلاد نظراً لتردّي البلاد بحالة الركود الاقتصادي بسبب الاقتصاد الاشتراكيّ الذي زجّ به العهد في البلاد قسراً بدون أيّة دراسةٍ مُسبقةٍ أو تروٍّ. وانتشرت نكتة في دمشق عن ذلك العهد وهي : حدث انقلاب وأُطيح بصلاح جديد وحُكم بالإعدام. فضحك وقال : إن تجدوا خشبة واحدة في كلّ البلاد فاشنقوني عليها. وأصبحت سورية في ذلك العهد حسب إعلامها أكثر قوميّةً وعروبةً من كلّ العرب، وأكثر اشتراكيّةً وتطرّفاً يسارياً من المعسكر الاشتراكيّ نفسه.

استشرت حمّى العداوة لغير اليساريّين بين جميع أفراد جماعة صلاح ونور الدين في الحزب، وكانوا قد أصبحوا كثيرين جدّاً. حمّى من القوميّة الهمجيّة، وفوضى اشتراكيّة بلا أيّ مضمونٍ أو دراسةٍ واعية. وهرب زعماء الأحزاب والشخصيّات السابقين من البلاد، وما بقي من أحدٍ يقف بوجه هؤلاء، حتى أنّ المشايخ مسلمين ومسيحيّين انكمشوا ولم ينبسوا ببنت شفة، فإنّه لم يكن لدين الناس أيّة قيمةٍ عند هؤلاء الجبابرة.

التهديد

استغلّ بعض المسؤولين هذه الحمّى وهذه الفوضى لطرح قضيّة المرشديّين على مستوى القيادة، وكان من الطبيعي جدّاً أن يناصر قضيّة ضرب المرشديّين الغلاة الذين كانوا يضمرون فيما يظهر من أعمالهم وخطبهم أنّهم يكنّون بقلوبهم إرادة القضاء على كلّ تديّن، ولم يكتفِ هؤلاء بالسجن أو الإبعاد، بل طالبوا بإعدام ساجي المرشد وضرب المرشديين، وهدم جوامعهم في كلّ قراهم. حيث كان المرشديّون قد شيّدوا بيوتاً من البيتون لجامعهم بشكلٍ علنيٍّ في كلّ قراهم. وذلك في بادرة منهم دون الرجوع بها إلى المعلّم فهم يعلمون أنّه سيرضى عنها لأنّها جرأةٌ بالمعتقد، وقد أبدى المعلّم ارتياحه لعملهم هذا.

إنّ نيّة ضرب المرشديّين وقتل إمامهم لم تصدر من القيادة كقرار رسمي بل بقيت نشرةً سياسيّة فقط ولا أعلم فحواها الحرفيّ، ولكنّني أعلم أنّ بعض المسؤولين عن التوجيه المعنويّ كانوا يقرؤون نشرةً سياسيّةً في أماكن كثيرة تتحدّث عن وجوب هدم جوامع المرشديّين، وإعدام ساجي المرشد. وهكذا أُعلِنَتْ هذه النيّة جهراً. أمّا كيف علمنا بها فقد كان بين من قُرِئت عليهم هذه النشرة مرشديّون سارعوا إلى بيت المعلّم ليرووا ما سمعوا وهم مرتاعون.

أمّا في القرى فما كانت السلطات المحلّيّة والحزبيّة معنيّةً بتخبئة هذا المطلب، وكان يصرّح بها مسؤولون إذا ذُكر المرشديّون بدون أيّة مداراة.

أرسل المعلّم إلى المرشديّين في تلك الآونة رسالةً تقول : إنّ الله سيطهّر هذا العالم على يد جنوده من البشر المؤمنين، وليس على يد الملائكة، فقد طهّر الله الكائنات بجنودٍ من هذه الأكوان نفسها، غير مستعملٍ جنود كونٍ من الأكوان لنصرة كونٍ آخر. والمساهمة في تطهير العالم هي في تقلّد سلاح الحقّ والخير وللناس جميعاً.

وقد نوّه بها عن احتمال مقتله كي لا يتخاذل المرشديّون إذا أقدم المتآمرون على قتله.

كان المعلّم دائماً برعاية أتباعه مستعدّاً لكلّ الاحتمالات، وما نسي هذا الاحتمال، بل أرسل لأتباعه كما كان يفعل في كثير من الأوضاع المشابهة، يشدّد العزائم، ويذكي الهمم في حال إقدام المعادين على هذا الفعل الذي يلوّحون به.

أمّا المرشديّون ككلّ فلم يخشوا هذا التهديد، وأظنّ أنّ أكثرهم لم يسمع به، وما أوصد المرشديّون جامعهم المهدّدة بالهدم، وما أوقفوا الذهاب إليها يوميّاً.

وما استمرّ هذا التهديد بعد أن أُعلِنَ إلّا أياماً، لعلّها لا ترقى إلى أكثر من نصف الشهر، حتى انتهى (الجماعة) عن ضرب المرشديّين بأمرٍ آخر لم يتبه وَفْقَ ما صوّرت لهم أحلامهم.

المرشديّون في الحرب

ما قُتِلَ في حرب ١٩٦٧ من الجيش السوري إلّا القليل لعدم التحام الجيشين، وكان منهم بعض المرشديّين أحدهم رفض أن يهرب حتى بعد أن صدر بلاغ عسكري بالانسحاب الكيفي بعد سقوط كلٍّ من جبهة مصر وجبهة الأردن، وهذا الرجل الذي قضى دفاعاً عن وطنه اسمه تاج الشَّيخ من قرية دردغان شرقي حمص. وذلك كما أخبر رئيسه وقد قال: هربنا جميعاً إلّا هو، فقد تركناه يرمي على المدفع وذهبنا. وأقيم له نصب تذكاري في قريته تقديراً لبطولته. والثاني من قرية البطاريّة قرب دمشق والثالث من النزهة قرب حمص وسقط عدد آخَرَ منهم بين جرحى وقتلى ولا أعلم الرقم الصحيح.

بات كثيرٌ من الجنود يرتاحون شعورياً لوجود مرشديٍّ بينهم، فلا يودّون فراقه. وكان المرشديّون عموماً أكثر الناس جدّيّةً في الحرب، وأكثر الناس وطنيّةً. فكثيرون منهم أنقذوا هذا الذي كان يحتضر تحت وابل النار، أو حملوا هذا الجريح إلى مكانٍ أمين، أو قاتلوا حتى هرب جميع مَن حولهم. ومعظمهم على عكس البقيّة جلبوا أسلحتهم معهم من المعركة، فالأمانة تبقى الأمانة، والخير يبقى الخير، حتّى ولو تفعله مع الذي لن يقدّر قيمته والذي لن يكافئك على خيرك إلّا بشرّ.

وبُعيد الحرب جاء محيو بدر يصف للإمام كيف أنّ المرشديّين في زعورا والغجر هجروا قراهم التي على الحدود وكان هو نفسه وجيه تلك القريتين، ونزحوا إلى دمشق رجالاً ونساءً وأطفالاً، تاركين وراءهم الثياب والطعام، وكانوا قد قطعوا تقريباً كلّ هذه المسافة سيراً على الأقدام، وقريتاهم تبعدان عن دمشق أكثر من مئة كيلو متر وعندما اندلعت الحرب ورغم أن معظم سكّان الجولان كانوا قد نزحوا عن بيوتهم لم يبالِ المرشديّون كثيراً، قائلين لأنفسهم: هؤلاء دائماً وعبر عشرين سنة يتقاصفون بالمدافع ثمّ يسكتون، وما هذه إلّا واحدةٌ من تلك المناوشات. واشتدّ الأمر أخيراً حتى أصبحت القنابل تسقط بين بيوتهم أو قربها، فهرعوا يريدون النجاة بأنفسهم تاركين كلّ ما يملكون، وبدون أن يجدوا أيّ واسطة نقل في زمن الحرب.

وعمل المعلّم على تدبير باصات لهم تنقلهم إلى المأمونيّة وجوبر وقابلهم هناك، ثمّ

أرسلهم في باصات إلى الغسّانيّة وهي قرية قرب حمص، وكان لديه بعض الفائض من المال، فأعطاهم منه خمسة عشر ألف ليرة كما أذكر، وترك لإخوانهم من المرشديّين مساعدتهم. وألحقها بعشرين ألف ليرة أخرى عندما بدؤوا بتشييد بيوتٍ لهم ولم يبقَ لمصروفنا غير خمسة عشر ألف ليرة. أشاد النازحون لأنفسهم بيوتاً في قرية الغسّانيّة بجانب حمص وأقاموا فيها. والملفت للنظر أنّ بيوت جماعة الغسانيّة لم تكن خيراً من بيوتهم.

من حديث المعلّم في تلك الفترة

كيف اصبحتُ تلميذاً له

قبل أن أضع هذه الكمية من بعض الحديث الذي بقيت تستوعبه ذاكرتي أحببت أن أعطي صورةً ولو صغيرةً جداً حول موضوع تتلمذي على يديه.

منذ أيام سكن المعلّم في بيت شمس الدين بدأت أصبح تلميذاً له، يعلّمني ويروي لي الأحاديث ويقصّ عليّ رؤاه، قبل هذا كنت أتعلّم منه عندما يكون جالساً مع الرجال للحديث، أمّا بعد هذا فقد أصبح يعلّمني ويحادثني في كلّ وقت تقريباً سواءٌ أكنّا نجوب شوارع دمشق، وكنّا نجوبها كلّ يوم تقريباً، أو ندور حول الملعب البلدي مشياً على الأقدام، أو في بيت المعلّم نفسه وذلك أثناء الليل وأثناء النهار. وقبلها ما كنت آتي إليه لأجل المعرفة إلّا عندما يكون جالساً مع الناس للتعليم إلّا قليلاً.

وأرادني أن أتعلّم منه مباشرةً، وأن أعلم حقيقة ما يجري في الدعوة، فتلكّأتُ في بادئ الأمر. ومرّةً مثل موقفي هذا بمثل أتذكّره للآن، وهذا المثل هو : كأنّ هنالك غرفةً تجري فيها أحداث الدعوة، يريدني المعلّم أن أدخل الغرفة لأتابع أحداثها، وأنا لا أدخل إلى الغرفة، بل آتي أحياناً إلى شبّاك الغرفة لأشاهد ما يجري، حتى أنّي لا أمسك بالشبّاك جيداً، فقد كنت أتركه حيناً وآتيه حيناً آخر، وذلك وفْقَ مزاجي، وما كان هذا العمل هو العمل المرجوّ منّي، بل كان المرجوّ منّي أن أدخل الغرفة نفسها، وأتابع أطوار العلم والتسامي به.

وابتدأتُ بعد هذا أتقوّم بما أراد لي من سيرة المعرفة، ولولا هذا لما استطعت أن أكتب ما أكتب الآن من تعليل سيرة الإمام ومن تعاليمه.

كلمة عن لطف الله

علمت منه أنّ لطف الله قبل جبروته. وما قضى الله ما قضى، وأحقّ ما أحقّ من جبروت إلّا لطفاً منه، فلطفُ الله سرّ جبروته، وجبروته سرّ الكبرياء.

وسرّ قضاء الموت والمرض والألم على الإنسان سرّ هذا القضاء الجبّار ما أراه إلّا من لطف الله به وذلك كي يعطيه فرصة ليستحقّ الحياة بعمله بهداية الربّ رغم كلّ هذه الصعاب فيصبح له حقٌّ عند الله فيوفيه الله حقّه.

إنّ لطف اللّه هو سبب كلّ فعلٍ وكلّ خلق، وأنت لا يمكنك أن تلامس أو تشعر بلطف اللّه إلّا بتشرّبك روح الحقّ من قضائه. فلطفُ اللّه بك استوجب قضاء الجبروت في حياتك، وعذاب المؤمنين والأنبياء وتضحيتهم في كلّ دور في سبيل الحقّ ما هو إلّا لطفٌ من اللّه بهم، وبهذا الجبروت المُقضى عليهم أحقّ لهم ومكّنهم أن يبلغوا مواقع العَظَمَة والعزّة في الملكوت. فهذا الجبروت الذي تجلّى في أقدارهم، هو سرّ كبريائهم وتعاليهم، فلولاه لما تمكّنوا من الاشتداد بالحقّ. فحقيقة الكِبْر في الجبروت.

وهكذا نفهم أنّ الكِبْر الذي هو رحمة من اللّه يقوم بعد قيام الجبروت الذي هو قضاء الحقّ منه تعالى، وحقيقة ذلك الجبروت تعود إلى لطفه تعالى الذي هو سرّ النعمة والعطاء، فعن لطفه يصدر قضاء الجبروت. وتذكرنا هذه الكلمات بما جاء في القرآن الكريم في سورة (فُصِّلَتْ) الآية ٨: «إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ». فهم يستحقّون ما نالوا لوقفتهم السابقة على الحقّ وصبرهم في المحن والشدائد فقد أخلصوا للّه عهدهم فأجرهم لا يمنّنهم به الله لأنهم مستحقّوه.

الكِبْر والصغر

علمت منه أنّ الكِبَرَ عند اللّه كالصغر، فكما أنّ الكمال يتمثّل في الكبر، كذلك فإنّ الكمال يتمثّل في الصغر أيضاً، ولا يتمّ الكمال إلّا في الصغر. والصِغَرُ هنا يعني الدنوّ واللطف والتواضع، وهذا من كمال الكبر مهما تعالى الكبَر، أي من كمال الكبير دنوّه وتلطّفه وتواضعه، وبازدياد التلطّف والتواضع تتمّ الكبرياء. فدليل كبرياء الأكبر بتلطّفه وتواضعه. فصاحب الكبرياء بالحقّ هو من يملكها وليس حبيسها.

وفهمت منه كحديث مشتق عن الأوّل أنّ مَنْ يأبى التواضع، يدلّ بفعله هذا أنّه ليس من الكِبَر في شيء. فكِبَرُ العظيم بتواضعه. والتواضع هنا ليس بالتظاهر بل بالتصاغر الحقيقي.

كلمة عن الأوّل والآخر

مّا علمت منه، أنّه لا يمكننا القول أنّ الآخِر أكمل من الأوّل بذاته، فلولا الأوّل لما كان الآخِر، وليس الآخِر بكمالٍ للأوّل، بأكثر ما هو الأوّل بتحتيم وتأسيس للآخر. أرى أننا نستطيع أخذها على جميع الأمور الطيّبة. فمثلاً الإنسان الصفيّ في ترابيته هو تحتيم وتأسيس لما سيكونه في جنان الخلود غداً بكلّ ما يكون عليه من عظمة متسامية.

نظرة إلى الخلود

من حديثٍ له عن الخلود : إنّ كلّ ما على هذه الأرض من طعام ولباس ومن مواد تنتج طعاماً ولباساً وكلّ ما على الأرض من ماء، لو جعلها اللّه لرجل واحد، وأطال عمره حيث لا يموت حتى تفنى هذه المواد جميعها، لفنيت هذه المواد بعد فترة طويلة من الزمن، ومات الرجل. ثم لو جعل الأفلاك والأكوان كلّها كَمَدَدٍ له، يحيا حتى ينضب كلّ ما بها من موارد، لنضبت تلك الموارد جميعها بعد فترة من الزمن قد لا نستطيع تصوّرها نظراً لطولها المديد، ثم لمات الرجل. ثم لو أخذه إلى عالم الروح وغيره من العوالم، لحدث ما حدث في الأكوان الترابية وغيرها، ونضبت كلّ هذه الموارد، ومات الرجل. ولن يمثّل عمره المتناهي هذا لحظةً في الخلود، فلحظة الخلود خالدة لا تنتهي.

مّما علمت منه أنّنا لا يمكننا إدراك الأعمال السرمديّة، فلو تصوّرنا أعمالهم كأعمالنا وهي ليست كذلك بل نقولها لمجرّد التمثيل، ودخّن أحدهم سيجارة مثلاً، لأصبح هذا الفعل سرمدياً دائم الحدوث والجريان بماضيه وحاضره ومستقبله، وبذلك يستحيل علينا الإدراك، إذ كيف نستطيع إدراك تواجد الماضي والحاضر والمستقبل معاً.

إنّ عمر المؤمن الداخل إلى الخلود عند وصوله إليه، لا يعادل اللحظة الأولى به، وإن كان عمره عمرَ السموات والأرض.

وليس غير الخالق مَنْ يستطيع تأهيل الكائن إلى الخلود، فأقلّ خطأٍ في تأهيله، سيظهر في مدى الخلود الجبّار، ولو كان هذا الخطأ من التفاهة والبساطة بحيث لا تراه الملائكة ولا تشعر بوجوده، أي ولو تناهى في الصغر، سيظهر في مدى الخلود ويكبر ويتناهى حتى يقضي على صاحبه. أمّا الخالق فهو يرى الخطأ ولو كان متناهياً في الصغر، ويرى إمكانيّة حدوثه في مدى الخلود العظيم.

غذاء الأرواح

أمّا غذاء الأرواح فهو الكلمات، فكما يتغذّى جسدك بالطعام تتغذّى روحك بالكلمات، والكلمات تمثّل غذاءً تامّاً للأرواح، كما يمثّل الطعام غذاءً للجسم. وكان المعلّم يضيف على هذا أحياناً قولاً بمعنى : فحاذر أن تطعمها طعاماً فاسداً، بل أطعمها طعاماً طيّباً شهيّاً، فكلمات المعرفة والكلمات الطيّبة هي طعام الروح الجيّد، أمّا الكلمات الشرّيرة فهي الطعام الفاسد. وكما أنّ الطعام الفاسد يُفسد الجسم، كذلك فإنّ الكلمات الفاسدة تُفسد الروح.

هنا علينا أن ننتبه أنّ الكلمات في هذا القول لا يمكن فصلها عن معانيها فإنّ ترديدك لكلمات المعرفة دون أن تعي ما تعني هذه الكلمات، لا أراها تفيدك في شيء، فالمعنى بالقول هنا الكلمة وليس اللفظ. فأنت إن كنت تردّد الكلمات بلا إدراك، إنّما تلفظها فقط كالببغاء. ومثلك كمثل مَن يحمل طعاماً دون أن يتذوّقه.

وبهذا نُدرك كيف أنّ معرفة الله هي غذاء الأرواح الحقيقيّ، وهنا علينا أن ننتبه أنّ هذا الغذاء بالنسبة للروح غذاءٌ ماديّ، وليس معنوياً فحسب، ولربّما صحّ هذا القول: إنّ حاجتها له حاجةٌ عضويّة. وبازدياد معرفتها يزداد ثقلها الماديّ، وتزداد سرعتها، ويزداد بصرها ثاقبيّةً. على القارئ أن لا ينسى أنّنا نتكلّم عن روحٍ وليس عن جسد.

كلمة عن الغفران

علّمني المعلّم قائلاً: «إنّ الله أسرع في نيّة الغفران منك في نيّة التوبة، فما من أحدٍ نوى التوبة إلّا وسبقه الله بنيّة الغفران». أي أنّ الله يريد أن يغفر لك ولا يمنع تحقيق هذا الغفران إلّا عدم استحقاقك له لعدم توبتك عن الإثم، وأنت عندما تنوي التوبة، تكون قبلها قد أحببت أن تنوي التوبة، أو تكون قد ملْتَ بنفسك إلى نيّة التوبة، عندها يكون الله قد سبقك إذ رآك هكذا ونوى الغفران. وقد شرحها المعلّم بهذا القول: أي أن يغفر الله، أرضى له من أن يُقاصِص. أمّا الغفران فلا يأتي إلّا بعد التوبة الصادقة.

يكلّل العقول قبل القلوب

فهمت منه أنّك عندما تستقي العلم من ساجي، ويمدّك بالأماني والتطلّعات العليّة، وجلاء معرفة عن الله، إنّما تختزن هذا العطاء بفكرك وعقلك أوّلاً وتقتنع به، ومن ثَمّ ينزل على قلبك أي يصل إلى سرورك وحبّك. فهو لو كلّمك بشكلٍ يُدخلُ به المعرفة إلى فؤادك مباشرةً، لظلّ هناك خطرٌ عليك من أن ينزل على قلبك مما يدور في أفكارك من مقاييس غير صائبة ومن انتكاسات في المعرفة، نظراً لضيق الفكر عن تلمّس الحكمة الإلهيّة. أمّا وقد واجهك بهذه المعرفة فكريّاً وعقليّاً، فقد عصمك من هذا المزلق المحذور، فلم يبقَ من خطر لما ينزل من فكرك على قلبك - سرورك - فأصبح عقلك بذلك قادراً أن يميّز طريق الخير، وأن يقتطف ثمرة الحياة الخالدة، وبذلك لا يتنزّل على قلبك ما هو خطرٌ عليك، بل دائماً ما ينزل على قلبك من فكرك يرفد القلب بالصواب، ويكون منجاةً للقلب أن يسير في طريق الغواية التي تحيد عن السبيل المستقيم.

تكلّم المعلّم في إحدى الجلسات وبقصد توسيع الإدراك، فسأل أحد الحاضرين : إذا أردت أن تذهب سيراً على الأقدام من هنا إلى قريتك، فما هي المدّة الزمنيّة التي تحتاجها للوصول؟ فأجاب الرجل : خمس أو ستّ ساعات. قال المعلّم : فإذا ذهبت بالسيّارة؟ فأجاب الرجل : نقول ساعة. فقال المعلّم : إذاً لمجرّد وجود وسيلة قدرة تنتقل بها، اختُصِر الزمن وتدانى المكان من ستّ ساعات إلى ساعة، بدون أن تنتقل قريتك من مكانها، أو تنتقل الشام من مكانها. ثم أعاد السؤال : فإذا يُسِّر لك طائرة؟ فقال الرجل : ربّما دقائق. فقال المعلّم : إذاً بوسيلة قدرة أسرع زاد اختصار الزمان وتداني المكان. ثم سأله ثانيةً : ما هي المدّة التي تستغرقك إذا ركبت بطائرة وافترضنا أنّ هذه الطائرة تستطيع الطيران في كلّ الأكوان والمجرّات التي نراها والتي لا نراها، فما المدّة الزمنيّة التي تقتضيك لكي تصل إلى فضاء الأرواح بعد أن تدور بكلّ الأفلاك والأكوان؟ فقال الرجل : لا أدري، ولكن أتصوّرها هائلة. فأعاد القول له : ولو افترضنا أنّ المركبة التي تركب بها بسرعة الضوء؟ ولمّا لم يستطع الرجل الجواب، قال المعلّم : ولن تصل، أو لو بقيت إلى الأبد لن تصل، لأنّ الأكوان متناهية، وسرعة الضوء من طبيعة هذه الأكوان.

ولكن إذا طُلِبَ من روح زكيّة طليقة أن تنزل إلى الأرض وتعود إلى فضائها، فلن يستغرق الوقت معها أكثر من لحظة يسيرة. إذاً المكان المتناهي البعد بالنسبة لنا، هو بالنسبة للأرواح وما أحلّ الله بها من قدرة، مكانٌ قريب. فهذا البعد بين المكانين مكاننا ومكان الأرواح هو بالنسبة لنا بلا حدود، والمدّة الزمنيّة لاجتيازه ولو بأقصى السرعات الكونيّة هي لا وصول له، أمّا بالنسبة للأرواح فقد تدانى المكان إلى جوارٍ قريب، وكأنّه مسافة بين غرفتين في منزل واحد، واختصر الزمان إلى ما لا يكاد يُذكر.

أمّا إذا طلبنا من هذه الروح أن تسري وبأقصى سرعتها حتى تلفّ كلّ عالمها أي فضاء الأرواح، وتصعد إلى السماء التي فوقها، فإنّها لن تبلغ مهما أُعطيتْ من مدّة، نظراً لسعة فضائها. فإنّ قدرتها تتضاءل أمام هذا الفضاء الواسع، حتى تصبح كما نحن في هذه الأكوان والمجرّات. أي كما صغرت قدرة الإنسان ولو افترضنا أنّ سرعته سرعة الضوء أمام سعة الأكوان والأفلاك وقَصُرَتْ نهائياً عن بلوغ عالم الأرواح، فإنّ قدرة الروح تَصْغُرُ أمام عالمها وتَقْصُرُ عمّا فوقها. وكما نحتاج نحن لآلات تساعدنا (كالسيّارة والطيّارة والهاتف وما شابه) لتقريب المكان واختصار الزمان في عالمنا، كذلك الروح تحتاج إلى أشياء نسمّيها مجازاً آلات تساعدها في فضائها كما نحن في عالمنا.

أمّا لو طُلِبَ من كائنٍ سماوي أن ينزل من سمائه إلى الأرض ويعود، طاوياً بنزلته وعودته الأكوان والعوالم الروحيّة، لما استغرقه الوقت أكثر من لحظة. فأمام السرعة الملائكيّة زاد اختصار الزمان وتداني المكان. حتى كاد أن ينعدم الزمان ويلتصق المكان بالنسبة لنا.

أمّا إذا طُلِبَ منه أن يسري بسمائه حتى يجول بكلّ سمائه، ويصعد إلى أعلى، فستكون كما لو طلبنا من إنسان أن يلفّ الأرض سيراً على الأقدام.

أمّا لو طُلِبَ من ملاكٍ أكبر في سماء أعلى أن يهبط إلى الأرض مجتازاً سماء الملائكة الأدنى وعالم الأرواح والأكوان حتى الأرض ويعود، فلن تقتضيه أكثر من ثانية واحدة. أمّا إذا طُلِبَ منه أن يدور في سمائه، فستعود قيامة الزمان وحسبان المكان.

أمّا عند قدرة اللّه خالقة السماوات والأرض، فلا يقال هذا القول، فلا مكانٌ ولا زمان، فهو خلق هذه العوالم المتناهية السعات والذي أحلّ وأعطى الخليقة المخلوقة بهذه العوالم القدرات التامّةَ القوّة التي تجتاز هذه السعات، فالسماوات والأكوان في قبضته، أي كمْ من الوقت يقتضيه : الزمن منعدم والمكان غير قائم. ولكن للتمثّل نقول مهما نأت الأمكنة مازالت شيئاً موجوداً بقبضته. فقدرته قدرة سكونيّة، أي لا تتغيّر، لا تزيد ولا تنقص وهي منتهى ما يمكن أن تكون عليه القدرة وأكثر لأنّها لا تُحَد.

تأثير الكلمة

كان المعلّم يركّز على قيمة الكلمة في الحياة البشريّة عبر التاريخ سواءً بالنسبة للأديان أو للعقائد السياسيّة أو الاجتماعيّة.

فكلمة بسم اللّه الرحمن الرحيم قال المعلّم عنها أنّها «وجهة وجوهر كلّ رسالة أُمليت على رسول قبل محمد». وكلمة الرحمن الرحيم هي كما علّمنا المعلّم «كلمة معرفة اللّه» أي معرفة اللّه الصحيحة أن ننظر له أنّه الرحمن الرحيم. وهنا يظهر لنا كيف تكاملت معرفة اللّه على الأرض حتّى وصلت إلى كلمة «الرحمن الرحيم» فاستقبلتها قلوب أهل الأرض أيّما استقبال واحتضنتها أيّما احتضان فكان المسافرون في العرب وبعدها في الأقطار البعيدة ما يتلو أحدهم هذه الكلمة وباقي آيات القرآن التي كلمة الرحمن جوهرها حتّى تلين القلوب لها وتتغذّى الأرواح بها فقد عرف الإنسان أنّ اللّه الخالق رحيم شفوق ما يريد به إلّا الخير وكلّ الخير ولولا الإكراه في الدين لعمّت هذه الكلمة في أنحاء الأرض جميعها كما أرى.

وكذلك الأديان جميعاً، قامت على كلمات من معرفة الله بثت روحاً في العالم، ونظرةً عليا عن الحياة، وأملاً محققاً بالخلود، واعترافاً بحقانيّة خلق الوجود. وكلّ هذا كان أنساماً هابّةً من الحكمة الإلَهيّة، تتغذّى بها أرواح المؤمنين حبيسة الأجساد.

أما بالنسبة للعقائد السياسيّة فنرى أن كلمة ديمقراطيّة (أي حكم الجماهير) ادّعتها كلّ أمم العالم اليساريّون واليمينيّون، المحافظون والليبراليّون، فهذه الكلمة خلقت روحاً بالعالم حتى دون أن يدرك كثير من الناس معناها، وكذلك كلمة الحرّيّة لا نجد حكماً إلّا ويدّعيها، فهذه الكلمة تعني حقيقةً لم يصلها الإنسان بعد ولا يظهر في الأفق شاطئ الوصول، ولكن الناس ظنّوا ومن الزمن القديم أنهم سيصلون إليها، وهي قد ساعدت الناس أن يتحرّروا من كثير من الأحكام الباطلة كطاعة الحاكم العمياء، فهي وإن لم يصل إليها الإنسان بعد ولكنّها كأنّها تقوده عبر دياجير من ظلام، وكذلك كلمة الإنسانيّة وغيرها. ويستغل دائماً بعضهم تأثير هذه الكلمات في الناس سواء منها الدينية أم الدنيوية للتحكّم بهم.

سرّ الثورات

حدّثنا كيف أنّ ملائكة السماء يُنْزِلون أرواحاً إلى الأرض، يخلقون بها التغيّرات، بعض هذه الأرواح ينزلونها ثورةً في الناس، وبعضها ينزلونها أشخاصاً أي ينزلون الروح شخصاً. ممّا فهمت عن هذا، أنّنا نرى عبر التاريخ كيف تهيج بالناس روحٌ تتواجد، ثم تعمّ مرتديةً فكرةً أو أفكاراً، ثم تخفت، ثم تتلاشى. كما وأنّك تلاحظ أنّ هنالك أشخاصاً كان مجيئهم وقيامهم بمثابة ثورةٍ تعمّ، وبثّوا في الناس روحاً جديدة، فخلقوا ثورةً في الناس تجتاز مراحل، أو تغيّر عادات، أو تدمّر تقاليدَ قديمة بات وجودها عائقاً في وجه تقدّم البشريّة في مسراها العام الذي يتمثّل باقتدارها واكتشافاتها كما تقضي الحكمة الإلَهيّة. ولو أردنا التوغّل في هذا البحث لَلَزِمَنا كتابٌ كاملٌ أو كتبٌ كثيرة من دراساتٍ مستفيضة.

الحيويّة علامة الصفاء

علمت من حديثٍ له، أنّ المجتمع إذا خلا من الكذب بجميع أنواعه حتّى الكذب عند إطلاق النكات أو سرد الحكايات، لا يعني هذا أنّ التسلية باتت منعدمة في هذا المجتمع. بل يكتشف الإنسان أنّه يستطيع المزاح والتسلية والمرح بدون كذبٍ، ويكون مرحه أحلى وأطيب إن كان طاهراً عنه إن كان كذوباً. وكان يذكّرنا أثناء هذا الحديث بقول مجيب عن

ملائكة السماء، كيف أنّهم يمزحون مع بعضهم، فحياة الصفاء ليست الحياة الناشفة البليدة كما يتصوّرها بعض الناس، بل هي حيويّةٌ وجذّابةٌ أكثر من الحياة المليئة بالكذب الذي يقود إلى الحقد والضغينة، وما إلى ذلك من كَدَر وأمور منغّصة للحياة. فالبلادة ليست من صفات الأصفياء، بل الحيويّة هي علامتهم.

الصفاء في الناس هو الصحوة الفكريّة

فهمت من حديث المعلّم، أنّ صفاء الإنسان هو في صحّة عقله وإدراكه، وهو الصحوة الفكريّة. فبعرفان الحكمة الإلهيّة تصل إلى الصفاء إذ يصحو عقلك على حقيقة ما تراه عينك في الحياة فتصفو لقضائها أي ترتاح إلى أقدارها، فالصفاء في العقل.

الصفاء سرّ البقاء

علمت من المعلّم، أنّ الصفاء هو سرّ البقاء وسرّ السموّ. وأنّ صفاءك عن الشيء يعني علوّك عنه. فأنت إذ تصبح ملذّات هذه الدنيا ورغائبها لا تمثّل لك أيّ مطلب أو أيّة أمنية، إنّما رغائبك وأمانيك أصبحت تتطلّب ملذّات روحيّة عُليا، تكون قد صفوتَ عن هذا الكون البشريّ، وشاقت روحك ونفسك للكون الروحانيّ، أي أصبحت أمانيك ورغائبك معلّقةً هنالك، عندها تدخل إلى كونٍ روحانيٍّ، عالمٍ صفيّ. وتحيا به حتى لا يعود ذلك العالم الذي دخلت إليه يمثّل لك أيّة أمنية أو رغبة، وتكون أمانيك عندها ممثّلة في عالم أسمى، أي أصبح ما يسرّك أسمى من السرور الموجود في العالم الذي تحيا به أو ما يعنيك من إدراكات، وبذلك تصبح أهلاً كي تدخل عالماً أسمى من العالم الذي كنت به. فتدخل إلى هذا العالم الأسمى. وهكذا يتسامى المتسامي من عالمٍ سامٍ إلى عالمٍ أسمى في معراجه الأبد.

عند إدراك الكائن لكونيّته يسمو عنها

فهمت من حديث المعلّم، أنّه عندما يصل الكائن إلى إدراك كونيّته، يكون قد بلغ الكمال في مجال كونيّته. ففي هذه الأرض مثلاً كم هو البعد سحيق ما بين تكوين الإنسان ومحيطه، وما بين ما يستطيع أن يدرك منه أو أن يفعل بمستواه. فالدقّة والعلم الموجود في أجسادنا وتربتنا وأجوائنا، لا نكاد نعي منه إلّا نزراً يسيراً حتى الآن لا يُذكر بالمقارنة إلى عظمة هذا التكوين ودقّته، وعند وصول الإنسان إلى إدراك تكوينه وتكوين عالمه، يكون قد بلغ الكمال من حيث الكونيّة الإنسانيّة وأصبح له وبقدرته أن يغادر عالمه هذا إلى عالم الروح

وتنتهي قصّة الإنسان الترابي وتصبح علماً فقط. (الإنسان ككلّ) وليس كأفراد يرتفعون إلى السماء بين حينٍ وآخر لما وصلوا إليه من صفاء.

الخالق وحده من يرى الكلّيّة

حدّثني المعلّم أنّ الخالق وهو فوق الكلّ يرى الكلّ بأحجامهم الحقيقيّة، أنفسهم وأفعالهم، ماضيهم ومستقبلهم، لا تخفى عليه خافيةٌ في الوجود. وليس هنالك غير الخالق من يستطيع أن يرى في هذا الوضوح الكامل. مهما علا شخصٌ وزاد، فستبقى في الحكمة الإلهيّة أمورٌ تخفى عليه، وحقائق من العزّة والعظمة ما أتمّ استجلاءها بعد. وأنّ من لا يكون فوق الأمر، لا يستطيع إدراك هذا الأمر كلّيّاً. وليس هنالك مَن هو فوق كلّ شيء وفوق كلّ أمر إلّا الخالق، فهو وحده من يرى الكلّيّة بكلّيّتها.

تفاوت العوالم في السعة

علمت منه أنّه كما جاء محمّد وعيسى وموسى وبقيّة الأنبياء على الأرض، فقد جاءوا قبل هذا في عوالم أسمى، وقرأ محمّد قرآنه، ونطق عيسى بإنجيله، وكلّم اللّه موسى وذلك جرى في أكوان كثيرة قبل خلق الأكوان الترابيّة وصيرورةِ الأرواح إلى الأجسام.

فكتب الهدى تأتي على سعة الكون الذي ترسل إليه، فهي في عالم السماء أوسع وأمدّ منها في نزولها على هذه الأرض، فهذه الكتب تخاطب في السماء «إدراكاً كاملاً» وليس عقولاً محدودة لا تكاد تدرك إلّا بقياس أجسادها وكونيّتها، فقرآن الرسول الذي عندنا لا يكاد يمثّل إلّا نقطةً في بحر قرآنه في عالم الروح، وقرآنه في عالم الأرواح لا يكاد يمثّل إلّا نقطةً من بحر قرآنه في السماء. وهكذا بالنسبة لبقيّة الكتب.

الزمن والحركة

فهمت من حديث له، أنّ قصّة تواجد الإنسان على الأرض ستعود لتصبح يوماً من أيّام الأرض، أي زمناً يسيراً من عمر الأرض. فهي موجودة قبله بملايين السنين، ولربّما تبقى بعده بمقدار هذه المدّة، وبهذا تصبح قصّة تواجد الإنسان على الأرض لا تمثّل إلّا يوماً من عمر الأرض المديد.

وهكذا قصّة دخول الروح بالأجساد، فكم بقيت الروح في عالمها قبل أن تدخل في الأجسام، وكم تبقى الروح في عالمها الطاهر بعد خروجها من الجسد. فقصّة دخول الروح

في الجسد لا تمثّل إلّا زمناً يسيراً من عمر الروح. كانت موجودة قبل دخولها الأجساد، وتبقى موجودة بعد خروجها منها، بحيث يصبح تواجدها في الأجساد حكايةً من حكايات الروح ببقائها الروحيّ الطويل.

وما تُمثّل الأفلاك والأكوان ـ ليس الأكوان الترابيّة وحدها ـ إلّا زمناً يسيراً من البقاء السماوي، فتواجد السماء قبل خلق جميع الأفلاك والأكوان لربّما بآباد، والبقاء النورانيّ أي السماوي بعد أن تنتهي الأفلاك والأكوان لا أستطيع أن أمثّلها إلّا بكلمة آبادٍ أيضاً. وبذلك تعود قصّة الأفلاك والأكوان لا تمثّل إلّا زمناً وجيزاً من البقاء النورانيّ.

وكذلك فعل الحياة بكلّ ما فيها، خلقها وترويضها، تعليمها والسموّ بها إلى ما أراد بها الله. إنّ هذا الأمد لا يُمثّل من بقاء الكائن السرمدي شيئاً، لأنّه لا يمكننا المقارنة بين خالدٍ ومؤقّت.

أمّا عند الله، فلا تمثّل الحركة ككلّ منذ انطلاقها حتى نهاية اكتمالها إلّا مشيئةً منه، فالزمن مندمج بالحركة وهو تبعاً لها، مستحدثٌ بانطلاقها، متتابع بجريانها، منتهٍ عند توقّفها.

الجنّة مطلب كلّ عظيم

كان يعلّمني المعلّم، أنّ كلّ عظيم نبيّ وصفيّ جاء إلى الأرض، مهما علا ومهما تعاظمت حقيقته عند الله، لم يطلب من الله إلّا رحمته وأن يدخل الجنّة مع الصالحين من عباده، ولم يرجُ إلّا هذا الرجاء. كنت أفهم منه، أنّ الجنّة هي نعم الله الحقّ، وبها يتمثّل وعده للمؤمنين، فكلّ مؤمن صفيّ سليم الإدراك لا يطلب سواها.

الله وعد الجنّة بالمؤمنين

علمت من المعلّم، أنّ الله كما وعد المؤمنين بالجنّة، فقد وعد الجنة بالمؤمنين. وكما وعد الناس أهل الإيمان بالحور، فقد وعد الحور بأهل الإيمان. فالجنّة تنتظر المؤمنين الذين سيدخلون إليها متشوّقةً لقدومهم، ولا يتمثّل مطلبها من الله إلّا بهم، فهي جنّة عباد الله وكمالها دخول عباد الله إليها. وكما أنّ شرف المؤمن وكماله أن يدخل إلى جنّة خالقه وإلى رضوانه، فكذلك فإنّ شرف الجنّة وكمالها أن يسكنها عباد الله وتكون هي مأواهم، وهذا القول ينطبق على الحور أيضاً. تلك الذوات الخالدات، كمال كلّ ذاتٍ منهنّ أن يكون لها صاحبٌ من عباد الله أصفياء النظرة أنقياء القلوب.

شعور الحمد

عرفت منه أنّه في النهاية، عندما يعود المؤمن إلى ملكوت ربه، يشعر بنعم اللّه وبحمده ويحسّ به، ويتلمّس هذا النعم في كلّ أعماله، حتى يظنّ أنّ اللّه لم يخلق كلّ هذا الخلق إلّا لسعادته هو ولأجله شخصيّاً. ويكون هذا الظنّ حقّاً بالنسبة إليه، وكأنّ اللّه لم يخلق الخلق إلّا ليعطيه ويمدّه وينعم عليه. وكلّهم في الملكوت لهم نفس الإحساس.

قيمة الشيء بصلاحه للبقاء

حدّثني عن قيمة الأشياء الخالدة، ومَثَلُها قيمة الذهب والألماس واللؤلؤ في الناس، فقيمتها تتأتّى من خلودها النسبيّ نسبةً لغيرها من المعادن، فلو كان هنالك شيءٌ خالدٌ بالمعنى الصحيح، أي ليس فقط نسبيّاً إلى غيره، ولا يصدأ أو يبلى أو يحدث له أيّ تغيير فكم كانت ستوازي قيمته؟

بيتٌ متواضعٌ في الحياة الآخرة، خيرٌ من كلّ قصور العالم، فهو باقٍ وخالد بالنسبة لعوالمنا هذه، وكذلك كلّ شيءٍ هناك. والكائن السائر إلى الخلود هو الذي تعتني به الحكمة الإلّهيّة، وليس المؤقّت الصائر إلى الفناء، فذلك لا قيمة له.

تمثيل السرمديّة

كان يمثّل السرمديّة لي بمثل رؤية جبرائيل، فقد رآه ابراهيم ورآه محمّد وبين ابراهيم ومحمّد آلاف السنين، وعندما رآه ابراهيم يبتسم أو يتكلّم، لم يكن هنالك أيّ فارق في صورة هذا الكائن وفي شخصيّته عمّا رآه محمّد، فالزمن لم يتغيّر في شيء بالنسبة له، نفس الابتسامة لمحاها على وجهه، نفس الروح شعرا بها، نفس اللحظة مرّا بها. ثم نعود في الزمن أدهراً وآباداً، فنرى جبرائيل يأتي الخلائق في ومضات أو لحظات لا تتغيّر ولا تتبدّل، فهو كائنٌ سرمديّ ـ أي دائمٌ باقٍ مستمرٌ على حال نضارته وكماله ـ نضرته سرمديّة، محيّاه وبهاؤه سرمديان، وعنده يلتصق المكان وينعدم الزمان فجبريل وميكال ليسا كبقية ملائكة السماء بل أعظم فهما الهابطان على الأنبياء برسائل الإله. وملائكة السماء أعدادهم لا تكاد تُحصى. جاء في القرآن الكريم في سورة (البقرة) الآية ٩٧ ـ ٩٨: «قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ. مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ». فقد أفرد جبريل وميكال عن بقية الملائكة ثمّ جاء في سورة (التحريم) الآية ٤: «إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ

قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ». وهنا إفراد جبريل يأتي واضحاً جداً.

كتمان الأعمال الخيّرة

كان ينصح المعلّم أن يكتم الإنسان خيره وأعماله الحسنة، فلا يقول عنها ولا يحدّث بها، إلّا إذا دعاه داعي الحقّ إلى ذلك، كالشهادة الصادقة لنصرة حقّ أو لإيقاف ظلم أو لدحض باطل، وكان من موجبات ذلك أن يُظهر في حديثه بعض ما يخفي من سيرته الحسنة. أمّا في غير ذلك فالأفضل له أن يخفي أعماله الخيّرة ما استطاع.

وكنت أفهم أنّ سبب هذه الدعوة إلى الإخفاء، أنّه سيعرّض نفسه بحديثه عن حسناته إلى الغرور. وسيؤدّي حديثه هذا عن نفسه إلى ازدياد احترام الناس له، فترتاح نفسه وتتمادى في مثل هذه الأحاديث، فبعد أن كان يفعل الخير رجاء بالله ومحبّةً بفعل الخير، أصبح يفعله لمجرّد رياء أمام العيون، ليكتسب بذلك احترام الناس وتقديرهم. أو على الأقل يُخالط شعوره الأوّل النقيّ الشعور الثاني غير المرغوب فيه، فهو لم يَعُد بشعوره صفيّاً لله كما كان في أوّل الأمر، أي في المسألة خطر إذ أنّها قد تؤثّر على الشعور والشعور حقيقة الإنسان.

لا يعلم كلّيّة ما للمؤمن إلّا الله خالقه

علّمني ساجي أنّه ليس هنالك من أحدٍ يعلم كامل حقيقة ما للمؤمن عند الله إلّا الله نفسه. فمهما عَظُمت شخصيّة الكائن وتعالت فستبقى بإرادة الله باقيةٌ لا يعلمها، وبحكمته روحٌ لا يدركها. وأنّ الله هو وحده الذي يعلم على كمال الحقيقة ما أعدّ للمؤمن من كمال ومن رفعة. والكلّ يعلم ممّا علّم الله عن هذه الرفعة وعن هذا الكمال، ولا مجال للمقارنة بين ما يعلمه الكائن السماوي وما يعلمه الإنسان عن هذا الأمر. ولكنّ الحقيقة الكاملة هي عند الله وحده، فهو الذي خلق هذا الإنسان الذي آمن به، ووحده يعلم كليّة ما أعدّ له من رفعة وكمال.

الشعور بالرحمن

علمت منه أنّ المؤمن بإقباله على معرفة حكمة الله يسمو إلى الشعور برحمة الله، ومن الشعور برحمة الله يرقى إلى الشعور بالرحمن، وذلك هو الفوز.

ممّا فهمت من هذا الحديث، أنّ المؤمن عندما يبدأ يدرك بعض التعليلات عن الحكمة الإلهيّة مسيّرة العالم، لِمَ كان ذاك، ولِمَ صار ذاك، لِمَ فعل الإله هذا الفعل في هذا

الدور أو في ذاك، لم ترك هؤلاء يفعلون ما فعلوا، كيف تسوق حكمته البشر، يبدأ يشعر برحمة اللّه وسعة العزّة، ويرى الكون تدريجيّاً على وسع الرحمة في منطلقات الحكمة الجبّارة، فيبدأ بالشعور بالصوابيّة الخالصة، ويبدأ يحسّ برحمة اللّه في كلّ هذا التسيير، وهكذا حتى يصل إلى الشعور باللّه أنّه رحمان حقّاً وصدقاً. هذا هو الفوز، وهذا مبدأ التسليم للّه والإيمان به، ويكون فعلاً قد حلّق بمركبة الشعور التي بها وحدها يتمكّن الإنسان أن يصل إلى قبّة السماء النورانيّة.

لم يأتِ احد ليغيّر سنّة الكون

ومن قولٍ له، علمت أنّ كلّ رسول أرسله اللّه لا يأتي إلى العالم ليغيّر سنّة الكون الذي جاء إليه، وهو ما جاء إلّا ليعمل ما أرسله الخالق ليعمل. وهو وإن أبدى بعض المعاجز والآيات، فذلك كي يؤمنوا بقوله وفعله، أو كي يزيد إيمانهم تأصّلاً بأنفسهم.

والمؤمنون له الذين يطلبون منه أن يشفي أمراضهم، أو أن يغيّر من أحوالهم التي يرونها صعبةً ومضنية، إنّما يطالبونه بتغيير الحكمة الإلهيّة التي تسيّر البشر، وهو لم يأتِ ليغيّر هذه الحكمة بل ليعمل بمقتضاها.

وكنت أفهم منه، أنّه كان أولى لهؤلاء أن يأتوه ليعرفوا كيف يتصرّفون في كلّ بلاء. وبذلك ينتهون إلى الصحّة في أعمالهم، وهذا هو المقصود والمطلوب في الأعمال جميعها.

حياة خالية من الرنق

كان المعلّم يصف حياة عوالم الصفاء أنّها حياةٌ خالية من الرنق، فإن حدث فعلٌ ما، جاء بإيجابيته الكاملة، ولا يرنّق عليك لدى الفعل أيّ مرنّق، وأفعال الأرض دائماً تتصاحب مع المرنّقات، حتى ولو كان العمل حلواً وجذّاباً يبقى به بعض المرنّقات التي تكدّر من صفائه وتخفف من جاذبيته، ولا يكاد يخلو عملٌ من سلبيّةٍ له. أمّا في عوالم الصفاء فلا وجود للرنق، كلّ الأعمال تجري بنقاءٍ وبلا رنق، فليس هنالك ما يكدّر لك الحياة، ولا وجود للنكد والتعاسة.

قدرة ائتلاق وليس احتراق

حدّثنا المعلّم أنّ القدرة أي الطاقة المستعملة في عوالم الصفاء هي ائتلاقٌ، وليس احتراقاً كما هو الحال في دنيانا هذه.

فالقدرة المستحدثة لا تخبو إلى الفناء، بل تزداد في الائتلاق. فأنت لا تحتاج لتحرق وقوداً أو أن تخـــر طاقةً لتفعل فعلاً ما، بل تستعمل تلك الطاقة التي لديك، والتي تأتلق عندما تريد استعمالها، أي تظهر وتبدو لتقيم العمل. فهي في حالة تكامل أو بالأحرى تعاظم وليس تفانياً. وجسدك الروحي هناك في حالة تألّق وإشراق وليس في حالة احتراق وركود فالكائن القديم هناك أقدر من المحُدَث وأعزّ منه.

الانتقال إلى حمص

حدث انفراجٌ بعد الحرب بالنسبة للحياة في دمشق، فلا مراقبة ولا تهديد. ومن المستحسن أن أنوّه هنا أنّ سنة ١٩٦٣ كانت بداية انحسار الاضطهاد عن المرشديّين ولكنّهم كانوا ما يزالون مستبعدين من الكليّة الحربيّة ومن كلّ وظيفة محترمة أو شبه محترمة أي لا ترى أحداً منهم مدير إدارة أو مدير فرع إدارة، أو مدير منطقة أو مدير ناحية أو حتى مدير قسم في إدارة. أمّا المعلّم ومرافقوه من أخويه والمنفيّين فهم وحدهم تقريباً الذين بقوا يعانون من الاضطهاد الشديد، فبيت المعلّم مراقب دائماً. وسرعان ما يلاحقه رجال السلطة إذا نما إلى أسماعهم أنّه يقيم ثمّة اجتماعات.

إنّ حرب حزيران وإن كانت نكسة كما أسماها عبد الناصر، إلّا أنّها أفادت العرب كثيراً، فقد خفّفت من حدّة المبالغات الوطنيّة الجوفاء إلى درجةٍ كبيرة، وأمالت أعينهم إلى دنيا الواقع والحقيقة أكثر. وبذلك خفّت حدّة النظرة العدائيّة لدى أكثر أصحاب النفوذ بهم نحو غيرهم من الناس في بلدانهم.

من هنا يتأتّى شعور المرشديّين وغيرهم بالانفراج، لأنّ معاملة المسؤولين لهم في البداية باتت أقلّ عنفاً ورعونة عنها في زمن ما قبل الحرب.

في هذا الجوّ المُريح نسبيّاً عن السابق أراد المعلّم أن يستأنف عمله، وارتأى أن ينتقل إلى حمص لهذه الغاية، فهي أقرب إلى المرشديّين من دمشق. فبالنسبة إلى مناطق المرشديّين الجنوبيّة (القبالى) فهي في منتصف مناطقهم، وهي مدينتهم التي يأتون إليها دائماً لشراء الحاجات وزيارة الطبيب وغير هذا من مقتضيات المعيشة. وبالنسبة لجماعة الغاب فالمسافة قريبة، وأصبح باستطاعتهم القدوم إليه ثمّ الرجوع إلى قراهم في نفس اليوم بسهولة. أمّا بالنسبة لأهل اللاذقيّة والجبل فقد قربت المسافة عن دمشق نصف الطريق.

كان لسكن المعلّم في حمص إيجابيّة أخرى فقد خفّف من تفاقم السلبيات التي كانت متشرة بين المرشديّين، لأنّ المسلمين وأصحابهم والمتطفّلين على المرشدية وأعرافها أصبحوا يتصرّفون بحذر مخافة أن يسمع المعلّم بأعمالهم، وذلك لكونه أصبح يقابل المرشديّين أكثر بكثير من ذي قبل.

انتقل المعلّم إلى حمص في ٢٤ أو ٢٥ حزيران سنة ١٩٦٨ واستأجر بيتاً في منطقة الحمرا، يحتوي على صالون كبير حوالى / ٥٠ / متراً مربعاً، وغرفتي نوم، وغرفةٍ ملحقة غير ذات قيمة. وكان هذا البيت شبه ڤيلاّ مستقلّة، لانفصاله عن البناء حوله بواسطة حديقته الكبيرة نوعاً ما، وسرعان ما أجاز قدوم المرشديّين إليه بعد أيام من استقراره في البيت، وكانت جيئتهم إلى هذا البيت منظّمة على نسق التنظيم الذي وضعه في بيت الحريري سابقاً. واستؤنف التعليم المباشر الذي كان قد انقطع سنتين ونيّف قبل هذا، أقصد بالتعليم المباشر أي بمقابلة المعلّم شخصيّاً لا في شكل رسائل أو أشعار أو توصيات.

وكان المرشديّون يأتون إلى بيت محرز (أبو راجح) في الضهرة أوّلاً وهي ضاحية من ضواحي حمص واسمها في الدولة كرم اللّوز، ثم يُصار إلى نقلهم بسيّارات الأجرة إلى بيت المعلّم في الحمرا، ثم اشترى المعلّم سيّارة زودياك إنكليزيّة متوسّطة الحجم، ووضع لها سائقاً من دردغان اسمه سليمان الشيني، وتولّى هذا السائق نقل الزائرين من بيت أبو راجح إلى بيت المعلّم على دفعات عوضاً عن نقلهم في سيّارات الأجرة.

ويحضرني الآن ما قصّه لي رستم بلقيس عن تلك الآونة، قال :

«كنت يومها أحد الشبّان الذين يأخذون القادمين إلى زيارة المعلّم تباعاً من بيت أبو راجح في الضهرة إلى بيته في الحمرا وكنت أذهب كلّ يوم مراراً، آخذاً معي في كلّ مرّة بعض الزائرين إلى البيت، وأحياناً أسترق النظر إليه وهو يتمشّى في حديقة البيت بجلاّبيّته، وكان يعتمر طاقيّة ملوّنة منسوجة على رأسه، وكم كنت أتمنّى أن يتسنّى لي حضور إحدى الجلسات، ولكن مهمّتي كانت فقط إيصال الزائرين. ومرّةً أدخلت الزائرين وهممت بالرجوع عندما التقت عيناي بعينَي المعلّم، بادرني بقوله : (فوت لجوّا) بلهجةٍ آمرةٍ روحانية، وتحقّق ما رجوت. ودخلت الجلسة».

وما هي إلّا فترة قصيرة من الزمن حتى غصّ البيت أو بالأحرى صالون البيت بالوافدين، وكنّا نعجب لهذا الصالون الذي كان يتّسع للمائة ونيّف على صِغَره النسبيّ، ولا نلحظ به ضغط الحشد المعتاد حتى أسماه محرز (أبو راجح) مازحاً بساط سليمان، يقصد بساط الريح، فقد قيل في الحكايات الشعبيّة أنّ بساط الريح يمتدّ فيتّسع للناس الجالسين عليه مهما تزايد عددهم.

ونظراً لهذا الازدحام، ولمرام المعلّم أن يأتيه عدد أكثر من المرشديّين ـ فهو كان يزيد من عدد الوافدين الذين يأذن لهم بالدخول تدريجيّاً ـ فقد نقل الاجتماع إلى مجمع الضهرة.

وكانت الضهرة انتهت من تشييد مجمعها في نفس ذلك العام، وكان كبيراً يتسع لمائة وثمانين مصلّياً بشكل مريح.

أمّا تنظيم الجيئة فكان على نفس القواعد التي بُنيَ عليها في بيت الحريري لم تتغيّر تقريباً. اللباس المدنيّ، لا يأتي إلّا من يكون قد عُيِّنَ يومه مسبقاً، وهكذا. وكانت هنالك فترات تنقطع بها الجيئة لتعود وتُستأنف من جديد. وقد خُصِّص يوم في الأسبوع للراحة أو يومان.

وصار المعلّم يقود سيّارته الزودياك من بيته في الحمرا كلّ يوم إلى الضهرة حيث يجتمع هناك بالقادمين إليه، يمرّ على بيتنا الذي كان بجوار المجمع حيث ينتظر ريثما يكون القادمون استعدّوا للاجتماع، ثم يعود بعد الجلسة إلى بيته في الحمرا حيث يبدّل ملابسه المبتلّة بالعرق، ثم يكمل السهرة، وكنّا نذهب ونكمل السهرة عنده أحياناً.

إنّ انتقال المعلّم إلى حمص أعطى دفئاً لجوّ الحياة عنده، وازداد اقترابه من أتباعه وخاصّة في الحياة اليوميّة. فالفارق بين جوّ الحياة اليوميّة في دمشق عنه في حمص كان كبيراً، ففي دمشق كان مازال ثمّة بعدٌ بينه وبين أتباعه، فهم عندما يزورونه وكأنّهم يزورون حبيباً لهم منفيّاً، وبعيداً عنهم، أمّا في حمص فقد أصبح يعيش بينهم، وبالنسبة لنا فقد ازدادت الحياة اليوميّة سلوة عنها في دمشق، وامتلأت هذه الحياة بشخصيّات جديدة، أحدثت تغييراً جوهريّاً في الحديث العاديّ اليوميّ، فقد أغنى هذا الحديث بعضٌ من ساكني حمص من المرشديّين لهم قصصهم الخاصّة ونكاتهم، ويمتازون بطيبتهم، يتوادّون المعلّم ويقصدون بيته يوميّاً. وكأنّ المعلّم بانتقاله إلى حمص قد خرج من سجن طالت مدّته في دمشق إلى حيث الناس والحياة وصخبها في هذا المجتمع المرشديّ الجديد، يعاين عن كثب أتباعه ويحيا معهم حياتهم، ويسمع أقاصيصهم عمّا يصادفونه في الحياة اليوميّة من أمور، يروون له تواريخهم الفرديّة في حياتهم الماضية.

وممّا زاد في بهجة هذا التعارف واللقاء الجديد أنّ هؤلاء الأفراد المرشديّين ممّن يسكنون في حمص، كان لكثيرين منهم تاريخ حافل بالمشقّات، وقد ارتاحوا الآن، وبنوا لعائلاتهم بيوتاً في الضهرة وفي الزهرة. وأقاموا مجتمعاً مرشديّاً صغيراً يحبّونه، وتسكن له نفوسهم. كما وأنّ العسكر المتقاعدين منهم كان لهم ذلك التاريخ من الراحة بعد التعب، ومن الاستكانة والاستقرار بعد الانتقالات الكثيرة من مكان إلى مكان، والراحة بعد التعب تعطي النفس اطمئناناً ورضىً.

وازداد تلوّن الحياة اليوميّة عنه في دمشق، فبينما لا يذهب المعلّم في دمشق إلّا إلى بيت فاتح وبيتي وبيوت المنفيّين، أصبح يمرّ على بيوت كثيرين من الذين يأتون إليه يشرب عندهم القهوة أو الشاي، ويبقى مدّة وجيزة في البيت الواحد.

وكان عندما انتقل المعلّم إلى حمص أنْ بدأ بعض المتقاعدين وغيرهم يتعازمونه إلى بيوتهم، ويقدّمون له ولمن يأتي معه وجبة من الطعام، تلك العزائم ما رأيتها مريحة ولا جذّابة وقد أسعدني إيقافها، ولا أظنّ أنّ المعلّم كان مرتاحاً لها أيضاً، لربّما يعود سبب ذلك أنّ هذه العزائم كانت تثقل على أهل البيت صاحب العزيمة لأنّ فيها تصنّعاً غير واعٍ، والمكان الذي يحلّ فيه التصنّع تهاجر منه المودّة، إلّا أنّ هذه العزائم لم تدم إلّا لأيّام قليلة.

وما انقطع المعلّم عن زيارة بيوت الذين اعتادوا على المجيء إلى بيته بشكل شبه يوميّ وبدون حاجة إلى الاستئذان أو إلى التسجيل عند المسلمين، فهم لا يأتون لأجل التعليم بل لأجل (الونسة) والحديث العاديّ وكانوا كثيرين نسبيّاً.

ومن هؤلاء محمّد بن يوسف العلي أبو سليمان وهو كان يلازم بيت المعلّم يوميّاً تقريباً ويتطوّع بالعمل فيه، فهو وغيره كانوا يساعدون أثناء الجيئات في بداياتها، وكان له ولرفيقه سليم سلامة حضور في بيت المعلّم، وأحاديث شتّى عن ماضيهما وحاضرهما، وكان لسليم ماضٍ من الشقاء في العمل، فإنّ أباه كان عسكريّاً وكان ذا طباع غريبة، ومرّةً غادر البيت وترك امرأته وأولاده الصغار لأنفسهم، فأصبح على سليم هذا الولد الصغير أن يُعيل أمّه وأخوته، فكان يعمل في تبييض أواني المطبخ أي (مبيّض) وأعمالاً أخرى كثيرة كي يجد ما يقيت به أهله، وأظنّ أنّ أباه رجع بعد مدّة إلى بيته. والغريب أنّه كان يروي قصّته لا بشكل مأساة يطلب بها استدرار الدموع، بل بشكل عاديّ مضحك حتى أنّك كنت تسمع قهقهته أثناء حديثه، وكان بذلك الوقت الذي أكتب عنه يعمل سائقاً في الجهات الرسميّة هو ورفيقه محمّد يوسف العلي، وكذلك بقيّة هؤلاء الناس كانوا لا يستحون من ماضيهم، بل يروون أشدّ الأيّام التي مرّوا بها إيلاماً، كأنّهم يروون قصّة عاديّة يُستجلب بها الضحك عوض الدموع.

أمّا المرشديّون العسكر الذين كانوا يجاورون المعلّم في المأمونيّة كأبي ناجي الرقيب سعيد تامر وخضر جعفر وسليمان العسكري، فقد صاروا الآن متقاعدين، ولهم بيوت في الضهرة، وأبناؤهم وبناتهم صاروا شبّاناً. وكذلك العسكر الذين كنّا نعرفهم في دمشق بدؤوا يبنون بيوتاً في الضهرة، منهم من أكمل بناء بيته، ومنهم مازال بيته في مرحلة البناء،

ومنهم من اشترى الأرض فقط، وكلّهم يعملون كي يستقرّوا في الضهرة بعد عسكريّتهم. وأذكر من هؤلاء أحمد ديب (أبو علي) وهو ابن الشيخ خضر ابن الشيخ علي ديب الشاعر المعروف أيّام سلمان، وأخاه ياسين ديب (أبو منذر) الذي كان ما يزال في الشرطة، وكان يأتي للبيت ويقضّ مفارقاتها كما كان يفعل في دمشق، ومحسن اسماعيل أيضاً فقد حدّثنا مرّة كيف ذهب مع بعض رفاقه وسهروا عند مجيب في دمشق، وأخذوا يروون له أقاصيصهم، ويغنّون أشعاراً مضحكة عن الأيّام الماضية. وعندما همّوا بالمغادرة وكان لهم عمل صباح اليوم التالي، تمنّى عليهم مجيب أن يبقوا عنده قائلاً لهم (يجوز أبقا نشوف بعضنا) ولكنّهم لم يبقوا عنده وذهبوا، وفعلاً جرت الغيبة بعد ذلك ولم يروه مرّة أخرى. وأخبرني محسن أنّ هذه القصّة أثّرت به كثيراً (بتحزّ بنفسي كلّ ما ذكرتا).

وبقي المنفيّون الثلاثة في دمشق ولم تعفُ عنهم الحكومة، ولا نحن، ولا هم، ولا الحكومة نفسها، كانت لتعلم لِمَ تتشبّث بهم هكذا بشكل مميّز عن الجميع.

أمّا فاتحٌ وأنا فقد انتقلنا مع المعلّم إلى حمص وسكنّا في بيتين في الضهرة، فاتح في بيت (أبو ابراهيم صافي)، وأنا في بيت محسن اسماعيل. وخلاصة القول أنّ الحياة في حمص بدت في الوهلة الأولى أكثر تقبّلاً منها في دمشق، وأقلّ ضجراً، وأكثر دفئاً، نظراً لدخولنا في هذا المجتمع الجديد.

البيت الأوّل

ورأى المعلّم أن يبني بيتاً عربيّاً في الضهرة يُخصّص لاستقبال الوافدين إليه من جميع المناطق المرشديّة، وأن يكون كبيراً نسبيّاً ليتّسع لعشرات القادمين، وأن تكون هنالك فسحة كبيرة أمام الصالون كباحة في منتصف البيت، وأن يُراعى به أنّه سيمتلئ بالناس، فمتفعاته تتلاءم مع هذا الوضع الجماعي، وأن يكون له غرفة كبيرة نوعاً ما على المدخل الرئيسي، وأن يكون للبيت مدخلان كي يُصار إلى دخول الزائرين من مدخل وخروجهم من مدخلٍ آخر، لتفادي الازدحام أثناء الدخول والخروج. وبما أنّ الباحة وبقيّة الغرف والمتفعات تفصل الصالون عن شارعين شرق البيت وجنوبه، فإنّ ضجّة البيت مهما علت لن تصل إلى الشارعين إلّا بشكل ضعيف. وبدأ العمل ببناء البيت في صيف ١٩٦٨، وانتهى العمل به في أشهر قليلة، وأظنّ حوالى ٢٠ تشرين الثاني من العام نفسه. هذا ولم يكن البيت باسم ساجي بل باسم أحد المعارف.

وكان المعلّم عندما يأتي في سيّارته لوحده إلى الضهرة أنّ سيّارته تخوض غمار الوحل

الكثيف الذي لم أرَ له مثيلاً إلّا في الضهرة هذه. وكان أبو سليمان يخاف أن تتوقّف السيّارة بهذا الوحل الكثيف، فكان يخرج يوميّاً عندما يأتي المعلّم، ويذهب ليراقب ماذا سيحدث للسيّارة، وما توقّفت ولا مرّة واحدة، رغم أنّ السيّارات الأخرى ما كانت لتستطيع اختراق هذه الأوحال الكثيفة، حتى أنّ بعض الأيّام كانت تتوقّف سيّارة اللاندروفر نفسها شاقّة الجبال الوعرة بسبب هذه الأوحال، وأثبتت الزودياك أنّها من خيرة السيّارات باجتياز الأوحال.

قرار صادر بنفي المعلّم وفاتح

كان المعلّم يسهر في بيتي في الضهرة عندما جاءت سيّارة عسكريّة إلى البيت الذي كان يسكن فيه في منطقة الحمرا، وخرج منها رجالٌ من المباحث، وطلبوا المعلّم ليبلّغوه قرار النفي، بل ليأخذوه معهم بعد أن يلقوا عليه القبض. وفي نفس اليوم جاء علي حبيب من دمشق وكان ما زال منفيّاً هناك، وكان قد علم بقرار النفي بحقّ المعلّم وفاتح من الموظّفين في الدولة، وأخبر المعلّم بقرار النفي هذا. وكان القرار يقضي بنفي ساجي المرشد إلى إحدى القرى النائية في بادية الحسكة حيث عليه أن يثبت وجوده هناك في المخفر يوميّاً، وهكذا فاتح إلى مدينة دير الزور، حيث عليه أن يثبت وجوده هناك في المخفر يوميّاً. والقرار يقضي بنفيهما هناك طيلة الحياة لأنّه لم يذكر مدّة محدّدة، وكان صادراً عن وزير الداخليّة ونائب الحاكم العرفي محمّد رباح الطويل. وكان قراراً مذهلاً وبدون سابق إنذار، ولم نعلم عنه شيئاً قبل قدوم المباحث لتبليغ المعلّم وفاتح بفحواه.

فرجع المعلّم وفاتح فوراً إلى دمشق واصطحبني المعلّم معه مخافة أن تنتبه السلطات إليّ فتنفيني مثلهما، ومكثنا في بيوت المنفيّين أو أحياناً في بيوت المرشديّين بجوار بيوت المنفيّين متوارين عن الأنظار، فإن علمت المباحث بمكانه هو وفاتح فستأخذهما فوراً إلى المنفى. أمّا القرار فهو قراران وإليك نصّهما :

القرار الأوّل :

أمر عرفي رقم ٢٤ / ٩ / ٢

مادة ١ ـ يبعد المواطن فاتح[1] بن سلمان المرشد من محافظة حمص وتفرض عليه الإقامة الجبريّة في مدينة دير الزور.

مادة ٢ ـ يثبت الموما إليه وجوده يوميّاً لدى رئيس إدارة الأمن السياسي بدير الزور بتمام الساعة الثانية عشرة.

مادة ٣ ـ على رئيس إدارة الأمن السياسي موافاتنا شهريّاً بتقرير مفصّل عن نتيجة مراقبة المذكور.

مادة ٤ ـ لا ينشر هذا الأمر العرفي ويبلّغ من يلزم لتنفيذه.

دمشق في ٢٠ / ١ / ١٩٦٩ — نائب الحاكم العرفي

محمد رباح الطويل

---

(١) اسمه بالنفوس محمّد المرشد ولكنهم أخطؤوا باسمه إذ كان يُشتهر بلقب فاتح كثيراً حتى خالوه اسمه في النفوس.

المرسل إليهم
رئيس مجلس الوزراء / الحاكم العرفي / مع الأسباب
وبناء على نشرة معلومات الأمن القومي ٢٨٨٧٤ / ٢٥٥
تاريخ ١٠ / ١٢ / ١٩٦٨

القرار الثاني :
أمر عرفي رقم ٤٤ / ٩ / ٢

نائب الحاكم العرفي

بناء على المرسوم رقم ٢٤٣٨ تاريخ ٣١ / ١٠ / ١٩٦٨
وبناء على المرسوم التشريعي رقم ٥١ تاريخ ٢٢ / ١٢ / ١٩٦٢ المتضمّن قانون الطوارئ ولاسيّما المادة الرابعة منه وبناء على الأمر العسكري رقم ٢ تاريخ ٨ / ٣ / ١٩٦٣ المتضمّن إعلان حالة الطوارئ في جميع أنحاء الجمهورية العربيّة السوريّة وبناء على كتاب شعبة الأمن السياسي رقم ٤٦٨٦ على س ل تاريخ ٤ / ٢ / ١٩٦٩

يأمر بما يلي

مادّة ١ : يبعد المواطن ساجي المرشد من محافظة حمص وتفرض عليه الإقامة الجبريّة في محافظة الحسكة بمنطقة نائية تحدد من قبل السيد محافظ الحسكة على أن يوضع تحت مراقبة رجال الأمن في المنطقة المحدّدة ويثبت وجوده لديها يوميّاً بالساعة ١٢
مادّة ٢ : على السيد محافظ الحسكة إصدار القرار اللازم بوضع هذا الأمر موضع التنفيذ وموافاتنا شهريّاً بتقرير عن نتيجة مراقبة المذكور
مادّة ٣ : لا ينشر هذا الأمر العرفي ويبلغ من يلزم لتنفيذه
دمشق في ٨ / ٢ / ١٩٦٩

وجاء مرشد المرشد وأعلن عن استعداده الكامل للعمل والتوسّط على إيقاف هذا القرار، وقابل صلاح جديد الذي كان مرشد يعرفه جيّداً، وقد ادّعى صلاح جديد أن ليس من المعقول أن يكون هذا القرار من القيادة (يقصد قيادة حزب البعث يومها). وكان هنالك ضابطٌ من ضبّاط صلاح جديد يُدعى سهيل حسن، وهو ضابط بسلاح الهندسة بالأركان، وهو من أصدقاء المرشد، فقد تعرّف عليه مرشد في العسكرية، فتبنّى هذه القضيّة وأخذها

بحماسة. وكان يذهب هو والمرشد لمقابلة محمّد رباح الطويل وزير الداخلية الذي أصدر القرار. وقد احتجّ لهما محمّد رباح أنّ سبب القرار بالنفي يرجع للتقارير المكذسة بحقّ ساجي وفاتح.

وفي دمشق ذهب فاتح ليقابل عبد الغني إبراهيم، وكان من الضبّاط المرموقين يوم ذاك، وهو لا ينتمي إلى العصبة الحاكمة، بل ينتمي إلى الجهة الأقوى عسكريّاً والتي يترأسها وزير الدفاع حافظ الأسد. وأعلن عبد الغني إبراهيم عن نيّته في عمل كلّ ما يستطيع لأجل هذا الأمر، وكان يقابل وزير الداخليّة رباح الطويل وغيره ليقنعهم بالعدول عن القرار. وقدّم إلى وزير الداخليّة تقارير طبّيّة أعطاها فاتح له تبيّن عدم إمكانيّة ساجي وفاتح من الحياة في تلك الصحراء البعيدة. وقد احتجّ محمّد رباح أنّه أصدر القرار نظراً لأنّ ساجي وفاتح بنيا بيتاً كبيراً في حمص، والناس تأتي إليهما أفواجاً. وقد قال عبد الغني لفاتح مرّةً : (انشا اللّه الجماعه مومطَوّلين) يلمّح بهذا عن نيّة الأسد على الإطاحة بهذا النظام الفاسد.

وصدف تلك الأيّام أنّ حافظ الأسد وزير الدفاع قام بتهديد النظام القائم، وأذاعت الإذاعات الأجنبيّة أخباراً عن التطوّرات الحاصلة في دمشق، وعن إمكانيّة قيام انقلاب جديد، وقد بدا للجميع يومها أنّ الأسد على وشك أن يطيح بالعهد المتزمّت المكروه عهد صلاح جديد. وكانت قد تعاظمت قوّة الأسد في الجيش وغيره وبات يُنظر إليه أنّه الرجل الأقوى في سورية، وباتت قوّة صلاح جديد محصورة تقريباً في اللواء سبعين الذي يعسكر قرب دمشق بقيادة عزّت جديد رجل صلاح جديد الأوّل وأشدّ الضبّاط تحاملاً على المرشديّين، عرفنا ذلك من مرشديّي جنود اللواء سبعين فقد كان يصرح بهذا الكره علناً وأنّه يريد محاربة المرشديّين. ولكنّ الأسد لم يتدخّل عسكرياً تلك الأيّام كما كان متوقّعاً منه وهو من الأساس لم يصرّح أنّه سيفعل.

وقد ساعد هذا الصراع على تليين محمّد رباح الطويل وعصبة جديد ككلّ، وقبلوا أخيراً أن يجعلوا المنفى في دمشق عوضاً عن الأصقاع النائية في صحراء سورية البعيدة، وقابل فاتح رباح الطويل الذي أبلغه ذلك، ثمّ صدر القرار رسميّاً بتغيير قرار المنفى المذكور إلى دمشق.

وأثناء المقابلة تعمّد فاتح إظهار وضع الكبرياء أمام محمّد رباح، وتقصّد تبيان ثقافته الواسعة، ممّا أربك الوزير فهو لا يكاد يعلم شيئاً عن الثقافة العالميّة، وأُحرج أمام الضابط سهيل حسن ومرشد اللذين كانا يحضران المقابلة، وكانا يبتسمان مسرورَين من فاتح، لأنّه تقصّد تحجيم الوزير بهذا الشكل.

الجمهورية العربية السورية
نائب الحاكم العرفي

أمر عرفي رقم (٥١) ٢/٩/٢

نائب الحاكم العرفي

بناء على المرسوم رقم ٢٤٢٨ تاريخ ٢١/١٠/١٩٦٨
وبناء على المرسوم التشريعي رقم ٥١ تاريخ ٢٢/١٢/١٩٦٢ المتضمن قانون الطوارئ
ولا سيما المادة الرابعة منه
وبناء على الامر العسكري رقم ٢/١ تاريخ ٨/٣/١٩٦٣
وبناء على الامرين العرفيين رقمي ١٤/٩/٢ تاريخ ٢٠/١/١٩٦٩ و ٤٤/١/٢ تاريخ ٨/٢/١٩٦٩ :
ولمقتضيات المصلحة العامة .

يأمر بما يلي :

مادة ١ـ تبدل الاقامة الجبرية المفروضة على المواطنين نافع بن سلطان المرشد وساجي المرشد في دير الزور والحسكة موضوع الامرين العرفيين رقمي ١٤/٩/٢ تاريخ ٢٠/١/١٩٦٩ و٤٤/١/٢ تاريخ ٨/٢/١٩٦٩ وتفرض عليهما في مدينة دمشق .

مادة ٢ـ على رئيس شعبة الامن السياسي وضع المومأ اليهما تحت المراقبة وموافاتنا شهريا بتقرير مفصل عن نتيجة مراقبتهما .

مادة ٣ـ يلغى مضمون الامرين العرفيين رقمي ٢٩/١/٢ تاريخ ٢٠/١/١٩٦٩ و ٤٤/٩/٢ تاريخ ٨/٢/١٩٦٩ .

مادة ٤ـ لا ينشر هذا الامر العرفي ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

دمشق في ١٦/٢/١٩٦٩

نائب الحاكم العرفي
محمد رباح الطويل

المرسل اليهم :
- رئيس مجلس الوزراء الحاكم العرفي مع الاسباب الموجبة
- وزارات الدفاع (مكتب السيد الوزير) ـ الداخلية
- الامانة العامة لرئاسة الدولة
- ادارة أمن الدولة ـ شعبة المخابرات العسكرية
- رئيس هيئة الاركان العامة للجيش والقوات المسلحة (المكتب)
- قائد قوى الامن الداخلي (المكتب)
- محافظات : اللاذقية ـ دير الزور ـ حمص ـ الحسكة
- قادة شرطة محافظات اللاذقية ـ دير الزور ـ حمص ـ الحسكة
- شعبتي الامن السياسي والجنائي ـ قيادة شرطة مدينة دمشق
- ادارات الامن السياسي في اللاذقية ودير الزور والحسكة وحمص
الموقع

صورة عن القرار الرسمي بتغيير قرار المنفى من دير الزور والحسكة إلى دمشق

الجمهورية العربية الســـورية
نائب الحاكم العرفي

أمـــر عرفي رقم (٨١) ٢/٦

نائب الحاكم العرفي
بناء على المرسوم رقم ٢٤٢٨ تاريخ ١٩٦٨/١٠/٣١
وبناء على المرسوم التشريعي رقم ٥١ تاريخ ١٩٦٢/١٢/٢٢ المتضمن قانون الطوارئ
ولا سيما المادة الرابعة منه
وبناء على الامر العسكري رقم /٢/ تاريخ ١٩٦٣/٣/٨ المتضمن اعلان حالة الطوارئ في جميع أنحاء القطر العربي السوري.
وبناء على الأمر العرفي رقم ٥ /٢/٦٩ تاريخ ١٩٦٩/٢/١٦
وبناء على مقتضيات المصلحة العامة

يأمـــر بما يلـــــي :

مادة ١ـ يلغى مضمون الامر العرفي رقم ٥٩ /٢/٦٩ تاريخ ١٩٦٩/٢/١٦ المتضمن فرض الاقامة الجبريـــة على كل من ناجي بن سليمان المرشد وشقيقه ساجي في مدينة دمشق نظرا لزوال الاسباب .

مادة ٢ـ لا ينشـــر هذا الامر العرفي ويبلغ من يلزم لتنفيـــذه X

دمشق في ١٩٦٩/٤/١

نائب الحاكم العرفي
محمد رباح الطويـــــــل

المرسل اليهـــــم :
ـ السيد رئيس مجلس الوزراء ـ الحاكم العرفي مع الاسباب الموجبة
ـ الامانة العامة لرئاسة الدولة
ـ وزارة : الدفاع (مكتب السيد الوزير ـ الداخلية
ـ ادارة أمن الدولة ـ شعبة المخابرات العسكرية
ـ رئيس هيئة أركان الجيش والقوات المسلحة (المكتب)
ـ قائد قوى الامن الداخلي (المكتب)
ـ محافظات : اللاذقية ـ دير الزور ـ حمص ـ الحسكة
ـ قادة شرطة محافظات : اللاذقية ـ دير الزور ـ حمص ـ الحسكة
ـ شعبتي الامن السياسي والجنائي ـ قائد شرطة مدينة دمشق
ـ ادارات الامن السياسي في محافظات : اللاذقية ـ حمص ـ دير الزور والحسكة ـ الصف

صورة عن قرار إلغاء الإقامة الجبرية في مدينة دمشق

ولم نعرف على وجه اليقين ما الذي منع جماعة صلاح من تنفيذ قرار وزارة الداخليّة بالنفي إلى الجزيرة، وأظنّ أنّ الذي ساهم جذرياً بإقناع عصبة جديد هو التهديد الذي واجهها من الأسد وموقفها الضعيف إزاءه والذي جاء مصادفةً أثناء هذه المراجعات. فأنت تستطيع أن تُقنع الضعيف أكثر مما تستطيع أن تقنع القويّ.

أمّا أسباب هذا القرار لربّما تعود فقط إلى أمرين، أوّلهما: نيّة عصبة جديد القديمة بالتخلّص من ساجي وضرب المرشديّين، تلك النيّة التي أُعيقت في حرب ١٩٦٧. وثانيهما وهو السبب المباشر فهو الاجتماعات الكبيرة في حمص والتي كانت تتزايد بشكلٍ كبير، حتى أصبح يأتي إلى المعلّم في بيت مجمع حمص من مائة وخمسين إلى مائتين رجلاً في كلّ يوم. أمّا كيفيّة وصول هذا الأمر إلى المسؤولين، فإنّ المجاورين للبيت من غير المرشديّين الذي كانت تجري فيه الاجتماعات كان بعضهم على ما يظهر يتعامل مع المباحث، وحتّى المرشديون أنفسهم لم يكن يخلو مجتمعهم من الواشين خاصّةً وإنّ المعلّم لم يثنِ أحداً عن التحدّث عن اجتماعاته منذ آلَ إليه أمر المرشديّين وحتّى النهاية رغم الظروف الخطرة التي مرّت بها مركبته في العهود المتلاحقة.

وأصبحنا في دمشق نرى رجال التحرّي من جديد عند باب البناية التي يسكنها المعلّم والتي استأجر فيها شقّة وهي في القصّاع، وكانت مراقبتهم هذه المرّة سافرةً لا يحاولون إخفاءها، بل لربّما تقصّدوا إظهارها، ولكنّهم لم يمنعوا الناس من الدخول أو الخروج، ولم يكن يأتي إلى بيته أساساً إلّا المنفيّون الثلاثة وطبعاً المرشد ومن النادر أن يأتي غيرهم. كان المعلّم قد صرف السائق فأصبح يقود سيّارته بنفسه عندما يذهب إلى السوق.

ومرض المعلّم مرضاً شديداً في هذا البيت، وقد أصابته مثل الحمّى وارتفعت حرارته كثيراً، واستمرّت أسبوعاً ولربّما أسبوعين. وصدف أنّه لم يكن عنده أحدٌ أثناء هذا المرض إلّا امرأته.

ثمّ صار يذهب إلى حمص ويعود إلى دمشق في فتراتٍ متقطّعةٍ رغم قرار النفي. وكان يبقى أثناء تواجده في حمص في بيتي، ثمّ صارت تطول هذه الفترات التي يقضيها في حمص. وبعد أن بدأ الجوّ يبرد وضعنا في الغرفة التي كان يجلس فيها ألواحاً من الخشب على الجدران كي يستطيع السهر فيها، وكذلك في الغرفة التي ينام فيها. أمّا هذا البيت فكان بيتاً عربيّاً يحتوي على ثلاث غرفٍ متتاليةٍ متجاورةٍ، وأمام هذه الغرف فسحةٌ سماويّة كبيرة يفصلها حائط بعلوّ مترين عن الشوارع والجوار من ثلاث جهات، وفي البيت منتفعات صغيرة وبئر يُستخرج منه الماء بواسطة (الطرنبة) اليدويّة وهو بكلّ مواصفاته كان على شاكلة

بيوت الضهرة آنذاك. واتجاه الأبواب والشبابيك إلى الجنوب، فلا تفصلهم بيوت أخرى أو غرف مقابلة عن ضوء الشمس أو حرارتها. وبذلك كان دافئاً نوعاً ما مقارنةً مع غيره. أمّا فاتح فقد غادر حمص وسكن في بيت المعلّم في دمشق وذلك كي لا تنتبه الحكومة إلى روحات ساجي إلى حمص فالبيت ما زال مسكوناً. ثمّ انتقل المعلّم نهائياً إلى حمص بعد أن أُلغي قرار النفي، وسكن في بيت محسن إسماعيل في الضهرة، وكان قد باع سيّارته الزودياك، ورجع فاتح إلى حمص أيضاً.

الضهرة

لا أظنّ أنّني عشت بمكانٍ تصحّ به كلمة : المجتمع ذو الطبقة الواحدة، كحارة الضهرة هذه، دخْل الفرد يكاد يكون نفسه إلّا في بعض الحالات النادرة بين يسرٍ وعسر. بيوتها تكاد تكون صورة متكرّرة عن بعضها البعض. فسحةٌ سماويّة صغيرة حولها بعض الغرف وبئر ماء. سكّانها أكثرهم متقاعدون أو بانتظار التقاعد من الجيش أو من الوظائف العامّة متدنّية المستوى. الثياب متشابهة من حيث الشكل والقيمة المادّيّة. الذكور يرتدون القميص والبنطال. في الخريف وفي الربيع يرتدون كنزة فوق القميص وفي الشتاء سترة فوق الكنزة. شابّات الضهرة ترتدي الواحدة منهنّ (تنّورة) إلى ما تحت الركب بقليل، وتلبس بنطال البيجاما تحت التنّورة وقميصاً فوق التنورة، يزدن على ذلك كنزةً في الشتاء، وتغطّي واحدتهنّ رأسها بإشارب. أمّا بقيّة النساء وخاصّة المسنّات منهنّ يلبسن الفساتين الطويلة، ويضعن المناديل على رؤوسهنّ.

وهذا المظهر من اللباس النسائي بالنسبة للفتيات كان قد انتشر بين الفتيات حديثات الهجرة إلى المدينة، وأخذته المرشديّات عنهنّ. وكان يعتبر تقدّماً ملحوظاً بالنسبة للفستان الطويل والمنديل، ففي القرى ترتدي النساء جميعهنّ الفساتين الطويلة والمناديل، ثمّ بدأ هذا الزيّ الجديد يغزو القرى أيضاً بشكلٍ تدريجي.

والثياب عموماً كانت من الأنواع الرخيصة نظراً لحالتهم المادّيّة الضيّقة، والواسعة جدّاً مقارنةً بماضيهم قبل ذلك في القرى.

إنّ الفارق بين ضواحي المدن والقرى كان في ذلك الزمن كبيراً. فسكّان ضواحي المدن يأكلون الخضار ـ لم تكن قد انتشرت قديماً زراعة الخضار في كثير من مناطق الريف نظراً لقلّة درايتهم الزراعية ولقلّة مصادر المياه ـ أمّا في القرية فيكاد ذلك يكون نادراً إلّا ما قد يزرع الفلاح المتنوّر زراعيّاً حول بيته من خضار في أرض صغيرة يرويها من مياه البيت التي يجلبها للشرب، كما وإنّ عمل الرجل في معمله أو وظيفته والمرأة في بيتها أسهل منه في المدينة عن القرية. في المدينة لا يشقى الرجل والمرأة بأرضهما، وليس هنالك دوابّ ليعتنيا بها. والماء تأخذه المرأة من البئر في البيت وليس نقلاً على الأكتاف من العين أو من البئر البعيد. فعالم المرأة أصبح بيتها، ولا تمتدّ علاقاتها الخارجيّة إلى أكثر من عددٍ قليلٍ من بيوت الجيران، ولكن يبقى للعائلة أصلٌ واتّصالٌ مع أقربائهم في القرية.

كانت الوداعة تكتنف أرجاء الضهرة، فلا تجد اختصاماً إلّا نادراً، وإن قام يوماً ما فلا يصل إلى الاعتداء الجسديّ. وكان يشوب هذه الوداعة ظهور بعض الشبّان بين الفينة والأخرى ممّن تطمعهم هذه الوداعة وهذه المسالمة إلى التطاول على غيرهم. وكان موقف أهل الضهرة من هؤلاء ضعيفاً جدّاً، تكاد تهتزّ جنبات الضهرة لتهديدات واحدهم أحياناً، ويحاذر الناس جبروته. ولا يجد من يتصدّى له فيوقفه عند حدّه. لعلّ ذلك يعود إلى أنّ أكثر السكّان كانوا متقاعدين أو على نيّة التقاعد، وقد ابتنى واحدهم له بيتاً يحتمي به ويأنس إليه. فهو لا يحبّ أن يُقلِقَ هذا الهدوء بمعارك مع أغرارٍ ليس له علاقة بهم. والملام بهذا بنظره أهل الغرّ ذي التربية الفاسدة.

مع غروب الشمس تتغيّر أكثر ثياب الرجال والشبّان فتصبح جلّابيّات بيضاء. كان يحبّ المرشديّ في القديم أن يصلّي مرتدياً الجلّابيّة البيضاء وليس البنطال إذا استطاع ذلك، أو إذا كانت له همّةٌ أن يبدّل ثيابه عندما يفاجئه موعد الصلاة عند الغروب. وكان أكثر المرشديّين يرتدون الجلّابيّات البيضاء عندما يذهبون إلى المجمع وذلك بعد غروب الشمس بحوالي الساعتين. فتكاد حارة الضهرة الصغيرة تتحوّل في المساء إلى حارةٍ جديدة غيرها في النهار، وذلك بفارق الثياب وهدوء النفس الذاهبة إلى الصلاة. وظهور الخشوع غير المصطنع في سيما الرجال.

إنّ حرّيّة الدخول والخروج من وإلى بيوت بعضهم البعض كانت شبه تامّة لدى أكثرهم وبدون إحراج، وكانت هنالك ثلاثة بيوتٍ تُعَدّ منتديات عامّة لسكّان الضهرة، بيت أبي راجح (محرز) وبيت يوسف سليمان (أبو سليمان) وبيت محمود جوهر المتعهّد المعروف في هذا المجتمع الصغير جداً في الضهرة.

كان يخفّف من محدوديّة الحياة في الضهرة اجتماعات بعضهم للغناء، أو اجتماعاتهم هنا وهناك ليحفظ واحدهم غيباً بعض الأشعار الجديدة التي يرسلها المعلّم بين الفينة والفينة. إنّ ظاهرة انعدام الكِبر في مجتمع الضهرة الصغير كانت تتجلّى أنّ لكلٍّ منهم كرامته في المجتمع لا فرق في وظيفته وطبيعة عمله، حتى وإن كان بائع خردواتٍ أو كنّاساً في البلديّة، فهو (أبو فلان) يجلس أحياناً في صدر المكان مَثَلُهُ مَثَلُ باقي الناس.

الوضع قُبيل الحركة التصحيحيّة

تجمّعت القوى في البلاد في يد حافظ الأسد حتى أصبح صلاح جديد وعصبته الحاكمة رسمياً لا يملكون في الحقيقة شيئاً من قوّته، فإنّ أكثر الضبّاط دخلوا بإمرة الأسد. وبات الجميع حتى التجّار وأصحاب المصالح يتمنّون أن يَرَوا اليوم الذي يتخلّصون به من صلاح جديد وجماعته التي جعلت البلاد خاويةً على عروشها. ونشفت الحياة بجوانبها نتيجةً للركود الاقتصادي الذي أوجده الانسياق اليساري الأعشى، وكان حكم جديد والأتاسي قد جعل سورية معزولة عربياً وعالمياً، وما كان هناك مَنْ يجسر على التكلّم بكلمةٍ واحدةٍ ضدّ الحكم القائم، فقد أُسنِدت إلى المخابرات وإلى التنظيمات الشعبيّة مهمّة إسكات الناس.

وكانت العصبة الحاكمة تنظر بهلع إلى تعاظم قوّة الأسد في الجيش يوماً عن يوم، وما استطاعت منافسته في هذا المضمار. وعندما رأى صلاح جديد أنّه ليس من مصلحته ترْك الأسد يتمادى بجمع القوى إليه وأنّه بات من الخير له العمل الجدّي على التخلّص منه فعقد مؤتمراً قومياً لحزب البعث وأصدر قراراً بعزل حافظ الأسد حزبياً وأنصاره، وأصدر في تشرين الأوّل سنة ١٩٧٠ بيانات في الإذاعة تُعلن عن انحراف بعض الرفاق وأنّ هناك عناصر مناهضةً للثورة استطاعت أن تتغلغل في صفوف الحزب على حين غرّة، وتدعو الرفاق الحزبيّين إلى محاربتهم. وما استجاب الجيش إلى هذه البيانات وكأنّ أمراً لم يكن.

قيام الحركة التصحيحيّة

في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ أطاح الأسد بصلاح وعصبته، وأودعهم السجن جميعاً، وأعلن عن قيام الحركة التصحيحيّة. فالبلاد والحزب كانا بحاجةٍ إلى حركة تصحيحيّة تعيدهما إلى شيءٍ من المنطق والواقعيّة.

ودخل السجن صلاح جديد ونور الدين الأتاسي ومحمّد رباح الطويل وعزّت جديد وعادل نُعيسة، أمّا ابراهيم ماخوس فقد استطاع المغادرة إلى الجزائر وبقي لاجئاً فيها. أولئك الذين حطّموا اقتصاد البلاد وأفنوا قلوب شعبهم رعباً وأجهضوا معنويته في حربٍ مبكّرة

قبل أن يستعدّوا لها تمام الاستعداد. وأمّا من جهتنا نحن فهؤلاء الذين أرادوا قتل إمامنا وهدم مجامعنا. ولكن سفينة الأيّام جرت بما لم يكونوا يتوقّعون، ومكث أكثرهم بالسجن حتى كاد يموت أو مات به وذلك بموجب حكم عرفي.

تلقّى الناس في سورية خبر الحركة التصحيحيّة بفرحةٍ عارمة، وأهازيج مستمرّة، وخاصّةً عندما علموا بنيّة الأسد بإصلاح سياسة البلاد الاقتصاديّة وفكّ قيودها. وألغى الأسد القيود التي كانت مفروضة على الناس كتنقّلات الأفراد وغيرها. وقد أباح الحرّيات الشخصيّة كحرّيّة الاجتماعات وحرّيّة المعتقدات.

وفي شهر آذار عام ١٩٧١ تمّ انتخاب حافظ الأسد رئيساً للجمهوريّة. وظهر في ذلك وفي ثورة ١٩٦٣ قبلها أنّ قيامة القوّتلي ورفاقه السابقين والعهود المتتالية بعدهم ضدّ المرشديّين لأنّهم رأوا بهم نهضةً خطرة للمستضعفين، لم تجدِهم نفعاً.

لقد سُرّ المرشديّون بهذا الحدث سروراً غير مخفي. وعندما دُعي الناس لاستقبال الرئيس الجديد في مناطق القرداحة كان تكاثُر المرشديّين في الاحتفال على غير عادتهم في الاحتفالات الرسميّة السابقة. فالمرشديّون دائماً جدّيّون وبعيدون عن النفاق، فإن فعلوا أمراً بخيارهم إنّما لا يعنون به شيئاً آخر، بل تستطيع أن تقرأ قلوبهم من أعمالهم.

وانتخب المرشديّون الرئيس الأسد في انتخابات أجريت على منصب الرئاسة، هذا ولم يطلب الأسد من المرشديّين انتخابه، ولم يرسل لا إلى المعلّم ولا إلى أيّ أحدٍ من المرشديّين أيّة رسالة بهذا الخصوص.

ومنذ سنة ١٩٧١ وبعد قيام الحركة التصحيحيّة توقّف النفي والإقامات الإجباريّة وحظر التجوّل على الشعب السوري. وكان اضطهاد المرشديّين قد خفّ قبل هذا حتى كاد أن يتلاشى، ولكنّ التهديد والوعيد كان مازال قائماً، وتلاشى وفني بعد الحركة التصحيحيّة. وفُكّ أسر المنفيّين في دمشق، ورجعوا إلى مناطقهم أخيراً.

في هذه السنة ذهب المعلّم يرافقه فاتح إلى لبنان، وما وجدا لهما من اسم في مخفر الحدود، وكان اسماهما في مخافر الحدود قبلها، وكان يحظر على كلّ مَن له اسم على الحدود الخروج من سورية. وكانت قائمة أسماء الممنوع خروجهم طويلة جدّاً في حكم نور الدين وصلاح جديد وعندما أقالهما الرئيس الأسد ألغى هذه القائمة وأصبح الذهاب إلى لبنان وغيره مفتوحاً لِمن أراد.

وذهب المعلّم مرّةً أخرى إلى لبنان، وذلك كي يعود فاتح الذي كانت تُجرى له عمليّة

جراحيّة في ظهره (ديسك) وكنت وحدي برفقته هذه المرّة، وقد أمضينا أسبوعاً في بيروت. واستشار المعلّم الأطبّاء هناك لأجل التهاب الجيوب التحسّسي والروماتيزم تلك الأمراض التي طالما عانى منها، ولكن بدون جدوى.

وكنّا نلحظ التغيير الحاصل في مدينة بيروت وفي المصايف اللبنانيّة نتيجةً لنهضةٍ عمرانيّةٍ واضحة المعالم. وأسلوب الحياة الغربيّ الحديث كان قد غزا ضواحي المسيحيّين في بيروت وكذلك مصايفهم. فلكلّ مجمّع عمرانيّ سوق تجاريّة (سوبر ماركت) خاصّةٌ به، ترى ربّات البيوت يخترن ما يحتجنَ إليه من موادّ ومعلّبات، وتضع الواحدة هذه الموادّ في سلّة العربة التي تدفعها أمامها، تماماً كما يحدث في المدن الغربيّة ذات طابع المدنيّة الحديثة.

وفي سنة ١٩٧١ زار المعلّم المرشديين في اللاذقيّة مرّتين أو أكثر وكذلك في الغاب، وكان بعضهم يلتفّ حوله وهم غير مصدّقين عيونهم، فها هو المعلّم عندهم بعد تلك الغيبة الطويلة والتي استمرّت حوالى ثمانية أعوام، فقد كان هذا شبه مستحيل. ولو قام المعلّم بزيارتهم مرّةً قبل ذلك إذاً لقامت قيامة الدولة عليه وعلى جماعته، ولربّما كان بعدها السجن والنفي، ورجوع الاضطهاد والعذاب كما كان سابقاً، ففضّل أن يبقى في دمشق وبعدها في حمص على أن يعرّض أتباعه إلى هدم البيت الذي بناه لهم بيديه حجراً بعد حجر، وكم لاقى من صعوباتٍ من جرّاء بناء هذا البيت.

انتكست صحّتي وعادني المعلّم، وأذكر من قوله وبعد أن شفيت، أنّه يخاف على فاتح وعليّ، إنْ مات أحدنا، فهو الذي سيقوم برعاية أطفاله، أي أنّه لا يخاف على أيٍّ منّا آخرته فكلانا مؤمن، إنّما يخاف رعاية الأطفال من جديد، فقد ضجر من هذا الأمر، فطيلة عمره تقريباً يقوم برعاية الأطفال والعائلة، فهو بعد رحيل سلمان وكان صبيّاً ابن ستة عشر عاماً تبنّى مسؤولية رعاية العائلة من أولادٍ صغار ونساء حتى أوائل الستينات على الأقل، وذلك علاوةً على المسؤولية التي حمّلها نفسه، وهي تشديد قلوب العشيرة بعد المأساة الكبيرة، ثمّ ما أُوكِل إليه من مسؤولية الإشراف على أراضي سلمان. واستجاب الله له فقد كان رحيله (سنة ١٩٩٨ في ٢٤ تشرين الأوّل) سابقاً لرحيلنا وبقي فاتح بعده سنة وخمسة أشهر إلّا قليلاً، على الرغم ممّا أصابه من نكسات قلبيّة قاتلة، وما أحد منّا كان يظنّ أنّه سيعيش إلى هذا العمر حتّى الأطبّاء أنفسهم وتوفّي سنة ٢٠٠٠ في ٦ آذار. وكذلك أنا فقد كنت أعاني من قصور القلب سنة ١٩٩٨ وقال الأطبّاء أنّ حياتي باتت في خطر في كلّ لحظة، تعافيت بعدها ورافقته في فرنسا وفي بيروت قبيل رحيله.

الانتقال إلى اللاذقيّة

كان شتاء ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ شتاءً قاسياً، لا يكاد الثلج يفارق حارة الضهرا حتى يبدأ الصقيع غير المحتمل، وازداد الضجر، ولم يعد هنالك غناء ولا حديث ولا سهرات ولا أيّة تسليةٍ من التسليات العاديّة.

وتوالت العاصفة الثلجيّة تهبّ على حمص واشتدّ البرد، ينزل الثلج فيغمر الطرقات وسطوح المنازل، فلا ترى إلّا بياضاً حيثما تطلّعت، ويتوقّف الهطول لتهبّ الأرياح الشرقيّة الشماليّة الباردة جدّاً، ويتحوّل الثلج إلى جليد، وما يكاد يذوب الجليد حتى يهطل الثلج من جديد.

ورأى المعلّم أنّ صحّته لا تسمح له بالبقاء في هذا الجوّ البارد، وسافر إلى اللاذقيّة في حوالى منتصف شهر كانون الثاني سنة ١٩٧٢ واصطحبني معه. وهو كعادته لم يستأذن أحداً لا الحكومة ولا غيرها لأجل انتقاله إلى اللاذقيّة وما استأذن أيّة حكومة في أي شيء لا قبل هذا التاريخ ولا بعده.

في اللاذقيّة نزل في بيت عيسى خضّور في مشروع قنينص وكان هذا الحي في بداية نشوئه، وابتدأ المرشديّون من معارفه يتعازمونه إلى بيوتهم.

وقدّم نوفل الدواي بيته في اللاذقيّة للإمام كي يسكن به، وسكن في البيت مدّة وجيزة. وبيت نوفل دواي كبيت عيسى خضّور في حيّ قنينص أيضاً. وسكنت أنا مع عائلتي في بيت محمود علي محمود ـ وهو تاجر له متجر في اللاذقيّة ـ وبيته في حيّ قنينص أيضاً.

إنّ انتقال المعلّم إلى اللاذقيّة لم يكن له ثمّة ردّة فعل عند المسؤولين، وإن كان هنالك من ردّة فعل فقد كانت إيجابيّة وليست سلبيّة على عكس الأيّام الخوالي. هذا وما اتّصل المعلّم ولا أحدٌ من قِبَلِهِ لا بالرئيس ولا بأحدٍ من المسؤولين بشأن هذه الأمور، وما قُدِّمَ أيّ طلبٍ بهذا الخصوص.

بدأ المعلّم يمارس رياضة المشي منذ وصوله إلى اللاذقيّة، وذلك في أسواق المدينة وفي أطرافها، وكان يصطحبني معه في هذه النزهات. وما كان أهون علينا أن نقطع اللاذقيّة

عرضاً أو طولاً مشياً على الأقدام لصغرها ذلك الزمن، وكنا نمشي كلّ يوم، وقد تستمر النزهة ساعتين أحياناً. وكأنّنا كنا جائعين للنزهات، فما صدّقنا أن أتيح لنا ذلك فاستغلّيناه بالكامل لأنّ نزهاتنا بحمص كانت تقتصر في الغالب على التمشّي في ساحة الضهرا (قبل أن تمتلئ هذه الساحة ببناء المستودعات الحكوميّة في الثمانينيّات). لأنّك إنْ شئتَ أن تمشي في الشوارع الجميلة أو حتى المقبولة في حمص، عليك أن تقطع حيّ النزهة الكبير كي تصل إلى شوارع المدينة. وكان من أصعب الأمور التمشّي في ذلك الحيّ نظراً لكثرة الدرّاجات الناريّة والعاديّة والشاحنات والطنابر والمارّة الذين يملؤون الأرصفة الضيّقة، فيفيضون عنها إلى الشارع الصغير الممتلئ بالآليّات. وكانت تختلط جميع هذه الأصوات في أذنيك من صفير الشاحنات إلى زعيق (الطرطيرات) التي تكاد تصمّ الآذان. وكنّا نفضّل التنزّه في ساحة الضهرة الترابيّة الواسعة جيئةً وذهاباً على مجابهة هذا الحشد وهذا الضجيج غير المُحْتَمَل. وأين هذا من التنزّه على كورنيش البحر في اللاذقيّة ذي الرصيف العريض والشارع الواسع وكان ما يزال يومها يوجد مقاهٍ جميلة على شاطئ البحر على الكورنيش القديم قبل أن يهدموه ويبنوا مرفأً بدلاً عنه. وكانت شوارع اللاذقيّة تحتوي على بعض الأشجار في هذا الشارع أو ذاك.

كان المعلّم يمرّ في اللاذقيّة أثناء تجواله على كثيرٍ من بيوت المرشديّين، يحتسي عندهم فنجان القهوة، ويتحدّث مع صاحب البيت وجيرانه لفترةٍ وجيزة، ثمّ يغادر البيت.

ومرّةً جاء رستم بلقيس وهو من رفاق المعلّم بحمص، وأنشد بعض الأشعار الصغيرة يصف بها حضور المعلّم بالضهرة، ويعاتبه لِمَ تركها، ويصوّر بهذه الأشعار كيف أنّه رغم كون الضهرة قاحلة ماحلة وكلّها غبار، كان رفاق المعلّم يشعرون أنّها الجنّة حقّاً عندما يرونه يتمشّى بساحتها. وكان لأشعاره هذه طابعٌ من الحنان جذّاب، وقد أبكت بعض جماعة اللاذقيّة الذين كانوا يستمعون إليه أثناء إلقائها.

المرشديّون في اللاذقيّة سنة ١٩٧٢

كان هنالك حيٌّ في أطراف اللاذقيّة تقريباً، ولكون اللاذقيّة مدينة صغيرة فهو لا يبعد سوى كيلو متر أو أكثر بقليل عن مركزها، ذلك الحيّ يُدعى مشروع قنيص، وكلمة مشروع كانت تُطلق على كلّ الأحياء الجديدة التي نظّمتها البلديّة حديثاً.

كانت بناياته متشابهة بحيث لا تكاد تميّز بناية عن الأخرى، والبناية عبارة عن طابقين،

كلّ طابق بيت مستقلّ. للبيت الواحد غرفتان صغيرتان وممرّ ومتفعات تبزّ في صغرها غرف البيت، ولكلّ بناية أي لكلّ طابقين حديقة صغيرة أمامها ووراءها.

ولم يكن وجود المرشديّين في اللاذقيّة مقتصراً على هذا الحيّ، فقد كان هنالك حيّ آخر يُدعى بوقا يتواجد به المرشديّون، ولا يكادون يقلّون عن حيّ المشروع، كما كان هنالك بيوتٌ متفرّقة ابتناها المرشديون أو استأجروها في حيّ الرمل والمشاحير، وعين أمّ إبراهيم، وغيرها من الأحياء الشعبيّة الجديدة، والتي كانت بمجملها تمثّل صورةً حيّةً لنزوح الريف إلى المدينة في تلك الأيّام.

كان المرشديّون القاطنون بحيّ قنيص يجدون أنفسهم بوضع أفضل من إخوانهم القاطنين ببوقا أو الحمّام مثلاً. وفعلاً كان هنالك فارق بين أبنية المشروع وتنظيمه، وبين أبنية بوقا والحمّام والمشاحير التي كانت ما تزال تحتفظ بطابع البيت العربيّ، ساحة سماويّة أو شبه ساحة في البيت، أو غرف على الطريق، كما أنّ مشروع قنيص كان أقرب إلى مركز المدينة من بوقا والحمّام، ولهذا الأمر جاذبيّته الخاصّة أيضاً.

إنّ التمايز بالمكان واللباس والطعام ولو كان جدّ بسيط، يجد به الإنسان معنويّةً، فلا يرضى أن يُقاس بمَنْ هم دونه في هذا المستوى. هذه ظاهرةٌ رافقت الإنسان منذ تكوينه الأوّل، وهذه الظاهرة ملحوظةٌ حتى في هذا المجال الضيّق الذي أذكره هنا بين المشروع وبوقا.

كان مرشديو اللاذقيّة بأكثرهم موظّفين أو عمّالاً في القطاع العامّ كمرشديي حمص، إلّا أنّه كان بينهم مَنْ كانت وظيفته مرموقة نسبيّاً إلى غيره.

وكان الراتب يوم ذاك مقبولاً وكفيلاً أن يغطّي حاجات العائلة، وقد يُساعد مع بيع أراضٍ في القرية على بناء بيت في اللاذقيّة، ولهذا فإنّ الحياة المعيشيّة في اللاذقيّة كانت مقبولة نوعاً ما. وما كنتَ تلحظ الفقر المدقع في مجتمعهم هذا.

إنّ قيام الرئيس حافظ الأسد على سدّة الحكم في سورية ساعد كثيراً في اتّساع دائرة توظيف المرشديّين بوظائف الدولة كعمّال وكتبة، ولم يعودوا يُمنعون من الوظيفة، وكان بيت الأسد أكثر الناس انفتاحاً لهم. وخاصّة أحمد علي الأسد والمعروف بلقب (أبو أنور) أخو الرئيس حافظ الأسد غير الشقيق فقد ملأ إدارة التبغ والتنباك (الريجي) بالعمّال من الريف، ولم يخصّ طائفة أو فئة بمعاملة استثنائيّة، وكان للمرشديّين حصّة لا بأس بها نسبيّاً من هذه الوظائف. أذكر أنّهم أخبرونا في اللاذقيّة تلك الأيّام أنّ هنالك في الريجي حوالى

ثلاثمائة امرأةٍ مرشديّة متوظّفة فيها، وأكثرهنّ كنّ من منطقة المهالبة القريبة من المدينة. ومن تلك الأيّام بدأ عدد المرشديّين أصحاب الوظيفة يتزايد سنةً بعد أخرى في اللاذقيّة وفي حمص أيضاً.

إنّ معظم مرشديّي اللاذقيّة النازحين من الريف إلى المدينة كانوا غير متقاعدين من الجيش إلّا قليلاً، على عكس جماعة محافظة حمص الذين كانوا في غالبيّتهم من المتقاعدين من الجيش. ذلك أنّه من الأساس لم ينخرط (الشمالي) في الجيش انخراط (القبالي) به، وعلى سبيل المثال : كانت هنالك قريةٌ في الجهة الجنوبيّة تُدعى قرب علي، كان قد انخرط كلّ رجالها في الجيش، وكنت لا تجد في قريتهم إلّا المعمّرين، وبعض الأحيان الأولاد الصغار أيضاً، أي الأجداد والأحفاد. أمّا الرجال ونساؤهم ففي مدن سورية وأصقاعها يقضون عسكريّتهم وترافقهم نساؤهم، والمتقاعدون منهم يبنون لهم بيوتاً في الضهرة ونادراً ما يبني أحدهم بيتاً في القرية.

المعلّم يزدري بالمستلمين الأربعة

بدأ المعلّم يعامل المستلمين الأربعة باحتقار بعد أن خَبَرَ شيئاً ممّا يصنعونه بعد قدومه إلى اللاذقيّة، وكثيرٌ من الجلساء عنده كان يُلمّح إلى أفعال المستلمين بطريق النكتة، أو بسرد حكايةٍ ما لا يكون موضوعها هم، بل يأتي ذكرهم في سياق الحكاية، ويُظهر بذلك متعمّداً بعض ما يفعله المستلمون. فكانوا يودّون في قلوبهم أن يسمع المعلّم بأخبار هؤلاء، ولا يجسرون مصارحته بها بشكلٍ علنيّ، لعلمهم ما سيؤول إليه أمر الواحد منهم إذا عَلِمَ المستلم ما تكلّم به عنه أمام المعلّم. فهو يعلم أنّ هذا المستلم لا يتورّع عن اتهامه بعشرات التّهم، وأنّه يستطيع أن يوعز إلى أصحابه بمضايقته دائماً وملاحقته في كلّ أعماله. وكان أكثر ما جرّأهم على سرد حكايات المستلمين أنّهم لاحظوا أنّ المعلّم بدأ يحتقرهم ويزدريهم ولا يقبل بحديثهم عن أتباعه.

وبلّغ المعلّم أتباعه أيّام سكنه في اللاذقيّة وبواسطة المستلمين أنفسهم، أنّ المستلمين ليس لهم بعد الآن أن يتدخّلوا في أمور المرشديّين قطعاً، وأن لا يستمع المرشديّون لأقوالهم ولا يعملوا بها، تاركاً للمستلمين الأربعة بذلك فرصةً للتوبة عن أعمالهم، وجاعلاً لهم بعض الفضل لأنّ التبليغ كان منهم إلى المرشديّين. وقد بلّغ المستلمون هذا البلاغ بشكلٍ جعلوا به الناس يظنّون إنّما أوقف المعلّم المستلمين عن التدخّل بشؤون المرشديّين بقصد إراحتهم، إذ يكفيهم ما عانوا من أجل المرشديّين، وهكذا قلبوا الأمر حتى أصبح عكس ما كان عليه.

بداية نشوء الكوارس

وفي تلك الفترة في اللاذقيّة أنشد عدّة أشعارٍ، واحدٌ منها فقط على العمود الشعري وهو:

لو قُمْتُ على برجِ القَدَرِ　　وبكفّي اللوحُ ومُنيتُ
ناديتُ وحمدُكَ وجداني　　ما شئتَ وليسَ ما شئتُ

هذا القول يصوّر ثقة المؤمن وإيمانه بالله تصويراً يصل إلى القمّة التي لا زيادة بعدها. فلو رفع الله الشاعر على برج الأقدار وجعل له اللوح والقدر، لنادى وهو يعلم أنّ فعل حكمة الله هو الحميد الذي لا يضاهيه حدٌّ آخَر مهما علا وتعالى ولن يكون قضاء بكماله، أنّ ما شئتَ أنت يا مولاي وليس ما شئتُ أنا.

ويطالب الشاعر الحبَّ الإلهي أن ينزل في القلب ويتحكّم به، فالقلب بيته، وليعامله بجبروت، فكمال الحبِّ بجبروته:

فليدرج حبُّك في قلبي　　ما شاءَ فإنَّ له البيتُ
ولينزل فيه جبّاراً　　فكمالُ الحُبِّ الجبروت

وصارت الحياة قنديلاً والروح زيته، وأشعل الشاعر القنديل ترحيباً بقدوم الحُبْ:

قنديلُ حياتي أشعلُه　　ترحيباً والروحُ الزيت

ويعِد الصبّ أنّه سيغنّي الحِبَّ مادام هو ومادام له صوتٌ. فقد كان ميتاً وأحياه، وكان أعمى وأراه، فهو الآن وإن كان ناسوتاً فإنّه يحتوي على الملكوت:

سأظلُّ أغنّيه الزُّلفى　　ما دمتُ ودام ليَ الصوتُ
قد كنتُ الميتَ فأحياني　　والأعمى نادى فرأيت
فأنا في نعمتِه الآنَ　　ناسوتٌ فيه الملكوت

ومرّةً كنت أسهر عند الإمام ونتحدّث كالعادة، وكان الحديث عن الغناء، فلفت نظري إلى أنّ ألحان القدود الحلبيّة في أصلها ألحانُ أغنياتٍ دينيّة، ثم صار الناس يغنّون أشعارهم الغزليّة على ألحان الأغنيات الدينيّة هذه، ومن هنا تأتّت تسميتها بالقدود. فهم عوضاً عن أن يقولوا لحن، يقولون قدّ، أي يفصّلون لكلّ أغنيةٍ دينيّة أغنيةً غزليّة تتلاءم معها من حيث طول النغم وقصره ويغنّون هذه الأغنية على اللحن الديني القديم.

وما ان رجعتُ إلى حمص وسكنتُ في بيت سعيد تامر (أبو ناجي) حتى بتُّ ألتقي مع رفاق حمص أولئك أصحاب جلسات الغناء الماضية والتي كانوا يحيونها سابقاً عند المعلّم، وذكرت لهم هذا الأمر الذي نبّهني المعلّم إليه، وطلبت من نزيه السعيد (وهو من الرفاق الذين كانوا يغنّون عند الإمام) أن يغنّي على لحن القدود، وما كنت أحفظ أيّة كلمة من كلمات القدود، إلّا أنها فنٌّ حلبيّ كما أنبأني المعلّم، وما استطاع نزيه أن يغنّي على هذا اللحن شعراً من أشعارنا في أوّل الأمر، فهو ما اعتاد أن يغنّي أشعارنا إلّا على الألحان الشعبيّة أي الفلكلوريّة كاللبنانيّة القديمة، وليس على الألحان الكلاسيكيّة كالقدود الحلبيّة، والموشّحات الأندلسيّة وغيرها، ولكنّه كان يحفظ الألحان الحلبيّة بشكلٍ مقبول، وكان قد غناها بصغره مع رفاقه كثيراً.

وذكرت له أبياتاً من قصيدة للإمام قالها في بيروت، وكنت أحبّها جدّاً. وهذا مقطع منها:

عـلـى أيـقـونـةِ الـقـلـبِ — نـحـتُّ لـصـورةِ الـحـبُّ
مَـلـيـكَـةَ فـوقَ كُـرسـيٍّ — مِـنَ الأقـمـارِ والـشُّـحُـبِ
وشـاحُـها مِنْ سَنيِّ القُدْسِ — والإكـلـيـلُ نُـورُ الـنُّـورْ
وفي يُمـنـاها صَولَجان مِنْ — دُرٌ ومِـــنْ يــاقـــوتْ
كُـرومٌ تـحـتَ كُـرْسـيـها — يُعانِقُ بَعضُـها البَعضا
تَـدَلَّـتْ مـنـهـا أعـنـابٌ — تَـشِـعُّ كَـلُـؤلُـؤٍ وَمَـضـا
وحُـورٌ فـي ثِـيـابِ الـطُّـهْـرِ — خُـرَّدٌ بـاسِـمـاتُ ثُـغـورْ
حَـمَـلْـنَ سِـلالَ مِـنْ وَرْدٍ — لِقَطْفِ عناقِدِ المَلَكُوتْ

وما انفكّ نزيه يحاول بها حتى استطاع أخيراً غناءها على لحن من ألحان القدود. وأعجبني هذا اللحن لهذا الشعر.

وبدؤوا بهذا النوع الجديد من الغناء، ووجده كثيرٌ من المستمعين إليهم جميلاً، وصار رفاق الغناء كلّ يوم يجلسون في بيت من بيوت الضهرة، ويغنّون أشعارنا على ألحان جديدة، وتمتدّ السهرة حتى الصباح في كلّ يوم تقريباً.

ولأوّل مرّةٍ يُسمعُ الضحك وإطلاق النكات في فواصل استراحة خلال الغناء في المرشديّين. كان هؤلاء أحياناً يغنّون جالسين، وأحياناً قائمين، أو يرقصون بشكلٍ حرّ، ويمازحون بعضهم مزاحاً لطيفاً بعد وقبل الغناء وليس أثناءه، ممّا أدهش جماعة الضهرة من

الذين دخل التزمّت الديني إلى قلوبهم بواسطة المستلمين. ولكنهم أنِسوا لهذا الجوّ الجديد، ولأني أنا، أخو المعلّم أشاركهم فيما يفعلون لذلك ما رأوا به خروجاً على العرف، أو انحرافاً عن المسرى القويم. ولربّما لو فعل رفاقي ما فعلوه لأنفسهم أي بدون تواجدي معهم للاقوا من جماعة الضهرة أشدّ الملامة، ولربّما قاطعوهم لأجل ذلك.

وانضمّ الثلاثي العقربي عملاق الغناء في الستّينات محمّد ابراهيم ومحمّد عبدو وسلمان رجب إلى هذا الكورس الغنائي الجديد، ثم صار الغناء على لهجات كثيرة أخرى.

عين المجنونة

غادر المعلّم اللاذقيّة في أوّل أيار سنة ١٩٧٢ وسكن في عين المجنونة، وهي حارة صغيرة منفردة لنفسها تقع في حوالى منتصف جبل الشعرا من جهة الغاب. وكان يسكن في هذه الحارة أحد المستلمين مع عائلته. ومن الملفت للنظر، أنّ المعلّم انتقى أن يسكن عند أحد المستلمين، على الرغم أنّه كان قد بدأ قبل ذهابه إلى هذه القرية في اللاذقيّة يعامل المستلمين الأربعة معاملةً جافية على غير عادته معهم، ولربّما أراد أن يختبر ما يفعله هؤلاء في الغاب أيضاً، ومن المرجّح عندي أنّه ما اختار عين المجنونة إلّا لأنّه اشتهى أن يبقى في الجبل لبعض الوقت، وكانت هذه الحارة تعجبه منذ كان يزورها في الزمن الأوّل قبل قيام الدعوة المرشديّة.

وكما قلنا بدأ المعلّم يعامل المستلمين الأربعة باحتقارٍ بعد أن خَبَرَ شيئاً ممّا يصنعونه في المرشديّين منذ كان في اللاذقيّة. وتواصلت هذه المعاملة في عين المجنونة. فقد كان يكلّمهم بجفاءٍ ظاهر، وقد أحسّوا الخطر، فتراهم عندما يكونون عنده مهزوزين حذرين في كلّ أفعالهم، يكادون لا يتكلّمون، عبوسي الوجه مقطّبي الجبين.

جاء المرشديّون يزورون المعلّم إلى عين المجنونة من كلّ حدبٍ وصوب، من اللاذقيّة، ومن حمص، ومن الجبل، ومن المهالبة، ومن سهل حمص، ومن تلكلخ، ومن مصياف. وكانت تجري عنده مفارقاتٌ مضحكةٌ لخوف سكّان المدينة من أجواء الجبال والغابات التي ما اعتادوا عليها. وأحدهم اشترط عليه المعلّم أن يعطيه شيئاً ما مقابل أن يخرج إلى النبع الذي أمام البيت ولا يبعد عن البيت أكثر من عشرة أمتار وما تجرّأ على الخروج. وما هي إلّا فترة وجيزة حتى جاء أخوه ـ الذي كان حاضر النكتة مرحاً في حديثه ـ واشترط عليه المعلّم ما اشترط على أخيه سابقاً وامتنع عن الخروج هو أيضاً. وهذان الأَخوان هما من الذين كانوا يرافقون المعلّم كثيراً في اللاذقيّة.

كان للجبل مهابةٌ في النفوس أثناء الليل، وعظمةٌ في النهار، وابن المدينة ما اعتاد هذه الطبيعة التي تبدو له غريبة ووحشيّة في بادئ الأمر، وذلك لأخيلة الأشجار في الليل، وللانحدارات الجبليّة الهائلة بالنسبة إليه، ولسماع عواء الذئاب ليلاً الذي يرعب عادة كلّ فؤاد ما اعتاد عليه، وأحاديث الناس هناك عن رجلٍ صرع النمر، وآخر صرعه النمر، وعن

صيد الحيوانات المفترسة، وعن ما رأوه أثناء التجوال في الجبال من وحوش، كان هذا الجوّ لابن المدينة مهيباً فعلاً.

كانت عين المجنونة عبارة عن صفّ من الغرف الكبيرة المبنيّة من البيتون المسلّح والحجر، ثلاثةً أو أربعة، وأمام هذا الصفّ صفٌّ آخر صغير من البيوت القديمة، وهو يبعد عن الصفّ الأوّل عشرة أمتار أو شيئاً من هذا القبيل، وأسطح الصفّ الثاني في مستوى الأرض بالنسبة للصفّ الأوّل. أمّا عين الماء فهي بجانب الصفّ الثاني.

فأنت إذ تخرج من أيّة غرفةٍ من غرف الصفّ الأوّل تجد أمامك متسعاً من الأرض، في آخره تبدو سطوح الصفّ الثاني. ومن كلّ مكانٍ في هذه الحارة تشاهد سهل الغاب ذلك السهل الأخضر العريض على اتساعه الهائل، وكأنه بساطٌ أخضر مخطّط باللون الأحمر. تراه بعيداً تحتكَ في أسفل الجبل، ويمتدّ عرضه حتى لا تكاد ترى غيره، لولا أنّ خيال الجبل الشرقي الصغير يعترض ناظريك. وما كان هنالك من بناء حول هذه الحارة الصغيرة، كانت منفردة بنفسها صامدة في علوٍّ وفخار بهذا الجبل الأشمّ.

وكان بجانب الحارة أرض واسعة شبه مستوية، وكان المعلّم يتنزّه فيها، وأحياناً لا يبقى عنده أحد في الليل فيسهر لنفسه ويطلب من عزيزة امرأته أن تعدّ له القهوة فلا تجسر على الخروج، وتشترط عليه أن يوصلها إلى الغرفة التي تُعَدُّ فيها القهوة.

كانت هنالك حارة أخرى تقع بمستوى أعلى من مستوى حارة عين المجنونة وهي صغيرة مثلها، وتبعد عن عين المجنونة حوالى كيلو متر أو تزيد، ولكن هذه المسافة عبارة عن طلعةٍ قاسيةٍ جدّاً، وكان يسكن في هذه الحارة صالح بن يوسف طَه وأخوه وعائلتاهما.

وقصّة صالح تتميّز بغرابة طبيعتها، فهو صيّادٌ ماهرٌ عنده أنواع كثيرة من أسلحة الصيد، واصطاد في حياته كثيراً من الحيوانات المفترسة كالذئاب يلاحقها عبر الجبال ويطلق النار عليها ليحمي ماشيته منها. ويصيد الغزلان ويبيع جلودها. وما كان يعتمد في معيشته على الصيد، بل على تربية المواشي، وعلى رخصته في الغاب. أي على الخمسة والعشرين دونماً التي وُزّعت على الفلاحين أيّام تجفيف الغاب. ومن غرابة أمره، أنّه كان ينزل كلّ يوم من أيّام العمل من حارته العالية في الجبل إلى الغاب ليعمل في الأرض حتى المساء، ثم يعود أدراجه إلى بيته الشاهق. وكان يروي كيف اختطف امرأته في الزمن الغابر من قريتها بقوّة السلاح وعنوة عن أهلها، وكانت امرأته تبدو أنّها تحبّه وتفتخر بنفسها وبزوجها. ولم يستطع أن يقنعني كيف لم يكن خيراً له لو نزل إلى الغاب، وعمّر بيتاً هناك كبقيّة الناس، ولكن وحدته هذه وانعزاله وطريقة حياته، أعجبتني واستهوتني.

وكـان دائمـاً يدعـو المعلّـم إلى بيتـه، وكثيـراً مـا يلبّي المعلّم دعواته هذه مشياً على الأقدام طبعاً.

وكان في حارته نبعٌ بارد يفوق في برودته عين المجنونة نفسها والتي سُمّيت الحارة على اسمها، تلك العين التي كانت تضع بها عزيزة ـ امرأة المعلّم ـ الكازوز لتبريده. ففي عين المجنونة لا تحتاج إلى برّاد لأجل الكازوز أو المشروبات. فبإمكانك أن تضع المشروبات الغازيّة والألبان والأجبان بعد أن تغلّفها في مياه العين الباردة، وما هي إلّا ساعات حتى تكاد لا تستطيع أن تلمسها نظراً لبرودتها.

أمّا الطريق إلى عين المجنونة فقد كان ترابيّاً غير معبّد، تخرّبه السيول في الشتاء. وكنتُ أُفضّل شخصيّاً أن أصعد إلى عين المجنونة مشياً على الأقدام ليلاً أم نهاراً على أن أذهب إليها بواسطة السيّارة، وكانت تُعجبني وتشيني تلك المناظر الجذّابة.

توالى قدوم المرشديّين إلى عين المجنونة زرافاتٍ ووحداناً من القرى ومن المدن، وأذكر عندما كنت في حمص كيف أتاني سليم سلامة الذي كان كثير النكتة سريعها وقال لي : (الظاهر بدنا نصارع نمورا) وذلك بعد أن سمع أنّ المعلّم يسكن في مكانٍ تحيا بجواره الأنمار.

وجاء لزيارته مغنّو حمص ورفاقهم وكانوا بضعة رجال، وغنّوا عنده على لحن القدود وعلى ألحان الجزيرة القديمة وألحاناً جديدة كانوا قد ألفوها حديثاً. وكانت هذه الألحان تتوارد إليهم تباعاً وسراعاً، ومكثوا أيّاماً عنده في عين المجنونة، وابتدأ المعلّم يؤلّف لهم أشعاراً جديدة أثناء السهرات، تتلاءم مع الألحان المعروفة التي يتذكّرها أو يذكّرونه بها.

وذهب الحَرَج بينهم وبينه، فأصبحوا يغنّون بكلّ حريّةٍ، ويتضاحكون في فواصل الاستراحة ويمزحون، ولا يجدون بهذا ما يُشيب. وكان يطلب منهم أن يغنّوا له الأغاني الشعبيّة نفسها، ليصيغ شعراً يتناسب وهذه الألحان.

وتمتدّ السهرات إلى الصباح، ثم لا نذهب للنوم إلّا بعد أن نخرج ونتمشّى حوالى البيوت وعلى سطوح منازل بيوت الصفّ الثاني الصغير. وقد نعود إلى الغناء في الصباح خارج البيت وداخله، وأحياناً نخرج من البيوت ليلاً لتمشّى في ضوء القمر البديع، والذي يمكّنك من رؤية الأشجار وسهل الغاب، ومنحدرات الجبل، وكلّ ما تراه في النهار، ولكن بضوءٍ لطيف وهو أدعى إلى الطمأنينة والهجوع، وترافق هذه النزهات خارج الغرف بسماع عواء الذئاب حولنا من مكانٍ قريب.

وبُحّت أصواتنا جميعاً المغنون و(الرذيدة)، حتى بات كلامنا كالهمس، ورغم ذلك ما توقّف الغناء، وكان فاتح يأتي إليه في عين المجنونة، وصدف أن جاء يومها، وكان ينصحهم بالغرغرة بالماء والملح، فكنت ما تفتأ تراهم يذهبون ليغرغروا، ثم يعودون إلى الغناء. أمّا نزيه فكان يشرب الماء المالح شرباً، ممّا أثار ضحك الجميع.

وذهبنا مرّةً وراء المعلّم ليلاً في ضوء القمر إلى قرية نبْل الفوقا، وهي تبعد عن عين المجنونة مسيرة ثلاثة أرباع الساعة مشياً على الأقدام، والطريق بينهما ترابيّة، وتقع في عرض الجبل ويسهُلُ المشي فيها لعدم وجود طلعةٍ متعبةٍ أو انحدار شاق. وكان المعلّم يتحدّث مع رفاقه في هذه النزهة وأحياناً يغنّون، وما مكثوا في نبْل الفوقا إلّا قليلاً حتى رجعوا إلى عين المجنونة، ومكثوا عنده أيّاماً يغنّون ويسمرون.

كان حضور المستلمين بعض هذه السهرات جسديّاً فقط، تبدو بوجوههم صفرةٌ تظهر دائماً على أوجه المتعتّين. كانوا بعد أن رذلهم المعلّم، يكادون لا يجسرون على التكلّم بكلمةٍ واحدة. يجلسون مطأطئي الرؤوس، يكادون يأكلون هؤلاء الشبّان بعيونهم غيظاً وقهراً. واثنان من المستلمين كانا يطلبان سرّاً بعض المغنّين، ويأخذانهم إلى مكانٍ خليّ حيث يسمعانهم توبيخاً لأجل ما يفعلون عند المعلّم، فهم يتصرّفون بحريّة ويمزحون ويتضاحكون وهذا لا يصحّ عندهما.

وما أَبِهَ أحدٌ بهما، وما كانا ليعنيا شيئاً، فالفرحة قائمة، والجلسة عند ساجي محرسة أصحاب النوايا المتسلّطة.

وذكر المعلّم شباب قرية في الغاب وكيف كانوا يسمرون ويرقصون مع مجيب وطلبهم إليه، وجاءوا إليه إلى عين المجنونة، وكانوا أصحاب شهرة في المرح وخفّة الظلّ وبالرقص والطرب، ولكن دخولهم إلى المعلّم كان يشبه في بادئ الأمر دخول المتّهمين إلى قاعة المحكمة العسكريّة، يلتزمون بما أمرهم به المستلمون قبل دخولهم، فترى أنّهم قد درسوا كلّ حركةٍ يأتون بها وكلّ قولٍ ينطقونه، وكان بعد أن استأنسوا بالحديث رويداً بدؤوا يشاركون به، وأعطانا هذا الوضع صورةً واضحةً عمّا كان يجري في الغاب، وعن نوعيّة السلطة التي كان يمارسها المستلمون على المرشديّين. وأنس هؤلاء الرجال من المعلّم الرَوْح الذي عرفوه من مجيب، وبدؤوا يتضاحكون ويروون حكاياتهم القديمة له ولرفاقه، وخرج المعلّم بالجميع إلى خارج البيت للرقص، وطلب منهم أن يرقصوا رقصة الدبكة مع مجيب نفسها.

ورجع رفاق الغناء إلى حمص، وبقيتُ عنده، وكان الجلوس مع هؤلاء المستلمين وبعض

أصحابهم يكاد يقتل القلب من الضجر والسأم، فلا كلمة ولا حديث، وجوههم تنبئك بحالتهم النفسيّة، فالمقت ظاهرٌ بها حتى أنّها تتغيّر إلى اللّون القاتم.

ثم اتفقت مع المعلّم أن أقوم بإصلاح بيت استقبال الزائرين في الضهرة، ليصبح مؤهّلاً للسكن، وأخذت منه مالاً لأجل ذلك، ولكي أشتري مسجّلة كبيرة، ونسجّل تلك الألحان الجديدة، ثم ذهبت إلى حمص.

وفي حمص اشتريت آلة تسجيل كبيرة، وابتدأت أسجّل للمغنّين أغانيهم، وقمت بنزع الأخشاب الملصقة على جدران صالون بيت الضهرة التي كانت تصل إلى سقفه، وبتعمير الجدار بين الصالون وبين الغرفة الصغيرة الداخليّة، لأنّ المعلّم أراد أن تكون تلك الغرفة الصغيرة بمثابة غرفة نومه، وأُقيم بجانبها غرفة صغيرة للمتفعات، وموزّع صغير، وبذلك يصبح للإمام جناح صغير خاص.

واشترك جماعة الضهرة كلّهم تقريباً في نزع أخشاب البيت، فما كان أحلاهم في هذا العمل، يهيّئون لإمامهم بيت استقبال الزائرين، تسمع نقر الأخشاب في جوف الليل لعدّة أيّام، وكان رفاق الغناء يسجّلون أشعاره، وكان هذا العمل بمجمله تحضيراً لرجوع المعلّم إلى حمص، ونُزعت الأخشاب أخيراً كلّها، وانتهى تزيين البيت بعد أن كُسيت جدرانه بورق الجدران الجميل عوضاً عن الأخشاب.

كان فاتح يسكن في بيت (أبو ابراهيم صافي) الذي يواجه مجمع الضهرة، وحدث أن أصابته نوبة قلبيّة شديدة، وذلك بعد ستّة أعوام من النوبة الأولى والتي حدثت له في دمشق، وكانت الأخيرة شبه قاتلة، وجئت إليه أنا ورستم بلقيس ونصر عبّود وجلبنا طبيباً ليعود فاتح، وأخبر الطبيب أنّ الحالة صعبة جدّاً، وهو لا يستطيع أن يعطي قراراً إلّا بعد ثمانٍ وأربعين ساعة إن كانت هذه النوبة قاتلةً أم لا، ثم ذهب رستم بلقيس وجلب طبيباً من دمشق، بعد أن رأينا أنّ أطباء حمص غير ذوي كفاءةٍ في هذا المجال.

وكان هدوء فاتح ملفتاً للنظر أثناء هذه الأزمة، مّما أذهل الطبيب الشامي الذي قال : إنّه لم يجد في حياته قوّة أعصاب كالتي وجدها لدى هذا الرجل، هو بين الموت والحياة حاضر النكتة كثير المزاح، يخفي الآلام فلا تكاد تظهر عليه رغم شدّتها.

كنت أقف إلى جانبه وهو ممدّد على السرير يكاد لا يستطيع أن يكلّمني، ورغم ذلك لا يُظهر لي مدى آلامه، بل يحاول أن يبتسم، وأن يسألني عن أمور الغناء وما شابه، والذي يكون بحالته عادةً لا يسأل إلّا عن نفسه ولا يعتني إلّا بها، يلهيه مرضه وآلامه عن كلّ

شيء، ولم يؤكّد الطبيب لنا إنْ كان سيحيا أم لا، بل قال : إنّه نظراً لقوّة إرادته، ولعدم جزعه فالطبيب يأمل خيراً. ولمستُ من فاتح، أنّه كان يظنّ أنّه لن يبقى بعد هذه الأزمة الصحيّة، وقد صارحني بذلك فقط ليأمرني بتقبّل قدري الذي أتاحه لي الرحمن.

وجاء المعلّم إلى حمص، وعاد فاتح، وفي أوّل الأمر لم يظهر عليه أنّه متأثر جدّاً لمرضه فهو سيشفى، ولكن سرعان ما أخذته بعد ذلك شبه عاصفةٍ من حنان إلى فاتح، وأخذ يتذكّر ماضيه، كيف كان له من خير الرفاق، كيف لم يطلب لنفسه أيّ شيء، كيف أنّه لم يعاتبه مرّة واحدةً، وكيف وهو بين الموت والحياة يومها كان همّه فقط أن يخفّف من خطورة مرضه في كلامه معه. ولا أذكر القول الذي كان يقوله المعلّم حرفيّاً، وكنت عنده وحدي، وكان أثناء هذا القول يبكي بمرارة، وذهب إلى فاتح ثانيةً، ولا أعلم ما جرى بينهما من حديث. ومرّ فاتح من هذه الأزمة بسلام.

وقبل أن يأتي المعلّم إلى حمص، كان فاتح يطلب أشرطة التسجيل الجديدة أثناء معاناته هذه، وكان يحبّ هذه الألحان الجديدة، وذكر لي بعدها أنّ هذا الاستماع أراحه أثناء المرض. وقد ائتمنت هذه الأشرطة عند أناس قبل ذهابي للعمل في دمشق. لكنّهم أحرقوها جميعها فيما بعد وقد أغاظني عملهم هذا جدّاً ولكن كما يقولون (ما باليد حيلة).

زيارات المعلّم إلى قرى المرشديّين

ابتداءً من سنة ١٩٧٢ انعكست الزيارة، فأصبحت عوض أن يقوم بها المرشديّون، يقوم بها إمامهم، فهو الذي أصبح يقوم بزيارتهم في مناطقهم وقراهم، وأصبح التقاؤه معهم في قراهم ومحلاّتهم أكثر من التقائه بهم في بيته بكثير، وأصبحت كلّ قريةٍ تدعوه إلى زيارتها، وكان يستجيب لكثيرٍ من هذه الدعوات وقد أحصيتُ له عشرين ونيّفاً من الزيارات في هذه السنة وحدها، ناهيك عن حواري مدينتَي اللاذقيّة وحمص وساحل اللاذقيّة.

وأصبحت مجامع المرشديّين ابتداءً من هذه السنة سنة ١٩٧٢ أمكنة حفلات الغناء عندما يزورهم المعلّم، وبدأ يأخذ الدور طابعاً جديداً منذ ذلك الزمن، فالفرحة والغناء والرقص صارت ألسنة العبادة، وصار المغنّون هم المقرّبون في حضرته، نظراً لأنّ الجلسة نفسها كانت حفلة غناء. وقد ساعد هذا الجوّ البهيج على طرد العَنَت والتزمّت من أجواء سهرات المرشديّين إلى غير رجعة.

تروي جماعة قرية في الغاب، أنّ المعلّم زار قريتهم بتاريخ ٩ حزيران ١٩٧٢. وبعد أن ارتاح في بيت مضيفه، استأذنوه بالسلام عليه، وكانت هي المرّة الأولى التي يزور بها هذه

القرية منذ عشرين سنة قبل ذلك، أي منذ دعوة مجيب. وبعضهم كان يبكي حناناً عندما يسلّم عليه. وكان واحدهم يقول عندما يسلّم : (أهلاً فيك يا ساجي).

وحدث أنهم قصّوا على المعلّم قصّة رجلٍ منهم، وكان كثير المزاح وكان أقرعَ، أنّه أقسم أنّه لن يبقى في الجنّة إن كان سيبقى أقرعَ هناك، وأنّه سيعود إلى الأرض ثانيةً احتجاجاً على ذلك. وسأله المعلّم عن هذا الحديث، فأجاب بالإيجاب، فابتسم المعلّم، وأضاف أنّه ليس هنالك داعٍ للخوف، فليس من خلقةٍ ناقصة في الجنّة، وأنّ المؤمن يكون في الآخرة أنضر وأجملَ.

وذهب إلى ناعور جورين، وقد صلّى بالناس وسجد بهم سجدتين، ثم أُقيمت حفلة غناء ورقص، وتكبّر البعض عن الرقص ـ من أصحاب المستلمين ـ وأبوا مشاركة الراقصين به، فازدراهم المعلّم وترك حلقة الدبكة ونزل إلى بيت أحد الناس هناك.

كان المعلّم أثناء هذه الجلسات مع أتباعه يهاجم المستلمين، ويصف أفعالهم، وكان المرشديّون يتجرّؤون رويداً رويداً على سرد قصصهم المخزية فأكثر الحديث كان يدور حولهم وحول ما فعلوه.

أشــــواك

إنّ الشوائب التي اعترضت طريق الرشاد في هذا الدور هي نفسها تلك الشوائب التي طالما اعترضته عبر تاريخ الإنسان، هذه الشوائب هي أفكار ومفاهيم منحرفة عن الوجدان الصحيح والإدراك السليم، لما في العقل البشري من قصورٍ عن معرفة الصحّة. فأعداء طريق الهدى ليسوا أشخاصاً معيّنين إنّما أفكار خاطئة، ومفاهيم مغلوطة ومتوارثة من حيث النظرة إلى الصلاح، هي عدوّة طريق الهدى الحقيقي، ومقدار ما يحمله الإنسان من هذه المفاهيم المغلوطة يمثّل مقدار بعده عن طريق الهدى.

وسأحاول الآن إلقاء بعض الضوء على تلك الأفكار والمفاهيم المغايرة للصواب.

أعمال المستلمين

علم المستلمون الأربعة ورفاقهم من المتطفّلين على المرشديّة، علموا منذ سنوات قبل هذا الحديث أي منذ توقّف حملات التعذيب وممانعة المسؤولين من التقاء المعلّم بشعبه سنة ١٩٦٥ أنّه بات لا يستطيع الذهاب إلى قرى المرشديّين أو محلّاتهم في المدن بسبب الإقامات الإجباريّة وملاحقة الدولة لتحرّكاته، وهو لا يستطيع استقبال المرشديّين عنده إلّا قليلاً. وبما أنّه سلّم هؤلاء الأربعة اتّصال المرشديّين به، فقد استطاعوا استغلال هذا الوضع أيّما استغلال.

وزيادةً في الحيطة كي لا يعلم المعلّم بأمورهم، كانوا يحقّقون مع كلّ مَنْ يقابله بحجّة استفهامهم منه عن أقوال المعلّم. ماذا قال لك المعلّم؟ ماذا قلت له؟ ماذا سألته؟ ماذا أجابك؟ ماذا سألك؟ ماذا أجبته ؟. فإن ظهر في الحديث شيء لا يرضون عنه، أي يكاد يفضح أمورهم، أسمعوا المتحدّث توبيخاً هائلاً، وأهابوا به أن لا يتكلّم أمام المعلّم بمثل هذا الكلام، فهذا كلام دنيويّ يجب أن لا يُقال وخاصّةً عند المعلّم.

كانوا يقولون للمرشديّين بما معناه : اجعلوا علاقتكم معنا وليس مع المعلّم، فإن كانت علاقتكم معنا فقط، فنحن نستطيع أن نتدبّر الأمر عنده مهما فعلتم ومهما ارتكبتم من آثام. أمّا إذا أوصلتم علاقتكم إلى المعلّم يصعب علينا تدبيرها عنده. نحن وإيّاكم يفهم بعضنا بعضاً، ونستطيع أن نتفاهم على كلّ أمر، ولا تجعلوا المعلّم يعلم بما تفعلون فيغضب

عليكم، ويفلت الأمر من أيدينا. لا تتكلّموا أمامه إلّا بكلمات الدين والمعرفة التي تسمعونها منّا. قولوا له، أنّنا نعلّمكم دائماً، وأنّنا متواضعون معكم. صفوا له كيف نتعب ونشقى بسبيلكم. وبذلك استطاعوا أن يضعوا سدّاً وحاجزاً بين المعلّم وشعبه ولكن ليس لوقتٍ طويل.

عندما يرى أحدهم هذا المستلم أو ذاك لا يعمل وفق نصائح مجيب في أمر ما، أو وفق ما سمعه من المعلّم إنْ كان له دورٌ في القدوم إليه مرّةً ما. قد يتعلّلها لنفسه أنّه لا يستطيع إدراك ما يفعله المستلم فهي فوق مستواه، وإن استوضح أحدهم من المستلم عن أفعاله المخالفة للنصائح، يجيبه المستلم أنّ هذه الأمور على مستوىً عالٍ جدّاً من الحكمة، والسائل لا يستطيع إدراكها.

الوقوف إلى جانب الباطل

الصفّ أو الاصطفاف مع الحق ـ أي الصحيح ـ يبعث الحياة في المجتمع ويؤبّده لما به من حكمة في المساق والتسيير، بينما الصفّ مع الباطل يقتل المجتمع بعد أن يفسده، فيصبح المجتمع كالفاكهة التي غزاها السوس تذبل ثم تقع من شجرة الحياة.

كان يأتي الرجال إلى المعلّم، يعرضون عليه مشاكلهم الناتجة عن منازعاتهم، وكان المشتكي يصرّ عليه أن يَصُفَّ دائماً إلى جانبه ويتحزّب معه، وهو لا يستطيع أن يرى كيف أنّ المعلّم لا يتحزّب معه وهو من جماعته ورجاله، متناسياً أنّ هؤلاء الناس الذين يطلب من المعلّم أن يصفّ ضدّهم هم أيضاً من حملة الاسم مثله، وأنّ المعلّم لا يتحزّب إلّا للحقّ. كان المرشديّ كعادة الإنسان عبر العصور، لا يستطيع أن يرى الحقّ إلّا بجانبه، وهو دائماً المُعتدى عليه والمظلوم. وأحياناً كثيرة يكون الشاكي هو المعتدي وهو الظالم.

النظرة الضيّقة

ومن أصعب ما كان يواجهه المعلّم من المرشديّين هو تشبّثهم بمعتقد (البيجوز والما بيجوز يقصدون السيّئة والحسنة). فقد انقسمت كلّ أعمال الدنيا بالنسبة إليهم إلى نوعين : الأوّل (بيجوز) والثاني (ما بيجوز). وهم عليهم أن يسألوا عن كلّ شيء كما تصوّروا إن كان (حسنه) أم (خطا) أو (بيجوز وما بيجوز) وبذلك انتهت معرفة كلّ أعمال الخير والشرّ. لُخصت رسالات الإله إلى هذه الفكرة الساذجة التي سيطرت على عقول كثيرٍ من الناس أيّما سيطرة، بهذا العمل البسيط تنال الجنّة، وبهذا العمل التافه تدخل النار، وضيّقوا رحمانيّة

الرحمن إلى مستوى العقل البشريّ الذاتيّ أيضاً فقد تصوّروا الرحمن أنّه سرعان ما يغضب، ويلقي بمن غضب عليهم في جهنّم فوراً، وهو الذي وسعت رحمته كلّ أمرٍ وأخذ بالحلم العالمين دوراً فدوراً وجيلاً فجيلاً.

إنّ أسباب هذه الفكرة السخيفة تعود إلى تكاسل الإنسان عن التفكير ومقارنة الأمور، ليعلم حقيقة الشرّ الذي أمر الله بالابتعاد عنه وما به من ضررٍ لنفسه ولمجتمعه، وماهيّة الخير التي أمر الله بالعمل بها وما في الخير من سعادة وطيب حياة للنفس وللمجتمع، وكما هو واضحٌ في قول مجيب أنّ هذا التفكير بأعمال الخير والشرّ وفحصها هو بداية الطريق إلى الصفاء والسمو. وكيف سيختار الإنسان ما اختاره له الله، ويبتعد عمّا حذّره الله منه، إذا لم يجهد فكره وعقله بإدراك هذا الأمر؟. فلو لاقت دعوة الله إلى الحياة قبولاً في قلبه وفي حناياه، إذاً لجرّه هذا التقبّل إلى التفكير في كلّ الأعمال إن كانت خيراً أم شرّاً.

ومنذ وعيتُ على الدنيا رأيت المعلّم يحارب هذه الفكرة ـ فكرة طاعة الناس بعضهم بعضاً بدون تفكير فهي كسَوق الماشية ـ في عقول الناس، وكانت جدّ مستشرية في بدايات الدور الأولى.

لقد غلب المعلّم أتباعه على كثيرٍ من جوانب هذه الفكرة، ومازال بعضٌ يحتفظ بآثار منها حتّى تسعينات القرن الماضي. وخاصّةً من المسنّين الذين امتلأت قلوبهم من أفكار آبائهم وأجدادهم منذ الأيّام الغابرة.

وكان يعلّمنا أنّ جميع الأعمال البشريّة ليست إلّا أعمالاً أرضيّة، لا تعلو عن دائرة التراب، وسلوكيّة الطهر هي في الشعور الذي يدفعك إلى العمل، وليس في العمل نفسه، وهذا الشعور لا يتأتّى إلّا من الإدراكات العليا والسمو بالمعرفة الحقيقيّة.

فالصلاة مثلاً هي فعل أمر به الله، فإن قمت به عن دافع ذاتي كنت مؤتمراً بما أمرك به الخالق، وإذا استغلّيته لإظهار أنّك عظيمٌ للناس فقد ابتعدت عن إمرة الخالق كلّ ابتعاد، وهكذا بقيّة الأعمال. فأنت إن أعطيتَ مالَكَ وأكرمتَ بالعطاء بقصد أن يكون لك شهرةٌ بين الناس، فما فعلك هذا إلّا تباهٍ وغرور. أمّا إذا لم تبخل على مَنْ يسألك حاجةً من إخوانك، فأنت متصحٌ بما نصحك مجيب وسائرٌ في طريق الصفاء.

الإكراه في الدين (القسريّة)

إنّ العمل الخيّر يفقد ماهيّته الخيّرة إذا أُجبِرَ الإنسان على فعل الخير. فالخير لا يكون إلّا قراراً شخصياً متأتّياً عن اقتناعٍ فكريٍّ كاملٍ ترتاح له النفس وتطمئن به القلوب. وكما قال إمامنا أنّ الخير يأتي عن دافعٍ ذاتي.

رأى المسلمون أنّهم بواسطة القسريّة والجبريّة يمكنهم أن يتحكّموا في المرشديّين، فنشطوا بهم وزرعوا جواسيسهم أي رجالهم في كلّ منطقة، يعدّون على الناس كم صلاة فوّتوا، وكم مجمعاً لم يحضروا، وإن كان أحدهم قد شرب خمراً، أو ذهب إلى السينما، أو شاهد التلفاز، أو تكلّم بكلام سيء، ليقاطعوه فوراً، والمقاطعة هي أن يحرّموا التكلّم معه على بقيّة المرشديّين حتى ولا إلقاء السلام عليه، ويمنعوه من الدخول إلى المجمع أو الاستماع إلى الأشعار والتوجيهات المرسلة من المعلّم بين الفينة والفينة. وقد تطول مدّة هذه المقاطعة أشهراً ولربّما سنوات، إن لم يكن له في عائلته أو أصحابه من يتوسّط له لدى المسلمين أو أقربائهم أو أصحابهم الذين لهم صلة بهم.

وكنتيجةٍ لهذا الوضع الشاذ من مقاطعةٍ ومراقبةٍ، وازديادٍ في التزمّت والتعصّب، فقد ظهرت تدريجيّاً شبه جاسوسيّةٍ بين المرشديّين في كلّ مناطقهم، فهذا يتجسّس على ذاك، وذاك يقف لهذا يترصّد عليه حركاته، وويلٌ لمن يقع في المحظور، فقد وجبت مقاطعته. وإن قوطع مرّةً استُهين به بعدها، فقد أصبح من المقاطَعين سابقاً.

وبدأت تدرج في المرشديّين عادة الرياء والتصنّع. فالمحترم عند المسلمين وأصحابهم مَن يتزلّف لهم أكثر، فيُظهر التقوى واللين أثناء جلوسه عندهم. ويقوم بسرعةٍ مذهلةٍ كي يلبّي طلب أحدهم، ليجلب له سيكارة أو كبريتة أو نفاضة، أو يناوله شيئاً ما لا يكون بمتناول يده تماماً.

إنّ نصيحة مجيب «لا تراءِ بمظهرك فتريد أن تبقى عظيماً . . . . » أصبحت معارضتها من أعراف جماعة المسلمين يومها، حيث يُظهرون أنّهم صادقون في كلّ كلمةٍ يقولونها، يستغفر الله واحدهم ويزداد في الاستغفار إذا أخطأ مثلاً وقال : ليس بجيبي مال. ثم يتّضح بعدها أنّ بجيبه ليرة أو نصف ليرة، فيطوف على الناس، يروي لهم كيف أنّه أخطأ هذا اليوم خطيئةً كبرى. وبعد كلّ هذا الصدق المزعوم، يكذب بكلّ سهولةٍ وبكلّ يسر إذا سأله المعلّم عن قريته وماذا يعملون، ويكذب أيضاً لكلّ أمرٍ له به مصلحةٌ دنيويّة حقيقيّة.

التقشّف

أغطشت على عيون المسلمين وأصحابهم وكثيرين من بقيّة المرشديّين الفكرة التي سيطرت على عقول كثيرين من قبل، والقائلة أنّ الدين هو في التقشّف. فأنت عندما يكون لديك مال، تكون قد أغرتك الدنيا، وسرتَ في طريق الهلاك. ومَنْ يدهن بيته مثلاً أو

يكون عنده سجادة، أو أي شيء يدلّ برأيهم على مظهر الغنى، يعيّره رفاقه بذلك ويقولون : إنّ الدنيا أخذت فلاناً.

واتّفق أحدهم ـ وهو أكثر المسلمين شهرة ـ ورفاقه من شين وغيرها على أنّه يكفي المرشدي أن يعمل في لبنان خمسة عشر يوماً، فهو إن زاد عن هذا الحدّ فقد تعميه الدنيا ويبطر. وبذلك كانوا يحاربون العمل، ويساهمون في قطع الأرزاق، وما أظنّ أنّ أحداً من المرشديّين وافقهم على هذا الأمر كثيراً، فمعظمهم يتظاهر بأنّه يقوم بما يأمرونه، وفي الحقيقة لا يقوم إلّا بما يرى له مصلحة به.

نظرتهم إلى المرأة

أرجع هؤلاء المسلمون النساء المرشديّات إلى نظرة أجدادهم البائسة إلى المرأة، حرموهنّ من سماع أقوال المعلّم وحفظ أشعاره، وحرموهنّ حتى من أكل النذور فهنّ نجسات على زعمهم ولا يفضلن الحيوانات تقريباً في شيء كما كان ينظر القوم إليهنّ من جيران المرشديّين، وهذه الفكرة حاربها سلمان قديماً وها هي تعود إلى الظهور. ومنعوهنّ اللباس على الموضة اقتداء بالمتعصبين.

كانت النساء حتى أوائل الستّينات، تغنّي الأشعار، وتأكل النذور، وتحضر المناسبات الدينيّة إن تواجدت، وتستقبل المعلّم في جولاته على أتباعه، وكنّ يرقصن ويغنّين في الساحات يوم الجولات.

أمّا ابتداءً من منتصف الستينات فقد باتت المرأة تخسر هذه الحقوق تدريجيّاً، وازداد احتقارها عوضاً عن أن يزيد احترامها بعد رسالة المعلّم أيّام الإضراب، والتي شكر بها النساء ووعدهنّ بالتعليم.

وهم بكلّ هذا، أكان في القسريّة أو في محاربة النساء، أو العمل أو غيره، إنّما كانوا ينقلون أفكار أجدادهم إلى الناس. وأقوال مجيب وساجي براءٌ من كلّ هذا الإفك.

ما نظر المسلمون وبقية الذين سار مسارهم إلى ما في أقوال مجيب وأقوال المعلّم، بل نظروا إلى ما كان يقول أسلافهم الأقدمون وباشروا تطبيقه في الناس، خاصّةً وقد رأوه متّفقاً مع مصالحهم ونواياهم، متناسين قصداً نهضة أبي الفاتح. فهم ما أرادوا من المرشديّين إلّا أن يعودوا بهم أدراجهم إلى ما قبل يوم الدخول ـ صيحة الصبي ـ ويقومون بهم مقام الزعماء، فيصبح الناس عندهم كالبقرة الحلوب يتقاسمون ضرعها.

تدنّي طبيعة الغناء

انعكس التزمّت والتصنّع الدينيّ في المرشديّين على غناء الأشعار، فأصبح المغنّي يكاد لا يأخذ نَفَساً بين البيت والبيت للسرعة الهائلة أثناء الغناء. وتسميته غناءً من باب المجاز. ففي الحقيقة كان صياحاً ولم يكن غناءً. أمّا التصفيق فلا أقول يكاد يصمّ الآذان بل يصمّ الآذان فعلاً.

علّل المتنطحون دينياً هذا التصفيق الحادّ وهذا الصراخ أثناء الردّة، أنّه يساعدهم على السهر، فلا ينعسون وينامون أثناء جلسة الغناء. ولا يهمّ إنْ كان الشعر الذي يغنّونه حناناً أم طرباً أم فخراً أم أي لون آخر. فكلّ الأشعار التي تُغنّى، تُغنّى على هذه الوتيرة الجنونيّة الواحدة. وأستثني ممّا ذكرت عن طبيعة الغناء التي درجت تلك الأيّام الثلاثي العقربي وبعض المغنين في اللاذقيّة وحمص والجبل، وكانوا قليلين جدّاً. فهؤلاء كانوا يغنّون عندما يغنّون على ألحانٍ شعبيّةٍ قديمة.

ولم تعجب طريقة غناء الأشعار على الألحان المستلمين، ورفضوها رفضاً قاطعاً، وأمروا مَنْ يتبعها بالإقلاع عنها. أمّا أصحابهم المتنطّحون دينياً، فقد أصبح كثير منهم أشدّ من المستلمين عنفاً ضدّ مَنْ يغنّي على الألحان. أصبح هؤلاء نظراً لتماديهم في العنت والتزمّت لا تأنس قلوبهم إلّا للشدّة والغلظة في كلّ شيء حتى في الغناء.

الصراع مع الناشئة

ونتج عن هذا الوضع أنّ المستلمين وأصحابهم والمتزمّتين باتوا في صراعٍ مستمرّ مع الشبّان المرشديّين، كي يقسروهم على السيرة التي رأوا أنّها حسنة، ومَن لا يطيعهم في ذاك يقاطعونه ويحرمونه من أشعار المعلّم ومن أقواله المرسلة بين الفينة والأخرى، وبذلك يكونون عوضاً عن أن يصلحوا أمره يزيدون في اعوجاجه، فالمقاطعة تورث الضغينة، ولها في النفس أثر سيئ، وبمنع أشعار المعلّم وأقواله من الوصول إلى هؤلاء الشبّان أضاعوا عليهم فرصة السير على سيرة الهدى التي تتمثّل في أقواله. وابتدأ يخرج أناس من الصفّ المرشدي وخاصّةً من الشبّان، لأنّ المستلمين وأصحابهم يلاحقونهم دائماً بالمقاطعة لأجل أي سببٍ تافه، فيفضّل كثيرون منهم أن يخرجوا من الصفّ نهائياً ليذوقوا شيئاً من طعم الحريّة خارج المجتمع المرشديّ الذي كان منغلقاً على نفسه.

محاربة التعليم المدرسي

تعرّض المرشديّون في فترة الستّينات إلى انتكاسةٍ تعليميّةٍ خطرة، فقد سبقهم جيرانهم في المدارس ونيل الشهادات. وتنحصر أسباب هذه الانتكاسة بثلاثة عوامل وهي : الفقر، وبُعدُ المدارس عن قراهم، وفهم المرشديّة فهماً مغلوطاً أضلّهم به المستلمون وأصحابهم.

العامل الأوّل : الفقر، إنّ المرشديّين كغيرهم من المزارعين كانوا يحتاجون أولادهم كي يعملوا في الأرض معهم، أو يشتغلوا فَعَلَةً ليشاركوا بسدّ نفقات العائلة، فما يكاد يصل الطالب إلى السنوات الإعداديّة الأولى حتى يُخْرَج من المدرسة للعمل.

أمّا البنات فيُخْرَجْنَ قبل هذا، فأمهاتهنّ بحاجة إليهنّ لأعمال البيت والأرض. وكانت النظرة العامّة نحو تعليم المرأة تتلخّص بهذه الكلمة : ما حاجة الفتاة إلى التعليم ؟!. فهي ستتزوّج ويعيلها زوجها كالعادة الجارية منذ القديم، وهي إنْ تعلّمت الطبخ وأعمال البيت وساعدت أهلها في الزراعة خيرٌ منها طالبةً في المدرسة تأخذ ولا تُعطي كما يرون.

والعامل الثاني : بُعد المدارس وتكاليفها، وذلك أنّ الحكومة رغم رأي كثيرين من رجالها بتعليم المرشديّين، لم تَقُم بفتح مدارس إعداديّة بين القرى المرشديّة إلى ما بعد تلك الفترة. فرجال الحكومة كانوا لا يريدون التعليم لأبناء المرشديّين بل يريدون لهم الجهل. فالمتعلّم أكثر قوّةً من غير المتعلّم.

كانت الحكومة قد أقامت المدارس الإعداديّة منذ أواخر الخمسينات في مناطق شتّى من البلاد، وفي الستّينات ازدادت إقامة المدارس الإعداديّة والثانويّة، وشملت مناطق الريف السوريّ، وما استُثْنِيَت إلّا المناطق المرشديّة، وذلك أنّه حتى سنة ١٩٧٠ لم تُشَد أيّة مدرسة إعداديّة ناهيك عن الثانويّة في قرى المرشديّين. فكان لزاماً على المرشديّ الذي يريد تعليم ابنه في المدرسة الإعداديّة أن يرسله إلى قريةٍ بعيدة أو إلى المدينة، ويكلّفه هذا من المال ما لا طاقة له به إلّا بالنسبة إلى قليلٍ من المرشديّين ذوي الدخل المقبول نسبيّاً وما كان أقلّهم.

أمّا سكّان المدن من المرشديّين، فكانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس تباعاً، وما استثنوا إلّا الفتيات.

وهنالك عامل ثالث جانبي وهو تصدّي المستلمين إلى مَنْ يرسل ابنه وخاصّةً ابنته إلى المدرسة الإعداديّة في المدن، يحاولون إقناعه بعدم صحّة ذلك دينيّاً. واقتنع بعض المرشديّين بهذه الفكرة وبعضهم لم يقتنع بها بل واظبوا على إرسال أولادهم إلى المدارس.

وكانت الجرأة بالحق شبه معدومةٍ وهي التي أوصى بها مجيب كثيراً، فما من أحدٍ من المرشديّين واجه المستلمين بجرأة وقال لهم : إنّ المعلّم أرسل وأعان ماذياً طلاب المرشديّين الثانويين في اللاذقيّة، وسلمان قبلاً أرسل أولاده إلى المدرسة وفتح مدارسَ في القرى فهل فعلهما هذا كان خطأً؟ أم ما تأمروننا به هو الخطأ؟ وأنتم تعترفون أنّ ساجي إمامكم وإمامنا فكيف تفترون هذا؟!. ولم تتواجد عند أحدهم الجرأة أن يقول لهم : كيف ترسلون أولادكم إلى المدارس وتأمروننا في نفس الوقت كي نخرج أولادنا منها؟. هكذا كان يفعل المستلمون يرسلون أولادهم إلى المدارس، ويأمرون الناس بإخراج أولادهم منها.

أقنع أحد المستلمين منذ سنة ١٩٦٥ طليعة من الطلاّب المرشديّين في حمص أن يخرجوا من المدارس، وأعادهم إليها المعلّم، مرسلاً لهم أن يعودوا إلى المدرسة وبواسطة المستلم نفسه الذي لم نعلم يومها أنّه هو الذي أخرجهم منها بواسطة مهاجمته لها. ولكنّه ما اتّعظ بهذا، بل واظب على وعظ الناس كي يتركوا المدرسة، فهي تبثّ أفكاراً خبيثة بالنفوس كما قال، متناسياً أنّ أبا الفاتح أرسله هو نفسه مع أولاد أبي الفاتح إلى المدرسة عندما كان صغيراً، وعوض أن يشجّع رجال أبي فاتح على الدراسة كبرٌ منه بأبي الفاتح فعل العكس تماماً، وأظهرت نفسه ما بخافيتها من لؤم. أمّا هو نفسه فلم يكن يرسل أولاده إلى المدرسة فقط، بل بناته أيضاً وإلى مدارس خاصّة مرموقة أيضاً. وكنّ قد أصبحن في الصفوف الإعدادية في المدرسة.

إنّ الدافع الحقيقي الذي دفع بهؤلاء وبأصحابهم إلى محاربة التعليم والمدارس، هو ملاحظتهم أنّ المثقّفين بين المرشديّين حتى وأنصاف المثقّفين كانوا يراجعون المعلّم في الأمور التي تعنيهم، ولا يكتفون بهم فقط، ويسألونهم أسئلة يحتارون بالإجابة عنها، وقد لا يعجبهم ردّ المستلمين على تساؤلاتهم وهذا ما لا يتحمّله المستلمون إطلاقاً. فهم يريدون أناساً لا يجادلون في شيء، وخير الناس عندهم مَنْ لا يسأل ومَنْ لا يعي.

ولكن الثورة التعليميّة التي بدأها المعلّم في السبعينات وتابعها في الثمانينات والتسعينات جعلت المرشديّين مثقفين ربّما أكثر أو مثل أيّ شريحةٍ تعادلهم عدداً في كلّ البلاد.

القسريّة تخلق السريّة

صار المستلمون يحاربون في المرشديّين كلّ رجلٍ لا يخضع لهم، ويحاذرون كلّ رجلٍ عنده من الشجاعة أن يقصّ أقاصيصهم أمام المعلّم أو أمام أحد الذين يرافقونه، كأخويه

مثلاً. وبذلك تصل أعمالهم إلى المعلّم، وهذا الذي يحذرون منه. كانوا يحذّرون أصحابهم من رجلٍ كهذا، فلا يتكلّمون أمامه عن أعمالٍ لا يريدونها أن تصل إلى المعلّم. وهكذا تسبّبوا في خلق جوٍّ من السرّيّة في أكثر القرى، فأصحاب المستلمين لهم لغةٌ خاصّةٌ يتفاهمون بأعينهم بين المرشديّين ويختلون مع المستلم لأنفسهم فيعرضون عليه أخبار القرية، هذا ضعيف الإيمان يقصدون بهذا أنّه لا يبدي خضوعه أمامهم كما يجب، هذا تقريباً مقبول، وهذا كلّه إيمان، أي يخضع للمستلم ولأصحابه بدون أيّة مناقشة. وباتت المقاطعة من حقّهم بشكلٍ شرعيّ بنظرهم ونظر المستلمين.

تبعاً لذلك صار لأصحاب المستلمين مكانة بين الناس، ويُنظر إليهم برهبةٍ واحترام، لأنّ واحدهم بمثابة ممثّل المستلم في محلّته. أمّا الوجهاء السابقون فقد تعرّضوا لخسران وجاهتهم العائليّة، وكان لكلّ عائلات المرشديّين في الشمال ولبعض العائلات في الجنوب وجهاؤها المعروفون. ومَن استطاع من الوجهاء أن يعقد مصالحة مع المستلم أو يسترضيه، فقد يحتفظ ببعض وجاهته.

أمّا وجهاء الغاب السابقون كمثل جعفر خليل في شطحة وسلمان خرفان في جورين فقد كانا معتادَين قبل ذلك الزمن وبعده على رشوة المسؤولين، وكثيراً ما كانت تنفع وساطتهما المرشديّين في مشاكلهم. وعندما اشتدّت قبضة المستلمين في أواسط الستّينات بدأا يعاملان المستلمين في الغاب معاملة المسؤولين، يقدّمان لهما المال والهدايا فيأمنان شرّهما بذلك.

ومجمل القول أنّ القسريّة هي المرض الأساسي الذي كان يعاني منه المرشديّون زمن المستلمين. وامتدّ ذلك الزمن حوالى السبع سنوات أي منذ سنة ١٩٦٥ إلى سنة ١٩٧٢. وقد خفّت وطأة القسريّة كثيراً منذ سكن المعلّم في حمص سنة ١٩٦٨. فإنّ الانسياق في السلبيّة كان قد بدأ وجرى قبل هذه السنة، وعوض عن أن ينتشر ويزداد عتوّاً، فقد انكمش وحُدَّ انتشاره، وذلك لأنّ المرشديّين بات كثيرٌ منهم يزوره، فخاف المستلمون ورجالهم على أنفسهم من الفضيحة أمامه، فحدّوا من نشاطهم وقلّلوا من غلوائهم.

خلاصة

إنّ الشوائب التي تحدّثت عنها آنفاً هي كالأشواك التي تنبت بين الأزهار، وكالسلبيّات الضارّة التي تنبت مع البذار الطيّب، وهي تنبت بشكلٍ تلقائي في التربة البشريّة وتتزامن والبذار الطيّب دائماً.

أمّا في المرشديّين فما نمت هذه الأشواك ولا تطاول نموّها تطاولها عند غيرهم من الأمم قديماً. فما إن بدأت جذورها بالظهور إلى العيون حتى باشر المعلّم باقتلاعها. وذلك حدث في بداية السبعينات. وكلّ أعمال المستلمين ما كانت تصل إلى المعلّم قبلها إلّا ككلماتٍ من هنا ومن هناك. وقد يعود المتكلّم ويتراجع عنها إذا سُئِلَ عنها ثانياً لخوفه من عقاب المستلمين.

لقد رأى المستلمون في المرشديّين أرضاً خصبة لأفكارهم وتعاليمهم، فالجهل كان مازال مسيطراً على أكثر المرشديّين خاصّة في إدراك ماهيّة السيرة الصالحة أي أنّ الأرض المرشديّة كانت مؤهّلة لإنبات كلّ هذه الأشواك حتى وبغير وجود المستلمين.

طرد المستلمين

وكما قلنا، بدأ المعلّم مذ كان في اللاذقيّة يعيب سلوكيّات المستلمين أمام المرشديّين، وبدأ المرشديّون يتجرّؤون على التحدّث عن مساوئهم أمامه تدريجيّاً، وأرسل أحدهم كلماتٍ إلى سلمان خرفان وكان من وجوه الغاب وغيره يقول لهم بها : (لا تورّطوا أنفسكم مع المستلمين) يقصد بها أنهم سيعودون إلى عزّتهم السابقة في المرشديّين، ويحذّر الناس من التكلّم عنهم بسوء، لأنّهم سينتقمون من كلّ مَنْ تصدّى لهم. ولكن سلمان خرفان لم يسكت لهم هذه المرّة، وجاء يخبر المعلّم بقولهم ـ على غير عادة المرشديّين قبل هذه الأيّام ـ وكذلك عندما أرسلني المعلّم إلى اللاذقيّة كي أسأل الناس هناك عن أفعال أحد المستلمين، وجدت أنّ كثيرين منهم كانوا يبوحون بأعماله، ولا يتستّرون عليه. ومن جهةٍ معاكسة فإنّ كثيرين من المرشديّين جلبوا هدايا إلى اثنين من المستلمين كانا يسكنان في الغاب يسترضونهما كي لا ينقما عليهم في حال رجوعهما إلى مكانتهما الأولى.

وظهر أنّ المرشديّين لم يتركوا المستلمين رغم تبليغ المعلّم في اللاذقيّة، ورغم هذا الموقف الشديد ضدّهم، فهم يخافون على أنفسهم منهم في حال رجوعهم ثانيةً.

وكان المعلّم كما قلنا سابقاً يريد أن يعطي فرصةً للمستلمين كي يعودوا عن غيّهم ويوقفوا تدخّلهم بشؤون غيرهم، ولذلك جعلهم يبلّغون البلاغ الأوّل بأنفسهم، فلعلّهم يتركون أعمالهم. ولكنّ المستلمين أبوا أن يتنازلوا عن مركزهم المميّز بين المرشديّين، وأصرّوا عليه كلّ الإصرار، وما فتئوا ينشرون أوامرهم هنا وهناك، ويجمعون أصحابهم، متحدّين بذلك ضمنيّاً بلاغ المعلّم. وهكذا اضطرّ المعلّم لمواجهتهم فأرسل إلى المرشديّين بطرد ثلاثةٍ منهم من المرشديّة ويشير إلى أنّ أعمالهم من الشرّ بمكان ويفضح خيانتهم لما سلّمهم من أمانة، وأرسل هذه الرسالة بشكلٍ رسميّ وعلنيّ، فقد رأى أنّ المرشديّين لن يتركوهم،

وهم لن يتراجعوا عن غيّهم إلّا بهذه الطريقة، وهي أن يعلموا حقيقة أمر هؤلاء المستلمين بكل وضوح.

وجاء اثنان من المستلمين مسرعين إلى المعلّم بعد أن سمعا بما بلّغ عنهم، واجتمعا عنده، وبيّن لهما سوء أعمالهم (أي المستلمون الأربعة)، وكيف كانوا يتكتّمون عليها، ويقاطعون كلّ رجلٍ يخبره بحرفٍ منها. وأنبأهم أنّهم سيبقون على حالهم هذا، وأنّ المرشديّين سيزدرون بهم ويحقّرونهم حتى انقضاء عشر سنوات، فإن حافظوا على إيمانهم خلال تلك المدّة، وأطاعوه، ولم يُظهروا أيّ اعتراض. عند ذاك يقبلهم بالصفّ ثانيةً كبقيّة المرشديّين وبدون أيّ امتياز. وجاء الثالث وأخبره كما أخبر رفيقه سابقاً[1] .

وجاء المرشديّون عشرات تتلو عشرات، ومئات تتلو مئات، وكلّهم من الغاب يستوضحون هذا الخبر الجديد، فقد كان بمثابة هدم السور العظيم الذي اعتادوا على وجوده منذ سنوات طويلة، يريدون أن يتأكّدوا شخصياً من المعلّم بما حاق بهؤلاء المستلمين، وكذلك جاء بعض المرشديّين من اللاذقيّة لنفس الغاية.

وكذلك في الجهة الجنوبيّة، فقد قصد الضهرة عشرات من الغسّانيّة ومن غيرها. جموعٌ غفيرة تأتي، وجموعٌ غفيرة تذهب، كلّهم يريدون أنْ يسمعوا الكلمة الفصل في هذا الموضوع من المعلّم شخصيّاً. وأنّ المستلم عندهم وإنْ لم يكن قد طُرِدَ بعد من المرشديّة كما حصل لرفاقه الثلاثة، فقد عَرَفَ المرشديّون القبالى أنّه ليس بالمنزلة التي كانوا يعتبرونه بها، وأنّه ليس له أيّة منزلةٍ دينيّة.

تعب المعلّم من استقبال هؤلاء الناس ومن ترديد نفس الكلمة لكلّ جماعةٍ منهم، فأرسلني كي أنوب عنه في هذا الأمر، وكنت أردّد كلمات المعلّم بشأن المستلمين لكلّ جماعةٍ تأتي إلى البيت.

وقبع المستلم الرابع في الجنوب (القبالى) في بيته في الغسّانيّة لا يحرّك ساكناً، بعد أن عاين ما يجري لرفاقه وما آلوا إليه من دمار، وكانت جهته جهة القبالى بأجمعها، وهم ما كانوا يتكلّمون عنه بسوء، ولا يفضحون أسراره، ولسببٍ بسيط وذلك أنّهم كانوا يعتبرون جميع أفعاله صحيحة، فهم يوافقونه على التزمّت والقسريّة والمقاطعة، ويسلّمون له بالكلمة، أي أنّ أكثرهم كانوا يرون الصواب بواسطة المنظار القاتم الذي وضعه على عيونهم، فعَمَّ يتحدّثون ؟!.

---

(١) رجع المستلمون إلى الصفّ المرشدي بعد انقضاء المدّة التي حدّدها المعلّم لهم وبقوا في الصفّ المرشدي إلى أن قضوا، ولكن لم تقم لهم أيّة حيثيّة بين المرشديّين بعدها.

وأبت الأيّام أن تترك هذا المستلم لنفسه، وأن ينجو من هذه العاصفة الشديدة، فجاء بعض الناس من شين يخبرون أنّهم وضعوا له مكانةً دينيّة توازي مكانة المعلّم. وقد احتاروا بعد أن سمعوا أنّ المعلّم يقول عنه أنّه لا شيء، وأن ليس له أيّ اعتبارٍ دينيّ، فعلموا أنّهم ليسوا على الطريق القويم، وأنّهم ليسوا كباقي المرشديّين الذين وفوا لإمامهم. وما نصّبوا أحداً غيره كقدوة يقتدون به.

ثم توالى قدوم أهالي شين إلى بيت المعلّم في الضهرة مئات تتلو مئات، واضطرّ أن يقابلهم جميعاً، وأن يتحدّث مع الجميع، فهم لن يكتفوا بي إذا أرسلني إليهم، لأنّهم كانوا قد رفعوا صاحبهم مكاناً عالياً. ولن يثنيهم عن ذاك إلّا إذا سمعوا الكلمة من فم المعلّم نفسه.

واتضح أنّه أثناء كلامهم عنه مع المعلّم أنّهم كانوا يحاذرون أن ينطق أحدهم بكلمة سوء على صاحبهم رغم كلّ هذا الاعتراف، ولكن عندما وصفه المعلّم بخيانة الأمانة ابتدأت الكلمات الجارحة تتوالى على هذا المستلم من أفواه جماعة شين أصحابه الخاصّين، فكانت تُعتبر شين أنّها مركزه وقلعته الحصينة التي لا تأتمر إلّا بأمره، ولا تأخذ كلمات التوجيه إلّا منه، وتسير كما يوجّهها.

وبدأ رجال شين يروون حكاياته تدريجيّاً، وبدأت تظهر مخازيه كما ظهرت مخازي رفاقه قبله.

وكان لوقعةِ هذا الرجل أثرٌ بالغ الشدّة على شين وعلى غيرها من قرى القبالي، فما كان أحد يتصوّر أنّ هذا الرجل سيصل إلى هذا المصير الوبيل، وكانت كبيرة عليهم في بادئ الأمر.

ردّة الفعل في المرشديّين

على أثر العاصفة التي أخذت المستلمين، وهدمت بيت الطبقية الدينيّة القديم، ابتدأ الناس في الجبل يغالون كعادتهم دائماً، فأخذ البعض يشتم كلّ أقرباء المستلمين عموماً، ولا يستثنون منهم أحداً. وكما غالوا بطاعة المستلمين كذلك غالوا بالتهجّم على جميع أقربائهم بعد طردهم.

سمع المعلّم بهذا، ورفض هذا الأمر رفضاً قاطعاً، وذهب إلى كرم المعصرة، وهي في منطقة قرى الجبل، حيث كان الناس يشتمون عائلات المستلمين عموماً، وأفهمهم المعلّم أنّه ضرب أشخاصاً معيّنين وليس عائلات، وإنّ تبعة العمل السيّئ تقع على فاعليه فقط.

ولكنّ حدّة العاصفة ضدّ أقرباء المستلمين وإن خفّت فهي لم تَزُل آثارها مباشرة، وتطلّب الأمر مدّة من الزمن حتى تلاشت زوابعها.

وهوجم مستلم القبالي في عقر داره من أهالي الغسّانيّة، وأحاط الرجال ببيته، واستنجد بالمعلّم بواسطة أبنائه، فأمر المعلّم بالكفّ عنه، وكان قد صار أهالي الغسّانيّة لا يرضون بإقامته بينهم، وتسلّقوا عليه أسوار بيته، وكادوا يميتونه خوفاً، وما انفكّت هذه الأزمة عنه حتى اضطرّ إلى بيع بيته، ومغادرة الغسّانيّة، واستأجر بيتاً في أحياء حمص البعيدة عن أحياء المرشديّين.

أمّا الثاني فقد قصده المرشديّون إلى عين المجنونة حيث صاروا يضربونه ويستهزئون به، وذلك كلّه بين الشتائم والضحكات. وكان موقفه أصعب من موقف رفيقه، لأنّ بيته يقع على أحد الدروب العابرة جبل الشعرا إلى غربي الجبل، فكان بعض المرشديّين العابرين إلى الغرب أو العابرين إلى الشرق يمرّون على بيته لاحتقاره والاستهزاء به. إلى أن استنجد بي أخيراً، وكنت في الغاب بزيارةٍ لأحد أصدقائي، وأرسل إليّ ابنه يصف حالته وكيف يعامله الناس، وأنّه بات عرضةً لكلّ رجلٍ يمرّ على حارته، فأخبرتُ المعلّم بهذا، فأرسل إلى المرشديّين كي يتركوه وشأنه.

أمّا ثالثهم فقد خَبَرَ الفقر الذي كان يخشاه، والذي لولا خوفه منه لما وقع هذا الموقع الوخيم. فهو كان قد نوى أن يُخبر المعلّم بأفعال رفاقه، ولكنّه حسب أنّ هؤلاء سيجعلون أصحابهم يقسمون الأيمان أمام المعلّم، بأنّه فعل كذا وكذا، ويتهمونه بشتّى التهم، فيطرده المعلّم، ويجوع بعد شبع، ويفقر بعد يُسر، فما نفعه هذا في شيء، وها هو يصل إلى الفقر الذي كان يحاذر منه، فقد خسر الجانبين، واستهان به الناس ورذلوه.

ورابعهم فقد هوجم وضُرب من أحد أقربائه أمام أهالي نبّل في الغاب وقدّام بيته في منتصف القرية على مرأى من امرأته وأولاده، وكان ضربه شديداً وقاسياً.

أمّا تاريخ طرد المستلمين الأربعة، فقد جرت أحداثه في شهري حزيران وتموز من عام ١٩٧٢.

أمّا أولاد المستلمين فقد حضّنتهم وقعة آبائهم هذه إلّا واحداً (وهو الذي دعا إلى التخلّص من المعلّم يوم السرايا فيما بعد)، فهم عوض أن يصبحوا جبّارين عتاةً قساة القلوب، بسبب ما كانوا سيلاقونه من إكرام وتبجيلٍ من المرشديّين، وعدم الاكتراث في العمل لأنّ المال يأتيهم عن طريق آبائهم من المعونات والمساعدات التي يقدمها الناس لهم،

أصبحوا الآن وبعد أن ضُرب آباؤهم يعتمدون على أنفسهم في كسب رزقهم. وما اعتبروا أنفسهم بعدها إلّا كباقي الناس، وكانوا لا يريدون شيئاً إلّا ليُعْتَبروا كباقي المرشديّين، وهذا هو الطلب الصحيح. وأخبرنا المعلّم منذ أن طرد المستلمين، أنّ طردهم سيكون رحمةً بأبنائهم. وأثبتت الأيّام صحّة قوله من مجرى الأحداث فيما بعد.

وبعد طرد المستلمين تلاشت سلطة أصحابهم بشكلٍ سريع، وقامت على أكثرهم قيامة المرشديّين، وبات يُنظر إليهم إن لم نقُل باحتقار، فلنقل بجفاء. وكان بعض هؤلاء يحاولون الظهور مع المعلّم أمام البقيّة في ذهابه وإيابه، كي يخفّفوا من غلواء قيامة الناس ضدّهم.

إنّ عدد رجال المستلمين وأزلامهم في المرشديّين لم يكن كبيراً جداً، لربّما وصل إلى المائتين أو نافها قليلاً في كلّ أنحاء المرشديّين، وقد ثاب معظم إن لم نقُل جميع هؤلاء إلى رشدهم بعد طرد المستلمين، وعلموا أنّ قضيّة خدمة الدعوة هي قضيّة طواعية وليست إجباريّة. وهم إن لم يفهموا هذا الأمر فقد سلّموا به على الأقلّ. أو لنقل خرسوا لأنّ الناس باتوا لا يطيعونهم فيما يأمرونهم به.

ردّة الفعل عند الآخرين

إنّ الأثر الذي تركه طرد المستلمين عند الآخرين كان إيجابيّاً. فقد كان رجال الدولة والمفسدون والآخرون عموماً ينظرون إلى هؤلاء المستلمين على أنّهم هم القوّة الحقيقيّة التي تحرّك المرشديّين، فهم أقطاب المرشديّين بل ويقولون أحياناً أنبياؤهم. وكانوا يظنّون أنّ ساجي بواسطتهم يقود أتباعه. والآن وما هي إلّا كلمة واحدة تخرج من فم ساجي حتى رأوا الأرض المرشديّة الثابتة تزلزل تحت أقدام هؤلاء الأقطاب.

يرونهم يهاجرون من محلّاتهم، ويسعون إلى أرزاقهم كبقيّة الناس، ويعملون بأيديهم هم وأبناؤهم، فيكادون لا يصدّقون عيونهم. فأيّة قوّةٍ لساجي في المرشديّين؟! يقولون لأنفسهم : هذا هو فلان الذي كانت كلمته ترتجّ لها المنطقة قبل أيّام، أصبح يرعى الماعز في القرية، يركض وراءها إلى أعالي الجبال. وهذا الثاني الذي كان يفوق الأوّل قوّةً ومنعةً بين المرشديّين، يذهب إلى اللاذقيّة ليعمل كأحد الفَعَلة في الحديد والبيتون. وهكذا الثالث في حمص.

معجزاتٌ معنويّةٌ عملها المعلّم في أتباعه، لا تكاد تصدّقها عيون الآخرين رغم رؤيتها، ولا تفهمها عقولهم. وقد أعجبت هذه الظاهرة الرجال المسؤولين. ويحضرني الآن

اعتراف أحد رجال السلطة وقوله : إنّ ما فعله ساجي في جماعته لا تستطيع الدولة فعله بموظّفيها رغم كلّ سلطتها وقوّتها عليهم، وساجي فعله دون أيّة سلطةٍ له عليهم أو قوّة.

أراد المعلّم أن يعرف الناس حولنا أمر طرد المستلمين، فأرسل بعض الشبّان إلى المسؤولين يبنّونهم بذلك. وهكذا لم تُخفَ هذه الظاهرة ولا غيرها عن الآخرين. فكلّ توجيهاته وأعماله ابتدأت أن تكون علنيّة ابتداءً من سنة ١٩٧٢. وأحاديث المرشديّين السريّة بدأت تتلاشى وتختفي، تلك السريّة التي نشأت من الضغوط التي كانت تمارسها علينا الحكومات المتعاقبة، والتي ساعد بازديادها وتعميقها خوف المستلمين وأصحابهم من افتضاح أمرهم أمام المعلّم، وهم كغيرهم من المستغلّين يحبّون السريّة في كلّ أمر.

زيارات توضيحيّة

كان المعلّم يتابع زياراته لقرى المرشديّين مع سير هذه الأحداث. ففي الثاني من تموز لبّى دعوة إلى قرية في الغاب ويذكرون من قوله : الاقتداء يكون بالمعلّم فقط. كان الحديث عن المستلمين، ويذكرون من قوله عنهم : أنهم ما عملوا بقول مجيب، وما انتصحوا بما نصحهم به.

وفي اليوم الثاني لبّى دعوةً إلى الحيدريّة ومرّ في الحيدريّة على عددٍ من البيوت، وكان الحديث عن المستلمين الأربعة، وفُهِمَ من الحديث، أنهم أضاعوا الأمانة، وتذكر جماعة الحيدريّة في الغاب أنّ المعلّم بعد أن سلّم على جميع أهالي القرية من رجالٍ ونساءٍ وأطفال حاول أحدهم منع الصغار من البقاء عند المعلّم ـ لأجل ضجيجهم كما يبدو ـ فقال له : (اتركوهم تَشوف عاداتكم) القصد هنا أنّ المعلّم أراد أن يختبر عادات أتباعه من خلال تصرّفات أولادهم، أي أنّ نفسيّة المجتمع تُستقرأ من تربية الأولاد. ونام المعلّم عندهم يوماً.

وتوالت زياراته لقرى المرشديّين، وبعض هذه الزيارات كانت بشأن توجيه وإفهام أتباعه سبب طرد المستلمين.

كان أهالي شين قبلها قد تعلّموا من صاحبهم المستلم السابق عاداتٍ وتقاليد شاذّة عن جوهريّة المرشديّة، وكذلك بعض القرى الجنوبيّة أيضاً، ولكنّ شين برّزت الجميع في هذا المضمار، ومن هذا عندما دعاه أحدهم إلى بيته أنّه أنزله في بيتٍ قديم (قَلَذ). وتساءل المعلّم إن كان المضيف لا يملك بيتاً من البيتون، أجاب المضيف أنّ لديه بيتاً من البيتون، ولكنّه مشادٌ على الطريق العام، أجابه المعلّم : (شو انت مخبّاني هلّق؟!).

كان جهلهم عظيماً، فهذا الرجل رغم أنّه يرى أنّ المعلّم دخل شبن علانيّة، مئات الناس تتبعه من مكان إلى مكان، ومن بيت إلى بيت، مازال يسير على خطى صاحبه الأوّل، فيحاول تخبئة المعلّم عن أعين الناس. فهم يعلمون أن صاحبهم كان جباناً يختفي دائماً، وعلى المرشديّين أن يخبئوه حيثما يكون.

ثمّ بعدها زار المعلّم قرية بسيقة الشرقيّة في منطقة المهالبة بمناسبة وفاة محمّد فوزي، وكان شاباً لا يفتأ يزور المعلّم بين حينٍ وآخر، وكان مجازاً في الحقوق وشغل وظيفة في طرطوس تلك السنة، ومرّ عليه المعلّم كثيراً أثناء روحاته وجيئاته من حمص إلى اللاذقيّة، وكان يطيب للإمام أن يجالسه، والظاهر أنّ محمود فوزي أخا المتوفّى رفض قبول العون من المعزين، فأوصاه المعلّم أن يأخذ العون، وقال عن هذا العون لدى الوفاة: إنّه عمل كريم. وجاء أناس من غير المرشديّين لتعزية محمود فوزي بأخيه، ولأنّ محمود فوزي وبقيّة المرشديين ما كانوا قد اعتادوا على تقبّل التعزية من الآخرين ـ حسب توجيه المسلمين لهم، ففي أيّام سلمان ومجيب لم تكن قد قامت هذه السدود بينهم وبين غيرهم ـ لذلك سأل المعلّم عن صحّة هذا الأمر وطبعاً وجّهه الإمام لاستقبالهم.

ثمّ زار قرية مريمين، وكانت الزيارة الأولى لهذه القرية، وأقيمت سهرة غناء روحي كالعادة في المجمع وشاركهم في الدبكة، وبقي عندهم يومين. ومن تزمّتهم اللامعقول يومها أنّهم منعوا أيّة امرأة من التسليم عليه، وحتى من الاقتراب منه ظنّاً منهم أنّ هذا احترام له. ويظهر بذلك ماهيّة نظرة الاحتقار المعنويّ التي كانوا يمارسونها ضدّ نسائهم.

قَدِمَ المعلّم إلى قرية في الغاب في خريف هذه السنة، وفي المساء أقيمت حفلة الغناء، وكان غناء المرشديّين غير ملحّن ـ كانت الألحان يومها لاتزال محصورة على كورس حمص، ولم تكن قد عمّت في المرشديّين بعد ـ وأثناء الحديث سأل المعلّم أحد ظرفائهم: هل تتمنّى الموت؟ أجاب: لا واللّه. فقال المعلّم كما يروون بمعنى: إنّ المؤمن لا يخاف من الموت. وقال له المعلّم وهو يسامره مرغّباً له في الجنّة: هنالك حوريّات شقراوات عيونهنّ زُرق، ولا تحسب أنّك تجد هنالك من يتوسّط لك لديهنّ، بل تنظر الحوريّة إلى قلبك فإن أعجبتها تقبل بك، وإن لم تعجبها لا تقبل. فأجاب الرجل متحدّياً: إنْ لا أعجبها لا تقبل، وأنا لن أذهب إلى هناك إلّا بعد أنْ أكون قد أصبحت أعجبها.

لم تكن روحات المعلّم إلى القرى القريبة من حمص تقتصر على الدعوات، بل كثير منها نزهات يصطحب معه في النزهة بعض الرفاق من حمص، وقد يتمشّون في منطقة ما من القرية، وعادةً يقصد بهذه النزهات بيت أحد الرجال من الذين يأتون إليه بشكل متوالٍ، ويدعونه إلى بيوتهم، يبقى عنده ساعة أو ساعات، يحتسي بها القهوة هو ورفاقه ثم يعود إلى المدينة.

بيان من المعلّم إلى اتباعه

حوالى منتصف صيف ١٩٧٢، انتقى المعلّم بعض الرجال، وأكثرهم كان من الشبّان المثقفين، وذلك كي يرسل رسالة إلى أتباعه بواسطتهم. وعددهم على ما أذكر ثلاثين رجلاً أو أكثر بقليل.

وكان البيان مكتوباً في ورقةٍ حملها هؤلاء إلى كافّة أنحاء المرشديّين، ويحتوي على طرد المسلمين مع التعريف بسبب طردهم. وأهاب بالمرشديّين كي لا يقعوا بحبائل أيّ مفترٍ بعد الآن، ووصف بهذا البيان وجدان سيرة الهدى، ويحفظون من قوله أنّه ذكّرهم بقول مجيب أن الدين معرفة الله، أمّا الديانة فهي متمثّلة بالصلاة والسيرة الطاهرة.

وأوصى في هذه الرسالة أتباعه أن لا يُؤتَمَر أحدهم بأمرِ أحدٍ لا كبيرٍ ولا صغيرٍ إلّا بما أمر به الله. وأن لا يقتدي أحدهم إلّا به فهو الإمام والقدوة، وأن لا يصدّقوا قولاً عنه إلّا الذي يأتيهم بشكلٍ رسميّ منه. وذكّر المرشديّين في هذه الرسالة بنصيحة مجيب «لا تخدموا أحداً بصفته سيّدكم إلّا الله واخدموه بعبادتكم له». فخدمة الله تتمثّل بعبادته وليس بأيّ شيءٍ آخر.

اعمال واشغال

جئت إلى المعلّم أستأذنه بالبدء بأعمالٍ حرّة سنة ١٩٧٢، فقد ضجرت لبقائي بدون عمل حتى ذلك الوقت. وكان قد أصبح عمري حوالى الثمانية والعشرين، وما قمت بعملٍ معيشي حتى ذلك السنّ. وأذن المعلّم لي، وأعطاني عشرين ألف ليرةٍ، كانت تمثّل أكثر ما معه من مال، ودعا لي بالتوفيق.

وقد امتدّت مشاريعي شيئاً فشيئاً حتى أصبح لديّ سنة ١٩٧٤ مشاريع في حمص وطرطوس والزبداني. وتحسنت أحوالي الماديّة تبعاً لذلك كثيراً جدّاً وكذلك بالنسبة للمعلّم وفاتح، وكان المعلّم يوجّهني بالعمل ويعطيني رأيه كلّ ما احتجت إليه. ومن المشاريع التي قمت بها : بناء مديرية التربية في حمص، ساحات وكراجات معمل الفوسفات في حمص أيضاً، معمل المعكرونة في درعا ومعمل مياه بقين في الزبداني، بناء دار المعلّمين في طرطوس وبناء دار المعلّمين في درعا والقصر البلدي في طرطوس والقصر البلدي في درعا وإكمال المركز الثقافي في طرطوس وفي بانياس وسينما الكندي في طرطوس، وأعمال كثيرة من هنكارات ومهاجع وحوالى ألف وخمسمائة شقّة سكنية منها في نهاية أوتوستراد المزّة ومنها في صبورة وأعمال كثيرة غير ما ذكرت من مدارس وطرقات وغير ذلك. كما عملت في التجارة وفي الأبنية السكنية من غير التعهدات.

اوّل بيت ملك للسكن

في سنة ١٩٧٣ انتقل الإمام إلى بيتٍ جديد أشاده في الضهرة، وهكذا للمرّة الأولى يسكن بيتاً يمتلكه امتلاكاً وليس إيجاراً، ولا يبعد إلّا عشرات الأمتار عن البيت الأوّل الخاص باستقبال الزائرين. وقد خطّط البيت الجديد مهندسٌ مرشديّ اسمه بهجت سعد، وهو أوّل مرشديّ يحمل إجازة في الهندسة. وكان للبيت غرفتان صغيرتان وغرفة كبيرة نسبياً يستقبل فيها الزائرين في النهار والليل. وللبيت حديقة دائرية تتّسع في جهة الجنوب، وقد أقام فيها بعض الحفلات فيما بعد. وأصبح له بذلك بيتان في الضهرة، البيت الأوّل وبيته الخاصّ. كان البيت الأوّل يُستعمل لاستقبال الزائرين إذا زادت أعدادهم أن تتّسع لها الغرفة الكبيرة في بيته الخاصّ. وتُعقد في صالونه سهرات وحفلات غناء بحبّ اللّه ورجائه. كما وينام فيه بعض الزائرين من الذين جاءوا من قرىً بعيدةٍ ولا يستطيعون العودة إلى قراهم في نفس اليوم بعد زيارة المعلّم.

وصف الحياة عند المعلّم سنة ١٩٧٢

رغم كثافة واحتشاد هذه الأحداث التي جرت في ربيع وصيف سنة ١٩٧٢ وخطورتها، فإنّ المعلّم كان مشغولاً بالغناء أكثر منها، يستمع إلى المغنّين ويسجّل ألحانهم.

كانت جلسات الغناء هذه تأخذ طابع الحريّة، وتوارى الحرج وطُرِدَ منها. واحتارت جماعة الضهرة جدّاً من هؤلاء الشبّان رفاق الغناء كيف يجلسون عند المعلّم، وكيف يسمرون ويضحكون غير مبالين، وكانوا يأخذون حريّتهم عنده أكثر من باقي البيوت وبشكلٍ ملحوظ. وما تصوّرت الجماعة إمكانيّة حدوث هذا الأمر قبل ذلك اليوم.

إنّ جوّ السهرة وجوّ الحارة كان قد امتلأ بالحبور تلك الشهور، الوجوه ضاحكة مستبشرة رائدة والنكات كثيرة، والضحكات متعالية. يكاد بعض اخوان الضهرة لا يفارقون بيته، يلحقون به إلى بيت فاتح أو بيتي إن كان بأحدهما، أو إلى بيوت بعض الذين أصبح المعلّم يزور بيوتهم يوميّاً تقريباً. وغالباً ما يأتون إليه بالمفارقات التي تحدث معهم يوميّاً، وماذا قال فلان عن فلان؟ وكيف ضحك فلان من فلان، وما أبعد هذه الأيّام عن الأيّام التي لم يكن بها إلّا الجفاف والجفاف فقط !.

إنّ تعاظم الفرحة كان يتجلّى في غناء محمد ابراهيم أكثر من غيره، أمّا نزيه فقد اختصّ بالحلبيّات وبعض ألحان الجزيرة القديمة، وما كان أحدٌ منهم يبزّ محمد عبدو في الألحان والقصائد التي بها دفءٌ وحنان، وخاصّةً الأشعار المتعلّقة بذكر دعوة مجيب، بينما سلمان

رجب كان بطل ساحة المغنى والشروقي نظراً لصوته المديد، وكان حكمت حلاوة عميد ساحة الأغاني البدوية.

وكان هناك رجل من الكورس يستعين به المغنّي كي يلقّنه الأبيات التي يكون قد نسيها مُستغلاً فرصة الردّة.

ثم بدأت الغيرة تتأكّلهم، فأخذ كلٌّ منهم ينافس رفيقه في اختصاصه، ومن الحاضرين من يُعلن تفضيله هذا عن ذاك، وما كانوا صادقين بأكثر ادّعاءاتهم هذه، فيفضّلون هذا المغنّي لا لغنائه، بل لميلٍ لهم بأنفسهم نحوه. وهكذا ككلّ حركةٍ على الأرض يرافق سببُ فنائها بدايةَ وجودها، ويولد الموت بميلاد الحياة.

وكان المعلّم يؤلّف أغانيَ لكلّ هذه الألوان، بقصد أن تكون الأغنية على اللّحن الذي يستطيع هذا المغنّي تأديته أو ذاك، وكانت كثيرة.

أثناء الغناء كان المعلّم أحياناً يمسك بالقلم والورقة وهو جالس على الفراش، ونحن عنده منتشرون في الصالون لا نوقف الغناء، وهو يكتب الأشعار والقصائد، لا نحن نتوقّف عن الغناء ولا هو يتوقّف عن الكتابة حتى يتمّها، كل ذلك كان يجري بجوّ من السعادة والمرح لا عنتٌ به ولا إكراه.

وكان هناك مغنٍّ معروف بصوت قادرٍ على الإطالة بنفس القوّة وبنفس الجمال ولعلّ صوته كان أوبرالي لو تدرّب عليه وهو علي جعفر. وقد ألّف له المعلّم بعض القصائد على الألحان التي تناسب صوته ومنها هذا الشعر:

فـي بـيـتِـنـا إبـريـقْ مَـلآنْ بـالـخَـمْـرِ[1]
صَـهْـبـاءُ مِـنْ عَـتـيـقْ أوْلَـةُ الـدَّهْـرِ
والـكـأسُ مِـنْ رَقـيـقْ مـا صَـنَـعَ الـخَـضْـرُ
كـأنّـمـا الـبَـريـقْ قَـدْ طَـلَـعَ الـفَـجْـرُ
بـالـنّـورِ والـشَّـمْـسِ
فـي بـيـتِـنـا مِـزْمـارْ مِـنْ قَـصَـبِ الـقُـدْرَةْ
أصـواتُـهُ أطـوارْ مِـنْ راخِـمِ الـصَّـفْـرَةْ

(١) الخمرة هنا هي نشوة معرفة الله والشعور بعزته.

كأنّما الغفاز داغبٌ لِلأذنِ
بَلْ إنّها الأقداز تَسلُكُ بالْلحنِ
غفواً إلى الإنسِ
في بيتِنا ناقوسْ يَدُقّ بالمَجدِ
يُمَجِّدُ القُدّوسْ في صَفْقةِ اليَدْ
رَنِينُهُ المَلْوسْ كَخُطوَةِ المَعنى
في لُطفِها المَحسوسْ تَظَلُّ تُسْمِعُنا
نقاوةَ النَّفسِ
في بيتِنا غُلامْ مِنْ كَوكَبِ الصُّبحِ
أنزَلَ في الأوهامْ بَصيرَةَ الوَضحِ
يُسْمِعُنا مِنْ كَلامْ حقيقَةِ الفَضْرِ
خَقائِقاً تُشامْ في غامِضِ السِّرّْ
مَلِيكَةَ القُدْسِ

ولم يكن يقتصر حضور هذه السهرات على أعضاء الكورس فقط، بل كثيراً ما يأتي غيرهم. أمّا هم فدائماً حاضرون.

وكان هنالك غلام آخر في جورين اسمه يمين، زار هذا الغلام المعلّم عندما كان في عين المجنونة، وكان يغنّي، وقد أمره المتزمتون يومها بعدم الغناء لأنّه يبطئ بغنائه بنظرهم. فالواحد منهم يغنّي عشر قصائد بوقت لا يتمّ به يمين قصيدة واحدة. فمقياس الغناء عندهم كان بسرعته اللامعقولة والمضحكة في أحيانٍ كثيرة. أمّا المعلّم فقد شجّعه وطلب منه الاستمرار في الغناء.

إنّ الأشعار التي قالها المعلّم في سنة ١٩٧٢ كانت أنغاماً فرحةً، تتراقص خارجةً من مزمار راعينا. تمثّل بداية تغيّر الدور وبداية اللحن الجديد، وهي كلّها فرحةٌ باللّه وأمل به، وهذا شعرٌ آخر يصف كيف نضج الحقّ برعاية رحمة اللّه، ووهج بنور جلالته، واختلج حيّاً لا يتدثّر إلّا بنفسه. أي أصبح الحقّ صراحاً، ثم دخل يمشي في ذات المؤمن، ممّا أبهج قلب المؤمن وأشعره بالرضوان، وكلّ هذا جمعه المعلّم في هذا المقطع:

في رحمتِك الحقُّ نضجْ وبنورِ جلالتِه وهجْ
والتفَّ بذاتِه واختلجْ ومشى في ذاتي فابتهجْ
قلبي وأمدّني رضوانا

فشَرِبَ المؤمنُ كأسَ نور الحقّ متلألئاً جاءه من نورٍ أعلى، فسكر سكراً متواصلاً، وأصبح فعله فِعْلَ ذلك النور العليّ أي أصبحت أفعاله كلّها أفعالاً كاملةً:

فشربته كأساً يتلالا نوراً من نورٍ يتعالى
أنا فيه بسكرٍ يتوالى مدّاً من نورٍ فعّالا
فعلاً نوريّاً صفوانا

وهكذا دخل المؤمن عالم السماء، أشخاص هذا العالم متواجدون من بدء الدهر وباقون إلى الأزل، وهم مازالوا ولن يزالوا بريعان الشباب ونضرة الحياة:

ما زلتُ بنشوات السكرِ أحيا في عالم من طهرِ
أشخاصه من بدء الدهرِ وتظل إلى أزلٍ تجري
في حب إلهها ريعانا

وهنالك لا تعبٌ ولا نصب بل أنوارٌ تتألّق ثم تتفانى لتعود وتتألّق من جديد:

لا يأخذنا فيها تعب لا يمسسنا فيها نصب
لكنّا وأدنانا الربّ أنوارٌ ضجّ بها الحبّ
تتألّق ثمّ تتفانى

وهذا شعرٌ من بيتين يُذكّر المعلّم به الإنسانَ بأفضليّة السماء، وحقّانيّة اختيار الحياة الآخرة عوض الحياة الدنيا:

خَلِّ عنك الترّهات واستمعْ قولَ الثبات
ليست الدنيا حياةً إنّما الأخرى الحياة

نظرة في حكمة اقتلاع الأشواك

كان من الصواب والحكمة حكمة التسيير أن يُبعَدَ المعلّم ويُعزل عن أتباعه، وأن يُترك لمن شاء الغيّ أن يفعل بغيّه، سواءً أكان من المسلمين أم من غيرهم. وبذلك يصبح الجوّ ملائماً لتتمكّن الأفكار الخاطئة من الظهور. الأفكار الخاطئة هي فهم الدين والصلاح فهماً خاطئاً كالمفاهيم التي تحدّثنا عنها سابقاً. فهذه الأشواك لم يكن لها جوٌّ ملائمٌ للنموّ والتكاثر أيّام العذاب، فهي تكاثرت وتعاظمت بعد سنة ١٩٦٥، أي في سنوات الراحة من العذاب. ثم يبدأ المعلّم بمحاربتها بعد نموّها وظهورها للعيون. ويبدأ بمداواة أتباعه منها، وإبعاد مروّجيها ومشجّعيها كالمسلمين وأصحابهم، فيصبح بمقدور المرشديّين تميز أفكار الشرّ من أفكار الخير، وسترى المعلّم لاحقاً يعلّمهم الأعراف الجديدة، وهي أنّ الدين لا يكون إلّا خيرة وليس عنوة، وأنّ فعل الخير ليس في الجبر ولا في التحكّم، ويعلمون أنّ المرأة لا يضيرها تركيب جسدها، وأنّ الحقيقة في كلّ أمر هي بالشعور الذي يسكن في صدر الإنسان، وليس بحركات الجسد ولا بتمتمات الشفاه ولا بطقطقة المسابح. فهذه الأعمال إنْ خلت من الشعور القدسيّ أصبحت سيئةً، لأنّها باتت رياءً أو تكسّباً، أو مجرّد عاداتٍ من عادات البشر يُشار لها بأنّها هي الدين. ويفهّمنا القرآن الكريم حقيقة هذه الأعمال في سورة (الماعون) الآيات من ٤ إلى ٧: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ».

فلو أنّ المعلّم لم يُحجَز في دمشق وبعدها في حمص، لما استطاعت الأشواك أن تنمو، ولَما تمّ ظهورُها. أمّا وقد أُبعِد المعلّم عن أتباعه، واستحال قدومهم إليه إلّا في أويقاتٍ قليلة، فقد خلا الجوّ لظهور هذه السلبيات، وأنبتت التربة البشريّة أشواكها.

ويحضرني الآن مثل عيسى الذي قاله لتلاميذه عن السيّد الذي كان على وشك أن يبذر أرضه حنطة، وجاء رجلٌ شرّيرٌ في الليل، ورمى بذار الزيوان بين بذار الحنطة. فقال عبيد السيّد للسيّد : هل نعزي البذار قبل الزرع؟ فأجاب السيّد : بل تبذرون الجميع، فالبذار عندما ينمو سيتعرّى لنفسه، هذا زيوان وهذا حنطة، عندها تقتلعون الزيوان وترمونه بالنار.

وهكذا فَعَل المعلّم بذر البذار الطيّب فجاء المنافقون وبذروا البذار الرديء، ونما البذار كلّه. وكان يعتني بالبذار الطيّب من وقتٍ لآخر، ويسقيه من ماء معرفة الصدق

والمنجاة شعراً وحديثاً، فنما وتطاول الطيّب منه وزهى ونما الرديء معتمداً في سقايته على أطماع الإنسان، ثم بدأ الحصاد، والزرع الطيّب حصده ووضعه في العنبر، والرديء ألقى به خارجاً.

البذار الطيّب هنا هو الأفكار والمعتقدات الصالحة والتي زرعها المعلّم بشعبه بواسطة توجيهاته وأحاديثه في الجلسات. أمّا البذار الرديء فهو أفكار المتطفلين والكسالى التي يحاولون بها الوصول إلى جنات الإله دون المرور بطريق الفضيلة التي اشترطها الرب على كلّ من يريد أن يتخطّى الموت ويصل إلى الحياة، فهي تصوّرات خاطئة عن الدين وعن ماهيّة الخير. فهذه الأفكار لا يمكن محاربتها إلّا بعد إظهارها في أعمال وأفعال كي يظهر مدى بطلانها لعيون أصحابها. أمّا بذار الخير فكان قد نما وترعرع من توجيهات السيرة التي اختطّها المعلّم واصطفاها وعلّمها منذ افتتاح تعليم المعرفة الجديدة، والتي أبعدتنا عن الأفكار الوضيعة وهيّأتنا كي نتلقّى الأعراف الصحيحة، وبدأ المعلّم بإقامتها منذ سنة ١٩٧٢ وصاعداً. وهذا يمثّل ما جاء في القرآن الكريم في سورة (الرعد) في الآية ١٧ : «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ». فباهتياج البحر يتخلّص من زبده أمّا ما ينفع الناس فيرسو في الأعماق، وطالما حدّثني المعلّم بهذه الآية الكريمة ذاكراً كيف يحدث بمسرى الخير منذ بداية تواجد الإنسان على الأرض. وكم كان يرجع إلى القرآن في حديثه مذكّراً كيف تتحقّق آياته في القديم والحديث.

إنّ عملية الصفاء والطهر لا تنتهي عند وصول المؤمن إلى الملكوت بل تتكامل في الملكوت، فالمساق جبّار والبعد سحيق، وسفينة المنجاة التي هي حلم اللّه في الحياة (كما علّم بجيب) هي وحدها صاحبة العبور، ولن تحقّ الرفعة إلّا لمن أمّها، ولن تكون الحياة إلّا لمن أراد، ولن تواصل العزة الإلّهيّة نفساً تأباها.

انتصر نسرنا العظيم على أعداء طريق الحقّ والهدى في الخارج والداخل. أمّا الأوّلون فمنهم مَنْ أودع السجن ومنهم من ولّى هارباً خارج البلاد، وأمّا الآخرون فقد طُرح بهم بعيداً عن المرشديّين. وتنفّس المرشديّون الصعداء بعد التعب الجهيد، ليس بعد الآن مَنْ يلاحقهم أو يضطهدهم لانتمائهم إلى معتقدهم، وليس بعد الآن مَنْ يعوّج طريق الهدى لأعينهم أو يستغلّ الدعوة المرشديّة للتسلّط عليهم.

ورقص فجر يوم جديد على نغمات مزمار راعينا الحبيب ذلك الراعي الصالح الذي استاق خرافه إلى مرج الحياة النضير، حيث الطيبة والتسامح والسلام، حيث يكتمل الخير وتنعدم الشرور، حيث شاطئ الأمان.

انتشار الحرّيّات

تحيّة النساء بالسلام

إنّ النساء لم يُستثنَينَ يوماً من الأيّام لا من تحيّة السلام ولا من الصلاة، سواءٌ في الإسلام أو في المسيحيّة أو في اليهوديّة أو في باقي الأديان. إلّا أنّ بعض الفرق وربّما بسبب الإرهاب الذي عانوه والضغط ممّا أوجب لديهم كتمان بعض معتقداتهم، سِيقُوا إلى فكرة عدم البوح للنساء بالصلاة، وذلك إمعاناً منهم بالتحفّظ على معتقداتهم كي لا يصل شيء منها إلى مسامع الآخرين، مخافةً من الاضطهاد، ثمّ تطوّرت هذه المبالغة بالسرّيّة بشكلٍ عشوائيّ حتى باتوا لا يحيّون النساء بتحيّة السلام، فبما أنّهنّ قد جُرِّدْنَ من الصلاة ليس لهنَّ حقٌّ بتحيّة السلام.

وساقتهم هذه الظاهرة إلى اعتبار النساء أدنى من الرجال، وعدم التكلّم أمامهنّ بأيّ كلمة تمتّ للدين بصلة. يضرب الرجل منهم امرأته أمام أعين الجميع ويهينُها، ولا يستحي بذلك بل يفتخر. وكان مَنْ لا يفعل هذه الأفعال بامرأته، يكاد يذوب خجلاً عندما يُعَيَّرُ بضعفه أمامها. كلّ هذه الأمور أخذها أجدادنا من غيرهم منذ مئات السنين حتى باتت تمثّل في أنفسهم ثقلاً من المستحيل زحزحته.

وعندما همّ مجيب أن يعطي حقّاً للنساء جوبِه من قبل الرجال مجابهةً شديدة، وأظنّه كفّ عن متابعة هذا الأمر ـ كما كان قد فعل سلمان أي حاول مباشرته ثمّ كفّ عنه أيضاً ـ رفقاً بجماعته، فقد يضيّعون الدعوة نفسها ويخسرون إيمانهم بالدعوة الجديدة إذا رأوا النساء تصلّي، فهذه خارقةٌ لا يجيزها العقل ولا يقبلها كما كانوا يتصوّرون. إنّ مجيب كان قد أعطى النساء ما أعطى غيرهنّ في جوهر الأمر، فهنَّ من مجرّد ترديد أشعاره فقد أقمن الصلاة لأنّ أشعاره كلّها تسبيحٌ خلّابٌ للّه ومحبّة خالصة به وفرحٌ بمعرفته وسردٌ للمعرفة الجديدة بالشكل الغنائي.

وكان قد أرسل المعلّم تحيّة السلام إلى النساء يوم الإضراب سنة ١٩٦١، يسلّم بها على نساء جماعته المرشديّين. ولكن لم يأخذ بها أحد من المرشديّين.

لقد أطلعني المعلّم على ما كان يجيش بنفسه من شعورٍ نحو المرشديات، فهنّ قد تملّكهن شعور محبة الدعوة وتحمّلن مع رجالهن كلّ أيّام العذاب والمرارة وللآن لم يأخذن نصيباً كاملاً من المعرفة الجديدة.

وفي سنة ١٩٧٢ أرسل المعلّم توجيهاً يقول فيه بوجوب إلقاء السلام على النساء. أمّا صدى هذا التوجيه في المرشديّين فقد تفاوتت سلبيّته بين قريةٍ وأخرى، وبين أناس وأناس أحدهم يستحي من هذا الأمر، أهو فلانٌ ابن فلان ذلك الرجل المعروف بتديّنه يسلّم على النساء !. إنّها لمهزلةٌ وأيّة مهزلة !. كما يقول له إدراكه الضعيف. وآخَرُ لا يجِدُ به كلّ هذا العار، فهو على استعداد أن يسلّم للإمام بكلّ ما يقوله حتى وإن لم يعجبه ذلك وإن لم يفهمه. وآخرون يتفهّمون قصد المعلّم ويوافقونه في قوله هذا، ولكنّهم يتمنّون أن يكون قد أجّلها أو ألغاها لما سيقوله جيرانهم عنهم، ولردّة الفعل السلبيّة التي قد تكون جبّارة في المرشديّين.

وكثيرون تطوّعوا لنصرة هذا الأمر، وفرحت به قلوبهم، وكانوا يتقصّدون إلقاء السلام على النساء أينما رأوهنّ، ولا يرون بذلك أيّ خزيٍ أو عيب.

أمّا النساء فقد تلقّين هذا الخبر بفرحٍ واغتباط، غير أنّ كثيراتٍ منهنّ كنّ يخجلنَ في ردّ السلام، فهنّ ما تعوّدن على هذا التوجيب والاحترام. فكانت المرأة منهنّ تستنفر عزيمتها كي تجيب الرجل سلاماً بسلام، أو تبتدئ هي بذلك. وعندما تردّ السلام تردّه بصوتٍ خافت لا يكاد يُسمع. وسرعان ما اعتدن عليه، وصرنَ لا يقبلنَ إلّا به رغماً عن الناس الذين كانوا مازالوا يعارضونه.

وقيل أنّ بعض النساء المسنّات كنّ يرجعن السلام إذا أُلقيَ عليهنّ بقولهنّ : (اللّه يعافيك) عندما يكنّ جالسات بين الآخَرين. أمّا كلمة (اللّه يعطيك أو يعطيكِ العافية) وجوابها (اللّه يعافيك أو يعافيكِ) فقد كانت تحيّة النساء قبل قبول المرشديّين بالسلام عليهنّ.

وبعض النساء كنّ يقلنَ للرجال : يبدو لنا أنّكم ما كنتم على حقّ في معاملتنا الأولى، ولسنا كما كنتم تزعمون.

أمّا النعوت السخيفة التي كانت تُطلق على النساء، فقد اختفت من المجتمع المرشدي تدريجيّاً بعد تحيّة السلام، وصار بعض النساء يمرُّ على جماعة من الرجال لتلقي الواحدة منهنّ سلامها على الرجال، متقصّداتٍ بذلك أنْ يُثِرنَ ارتباكهم ويجبرنهم على ردّ التحيّة بمثلها.

وكثيرون من الرجال كانوا يتقصّدون في بادئ الأمر أن يغيّروا وجهتهم إذا صادفوا امرأةً في الطريق، كي لا يلقوا عليها السلام، أو يرجعوا لها تحيّتها، وكان من الرجال من يعتكف في بيته عدّة أيّام كي لا يسلّم على النساء ولا يسلّمن عليه. وهنالك مَنْ يقول عندما

جاء التوجيه: (ونعم عمري مارايح برمي عليهون السلام). وبعض الناس هنا وهناك استمرّوا فترةً لا يلقون السلام على النساء، ومنهم من لم يلقِ السلام على النساء إلّا بعد أن سمعها من فم المعلّم مباشرةً. ثمّ اعتاد المرشديّون على تحيّة النساء بالسلام خلال مدّةٍ قد تصل إلى ثلاثة أشهر أو تزيد قليلاً.

إنّ الرسالة التي أرسلها المعلّم إلى النساء يوم الصيام والإضراب، قد أفادت المرشديّين كثيراً في تقبّلهم أمر التسليم على النساء، فقد تذكّرها كثير منهم، ورأوا حقانيّتها كيف كنّ يشاركنهم بالاضطهاد أيّام العذاب. وكيف أبى الإمام يوم الإضراب على المرشديّين أن لا يحترموا نساءهم، ورأوا أنّه حان لهم أن يتخلّصوا من رواسب الماضي.

وازداد احترام المرأة في المجتمع المرشديّ تبعاً لذلك، أو على الأقلّ خفّت الاستهانة بها في المجتمع. وأحسّت المرأة أنّها تساوت مع الرجل في أمر السلام على الأقلّ، وبدأت تتخلّص تدريجيّاً من شعورها بالنقص الذاتي، وبدأت تبني ثقتها بنفسها من جديد، وصارت هذه الثقة تزداد يوماً عن يوم.

تعليم النساء

أكمل المعلّم بعدها ما بدأه بالنسبة للنساء، فقد جعل لكلّ امرأةٍ وفتاة الحقّ في تعلّم الصلاة، هنا نرى أنّه صار يدرّج هذه المساواة الدينيّة بين الرجال والنساء سنة عن سنة حتى صارت المرأة المرشديّة متساوية في الدين مع الرجل بشكل كامل. وما أظهر الرجال حَنَقاً ولا غضباً على تعليم النساء، كما فعل بعضهم لدى تحيّة النساء بتحيّة السلام. وتعليل ذلك كما فهمت من المعلّم أنّ الإنسان إن كان قد اعتاد على عادةٍ معيّنةٍ ورضي بها، فهو لا يجيز تغييرها مطلقاً في بادئ الأمر. فإذا اضطرّ إلى إجازة تغيير شيءٍ منها، وإنْ كان جدّ بسيط، يسلّم بعدها بتغيير الكلّ. فقد سلّم أساساً على أنّ هذا الأمر قابلٌ للتغيير.

كانت هذه الخطوة رجعةً وعودةً إلى ما قال به القرآن (من مؤمنين ومؤمنات وقانتين وقانتات وصالحين وصالحات) وما إلى ذلك من أعراف. والمساواة في الدين بين المرأة والرجل تجدها في كلّ رسالات الإله.

ثياب النساء

مُذ كان المعلّم يسكن في بيت الحريري في دمشق سنة ١٩٦٦ تناهى إلى سمعه أنّ المرشديّين يعيبون اللباس الحديث على النساء، وأنّ المرأة التي ترتدي ثياباً (على الموضة) تلقى هي وزوجها توبيخاً عنيفاً، فأرسل لهم أن لا مانع عنده من اللّباس الحديث، وذلك

في حديثٍ له مع أتباعه. ولكنّ المتعنتين بهم ما قبلوا بهذا الأمر أبداً ولا المستلمون أيضاً. فهم وفق توجيهات أجدادهم لا يرونه مقبولاً فهو خروجٌ عن السَلَف. وذلك رغم أنّ نساء سلمان كنّ يلبَسن اللّباس الحديث في المدينة أمام أعين رجاله وأعين الآخرين، وكذلك مجيب ألبَس خطيبته اللّباس الحديث أيضاً، والمعلّم فعل هذا لامرأته ولأخواته الأربع. وكما قلت سابقاً كان الاقتداء بالمعلّم محظوراً من المستلمين وبقيّة رفاقهم، ومن باقي المتزمّتين في المرشديّين.

كان المعلّم في الستّينات بِمَعْزِلٍ عن أتباعه. فاقتاد المتعنتون والمتزمّتون الناس إلى أفكار أجدادهم، فالأفكار الجديدة التي نشأت عن المعرفة الجديدة لا يقبلها منطقهم وفهمهم الديني المتوارث من قديم الأيّام.

فحتّى سنة ١٩٧٣ كان مَنْ تلبَس امرأته اللّباس الحديث يستخفّ به المرشديّون، ويسمعونه كلماتٍ غير مُستحبّة ويستهينون به وبامرأته، ويكادون ينظرون إليهما على أنّهما شاذّان عن مجتمع المرشديّين.

وفي سنة ١٩٧٣ وبعد أن أصبح الأمر للإمام وحده بعد أن طرد المستلمين وأوصد الباب على المتزمّتين، فقد قام بإخبار أتباعه شخصيّاً أنّه لا مانع عنده من اللّباس الحديث، ولكنّه أوصى النساء أن يلبَسن بشكلٍ محتشم بعض الشيء. فلا يقصرن ثيابهنّ كثيراً، أو يُظهِرْن كثيراً من أجسادهن كبعض الموضات المُغالى بها فذلك أدعى لطهارتهن. وابتدأت بعض النساء يلبَسْنَ على الموضة هنا وهناك، وكنّ يَخَفْنَ من هذا قبلها.

أمّا ردّة الفعل في المرشديّين فما كانت من القوّة بحيث تُذكر، لأنّ لُبس الموضة جاء خيريّاً وطبيعيّاً. وقد جاء تدريجيّاً، فكلّ سنةٍ تزداد اللابسات على الموضة عدداً. وطبعاً انتشر في المدن بأكثر من سرعة انتشاره في بقيّة القرى. وتختلف به عائلةٌ عن أخرى ومجتمعٌ مرشديّ عن آخر. ولكن بات لا يُحارَب من قِبَلِ المرشديّين، فكلٌ على خيرته وهذا هو المهمّ.

رجوع الرابع

بدأ المرشديّون يمارسون هذه الحريّات رويداً رويداً، ويعتادون عليها تدريجيّاً، فأصبح كثيرٌ منهم يحضر (الرابع) الذي كان يُقام سابقاً في قرية الخطيب في الغاب وفي منطقة صلنفة وفي قرية مريمين في منطقة مصياف. والرابع عبارة عن تقليدٍ شعبيّ متوارث من أجيالٍ وأجيال، يُحيي به الناس أفراحاً لدى قدوم الربيع من كلّ عام. وأنت تجده عند كلّ الشعوب إنْ قرأت تواريخ العالم.

كان هذا الرابع قد هُجِر كلّيّاً من المرشديّين. كان بعض الشبّان الذين يذهبون إليه يُلاقون تعنيفاً من قبل مجتمعهم المتزمّت، وكانوا قد سألوا مجيب عنه منذ دعوته، ويحفظون أنّه ما مانعهم بإقامة الأفراح به، ولكنّه أوصاهم أن لا يفرحوا به شدّة الفرح. وأفْهَمُ هذا أنّ شدّة فرح المؤمن تتمثّل بخلاصه ومنجاته واجتبائه إلى الملكوت فقط، أمّا الأفراح الدنيويّة فهي مؤقّتة. وسعة هذه الدنيا تكاد لا تمثّل شيئاً من سعة الحياة الخالدة التي أرادها الله للأخيار قاطبةً، أمّا أفراحهم الدنيويّة فلا ضير فيها ولا غبار عليها إنْ لم تُضاهي بنفس صاحبها فرحتَه بخلاصه. واستذكر بعض المرشديّين قول مجيب في الزمن الذي أكتب عنه، وأفهمهم المعلّم حقيقة هذا الأمر. ومن الغريب جدّاً أنّهم بعد سماعهم من مجيب ما قاله عن الرابع، أن يلتزموا بعدها بأقوالٍ مضادّة لأقواله، أوجدها المتطفّلون على الدعوة المرشديّة !.

السينما والتلفاز غير محرّمين

وأفهم المعلّم المرشديّين بواسطة توجيهاته المرسَلة إليهم أنّ الذهاب إلى السينما ومشاهدة التلفاز ليسا محرّمَين كما كان يعتقد بعضهم، ولكنّه نصحهم أن لا يشاهدوا فيلماً يحتوي على الفحش والخنا، فهذه بطبيعة الحال غير متوائمة مع نصيحة مجيب القائلة بوجوب الابتعاد عن الفحشاء والخنا.

ومجيب أعطى نصائح لمن أحبّ اتّباعها تقوّم سيرة المرء ويصفو بها فؤاده لخالقه وللناس أجمعين. ويتخلّص بها من عقدة الضغائن والحسد وكلّ مجالات الأنانية الهادمة للنفس وللمجتمع.

الانفتاح على الجوار

وأدّى تسيير المعلّم، بعد أن استطاع الخروج إلى جماعته ومعاينة أفكارهم وما يجري عندهم، إلى تغييرٍ جذري بطريقة حياة المرشدي، ومن مظاهره أنّ المرشديّين بدؤوا يتزاورون مع جيرانهم ويتعاملون معهم. وكان هذا الأمر محظوراً قبلها من قِبَل المتعصّبين تعصّباً سلبيّاً. فهؤلاء أرادوا للمرشدي أن لا يختلط بأحد. يمثّل فعلهم هذا فعل الطغاة ممّن يستبدّون بشعوبهم، لا يريدون لهم أن يختلطوا بأناسٍ خارج نطاق سيطرتهم، ويضربون حولهم ستاراً من حديد وذلك كي لا تتناقل شعوبهم أفكار الحرّيّة الآتية من بعيد، وصاحب الحقيقة لا يخجل منها بل يباهي بها.

(وبذلك أصبح المجتمع المرشدي تتغيّر معالمه وعاداته، وبدأ يولد من جديد).

الندوات

كان على المعلّم بإقامة المجتمع الجديد أن يهدم الأفكار القديمة ويبني أفكاراً جديدة. ويكرّس الأفكار الجديدة في عقول الناس الذين قبلوا بإماميّه أي المرشديّين، ورأى أن يقيم ندواتٍ علنيّة لهم تدرسُ الفهم الجديد أي المرشديّة ويرعاها هو شخصيّاً. فأرسل توجيهاً إليهم يخبرهم به برغبته بإقامة ندوات مفتوحة بينهم، وأنْ ينتسب للندوة مَنْ أحبَ الانتساب. وكانت هنالك شروطٌ للانتساب وهي أن يكون المنتسب عنده إلمام بالمعرفة الجديدة.

وكان المعلّم هو الذي يؤسّس الندوة في بدايتها. أي إذا أحبّت جماعةٌ من الناس إقامة ندوة يتقدّمون بطلبٍ إليه، فيجتمع بهم ويعلّمهم قوانين الندوة، ويعلّمهم كيف يتناقشون، ويدير الجلسة الأولى بنفسه.

وتقدّم كثيرون من كلّ قريةٍ أو محلّة في طلب إقامة ندوةٍ لهم. وابتدأ المعلّم يؤسّس ندواتٍ في كلّ أنحاء المرشديّين.

يروي البعض : كان المعلّم يثني على المفهوم الصحيح، ويصحّح للندوة المفهوم الخاطئ. وأحياناً تكون أقوال الندوة غير معبّرة عن فهم كامل، فيناقشهم عن قصدهم في الكتابة. ويستمرّ النقاش طويلاً، ويتقدّم بهم خطوةً خطوةً نحو المفهوم الصحيح، وكان يوجّههم إلى المبادرة الفرديّة.

ويروي آخرون : كان المعلّم ينبّه أعضاء الندوة إلى ضرورة إدراك الكلمات وليس التلفّظ بها فقط كما يفعل كثير من الناس، ويزرع فيهم وجدان: «لا تسلّم بالمعرفة إلّا عن فهم». وكان أحياناً يشرح جملةً في المعرفة، ثمّ يطلب منهم إعادة شرح الجملة نفسها كما فهموها واستوعبوها من كلامه، وذلك كي يرى إن كانوا قد فهموا قصده تماماً. وكانوا يخطئون كثيراً في مناقشاتهم، ويخشون من هذا الأمر، ولكنّ المعلّم كان يهيب بهم أن لا يبالوا بالخطأ، ويقول لهم بمعنى: تكلّموا واغلطوا، فالمهمّ أن تقولوا ما بأفكاركم فإنْ كان صحيحاً أثبته لكم، وإن كان خطأً نزعته من أفكاركم.

يقول بعضهم : كان يتخلّل جوّ الندوة مع المعلّم مِزاحُهُ ومَزَحُه المعهودان، فيخفّف الرَّوْحُ من جوّ الجدّيّة المهيب.

ردود الفعل في المجتمع المرشدي

تقبّل أفراد المجتمع المرشدي فكرة الندوات بشغف، وانجذبوا إليها أيّ انجذاب، كنتَ ترى عشراتٍ وعشرات، رجالاً ونساءً يجتمعون حول المتناقشين، وأحياناً يغصّ بهم البيت فيقفون على الأبواب والشبابيك، ويستمعون إلى هذه المناقشات الحرّة، وإلى عرض الأفكار بهذه الجرأة غير المعتادة.

أحدثت الندوات أثراً جبّاراً في مجتمعهم، وتغيّر بها المفهوم الأوّل عن إيثاريّة الدين. فالناس العاديّون هم الذين يناقشون أمور المعرفة وليس فقط نقلاً عن الأفواه. الشهوات الروحيّة هي بالتفهّم الصحيح للسيرة الصالحة، وهي الأفكار المنبثقة عن جريان الحكمة الإلهيّة في العالمين، فهي ليست كلمات سحريّة عليك ترديدها لتشفيك من الأمراض، أو أوهاماً أو أساطير. الدين بمعنى رسالة الله هو معرفة الخالق، وتفهّم حكمته في الحياة للناس عامّةً.

دعا المعلّم الفكر الإنساني كي يدخل إلى مجمعه الروحي، وافتتح للشهوات الروحيّة ميدان صراعٍ فكري مع الشهوات الجسديّة والنفسيّة بحكم المباراةَ العقلُ ويقيّمُها المنطق.

بات الإنسان يتعرّف على الخطأ الذي في نفسه عندما يرى هذا الخطأ نفسه لدى غيره. انكشف أمام المرشديّ كثيرٌ من الظنون والأوهام الباطلة، فبانت على حقيقتها عاريةً أمام الصواب، وتقلّصت قوّتها في النفس تقلّصاً ملحوظاً.

اجتماعات الرجال والنساء حول أعضاء الندوة في كلّ محلّةٍ وقرية، واستماعهم إلى أعضاء الندوة يتناقشون في المعرفة وفي الصواب وفي أمور الحياة، أوحت لهم أنّهم عليهم هم أن يدركوا أيضاً.

رسالة مجيب معرفةٌ خالصة، غير متعاطفة مع العواطف الإنسانيّة، بل هي الحقيقة المجرّدة فإنْ عرفتَ فأنت مَنْ تأمر نفسك، أي أنت تقوم لنفسك للعمل الصالح بعد أن تتبيّنه وتدركه وتفقهه، ولن تجد من يقوّمك غصباً عنك، أنت تملي على نفسك الإرادة - إرادة الحياة الخالدة - وهي لا تُملى عليك بل يومئ الخالق إليها في رسالات الأنبياء فإن أردتها سعيت إليها، أنت الذي تختار اللذائذ الروحيّة وهي لا تُفرض عليك، أنت الذي تمتنع عن الإكثار من الشهوات الأرضيّة وتأخذ طريق الاعتدال، وليس هنالك من يمنعها عنك. ذلك هو الطهر الذي عرّفنا به مجيب وشرحه المعلّم. ولا يسير في طريق الصفاء إلّا مَنْ أراده، وما تتأتّى الإرادة إلّا من المعرفة، ولا تزهو المعرفة إلّا لمن اختارها. فالمعرفة المعرفة وبغيرها لا يُرجى من صلاح.

وكنتيجةٍ لإقامة الندوات أصبح لكثيرٍ من المشتركين بالندوات مفهومٌ خاصّ بالمعرفة الجديدة، ولو كان لا يمثّل إلّا نسبةً لا تكاد تُذكر من حجم المعرفة المعطاة لهم، فهو يبقى (مفهوم) على أقلّ تقدير، وهو خاصّ بصاحبه يعتمد عليه أثناء مقارنة الأمور ومناقشتها. واعتاد المرشدي أن يتساءل عن كلّ أمر، وتقلّصت حدود الاستجابة بلا معرفة فانحسر الانقياد الأعمى ولو قليلاً، واتّسعت حدود طلب المعرفة، وحتى المرأة المبتدئة بالمعرفة آنذاك، أصبحت لا تتحرّج من سؤالٍ عن أمرٍ تراه عسير الفهم عليها من الأمور التي تحدث في المجتمع.

لزوم الاقتناع بات من صفات المرشديّين، وما كان قائماً قبل الندوات وإنْ لم تُعطِهِم الندوات إلّا هذه الصفة فكفاها فخراً بما أعطته.

وتوالت الندوات، ندوةٌ تقام هنا، وندوةٌ تقام هناك، والمعلّم يُشرِف على إقامتها جميعها شخصيّاً، ويرعاها بعد ذلك، يناقش مع أعضائها أفكارَهم. أسفارٌ متلاحقةٌ مضنية، أحياناً يتعرّض بها للبرد ولجلسات الحشد الكبير. وقد تطول الجلسة الواحدة أكثر من الوقت المحدّد ـ لأنّها قد تكون لعدّة ندوات أحياناً وليس لواحدة فقط ـ وهو يناقش الأفكار ويضرب الأمثال مرسّخاً الأفكار الجديدة، ونابشاً الأفكار القديمة من الرؤوس.

لمحة عن التعليم في الندوات

يقول المعلّم عن الزواج أنّه من الأفضل أن يكون هنالك نوعٌ من التقابل العقلي والتلاقي القلبي. وأفهمُ التقابل العقلي بالمستوى الثقافي والإدراك العامّ، وأفهمُ التلاقي القلبي بالأذواق، أي أنْ يتلاقى المقترنان بذوقيهما في طريقة الحياة التي يرغب بها كلاهما. فإنْ توفّر هذان الشرطان يقول المعلّم: «فإنّ الألفة والمحبّة والمودّة تتمكّن وتزداد بعد الزواج».

ومن الحكمة أن نفهم شيئاً من التدبير الحكيم الذي قضت به حكمة الخالق وجوب الزواج، فالزواج هو الذي يمنع انسياق الإنسان في الفحشاء والخنا، وبذلك يحدّ من تطوّرات الشهوات الجسديّة المتسبّبة بشرور كثيرة من جهة ولا يمنع إكمال النسل من جهة أخرى، كما أنّه يخلق العائلة التي يتواجد بها الحبّ والأُلفة. وتظهر جرأة المعلّم المعتادة منه بقوله: «من الخير الطلاق عند حالات الخيانة وسوء العشرة» ففي هذه الحالة تنتفي إيجابيّات الزواج من كونه كمال طهارة، ومن كونه مبعث أُلفة وحبّ.

وكان يعلّم أتباعه حسن الجوار ويصف حالاته وأنّه من حسن الجوار تفقّد عائلة الغائب وتقديم المساعدة بما تكون محتاجة إليه.

ودعا المعلّم إلى التشاور، وأكّد أنّه يوثّق روابط الزمالة والأخوّة. وإذا جاءت المشورة بأمانةٍ وإخلاص فهي مكرمة وهي من جمال الصفّ. وإنّ التدخّل في الخصوصيّات عادة سيّئة.

وتكلّم عن تشييد المقابر فقال: «إنّ عادة تعمير القبور وتشييد الأضرحة عادة غير مستحبّة». وبذلك خلق المعلّم بمتّبعيه طيبةً جديدة تقي الإنسان من المظاهر الخدّاعة ومن الأوهام غير الصحيحة فمن مات فقد مات سواء عمّروا له أضخم القبور أم لم يعمّروا له قبراً ولا يُرجى ملتقاه إلّا في الآخرة.

وتحدّث عن الغيرة للحقّ تلك النار المقدّسة، وهاجم التعصّب إن لم يكن تحزّباً للحقّ واعتبره مرذولاً أيّاً كان نوعه. فالتحزّب أو التعصّب الصحيح هو: «أن تصفّ مع الحقّ إن كان لك أو عليك، مع أو على مَن تحبّ، مع أو على مَن تكره».

أفهمنا المعلّم أنّ الحكمة تقضي أن تتحزّب للحق، لا لتنصر اللّه بل لتنصر نفسك برحمته.

وعن التربية أقوالٌ كثيرة كان يقولها المعلّم في الندوات، أذكر الآن قوله لأتباعه كي لا يحاولوا غرسَ أو سكْبَ أنفسهم في أولادهم بل أن يعطوهم من أنفسهم قدوةً صالحةً وتوجيهاً حكيماً. وقال المعلّم: «إنّ تربية الأولاد على الهدى عملٌ يتقبّله اللّه برحمته».

أن تعطي من نفسك قدوة لأولادك بأعمال أنت على يقين من صحّتها كممارسة الصلاة فالأولاد عندما يرون والديهم يصلّيان تبعث بهم همّة ورغبة بالصلاة، أمّا إذا نالوا الضرب والإهانة لأنهم لا يصلّون فإن هذا الأمر يبعث بهم مقتاً للصلاة التي يعانون لأجلها، وكذلك عندما يلاحظ الأبناء صدق والديهم وابتعادهما عن الكذب فهم يتبعونهما بذاك أكثر بكثير من مجرّد أمر الوالدين لأبنائهما بالصدق وهكذا الأمانة والعفّة وطيبة المعاملة إلى ما هنالك من أفعال الفضيلة.

وكان دائماً يهيب بالوالدين ألاّ يكذبا على أولادهما، فهما بهذا يعلّمانهم الكذب. فالأحرى بهما أن يعلّماهم الصدق لا الكذب، وهما لو صدقا بأقوالهما لأولادهما لاحترمهما وأحبّهما الأولاد أكثر، ولكان جوّ العائلة مميّزاً بالصفاء من حيث التعامل بين أفراد العائلة، وألاحظ أنّ هذه النقطة، نقطة صدق الوالدين مع أولادهما كان يركّز عليها المعلّم في التربية تركيزاً قويّاً، وكثيراً ما كان يقول بمعنى: (إن وعدتَ ابنك وعداً، أوفِ بوعدك له).

وكان يعلّم أن لا كرامة إلّا بالأعمال، وأنّ الشرف ليس في الجاه والمنصب، بل: «الشريف هو المُبرّأ من عيب ونقيصة، المُزكّى بفضيلة». أمّا شرف الأصل والمعنويّة فهو بما

ارتسم في الوجدان من صورة الخالق، أفهمها أي بطهر الصورة التي يتصوّر بها الإنسان خالقه وصفاتها. وشرف الشخصيّة بعملك لنفسك بما وجّه الخالق. فالشرف بالإيمان بالله وما دليله إلّا الأعمال الصالحة، وهو ليس بجاه دنيوي فارغ أي مؤقّت زائل، أو أي وضع عظيم بهذه الدنيا فما هذا إلّا حطام في حطام.

ما رأى المعلّم أنّ اليسر هو شرٌّ أو خيرٌ بحدّ ذاته، بل يقول: «يكون اليسر خيراً إذا دفع صاحبه للتعلّق بحمد الله، وعكس له الاطمئنان بعونه تعالى». وهو شرٌّ: «إذا ملأ نفس صاحبه طرباً، وعكس عليه حسّ المهارة بنفسه حتى أنساه وأفقده حسّ الاعتماد على خالقه». وكذلك العسر ليس شرّاً بحدّ ذاته أو خيراً ويكون شرّاً، يقول المعلّم: «إذا أكرب نفس المعسور وملأها بالقتم حتى أقنطه من رَوْح الله (أي من فرج الله) أو دفعه للتفوّه بكلمات كفر أو إذا جعله يتّهم ربّه بقضائه» ويكون خيراً إذا استطاع المعسور أن يحافظ على كرامة ضميره وطهارته. أي لا يملي عليك العسر شعوراً بالمذلّة والمهانة والشعور بالحاجة فتضحّي بأخلاقك لنيل حاجتك.

وخلاصة القول كما قال المعلّم: «المهمّ أن لا يخرجك العسر ولا اليسر عن الأخلاق، بل يزيدانك أخلاقاً». العسر واليسر ليسا خيراً أو شرّاً بحدّ ذاتهما، بل قد يكونان خيراً أو شرّاً وفقاً لما يمليانه عليك من شعور.

وكذلك في النكبة، فهي قد تخلق في صاحبها نوعاً من العزاء الروحاني، وذلك إذا شكا صاحب النكبة أمره إلى الخالق. يقول المعلّم : «وليس من الحكمة أن يمنع الله وقوع النكبات الدنيويّة على المؤمنين، بل الحكمة أن يبتليهم بشيءٍ منها لأنّ المؤمن لا تهدّه النكبة بل تُجلي عَظَمَته».

مَنْ فقد ضميره نُكِبَ حقّاً، فقد فَقَدَ إنسانيّته لأنّ الإنسان بضميره.

وقال المعلّم عن الفقر والغنى: «لا الفقر معرّة، ولا الغنى مفخرة». وقال: «فليس على الفقير أن يتمسّك بفقره، بل الأفضل أن يتّكل على الرازق ويسعى لتفريج فقره. وليس للغني أن يتباهى بماله، أو أن يشعر بأثْرة نفسه على سواه» والمعلّم لا يرى أنّ الفقر طريقٌ للجنّة، ولا يرى أنّ الغنى مبعدةٌ عنها، بل الأمر تبعاً لشعور الإنسان وإيمانه. ويكمن خطرهما أنّ الأوّل قد تعمي الحسرةُ صاحبه عن التطلّع إلى الآخرة، وأنّ الثاني قد يملي على صاحبه شعور الاكتفاء بالدنيا بحيث يفقده حِسّ الرجاء بالآخرة. وقد جاء قوله هكذا: «لا الفقر مقربة من الجنة ولا الغنى مبعدة عنها، بل الأمر تبعاً لشعور الإنسان وإيمانه».

وأقتطف كلمةً له بهذا الخصوص أراها تصوّر حالة مَنْ لا يريد إلّا دنياه، وحالة مَنْ

شعر بصدق الخالق ويريد الآخرة، والكلمة هي: «العاقل مَن خاف البقاء في الدنيا ورجا الانتقال إلى الآخرة، لا مَنْ يخاف الآخرة ويرجو البقاء في الدنيا».

وهنالك مقطوعةٌ من أقواله اتخذت طابع النذر، لا أرى نَذْراً للسلوك العائلي الصحيح خيراً منها لما بها من تفاصيل، ولأنها مبسّطةٌ للفهم بشكلٍ لا تصعُب على أيّ كائنٍ كان، وهي التي يقول بها أنّ «زوجتك ليست أَمَتَك (عَبْدَتَك) ولا أنت مولاها، وليست سيّدتك ولا أنت خادمها. هي زوجتك وأمّ أولادك جسديّاً، أختك دينيّاً، ورفيقة دربك مصيريّاً. هي زوجتك، أختك، رفيقتك، عامِلْها على هذا الأساس. لها عليك حقّ المودّة والاعتبار وحسن المعاشرة إذا كانت وفيّة لك طيّبة العشرة معك».

ويخاطب الزوجة بما خاطب به الزوج: «زوجك ليس خادمك ولا أنتِ سيّدته. هو زوجك أبو أولادك جسديّاً، أخوك دينيّاً، ورفيق دربك مصيريّاً. له عليكِ حقّ المودّة والوفاء والاحترام إن كان طيّب الأخلاق معك».

ثمّ يخاطب الأب قائلاً: «ابنك، ابنتك، ليس عَبْدك ولا مِلْكك، هو عبد الله ومِلْك ربّه. ابنك جسديّاً، أخوك دينيّاً، رفيقك مصيريّاً. وعليك واجب رعايته وحسن تربيته حتى يبلغ رشده، كذلك فلتنظر الأمّ إلى أبنائها».

ثمّ يخاطب الأبناء بقوله: «بالنسبة للأبناء، أبوك ليس سخرياً لك وليس لك عليه حقّ الفناء لأجلك. هو أبوك جسديّاً، أخوك الأقدم منك دينيّاً، ورفيق دربك مصيريّاً. وله عليك حقّ البرّ (الوفاء) والاحترام بما رعاك من أبوّته جسديّاً، وبما أوصل لك من أمانة كلمة المنجاة روحيّاً[1]. وكذلك حقّ والدتك عليك. ولكن هذه النظرة هي السائدة لا في بيوتكم فحسب، بل وفي أوساطكم».

---

(١) أفهمها أي بما أوصل لك من دين.

نظرة إلى الحكمة الإلهيّة في منطلق الحياة الأبديّة

أمّا بشأن النظرة إلى الحكمة الإلهيّة في منطلق الحياة فقد كان للمعلّم بها حديثٌ آخر، وسأكتفي هنا ببعض الجمل أحاول بها أنْ أعطي مفهوماً ملخّصاً عن هذه النظرة التي كان يعلّمها في الندوات.

يحدّثنا في هذه الأقوال عن الصبوة إلى الحياة أنْ بها أكمل اللّه نعمته على الإنسان. أفهمها هنا أي ما ورد من وصفٍ للحياة الآخرة (الجنان) في رسالات اللّه. يقول المعلّم: «وقد أحسنت حكمة اللّه صنعاً عندما صوّرت للإنسان هذه الحياة على قدر استيعابه، ويسّرتها له على قدر مناله. وبذلك قوّمته بوجدان أسمى ممّا هو فيه من ذات، وروّضته بأعمال أرفع ممّا هو فيه من حال. فأهّلت بذلك (مَن أراد) للحياة تأهيلاً، وجعلت من الإنسانِ كائناً متأهِلاً للحياة، ومتأهِلاً لها في نورانيّتها». أي ليس من الحكمة أن تُعطى الحياة لِمن لا يريد نفسه، فقد سلّفنا اللّه الحياة الدنيويّة ودعانا إلى الحياة الحقيقيّة، فمن صبا لها وعمل لأجلها، أي استقام بأعمال الخير والحكمة، أصبح مؤهَّلاً للحياة الخالدة.

وإليك الآن بعض الكلمات التي اقتطفتها من هذه الأقوال، لا لأنّها خير من غيرها بل لأنّني فقط وجدت بنفسي رغبة أن أكتب عنها أو أن أشير إليها على الأقلّ.

صوّر المعلّم بقوله كيف أنّ اللّه أعطى كلّ حيٍّ القدرة على التلاؤم مع محيطه وبيئته وأعطاه دافعاً نفسيّاً فأصبح يعمل كي يبقى. وإليك كلمة له تُلخّص كلّ هذه المعاني التي طالما تحدّث عنها الإنسان، وهي: «لم يخلق اللّه شيئاً حيّاً إلّا وجعل بهذا الشيء القدرة على الحياة بالمكان والعالم الذي خلقه فيه، وكذلك أعطاه الدافع على المكافحة للحياة من شعوره بنفسه».

«اللّه ليس حبيس كبرياء، بل الكبرياء جنّة عباده».

«الخير بعد الفضيلة. الذي كوّن الفضيلة بنفسه أثناء عمره فهذا قد عمل شيئاً، وغير ذلك وهمٌ وغرور».

وإلى الذين يقولون أنّ الإيمان لا يأتي من الفَهْم والعقل والإدراك بل هو إيمانٌ مجرّدٌ هكذا. بدون فهم أو إدراك. إلى كلّ أولئك أقول كلمة المعلّم: «التسليم بالشيء قبل الفهم يمنع الإيمان». ويقول آخَر له: «إذا سبق التسليم الفهم فقد امتنع الإيمان، أمّا إذا سبق الفهم التسليم فقد صحّ الإيمان وانوجدت العزيمة».

وإليك كيف يصوّر المعلّم الحكمة في خلق الحياة الدنيا، وكيف جعلها ميدان استحقاق الحياة الخالدة، وذلك بقولٍ لطيفٍ رقيقٍ في المعنى والمبنى، وهو : «حجب اللّه الحياة عن العيون بحياة» فلا سبيل إليها إلا بالإيمان باللّه وطاعته والتصديق بوعده في الآخرة.

إنّ بقاء كلّ أمرٍ هو في حكمة جريانه، فالدولة التي يتصرّف ساستُها بحكمةٍ ودرايةٍ تكون مؤهّلة للبقاء أكثر. وامتلاك القدرة يعرّض الإنسان للفناء إذا لم يتصرّف وفق الحكمة. فمَدى كمال الحكمة في كلّ أمر يحدّد إمكانيّة بقاء هذا الأمر. أمّا حكمة اللّه فمدى كمالها لا يمثّله إلّا الأبديّة الخالدة، وعن هذا يقول المعلّم : «الحكمة تقضي البقاء، إذاً فإدراك الحكمة والعمل بها هو سبيلٌ إلى الخلود» فأنت عندما تبدأ بإدراك الحكمة وتعمل بمقتضى ما أدركت منها فقد سلكت طريقاً أبديّاً.

وإلى الذين يتساءلون قائلين بحيرة : لماذا يختار اللّه هذا الإنسان إلى الحياة ويترك ذاك ؟.. أوَلا يستطيع وهو القادر على كلّ شيء أن يجعل الإنسان يعمل خيراً، وبذلك يرتفع الناس جميعاً إلى حياة الخلود، فإن كان اللّه يعلم أو بقدرته أن يفعل هذا فلِمَ لا يفعله؟. وما جريمة هذا الإنسان المنسوق من الحياة والمُبعد عنها؟. إلى أولئك أقول كلمة المعلّم : «الإنسان يشعر بنفسه ويَعي، لذلك هو قادرٌ على الإرادة». أي خلقنا اللّه أحراراً أصحابَ إرادة، والحياة الحقيقيّة لا تحقّ إلّا لمن أراد نفسه وعمل لها، واللّه لا يجبر أحداً على اتّباع أمره بل للإنسان الحقّ أن يطيع أمر اللّه، وبقناعته وتفهّمه لحكمة الخالق يتّبع أقواله، والحياة الأبديّة لا تكون إلّا بمساق إمْرة اللّه. فاللّه قائد من يتّبع هدايته في الطريق الأبدي. وإن كان كلّ شيء مقدّراً على الإنسان فهو ليس حيّاً بل هو آلة صمّاء فاقدة الإرادة.

وإلى الذين يقولون بالتقتير على النفس بكلّ شيء ويَدعون إلى التقشّف وإلى الرهبنة، إلى هؤلاء الذين يقولون بإقسار النفس قسراً على الزهد، أقول كلمة المعلّم : «الزهد عوفٌ نفسيّ لا كبتٌ جسديّ» فالزهد الصحيح هو زهدٌ متأتٍّ عن إدراكٍ وعن اقتناعٍ بتفاهة الأمر المزهود به، وليس في إجبار النفس وإقسارها.

وإلى الذين يحاولون أن يبرّروا الذنوب بقولهم أنّ اللّه أوجد الذنب كي يمارِس الغفران، فهم يذنبون كي يتركوا للّه مجالاً أن يمارس غفرانه. إذ كيف يمارس اللّه غفرانه إنْ لم يكن هناك مذنبون؟. إلى كلّ أصحاب هذه العقول أقول كلمة المعلّم : «الذنب مدعاة قصاص وليس مدعاة غفران».

وأخيراً أقتطف كلمة للإمام قالها في السبعينات تصوّر كيف تكون النهاية:

«قالت الحكمة وقد استلقت على كرسيّها بعد أن أنجزت دور النهاية الأخير:

الآن يا أرواح الطهر اخرجي إلى عالمك وادخلي الأبديّة، فقد علّمتُك الغاية وأتيتك مِن الطهر الكفاية، وأصبحْتِ قادرةً على الحياة. ويا أرواح الشرّ بيدي، وإلى اللاشيء عودي، فلم يعُد لكِ مبرّر في الحياة».

لفت نظر: المعلّم هنا لم يذكر البشر لأنّ البشر الأخيار في النهاية يكونون أرواحاً وليس بشراً فلم يبقَ إنسان إلّا الإنسان الروحاني.

صفاتٌ عرفتها عنه

لا يمكن لمرافقه من معرفةِ ما يجول بنفسه، فالمبادرات التي تأتي منه دائماً محيِّرة، وهي تأتي كأفكارٍ جديدة لم تكن تظنّ أنه سوف يطرحها. كلّ أعماله تأخذ هذا الطابع. فأنت تظنّ مثلاً أنّه ينوي أن يفعل كذا وكذا أو يريد كذا وكذا فيفاجئك بإرادةٍ أو بنيّةٍ بعيدةٍ عمّا كنت تتوهّم به، لذلك فأنت لا تستطيع متابعته، ولكنّك تستطيع اتّباعه، أي أنّك لا تستطيع أن تستجلي هذه الأعمال التي يستجليها هو من الخير والهدى، ولكنّك تستطيع أن تتّبع ما يستجليه من أعمال. أمّا في تصرّفاته فتراه يتصرّف دائماً وَفْقَ حكمةٍ من الصعب إدراكها ومن السهل ملاحظتها، أي أنّ تصرّفاته تجعلك تشعر أنّ هنالك خطّاً مستقيماً متكاملاً في كلّ أعماله، ولكنّك لا تدرك ماهيّة هذا الخطّ، حتى ينبئك بشيءٍ من مراده به، فتعلم أنّه تقدير صائب، وتستجلي بعض أرواح الحكمة منه.

يفرح لأعمال الخير إن بدت من سواه إلى درجة المغالاة فهو يريد الناس أن يعملوا في الصواب، وتظنّ أحياناً أنّه يوهم نفسه ببعض أعمال يقوم بها أحد ما من التي قد يكون بها بعض الصواب أو بعض الخير أنّها أعمالٌ خيّرة نقيّة، متغافلاً قصداً عمّا قد يكون بها من نوايا غير صالحة. وقد يغيّر الإنسان صاحب هذه الأعمال شيئاً من نواياه عندما يجده يفسّر أعماله على أساس النيّة السليمة، منبهاً هذا الإنسان أنّه يستطيع أن يقلب فعله خيراً.

يرتاح الإنسان لشعوره أنّ ساجي راضٍ عنه، ويطرب قلب المؤمن بهذا الشعور.

يصدق بوعده إذا وعدك بأمرٍ ما صدقاً محيِّراً، فقد تكون أنت نفسك نسيت هذا الوعد.

يرتاح ضمير الإنسان عندما يكون جالساً عنده، ويشعر الإنسان بالاطمئنان إليه.

دائم الحيويّة أثناء الحديث، سهل الأخذ والعطاء إلّا أنّ البعض تعوّدوا السكوت في حضرته، ونقلوا هذه العادة إلى غيرهم، فتعطي هذه السكتة مهابةً غير متقصّدة في الجلسة العاديّة، وكان يتمنّى من الجميع مفاتحته الحديث. ولكن بقي كثيرٌ منهم لا يفاتحونه الحديث وينتظرونه حتى يفاتحهم.

أنت إذ تجالسه وتتحدّث معه تشعر أنّ لك قيمةً في الناس لم تعرفها بنفسك قبل هذا، ولكنّك لا تشعر بها إلّا عندما تكون عنده، مع أنّه لا ينوّه بقيمتك أو بمكانتك في المجتمع، وكأنّ هذا الشعور يحصل مع مُجالِسه تلقائيّاً، ولم أستطع أن أجد سبباً مقنعاً له.

عندما يتحدّث إلى مستمعيه ويكون هنالك جمعٌ غفيرٌ منهم كلٌ يظنّ أنّه يتحدّث عنه هو بشكلٍ خاصّ وعن مشاكله، ويمدّ له يد العون بواسطة هذا الحديث لحلّها، ولا أظنّ أنّ أحداً جالسه إلّا وشعر أنّه يجلس بحضرة مَنْ يتفوّق عليه بالمعرفة، ويشعر المجالس أنّ المعرفة نفسها أوسع وأعلى ممّا كان يظنّها، ولا يظهر هذا العلوّ بالمعرفة وهذا الوسع إلّا إذا كنت تستمع إليه، وقد تفارقك هذه النظرة عندما لا تكون تجالسه ثمّ تعود إلى الظهور من جديد لدى حديثك معه ثانيةً.

فرحته بالربّ خلّاقة، فهي تعمّ منه على غيره من الحاضرين وذلك في جلسات الحبور أثناء التعليم أو الاستذكار، وتظهر هذه الفرحة اللامتناهية في أشعاره ظهوراً كاملاً.

لا يضمر إلّا الخير ولأيّ كان، تعلم ذلك من أفعاله ولا يصارح بهذا إلّا عند وجوب بيان الحقّ، ولا يضمر شراً لأحد من العالمين أكان مؤمناً باللّه أم كافراً.

ودودٌ والودّ من طبيعته، وشفوقٌ جدّاً يتحدّث عن آلام الناس وعن أمراضهم فتحسّ بقيمة هذه الأمراض وهذه الأوجاع، فتصبح أنت نفسك تتحدّث هكذا أو بشكلٍ يقارب ما تسمعه منه وذلك دون أن تملي على نفسك هذا الشعور، وهذا لا يحدث مع كلّ مجالسيه بنفس الدرجة من الشدّة طبعاً.

أمّا بالنسبة لمعاملته مع المسؤولين ـ أي الحكّام ـ فهو لم يستدرّ عطفَ أيّ مسؤولٍ كان في الدولة مهما علَت منزلته لا في سورية ولا في لبنان ولا في غيره، وكان يكره من أتباعه ضعفهم في هذا الأمر ويمقته، لا يطلب من المسؤولين إلّا إذا كان مطلباً وليس طلباً ـ مطلباً أي يشعرهم بحقّانيّة هذا الأمر فهو يطالبهم به ولا يطلبه منهم ـ وإن طلب منه أحدهم طلباً لا يريد تلبيته لا يعده به، بل يجعله يشعر بصورةٍ لطيفةٍ منذ إبداء الطلب باستحالة تلبيته. ولهذا كان يعامله هؤلاء الجبابرة معاملة الندّ للندّ، يكاد ينسيهم موقفه منهم سلطتهم وقوّتهم العسكريّة. ومن هؤلاء الجبابرة طائفةٌ لا يرضى أحدها أن يجالس إلّا مَن يخضع له، أو يشعره بسموّه ورفعته، أمثال هؤلاء لم يكونوا يرغبون بتكرار اللقاء مع المعلّم بعد اللقاء الأوّل، لعلمهم أنّه لن يعاملهم كما يرغبون.

لمحة عن قراءاته

كادت القراءة أن تكون مادّة قتل الوقت الوحيدة بالنسبة للإمام فقد كان يقرأ كثيراً بين الحين والحين. ولم أرَ في حياتي مَن قرأ كتباً عربيّة وأجنبيّة مثله ولا أقصد الكمّ أبداً مع أنه كان يقرأ كثيراً بل لقد ثقّفني بحديثه عن قراءاته أكثر بكثير من قراءاتي الكثيرة، فهو كان

يمتلك الفحوى بشكل مختصر وبسهولة غريبة، والأغرب اصطياده للنقاط التي لربّما كان الكاتب نفسه لا يرى ما بها بشكلٍ كامل كما يفتحها المعلّم، ثمّ حديثه عمّا جاء في القرآن فأنت تشعر كأنّك ما قرأت القرآن قبل أن تسمع حديثه عنه.

اضطرّ ساجي إلى التضحية بدراسته بعد إعدام والده ورجوعه من النفي سنة ١٩٤٧ كي يرعى شؤون العائلة، الأرزاق والعناية بالصغار والنساء. لأنّ اثنين من إخوته الكبار كانا في السجن وهما محمّد المرشد الملقّب بفاتح وسميع المرشد واثنان كانا في بيروت يتابعان دراستهما وكان بحقّهما قرار نفي من حكومة شكري القوتلي فما كانا يستطيعان المجيء إلى سورية وهما مجيب وأمير وهكذا أسندت إليه أمور العائلة كلّها وإدارة الأعمال وهو ابن ستّة عشر عاماً. واضطرّ أن يضحّي بها ثانيةً بعد اغتيال مجيب وكان ينوي قبلها أن يكمل دراسته في بريطانيا. ولكنّه رأى أن ينهض بالمرشديّين ويتمّ ما بدأه مجيب ويضع رسالة مجيب في عقل الإنسان وهي من العقل تدخل إلى القلب أي إلى سرور الإنسان وميله وهو بهذا العمل يكون قد وضع البذرة التي تتكاثر لنفسها رويداً رويداً وتقتل ما يعترضها من أشواك.

تعريف المرشدية

رأيت أن أختتم هذا الكتاب بكلمات للمعلّم اخترتها من تعليمه في مدرسته التي بقيت من سنة ١٩٨٠ وحتى سنة ١٩٨٩ واستمرّ التعليم بعد ذلك في صور اجتماع نوادٍ عنده ورسائل يرسلها بين الحين والآخر. واخترت تعريف المرشديّة وبعض الكلمات التي رأيتها تتناسب مع هذا التعريف وإليك التعريف أوّلاً :

«قطعاً لكلّ تلبّكٍ بالأذهان ولكلّ مقولةٍ مخطئةٍ نضع هذا التعريف :

المرشديّة دينٌ[١] وليست حزباً سياسياً. هي منهجٌ أخلاقي طاهر بقصد اكتساب رحمة اللّه ومواصلة عزّته، وليست نظاماً اجتماعياً معيّناً ولا برنامجاً اقتصادياً. هذا المنهج الأخلاقي والمسلك النفساني والمنطلق العقلي متأتٍ عن وجدانيّةٍ مقتبسةٍ من منجاة اللّه، فالمرشديّة فعل منجاة وتعظيم للارتفاع إلى الحياة، وليست سوى ذلك. فهي تُعنى أي تعتني بطهارة السريرة لا بقوانين الإدارة. وهي تبارك كلّ ما من شأنه تهيئة إكمال الفرد وإبراز جمال المجموع، وترفض كلّ ما من شأنه إعاقة كمال الفرد وتشويه جمال المجموع. يهمّها أن يكون الفرد إنساناً عزيزاً يتمتّع باستضاءةٍ فكريّةٍ وطهارةٍ قلبيّة، أن يصل ويكمل الفرد بالأصالة الإنسانيّة الفاضلة. ومن هذه الأصالة أن ينطلق إلى الأصالات العليا. والأصالة تتمثّل في خمسة أشياء :

- ضميرٌ طاهرٌ مُستجلى من الإيمان باللّه والانسجام مع صفاته القدسيّة.
- فكرٌ وامض من التماسّ مع الحقيقة.
- قلبٌ نابض بالطموح إلى الكمال الروحي وإرادة الحياة.
- قدمٌ ثابتُ الصفّ مع قضايا الحقّ.
- ويدٌ ممدودةٌ بالخير للناس أجمعين».

---

(١) كلّ ما بها يتحدث عن الدين فقط.

كلمات لمعلّم المرشديّة ساجي المرشد

ـ «نحن نعلم أنّ كلمة (بسم اللّه الرحمن الرحيم) هي العنوان العظيم للرسالة العظيمة التي أملاها اللّه على محمّد. ونعلم ممّا ورد في الرسالة التي أُمليت على محمّد أنّ هذه الكلمة (بسم اللّه الرحمن الرحيم) كانت هي وجهة وجوهر كلّ رسالةٍ أُمليت على رسولٍ قبل محمّد.

هذا العنوان العظيم أنبأنا أنّ الخالق رحمان رحيم. فيا مخلوق : خالقك رحيم، فاملِ على قلبك الرحمة وتعامل بها ـ أي بشعور الرحمة ـ مع نفسك، مع أولادك إن كان لك أولاد، مع أقربائك، مع القريب والغريب. لتكن الرحمة بقلبك عن شعور، فالقلب المحتوي على شعور الرحمة هو قلب به حِسٌّ من صفات اللّه».

ـ «لو لم يكن اللّه ودوداً. لَما بكى أحد على أحد ولا توجّع على فَقْد قريبٍ أو صديقٍ (لَما انوجد في الخليقة متوجّع أو متفجّع على غير نفسه، ولَما خُلِقت عاطفة الحنان).

لو لم يكن اللّه رحماناً رحيماً، وسرّ الرحمن الرحيم، لَما رحمت أمّ ابنها، ولا أب ابنه، ولَخلَت عاطفة الأمومة ـ إن وُجِدت ـ من أيّ رحمةٍ، ولَخلَت الحياة والأحياء من عاطفة الرأفة والشفقة.

لو لم يكن اللّه الحقّ. لَما شعر كائن حيّ بحقّ العامل بمكافأته، ولا بضرورة الحقّ في معاقبة المجرم على جريمته، ولَخلَت حياتنا من كلمة (حقوق).

لو لم يكن اللّه أملاً. لَما تطوّر ولا ترقّى كائنٌ حيٌّ ولا تطلّب الكمال والخلود.

لو لم يكن اللّه قدّوساً، وسرّ النار القدسيّة[1] لَما أرسل رسولاً إلى بشر، ولا تطهّر حيّ، ولا كان شيء اسمه الطهر».

ـ «لا تحدّ المطلق بحدّ، مهما عرفت عن اللّه يبقى ما غاب عنك أكثر ممّا عرفت».

ومن كلماته عن كيفيّة النظرة إلى الأديان :

«١ ـ لا تشنّئوا على أحد دينه. ولا تتهكّموا بدين أحدٍ، ولا بطريقة تديّنه وإن لم

---

(١) أفهمها الحبّ الإلهي الذي يسكن في قلوب عباده الأطهار هو نار قدسيّة.

تعجبكم، لأنّه وإن كانت الأديان درجات أعلى من بعضها البعض بمعرفة اللّه وأكمل بالنِّعَم، إلّا أنّه ما من دينٍ يخلو من صوابٍ ونورٍ من اللّه. أمّا طريقة الإنسان بالتديّن فهذا شيءٌ عائدٌ للّه وحده، له أن يقبل ويرفض.

ليس من أحدٍ ديّاناً إلّا اللّه. كن أتقى وأعقل من أن تنحل لنفسك صفة الديّان، واستنكِرْ فعل مَن ينحل لنفسه هذا الحقّ مكفِّراً هذا، ومجيزاً ذاك، حسب أهوائه بدون بيّنةٍ من اللّه أو حجّةٍ من الفضيلة.

٢ ـ احترموا مشاعر الناس الدينيّة، ولا تؤذوها.

٣ ـ ترفّعوا عن المسبّة والشتائم حتى على مستحقّيها، لا من العصور الماضية ولا من العصر الحالي. المسيء والمبطل من العصور الماضية ذهب إلى حسابه عند ربّه، والمسيء والمبطل في هذا العصر سيذهب ويلاقي جزاءه».

استنكرْ الفعل السيّئ، أدِنْ الفاعل، قل عنه : مسيءٌ، ولكن ترفّع عن المسبّة. لم أقل لكم : لا تسبّوا لأنّ المسبّة حرام، بل أريدكم أن تترفّعوا. واذكروا نصيحة مجيب : لا تلهجوا بلعن أحد، فعليكم الدعاء وعلى اللّه القصاص».

ـ «إذا أراد أحد أن يجادلك بمعتقدك ولم تكن تريد، فقل له : نحن نقول الأديان كلّها رجاء باللّه، وليست زنّاراً يحيط به أو يداً تمسكه، فالمهمّ أن نتفق على رجاء رحمة اللّه. أنا أتمنّى أن يرحم اللّه كلّ الناس، يثبّت المحقّ ويهدي المبطل إلى التوبة للحقّ. فإذا كانت نظرتك ورجاؤك مثل نظرتي ورجائي فنحن متّفقون، وإن لم تكن مثلها فالجدل عبث. لأنّ الدين من نعمة الخالق على المخلوق فهو يقين وحكمة، وليس نظرةً فلسفيّةً».

ومن أقواله حول الدين :

ـ «الدين ليستلهم الإنسان منه أفعال الحقّ والخير والصفاء، لا ليكون لبوساً أو ذرائع لخدمة مصالح دنيويّة».

ـ «الدين هو لإذكاء إرادة الحياة وإقامة الإنسان الفاعل، لا لتعطيل الإرادة وتكبيل النفس بقيود الاتّكاليّة المبرّرة تخاذُلَها بإسناد كلّ أحداث عالمها صغائرها وكبائرها إلى قوى سماويّة متدخّلة في عالم الإنسان».

ـ «كلّ أمّة زيّن لهم الضعف أنّ اللّه لهم وحدهم دون سواهم». وأضاف عليها بمعنى أنّ اللّه ليس من أي دين بل الدين له فمَن اقتبس من ضيائه عزّ، ومَنْ لم يقتبس ـ من أيّ مِلّةٍ كان ـ فاته نعم اللّه.

- «ليس لأصحاب فكرٍ معيّنٍ أو عقيدةٍ معيّنةٍ أن يفرضوا سيطرتهم على الناس بحجّة تطبيق هذه الأفكار أو المبادئ، فإذا كانت مبادئهم صحيحةً قويمةً فليقوموا بها إذا أرادوا تطبيقها قدوةً لمِن أراد وإلاّ فهُم الطغاة الظالمون».

- «الإيمان والوعي : مشكلة كلّ أصحاب دينٍ أنهم لا يعون ما هم مؤمنون به، ولو وعوا لَما تنازعوا أو لَما كفّروا بعضهم بعضاً».

- «اللّه ليس محصوراً بدينٍ وليس من دينٍ اتّسع لكلّ المعرفة».

- «كم من ملّةٍ أو طائفةٍ أمّلَت من اللّه أن يُحكّمهم بالناس، وهذا أملٌ شرّير. وكان الأفضل لو أنهم أمّلوا من اللّه أن يجعلهم قدوة وهُدى للناس».

- «الدين لا اسم له، تسمية الدين بأسماء هي السبب بعدم التجرّد والانحراف عنه إلى التسمية».

- «ما مِن دينٍ أُنزل من اللّه إلّا وكان ديناً كاملاً».

- «كلّ دينٍ هو نورٌ كامل أو نورٌ تامّ لأنّه كامل بمعرفة اللّه وإن كانت المعرفة غير كاملةٍ به. فالقول الحقّ أن يقول : هذا من معرفة اللّه وليس كلّ المعرفة، درجة علمٍ عن رفيع الدرجات».

- «ضعف النفوس وعدم تفهّم الدين هو الذي جعل منه علّة التفرقة».

- «روح كلّ ما في دين كلمتان : اللّه والإنسان. اللّه للأمل، والإنسان للعمل. فعلامَ يا أصحاب الأديان تختلفون ؟!».

- «الدين جاء ليوسّع النفوس لا ليضيّقها، ليهذّب أطباعها ويلطّفها، ليروّضها بالعفّة والصفاء ويقوّمها، لا ليزيد مِن وحشيّتها ويثير نار شراستها. جاء لتتنسّم الأفكارُ رياحَ الحكمة الإلٰهيّة وتقتبسها، لا ليحجّر الأفكار ويلغي مفعولها، ليعطيها منطلقات صحّةٍ ونفاذ بصيرةٍ ويهديها. ليعزّز الضمائر بالإيمان والحقّ ويقوّيها، لا ليحجزها عن التحرّك بطوايا النفوس ويخويها. جاء ليعطيك قضيباً أخضرَ ليّناً ترعى به نفسك بالعدل والاستقامة، لا سيفاً فتّاكاً تسلّط به على غيرك جوراً وطغياناً».

- «أعمت العصبيّة المتعصّب وأزلقته بالأخطاء، إلّا مَنْ كانت عصبيّته للحقّ أوّلاً، فأصبح تعصّبه لقومه عصبيّةً منفتحةً قادرةً على إدانة كلّ نقطةٍ سوداء بنفسه وقومه فيسعى

لإزالتها. ويبارك النقاط البيض ويعمل على تثبيتها وإكمالها. كذلك يجعله تعصبه للحقّ أوّلاً قادراً على إدانة ما بأخصامه من نقاطٍ سود، فيعمل على تجنّب قومه لها، والإقرار بما لدى أخصامه من نقاطٍ بيض، فيعمل على أخذ قومه بها».

المرشديّة والعالم :

يقول المعلّم : «من حقّنا حمل قضيب الخير لا سيف الشرّ، أن نكون نافعين لا ضارّين، منفتحين مرحّبين بالمنفتح».

ـ «أتمنّى أن يكون وجودكم خيراً بالناس، ولو لم يدرك الناس الخير من وجودكم (تُقال بالصيغة الإفراديّة كوجدان)».

ـ «عزّة الطائفة المرشديّة ليست في أن يتقلّد أفرادها مناصب. عزّنا الصحيح في الثقافة الروحيّة الواسعة، والفكر المستنير الراقي».

ـ «نحن كمرشديّين لا نريد الحكم ولا السلطة ولا نسعى إليهما».

ـ «لا يعزّنا أن نحكم الناس ولا يمجّدنا التسلّط على الناس، ولكن نتمنّى أن يكون كلّ الناس من أهل الخير مثلنا».

ـ «اجهر نفسك أي لا تنكر مرشديّتك. بل اعتزّ بها أمام القريب والغريب. وأكمل إذا كان جهرك بنفسك أخلاقيّاً كما هو لسانيّاً».

وممّا أوصانا به :

ـ «تعوّدوا بكلّ أمر دنيا أو آخرة أن يقف واحدكم عند حدود بَصَرِهِ وعلمه، وبعد ذلك قل : أنا لا أعرف غير ذلك».

ـ «لا تربط بين تديّنك ولباسك، ما تلبس وما لا تلبس، فليس هنالك لباس دينيّ ولباس غير دينيّ، ولا تربط بين تديّنك وما يصيب جسدك من أحوالٍ صحيّةٍ، ولا بين تديّنك وأحوال معيشتك».

ـ «لا تُبرِّر تصرّفاً دنيويّاً محضاً باذّعائك الدين».

ـ «لا تستغلّ الدين للدنيا».

ـ «إذا أراد أحد الإخوان[1] ممارسة عملٍ ما، سواء عمل سياسي أو تجاري أو صناعي

(١) أي أحد المرشديين لأنه يخاطبهم في هذا الكلام.

أو وظيفي أو غير ذلك، فليمارسه بأخلاقيّةٍ صادرةٍ عن قوّة الضمير ونزاهته، ويصرّ على ذلك. أمّا إذا قال لي : إنّ مصلحة عمله تقتضيه أن يخرج عن هذه الأخلاقيّة، فأقول له : ضحّ بعملك ولا تضحّ بقوّة ضميرك ونزاهته».

ـ «دع قوّة رأيك تفرض نفسها، لا قوّة يدك.

افرض رأيك بقوّة رأيك، ولا تفرضه بقوّة يدك.

فرض الرأي بقوّة اليد علاوةً على أنّه استبداد هو استخفاف بالرأي نفسه».

ـ «نحن نؤلّه للّه ونحبّ مَن نُريد».

ـ «عزّتنا ليست بالتكَبُّر على الناس ولا بالبطش ولا بالظلم، العزّة لا تكون بالظلم بل بالعدل».

ـ «تعوّد الإخوان أثناء أيّ مناقشة لنا مع الآخَرين، سواء دينيّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة على استعمال (نحن) ممّا يعطي انطباعاً للمستمع أنّ الرأي الذي يسمعه هو رأي المرشديّين عامّة. لذلك على المتحدّث استعمال كلمة (أنا) وأن يوضّح أنّ الرأي المنقول هو رأيه ولا يعبّر عن رأي الجماعة».

ـ «ليس المهمّ ما يقول الناس عنّا، ولا ما نقول عن أنفسنا، بل المهمّ ما تقول آمالنا للّه وتقول رحمة اللّه عنّا».

من كلماته عن كيف يريدنا أن نتعامل معه :

ـ «لا يهمّني أن تقدّسوني. أريدكم أن تفهموني وتستمعوا لي ثمّ يعمل واحدكم بقناعته».

ـ «لا تتذلّل أمامي فإنّ ذلك يسوؤني ويهينني».

عن دور الفرد في المرشديّة يقول المعلّم :

ـ «لسنا حزباً سياسيّاً ولا منظّمةً اجتماعيّةً. نحن طائفة دينيّة ولكن ليس لدينا سلك مشايخ أو كهنة، ولا نمارس التبشير. فالدور الوحيد المتبقّي لكلّ أخٍ مرشديّ، هو أن يستير بدينه، ويكون عوناً قدر إمكانه لمن يسأل من إخوانه».

عن العمل السياسي قال لنا :

ـ «بالنسبة للقرار السياسي أي العمل السياسي فالأمر متروك للقناعة الفرديّة. أي لكلّ مرشديّ أن يكون قراره من رأسه لا أمراً. ولكن كنصيحة : إيّاك أن يخرجك عملك السياسي عن ضميرك».

من تقدير المعلّم للفضيلة :

ـ «نؤمن بالله، ونؤمن بالفضيلة الطريق الوحيد إليه».

ـ «الفضيلة لا تتحقق للإنسان إلّا من خلال عمله مع الآخرين».

ـ «الفضيلة هي الهدف الوحيد على هذه الأرض الذي يتأهل أن يعطيه الإنسان كلّ عمره ليحققه بنفسه».

المرشدية لا تقول أنّ الغاية تبرّر الوسيلة فالمعلّم يقول :

ـ «نحن كمرشديّين نعتبر أنّ اللجوء إلى الخبث ضعف، وليس ذكاء».

ـ «اللجوء إلى أساليب وضيعةٍ بقصد اكتساب مغنم معيّن لا يدلّ على ذكاءٍ أو مهارةٍ، إنّما هو دليلٌ على نفسٍ وضيعةٍ صاحبها غير أهلٍ للحياة».

ـ «الأساليب الوضيعة لا تُبرِّر إطلاقاً».

ـ «ليس من وضعٍ يبرّر اللجوء إلى الأساليب الوضيعة».

ـ «حتّى أنّ اللجوء إلى الأساليب الوضيعة بقصد التخلّص من أمرٍ مخيف، أو التملّص من ضيقٍ مقيتٍ، لا يعدو كونه فراراً من تنّينٍ أصغر والوقوع في فكّ تنّينٍ أكبر».

كيف يخدم المرشديّ قضيّته؟ :

ـ «كلّ مرشديّ رجلاً كان أو امرأة، بمحيطه، بدائرة عمله، يبرز بأخلاقيّة صدق المعاملة وطيبة القلب، إنسانٌ خدم القضيّة. وتقدُّم الصفّ مَن استطاع البروز على ذلك بمستوىً فكريٍّ راقٍ والعكس العكس».

المرشديّة تقول الإيمان بالله سرّ صلاح الحياة:

ـ «لا يمكن لطريقة حياةٍ أن تكون صالحةً إلّا إذا ارتكزت على الإيمان بالخالق، وانطلقت بقبسٍ من صفاته الحسنى».

المرشديّة تقول المؤمن لا يعادي الكافر لمجرّد أنّه كافر :

يقول المعلّم : «الكافر ليس بالضرورة ضدّ المؤمن، قد يكون صديقه أو عدوّه تبعاً للمصالح الدنيويّة فقط. الكافر ضدّ نفسه».

وعن الفخر بالعددية يقول المعلّم :

- «بئسَ أمّة تُحصى بعدد أفرادها، وليس بعدد أعمالها».
- «وبئس الإنسان الفرد الذي تُحصى حياته كلّها بعدد أيّامه، وليس بعدد أعماله».

من كلمات المعلّم عن مواجهة العالم بالحقّ (مرشديّون أو غيرهم) :

- «كُنْ فريقاً مع الحقّ ولا تقف متعاطفاً معه فقط».
- «نحن لسنا متّهمين بديننا، نحن عندنا الصحّة. فلا تتقبّل اتهاماً من أحد».
- «الضمير الذي لا يصادم بعزّته يستمرّ ضميراً ضعيفاً».
- «أريدك ناهضاً لا مُنهَضاً».

المرشديّة لا تضع مرشدياً خيراً من غيره إلّا بعمل الخير :

أعطى المعلّم أمثلةً تبيّن هذه الحقيقة، أي أنّ حقيقة كونك مرشدياً لا تبرّر لك الرذيلة، بل تدعوك إلى الفضيلة.

أمّا المثل الذي أعطاه المعلّم والذي أراه يتّفق مع هذا الأمر فهو بمعنى :

ذهبتَ أنت ورجلٌ من الآخَرين تتاجران، اشتريتما بضاعةً من أناسٍ بالدَّين، وجاء ميعاد وفاء الدَين. أنت ماطلت صاحب الدَين، وأخيراً لم تُعطِهِ إلّا شيئاً من حقّه، أي لم تَفِهِ حقّه كاملاً. أمّا الذي ليس من المرشديّين فقد وفاه حقّه بشكلٍ كاملٍ وفي ميعاده لأنّه يعلم أنّ اللّه يأمر بالصدق وبالأمانة. فمَنْ هو الأقرب منكما إلى اللّه في هذا العمل؟. هو أقرب منك في عمله هذا.

وأعطى المعلّم مثلاً آخر حول نفس الموضوع :

كنتَ تقف على الطريق وبجانبك رجلٌ غير مرشدي، وأنتما بانتظار أن تقلّكما سيّارة. مرّت سيّارة، أومأتما لها، توقّف السائق وأقلّكما معه وأبى أن يأخذ منكما أجرة. وقع حادثٌ على الطريق، لحقت بكما بعض الجروح. وهنا يبيح لكما القانون أن تدّعيا على السائق، لأنّه سبّب لكما الجروح. أنت تقدّمتَ بدعوى عليه كي يعوّضك عمّا تسبّب لك من أضرار، على الرغم أنّه عمل لك معروفاً ولم يقصد إلحاق الأذى بك. أمّا الثاني الذي ليس من المرشديّين، فقد جاءوا يخبرونه أنّ القانون يجيز له أن يأخذ تعويضاً من السائق. أجاب الرجل : وإن كان القانون يمكّنني من أخذ تعويضٍ منه، فأنا لا

أريد أن آخذ منه شيئاً. فإن فعلت فإنّ فعلي باطلٌ، لأنّه قدّم لي معروفاً، فهل أقدّم له سيّئة بدل المعروف؟

هنا، مَنْ من الاثنين هو أرضى إلى اللّه؟ هنا، غير المرشدي هو الأرضى، لأنّه ائتمر بإمرة الخالق أكثر من المرشدي، لأنّ الأخير مقتنعٌ بما قالته الحكمة الإلٰهيّة في رسائل الإله عن هذا الأمر، والمرشدي غير مقتنع.

ختام

استلم قضيّة شعب فأعطاها حياته كلّها متناسياً نفسه، فهو لم يسعَ ليبني دنيا له، أو ليستغلّ هذه الزعامة الروحيّة في أيّ عمل له به مصلحةٌ شخصيّة.

وقد استطاع هذا الإنسان توحيد الشعور بالكرامة في جميع متبعيه بين غنيٍّ وفقير وقويٍّ وضعيف، فلكلّ فرد في المجتمع كرامته. ومن أشعار المعلّم التي أصبحت أمراً مفعولاً في المرشديّة هذان البيتان في اللّغة المحكيّة:

نحنا اللّي حقّقنا مساواة البشر	لكلّ واحد حقّهُ بلا صِفَرْ
فقيرنا متل الغني وضعيفنا	متل القوي إلُهْ كرامي ومعتبَرْ

وأخيراً أختتم هذا الكتاب بهذه الأبيات والتي لا أجدها تعني سواه يصِفُ بها فعله في المرشديّين:

وَفْقَ هُدى الرحمانْ	بقيامةِ الفعلِ
سارَ بنا إنسانْ	لغايةِ الفَضْلِ
في قدوةِ الإيمانْ	والطُّهرِ والنُّبْلِ
فحياتُنا جَرَيانْ	في ماجدِ الأصْلِ
وحقائقِ العِرفانْ	وروائعِ المُثُلِ
بضمائرٍ ميزانْ	أقوى مِنَ العَقْلِ
ومشاعرٍ حُسّانْ	أصحابُها تُعلي

الفهرس

لمحات حول المرشدية

سيجد القارئ في هذا الكتاب، كما آملُ، بعضَ بريق الحقيقة، فيعلم كم كذب أناسٌ وافتروا على المرشديّة من جهة ويعلم شيئاً صحيحاً عن المرشديّة من جهة ثانية. وأنا إذ أضع هذا الكتاب بين أيدي من يريد أن يعرف شيئاً عن حقيقة المرشديّين لا أتوخّى من وراء ذلك الدعوة إلى المرشديّة أو تبليغها إلى العالم، بل جلّ ما أتوخّاه أن أعطي صورةً حقيقيةً ولو مصغّرةً عن الهويّة المرشديّة، خاصّةً وقد بات من حقّ الذين سألوا المرشديّين عن حركتهم أن يعلموا شيئاً عنها. وقبل هذه الأيّام لم يسألنا أحدٌ عن حقيقتنا. بل كانوا يسألون مَن وقفوا موقفاً سلبيّاً من المرشديّة فيزيدهم هؤلاء عمىً عنها.

نبذة عن الكاتب:

ولد نور المضيء مرشد سنة ١٩٤٤ في مزرعة حارة الزيارة في الغاب، أبوه سلمان وأمه هلاله وهو أصغر أولادها نفي بعد مقتلهما إلى دير الزور وهو طفل ابن سنتين. سجن في سجن القلعة مع أخوته وهو ابن سبعة عشر عاماً، وبعدها انتقل معهم إلى سجن المزة العسكري، بقي تحت الإقامة الجبرية عملياً حتى سنة ١٩٧٠، وبسبب الملاحقات التعسفية التي تعرّض لها أولاد سلمان المرشد في كل العهود اضطرّ أن يكمل دراسته لنفسه سواء عندما كان طفلاً أو شاباً بمعونة أساتذة سوريين ثم لبنانيين، ثم بعد ذلك بمراسلات دراسيّة مع جامعات غربية. قام بأعمال بناء من شتّى الأصناف معامل ودور ثقافة ودور معلمين في معظم نواحي البلاد.

وقد وجّه كاتب أميركي هذا السؤال لإمام المرشديّة ساجي عن نور المضيء: ما هي المكانة التي يحتلّها أخوك نور المضيء في الحركة؟

- أجاب الإمام: " أخي نور المضيء هو رجل أعمال. أمّا مركزه في الحركة، فهو مركز أخ محترم معترفٌ له بحسن الرأي ".